



جامعة دمشق

كلية الشريعة

قسم علوم القرآن والسنة

شعبة الحديث وعلومه

الكناية في الحديث النبوي وأثرها في الاستنباط

دراسة تأصيلية تطبيقية

أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في الحديث النبوي وعلومه

إعداد:

مصعب حمود

إشراف:

الأستاذ الدكتور نور الدين عتر

والدكتور محمد هيثم غرة مشرفاً مشاركاً

دعوه المصنف الى اجراء الباحث قلبه الشواهد والامثلة من الكتب التي هي في الحقيقة العنصر واللب

على هذا السؤال ، وهذه كنهه احتياط الصحيح بالتطبيق ، والتمسك بالبرهان ، بالتحقق والاعتناء بالبرهان

ذلك حقيقة فهو ، قد ذكره بقدر ما يحتاجها الى وضع العلوم في الاقسام التي هي في الحقيقة ، هي ما هي في الحقيقة

قد ذكره في كتابه القوم حقه علميا دقيقا ، انما كان باستقرار الكتب التي هي في الحقيقة ، في الحقيقة

و جميع ما يتكون من تلك الكتب ، فيعلم ان هذه الكتب هي في الحقيقة ، في الحقيقة ، في الحقيقة

و تعتبر الكتب فقط هي في الحقيقة ، في الحقيقة ، في الحقيقة ، في الحقيقة ، في الحقيقة

و يمتاز عمل المؤلف في هذه الاطروحة بالتطبيق التفسيري ، في الحقيقة ، في الحقيقة

وجه كل كتاب في هذه الاطروحة بالتطبيق التفسيري ، في الحقيقة ، في الحقيقة

أخيرا الى آخر ما في الكتاب ، وقد بينت طريقة النظام ، في الحقيقة ، في الحقيقة

الواحدة في هذه الاطروحة ، وهو بذلك يقف على ان الامم التجارية ، في الحقيقة ، في الحقيقة

الطريقة في استنباط القوانين ، في الحقيقة ، في الحقيقة ، في الحقيقة ، في الحقيقة

و تنطبق النتائج على العالم في هذه الاطروحة بجملة ، في الحقيقة ، في الحقيقة

النتائج التي يبرز في الفصل الاول ، حيث بدأنا بجملة مشكورة في دراسة العلوم ، في الحقيقة ، في الحقيقة

لنصوص الكتاب ، وفي الفصل الثاني الصورة الفنية الكتابية النبوية التي هي في الحقيقة ، في الحقيقة

والقني ، ولم يأت له فيه أي تفصيل فلا شأنه أن يحلو المسألة ...

و يستحق عليك مقامه يا محجوب النفس الخبيثة الخراف الكثر في النبوة ، لا
جزء المنهج النفسي متألقاً في هذه الواسع لتخلف الكثرة ، إذا بلغت كثر عشرين
لوعاً ، صفها في أربعة مجرعات : رتبة بيئية و رتبة نفسية و رتبة فسيولوجية ،
و كل تصور الالهة هي مرتبة بالوقت كالصالح الجاد فينا ، و الالهة في مجرعات

و مما تمتاز به هذه المرحلة أنها بالوثنية العليا التي تفرغ من صلاتها و تفرغ من صلاتها
صلاة مع كصور ضمنية ، و هناك المرحلة للدين التي تكون سنة 1789 و ما يليه في
العصور حتى وقتنا هذا ، و هناك علوم و فنون كثيرة ، تمثلها البحوث و استقرت على
التيب الخط الرفيع ، و ذلك لأن الدكتور مصعباً ، في هذه المصاحف على العلم ، و
لقد أتت في الالهة على وجهه العلم العظيم ، و لتتبع ثقافته و اطلاعته ،
و إذا كان الدكتور يوصي بمناقبه الجيدة في هذه المجلد العلم ، فإني أوصي أن يبعد هذا

المشروع له في حياته ، فإنه ليس من السهل تدوير الاستعداد الذي لديه الالهة الكثر مصعباً ،
و أن تلك المرحلة لا يفضله ، و بهذه أو القصور العظيم

و كنية

فرد السبي ع

وهذه الكلمة بخط الحاسوب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وآله وصحبه
وتابعيهم بإحسان آمين.
أما بعد:

فقد خص الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بجوامع الكلم، وبدائع الحكم، وآتاه
منزلة رفيعة من البيان عز نظيرها بين الأنعام، لكن ساحة الدراسة البلاغية والأدبية الفنية لهذه
البلاغة النادرة في بني الإنسان ما زالت خالية، والمكتبة البلاغية ما تزال في إعواز لدراسة
كلمه البديع صلى الله عليه وسلم دراسة بلاغية وأدبية متخصصة في ميدان علوم البلاغة،
مراعية خصوصية البيان النبوي الدينية والتشريعية مع التعمق في تحليل فن البلاغة فيها، وذلك
مأرب جليل قل من تأهل له من الباحثين فضلاً عما شئّر له ساعد الجد من المحققين فيه.
وقد هيا الله تعالى لهذه المهمة الجلى أخانا الفاضل الأديب الشاعر مصعب رضا حمود،
فقد اجتمعت لديه المقدرة العلمية في علوم الشريعة بتخرجه المتفوق من كلية الشريعة بدمشق
والموهبة الأدبية والبلاغية ، فضلاً عن التذوق الجمالي الأدبي الفني بموهبته الشاعرية حتى غدا
القريض لديه سجية مع أنفاسه الطيبة.

على أن باحثنا الدكتور مصعب لم يجر مع موهبته الأدبية على عواهنها كما وقع للرافعي
رحمه الله، بل أخضع كل ما خطه يراعه للمنهج العلمي الشرعي واللغوي والأدبي، وقد تخطى
في هذا السبيل عقبات كؤودا.

كان أولها ومن أهمها اختلاط الكناية بالمجاز، فقام الباحث بدراسة مستفيضة تاريخية
تطبيقية حقق فيها القول الفصل بين الكناية والمجاز في الفصل الأول في مباحثه الأربعة التي
كان ختامها التعريف المختار للكناية ثم علاقة الكناية بسائر فنون البلاغة وهو بحث لطيف
ودقيق فصل فيه الكناية عما قد تشبه به من فنون البلاغة ببحث تطبيقي دقيق.

ومن الصعوبات التي اجتازها الباحث قلة الشواهد والأمثلة من الحديث النبوي في كتب
البلاغة القديمة والحديثة على حد سواء، فضلاً عن اختلاط الصحيح بالضعيف، وعدم
التمييز بين ما روي باللفظ وما روي بالمعنى !

وتلك عقبة كؤود قل من يقدر على تجاوزها إلا من جمع التعمق في الاختصاص في الحديث والبلاغة مثل باحثنا في هذه الأطروحة.

وقد خط لهذا الغرض خطة علمية دقيقة ، إذ قام باستقراء للكتب الستة وما احتاجه من غيرها، وجمع ما فيها من شواهد للكنايه فبلغ جملة ذلك خمسمئة حديث واصطفى منها مئة جعلها موضوع الدراسة تحاشياً لضخامة العمل، وتخيّر الأقرب للفظ الحديث الأصلي عبر دراسة التخريج ومقارنة روايات الحديث، لكونه الأصح ثبوتاً. وإنه أهل لذلك بتأسيس تكوينه العلمي.

ويمتاز عمل الدكتور مصعب في هذه الأطروحة بالتطبيق التفصيلي فهو يبين وجه كل كناية نبوية بلازمها وملزومها ويكشف عناصر الجمال الفني فيها، ويبين أغراضها إلى آخر ما هنالك ، وقد أحوج ذلك لتكرار الحديث لأنه استعمل الكناية الواحدة في أكثر من غرض وهو بذلك يقفوا أثر الإمام البخاري الذي تميز صحيحه بهذه الطريقة في استنباط الفوائد والأحكام.

وتتضح دقة المنهج العلمي في هذه الأطروحة بجلاء بحسب كل فصل فهناك المنهج التاريخي يبرز في الفصل الأول حيث بذل جهداً مشكوراً في دراسة التطور التاريخي لمفهوم الكناية، وفي الفصل الثاني الصورة الفنية للكناية النبوية اتبع المنهج النفسي والفني، ولم يأل جهداً في تفصيل كل ما من شأنه أن يجلو الصورة.

ويستوقفك متأملاً بإعجاب الفصل الخامس أغراض الكناية النبوية إذ برز المنهج النفسي متألقاً في الإحصاء الواسع لأغراض الكناية النبوية، إذ بلغت نحو عشرين نوعاً، صنفها في أربع مجموعات: تهييبية وترغيبية وترهيبية وفنية.

وكل فصول الدراسة جديرة بالتوقف على معاني الجمال فيها والإبداع في بحوثها. ومما تمتاز به هذه الأطروحة غناها بالتوثيق العلمي الدقيق وتنوع مصادرها البالغة خمسمئة، فهناك مصادر من عصور متعددة، مثل الموطأ للإمام مالك بن أنس المتوفى سنة 179هـ، وما يليه من العصور حتى وقتنا هذا، وهناك علوم وفنون كثيرة تمثلها الباحث واستخرج منها هذا البحث النفيس، وودت لو أن الدكتور مصعباً ثبت فهرس المصادر على العلوم إذ لكان أقوى في الدلالة على جهده العلمي الضخم وتنوع ثقافته واطلاعاته.

وإذا كان الدكتور يوصي بمتابعة الجهود في هذا المجال العلمي، فإني أوصيه أن يعد هذا المشروع هدف حياته فإنه ليس من السهل توفر الاستعداد الذي وهبه الله الدكتور مصعباً، وإن كنا شديدي الأمل بفضل الله، والله ذو الفضل العظيم.

وكتبه

نور الدين عتر



جامعة دمشق

كلية الشريعة

قسم علوم القرآن والسنة

شعبة الحديث وعلومه

الكناية في الحديث النبوي وأثرها في الاستنباط

دراسة تأصيلية تطبيقية

أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في الحديث النبوي وعلومه

إعداد:

مصعب حمود

إشراف:

الأستاذ الدكتور نور الدين عتر

والدكتور محمد هيثم غرة مشرفاً مشاركاً

الإهداء

- إلى سيدي الوالد الشيخ الأديب رضا حمود، وأنا
إذ أهديه عملي هذا فإنما أُهدي به كليتي ، كلية
الشريعة التي تخرّج بها قبل خمسين سنة .

- وإلى والد زوجتي الكريمة الذي كان لي عوناً
وسنداً ومثالاً للجدّ والاجتهاد والمثابرة والمصابرة السيد
الفاضل أبو أنس كراكر .

شكر وتقدير

- أتوجه بجزيل الشكر إلى فضيلة أستاذنا الدكتور نور الدين عتر لقبوله الإشراف على هذه الأطروحة، ومن قبل ما مهّد لنا الطريق وأخذ بيدنا فيه ثمّ لم يزل مرجعنا والركنَ الشديد الذي نأوي إليه .

- وإلى أستاذي الدكتور محمد هيثم غرة مدرّس البلاغة في كلية الآداب الذي شارك في الإشراف على البحث ولقيت منه كلّ الحفاوة والأنس .

- ثم إلى الإخوة الأفاضل الذين ما ضنّوا عليّ بالمال والجهد في أثناء إعداد البحث ذاكرًا منهم أخي أحمد وصديقي محمد حسني عيسى الذي أطلق يدي في مكتبته النفيسة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الأمين ، المبعوث
رحمة للعالمين، أفصح العرب وسيد البلغاء، أعز الله الأمة به، وشرفها بحديثه، حتى إن الشريف
من تشرف بنسبة إليه، أما بعد:

فإن الحديث النبوي الشريف يتميز بسهولة الألفاظ، وإلفها، والأنس بها في كل عصر،
والعفوية والبداهة التي تنتج بالطبيعة ملائمة الألفاظ والتراكيب للمعنى والغرض الذي سيق
لأجله الكلام، فهو الحكمة المتكاملة والسمو في اللغة والبيان.

وقد أسهمت في مرحلة الماجستير في مشروع "إكمال المفهم شرح صحيح مسلم" الذي
تبناه قسم علوم القرآن والسنة في كلية الشريعة الغراء في جامعة دمشق ، ولما كنت أدرس
بلاغة الإمام القرطبي (-656هـ) مؤلف المفهم، لفت نظري اقتداره على تضمين حديث
سيد البلغاء صلى الله عليه وسلم في كلامه على سبيل الاقتباس، ولكن ما لفت نظري أكثر
هو تميز عبارات النبي صلى الله عليه وسلم فلا تذوب حرارتها في حرارة النسق البليغ الغريب،
إذا سما سمت فوقه، وإذا علا علت عليه، وتمكنت لدي الرغبة بدراسة بلاغة النبي (صلى الله
عليه وسلم) وتحليلاتها الأدبية، وما كان لجماعي من شكيمة إلا أنه وقع في قلبي أن الفاحص
بقلمه في بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم مستكشفاً الآيات الأدبية فيه كالشاحص بمبضعه
في جسد حيٍّ سليم يستجلي روائع تكوينه!! وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحلّق
في فضاءات البشرية وليس فوقها ، ويضع بكلامه البليغ قوانين وشرائع ينهجها البشر، ومن
ثم فكل من يحاول درس البلاغة النبوية ينبغي أن يلاحظ قواعد الاستنباط الفقهي ألا يصيبها
ببعض شطحاته.

فتقدمت بادئ الأمر بخطة إلى قسم علوم القرآن والسنة عنوانها " البلاغة النبوية وأثرها في
الاستنباط الفقهي " فأشار علي رئيس القسم آنذاك (الدكتور عماد الدين الرشيد) أن أضيق
مدخل الموضوع وأوسع مخرجه فأصمّد لمفردة من مفردات البلاغة أعمّقها وأستفّرغ جوانبها في
حديث النبي صلى الله عليه وسلم ثم أدرس أثرها في الاستنباط مطلقاً لا من حيث الفقه

وحسب، عسى أن تكون فاتحة خير لدراسات معمّقة تتناول المفردات الأخرى على هذا النسق .

فراق لي نظره - جزاه الله خيراً- وهفت نفسي إلى الكناية ؛ فإنها من أبلغ الكليم وأعظمه استحوذاً على المساحة ما بين حواس المرء وقلبه، وتقدمت ببحثي هذا وعنوانه: " الكناية في الحديث النبوي وأثرها في الاستنباط " .

أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من فكرة تلاقي العلوم التي تقوم على استثمار الصفات المشتركة بحيث يقبلها كل علم بلا تعسف ولا تكلف مع مراعاة الخصوصية أيضاً ، فحين تُطبّق الكناية التي هي من خيار البلاغة على الحديث الشريف الذي هو خيار الكلام البشري ثم يطبق عليهما خيار عمل العقل المتمثل في الاستنباط يخرج من ذلك شيء نافع مستطرف، على أن الكناية مع ذلك في مضطرب واسع وكثيراً ما تُخلط بالمجاز، ومن جهة الحديث الشريف أسلمتنا كتب البلاغة لأمثلة قليلة مشتهرة مكررة فيها الصحيح والضعيف، وأكثرها استعارات، فكان ينبغي رفع هذا الباب من البلاغة النبوية بمجديد الأمثلة من الكنايات، وبيان تأثيرها في الاستنباط لأن الحديث شريعة، وليس أدباً وحسب.

أسباب اختيار البحث

أولاً- السبب العام: وهو رغبتني في الإسهام في جلاء وجوه البيان النبوي الشريف خدمةً لهذا الكلام النفيس .

ثانياً- السبب الخاص: وهو الرغبة في تأصيل نظرية متكاملة في الكناية النبوية تحدد اتجاهاتها وأغراضها وآثارها الأدبية والفنية والاستنباطية تكون نواة لمشروع شامل معمّق للبلاغة النبوية.

إشكالية البحث

الإشكالية الأساسية للبحث: كيف يمكن دراسة الكنايات النبوية من طريق يتغلّب على عقبات الرواية بالمعنى ، ويدخل بها في أجمل نظريات التصوير والنقد الأدبي، مع مراعاة أثرها التشريعي ؟

ويتفرّع من ذلك أسئلة أخرى من قبيل : علام استقرّ مصطلح الكناية ؟ وهل التزم به الدارسون بعد استقراره؟ وأيهما أغنى للكناية أن يستقرّ مصطلحها منفصلةً عن المجاز أو تبقى على المعنى اللغوي ذائبةً فيه؟ وما خصوصية الصورة الكنائية النبوية ؟ وما مدى تلاحمها مع الفكرة ؟ وما علاقتها بالطبيعة والبيئة والتركيب والإيقاع والمبدع ؟ وإلام تهدف الكناية النبوية؟ وكيف تؤثر في الاستنباط العقدي والفقهّي والخلقي؟

ثم سؤال هام : هل يمكن الانطلاق من مصطلح الكناية نفسه في تشكيل علاقاتها وصورتها وأهدافها وتأثيراتها المذكورة في الأسئلة السابقة؟

فإن أجاب البحث عن إشكاليته الرئيسة وما تفرّع منها فتلّك إذاً نظرية كاملة في الكناية النبوية هي ما أسعى إليه، والله الموفق.

الجهود السابقة والدراسات المعاصرة

وعلى كثرة الجهود السابقة والمعاصرة في البلاغة النبوية، فلا أعلم أحداً تناول هذا البحث بأبعاده على النحو الذي أسعى إليه، فإنهم يُلْمُون بالكناية في معرض تصانيفهم في البلاغة النبوية ويذهبون بها مذهب الأدب بعيداً عما يمكن أن تؤثر به في استنباط عقائد الناس وأحكامهم، مع أنهم يتفاوتون أيضاً في الدرس الأدبي لها ففي حين ترى أكثر الكتاب يطبقون قواعد البلاغة التقليدية ترى بعضهم الآخر يزيد في المساحة النفسية والجماليات الروحية مستفيداً من حسّه الأدبي الرفيع كمصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، أو مستفيداً من النظريات الحديثة في التصوير والحركة كالدكتور أحمد ياسوف في كتابه الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف .

وأبعدُ نَجعةً من ذلك كتب البلاغة التقليدية والتي يعد الشيخ عبد القاهر الجرجاني(-471هـ) أباً لها في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة في حين لم السكاكي شعنها وما تفرق من أبحاثها في كتابه مفتاح العلوم ، ومما يؤخذ على هذه الكتب عموماً قلة استشهادها بالحديث النبوي ففي حين بلغ عدد الأحاديث في قسم البلاغة من كتاب مفتاح العلوم خمسة وفق فهرسة محققه الدكتور عبد الحميد الهنداوي، تطورت إلى عشرة(!) في الكتاب المدرسي ذائع الصيت المسمى بالبلاغة الواضحة لعللي الجارم ومصطفى أمين، وليس للكناية النبوية من كل ذلك كبير حظٍّ باستثناء كتاب الكناية والتعريض لأبي منصور الثعالبي الذي جمع فيه كنايات من القرآن والحديث وكلام السلف، مورداً أربعة عشر مثلاً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم دون تحليل أدبيّ بطبيعة الحال.

أما الأحاديث المعتمدة في جميع ما تقدّم كشواهد وأمثلة فإنها بين الصحيح والضعيف، ولم يُعَتنَ بتمييز ما رُوي بالمعنى عمّا روي باللفظ إمّا لعدم الاعتداد بفائدة هذا التمييز أو لعسره.

وقلّما خصت الكناية بتأليف ، والدراسات الحديثة على ندرتها لا تفي بقيمة الكناية وفنيتها، منها رسالة ماجستير بعنوان " الكناية في البلاغة العربية بين النظرية والتطبيق " صادرة عن جامعة حلب 1991م، للدكتورة هيفاء عربية، إذ قالت في مقدمة بحثها (ص:آ) : " ورأيت أن يكون ميدانه القرآن الكريم والشعر القديم " ولم تعرض لحديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي في بحثها بين النظرية والتطبيق عوّمت مفهوم الكناية وأدخلت فيه من الأحاجي والتورية وأضرابها ما يخرج الكناية من علم البيان.

وسيأتي في الفصل الأول جهود العلماء في موضوع الكناية من لدن نشأة هذا العلم إلى عصرنا الذي نحن فيه.

ومن الضرورة التنويه قبل مغادرة هذه الفقرة بكتب غريب الحديث لأبي عبيد والحري والخطابي وابن قتيبة والزمخشري وابن الأثير وغيرهم، فهي حافلة بالكنايات ، على أن أكثر ما ورد من ذكرٍ للكناية فيها إنما جاء بمعناها اللغوي لا الاصطلاحي، ومع ذلك فإنها كانت المنطلق الذي انبعثت منه إلى الجوامع والسنن والمصنفات الحديثية، ثم كان إليها المرجع في شرح العديد من كنايات الأطروحة.

وأشيد بكتاب الدكتور أحمد ياسوف الذي أشرت إليه آنفاً "الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف" فقد أكثر من الرجوع إليه ناقلاً وناقداً ، وإنه لبوابة إلى النظريات الأدبية المعاصرة ، ومن قبل ما انتفعنا بمحاضرات أستاذنا الدكتور نور الدين عتر " علم الحديث والدراسات الأدبية" والآخر الرائد بين الدراسات الفكرية والأدبية المعاصرة " في ضلال الحديث النبوي".

الجديد في الأطروحة:

1- دراسة مفصلة لأنماط الخروج النظري والتطبيقي عن المصطلح المستقر للكناية القائم على اللزوم ، وتحديد أسباب هذا الخروج ، وبيان أنه رجوع إلى معنى الستر الذي كان قبل استقرار المصطلح ، في نقد تناول طيفاً واسعاً من الدراسات القديمة والمعاصرة ونتج عنه اختيار تعريف السكاكي منطلقاً لهذه الأطروحة .

2- نظراً لاختيار التعريف الدقيق للكناية القائم على اللزوم والمانع من التباس الكناية بغيرها ينبغي أن نتوقع الجدة في كل ما يُبنى عليه، وأوله عشرات الكنايات النبوية الجديدة استخلصت بمعيار اللزوم الكنائي.

3- التزام معيار الصحة ومحاولة الوصول إلى لفظ النبي صلى الله عليه وسلم.

4- ما نجم عن المعيار السابق من تحقيقات طريفة في مسائل متنوعة تتعلق بمصطلح الحديث ورجاله ، منها الحالة الفريدة التي جاءت في تقريب التهذيب : " مجهول الحال مقبول " (ص: 70).

5- تحقيق أن التلاحم بين الصورة والفكرة لا يبلغ الغاية في نوع من البلاغة قدر ما يبلغ في الكناية ، فهي تعبير صوري انفعالي بعيد بطبيعة اللزوم الذي فيه عن مشكلات البلاغة التقليدية من إثنيّة التركيب والجمود والمشاكلة.

6- دراسة اللون والحركة والبيئة والطبيعة في الكناية من خلال ربط هذه العناصر باللزوم الكنائي وعملها في تشكيله ، لا من خلال وجودها فحسب كما هو شأن دراسات الصورة الفنية المعاصرة.

7- تحديد علاقات الكناية الداخلية والخارجية واستكشاف أغراضها الكثيرة ، والأغراض الجديدة التي لم تذكر سابقاً هي المقاصد الترغيبية والترهيبية المتنوعة وأغراض فنية كالاقتصاد والموازاة الفنية ونحوها..

8- دراسة علاقة الكناية بالإيقاع وعلاقتها بالصدق الفني والصدق الواقعي وقدرتها على كشف الانشغال الفكري للمبدع من خلال اللزوم الذي فيها.

9- بيان ملامح الخصوصية النبوية في كلِّ ما سبق من جهة عدم اختصام المنطق والانفعال ، والبراءة من مشكلات الخيال.

10- دراسة تأثير الكناية النبوية في الاستنباط العقدي في مسائل عديدة .

11- دراسة تأثير الكناية في الاستنباط الفقهي والأخلاقي بربطه باللزوم الكنائي من جهة ما بين الفقه والأخلاق من لزوم أيضاً.

12- بيان طرق التأثير الكنائي في الاستنباط وطرق تأثير الرواية بالمعنى في الاستنباط الكنائي.

13- بيان الاختراع فيما ورد من كنايات نبوية في الأطروحة ، ودراسة تأثر الأدب العربي بها.

14- شمول الطرح وعمقه بحيث يصلح نظرية متكاملة في الكناية النبوية تحدد علاقاتها وأغراضها وآثارها الأدبية والفنية والاستنباطية، كما هو المقصود الأسمى للدراسة.

الصعوبات:

لقد حُبب إلي هذا البحث حتى ما أشعر بالصعاب في سبيله ، ولم يشقَّ علي إلا أنني رأيت من العجز والتقصير وبحثي في البلاغة ألا أُلَمَّ بالألسنية والأسلوبية وهما علمان غريبان في اصطلاحاتهما، لكن النقد الأدبي المعاصر عند العرب يهفو إليهما وينهل منهما، فأمضيت نحو السنة مكباً على درس هذين العلمين متكبداً وطأتهما التي يعرفها المطلعون، وقد أفدت منهما ما يناسب البحث وما تركته أكثر، على أن من عجائب التوفيق أنني اصطفت من قواعد الأسلوبية ثلاثين صحيفة وضعتها في ثنايا الفصل الأول التأسيسي، ثم لما قدمته لمشرفي الكريمين الأستاذ الدكتور نور الدين عتر والدكتور محمد هيثم غرة في نسختين منفصلتين في

آن واحد ردّ كلُّ منهما الفصلَ طالباً حذفَ هذه الصحائف الثلاثين، ودون أن يعلم أيُّ منهما بما صنع الآخر، فعلمت أنه خيرٌ وامتنلت، وأرى الآن ألو بقيت هذه الصحائف لسارت بالأطروحة في غير وجهها.

منهج البحث:

1- تقديم التصورات النظرية والتقسيم بناءً عليها ثم النظر في التطبيقات العملية، وقد تكثر المقدمات النظرية بسبب استعمال علم في علم آخر ولكن لا ينفي هذا أن المساحة التطبيقية كبيرة .

2- بعد أن ظفرت بتحديد الكناية بالهوية والغيرية (أي بحقيقتها وتحديد ملايساتها) ، ووصلت إلى التعريف الأصح لها قمت باستقراء في الأحاديث النبوية الشريفة في الكتب الستة وغيرها فوقعْتُ على خمسمئة كناية من صحاح الحديث ثم اصطفيت منها مئة كناية للتطبيق في مختلف فصول الأطروحة.

3- لم أزل في بحثي متفحّصاً موضع الكناية من كلِّ حديثٍ جاء، إن كان في لفظها خلافٌ في الكتب الستة أو خلافٌ قويٌّ من غير الكتب الستة بيّنته ووازنت الروايات حتى أبلغُ الأصحَّ والأمثل والأقرب إلى لفظ النبي صلى الله عليه وسلم. وربما أنزل عن الصحيح في مواضع قليلة لغرض الاستقصاء، فيكون الضعف حينها دليلاً لفكرة ما (ينظر: ص 123، 124)، وإذا كان الحديث عارضاً ليس في صلب الدراسة والتطبيق فصحتّه غيرُ مشروطة.

4- بيّنتُ وجه كل كناية نبوية بلازمها وملزومها، متتبّعاً عناصر الجمال الفني فيها أو أغراضها أو تأثيرها في الاستنباط حسب الموضع الذي سيقَّت لأجله، فما لوحظ من التكرار في الأطروحة فهذا سببه أنني استعملت الكناية الواحدة في أكثر من موضعٍ ولعل هذا ألا يكون عيباً كيف وهو يزيد من تماسك الأطروحة ووحدة نسيجها.

5- اتبعت في عموم الأطروحة المنهج المقارن ومنهج التحليل الفني، حيث برز الأول في الوصول إلى أصح الروايات، وبرز الثاني في تحليل هذه الروايات فنياً.

لكن بالنظر إلى تنوع فصول الأطروحة فقد لزم كلُّ فصلٍ ما يخصّه ويلائم طبيعته:

ففي الفصل الأول " تأصيل الكناية في علم البلاغة " اتبعتُ منهج الاستقراء والمقارنة والمنهج التاريخي وبذلت الوسع في دراسة التطور التاريخي لمفهوم الكناية وأمثلتها من أول أمرها إلى عصرنا هذا .

وفي الفصل الثاني " الصورة الفنية للكناية النبوية " اخترت الدلالة البلاغية للصورة؛ واتبعت المنهج النفسي والفني في دراستها ، إذ إن توصيف الصورة بكونها فنيةً يقيدها بالأشكال البلاغية المرتكزة على التقديم الحسي ويثريها بتوظيف ما يمكن من الوسائل الفنية لإبراز جمالية الصورة كالإيقاع واللون والحركة، ولا آلو في استحضار كلِّ ما من شأنه أن يجلو الصورة قدر الإمكان.

وفي الفصل الثالث " اللون والحركة في الكناية النبوية " اتبعت المنهج التاريخي والنفسي في دراسة النظرة العربية للألوان وفهم اللون في الكنايات من خلالها متحسناً أثر اللون فيها وخدمته للفكرة وانسجامه مع سائر الحديث . واتبعتُ المنهج النفسي في دراسة الحركة في الكنايات النبوية، ففي كل كناية أحدد أهمية الحركة، وأثرها النفسي وإيجاءاتها، ومناسبتها للفكرة .

وفي الفصل الرابع "علاقات الكناية النبوية" اتبعت منهج التحليل الأسلوبي باتجاهيه الوصفي والتفسيري معاً، فالوصفي لتحليل العلاقات الداخلية من تركيب وإيقاع، والتفسيري لتحليل العلاقات الخارجية مع الطبيعة والبيئة والمبدع والمتلقي، ولم يكن الغرض تتبُّع مفردات البيئة والطبيعة بل خصوصية العلاقة مع اللزوم الذي تقوم عليه الكناية.

وفي الفصل الخامس " أغراض الكناية النبوية " الذي يمثِّل علاقة الكناية بالمتلقي اتبعتُ المنهج النفسي لرصد آثار الكناية عند المتلقي، وأحصيت من أغراضها نحو عشرين نوعاً ثم صنفْتُها في أربع مجموعات تهذيبية وترغيبية وترهيبية وفنية.

وفي الفصل السادس " أثر الكناية النبوية في الاستنباط " اتبعتُ منهج المقارنة والاستنباط حين درست أولاً تأثير الكناية في الاستنباط العقدي والفقهية والأخلاقي ، ثم تأثير الرواية بالمعنى في الاستنباط الكنائي.

6- خرّجَتْ الأحاديث النبوية ، وعزوت الآثار والأقوال والأشعار والأمثال إلى المصادر الأصلية لأصحابها، فإن لم أجد فمن المصادر التي تروي عنهم بالسند ، فإن لم أجد فمن المصادر التي تُعدّ حجةً في النقل في بابها ، فإن لم أجد بينت عجزها وأظهرته.

7- راعيت في العزو إلى الكتب طريقة المؤلفين فيها مع الاختصار قدر الإمكان ، ففي العزو إلى الصحاح والسنن والمصنفات أذكر الكتاب والباب ورقم الحديث، وفي العزو إلى المسانيد أذكر مسند الصحابي ورقم الحديث ، وفي المعاجم الحديثية بحسبها ، وفي معاجم اللغة بذكر المادة والجزء والصحيفة ، ثم في سائر الكتب أذكر الجزء والصحيفة.

8- حرصت في اختياري المصادر والمراجع أن تكون متنوّعة سواء من جهة العلوم التي أطرقها أم من جهة العصر الزمنية للمؤلفين، فأضع في الهامش اسم الكتاب وموضع العزو إن كان المؤلف ذُكر مع قوله في المتن وإلا أضفت اسم المؤلف إلى كتابه في الهامش ، أما الطبقات فلا أشير إليها في الهامش إلا عند الحاجة كأن أرجع إلى طبعة أخرى غير التي اعتمدتها في الأطروحة لغرض المقارنة ونحوه.

9- ترجمت للأعلام الذين تتعلّق بهم معرفة درجة الحديث أو الترجيح بين الروايات أو تحقيقُ نُغنيهِ الترجمة، وذلك باقتضابٍ أو إسهابٍ قدر ما يطلبه المقام، وإنما منعي من ترجمة جميع أعلام الأطروحة من المصادر الأصلية والمراجع الكاشفة أنهم تسعمئة إنسان لا يحتملُ كاهل الأطروحة ترجمتهم، وليس بعضهم بأولى من بعض، فاكثفيت بما ذُكر مع الإشارة إلى وفيات الأعلام في السياقات التاريخية للقضايا المطروحة، ومزيدٍ بيانٍ لأسمائهم في فهرس الأعلام.

10- شرحتُ غريب الأحاديث وبيّنت مختلفها ومشكلها.

11- قيّدْتُ بالشكل ما يحتاج إلى تقييد، واعتنيت بوضع علامات الترقيم الملائمة في مواضعها.

12- وضعتُ خلاصة نتائج البحث وتوصياته في الخاتمة .

13- ذيلت الأطروحة بما تحتاج إليه من فهارس علمية تقليدية (الآيات والأحاديث والأشعار والأمثال والأعلام والمصادر والموضوعات) وفهارس خاصة هي :

أ- فهرس الكنايات النبوية : جمعت فيه الكنايات النبوية وبجذائها المكنى عنه ومواقعها من الأطروحة، وقد أنافت على المئة.

ب- فهرس المصطلحات من البلاغة والنقد الأدبي والعقيدة والأصول وهي العلوم التي استعان بها البحث خارج نطاق علم الحديث، ذكرت فيها المصطلح وموضع تفسيره.

ج- فهرس التحقيقات: ويتضمن ما أفرزته الأطروحة من تحقيقات في رجال الحديث ومشكلاته ومعانيه وقضايا الكناية والبلاغة وما رآب أخرى لا يحسن وضعها في نتائج الخاتمة وهي في الوقت ذاته على قدرٍ من الأهمية لا يُسمح تجاهلها ، فاستحدثت لها فهرساً واستوعبتها فيه وقد أعلم أنني جعلت نفسي للرمح دريةً بهذا الفهرس لكنني ما كتبت شيئاً إلا بحجة تُطلب في موضعها.

خطة البحث

تألف الأطروحة من مقدمة وستة فصول وخاتمة وفهارس .

المقدمة : تبين الظروف التي أدت إلى البحث، وأهميته وإشكاليته، وأسباب اختياري له، والجهود السابقة فيه، والجديد الذي قدّمه البحث، والصعوبات التي اعترضني فيه، ومنهجه، وخطته.

الفصل الأول: تأصيل الكناية في علم البلاغة

المبحث الأول: التعريف بعلم البلاغة وموقع الكناية من هذا العلم

المطلب الأول : تعريف علم البلاغة

المطلب الثاني : أقسام علم البلاغة

المطلب الثالث : وظيفة علم البلاغة

المطلب الرابع : موقع الكناية من علم البلاغة

المبحث الثاني: تطور مفهوم الكناية عند البلاغيين واستقرار المصطلح

المطلب الأول : مرحلة التعبير عن الشيء بغير لفظه

المطلب الثاني : مرحلة الإرداف والتتبع

المطلب الثالث : مرحلة اللزوم

المبحث الثالث: طرائق خارج المفهوم المستقر للكناية

المطلب الأول : الخروج على المستوى النظري

المطلب الثاني: الخروج على المستوى التطبيقي

المبحث الرابع: تعريف الكناية

المطلب الأول : التعريف المختار للكناية

المطلب الثاني : علاقة الكناية بسائر أنواع البلاغة.

الفصل الثاني: الصورة الفنية للكناية النبوية

المبحث الأول: مفهوم الصورة الفنية

المطلب الأول: تعريف الصورة الفنية

المطلب الثاني : علاقة الخيال بالصورة الفنية

المطلب الثالث: وظيفة الصورة

المطلب الرابع: منهج دراسة الصورة الفنية للكناية

المبحث الثاني: التجسيم في الكنايات النبوية

المطلب الأول : تعريف التجسيم وفاعليته

المطلب الثاني: نماذج من التجسيم الكنائي في الحديث النبوي

المبحث الثالث: التشخيص في الكنايات النبوية

المطلب الأول : تعريفه التشخيص وأقسامه

المطلب الثاني : منزلة التشخيص من الكنايات النبوية

الفصل الثالث: اللون والحركة في الكناية النبوية

المبحث الأول : اللون في الكناية النبوية

المطلب الأول : الكنايات اللونية

المطلب الثاني: الكنايات الملونة

المبحث الثاني : الحركة في الكناية النبوية

المطلب الأول : الكنايات الحركية

المطلب الثاني : الكنايات المتحركة

الفصل الرابع : علاقات الكناية النبوية

تمهيد في العلاقات ومناهج دراستها

المبحث الأول: علاقة الكناية النبوية بالتركيب اللغوي

المطلب الأول : علاقة الكناية بالمعنى

المطلب الثاني : علاقة الكناية بمعنى المعنى

المطلب الثالث: مشكلات التركيب في البلاغة التقليدية ودفعها عن الكناية

المبحث الثاني: علاقة الكناية النبوية بالإيقاع

المطلب الأول: تعريف الإيقاع

المطلب الثاني: إثبات الإيقاع في اللغة العربية

المطلب الثالث: ملائمة إيقاع الكناية النبوية لفكرة العامة

المطلب الرابع: عناصر الإيقاع في الكناية النبوية

المبحث الثالث : علاقة الكناية النبوية بالطبيعة

المطلب الأول: نظرة القرآن والحديث والأدب إلى الطبيعة

المطلب الثاني : وظيفة الطبيعة في الكناية

المطلب الثالث: تنوع المشاهد الطبيعية في الكناية النبوية

المبحث الرابع: علاقة الكناية النبوية بالبيئة

المطلب الأول: علاقة الأدب بالبيئة

المطلب الثاني: الخصوصية البيئية في الكناية

المطلب الثالث: فاعلية الكناية البيئية النبوية واستمرارها

المبحث الخامس: علاقة الكناية النبوية بالمبدع

المطلب الأول: المبدع في النقد الأدبي

المطلب الثاني: الصدق الفني للمبدع في الكناية النبوية

المطلب الثالث: دلالة الكناية النبوية على الانشغال الفكري للمبدع

الفصل الخامس: أغراض الكناية النبوية

تمهيد في أغراض الصورة

المبحث الأول: الأغراض التهذيبيّة للكناية النبوية

المطلب الأول: التهذيب الاجتماعي في الكناية النبوية

المطلب الثاني : التهذيب الجنسي في الكناية النبوية

المبحث الثاني : الأغراض الترغيبية للكناية النبوية

المطلب الأول: الترويح بحظ النفس

المطلب الثاني : التحبيب

المطلب الثالث: التسلية

المطلب الرابع : تعظيم المصاب لتعظيم الجزاء

المطلب الخامس : التبشير

المبحث الثالث : الأغراض الترهيبية للكناية النبوية

المطلب الأول: التخويف بإظهار نتيجة الفعل المرهّب منه

المطلب الثاني: الوعيد

المطلب الثالث : التقبيح

المطلب الرابع : الترويح

المبحث الرابع: الأغراض الفنية للكناية النبوية

المطلب الأول: الاقتصاد

المطلب الثاني : المشاكلة

المطلب الثالث: الموازنة الفنية

المطلب الرابع: التخصيص والاحتراز

المطلب الخامس : التهوين

المطلب السادس : المواساة

المطلب السابع : التأكيد

الفصل السادس: أثر الكناية النبوية في الاستنباط

المبحث الأول: تأصيل الاستنباط الكنائي

المطلب الأول: تعريف الاستنباط

المطلب الثاني: أنواع الاستنباط من النصوص

المطلب الثالث: اعتبار النبي صلى الله عليه وسلم للاستنباط الكنائي

المطلب الرابع : تأثير الاستنباط الكنائي في أصل التكليف

المطلب الخامس: طرق التأثير الكنائي في الاستنباط

المبحث الثاني: أثر الكناية النبوية في الاستنباط العقدي

المطلب الأول: الكناية ونزول عيسى عليه السلام

المطلب الثاني: الكناية وخلق أفعال العباد

المطلب الثالث: الكناية وقانون الأسباب والمسببات

المبحث الثالث: أثر الكناية النبوية في الاستنباط الفقهي والأخلاقي

المطلب التمهيدي: تعريف الفقه والأخلاق والصلة بينهما

المطلب الأول: أثر الكناية في الاستنباط حين لا تتعين

المطلب الثاني: أثر الكناية في الاستنباط حين تتعين ثم يختلف توجيهها

المبحث الرابع: أثر الرواية بالمعنى في الاستنباط الكنائي

المطلب الأول: الرواية بالمعنى والاحتجاج بالحديث في اللغة

المطلب الثاني: نماذج من تخير اللفظ وتأثيره في الاستنباط

الخاتمة : بيّنت فيها خلاصة نتائج البحث وتوصياته.

الفهارس العلمية :

1- فهرس الآيات الكريمة

2- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

3- فهرس الكنايات النبوية

4- فهرس الأعلام

5- فهرس المصطلحات

6- فهرس التحقيقات

7- فهرس الأشعار

8- فهرس الأمثال

9- فهرس المصادر والمراجع

10- فهرس الموضوعات

فأسأل الله عزّ وجل أن يجعل من هذا الطرح علماً نافعاً متقبلاً وأن يحشرني لأجله في
زمرة الخادمين لخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

تأصيل الكناية في علم البلاغة

المبحث الأول : التعريف بعلم البلاغة وموقع الكناية من هذا العلم

المطلب الأول : تعريف علم البلاغة

المطلب الثاني : أقسام علم البلاغة

المطلب الثالث : وظيفة علم البلاغة

المطلب الرابع : موقع الكناية من علم البلاغة

المبحث الثاني: تطور مفهوم الكناية عند البلاغيين واستقرار المصطلح

المطلب الأول : مرحلة التعبير عن الشيء بغير لفظه

المطلب الثاني: مرحلة الإرداف والتتبع

المطلب الثالث : مرحلة اللزوم

المبحث الثالث: طرائق خارج المفهوم المستقر للكناية

المطلب الأول : الخروج على المستوى النظري

المطلب الثاني: الخروج على المستوى التطبيقي

المبحث الرابع: تعريف الكناية

المطلب الأول : التعريف المختار للكناية

المطلب الثاني : علاقة الكناية بسائر أنواع البلاغة

المبحث الأول

التعريف بعلم البلاغة

وموقع الكناية من هذا العلم

يتناول هذا المبحث تعريفَ علم البلاغة وأقسامه ووظيفته ، وموقع الكناية في هذا العلم .

المطلب الاول : تعريف علم البلاغة

علم البلاغة تركيبٌ إضافيٌّ يعني العلم الذي يدرس قواعد البلاغة .
والبلاغة لغةً البلوغ ، قال ابن فارس (-395هـ) : " الباء واللام والغين أصلٌ واحد وهو الوصول إلى الشيء ... وكذلك البلاغة التي يُمدَح بها فصيح اللسان؛ لأنَّه يبلغ بها ما يريد " ¹.

وأُطلق عليها الفصاحة، وهي غيرها في أصل الوضع إذ " الفاء والصاد والحاء أصلٌ يدلّ على خلوصٍ في شيءٍ ونقاءٍ من الشُّوب . من ذلك اللسان الفصيح : الطليق ... والأصل أفصح اللبن : سكنت رَغوته . وأفصح الرجل تكلم بالعربية، وفُصِح جادت لغته حتى لا يلحن " ².

فمدلول اللفظتين حسِّيٌّ في الأصل ثم صار معنويًّا ، وفي القرآن الكريم ذكرٌ للفصاحة والبلاغة بمتعلّقين مختلفين ، فالفصاحة في اللسان، والبلاغة في النفس وإلى النفس ، قال تعالى في نبأ موسى عليه السلام: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا) {القصص : 34} ، وقال تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : (وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا) {النساء : 63} .

¹ - مقاييس اللغة (بلغ، 301/1).

² - مقاييس اللغة (فصح، 506/4).

والذي يظهر أنّ الفصاحة وسيلةٌ وأداةٌ من أدوات البلاغة ، ولكن تسامح العلماء في إطلاق كلٍّ منهما على الأخرى حتى ألح ابن سنان الخفاجي (-466هـ) على التفريق بينهما ، فجعل الفصاحة في الألفاظ، والبلاغة في الألفاظ والمعاني ، وقال : "كلُّ كلامٍ بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً" ¹.

وبلاغة اصطلاحاً :

عرّفها السكاكي (-626هـ) بأنّها "بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّاً له اختصاصٌ بتوفية خواصّ التراكيب حقّها وإيراد التشبيه والكناية والمجاز على وجهها" ².

فهو عنده المعاني والبيان ، ثم ضمّ إليها البديع .
وميّز الخطيب القزويني (-739هـ) بلاغة الكلام من بلاغة المتكلم ، فقال في الأولى : " هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته" ³، وفي الثانية : " ملكةٌ يقتدر بها على تأليف كلامٍ بليغ" ⁴.
وما أكثر ما يطلقون البلاغة وهم يريدون علمها .

¹ - سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ص : 59؛ وينظر: البلاغة فنونها وأفنانها : علم المعاني ، أ.د. فضل عباس ص : 16.

² - مفتاح العلوم ، السكاكي ص : 196.

³ - الإيضاح في علوم البلاغة ص : 13.

⁴ - الإيضاح في علوم البلاغة ص : 15.

المطلب الثاني: أقسام علم البلاغة

قسم بدر الدين بن مالك (-686هـ) علم البلاغة ثلاثة أقسام : علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع¹، وتابعه القزويني على هذا التقسيم، بعد أن كان السكاكي قصره على المعاني والبيان كما يلاحظ من تعريفه. والتقسيم الثلاثي هو الذي استقر من أمر البلاغة بعد². فعلم المعاني يُحْتَرَز به عن الخطأ، وعلم البيان يُحْتَرَز به عن التعقيد المعنوي، وعلم البديع يُعَرَف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية فصاحته ومطابقتها لمقتضى الحال³.

ثم إنَّ هذا التقسيم الذي شرعه السكاكي وبلغ تمامه عند القزويني بات عرضةً للنقد في العصر الأخير، واقتفى الدكتور عبد الحميد الهنداوي محقق المفتاح خطى بعض الناقدين بأنه لا مستند له رواية ولا دراية⁴، أما الأستاذ الدكتور مازن المبارك فقال في وصف علم البلاغة: "صوّحت خمائله بعد نضرة، وأصبح ذا ثلاث شعبٍ لا تغني في إدراك الجمال ولا تشفع في معرفة الأدب"⁵، ثم يدعو إلى أن تفيد البلاغة مما استجدّ من بحوث في علم النفس وعلم الجمال كونها دراسةً ذوقية جمالية⁶، وإلى عودة البلاغة إلى حضن النص الأدبي بعد أن

¹ - ينظر: المصباح في المعاني والبيان والبديع ص 5.

² - وهو الذي اختاره المرحوم أحمد الهاشمي في كتابه جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ص : 4 ؛ و ينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب ص : 234- 237 .

³ - ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ص : 16.

⁴ - ينظر: مفتاح العلوم ، مقدمة محققه د. الهنداوي ص : 12.

⁵ - الموجز في تاريخ البلاغة ص : 3 .

⁶ - ينظر : الموجز في تاريخ البلاغة ، ص : 13؛ نظرات وآراء في العربية وعلومها ص :

تمحضت للنظرية والتحديد والتفريع الجافّ خلا أمثلة مبتورة منتزعة من سياقها متوارثة كتاباً عن كتاب¹.

وقد يجاب عنه بأنّ الشعب الثلاث بحدودها وفروعها لا تحول دون الاستفادة من جديد علم النفس والجمال ولا تمنع البلاغة أن تعود إلى أحضان النصّ الأدبيّ، فالتشعيب والتحديد والتفريع ضرورة العلم ، والذوق ميدانه التطبيق ، وكما أن لكل جِماحٍ شَكِمةً فلكل علمٍ حدودٌ مرسومة .

أما الدكتور طه حسين (- 1973م) فحدا به هذا التقسيم وما تفرّع عنه إلى ردّ البلاغة العربية إلى أصولٍ أجنبية²، فزعم أن الفلسفة اليونانية أثّرت في البيان العربي بطريقتين: مباشر من خلال كتاب الخطابة لأرسطو الذي ترجمه حنين بن إسحاق، وغير مباشر مما أفاده المتكلمون الذين أسهموا في نشأة البيان من منطق يوناني ، وقال : " وإذاً لا يكون أرسطو المعلم الأول للمسلمين في الفلسفة وحدها ، ولكن إلى جانب ذلك معلمهم الأول في علم البيان"³.

فانبرى له القوم حتى اليوم يفنّدون زعمه ويخطّئون رأيه ، ومنهم الدكتور هيثم غرة⁴ حيث لخص الرد عليه بالدليل التاريخي وهو أن حنين بن إسحاق مات أواخر القرن الثالث (-298هـ) بعد أبي عبيدة والفراء بنحو قرن من الزمن وفي كتابيهما ذكر للكناية والمجاز والمثل، وبالدليل الاجتماعي وهو خصوصية كل أمة

¹ - ينظر : نظرات وآراء في العربية وعلومها ص : 108.

² - قاله الدكتور طه حسين في مقدمة كتاب نقد النشر ، ورأى أن عبد القاهر الجرجاني تأثر في كتابه أسرار البلاغة بالفصل الأول الذي وضعه ابن سينا للعبارة في كتابه الشفاء الذي هو مجلّى أفكار أرسطو في الخطابة والشعر ، أما في الدلائل فحاول عبد القاهر التأليف بين قواعد النحو العربي وبين آراء أرسطو العامة في الجملة والأسلوب، ينظر : مقدمة نقد النشر ص : 3 ، 28 .

³ - مقدمة نقد النشر ص : 32.

⁴ - ينظر : البلاغة عند المعتزلة ، د. محمد هيثم غرة ص 19 ، 20 .

في بلاغتها حيث تنبعث البلاغة من ذوق الأمة ومن طبيعة لغتها¹، وهذا من غير إنكار لتأثر علماء البلاغة العرب بالفلسفة اليونانية على مستوى منهج البحث وأسلوب التأليف وطريقة الحد والتفريع لا على مستوى المضمون.

المطلب الثالث : وظيفة علم البلاغة

إلاّ يكن علم البلاغة ضرورياً لتحصيل البلاغة فإنّه ضروريّ لتحسينها .
يُعَدُّ علم البلاغة الآلة الكبرى للنقد الأدبي ، والنقدُ أسبق منه وإنّما نشأ للحدّ من الذاتية التي كان يقوم عليها النقد بقيمٍ آليّةٍ موضوعيّةٍ .
وكان النقد في بدايته ذوقاً محضاً يُرجع فيه إلى أهل الذوق ويرافقه التعليل في بعض الأحيان فإذا التعليل قائم على أصولٍ خلقيّةٍ عاديّةٍ ، ثمّ تطوّر ليضمّ الفصاحة مع الأخلاق، ثمّ وضعوا لبعض طرائق التعبير المشتهرة أسماءً ، ثم بدأ النقد يتعمّق بتأثير البحث عن وجه إعجاز القرآن الكريم ، فاكْتُشِفَت طرائق أخرى واصطُلِحَ على أسماء لها ، ثم توجّهت العناية إلى هذه الطرائق المتميزة بأسمائها ليحتذى بها في تأليف الكلام أو يُعتمد عليها في نقده فنشأ ما يُسمّى علم البلاغة من مجموع هذه الطرائق وتبوّأت الموضوعيّة مكانها في النقد على حساب الذاتية، وبقي للذاتيّة دورٌ في طريقة التعامل مع القواعد الموضوعيّة² .
هذا في الجملة خطّ سير النقد الأدبيّ عند العرب حتى استقرّت آله الكبرى وهي علم البلاغة .

وقد كان مفهوماً أن يُنظر إلى النقد على أنه أمدّ مدى من البلاغة وأرحب ساحاً لأنه يتناول كليّة النصّ بالإضافة إلى مقولاتٍ أخرى تتعلّق بالموقف التاريخي والسياسة والاجتماع والفنون غير اللغويّة ، ولكن ما لم يُفهم هو الفصل

¹ - ينظر : الموجز في تاريخ البلاغة ، د. مازن المبارك ص : 9 .

² - ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، ص 9 وما بعدها .

بين البلاغة والنقد بحجة أنها تعليمية تضع قواعد مسبقة للأداء الجيد وتضعها بمعزل عن النصّ المدروس مع علمهم بأن "كلّ مصطلح بلاغيّ هو ثمرة ناضجة لقيمة جمالية أثبتت خلودها عبر عصور طويلة فجسّدها الدارسون في هذا المصطلح" ¹.

وأثّم البحث البلاغي القديم بإهمال الجوانب النفسية والاجتماعية ، وبأنه وإن بدأ وصفيّاً إلا أنه انقلب إلى معيارية تعليمية خالصة ظلت كالسيف المصلت على رقاب الكتّاب ، وأنه وقف عند حدود الجملة ولم يحاول بحث العمل الأدبي بالكامل ، وقد كانت هذه التهم الثلاث كافية في نظر دعاة الأسلوبية ² أن يقدموها بديلاً، أو كما قال الدكتور محمد عبد المطلب : " أتاح هذا القصور للأسلوبية الحديثة أن تكون وريثة شرعية للبلاغة القديمة " ³.

وقد لا يكون محقّاً في هذا التعبير المتحدّر من ثقافة الإلغاء ، لكنه محقٌّ في وصف معظم الاتجاهات التي تبنت الأسلوبية الحديثة بأنها " لم تعط العطاء المنتظر لأنها تاهت في دوامة المصطلحات الغامضة وضلّت التعبير الصادق عن الذات " ⁴.

¹ - مع البلاغة العربية في تاريخها ، د. محمد علي سلطاني ، ص 203.

² - الأسلوبية منهج تحليلي للأعمال الأدبية تبلور في منتصف القرن العشرين ، يقترح استبدالاً بالذاتية والانطباعية في النقد التقليدي تحليلاً موضوعياً أو علمياً للأسلوب في النصوص الأدبية ، وقد تأثرت بالألسنية (علم اللغة الحديث) واستمدت منه مناهجها ومفاهيمها الأساسية .

ينظر: علم اللغة، د. علي وافي ، ص : 15؛ علم الأسلوب والنظرية البنائية، د. صلاح فضل ص: 19؛ الألسنية، د. ميشال زكريا ص : 12؛ الأسلوبية والبيان العربي ، د. خفاجي ود. شرف ص: 11، 12 .

³ - البلاغة والأسلوبية ص 259.

⁴ - البلاغة والأسلوبية ص 169.

وفي المقابل ينظر كثير من دارسي البلاغة التقليدية وأنصارها إلى الأسلوبية على أنها طريقة واحدة وبليّة وافدة ، ويفوتهم أنها اتجاهات متلاطمة وأبحاث متدبرة كان لهم أن يأخذوا منها ويذروا ، فمذاكرة الرجال تلقيح الفهوم.

المطلب الرابع : موقع الكناية من علم البلاغة.

إن " صور الأشياء ومناظرها تدركها العين كلاً للمرة الأولى ثم تتبين أجزائها جزءاً جزءاً للمرة الثانية "¹، هكذا يرشد علم النفس أن يُنتقل من الكل إلى الجزء، وهكذا أنتقل من علم البلاغة إلى قيمة تعبيرية واحدة منه اسمها الكناية .

يقول الدكتور فضل عباس: "إن موضوع الكناية من أول الموضوعات البيانية التي تحدث عنها العلماء ، وهي في مجاز القرآن لأبي عبيدة ، تحدث فيه عن كثير من كنايات القرآن؛ وفي هذا أبلغ ردّ على الذين يزعمون أن بلاغتنا بعيدة عن الأصالة تدين بالتبعية لأرسطو وغيره"².

وأحسب الكناية - بمعناها العام- كانت أسرع الأنواع البلاغية إلى القمة البيانية ؛ عرج بها حديث النبي صلى الله عليه وسلم : ((من تعزّى بعزاء الجاهلية فأعضّوه بهن أبيه ولا تكنوا))³.

قال المناوي في معناه : "وصرّحوا بلفظ الذكر ولا تكنوا عنه بالهن تنكيرا وزجراً"⁴ فإنه " جدير بأن يستهان به ويخاطب بما فيه قبح وهجر "⁵ فهذا قولٌ " وقيل: معناه من انتسب وانتمى إلى الجاهلية بإحياء سنة أهلها واتباع سبيلهم في

¹ - التعلم ونظرياته ، د. فاخر عاقل ص 15.

² - البلاغة فنونها وأفنانها ، علم البيان والبديع : 347 .

³ - ورواه الطبراني في الكبير ، فيما أسند أبي بن كعب (1 / 198 ، رقم 532) من طريق عوف العبدي عن الحسن البصري عن عُثَيِّ بن ضَمْرَةَ عن أبيّ بن كعب، وقال في مجمع الزوائد (3/3): " رجاله ثقات " .

⁴ - فيض القدير 357/1.

⁵ - فيض القدير 381 / 1؛ وينظر: النهاية في غريب الحديث (هنن، 5 / 278).

الشتيم واللعن والتعير ومواجهتكم بالمنكر فاذكروا له قبائح آبائه من عبادة الأصنام وشرب الخمر وغيرهما صريحاً لا كناية ليرتدع به عن التعرض للأعراض"¹.

ورأويه أبي بن كعب رضي الله عنه أولى بشرحه، فقد ورد أن رجلاً اعتزى بعزاء الجاهلية فأعضّه ولم يكنه، فنظر القوم إليه، فقال للقوم: إني قد أرى الذي في أنفسكم، إني لم أستطع إلا أن أقول هذا؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا إذا سمعتم من يعتزي بعزاء الجاهلية فأعضّوه ولا تكنّوا².

والهن في الأصل ليس هو الفرج وإنما الشيء إذا أردت أن تكني عنه ولا تقوله باسمه³، وهن أبيه يعني شيء أبيه أي ذكره.

ثم إن هن الأب كناية عن العصبية والعزة بالأخوة والعشيرة والقوم، ومن أمثال العرب: "من يطلّ هن أبيه ينتطق به"، قال الميداني: "يريد من كثر إخوته اشتد ظهره وعزّه بهم"⁴.

ولو أن رسّاماً أراد أن يصوّر من يعضّ بنواجذه على العزة الجاهلية بعد إذ أبدله الله خيراً منها لما وجد طريقة أبلغ تنفيراً ولا أبداع تعبيراً من أن يصوّرّه عاضّاً بهن أبيه!

ومهما يكن الشرح فإن لفظ الكناية باعتبارها قيمة تعبيرية جرى على لسان النبي (صلى الله عليه وسلم) نهيّاً في هذا الموضع وفي هذا دلالة واضحة على

¹ - فيض القدير 1/ 357.

² - رواه الإمام أحمد في المسند، مسند الأنصار (حديث عتي بن ضمرة السعدي عن أبي بن كعب) 20727، 20728، عن غندر ويحيى بن سعيد القطان وغيرهما عن عوف العبدي بإسناده الذي ذكره الطبراني آنفاً، وعُندَر هو محمد بن جعفر الهذلي البصري "ثقة صحيح الكتاب إلا أن فيه غفلة، من التاسعة... / ع"، ويحيى بن سعيد القطان التميمي البصري "ثقة متقن حافظ إمام قدوة من كبار التاسعة... / ع". تقريب التهذيب، ابن حجر 2/ 472، و 2/ 591.

³ - ينظر النهاية في غريب الحديث (هنن، 5/ 278) ولسان العرب (هنن، 15/ 396).

⁴ - مجمع الأمثال 2/ 300.

شيوع هذه الطريقة من التعبير عن الشيء بغير لفظه الموضوع له، لا على سبيل التمثويه والتورية وصرف النظر بل على طريقة الدلالة الواضحة في ثوب رائع جميل ، ولهذا عدّت من علم البيان وتبوّأت مكانها في تعريف السكاكي للبلاغة كما مرّ في أول المبحث.

المبحث الثاني

تطور مفهوم الكناية عند البلاغيين

واستقرار المصطلح

مرت الكناية بثلاث مراحل حتى استقرَّ تعريفها ، الأولى تعريف الكناية بمعناها اللغوي، والثانية تعريفها وفق مصطلح الإرداف، والثالثة تعريفها وفق مصطلح اللزوم .

ثم كان هناك مرحلة رابعة يمكن اعتبارها ردّةً إلى فوضى المصطلح أو خروجاً عن المفهوم المستقر .

وسأتي على وصف هذه المراحل في تطور مفهوم الكناية:

المطلب الأول: مرحلة التعبير عن الشيء بغير لفظه.

وهي مرحلة ما قبل عبد القاهر الجرجاني ، أي في ابتداء أمر التأليف البياني ، ومن أبرز رجالاتها على الترتيب : أبو عبيدة ، الجاحظ ، المبرّد ، العسكري ، الثعالبي ، ابن رَشِيق¹، وفيما يلي عرض آرائهم :

أولاً – أبو عبيدة معمر بن المثنى (-209هـ) : من السباقين الذين عرضوا للكناية ، من غير أن يحدّوها ، فذكر أنّ قوله تعالى : (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ) {البقرة:223} كناية وتشبيه، وأنّ في قول الله عز وجل: (أَوْ لَامَسْتُمُ

¹ - وغير هؤلاء علماء تكلموا في الكناية ، وإنما اخترت الذين قدّموا - فيما ظننت - إضافات نظرية في موضوع الكناية أو أمثلة يعرف من خلالها رأيهم ، والأمثلة في هذه المرحلة قد تقوم مقام النظرية ، والله أعلم .

النِّسَاء) {النساء: 43، المائدة: 6} كناية عن الغشيان¹. ونقل الجاحظ عنه أنه قال: "العارضة كناية عن البذاء"².

ثانياً - الجاحظ (-255هـ): لم يعرف الكناية ولكنه يذكرها في مقابلة الإفصاح، ويقول في مطلع كتابه البيان والتبيين: "رب كلمة تغني عن خطبة وتنوب عن رسالة، بل رب كناية تربي على إفصاح، ولحظ يدل على ضمير وإن كان ذلك الضمير بعيد الغاية إلى النهاية"³.

ويذكر الجاحظ أن للكناية شأنًا فريدًا في البلاغة، حتى إذا ذكر جماع البلاغة ضُربت الكناية مثلاً، قال: "وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذ كان الإفصاح أوعر طريقة وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك وأحق بالنظر"⁴.

ويذكر أنها لا تحسن في كل حين ولا تكون مرضية في كل الأحوال فلكل مقام مقال، وهذا خبر قيس بن خارجة بن سنان يوم الحِمالة من داحس والغبراء⁵ وزعم قيس أنه يخطب من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب يأمر بالتواصل وينهى عن التقاطع، كان هذا الخبر محل نظر إذ قيل لأبي يعقوب

¹ - مجاز القرآن: 155/1، 73/2.

² - ينظر: البيان والتبيين 145/1.

³ - البيان والتبيين 3/1.

⁴ - البيان والتبيين 49/1.

⁵ - هو يوم الصلح وحمل الديات الذي جرى بين عيس وذبيان من حرب داحس والغبراء على يد هرم بن سنان والحارث بن عوف قبل البعثة الشريفة.

ينظر: مجمع الأمثال، الميداني 110/2؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 1/461، 462.

الخُرَيْمِي¹ فيما حكى الجاحظ : هلا اكتُفي بالأمر بالتواصل عن النهي عن التقاطع؟ أو ليس الأمر بالصلة هو النهي عن القطيعة؟ فقال : " أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والتكشّف!".²

وتبدو الكناية نظرياً في كلّ ما سبق مظنة إيجاز وكأنّها إشارة إلى ما وراءها من مخزون فكري للألفاظ ، كما يبدو الإفصاح مظنة إطناب ، على أن ما ذكره الجاحظ وسمّاه كناية لا يقع على هذه الطريقة ، ولا يعدو استبدال لفظٍ بلفظٍ ، لفظٍ أقرب إلى السلامة وأجمل في الأدب، وانظر إلى قوله : " قال شريح : الحِدّة كناية عن الجهل . وقال أبو عبيدة : العارضة كناية عن البذاء . وإذا قالوا فلان مُقتصد فتلك كناية عن البخل ، وإذا قالوا للعامل مستقصٍ فهو كناية عن الجور".³

وهذا الذي قدمت به أن الكناية عند الجاحظ لا تعدو استعمال لفظ أقرب للسلامة وأجمل في الأدب صرح الجاحظ بنحوه في رسالة النساء فقال : " وقد يستعمل الناس الكناية، وربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة يريدون أن يظهر المعنى بألين لفظ"⁴، ومثّل له بتسمية المعزول مصروفاً والمنهزم منحازاً والبخيل مقتصداً وعامل الخراج المتعدّي مستقصياً.

¹ - أبو يعقوب الخُرَيْمِي هو إسحاق بن حسان بن قوهي الصفدي الخُرَيْمِي (- 212هـ) من الشعراء المولدين المجيدين في الدولة العباسية ، اتصل بِخُرَيْم بن خليفة بن الحارث بن خازجة بن سنان الغطفاني (الناعم) فنسب إليه ، أدركه الجاحظ وسمع منه .

ينظر: تاريخ بغداد، الخطيب 6/ 326 ؛ الأعلام، الزركلي 1/ 294.

² - البيان والتبيين 1/ 64 .

³ - البيان والتبيين 1/ 145.

⁴ - رسائل الجاحظ 3/ 140، في الفصول المختارة من كتابه في النساء.

ثالثاً - المبرّد (-285هـ) : قسّم المبرّد الكلام ثلاثاً : منه ما يكون في الأصل لنفسه ، ومنه ما يُكنى عنه بغيره ، ومنه ما يقع مثلاً فيكون أبلغ في الوصف .

وأنزل الكناية على ثلاثة أضرب ، أحدها : التعمية والتغطية ، وثانيها : الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره ، وثالثها : التفخيم والتعظيم .

وضرب مثلاًً للأول قول النابغة الجعدي :
أَكْنِي بغير اسمها وقد علم الله خفّيات كلّ مُكْتَتَمٍ¹
وللثاني قوله تعالى في المسيح وأمه : (كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) {المائدة:75}
كناية عن الحدث .

وللثالث الكنية وهو أن يُعظّم الرجل أن يُدعى باسمه ، وأنها وقعت في الكلام على ضربين : في الصبي على جهة التفاؤل بأن يكون له ولد ويُدعى بولده كناية عن اسمه ، وفي الكبير أن ينادى باسم ولده صيانة عن اسمه² .
وهكذا تقدّم مفهوم الكناية عند المبرّد واتجه إلى التحديد وبقي فيه مُتّسع لثلاث الكلام، وهو وإن لم يبلغ الحدّ إلا أنه أخذ بالتنوع المستند إلى الغاية المرجوة من الكناية ، وليس إلى الماهية بطبيعة الحال .

رابعاً - العسكري (-395هـ) : ذكر الكناية والتعريض وجعلهما باباً واحداً في مقابلة التصريح ، فقال في تعريفه : " وهو أن يكنى عن الشيء ويعرّض به ولا يصرّح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء " ³.

¹ - شعر النابغة الجعدي ص 150. والبيت من المنسرح ينتهي صدره باللام الأولى من لفظ الجلالة ولا يليق تقطيع هذه الكلمة فجعلتها في الشطر الثاني كاملة .

² - ينظر : الكامل في اللغة والأدب 215/2 ، 216 .

³ - كتاب الصناعتين ص 368 .

ومثّل له بفعل العنبري إذ بعث إلى قومه بصرّة شوك وصرّة رمل وحنظلة، يريد: جاءكم بنو حنظلة في عدد كثير ككثرّة الرمل والشوك . فعُلم من تمثيله أنه لم يقصرها على اللفظ بل جعلها سارية في الإشارة ولسان الحال .
ثم ذكر كنايات أخر كلها لفظية كالغائط كناية عن الحاجة ، وملامسة النساء كناية عن الجماع ، وفي قصة ساقها "وافتحوا القصر" كناية عن افتراع المرأة، أي افتضاها.

وبيّن أنه ليس كل كناية موقّعةً في بابها ، بل منها ما هو معيب كالكناية عن الحجر بأبي أوس ، قال " ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :
إِنِّي عَلَى شَعْفِي بِمَا فِي حُمْرِهَا لِأَعْفُ عَمَّا فِي سِرَاوِيلَاتِهَا¹
وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يُعبّر عنه بهذا اللفظ"².

وقد يلاحظ من تعريفه أنه لم يكن يفصل الكناية عن اللحن والتورية ويستفاد هذا أيضاً من موضع آخر في كتابه حيث يمدح اللحن التي كنّوا بها عن المراد لغرض الفائدة ، يقول " لأن الغاية في تدقيق المعاني سبيل إلى تعميته ، وتعمية

¹ - هذا للمتنبي في ديوانه 226 / 1 ، وذكر العكبري أن صاحب بن عبّاد قال : " كانت الشعراء تصف المآزر تنزيهاً لألفاظها عما يُستشنع حتى تخطّى هذا الشاعر المطبوع إلى التصريح ، وكثير من العهر عندي أحسن من هذا العفاف " ثم ساق العكبري جواب أبي بكر الشعرائي عنه بأن الرواية " في سراويلاتها " ويكون المعنى : أعف عن أبدانهم .
ينظر : شرح العكبري على ديوان المتنبي 227/1 .

قلت : مات صاحب بن عبّاد رحمه الله سنة 385هـ ، وكان يتعصّب لأبي فراس الحمداني وهو القائل : بُدِئَ الشعر بملك وُحِتِمَ بملك . وألف كتاباً في الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ، ينظر : سير أعلام النبلاء 511/16 ، و 197/16 . فلا يبعد أن يكون المعنى بقول العسكري : سمعت بعض الشيوخ... الخ فهو معاصره ، أو أن الكلمة صدرت عنه وتداولها الناس .

² - كتاب الصناعتين ص 370 .

المعنى لُكنة إلا إذا أُريد به الإلغاز وكان في تعميته فائدة مثل أبيات المعاني وما يجري معها من اللحن التي استعملوها وكنّوا بها عن المراد لبعض الغرض¹.

يعني أن المبالغة والتعمق والإغماض في مقام الإبانة والإفصاح غير محمود أما في مقام اللحن والإلغاز فلا بأس به.

كما نبّه في موضع متقدّم من كتابه إلى طريقة تحوّل الكناية والمجاز إلى حقيقة أو ما يقارب الحقيقة لكثرة الاستعمال ، ومثل لذلك بالنحو والغائط ، قال : " لأن الرجل كان إذا أراد قضاء الحاجة استتر بنجوة ، والنجوة الارتفاع من الأرض فسمي ذلك الشيء نجوّاً مجازاً ثم كثر استعمالهم له فصار كالحقيقة وصرفوه فقالوا ذهب ينجو ، كما يقال ذهب يتغوّط إذا صار إلى الغائط وهو البطن من الأرض لقضاء الحاجة ، وسموا الشيء الغائط وصار كالحقيقة حين كثر استعمالهم له ، وقالوا إذا غسل ذلك الموضع من النجو: يستنجي، ومثل هذا كثير².

وما زالت الكناية مظنة الإيجاز ، وما زالت تُذكر في مقابلة الإكثار ، قال العسكري : " رُوي عن جعفر بن يحيى أنه قال - مع عجبه بالإيجاز - : متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيياً ومتى كانت الكناية في موضع الإكثار كان الإيجاز تقصيراً³.

يريد أن الكناية تقصد للإيجاز فإذا استعملت في مقام إطنابٍ عُدّ ذلك تقصيراً حيث لم يفِ المقام حقه من الإفصاح .

¹ - كتاب الصناعتين ص 29.

² - كتاب الصناعتين ص 7.

³ - كتاب الصناعتين ص 190 .

خامساً -الثعالبي (-430هـ): الغاية من الكناية عنده ستر القبيح باللفظ الحسن وقال: " فصلٌ في الكناية عما يُستقبح ذكره بما يُستحسن لفظه " ¹، فهذا ربطٌ للكناية بالغاية منها ، وليس حدّاً ، ومع ذلك فإن على كلامه لمسات مما يُسمّى اليوم المنهج التاريخي في الدرس الأدبي ، فصرّح بأصالة الكناية وقال : " هي من سنن العرب " ² وضرب أمثلة من القرآن والحديث وكلام البلغاء .

فمن القرآن (وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) {فصلت: 21} كناية عن فروجهم ، و(أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ) {النساء: 43} كناية عن الحدث ، و(فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شِئْتُكُمْ) {البقرة: 223} و(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفًا) {الأعراف: 189} ، كنايتان عن الجماع.

ومن الحديث : ((رفقا بالقوارير)) ³، كناية عن الحرُم .

¹ - فقه اللغة وسر العربية ص 386 .

² - فقه اللغة وسر العربية ص 386 .

³ - من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر ، وكان غلام يحدو بمن يقال له أنجشة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((رُوَيْدَكَ يا أنجشة سَوِّكْ بالقوارير)) .

رواه البخاري ومسلم : البخاري في مواضع منها في الأدب (في المعارض مندوحة عن الكذب) 6210 ، ومسلم في الفضائل (رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بنسائه وأمر سواق مطاياهن بالرفق بمن) 2323 .

ورفقا بالقوارير على التحقيق استعارة وليست كناية ؛ قال الإمام الطيبي في شرحه على المشكاة (3109 /10) : " هي استعارة لأن المشبه به غير مذكور ، والقرينة حالية لا مقالية ، ولفظ الكسر ترشيح لها".

ولفظ الكسر جاء في الرواية التي اختارها الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح حيث فيها : ((رويدك يا أنجشة لا تكسر القوارير)) مشكاة المصابيح ، في الآداب (السلام) 4806 .

وهذه الرواية التي فيها التصريح بالكسر مروية عند البخاري ومسلم في الموضعين المذكورين أيضاً.

و((اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ))¹ ، أي لا تحدثوا في الشوارع فتُلْعَنُوا .
 وذكر من كنايات البلغاء : " به حاجة لا يقضيها غيره " كناية عن الحدث ،
 و " آلى يميناً ذكر فيه حرائره " كناية عن الطلاق ، و " هو من قراء سورة يوسف " كناية عن السؤال ، فإنهم يستكثرون من قراءة هذه السورة في الأسواق ، و " تربية القاضي " كناية عن اللقيط ، ومن كناياتهم عن موت الرؤساء والأجلة والملوك :
 انتقل إلى جوار ربه ، واستأثر الله به .²

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح 545 / 10 : " وهذا من الاستعارة البديعة ؛ لأن القوارير أسرع شيء تكسيراً ، فأفادت الكناية من الحضّ على الرفق بالنساء في السير ما لم تفده الحقيقة لو قال : ارفق بالنساء " .
 وفي تأويلها قولان: أحدهما أنها من أجل ألا تسرع الإبل بمن فيسقطن أو تضععن أبدانهم ، والثاني حتى لا يداخل قلوبهم شيء من حسن الصوت ، وعلى الثاني يكون تعريضاً ، ومال كثير من الشراح إلى الثاني ، ينظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض (344/2) ؛ شرح الطيبي على المشكاة (3109 / 10) ؛ فتح الباري (546 / 10).
 وهو اختيار الإمام البخاري إذ وضعه في باب المعارض كما تقدم .

¹ - رواه أبو داود وابن ماجه : أبو داود في الطهارة (المواضع التي نهي النبي عن البول فيها) 26 ، وابن ماجه ، في الطهارة وسننها (النهي عن الخلاء في قارعة الطريق) 328 ، كلاهما من طريق أبي سعيد الحميري عن معاذ بن جبل مرفوعاً : ((اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَةَ : البراز في الموارد وقارعة الطريق والظِّل)) .

وفي مصباح الزجاجة : " هذا إسناد ضعيف فيه أبو سعيد الحميري المصري ، قال ابن القطان : مجهول ، وقال أبو داود والترمذي وغيرهما : روايته عن معاذ مُرسلة " مصباح الزجاجة، البوصيري 286/1.

لكن روى نحوه الإمام مسلم في الطهارة (النهي عن التخلي في الطريق وفي الظلال) 269، من طريق العلاء عن أبيه عن أبي هريرة ، بلفظ : ((اتَّقُوا اللَّعَائِنَ)) . قالوا: وما اللَّعَائِنُ يا رسول الله ؟ قال: ((الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِمْ)) .

وله شواهد أخرى . ينظر: تلخيص الحبير، ابن حجر 105 / 1.

² - ينظر : فقه اللغة وسر العربية ص 386 .

سادساً - ابن رَشِيق (-463 هـ) : الغاية من الكناية عنده الإيجاز حيث عدّها من الإشارة التي هي لمحّة دالّة واختصار وتلويح يُعرّف مجملاً ومعناه بعيد عن ظاهر لفظه، ولا يأتي بها إلا حاذق ، ومن أنواعها سوى الكناية : التفخيم والإيماء والتعريض والتلويح والتمثيل والرمز واللمحة واللغز واللحن والتعمية والحذف والتورية والتتبع .

ومثل للكناية بقول امرئ القيس :

وبيضة خدرٍ لا يُرامُ خباؤها تتمّعت من لهوٍ بها غيرَ مُعجَل¹

قال : "كناية بالبيضة عن المرأة"².

وذكر الأضرب الثلاثة التي ذكرها المبرّد.

مميزات هذه المرحلة :

أولاً- عفوية التعريف مما لا يخرج عن المعنى اللغوي الموضوع للكناية ، ولا يميزه عن كثير من الأنواع البلاغية كالمجاز وغيره .

ثانياً- بدأت في هذه المرحلة محاولات لتنويع الكناية بالنسبة للغايات منها ، وأبرزها نوعان : كناية يُرجى منها الإيجاز ، وكناية يُرجى منها الستر والتغطية لما لا يحسن ذكره ، والثاني يتنوع بحسب بواعثه إلى الستر لقبح اللفظ أو الخوف أو التفخيم أو لغير ذلك من أسباب النفس التي لا تكاد تنتهي .

ثالثاً : بدأ في هذه المرحلة النقد الأدبي لاستخدام الكناية بشكله البسيط والنقد متعلق أيضاً بالغايات التي استُخدمت من أجلها ، فإن هي حققتها كانت مُوفّقة ، وإلا فهي باردة ، وقد تبلغ أن تكون معيبة . فإن أريدت للإيجاز كان استعمالها في مقام الإكثار والإطالة خطأ ، وإن أريدت للستر كان استعمالها في

¹ - ديوان امرئ القيس ص 13.

² - العمدة في محاسن الشعر وآدابه 1/ 312.

مقام التصريح خطأ ، وفي كلا الحالين ما ينبغي التعمُّق فيها إلى درجة تخرجها من البيان إلى ضرب من التورية ونحوها.

رابعاً- لم يكن يُنَوَّه بأصالة الكناية في أساليب العرب لأنه كان مسلماً به حتى بدأت الفلسفة اليونانية تخامر البلاغة العربية فاحتيج إلى التنبيه عليه. خامساً- يلاحظ من الأمثلة التي ذكروها أن الكناية قد تكون في لفظ مفرد أو مركب، وجنح العسكري بها حتى أوقعها في غير لفظ .

المطلب الثاني : مرحلة الإرداف والتتبع .

وهذه مرحلة الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، ويلحقه فيها الإمام الزمخشري ، وهي التي شهدت تمايز مفهوم الكناية وانطلاقتها العلمية ، وتستحق التبسط في دراستها .

أولاً - الشيخ عبد القاهر الجرجاني (-471هـ) :

يتلخَّص عمله في ثلاثة : تحديد مفهوم الكناية ، وتحقيق بلاغة الكناية ، وتقسيم الكناية والتمهيد لتنويعها .

أ- تعريف الكناية تعريفاً علمياً اصطلاحياً ، وفصلها عن المجاز .

صرَّح عبد القاهر منذ البداية بأن هناك فرقاً بين الكناية والمجاز إذ يقول : " فصل في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره : اعلم أن لهذا الضرب اتساعاً وتفنناً لا إلى غاية إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين الكناية والمجاز"¹.

¹ - دلائل الإعجاز : 52 .

ثم عرّف الكناية بمَاهِيَّتِهَا وليس بغَايَتِهَا ، فقال : " والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورَدْفُه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه ".¹

والأمثلة التي ساقها منسجمة مع ما ذكر ، قال : " مثال ذلك قولهم : هو طويل النجاد : يريدون طويل القامة، وكثير رماد القدر : يعنون كثير القرى ، وفي المرأة نؤوم الضحى : والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها . فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ولكنهم توصّلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود وأن يكون إذا كان، أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد وإذا كثرت القرى كثر رماد القدر وإذا كانت المرأة مخدومة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى ؟ "².

وميّز الكناية عن المجاز، فقال : " وأما المجاز فقد عوّل الناس في حدّه على حديث النقل وأن كل لفظ نُقِلَ عن موضوعه فهو مجاز ... والاسم والشهرة فيه لشيئين الاستعارة والتمثيل وإنما يكون التمثيل مجازاً إذا جاء على حدّ الاستعارة"³، وضرب مثلاً للاستعارة قولهم : رأيت أسداً ، وللتمثيل : أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى ، وما زال يفتل في الذروة والغارب حتى نال منه ما أراد.

أما قول الدكتورة هيفاء عربية: "والكناية عند عبد القاهر تدخل ضمن دائرة المجاز"⁴ فلا أدري أين يقع مما تقدّم ! وهذا لا يعني ألا يشترك مع المجاز في شيء بل هناك وصف جامع بينهما هو ما سمّاه المعنى ومعنى المعنى .

¹ - دلائل الإعجاز : 52.

² - دلائل الإعجاز ص 52

³ - دلائل الإعجاز ص 53.

⁴ - الكناية في البلاغة العربية بين النظرية والتطبيق ص 45 ، وقالت أيضاً - ص 46- : " وهكذا نرى أن عبد القاهر حدد موقفه من الكناية وأدخلها صراحة في المجاز بعد أن كان البلاغيون

يقول عبد القاهر: " فصل الكلام على ضربين : ... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالةً ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل ... " ¹.

ثم يسمّي هذه الطريقة معنى المعنى ، فيقول : " وإذ قد عرفت هذه الجملة فيها هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى ، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر " ².

ويتبيّن من جملة ما تقدّم أن الوصف المميّز بينهما هو النقل عن الوضع فإن اللفظ في كلّ منهما وإن كان معناه الأول الذي وُضع له سيفضي إلى المعنى الثاني إلا أنه في الكناية لا يُنقل عما وُضع له فيدلّ على المعنيين في آن واحد ، وفي المجاز يُنقل فإذا دل على المعنى الثاني توقفت دلالته على المعنى الأول ، والله أعلم .

ملاحظة مهمة:

إن لتعريف الكناية هذا خلفية تاريخية، هي ما سمّاه قدامة بن جعفر (- 327هـ) الإراداف: " أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ يدلّ على معنى هو ردفه وتابع له فإذا دلّ على التابع أبان عن المتبوع، كقول عمر بن أبي ربيعة :

قبله يخشون ذلك " ، والحق أن الكناية في قول عبد القاهر المثبت أعلاه : الكلام على ضربين ... الخ إنما هي قسيم للمجاز وليست قسماً فيه.

¹ - دلائل الإعجاز ص 202 .

² - دلائل الإعجاز ص 203 .

بعيدةٌ مهوى القِرطِ إمّا لنوفلٍ أبوها ، وإمّا عبْدُشمسٍ وهاشمٌ¹
وإنما أراد أن يصفَ طولَ الجيد فلم يذكره بلفظه الخاصّ بل أتى بمعنى هو
تابع لطول الجيد وهو بعدُ مهوى القِرطِ².

وتحدّث العسكري بعد قدّامة عن الإرداف والتّوابع ، فقال : " أن يريد
المتكلم الدلالة على معنى فيترك اللفظ الدال عليه الخاص به ويأتي بلفظ هو
ردفه وتابع له فيجعله عبارة عن المعنى الذي أراده ، وذلك مثل قوله تعالى :
(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) {الرحمن:56} وقصور الطرف في الأصل موضوع
للعفاف على جهة التّوابع والإرداف ، وذلك أن المرأة إذا عَفَّت قصرت طرفها
على زوجها فكان قصور الطرف ردفاً للعفاف ، والعفاف رِدفٌ وتابع لقصور
الطرف³ ولكلمته الأخيرة موضع آت إنشاء الله تعالى⁴ .

وتحدّث ابن رشيق عن التّتبّع فقال : " ومن أنواع الإشارة التّتبّع ، وقوم
يسمونه التّجاوز وهو أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزه ويذكر ما يتبعه في
الصفة وينوب عنه في الدلالة " ⁵ ومثل له بنؤوم الضحى .

وتحدّث ابن سنان الخفاجي (- 466هـ) بعدهما عن الإرداف ، وقال : "
ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تراد الدلالة على المعنى فلا يُستعمل اللفظ
الخاص الموضوع له في اللغة ، بل يُؤتى بلفظ يتبع ذلك المعنى ضرورة فيكون في
ذكر التابع دلالة على المتبوع ، وهذا يسمى الإرداف والتّتبّع لأنه يؤتى فيه بلفظ
هو ردف المعنى المخصوص بذلك المعنى وتابعه⁶ .

¹ - ديوان عمر بن أبي ربيعة 2/ 227.

² - نقد الشعر ص 92، 93.

³ - كتاب الصناعتين ص 350.

⁴ - ص 79.

⁵ - العمدة في محاسن الشعر 1/ 313 .

⁶ - سر الفصاحة ص 229.

وأشير إلى أنني أدرس سير مفهوم الكناية وليس مفهوم الإرداف ولهذا لم أذكر كلام هؤلاء في المرحلة الاولى .

ب- تحقيق بلاغة الكناية وفلسفتها .

وها هنا بحث مبتكر موفق قياساً على ما سبقه ، رغم التجوّز الذي كان في مطلعته حيث قال : " أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح وأن للاستعارة مزيةً وفضلاً ، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة " ¹.

فأين هذا الإجماع الذي حكاه مما ذهب إليه الجاحظ من أنّ الكناية لا تحسن في كل حال مستشهداً بأبي يعقوب الخُرَيْمِي حين قال : "أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والتكشف ! " ².

ثم إنه إذا كانت الكناية والتعريض والمجاز أبلغ في كل آن من الإفصاح والتصريح والحقيقة ، لزم من ذلك أن يكون القرآن الكريم وقع في مواضع كثيرة على وجوه ليست هي النهاية في البلاغة ، ولزم منه أن يُدرك في مثل تلك المواضع وهو محال .

ثم إن الكلام إذا وقع كله على هذه الطريقة من الكناية والتعريض والمجاز لم يعد له رونق ؛ فإن الضد يظهر حسنه الضد .

على أن هذا يُتجاوز عنه لما حقّق من فلسفة الكناية التي ألخصها من كلامه في أربعة :

1- الكناية زيادة في الإثبات لا في الذات .

قال : " ليس المعنى إذا قلنا إن الكناية أبلغ من التصريح أنك لما كُنيت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وأكد وأشد

¹ - دلائل الإعجاز ص 55 .

² - مرّ هذا ص 12، 13.

فليست المزية في قولهم : جَمَّ الرماد، أنه دَلٌّ على قِرَى أكثر بل إنك أثبتَّ له القِرَى الكثير من وجه هو أبلغ، وأوجبته إيجاباً هو أشد " ¹.

2- منشأ الزيادة المذكورة أن إثبات الصفة كان بإثبات دليلها .

قال : "...فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه أن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلاً ، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف ، بحيث لا يُشكُّ فيه ولا يُظنُّ بالمخبر التجوُّز والغلط " ²، وهذه الكلمة شأن كبير في مصداقية الكناية كوسيلة للبيان النبوي سيأتي في موضعه إنشاء الله تعالى .

3- بلاغة الكناية معنوية أي في المركب من معاني الكلام ، لا لفظية .

قال : " فقد زال الشك وارتفع في أن طريق العلم بما يراد إثباته والخبر به عن هذه الأجناس الثلاثة التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل المعقول دون اللفظ من حيث يكون القصد بالإثبات فيها إلى معنى ليس هو معنى اللفظ ولكنه معنى يُستدل بمعنى اللفظ عليه ويُستنبط منه ، كنحو ما ترى من القصد في قولهم هو

¹ - دلائل الإعجاز ص 56 ، وعاد لتأكيد هذا في مناسبة أخرى ص 343 ، فقال : " فإذا جعلوا للكناية مزية على التصريح لم يجعلوا تلك المزية في المعنى المكنى عنه ولكن في إثباته للذي ثبت له ، وذلك أنا نعلم أن المعاني التي يُقصد الخبر بها لا تتغير في أنفسها بأن يكنى عنها بمعان سواها ويُترك أن تذكر الألفاظ التي هي لها في اللغة ، ومن هذا الذي يشك أن معنى طول القامة وكثرة القِرَى لا يتغيران بأن يكنى عنهما بطول النجاد وكثرة رماد القدر ، وتقدير التغير فيهما يؤدي إلى أن لا تكون الكناية عنهما ولكن عن غيرهما " .

² - دلائل الإعجاز ص 57 .

كثير رماذ القدر إلى كثرة القرى ، وأنت لا تعرف ذلك من اللفظ الذي تسمعه ولكنك تعرفه بأن تستدل عليه بمعناه على ما مضى من الشرح فيه " ¹ إذا لا تقع الكناية عند عبد القاهر في معاني الكلم المفردة بل في المركب من معاني الكلام، وهذا يُستشفّ من جميع أمثله التي ذكرها ، ثم إنه يندرج في سياق نظريته العامة في النظم وهو لا يزال يدور عليها في الدلائل عند كل مناسبة ، ومنها الكناية: " يعلم كل عاقل أنه لا يكتفى باللفظ عن اللفظ وأنه إنما يكتفى بالمعنى عن المعنى " ².

4- نجاح الكناية منوط بقرب دلالة المعنى المذكور على المعنى المستور . قال : " من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه متمكناً في دلالاته مستقلاً بوساطته ، يسفرُ بينك وبينه أحسن سفارة ، ويشير لك إليه أبين إشارة ، حتى يُخيّل إليك أنك فهمته من حاقّ اللفظ وذلك لقلة الكلفة فيه عليك وسرعة وصوله إليك " ³.

ومثل للكناية الناجحة بقول ابن هرمة :

لا أمتعُ العودَ بالفصال ولا أبتاعُ إلا قريّةً الأجل ⁴

ووجه النّجح فيها أنّها كناية عن نحر العود قبل أن تستمتع برؤية فصالها وهذا كناية عن كثرة ضيوفه وأنه كريم، والذهن ينتقل بين هذه الكنايات بيسرٍ بلا تكلف .

¹ - دلائل الإعجاز ص 339 .

² - دلائل الإعجاز ص 340 .

³ - دلائل الإعجاز ص 207.

⁴ - ديوان إبراهيم بن هرمة ص 183، والعود الإبل التي نتجت جمع عائد (اللسان عود،

ومثل للكناية الفاشلة بقول العباس بن الأحنف:

سأطلبُ بعدَ الدارِ عنكم لتقربوا وتسكبَ عيناى الدموعَ لتجمدا¹
فصوّبه في جعل سكب الدموع كناية عن الحزن والكمد لأن من شأن البكاء
أبدا أن يكون أمارّة للحزن وأن يُجعل دلالة عليه وكناية عنه كقولهم أبكاني
وأضحكني على معنى ساءني وسرني ، وخطّاه في جعله جمود العين كناية عن
السرور إذ لا نعلم أحداً جعل جمود العين دليل سرور وأمارّة غبطة وكناية عن أن
الحال حال فرح بل هو إلى أن يكون أمارّة للموت أقرب.²

ج - تقسيم الكناية وفق محدّدات ذاتية :

قسم الشيخ عبد القاهر الكناية قسمين : كناية عن صفة ، وكناية عن إثبات
الصفة ، والأولى معهودة كالكناية عن الكرم بكثرة الرماد ، والجديد إنما هو في
الكناية عن إثبات الصفة ، قال عبد القاهر: " وتفسير هذه الجملة وشرحها أنهم
يرومون وصف الرجل ومدحه وإثبات معنى من المعاني الشريفة فيدعون التصريح
بذلك ويكنون عن جعلها فيه يجعلها في شيء يشتمل عليه ويتلبس به "³.

وذكر بيت زياد الأعجم :

إنّ السماحة والمروءة والندى في قبةٍ ضربت على ابن الحشر⁴
وجعله أصلاً في موضوع هذا النوع من الكنايات، وقال: " ترك أن يصرّح
فيقول : إن السماحة والمروءة والندى لمجموعة في ابن الحشر أو مقصورة عليه أو
مختصة به ... وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح فجعل كونها في القبة
المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه وإشارة إليه فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج

¹ - ديوان العباس بن الأحنف ص 106 .

² - ينظر : دلائل الإعجاز : 207 ، 208 .

³ - دلائل الإعجاز ص 237 .

⁴ - ديوان زياد الأعجم ص : 9 ، والأغاني 28 / 12 يمدح عبد الله بن الحشر الجعدي .

إليه من الجزالة وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة ولو أنه أسقط هذه الوساطة من البين لما كان إلا كلاماً غُفلاً " ¹.

وأنوّه بالتوطئة التي مهّدها عبد القاهر لمن بعده في تنويع الكناية ، إذ وجّه النظرَ إلى تفاوت الصنعة في كل من القسمين ووقعها على صور متناسبة أو متباينة ، قال : " وكما أن من شأن الكناية الواقعة في نفس الصفة أن تجيء على صور مختلفة كذلك من شأنها إذا وقعت في طريق إثبات الصفة أن تجيء على هذا الحد ثم يكون في ذلك ما يتناسب كما كان ذلك في الكناية عن الصفة نفسها " .

- فمما يصلح أن يكون نظيراً لبیت زياد المتقدّم (إن السماحة ...)
قولُ يزيد بن الحكم :

أصبحَ في قيدك السماحةُ والمجدُ وفضلُ الصلاحِ والحسبِ ²
وقولُ الشنفرى :

بيتُ بمنجاةٍ من اللومِ بيتُها إذا ما بيوتُ بالملامة حُلّت ³
وقولُ حسان (وذكر أن له شرفاً ونبلاً) :

بنى المجدُ بيتاً فاستقرّت عمادُه علينا فأعيا الناسَ أن يتحوّلا ⁴

¹ - دلائل الإعجاز 237

² - ليزيد بن المهلب في سجن الحجاج . الأغاني 339 / 12 .

³ - ديوان الشنفرى ص 36، وفيه : تحلُّ بمنجاة من اللوم بيتها ... فهو على هذه الرواية تصريح وليس بكناية ، وهذه الرواية أليق بالشرط الثاني : إذا ما بيوت ... وأليق بالبيت السابق له :
لقد أعجبتني لا سقوياً قناعها إذا مشت ولا بذاتٍ تلقت
أي حتى إذا وصلت بيتها حلته بمنجاة من اللوم على حين أن بيوتاً أخرى تحلّ بالملامة فتمّ الكناية وثم التعريض .

⁴ - ديوان حسان بن ثابت 45 / 1 ، وفيه : بنى العزُّ بيتاً ... الخ .

وقولُ البحري :

أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحوّل¹
وهكذا كل ما تُوصّل فيه إلى "إثبات الصفة للموصوف بإثباتها في المكان
الذي يكون فيه ، وإلى لزومها له بلزومها الموضع الذي يحلّه"²، وكذلك النفي
كما في بيت الشنفرى، فلعلّ قولَ عبد القاهر هذا هو الذي أوحى للسكاكي
بفكرة اللزوم إذ الإرداف قائم على تعاقب زمني لا محالة فلا نستطيع أن نعرّف
القسم الثاني من الكناية بالإرداف لأن التلازم فيه لا يتطلّب زمنين بالضرورة ،
وسأعود إلى هذه القضية بعد .

- وهناك طريقة أخرى في إثبات الصفة للموصوف لا تناسب ما سبق ،
وليس لصورها حدٌ ولا نهاية ، ومن أمثلتها³:

للبحري :

ظللنا نعودُ الجودَ من وعكك الذي وجدتَ وقلنا اعتلّ عضوُ من المجد⁴
ولأبي تمام :

أبينَ فما يزرَن سوى كريمٍ وحسبُك أن يزرَن أبا سعيد⁵
- وتجري هذه الطريقة في التناسب والاختلاف في الكناية عن الصفة أيضاً :
فإن جبان الكلب في قول الآخر :

وما يكُ في من عيبٍ فيّ جبانُ الكلب مهزولُ الفصيل⁶

¹ - ديوان البحري 3/ 757. يمدح محمد بن علي بن عيسى بن موسى بن طلحة القُمي .

² - دلائل الإعجاز ص 239 .

³ - ينظر دلائل الإعجاز ص 240 ، 241 ، 242 .

⁴ - ديوان البحري 2/ 757 في إبراهيم بن المدبر لما اعتلّ . ويروى: ظللنا نعود المجد..

⁵ - ديوان أبي تمام 260/1 (شرح د. محيي الدين صبحي، دار صادر) ، وأبو سعيد اسمه محمد

بن يوسف الثُّغري .

⁶ - الحماسة 2/ 292 ، ولم أعثر على نسبة البيت .

له نظائر منها :

رفعتُ له ناري فلما اهتدى بها زجرتُ كلابي أن يهرَّ عَقورها¹
من حيث لم يكن ذلك الجبن إلا لأنه دام منه الزجر واستمر .
ولمhezول الفصل في البيت نظير من قول ابن هرمة المتقدم : لا أمتعُ العوذ
بالفصال... الخ.
فكل من مهزول الفصل وجبان الكلب جنسٌ على حدة من الكنايات وإن
كان الممكنى عنه واحداً².

ثانياً - الزمخشري (- 538هـ) :

يتلخص عمله النظري في أمرين : محاولة الفصل بين الكناية والتعريض ،
وإضافة قسم ثالث هو الكناية عن الموصوف .

أ- الفصل بين الكناية والتعريض

قال : " فإن قلت : أي فرق بين الكناية والتعريض قلت : الكناية أن تذكر
الشيء بغير لفظه الموضوع له كقولك : طويل النجاد ... والتعريض أن تذكر
شيئاً تدل به على شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتكَ لأسلم
عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم ... وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على
الغرض ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريده "³.

¹ - البيت لشريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، من سادات الجاهلية ورؤساء بني عامر
بن صعصعة ، كما في الحماسة 329/2. ونسبه في الأغاني 321/12 لشبيب بن البرصاء شاعر
إسلامي بدوي فصيح من شعراء الدولة الأموية .

² - ينظر : دلائل الإعجاز 238 ، 241 .

³ - الكشف 1/ 214 ، في تفسير قوله تعالى : (وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةٍ
النِّسَاءِ) {البقرة: 235} .

وينبغي ملاحظة أنه لا يعرف الكناية في هذا المعرض ولكن يأخذ من تعريفها ما يساعده على التفريق بينها وبين التعريض .

وذكر أن قوله تعالى : (وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ) {آل عمران: 77} ، مجاز عن الاستهانة، قال : " فإن قلت أي فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر وفيمن لا يجوز عليه ؟ قلت: أصله فيمن يجوز عليه النظر كناية لأن من اعتد بإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثمَّ نظر ، ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية " ¹

وهذا نصٌ جليل الخطر لأنه يفصل الكناية عن المجاز ، وإن أخطأ فيه بعض الأفاضل ممن حاولوا سَوِّق الكناية إلى المجاز بالسلاسل ². ثم إنه يلفت النظر إلى قضية مهمّة في حجم أن تحلّ معضلة ، وهي تحوُّل الكناية إلى مجاز عند كثرة الاستعمال ، وعليه أقول : إن قولنا كثير الرماد في وصف أحد كرماء العصر حيث لا رماد ليس كنايةً وإنما هو مجاز عما كان كناية في الأصل ، أي هو مثل من قيل فيه كثير الرماد كناية .

ب- إضافة قسم ثالث للكناية :

وهو الكناية عن موصوف، وذلك في تفسيره لقوله تعالى : (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ) {القمر: 13}، حيث قال : " أراد السفينة وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنبوئ منابها وتؤدي مؤداها " ³.

¹ - الكشف 288/1 .

² - منهم الدكتورة هيفاء عربية إذ قالت في تعليقها على كلامه : " فالأمر سيان عند الزمخشري والأسلوب أسلوب كناية في هذه الآية سواء أمكن منه تأتي المعنى الحقيقي أو استحال ، فهو كناية إن أمكن التأتي وكناية مجاز إن تعذر ذلك ، وهذا من سابقات الزمخشري " . الكناية في البلاغة العربية بين النظرية والتطبيق ص 52.

³ - الكشف 345/3 .

ولا بد من الإشارة إلى أنّ تبينَ مذهب الزمخشري في الكناية وفي عموم الأنواع البلاغية يتطلّب ريادةً في كتبه لتتبّع مواضع الفكرة، حتى يمكن التسليم بما قاله الدكتور شوقي ضيف: "يمكن أن يقال إنّ قواعد علم البيان قد كُملت عنده كما كُملت عنده قواعد علم المعاني"¹.

وأرى أن كتاب الفائق في غريب الحديث قد سمح للزمخشري بتطبيق ميداني واسع، كما سمح لنا بدروب تقود إلى معرفة مذهبه ، وقد حاولت استقراء ما نعتة بالكناية فوقعت على طائفة جرى في شطرٍ منها على مصطلح الإرداف وفي شطر على المعنى اللغوي للكناية لكنني لاحظت أنه عندما يجري على الكناية بالإرداف يحرص على بيان وجه الكناية وينبسط قلمه في ذلك ، وعندما يجري على المعنى اللغوي يقتضبها اقتضاباً .

وأكتفي بالتمثيل مع الإشارة للمواضع الأخرى :

فمن الشطر الأول : ورم الأنف كناية عن إفراط الغيظ ، قال : " لأنه يردفُ الاغتيال الشديد أن يرم أنفُ المغتاظ ويتنفخ منخراه "²، وثلُ العرش كناية عن إدبار الأمر وذهاب العز ، قال : " لأن الإدالة من الملك يردفها ثلُ عرشه "³، ورفع الحكمة كناية عن الإعزاز ، قال: " من صفة الدليل أن ينكس ويضرب بذقنه صدّره "⁴، وله نظائر نجدتها في الفائق 40/1، 80/1، 444/1، 226/1، 60/4.

وقد حرص في الأمثلة المذكورة والمشار إلى مواضعها على بيان وجه الكناية وكله وفق مصطلح الإرداف .

¹ - البلاغة تطور وتاريخ ص 265 .

² - الفائق 99/1.

³ - الفائق 172/1.

⁴ - الفائق في غريب الحديث 302 / 1.

أما من الشطر الثاني الجاري على المعنى اللغوي، فقله : " كنى عن النساء بالأزُر كما كنى عنهنّ باللباس والفُرُش "¹، وقوله : " يجوز أن تكون الإمّرة وهى الأنثى من أولاد الضّان ، كناية عن المرأة ، كما يكون عنها بالشاة "²، وقوله : " يُقال : كان من الأمر كَيْتَ وكَيْتَ ، وذَيْتَ و ذَيْتَ ، وكَيّْة وكَيّْة ، وذَيّْة وذَيّْة ، وهى كناية "³، ونجد نظائر لهذا في الفائق : 236/1 ، 309/1 ، 51/4 ، 294/2 ، 320/1 ، 384/1 ، 294/2 ، 241/2 .

ونلاحظ في جميع أمثلة هذا الصنف أنه لم يبيّن وجه الكناية، لأنها في حقائقها استعارات وتمثيلات وليست كنايات .
وهذا الذي دعاني إلى اعتبار الزمخشري جارياً على مذهب عبد القاهر في الكناية مع مخالفته إياه في شأن التعريض .

المطلب الثالث : مرحلة اللزوم .

هذه مرحلة استقرار المصطلح ، وأبرز رجالها السكاكي والقزويني .

أولاً - السكاكي (-626هـ):

يتلخّص عمله في ثلاثة : استبدال مصطلح اللزوم بالإرداف ، والتفريق الدقيق بين الكناية والمجاز ، والتنويع المنبثق عن التقسيم .
أ- تعريف الكناية : " هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لِيُنْتَقَلَ من المذكور إلى المتروك كما تقول فلان طويل النجاد لينتقل منه إلى ما هو ملزومه "⁴ .

¹ - الفائق في غريب الحديث 40/1 .

² - الفائق في غريب الحديث 59/1 .

³ - الفائق في غريب الحديث 291/3 .

⁴ - مفتاح العلوم ص 512 .

وربط السكاكي بين التعريف وبين الأصل اللغوي فقال : " سمي كناية لما فيه من إخفاء وجه التصريح لأن ك ن ي كيفما تركبت دارت على معنى الخفاء " ¹ .
وقد يكون من المفيد التنبيه على ما نقله الدكتور أحمد مطلوب من تعريفه ،
حيث قال : " وقال السكاكي : هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما هو ملزومه لينتقل من المذكور إلى المتروك " ² . فإنه خطأ لأن (ما يلزومه) غير (ما هو ملزومه) ، والأولى هي الصحيحة بالنسبة لتعريف السكاكي ويؤكد ما سيأتي في تفريقه بين الكناية والمجاز من أن مبنى الكناية في الانتقال من اللازم إلى الملزوم .
وربما ضاق صدر المشتغلين بالأدب عن بعض مصطلحات الفلسفة فنقموا على السكاكي هذا النحو وسارت الركبان بهذه النقمة فصارت كالشيء المسلم به حتى تجد صداه في كثير من البحوث ، وانظر إلى قول الدكتورة هيفاء عريية :
" دخلت الكناية على يد السكاكي مرحلة التنظير الفلسفي حيث أدخلها في علم البيان وشغل الكناية بقضية اللزوم الفلسفي " ³ ، وقولها : " والسكاكي لا يعدو ما جاء عند الزمخشري في التقسيم الثلاثي لكنه بالغ في التجزئة مبالغة أخرجتها عن روح البلاغة " ⁴ ثم قولها : " وكان له فضل وضع مصطلح الكناية وتحديدده في البلاغة العربية التحديد الأخير " ⁵ !.

وليس من الجيد أطراح تجزئته فإلا نُفد منها في دراسات أدبية يُفد منها علم النفس أو غيره، والتنظير الفلسفي هو الذي أدى به إلى الفضيلة المنوّه بها ، فإذا أريد للشيء من المعرفة أن يُسمّى علماً فلا بدّ له من فلسفة واصطلاح ، ولا

¹ - مفتاح العلوم ص 512 .

² - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص 570 .

³ - الكناية في البلاغة العربية بين النظرية والتطبيق ، ص 55.

⁴ - الكناية في البلاغة العربية بين النظرية والتطبيق ، ص 57.

⁵ - الكناية في البلاغة العربية بين النظرية والتطبيق ، ص 59.

علاقة لهذا بروح البلاغة فإن لها ميداناً آخر هو الواقع والتطبيق ، ولو جئت
تفلسف الروح نفسها لما بقيت روحاً إلا في الفلسفة ، ولكنها سُنّة العلم .

ب- الفرق بينها وبين المجاز :

قال السكاكي: " الفرق بين الكناية والمجاز يظهر من وجهين :

الأول: الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة بلفظها فقولك: فلان طويلُ النجاد، لا
ينافي أن تريد طولَ نجاده من غير ارتكاب تأوُّلٍ مع إرادة طول قامته والمجاز ينافي
ذلك فلا يصحُّ في نحو رعينَا الغيث أن تريد معنى الغيث .

والثاني: مبنى الكناية في الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومبنى المجاز في الانتقال
من الملزوم إلى اللازم¹.

ج - أقسام الكناية وأنواعها²:

ثلاثة أقسام ، الأول كناية يطلب بها الموصوف ، والثاني كناية يطلب بها
الصفة ، والثالث كناية يطلب بها تخصيص الصفة بالموصوف .

ثم هي في القسمين الأولين قريبة أو بعيدة والأمر يرجع في ذلك إلى عدد
اللوازم المذكورة فإن كفى ذكرُ لازمٍ واحد في الانتقال الذهني إلى الملزوم المتروك
ذكرُه فهي كناية قريبة كالكناية عن زيد بالمضياف لاختصاص عرضي بالصفة ،
والكناية عن طول القامة بطول النجاد ، وإن احتيج إلى لوازم متعددة تسانداً أو
تسلسلاً فهي بعيدة ، كالكناية عن الإنسان بحَي مستوي القامة عريض الأظفار
، والكناية عن الكرم بكثرة الرماد التي تلزم عن كثرة الحطب اللازمة عن كثرة
الذبائح اللازمة عن كثرة الأضياف اللازمة عن الكرم.

¹ - مفتاح العلوم ص: 513 .

² - مفتاح العلوم ص : 514.

وأما القسم الثالث فلا يذكر له السكاكي تقسيماً ومثل له بقولهم: المجد بين ثوبيه، وقول زياد المتقدم¹:

إِنَّ السَّامِحَةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنَّدَى فِي قَبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ
وذكر السكاكي في حديثه عن الكناية القريبة عن الصفة أنها تكون واضحة أو خفية، فالكناية عن طول القامة بطول النجاد واضحة، أما الكناية بعريض القفا عن الغبي فخفية، والوضوح والخفاء فيما أرى إنما هو بحسب قوة اللزوم، وبدا لي أن السكاكي لا يعني اختصاص هذا القسم بهذا التقسيم بل الوضوح والخفاء والقرب والبعد تنوع يقع في أقسام الكناية الثلاثة، حيث مثل بعداً للكناية القريبة الواضحة التي سماها إشارة بقول أبي تمام المتقدم²:

أَبِينَ فَمَا يَزِرْنَ سَوَى كَرِيمٍ وَحَسْبُكَ أَنْ يَزِرْنَ أبا سَعِيدٍ
وهذا في الأصل من القسم الثالث الذي هو الكناية عن تخصيص الصفة بالموصوف.

ثم قال السكاكي: "إن كانت عَرْضِيَّة ناسب أن نسميها تعريضاً وإلا فإن كانت بعيدة لتوسط اللوازم سميت تلويحاً لأن التلويح هو الإشارة من بعد. أو كانت قريبة واضحة سميت إيماء وإشارة: أبين فما يزرن سوى كريم... أو كانت قريبة خفية سميت رمزاً".³

ثانياً - القزويني (- 739هـ):

أ- تعريف الكناية عند القزويني والفرق بينها وبين المجاز:

¹ - ص 27.

² - ص 29.

³ - مفتاح العلوم ص: 521.

عرف القزويني الكناية فقال: " الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه"¹. ومثل بطويل النجاد ونؤوم الضحى ، قال : " ولا يمتنع أن يراد مع ذلك طول النجاد والنؤوم في الضحى من غير تأويل "².

وقال في الفرق بينها وبين المجاز أنه "من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه فإن المجاز ينافي ذلك فلا يصح في نحو قولك في الحمام أسد أن تريد معنى الأسد من غير تأويل لأن المجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة كما عرفت وملزوم معاند الشيء معاند لذلك الشيء "³.

واحتج هنا إلى التوفيق بين ما ذكره في التعريف من جواز إرادة المعنى الحقيقي وما ذكره في التفريق من إرادة المعنى الحقيقي دون لفظ الجواز، فمن الشراح من أهمل قوله الثاني⁴، ومنهم من تكلف تقدير مضاف محذوف في الثاني هو الجواز ، قال السعد التفتازاني : " ليوافق ما ذكره في تعريف الكناية ، ولأن الكناية كثيراً ما تخلو عن إرادة المعنى الحقيقي للقطع بصحة قولنا فلان طويل النجاد وجبان الكلب ومهزول الفصيل، وإن لم يكن له نجاد ولا كلب ولا فصيل، ومثل هذا الكلام أكثر من أن يحصى "⁵.

قلت : ولكن لا يبقى ما ذكر كنايةً حينئذ بل مجازاً عما وقع كناية في الأصل، أي يصبح قولهم طويل النجاد مثلاً في الطول وليس كناية وكذا جبان

¹ - الإيضاح في علوم البلاغة ص : 301 .

² - الإيضاح في علوم البلاغة ص : 301 .

³ - الإيضاح في علوم البلاغة ص : 301 .

⁴ - كالبهاء السبكي في عروس الأفراح 4 / 239، حيث قال: " والذي ذكره هنا ليس

بشيء "

⁵ - شرح السعد على التلخيص 4 / 240 ؛ وينظر : مواهب الفتاح ، ابن يعقوب المالكي

. 239/4 .

الكلب ومهزول الفصيل، وتقدّم تحرير هذا في الحديث عن الكناية عند الزمخشري¹.

واعترض القزويني على تفريق السكاكي بينهما القائل بأن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومبني المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم ، قال القزويني : "وفيه نظر لأن اللازم ما لم يكن ملزوماً يمتنع أن يُنتقل منه إلى الملزوم فيكون الانتقال حينئذ من الملزوم إلى اللازم".² وعليه أبعاد القزويني صياغة التعريف .

وفسّر السعد هذا الامتناع بأن " اللازم من حيث هو لازم يجوز أن يكون أعمّ ولا دلالة للعامّ على الخاص"³.

على أن السعد وغيره ذكروا أن اللازم يكون أخص إذا وُجد على سبيل التبعية والإرداف للغير في الوجود والاعتبار ، لكنهم أوردوا على ذلك أنه لا اختصاص للكناية بالإرداف وقد يقع في المجاز نحو قولهم رعينا الغيث والمقصود النبات الذي يردفه⁴.

ويمكن أن يجاب عليهم بأنه قبل حديث الإرداف يُنظر في الكناية إلى إرادة المعنى الحقيقي فإذا كان مستحيلاً كرعي الغيث مُنعت الكناية ولم يُلتفت إلى قضية الإرداف ، فالكناية إذاً تطير بجناحين : إرادة المعنى الحقيقي والإرداف ، ولا محل لما أوردوه ، وهذا الجواب من أجل طريقة القزويني أما على طريقة السكاكي فلا إشكال إصلاً لأن النبات لازم للغيث والغيث ملزوم والانتقال في

¹ - ينظر: ص 31 .

² - الإيضاح في علوم البلاغة ص : 302 .

³ - شرح السعد على التلخيص 244/4؛ وينظر مواهب الفتاح لابن يعقوب 244/4.

⁴ - ينظر : شرح السعد 246 / 4 ؛ مواهب الفتاح لابن يعقوب 246/4 ؛ حاشية الدسوقي

على شرح السعد 246/4 .

هذا المجاز تم من الملزوم إلى اللازم وليس من اللازم إلى الملزوم كشأن الكناية، والله أعلم .

وذكر البهاء السبكي أن المقصود باللازم في هذا الباب ما كان معروضاً لغيره، كما أن الأعم وإن لم يستلزم الأخص لكن لا يمتنع انتقالُ الذهن إليه بقرينة، قال : "وحاصله أن المصنّف (يعني القزويني) والسكاكي لا خلاف بينهما إلا في التسمية فإنهما متفقان على أن ذهن السامع لقولنا كثير الرماد ينتقل من كثرة الرماد إلى الكرم غير أن السكاكي يسمي كثرة الرماد لازماً وهو الحق ... والمصنّف لما تقرّر عنده أن اللازم لا ينتقل الذهن فيه إلى الملزوم سماه ملزوماً وجعل الذهن ينتقل منه " ¹.

ب- أقسام الكناية عند القزويني :

والكناية عند الخطيب القزويني ثلاثة أقسام "المطلوب بها إما غير صفة ولا نسبة، أو صفة، أو نسبة... والمراد الصفة المعنوية كالجود والكرم والشجاعة وأمثالها لا النعت " ².

ولم يتبين لي وجه عدوله عن موصوف إلى غير صفة ولا نسبة ولكن ذكر أن منه ما يكون ذا معنى واحد كالمضياف كناية عن زيد ، ومجامع الأضغان كناية عن القلب ، وحيث يكون اللب والرعب والحق كذلك ، ومنه ما يكون مجموع

¹ - ينظر : عروس الأفراح 245/4، 246.

² - الإيضاح في علوم البلاغة ص : 302 .

معانٍ كحي مستوي القامة عريض الأظفار كناية عن الإنسان¹، وشرطُ كلٍّ منهما أن تكون مختصة بالمكنى عنه لاتتعداه ليحصل الانتقال منها إليه².

أما المطلوب بها الصفة فجعلها القزويني قسمين قريبة يُنتقل منها إلى المطلوب بلا واسطة، وبعيدة ينتقل منها إلى المطلوب بها بواسطة، وجعل القريبة قسمين واضحة وخفية، ومثلٌ للقريبة الواضحة بطول النجاد، وبيت الحماسي :

أَبَتْ الرَوادِفُ والثَدْيُ لِقَمَصِهَا مَسَّ البَطُونُ وَأَنْ تَمَسَّ ظَهُورًا³

ومثلٌ للخفية بعريض القفا كناية عن الأبله، ومثلٌ للبعيدة بعريض الوسادة، وكثير الرماد، وجبان الكلب، ومهزول الفصيل، و"لا أمتع العوذ بالفصال ولا أبتاع إلا قرية الأجل" وغيرها، قال : "ومن لطيف هذا القسم قوله تعالى: (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) {الأعراف: 149} أي : ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعرض يده غمماً فتصير يده مسقوطةً فيها لأن فاه قد وقع فيها"⁴.

وقول المتنبي كناية عن الكذب :

تشتكي ما اشتكى من ألم الشوق قِ إليها والشوق حيث النحول⁵

¹ - قال بهاء الدين السبكي : "هذا القسم بجملته في عدّه من الكناية نظر؛ لأن الكناية ما تقابل الصريح والحدّ والرسم صريحان في المعنى، وكذلك الكنى التي هي أحد أنواع الأعلام صرّحوا بأنها كناية وفيه نظر لأن الكنية علم والعلم صريح في مسماه فلا فرق بين دلالة أبي عبد الله ودلالة زيد العلمين عليه " عروس الأفراح 251/4 .

² - ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ص : 302 .

³ - الحماسة 93 / 2 غير منسوب .

⁴ - الإيضاح في علوم البلاغة ص : 305 .

⁵ - ديوان المتنبي بشرح العكبري 149 / 3، وفيه "من طرب الشوق" وقال العكبري : " ثم إنه كنى عن تكذيبها ولم يصرح بأحسن الكنايات بأن نحولي يدلّ على اشتياقي ومن لم يكن ناحلاً لم يكن مشتاقاً لأن النحول دليل الشوق والحنة " الشرح 149 / 3.

وكذا قول أبي تمام :

فإن أنا لم يحمذك عني صاغراً عدوك فاعلم أنني غير حامد¹
كنتي عن جودة المدح بحفظ العدو له ، وأيضاً عن صغار هذا العدو .
وأشير إلى أنه أطال وأجاد في تحليل أمثله التي ساقها .

وأما الثالثة المطلوب بها نسبة ، فقد مثل لها بقولهم : المجد بين ثوبيه ، وبيت
زياد الأعجم : إن السماحة والمروءة ... ، وقول الشنفرى : بيت بمنجاة من
اللوم بيتها ... ، وبقولهم : مثلك لا يخل ، والعرب لا تخفر الذمم ، وأيفعت
لدائه وبلغت أترابه ، قال : " وعليه قوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)
{الشورى:11} على أحد الوجهين وهو أن لا يجعل الكاف زائدة ، قيل وهذا
غاية لنفي الشبيه إذ لو كان له مثل لكان لمثله شيء يماثله وهو ذاته تعالى فلما
قال ليس كمثلته دلّ على أنه ليس له مثل ، وأورد أنه يلزم منه نفيه تعالى لأنه
مثل مثله وردّ بمنع أنه تعالى مثل مثله لأن صدق ذلك موقوف على ثبوت مثله
تعالى عن ذلك "².

وذكر أمثلة أخرى في موضع متقدم من كتابه في حديثه عن التقديم والتأخير
، قال : " وما يرى تقديمه كاللازم لفظ مثل إذا استعمل كنايةً من غير تعريض "³
، وما ذكره قول أبي تمام :

وغيري يأكل المعروف سُخْتاً وتشحّب عنده بيض الأيادي⁴

¹ - ديوان أبي تمام 1/ 276 (شرح د. محيي الدين صبحي، دار صادر) ، بمدح محمد بن الهيثم
بن شبابة .

² - الإيضاح في علوم البلاغة ص : 307.

³ - الإيضاح في علوم البلاغة ص : 65.

⁴ - ديوان أبي تمام 1/ 216 .

وساق القزويني أنواع الكناية كما هي عند السكاكي ونقل عنه أنه قال: " والتعريض كما يكون كناية قد يكون مجازاً كقولك آذيتني فستعرف ، وأنت لا تريدُ المخاطبَ بل تريد إنساناً معه وإن أردتهما جميعاً كان كناية ¹ .

وذكر القزويني في موضع آخر ضرباً من الكناية هو الكناية بالفعل مطلقاً عن الفعل المتعلق بمفعوله المخصوص ² ، كقول البحري يمدح المعتز بالله ويعرّض بالمستعين بالله :

شَجُوْ حُسَّادِهِ وَغِيْظُ عِدَاةِ أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعُ وَاعِي ³

فجعل مطلق الرؤية كنايةً عن رؤية محاسنه وآثاره ، ومطلق السماع كنايةً عن سماع أخباره ، وهذا في الجملة كنايةً عن جليلفعاله .

وقول عمرو بن معديكرب :

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقْتَنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَتْ ⁴

كناية عن فشلهم .

والجدير بالذكر أن هذه المرحلة امتداداً لمرحلة عبد القاهر، مع تنظيم أدق اقتضاه المنطق ، ومضى البلاغيون بعد مقلّدين في معظمهم لعبد القاهر والسكاكي والقزويني ، فمنهم من يذكر الإرداف ومنهم من يذكر اللزوم على طريقة السكاكي ومنهم من يذكره على طريقة القزويني وكلّها في نظرهم واحد، وهكذا مال مصطلح الكناية إلى الاستقرار على ما حصّص به القزويني تعريف السكاكي الذي قام على تعريف عبد القاهر .

¹ - الإيضاح في علوم البلاغة ص : 310.

² - ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ص : 104 ، 105 .

³ - ديوان البحري 2 / 1244 .

⁴ - ديوان عمرو بن معديكرب ص 73، وهو في الحماسة لأبي تمام 45/1 . والإجرام أن يشق لسان الفصيل لثلا يرضع .

طرائق خارج المفهوم المستقر للكناية

وهذا الخروج عن النظام السائد في المرحلة الثانية والثالثة كان على المستويين النظري والعملي :

المطلب الأول : الخروج على المستوى النظري .

وأعني به المغايرة بالتعريف ، ويمثله ابن الأثير ومن نحا نحوه .

أولاً- ابن الأثير، ضياء الدين (-637هـ):

قال ابن الأثير رحمه الله : " حد الكناية الجامع لها هو أنها كلُّ لفظة دلّت على معنىٍّ يجوز حملة على جانبي الحقيقة والمجاز بوصفٍ جامع بين الحقيقة والمجاز " ¹. وهذا تكييفٌ لغويٌّ للكناية لتجد موقعها بالنسبة إلى الحقيقة والمجاز . وقد كان من سبقه من أصحاب المرحلتين الثانية والثالثة حرصوا على بيان ذلك ولكنهم فصلوه عن التعريف .

وربط ابن الأثير بين الكناية وأصلها اللغوي ، بأنها مشتقة من الستر ، من كنى الشيء إذا سترته ، وأن هذا الحكم أجري في الألفاظ التي يُستر فيها المجاز بالحقيقة ، فيكون دالاً على الساتر والمستور معاً ، مثل : (أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) {النساء:43} فإنه إن حُمِلَ على الجماع كان كناية ، وإن حُمِلَ على الملامسة كان حقيقة وكلاهما يتم به المعنى . أو من الكنية فإن عبد الله إذا كني بأبي محمد إن شئنا نأديناه بهذا وإن شئنا بهذا .

ويتلخّص عمل ابن الأثير في ثلاثة :

عدُّ الكناية من المجاز ، وإعادة تقسيم الكناية ، وفصلها عن التعريض .

¹ - المثل السائر 2/ 182 .

أ- عدّه الكناية من المجاز ، وقوله تعالى: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا) {الرعد:17} كناية عن العلم والقلوب والضلال على الترتيب، قال : " وقد رأيت جماعة من أئمة الفقه لا يحققون أمر الكناية ، وإذا سئلوا عنها عبّروا عنها بالمجاز وليس الأمر كذلك ، وبينهما وصف جامع ، كهذه الآية وما جرى مجراها فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم ، وكذلك يجوز حمل الأودية على مهابط الأرض وعلى القلوب ، وهكذا يجوز حمل الزبد على الغناء الرابي الذي تقذفه السيول وعلى الضلال ، وليس في أقسام المجاز شيء يجوز حمله على الطرفين معاً سوى الكناية"¹.

وأما قوله تعالى : (وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) {إبراهيم:46} فيراه استعارةً وليس كناية ؛ إذ لا يمكن حملها إلا على أمر رسول الله وما جاء به من الآيات ، ومُحال أن تُحمّل على جبال الأرض حسب قوله. والكناية عنده من الاستعارة؛ لأن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يُطوى ذكر المستعار له وكذلك الكناية ، فكل كناية استعارة وليس العكس ، وتكون نسبتها إلى المجاز على هذه الطريقة نسبة جزء الجزء ، ولكنه يعود فيقول : " قد يأتي في الكلام ما يجوز أن يكون كناية ويجوز أن يكون استعارة وذلك يختلف بحسب النظر إليه بمفرده والنظر إلى ما بعده"²، ومثّل له بقول نصر بن سيار :

أرى خلل الرماد وميضَ جمرٍ ويوشك أن يكون له ضرام
فإنّ النار بالزّندين تُورى وإن الحرب أوّلها كلام³

¹ - المثل السائر 192/2 .

² - المثل السائر 185/2 .

³ - الأغاني 67/7 .

فعنده أن البيت الأول بمفرده كناية ، ومع الثاني يصبح استعارة ، وهذا يعني أنه يفرّق في الواقع بين الاستعارة والكناية ، وأن الكناية تؤول إلى استعارة حيث وجدت القرينة .

ومن الواضح استناداً إلى بيت نصر الأول الذي يراه ابن الأثير كناية ، أن المماثلة عنده من الكناية ، وهذا ما يصرّح به بعد ، فيقول : " فإن التمثيل على ما ذُكر عبارة عن مجموع الكناية؛ لأن الكناية إنما هي أن تراد الإشارة إلى معنى فيوضع لفظاً لمعنى آخر ويكون ذلك اللفظ مثلاً للمعنى الذي أريدت الإشارة إليه " ¹ فالملاحظ من تعريفه وتفسيره وأمثله بعد أنه لا يمكن حمل اللفظ في الكناية على المجاز والحقيقة في الوقت ذاته، بل إذا حُمِلت على أحدهما امتنع حملها على الآخر ، وكنت ذكرتُ أن اللفظ في الكناية لا يُنقل عما وُضع له فيدلّ على المعنيين في آن واحد ، وفي المجاز يُنقل فإذا دل على المعنى الثاني توقفت دلالاته على المعنى الأول ، فهذا الذي ذكره ابن الأثير أنه كناية هو نوع من المجاز عُدّت فيه القرينة وليس كنايةً على وجه التحقيق ، والله أعلم .

ب - إعادة تقسيم الكناية :

لا أعني التقسيم الذي ساد في المرحلة الثانية والثالثة وهو الكناية عن صفة وموصوف ونسبة ، بل تقسيماً نسبته ابن الأثير إلى قوم لم يسمّهم أنهم قسموا الكناية إلى تمثيل وإرداف ومجاورة، وانتقد هذه القسمة بأن الكلّ تمثيلٌ على ما تقدّم ذكره ، وقال إن الإرداف ضربٌ خاص من اللفظ المركب في الكنايات ، وضرب مثلاً ما جاء في حديث أم زرع : ((له إبلٌ قليلاً المسارح

¹ - المثل السائر 2/ 185 .

...الخ))¹ كناية عن الجود على وجه الإرداف ، وحديث عائشة رضي الله عنها ((تَبَّعِي بِهَا أَثَرُ الدَّمِ))² كناية عن الفرج. وبيت عمر بن أبي ربيعة المتقدم³ :
 بعيدة مهوى القِرْطِ إمّا لنوفلٍ أبوها وإمّا عبدُ شمسٍ وهاشمُ
 وقولهم : مثلي لا يفعل هذا ، والعرب لا تحفر الذمم ، وقول المتنبي :
 أَلَسْتَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ رَمَاحُهُمْ نَدَاهُمْ وَمِنْ قَتْلَاهُمْ مُهْجَةُ الْبُخْلِ⁴

¹ - رواه البخاري ومسلم : البخاري في النكاح (حسن المعاشرة مع الأهل) 5189 ، ومسلم في فضائل الصحابة (ذكر حديث أم زرع) 2448 ، من حديث عائشة رضي الله عنها .
 قال ابن حجر : " لاستعداده للضيفان بها لا يوجّه منهن إلى المسارح إلا قليلاً ، ويترك سائرهن بفنائها ، فإن فاجأه ضيف وجد عنده ما يقريه به من لحومها وألبانها " فتح الباري 266/9 .

² - رواه الستة إلا الترمذي من حديث عائشة من طريقين :
 - طريق منصور بن صفية بنت شيبه عن أمه عن عائشة أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن غسلها من الحيض فأمرها كيف تغتسل ، قال : ((خذي فرصة من مسك فتطهري بها)) قالت : كيف أتطهر ؟ قال : ((تطهري بها !!)) قالت : كيف . قال : ((سبحان الله ! تطهري)) فاجتذتها إلي ، فقلت : تتبعي بها أثر الدم ..

البخاري في الحيض (ذلك المرأة نفسها إذا تطهرت من الحيض وكيف) 314 ، ومسلم في الحيض (استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة مسك) 332 ، والنسائي في الطهارة (ذكر العمل في الغسل من الحيض) 251

- وطريق إبراهيم بن المهاجر عن صفية : رواه مسلم في هذا الموضع متابعة ، و أبو داود في الطهارة (الاغتسال من الحيض) 314 ، وابن ماجه في الطهارة وسننها (الحائض كيف تغتسل) 642 ، وذكر في هذه الطريق اسم السائلة أنها أسماء بنت شَكل ، وفي رواية أبي داود من طريق سلام ابن سليم (أبو الأحوص) عن إبراهيم بن المهاجر عن صفية بنت شيبه عن عائشة ، وفيه قالت عائشة : " فعرفت الذي يكني عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لها تتبعين بها آثار الدم " .

قال ابن حجر : " فيه استحباب الكنايات فيما يتعلق بالعورات " فتح الباري 416/1 .

³ - ص 22 .

⁴ - ديوان المتنبي 3/ 45 ، يرثي عبد الله بن سيف الدولة .

ثم إن ابن الأثير رأى قسمة الكناية إلى حسنة وقبيحة فقال : " اعلم أن الكناية تنقسم قسمين : ما يحسن استعماله والآخر ما لا يحسن استعماله وهو عيب في الكلام فاحش " ¹.

وما ذكره يصلح لكل كلام فيقال يحسن استعماله أو لا يحسن، وأهل المنطق يسمون هذا تصنيفاً وليس تقسيماً إذ التباين فيه بالعرضيات لا بالذاتيات ².
ثم عمد إلى التمثيل لتقسيمه فقال : " وإذ فرغت من ذكر الأصول التي قدمت ذكرها فإني أتبعها بضرب الأمثلة نثراً ونظماً " ³:

فمما مثّل به للكنائيات الحسنة :

من القرآن :

- 1- (أَيُّبُّ أَحَدِكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) {الحجرات:12} كناية عن الغيبة وتمزيق الأعراض .
- 2- (وَأَوْزَنُكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا) {الأحزاب:27} كناية عن مناكح النساء كما قال ⁴ .
- 3- (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا) {الرعد:17} كناية عن العلم والقلوب والضلال على الترتيب ، كما تقدّم.

¹ - المثل السائر 187/2 .

² - ينظر : التعريفات ، الجرجاني : 224 .

³ - المثل السائر 191/2 .

⁴ - الذي في تفسيرها أنها خير أو فارس والروم، أو كل أرض ظهر المسلمون عليها إلى يوم القيامة .
ينظر : تفسير الطبري 20 / 250؛ تفسير ابن كثير 6 / 399؛ تفسير أبي السعود 7 / 100 .

ولم أعثر فيما بحثت فيه من التفاسير على من قال إنها مناكح النساء الذي قاله ابن الأثير ، سوى أن الزمخشري قال في الكشاف 3/ 542 : " ومن بدع التفاسير : أنه أراد نساءهم " .

وقوله من بدع التفاسير كالمكرر له ؛ وانظر كذلك روح المعاني، الألوسي 21 / 180 .

ومن الحديث نماذج أكثرها استعارات وتمثيلات ، منها ((رويدك سوقك بالقوارير))¹.

قال : " ومن ألطف ما بلغني في هذا قول عبد الله بن سلام ، فإنه رأى على رجل ثوباً معصفاً ، فقال لو أن ثوبك في تنور أهلك أو تحت قدرهم كان خيراً² ، فذهب الرجل فأحرقه نظراً إلى حقيقة قول عبد الله وظاهر مفهومه ، وإنما أراد المجاز منه وهو أنك لو صرفت ثمنه إلى دقيق تحبزه أو حطب تطبخ به كان خيراً ، والمعنى متجاذب بين هذين الوجهين " ³.

واعتبر هذا بالكناية عند عبد القاهر والسكاكي فإنها ليست من التورية والإيهام في شيء خلافاً لما يذكر ابن الأثير .

ومن أمثال العرب طائفة منها " لبس له جلد النمر "⁴: كناية عن العداوة ، و" قلب له ظهر المجن "⁵: كناية عن تغيير المودة .

¹ - تقدم تخريجه ص 17.

² - لم أجد هذا المحكي عن ابن سلام رضي الله عنه ، على أنّ الإمام الطحاوي في شرح معاني الآثار 249/4 روى نحوه مرفوعاً من طريق عمارة بن زاذان عن زياد النميري عن أنس أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه و سلم وعليه ثوب معصفر فقال له: ((لو أن ثوبك هذا كان في تنور لكان خيراً لك)) فذهب الرجل ، فجعله تحت القدر أو في التنور...

وزياد بن عبد الله النميري ضعيف كما في تقريب التهذيب 220/1 .

وقال ابن عدي في الكامل 186/3 : " وعندي إذا روى عن زياد النميري ثقة فلا بأس بحديثه " ولكن الراوي عنه عمارة بن زاذان وهو صدوق كثير الخطأ (تقريب التهذيب 2/409) ، ويروي عن أنس أحاديث مناكير ، وهكذا قال الإمام أحمد . ينظر : الجرح والتعديل 365/6 ، وميزان الاعتدال 176/3 .

³ - المثل السائر 193/2 .

⁴ - ينظر : مجمع الأمثال ، الميداني 180/2 ، وهو مثل يضرب لإظهار العداوة والتشمر والجد فيها .

⁵ - ينظر : مجمع الأمثال ، الميداني 101/2 ، وذكر نحو ما قاله ابن الأثير .

ومن الشعر :

قول أبي نواس

لا أذودُ الطيرَ عن شجرٍ قد بلوثُ المرَّ من ثمره¹
يقول إنه لا يحمي شجرةً خبرَ مرَّ ثمرها ، وهو كناية عن الصاحب الذي لا يدفع
عنه ولا يحرص عليه بعد ما ظهر له من خيائته.

وقول أبي تمام :

مالي رأيتُ ترابكم ييسرُ الثرى مالي أرى أطوادكم تتهدم²
فالشطر الأول كناية عن الجفاء وتنكر ذات البين ، والثاني عن خفة الحلوم .

ومما مثل به للكنايات القبيحة :

قول الشريف الرضي يرثي امرأة : إن لم تكن نصلاً فغمد نصال³
لأن الوهم يسبق إلى المعنى القبيح .

وقول المتنبي الذي تقدم :

إنِّي على شغفي بما في حُمري لأعفَّ عمّا في سراويلاتها⁴
كناية عن النزاهة بلفظ فاجر .

ج- الفصل بين الكناية والتعريض :

¹ - ديوان أبي نواس 1/ 495.

² - ديوان أبي تمام 102/2 (شرح د. محيي الدين صبحي، دار صادر) ، يمدح مالك بن طوق حين
عُزل عن الجزيرة ويؤنّب قومه إذ تنكّروا له ، والبيت في الديوان :
مالي رأيتُ تراكم ييساً له مالي أرى أطوادكم تتهدم

³ - ديوان الشريف الرضي 182/2 ، يعزي رجلاً عن أخت له ، والبيت :
إلا يكن نصلاً فغمدُ نُصول غالته أحداث الزمان يغول

⁴ - ص 15 ، ورأينا فيه الرواية الأخرى "سراويلاتها" وهي أليق به في مقام المديح .

جعلهما ابن الأثير في كتابه نوعاً واحداً بهذا العنوان ، وقال : " هذا النوع مقصور على الميل مع المعنى وترك اللفظ جانباً " ¹ ، ومع ذلك فهما مختلفان عنده .

وزعم أن علماء البيان خلطوا الكناية بالتعريض ولم يميزوا بينهما ، وذكر ابن سنان الخفاجي وقول امرئ القيس :

فصرنا إلى الحسنى ورقّ كلامها ورُضْتُ فذلت صعبةً أي إذلال ²

قال : " وهذا مثال ضربه للكناية عن المباشرة وهو للتعريض " ³ .

وعرف ابن الأثير التعريض بأنه : " اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي " ⁴ .

سمّي به لأن المعنى يفهم من عرّضه أي من جانبه ، ومثّل له بقول بعضهم أمام من يرجو صلته : إني لمحتاج ، ونحو ذلك ، والتعريض في الخطبة : إنك لخليّة وأنا عزّب .

قال : " والتعريض أخفى من الكناية لأن دلالة الكناية لفظية وضعيّة من جهة المجاز ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي " ⁵ .

وقال أيضاً : " إنما يفهم من جهة التلويح والإشارة " ⁶ .

وفرق آخر " أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركّب معاً ... وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركّب " ⁷ .

¹ - المثل السائر 180/2 .

² - ديوان امرئ القيس ص 32 ، وفيه : ورق كلامنا ...

³ - المثل السائر 180/2 .

⁴ - المثل السائر 186/2 .

⁵ - المثل السائر : 186/2 .

⁶ - المثل السائر : 186/2 .

⁷ - المثل السائر 186/2 .

وقد وقع هو فيما انتقدَه على غيره من الخلط بين أمثلة الكناية والتعريض ، قال :
" ووقفتُ في كتاب العقد على حكاية تعريضية حسنة الموقع ؛ وهو أن امرأة
وقفت على قيس بن [سعد بن] عبادة¹ ، فقالت : أشكو إليك قلة الفأر في
بيتي، فقال ما أحسن ما ورّت عن حاجتها ، املئوها لها بيتها حُبزاً وسمناً
وعسلًا"².

فليس في قولها تعريضٌ لأنها صرّحت بالشكوى ، على أن قلة الفأر كناية عن
الفقر فلو أنها ذكرته بغير شكوى لكان تعريضاً .
بل إن قيس بن سعد سماها كنايةً كما في الأصل الذي نقل عنه ابن الأثير ، فقد
جاء في العقد الفريد أنها قالت: أشكو إليك قلة الجرذان ، فقال : ما أحسن
هذه الكناية ، املئوها لها بيتها حُبزاً وسمناً وعسلًا³ .

ومما ذكره ابن الأثير من التعريض البيّن قول عمر : " أية ساعة هذه؟"⁴ تعريضاً
بالإنكار على عثمان إذ تأخر عن الخطبة ، وغير ذلك مما لا يدخل في درسنا .

¹ - في المثل السائر قيس بن عبادة ، وإنما هو قيس بن سعد بن عبادة الصحابي من رؤوس الأجواد
رضي الله عنه، وكذلك هو في العقد الفريد 216/1 .

² - المثل السائر 200/2 .

³ - العقد الفريد ، ابن عبد ربه 216/1.

⁴ - رواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث ابن عمر : البخاري في الجمعة (فضل الغسل يوم
الجمعة) 878 ، ومسلم في مطلع كتاب الجمعة 845 ، والترمذي في الجمعة عن رسول الله (ما
جاء في الاغتسال يوم الجمعة) 494 ، أن عمر بن الخطاب بينما هو قائم في الخطبة يوم الجمعة إذ
دخل رجل من المهاجرين الأولين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فناداه عمر : أية ساعة
هذه ؟ قال : إني شُغِلْتُ فلم أنقلب إلى أهلي حتى سمعت التأذين، فلم أزد أن توضأت . فقال :
والوضوء أيضاً ؟ وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل "

قال ابن حجر : " وهذا من أحسن التعريضات وأرشد الكنايات ، وفهم عثمان ذلك فبادر إلى
الاعتذار عن التأخر " فتح الباري 2 / 359.

وأختم الحديث عن ابن الأثير رحمه الله باقتراح مشروع للدراسة يتعلق بصلته بالشيخ عبد القاهر والإمام السكاكي فإن الأخير معاصره وتوفي قبله فلا غرابة مع الظروف السياسية المضطربة في تلك المدة التي انفرط بها عقد الخلافة العباسية ألا يطلع على السكاكي وكتابه ، أما الغريب حقاً فهو ألا يكون للشيخ عبد القاهر في المثل السائر ذكر، ولا لطريقته أثر ، ومثله لا يخفى على مثله¹ .

ثانياً- العلوي(749هـ) :

أ- تعريفه للكناية:

عرّف الكناية بأنها: "اللفظ الدال على معنيين مختلفين حقيقة ومجاز من غير واسطة لا على جهة التصريح"².

فقوله (اللفظ الدال) أخرج التعريض فإنه ليس مدلولاً عليه بلفظ بل هو مفهوم من جهة الإشارة والفحوى ، وقوله (على معنيين) احترز به عما يدل على معنى واحد فإنه ليس كناية ، وقوله (مختلفين) يخرج المتواطئ الدال على أمور متماثلة في قدر مشترك كحيوان، وقوله (حقيقة ومجاز) يحترز به عن المشترك الدال على معنيين حقيقة كالقرء، وقوله (من غير واسطة) يحترز به عن التشبيه الذي لا بد

¹ - بلى ثمة موضع في المثل السائر يشبه أن يكون قطعة من دلائل الإعجاز ، عند كلام ابن الأثير عن التفاضل في التراكيب دون الألفاظ وتعليقه على الآية الكريمة : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي ..) (الآية {هود:44} ، فإنك ترى هنا عبد القاهر بألفاظه وتعبيره وأسلوبه وفكرته ولا ترى ابن الأثير إلا في قوله بعد(153/1) : " وهذا موضع غامض .. وما تعرض للتنبيه عليه أحد قبلي!"

ينظر: دلائل الإعجاز ص 36، 37 ؛ المثل السائر 1/ 152، 153.

وابن الأثير هو القائل في مقدمة المثل السائر(23/1) في علم البيان : "وقد ألّف الناس فيه كتباً ، وجلبوا ذهباً وخطباً وما من تأليف إلا وقد تصفحتُ شِينه وسِينه وعلمتُ غثه وسمينه، فلم أجد ما يُنتفع به في ذلك إلا كتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن بن بشر الأمدى، وكتاب سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الحفاجي".!

² - الطراز 1/ 373.

فيه من الأداة ظاهرةً أو مضمرةً ، وقوله (لاعلى جهة التصريح) يحتز بها عن الاستعارة فإنها تدلّ من جهة القرينة فدلالتها صريحة بخلاف الكناية فإن الجماع ليس صريحاً من قوله تعالى: (فَأْتُوا حَزَنُكُمْ) {البقرة:223} وإنما هو مفهوم من جهة التبع¹ .

ب- تقسيمه للكناية:

نوع العلوي تقسيمات الكناية كأنما يحاول جمع ما سبق ، فقسمها²:

- باعتبار ذاتها إلى مفردة (كالملازمة كناية عن الجماع) ومركبة (عريض القفا).

- وباعتبار حالها إلى قريبة وبعيدة ، يقتفي بهذا أثر السكاكي .

- وباعتبار حكمها إلى حسنة وقبيحة ، يقتفي بهذا ابن الأثير .

وبالجملة فإنه بالاعتبار الأول (باعتبار الذات) شملت الكناية المماثلة ، وصارت

من المجاز فاتفق مع ابن الأثير ، وهو يصرح بذلك فيقول : " اعلم أن الكناية وادٍ

من أودية البلاغة وركن من أركان المجاز وتخصّ بدقّة وغموض " ³.

وليت شعري إن القلب ليكاد يقف من كلامه على شفا وادٍ موحش الأعماق،

وليس كذلك الكناية عند عبد القاهر والسكاكي فهي من الأنس بمنزلة الشمس

ومن الوضوح بمنزلة الصروح.

وأقول : حقيقة المرحلة الرابعة هذه عودة إلى المرحلة الأولى التي كانت قبل

الرجائي مع شيء من التهذيب منه فصل الكناية عن التعريض ، وربما كانت

امتداداً لتلك المرحلة إن صح أن ابن الأثير لم يطلع على عمل عبد القاهر

والسكاكي .

¹ - ينظر: الطراز 1/ 374.

² - ينظر : الطراز 1/ 427، 428.

³ - الطراز 1/ 364.

المطلب الثاني: الخروج على المستوى العملي، مستوى التفسير والتطبيق :

وهذا لا حدّ له لأنه يشمل كل من اعتمدوا تعريف عبد القاهر أو السكاكي أو القزويني الذي يفصل الكناية عن المجاز ، ففهموه على غير وجهه ، وخرجوا في أمثلتهم عنه وخلطوا الكناية بالمجاز ، ومن الأمثلة على ذلك :

- الحموي(- 837هـ):

الذي يعرف الكناية بما عرّفها به عبد القاهر ، فيقول : " والكناية هي أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو ردُّه في الوجود فيوميء إليه ويجعله دليلاً عليه " ¹ .
وبما عرّفها به السكاكي أيضاً ، إذ يقول في موضع التفريق بين الكناية والإرداف : " والفرق بين الإرداف وبين الكناية أن الإرداف قد تقرّر أنه عبارة عن تبديل الكلمة بردفها ، والكناية هي العدول عن التصريح بذكر الشيء إلى ما يلزم لأن الإرداف ليس فيه انتقالٌ من لازم إلى ملزوم والمراد بذلك انتقال المذكور إلى المتروك كما يقال فلان كثير الرماد ومراده نقله إلى ملزومه وهي كثرة الطبخ للأضياف " ² .

وهو إنما يقصد بالإرداف هنا المرادف اللغوي مثل (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) {هود:44} بمعنى جلست ³ ، ونوعاً من الكنايات يزعم أنه لا لزوم فيه كقول البحثري يصف طعنة:

فأوجرته أخرى فأحلتُ نصلها بحيث يكون اللبّ والرعب والحقد ¹

¹ - خزنة الأدب 2/263 .

² - خزنة الأدب 2/309 .

³ - خزنة الأدب 2/309 .

ومراداه القلب فذكره بلفظ الإرداف .

ولعل الإمام السيوطي يعنيه بقوله : " قال بعضهم : والفرق بين الكناية والإرداف أن الكناية انتقال من لازم إلى ملزوم والإرداف من مذكور إلى متروك"².

ولا مشاحة في الاصطلاح ما دام الحموي يعتمد تعريفه عبد القاهر والسكاكي ويضرب أمثلة منسجمة معهما كقول الله تعالى : (كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) {المائدة: 57} كناية عن الحدث³، وقوله جل جلاله : (وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ) {النساء: 21} يريد بذلك ما يكون بين الزوجين .

ومن السنة : ((لا يضعُ العصا عن عاتقه))⁴ كناية عن الضرب أو كثرة السفر أو الأُبنة هكذا قال . والصحيح الأول ، والثاني ليس له ما يؤيده كما بينت في التخريج ، والثالث فضولٌ لا يناسب مقام الصحابة رضوان الله عليهم .

¹ - ديوان البحري 2/ 744 ، يصف مبارزة مع الذئب ، والبيت فيه : فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها... ، ورؤي: وأحللت ... وأجودها فيما أرى (أضللت) فإنها تضيف شحنة شعورية جديدة إلى اللب والرعب والحقد المستور الغامض .

² - ينظر : الإتيان في علوم القرآن ص 518.

³ - الحدث والطعام كل منهما يردف الآخر والأول الطعام و الأقرب أنه كناية عن البشرية ، وسيأتي مزيد بيان ص 73.

⁴ - رواه مسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجه من طرق عن فاطمة بنت قيس في خبر نكاحها من أسامة رضي الله عنهما .

- فمن طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن فاطمة بنت قيس : " أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه " رواه مسلم في الطلاق (المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها) 1480 ، والنسائي في النكاح (إذا استشارت المرأة رجلاً فيمن يخطبها هل يخرها) 3245 ، وأبو داود في الطلاق (في نفقة المبتوتة) 2284 .

- ومن طريق أبي بكر بن أبي الجهم بن صُخَيْرِ العَدَوِي أنه دخل مع أبي سلمة بن عبد الرحمن على فاطمة بنت قيس فحدثتهم الحديث ، وفيه : " أما أبو جهم فرجلٌ ضرابٌ للنساء " . رواه مسلم في الطلاق (المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها) 1480 ، والترمذي في النكاح عن رسول الله (ما جاء لا

ومن الشعر قول ليلي الأخيلية¹ :

وُخَزَّقْ عَنْهُ الْقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسَطَ الْبُيُوتِ مِنَ الْحَيَاءِ سَقِيمًا
كناية عن الجود.

ولكنه يخرج في بعض الأمثلة عن تعريفه فيقول : " ومن نخوة العرب وغيرتهم
كانت كنايةهم عن حرائر النساء بالبَيض وقد جاء القرآن العزيز بذلك فقال
سبحانه : (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) {الصفافات:49} وقال امرؤ القيس في
معلقته :

وبَيْضَةِ خِدرٍ لَا يُرَامُ خِباؤها تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعَجَّلٍ²
يعني امرأة كالبيضة في صيانتها ، لا يُرَامُ خباؤها لعزتها³.

يخطب الرجل على خطبة أخيه (1135 ، وفيه : " فرجل شديد على النساء " ، وابن ماجه في
النكاح (لا يخطب الرجل على خطبة أخيه) 1869 ، وفيه " وأبو جهم يضرب النساء " .
- ومن طريق عبد الرحمن بن عاصم بن ثابت عن فاطمة بنت قيس ، وفيه : " أخاف عليك
فَسْقَاسَتَهُ للعصا " . رواه النسائي في الطلاق (الرخصة في خروج المبتوتة من بيتها في عدتها)
3545 ، وأحمد من مسند القبائل (من حديث فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس)
26791.

قال الإمام النووي رحمه الله في تفسير (لا يضع العصا عن عاتقه) : " فيه تأويلان مشهوران ، أحدهما
أنه كثير الأسفار ، والثاني أنه كثير الضرب للنساء ، وهذا أصح بدليل الرواية التي ذكرها مسلم بعد
هذه أنه ضَرَبَ للنساء " شرح صحيح مسلم 67/10.

على أن المتأمل في روايات الحديث كما يَبَيِّنُها في تخريجه يرى أن حديث أبي سلمة وأبي بكر بن أبي
الجهم واحد ، ففي رواية الأخير أنه دخل مع أبي سلمة إلى فاطمة بنت قيس فحدثتهم . فكأن أبا
سلمة روى ما سمعه منها بلفظه ، ورواه أبو بكر (ابن عبد الله بن أبي الجهم) بالمعنى أنه ضَرَبَ
للنساء ، وأبو بكر أعلم بجده ، فضلاً عن رواية عبد الرحمن بن عاصم مستقلاً عنهما والتي ذكر فيها
قسقاسة العصا أي تحريكه لها حال الضرب .

¹ - ديوان ليلي الأخيلية ص 110.

² - تقدّم ص 19.

³ - خزانة الأدب : 364/2 .

وقال أيضاً: " أما الكناية بالنخلة عن المرأة فمن ألطف الكنايات " ¹.
وهنا يخرج الحموي عن تعريف الكناية ، فالتعبير عن المرأة بالنخلة والبيضة ونحوها مجاز وليس كناية ، على الأقل حسب تعريف عبد القاهر والسكاكي اللذين جرى عليهما.

هذا وإن الحموي يجعل التعريض من الكناية ويقول : " هو عبارة عن أن يكتفي المتكلم بشيء عن آخر لا يصرح به ليأخذه السامع لنفسه ويعلم المقصود منه ... والتعريض نوع من الكناية " ².

ومثل له بقول القائل : ما أقبح البخل ، كأنك تقول له : أنت بخيل ، ومن الشعر قول الحجاج يعرض بمن تقدمه من الأمراء :

لست براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم ³

وفي نوع براعة الطلب فرق بين براعة الطلب وبين الكناية (ويعني بها التعريض) بكونه مقصوراً على الطلب وإلا فهو هي ⁴، ومثل له بقول أبي الطيب:
وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب ⁵

– الدراسات الحديثة:

وتمضي الأمور على هذا النحو من الخروج عن المصطلح عملياً حتى الزمن الحديث والمعاصر في دراسات تقليدية مطوّرة أودراسات مبتكرة .
وكنموذج عن الأولى كتاب **البلاغة الواضحة** ذي الشهرة المدرسية الواسعة، للأستاذين علي الجارم ومصطفى أمين رحمهما الله .

¹ – خزانة الأدب : 364/2 .

² – خزانة الأدب 407/2 .

³ – اشتهر عن الحجاج في خطبته في أهل العراق ، وإنما تمثّل بها وهي لرؤيد بن زميض العنبري كما في الحماسة 132/1 ؛ والأغاني 246 / 15 ، وفيهما : ليس براعي ...

⁴ – ينظر : خزانة الأدب : 488/2 .

⁵ – ديوان المتنبي 198/1 .

حيث اعتمد هذا الكتاب تعريف الكناية عند الإمام القزويني ، وأنها "لفظٌ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى"¹، واعتمد التقسيم الثلاثي باعتبار المكنى عنه صفةً أو موصوفاً أو نسبةً ، وذكروا الأمثلة المعتادة في مثل هذا المقام ، وأضافوا إليها الكناية بينت عدنان عن اللغة العربية ، وظاهر أنها استعارة وليست كناية .

لكن هذا الكتاب قال : " وإذا رجعت إلى أمثلة الكناية السابقة رأيت أن منها ما يجوز فيه إرادة المعنى الحقيقي الذي يُفهم من صريح اللفظ ومنها ما لا يجوز فيه ذلك "²، والحق أن قول القزويني في تعريف الكناية "...مع جواز إرادة ذلك المعنى " فتح ثغرة بين الكناية والمجاز لم يكن يرمي إليها لأنّه صرح بالفصل بينهما خارج التعريف.

وساق الكتاب كنايات حسنة منسجمة مع التعريف مثل: قوله تعالى: (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا) {الكهف:42} كناية عن الحسرة ، وقوله تعالى: (أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ) {الزخرف:18} ، ولبعضهم :

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدّما³
كناية عن الإقدام والشجاعة ومواجهة الموت⁴.

ولما أراد الكتاب تحقيق بلاغة الكناية جعلها أربعة :

1- " أنها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها "⁵، وهذا من كلام الشيخ عبد القاهر إلا " في صور كثيرة " فإنها من مؤلفي الكتاب ليستثنيا صوراً

¹ - البلاغة الواضحة ص : 149 .

² - البلاغة الواضحة ص : 151.

³ - للحصين بن الحمام المري كما في الحماسة 60/1 .

⁴ - ينظر : البلاغة الواضحة 152-157.

⁵ - البلاغة الواضحة : 158.

لا يظهر فيها الدليل وهي الصور المجازية التي لم يكن عبد القاهر يعدّها كناية بل تمثيلاً أو استعارة .

2- "أنّها تضع لك المعاني في صور المحسّنات وهذه خاصة الفنون " ¹.

3- أنّها تشفي القلب من الخصم دون خدش وجه الأدب عن طريق التعريض ².

4- أنّها تعبّر عما لا يحسن ذكره ، كالكناية عن المرأة بالبيضة و النخلة ³.

وهنا خرج الكتاب عن مصطلح الكناية إلى المجاز ، نحو ما فعل في تمثيله بنت عدنان .

ونحى الدكتور عبد العزيز عتيق نحوهما في تعريفه الكناية والتمثيل لها ⁴، واشتهر تعريف القزويني في الكتب المدرسية ليستقر في أذهان الطلبة مع وقوعها فيما وقع به كتاب البلاغة الواضحة من التمثيل للكناية بمجازاتٍ على خلاف خطة القزويني ⁵.

وننتقل إلى الأستاذ الدكتور فضل عباس -رحمه الله- وقوله في تعريف الكناية: "أنّ تريد المعنى فتعبر عنه بغير لفظه الموضوع له . وهو الذي اختاره عبد القاهر، وقريب منه التعريف الذي اشتهر فيما بعد للكناية : أن تطلق اللفظ وتريد لازم معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي " ⁶

¹ - البلاغة الواضحة : 158.

² - ينظر : البلاغة الواضحة : 158.

³ - ينظر : البلاغة الواضحة : 159.

⁴ - ينظر : في البلاغة العربية ، علم البيان ، د. عبد العزيز عتيق ص 203 ، وما بعدها .

⁵ - ينظر مثلاً : قصة البلاغة، أحمد الخوص ص 125 وما بعدها؛ المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني ص 302، وما بعدها .

⁶ - البلاغة فنونها وأفنانها، علم البان والبديع : 243 .

وإِرجاعُ صنيع الدكتور فضل عباس بأمرين :

الأول- قوله : (أن تريد المعنى فتعبر عنه بغير لفظه الموضوع له . وهو الذي اختاره عبد القاهر) .

لكنّ الذي اختاره عبد القاهر في تعريف الكناية ليس أن تريد المعنى فتعبر عنه بغير لفظه الموضوع له ، بل : أن تريد إثبات معنى من المعاني فلا تذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن تجيء إلى معنى هو تاليه ورذفه في الوجود فتومئ به إليه وتجعله دليلاً عليه، هذا تعريف عبد القاهر كما مر. أما الدكتور فضل - رحمه الله- فاقصر على التعبير عن المعنى بغير لفظه الموضوع له وسكت عن الجانب الأهم من تعريف عبد القاهر الذي اعتُبر به متقدماً على أسلافه وهو أن المعنى المعبر به يردف المعنى المعبر عنه ويتلوه في الوجود فيصح أن يُجعل دليلاً عليه .

الثاني- قوله : (وقريب منه التعريف الذي اشتهر فيما بعد للكناية: أن تطلق اللفظ وتريد لازم معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي) .

والتعريف المشتهر كما تبين من استقرار المصطلح وشيوعه هو تعريف القزويني : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه .

وليس فيه اشتراطاً للقرينة التي لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي .

فكأن الدكتور فضل عباس حاول أن يسدّ الثغرة التي في تعريف القزويني ويؤكد الفصل بين الكناية والمجاز ، قال الدكتور فضل : "وبه يختلف عن المجاز إذ قرينته تمنع من إرادة المعنى الحقيقي أما القرينة في الكناية فلا تمنع إرادة المعنى الحقيقي

بل يجوز إرادته كذلك، وإنما قلنا يجوز؛ لأن بعض الكنايات لا يمكن أن نحملها على المعنى الحقيقي للفظ ومع ذلك فإن هذا لا يدخلها في المجاز¹.
والسؤال الوارد : كيف يُنسب إلى التعريف المشتهر اشتراط وجود قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي ثم تكون هناك كنايات لا يمكن حملها على المعنى الحقيقي ؟
ثم على أي معنى تُحمل حينئذٍ إن لم تدخل في المجاز ؟! .

والخلاصة أن الدكتور فضل عباس اقتطع من تعريف الشيخ عبد القاهر جملة وافرة ، ومدّ في التعريف المشتهر الذي هو للقزويني جملة وافرة ، مما أعاد الكناية إلى مفهومها الأول الأعم ، إذ يقول: "فالمعول عليه في الكناية إذاً أن تعبّر عن المعنى بغير لفظه"². وهذا كما مرّ ما كان سائداً في المرحلة الأولى .
وذكر ممّا يجوز حمله على الحقيقة نؤوم الضحى وكثير الرماد ، ومما لا يجوز حمله على الحقيقة قولهم : "المجد بين ثوبيه" ، لكنني أراها نسبة حقيقية لأن الذي بين ثوبيه هو الممدوح نفسه أما المجد فمعنى قائم في النفس التي بين الثوبين ، وغاية أمره المبالغة الموهمة لحصر المجد وتركزه في الممدوح مما ليس من باب الكناية، إذ الكناية في كلمتهم هذه هي في التعبير بما بين الثوبين عن الممدوح الذي هو بين ثوبيه حقيقة لا مجازاً .

¹ - البلاغة فنونها وأفنانها، علم البان والبديع : 243 ، وهذه الجملة التي زادها على تعريف القزويني سبق بها شراح التلخيص كالسعد وغيره لكنها كانت تفسيراً منهم للتعريف من غير تعديل فيه . ينظر : شرح السعد التفتازاني وحاشية الدسوقي عليه؛ ومواهب الفتاح لابن يعقوب 240/4.

² - البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع : 243 .

ومما أظنه يُراجع فيه الدكتور أيضاً قوله : " وتبقى القيمة التعبيرية للكنائيات حتى لو فقدت اللفظ المكنى به حقيقة مثل كثير الرماد وطويل النجاد ، ولا رماد اليوم ولا نجاد ولكن تبقى الكناية مستعملة " ¹.

والقضية أنه إذا فقدت الحقيقة تحولت الكناية إلى مثلٍ ولم تعد كناية إلا في سياقها التاريخي، ولو انقضى زمن الحطب فقلنا في رجل هو كثير الرماد لكان المعنى : هو مثل من قيل فيه كثير الرماد ، وتقدم شيء من هذا ²، والله أعلم .

على أن الدكتور فضل عباس تجاوز الأمثلة التقليدية المكررة للكناية إلى استخراج واقتباس أمثلة ذات ماء ورونق، منها التخطيط بالعيدان كناية عن الهم والحزن ، الذي ذكره النابغة:

يُخَطِّطُ بِالْعِيدَانِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ وَيُخْبَأْنَ رُؤْمَانُ الثُّدِيِّ النَوَاهِدِ ³

وذو الرِّمَّة :

عَشِيَّةً مَالِي حِيلَةً غَيْرَ أَنِّي بَلَقْتُ الْحَصَى وَالْخَطَّ فِي الْأَرْضِ مُوَلِّعَ
أَخْطُ وَأَمْحُو الْخَطَّ ثُمَّ أَعِيدُهُ بِكَفِّي ، وَالْغَرْبَانُ فِي الدَّارِ وَقَّعَ ⁴
علماً أن الخط ولقط الحصى قد يأتیان على معنى التكهّن واستشراف الغيب
فإنهما كانا عند العرب ⁵.

¹ - البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع : 244 .

² - ص 31، 37.

³ - ديوان النابغة الذبياني ص 169 ، في وصف أسيرات ، وفيه : في كل مقعد .

قيل يعثن بها من الهم، وقيل ينتسبن ويعددن مآثر آبائهن كما ساقه المحقق، د. شكري فيصل .

⁴ - ديوان ذي الرمة 2 / 720.

⁵ - الخط - كما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنه - علم قديم تركه الناس ، وهو ما يفعله الحازي إذ يأتي إليه صاحب الحاجة ، فيعطيه حلواناً ، وبين يدي الحازي غلام معه ميلٌ ، فيخط الحازي

ومنها بيت الحماسة :

لا يسألونَ أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا¹

كناية عن النجدة والمروءة .

ومن الكنايات المشهورة التي ذكرها وتتفق مع المصطلح : قرع سنّه (كناية عن الندم) ، ويمشي على ثلاثة (كناية عن الشيخوخة)، ويُشار إليه بالبنان (كناية عن الشهرة) .

ومن الكنايات التي ترجع إلى المماثلة ولا تدخل في المصطلح : يمشي على بيض (كناية عن البطء) ، ومنخرق الجيب (كناية عن النفقة) .

ثم إن الدكتور فضل عباس جرى على تقسيم السكاكي وتنويعه ، ونبّه إلى أن بعض ما يكون كناية يكون تعريضاً بحسب ما يفهم من السياق كبيت الحماسة السابق :

على أرض رخوة خطوطاً كثيرة بالعجلة ؛ لئلا يلحقها العدوّ ، ثم يرجع فيمحو على مهلٍ خطّين خطّين ، فإن بقي منها خطّان فهما علامة النجاح ، فكانت العرب تسمّي ذينك الخطّين : ابني عيان ، فيقول الحازي : ابني عيان أسرع البیان ، وإن بقي خطٌّ واحد فهو علامة الخيبة ، ويُسمّى : الأسحَم .

ينظر : غريب الحديث للخطابي (648/1) واللسان (خطط، 287/7) .

وذكر ابن الأثير أنه ما يزال معمولاً به إلى وقته ، وأن لهم فيه أوضاعاً واصطلاحات ، ويستخرجون به الضمير وغيره ، وأنهم كثيراً ما يصيبون فيه . ينظر : النهاية (خطط، 47/2)
أما لقط الحصى فرمّا عني به الطرّق و " الطَّرْقُ : الضرب بالحصى ، وهو ضرب من التكهّن .
والطَّرَاقُ : المتكهنون ، والطَّوارق : المتكهنات " لسان العرب (طرق، 164/1)، واستشهد بيت لبّيد ابن ربيعة :

لعمرك ما تدري الطَّوارقُ بالحصى ولا زاجراتُ الطير ما الله صانع

وهو في ديوانه ص 46 : لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ...

¹ - الحماسة 5/1 بشرح التبريزي ، وهو لقريط بن أنيف العنبري يمدح بني مازن ويعرّض بقومه .

لا يسألون أخاهم .. فهو كناية عن نجدتهم ، وتعريضُ بقومه .

واقترَب الدكتوران محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف من تعريف السكاكي إذ قالَا : " التعبير بلازم المعنى المراد أدأؤه لِيُفْهَمَ بذكر هذا اللازم المعنى المرادُ نفسه ، أو قل: هي تأدية المعنى بذكر لازم من لوازمه " ¹، لكن بحثهما في الكناية جرى على السنّة ذاتها : المخالفة في التمثيل لما يقتضيه التعريف، فإنهما جعلَا نقيّ الثوب كنايةً عن الطهارة والعفة، وإنما هو كناية عن نسبة النقاء إلى الموصوف ².

وأنقل بعدهما إلى نموذج من الدراسات المعاصرة المبتكرة ، وهي دراسة الدكتور أحمد ياسوف بعنوان : الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، حيث تعرض فيه للكناية وأبدع في تحليل صورتها الفنية ، وغرضي من هذا النقد أن ألاحظ مدى اتفاق أمثلته التي اختارها مع التعريف الذي اختاره .

قال الدكتور أحمد ياسوف: "وقد جاء في تعريفها البلاغي : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه " ³، وهذا يعني أنه اختار تعريف القزويني .

وتبنّى أيضاً تفريقه بين الكناية والمجاز ، قال : " فظهر أنها تخالف المجاز من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه " ⁴.

وضرب الدكتور مثلاً من الحديث الشريف يفسّر مقولة لزوم المعنى وجواز الإرادة حديثَ أبي هريرة المرفوع : ((من حملَ علينا السِّلَاحَ فليس مِنّا)) ¹.

¹ - البلاغة العربية بين التقليد والتجديد ص 154 .

² - ينظر : البلاغة العربية بين التقليد والتجديد ص 153 .

³ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف : 242 .

⁴ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف : 242 .

قال الدكتور أحمد ياسوف : " وهكذا كان حمل السلاح كنايةً عن القتال والعصيان والتمرد والانشقاق عن الجماعة ، ولم يقصد حمل السلاح بل قصد نية القتال وفساد الطوية ... ولا يمتنع أن يكون المعنى الأول متحققاً "2.

وأعتقد أن حمل السلاح مرادٌ قطعاً وليس على سبيل الجواز، فهذا ابن حجر رحمه الله يقول : "ومعنى الحديث حملُ السلاح على المسلمين لقتالهم به بغير حق، لما في ذلك من تخويفهم وإدخال الرعب عليهم ، وكأنه كُتِيَ بالحمل عن المقاتلة أو القتل للملازمة الغالبة. قال ابن دقيق العيد : يُحْتَمَلُ أن يراد بالحمل ما يضاد الوضع ويكون كناية عن القتال به، ويحتمل أن يراد بالحمل حمله لإرادة القتال به لقرينه قوله علينا ، ويحتمل أن يكون المراد حمله للضرب به ، وعلى كل حال ففيه دلالة على تحريم قتال المسلمين والتشديد فيه "3.

وعلى كل حال فالحمل مرادٌ ، أما الخلافُ ففي الملزوم هل هو القتال أو إرادة القتال، والفائدة البلاغية في الثانية أقوى ، وأي فرق بين قوله : من قاتلنا ، وقوله : من حمل علينا السلاح حال قتالنا ؟ في حين أن هناك فرقاً كبيراً بين قوله : من أراد قتالنا وقوله : من حمل علينا السلاح . ففي الثانية يكون إثبات القضية (إرادة القتال) بإثبات دليلها (حمل السلاح) ، وهذه فائدة الكناية ، والله أعلم .

¹ - البخاري في الفتن (قول النبي من حكل علينا السلاح فليس منا) 7070 . ومسلم في الإيمان (قول النبي من حمل علينا السلاح فليس منا) 98 ، والنسائي في تحريم الدم (من شهر سيفه ثم وضعه في الناس) 4100 ، وابن ماجه في الحدود (من شهر السلاح) 4453 ، من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

ورواه الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري في الحدود عن رسول الله (ما جاء في شهر السلاح) 1459 قال : وفي الباب عن ابن عمر وابن الزبير وأبي هريرة وسلمة بن الأكوع ، قال : حديث حسن صحيح .

² - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف : 244 .

³ - فتح الباري 24/13 ؛ وينظر تحفة الأحوذى ، المباركفوري ، 22/5 .

ومن الثغرة التي تركها القزويني بين الكناية والمجاز ومرّ فيها بعض من ذكرت مرّ فيها الدكتور أيضاً فجعل الكناية قسمين : الأول مبني على لفظ حقيقي كالحديث المذكور ، والثاني مبني على لفظ مجازي ، قال : " بُنيت الكناية على لفظ حقيقي في هذا النص ، خلافاً للكناية المبنية على اللفظ المجازي التي لا يمكن أن تتحقق فيها المظاهر الحسية اللافتة للنظر " ¹.

ومثّل للكناية المبنية على مجاز بحديث أبي هريرة المرفوع : ((... وتجدون شرّ الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ ويأتي هؤلاء بوجه)) ².

وقد خرج بهذا عن التعريف الذي اعتمده فإنه حسب التعريف وحسب توضيح القزويني للتعريف هناك مغايرة بين الكناية والمجاز ، فمن أين تأتي الكناية المبنية على المجاز؟

ويؤكد الدكتور صلتها بالاستعارة فيقول : " وعلاقة الكناية بالصورة علاقة وشيجة؛ لأن الكناية تمثيل للمعنى، ولأنها كما قدّمنا قد تقوم على اللغة المجازية والاستعارة على وجه الخصوص " ثم يسوق مقالة ابن الأثير في نسبة الكناية إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام ، واستشهد لهذا الرأي بالحديث الشريف المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((لا يلدغ المؤمن من جحرٍ واحدٍ مرتين)) ³، قال : " وهذه الصورة الحسية الاستعارية بطرفيها

¹ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص 244 .

² - البخاري في مواضع منها الادب (ما قيل في ذي الوجهين) 6058 ، ومسلم في مواضع منها في البر والصلة والآداب (ذم ذي الوجهين وتحريم فعله) 2526 ، والترمذي في البر والصلة عن رسول الله (ما جاء في ذي الوجهين) 2025 ، وأبو داود في الأدب (في ذي الوجهين) 4872.

³ - البخاري في الأدب (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) 6133 ، ومسلم في الزهد والرقائق (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين) 2998 ، وأبو داود في الأدب (في الحذر من الناس) 4862 ، وابن ماجه في الفتن (العزلة) 3982 .

الشر والأفعى يراد بها الحذر ولا يراد ما بالألفاظ الظاهرة بل هي جسر مادي إلى الأفكار المقصودة¹

ونقل عن الدكتور مجيد ناجي أنه قال في شأن المتكلم بالكناية : " يسقط من الأساس القرينة التي تمنع من إرادة المعنى الظاهري من الصورة ليبقى على احتمال إرادة كل من المعنيين "².

قال الدكتور أحمد ياسوف : " وتدلل الكناية على صعوبة في التأليف وصعوبة في التلقي ؛ ذلك لأن الانزياح أكثر إيغالا في السياق الكنائي فتمت احتمالات مترددة تبثها " ٣

وهكذا يتبنى الدكتور تعريف القزويني ويكيّفه بطريقة يتّسع معها لبحوث ابن الأثير في الكناية والمجاز مما قد يمس بمضمون تعريف القزويني ، أوكان لا بد من ذلك لثمنح الكناية جواز سفر يسمح لها بالعبور في بوابة النقد المعاصر ، فلما انتقد على الدكتور رجاء عيد سوء ظنه في الكناية ، وقوله : " لم تكن الكناية أول الأمر تمثل خطورة في تشكيل البناء اللغوي ، بل لعلها ما زالت كذلك ، ولكن الرغبة في تفتيش كل شيء والدوران حوله ثم التفنن فيما لا فن فيه كان لا بد أن يشتمل ما اصطُح عليه باسم الكناية "⁴، ووجهه إلى معطيات النقد المعاصر الذي لا يذكر إلا التشبيه والاستعارة ، قال الدكتور أحمد ياسوف : " ولا شك أن الكناية غير مغيبة في المنظور النقدي المعاصر فهي معيّنة في الكلام على

¹ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف : 247 .

² - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف : 249 ؛ وينظر : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، د. مجيد ناجي : ص : 229 .

³ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف : 250 .

⁴ - فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ، د. رجاء عيد ص:422.

الاستعارة لأن الكناية تُبنى عليها أحياناً ، فهي ليست بملغاةٍ إلا على سبيل الاصطلاح¹.

وهذا ينقذ الكناية من مقصلة النقد المعاصر إذا كانت استعارة ، فمن للكناية التي ليست باستعارة وهي هي التي ينطبق عليها المصطلح ؟
لكني أرى الكناية موجودة في النقد المعاصر في نظرية الاتصال التي يراها بعض النقاد العرب مقابلة لمصطلح البلاغة، يقول الدكتوران خفاجي وشرف : " الرأي عندنا أن الدلالة اللغوية العربية للبلاغة هي المقابل الصحيح لما نسميه اليوم بعلم الاتصال² .

وعلم الاتصال قام على النظرية التواصلية في الأدب لصاحبها جاكسون الذي رأى أن كل حدث لغوي يتضمن ستة عناصر : مرسل - ملتقط - إقامة الاتصال - لغة مشتركة code - مرسل لغوية - المحتوى اللغوي للمرسل³.

ومربط الفرس عند الملتقط (المتلقي) حيث تقيم نظرية الاتصال وظيفة المتلقي على ست خطوات ، الخامسة منها تفهّم الكلام الذي قد يتخطى المحتوى اللغوي للتعابير نفسها، والمثل الذي ضربوه بامرأةٍ بادرت زوجها بأنها اشترت مصباحاً فسيفهم أن عليه تغيير مصباح ما في البيت⁴، وهذا عين الكناية (لأن

¹ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص 253.

² - البلاغة العربية بين التقليد والتجديد ص 56.

³ - ينظر : الألسنية، د. ميشال زكريا ص 53 ، وسيأتي ذكر هذه النظرية والإفادة منها في الفصل الرابع ص 259.

⁴ - في النظرية التواصلية: يصغي المستقبل (المتلقي) إلى الكلام ، ثم يحلل عناصره الصوتية ، ثم يتقبل الكلام إذا كان يؤلف جملاً صحيحة بالقياس إلى معرفته الضمنية لقواعد لغته ، ثم يتقبل الكلام من حيث إعطاؤه التفسير الدلالي الملائم ، ثم يتفهم الكلام وهذا يتخطى المحتوى اللغوي للتعابير نفسها ، فلو أن امرأة بادرت زوجها بأنها اشترت مصباحاً ، فسيفهم أن عليه تغيير مصباح ما في البيت

شراءها للمصباح لازم عن عطل في المصباح القديم) ولا يضرّها ألا يذكرها النقد المعاصر ويكتفي بالاستعارة والتشبيه .

ثم انظر إلى ما نقله عن الدكتور محمد الحسن أمين أحمد " إن أسلوب الكناية يحتاج إلى مستوى ثقافي معين حتى يُفهم فالذي يقرأ العربية يعرف معنى كتب زيد ، ولكن الذي ليست له ثقافة عربية لا يستطيع فهم مهزول الفصيل كنايةً عن الكرم " ¹ ، فهذا القول يُشعرني بأن للكناية وفق مصطلحها خصوصية عربية، وأن النقد المعاصر يجب أن يتقبّلها كما هي وليس بثوب الاستعارة .

ومما ذكره الدكتور أحمد ياسوف من الكنايات المبنية على مجاز قوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ) {البقرة:223} يقول : " فهو كناية مبنية على المجاز القائم على شبهة المرأة بالأرض من حيث النسل والإنجاب ممّا يشبه الزراعة " ² ، وحديث ((رفقا بالقوارير)) ³ قال : " فاستعار رسول الله صلى الله عليه وسلم القوارير للنساء ، للدلالة على رهاقة حسّهن ... " ⁴

،وأخيراً يتأكد من ملاءمة هذا الكلام لمعرفته العامة بالعالم المحيط . الألسنية ، د. ميشال زكريا ص 48.

¹ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف : 251؛ وينظر : الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي للدكتور محمد الحسن أمين أحمد ص: 114.

² - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف : 245 .

³ - تقدم تخرجه ص 17.

⁴ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص : 270.

وذكر كنايات أخرى ينطبق عليها المصطلح ، كحديث أبي هريرة ((أئماً امرأة
أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها جنته))
¹، كناية عن الزنى .

¹ - النسائي في الطلاق (التعليل في الانتفاء من الولد) 3481 ، وأبو داود في الطلاق (التعليل
من الانتفاء) 2263 ، وابن حبان في النكاح (باب الصداق) ذكر نفي دخول الجنة عن المرأة
الداخلية على قوم بولد ليس منهم) 4108 ، وهو في موارد الظمان في النكاح (اللعان) 1335 ،
كلهم من طريق يزيد بن الهاد عن عبد الله بن يونس عن سعيد المقبري عن أبي هريرة .
والعلة فيه من عبد الله بن يونس ، قال ابن حجر في تهذيب التهذيب 461/2 " حجازي روى عن
سعيد المقبري ومحمد بن كعب القرظي وعنه يزيد بن عبد الله بن الهاد ، ذكره ابن حبان في الثقات ،
قلت : ذكر عبد الحق أنه لا يُعرف إلا بهذا الحديث ، وقال ابن القطان : مجهول الحال " ، ثم قال
في التقريب (330/2) : " مجهول الحال ، مقبول من السادسة " .

وهذا من أعجب ما مر في تقريب التهذيب أنه جمع بين مجهول الحال و مقبول ، أي بين المرتبتين
المذكورتين في مقدمته : السابعة (من روى عنه أكثر من واحد ولم يُوثق ويشار إليه بلفظ مستور أو
مجهول الحال) والسادسة (من ليس له من الحديث إلا القليل ولم يثبت ما يُترك حديثه من أجله وإليه
الإشارة بلفظ مقبول حيث يتابع وإلا فلين الحديث) وقد أغراني هذا بمحاولة استقراء التقريب فتبين
لي أنه الراوي الوحيد الذي جمع ابن حجر فيه بين المرتبتين ، ثم سعيت إلى التأكد من صحة العبارة
بالنظر في غير طبعة دار الرشيد بتحقيق محمد عوامة ، فإذا هي كذلك في طبعة الرسالة تحقيق عادل
مرشد ص 272 رقم 3722 ، وفي تحرير تقرير التهذيب ، د . بشار عواد معروف والشيخ شعيب
الأرنؤوط 289/2 كذلك ، لكنهما قالوا : " بل مجهول العين تفرد بالرواية عنه يزيد بن عبد الله بن
الهاد ، وقوله (مجهول الحال مقبول) لا معنى له فكيف يكون مجهول الحال إن صح مقبولاً؟ " .
ولا أراه إلا من قبل أن الإمام البخاري ذكره وسكت عنه فقال في التاريخ الكبير (232/5) : " عبد
الله بن يونس عن سعيد المقبري روى عنه يزيد بن الهاد " . وفي الجرح والتعديل لابن أبي حاتم
(205/5) قال : يعرف بحديث واحد وذكره . وقد حقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله أن
سكوت جهابذة النقد عن الراوي حيث يذكرونه في كتبهم أجدر أن يُعدّ تعديلاً لا تجهيلاً وذكر أن
جمهور كبار الحفاظ المتأخرين - ومنهم ابن حجر - مشوا عليه ، ينظر : الرفع والتكميل في الجرح
والتعديل ، تعليقات محققه الشيخ عبد الفتاح ص 230 ، وما بعدها .

وعليه يكون له " مجهول الحال مقبول " معني هو أن ابن حجر مال إلى اعتباره مقبولاً أي يُكتب حديثه ويعتبر به .

ومع هذا فإن عبد الله بن يونس من أهل القرون الأولى ومن الرواة الذين تقادم العهد بهم وتعذرت الخبرة الباطنة بهم فيشبه أن يكون العمل على قبول حديثهم كما ذكر ابن الصلاح . ينظر : علوم الحديث ص 112 .

وثمة شاهد له من حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً : ((اشتد غضبُ الله على امرأةٍ أدخلت على قومٍ من ليس منهم يطَّلَع على عوراتهم ويشركهم في أموالهم)) .

قال الهيثمي : " رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن يزيد ضعيف " مجمع الزوائد 225/4 .

وهو في المعجم الأوسط من رواية عبد الرحمن بن عمرو (أبو زرعة الدمشقي) 68 / 5 بإسناد رجاله ثقات إلا إبراهيم بن يزيد الحُوزي المكِّي ، قال الذهبي في ميزان الاعتدال (75/1) : " قال أحمد والنسائي متروك ، وقال ابن معين ليس بثقة ، وقال البخاري سكتوا عنه ... " ينظر : التاريخ الكبير 336/1 ، ومعلوم أن قول البخاري " سكتوا عنه " يعني تركوا حديثه ، هذا ما أشار إليه أستاذنا الدكتور نور الدين عتر في أصول الجرح والتعديل ص 133 . وقال ابن عدي في الكامل في الضعفاء 225/1 : " هو في عداد من يكتب حديثهم وإن كان قد نسب إلى الضعف . وفي تقريب التهذيب (95 / 1) : " متروك الحديث ، من السابعة " .

ولدى مطالعة طعون العلماء فيه يُرى أن ما فسّر منها إنما فسّر بالضعف أو النكارة كقول أبي زرعة و أبي حاتم : منكر الحديث ، ضعيف الحديث . وأشدها ما ذكره ابن حبان أنه يسبق إلى القلب كونه المتعمّد لهذه المناكير ، بنظر تهذيب التهذيب 94/1 . ويعدُّ ابن حبان من المتشدّدين في الجرح ، أما ابن عدي - وهو الأقرب للاعتدال - فرأى أن غاية أمر الحُوزيّ الضعف ولا مطعن عليه في العدالة ، وبهذا يكتب حديثه ، وليراجع حكم المرتبة الخامسة من مراتب الجرح في فتح المغيث للإمام السخاوي ص 400 ، والثانية (أي بالعكس كما عند ابن الصلاح) في أصول الجرح والتعديل لأستاذنا الدكتور نور الدين عتر ص 133 .

فهذا الحديث عن ابن عمر رضي الله عنه إذا انضم إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه رُجي أن يكون صالحاً ، ولا سيّما أنه في باب الترهيب من الزنا ، وأصل حكمه ثابت .

وقد ذكره الإمام المنذري في الترغيب والترهيب (ص 521، طبعة بيت الأفكار) ، فقال في أوله : " وعن أبي هريرة... " ثم قال في آخره : " رواه أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه " ولم يذكر له

قال الدكتور أحمد ياسوف : " وهكذا انتقل التعبير من السبب وهو الزنى إلى النتيجة وهي النسب "1.

والدكتور أحمد ياسوف يعتمد على الشيخ عبد القاهر في تقدير مزية الكناية في أنها إثبات للصفة بإثبات دليلها ، ثم يقرر أنها ضرب من الغموض الفني (!) الذي يحصل بعد كشفه متعة كبيرة ، مستنداً إلى قول عبد القاهر : " ومن المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى وبالمزية أولى فكان موقعه من النفس أجلاً والطف ، وكانت به أضنّ وأشغف "2، ولكلمة عبد القاهر بقيّة هي: " وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ".

فكلام عبد القاهر إذاً في المثل وليس في الكناية وقوله (كذلك..) عائد إلى أول الفصل الذي ذكره في التمثيل ، وقوله : " إن المعنى إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر ينجلى لك بعد أن يُجَوِّجَكَ إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر وإبائه أظهر واحتجابه أشدّ ومن المركز في الطبع ... " إلى آخر النقل الذي ذكره الدكتور أحمد ، فالمركز في الطبع من التلذذ بالشيء بعد سبق حنين ومعاناة هذا قاعدة عامة بنى عليها الشيخ عبد القاهر بلاغة المثل.

أما الكناية فوضوحٌ منافعٍ للغموض، وتلميحٌ لما هو ظاهر معروف، وهذا قول الشيخ عبد القاهر في بلاغة الكناية الذي سبق ذكره ونقله أيضاً الدكتور أحمد

علة، وهذا يعني وفق منهجه الذي ذكره في مقدمة كتابه (ص24، من الطبعة المذكورة) أنه صحيح أو حسن أو ما قاربهما ، وسيأتي مزيد بيانٍ لمنهجه هذا في حديث المطيطاء ص 113.

1 - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص : 274 .

2 - أسرار البلاغة ص 118 ، والصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف : 246 .

ياسوف : " وذلك أنك لا تدّعي شاهد الصفة ودليها إلا والأمر ظاهر معروف، بحيث لا يُشكُّ فيه ولا يُظنُّ بالمخبر التجوّز والغلط " ¹ .

وأرى مزية الكناية وامتعتها في الإيجاز المعنوي وأقصد به اختصار المسافة والقفز إلى الدليل مباشرة ليكون هو نفسه تعبيراً عن القضية، والدليل الحسي هو مناط التصوير، والله أعلم .

ويعتبر الدكتور أحمد ياسوف قوله تعالى: (كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) {المائد: 75} كنايةً عن الحدث ، ويقول : " المقصود ما يكون بعده من عمليّات جسمانية مما يتصف به البشر " ² .

وينبغي أن أناقش هذا التفسير لكونه يقلب مفهوم الإرداف ويصنع من الدليل (أكل الطعام) قضية ويجعله ملزوماً ، والحق أنه لازم للزوم هو البشرية فكان كناية عنها وليس عن الحدث . قال الطبري رحمه الله : " خبرٌ من الله تعالى ذكره عن المسيح وأمه أنهما كانا أهل حاجة إلى ما يغذوهما وتقوم به أبدانهما من المطاعم والمشارب كسائر البشر من بني آدم " ³ ، وهو أعدل الأقوال في تفسير الآية، أما قول القرطبي رحمه الله : " وقال بعض المفسرين في قوله كانا يأكلان الطعام : إنه كناية عن الغائط والبول وفي هذا دلالة على أنهما بشران " ⁴ ، وقول السيوطي رحمه الله : " كانا يأكلان الطعام كغيرهما من الناس ، ومن كان كذلك لا يكون إلهاً لتركيبه وضعفه وما ينشأ منه من البول والغائط " ⁵ ، فلا أحسب الإصرار على ذكر الحدث إلا محاولة لتفجير الذهن من التفكير بالوهيتهما فهو

¹ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص : 246 .

² - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف : 245 .

³ - تفسير الطبري 315/6

⁴ - الجامع لأحكام القرآن 250/6 .

⁵ - تفسير الجلالين ص: 120 .

غرض آخر لعله يكون أظهر لفهم العامة ، لكن نفي الألوهية يكفي فيه إثبات البشرية بدليلها الذي هو أكل الطعام فلا يبقى المعنى مجرداً ، وهذه هي الكناية .

ومن الكنايات التي ذكرها الدكتور أحمد ياسوف وأود التعليق عليها حديث ((إذا جلس بين شُعْبها الأربع ثم جَهَّدها فقد وجب الغسل))¹، وتحدث الدكتور أحمد عن الكناية في مجلسه بين الشعب الأربع الرجلين واليدين²، ولا أحسبها من الكناية في شيء سوى أنه استعار لها الشعب، إنما الكناية في قوله : " ثم جَهَّدها " فإن الجهد يردف غياب الحشفة في الفرج، فكني به عنه، وهو مناطُ الغسل بالتقاء الختانين لا مجرد الالتقاء .

وانظر إلى قول ابن حجر رحمه الله : " قيل معناه كدّها بحركته أو بلغ جهده في العمل بها... ورواه أبو داود من طريق شعبة وهشام معاً عن قتادة بلفظ : وألّزق الختان بالختان ، بدل قوله ثم جهدها ، وهذا يدلّ على أن الجهد هنا كناية عن معالجة الايلاج "³.

¹ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : البخاري في الغسل (إذا التقى الختانان) 291 ، ومسلم في الحيض (نسخ الماء من الماء وو جوب الغسل بالتقاء الختانين) 348 ، والنسائي في الطهارة (وجوب الغسل إذا التقى الختانان) 191 وفيه : " ثم اجتهد " ، وأبو داود في الطهارة (في الإكسال) 216 " وألّزق الختان بالختان " وابن ماجه في الطهارة وسننها (ما جاء في وجوب الغسل إذا التقى الختانان) 610 .

ورواه مسلم من حديث أبي موسى عن عائشة مرفوعاً في الحيض (نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل بالتقاء الختانين 349 ، وفيه " ومس الختان الختان " .

² - ينظر : الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص 269 .

³ - فتح الباري 395/1 .

وإذا انبسط قلبي في بعض ما قاله العلماء فإن قلبي ليمتلئ حباً لهم وإجلالاً ،
ولكنه هدي العلم في رحلة البحث عن الحقيقة .

المبحث الرابع

تعريف الكناية

في هذا المبحث سأعرف الكناية بالهوية مختاراً التعريف الأصح ، ثم بالغيرية وذلك
بتمييزها عما يمكن أن يلتبس بها من الأنواع البلاغية، وهذا المبحث هو ثمرة ما
سبقه وجذر ما بعده؛ لأنني سأختار الكنايات النبوية وفق هذا التعريف.

المطلب الأول : التعريف المختار للكناية .

ذكرتُ في آخر المرحلة الثالثة من المبحث الثاني أن مصطلح الكناية مال
للاستقرار على ما لخص به القزويني تعريف السكاكي الذي قام على تعريف عبد
القاهر، وأن البلاغيين مضوا فيما بعد مقلّدين في معظمهم أحد هؤلاء الثلاثة،
فمنهم من يذكر الإرداف ومنهم من يذكر اللزوم على طريقة السكاكي ومنهم من
يذكره على طريقة القزويني ، وهذا ما استدعى المقارنة الدقيقة بين تعريف كل من
عبد القاهر و السكاكي والقزويني للكناية من أجل الوصول إلى التعريف المختار .

وأذكر قبل المقارنة بتعريفاتهم :

فالكناية عند عبد القاهر : أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه .

وعند السكاكي : ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك .

وعند القزويني : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه .

وأشير أيضاً إلى أن الإشكال كل الإشكال كان في التباس الكناية بالمجاز عند من سبقوهم ، حيث كان يُعبّر عن المجاز بالكناية أول الأمر ثم لما حُدّ المجاز بقيت صور من الكناية لم تدخل في حدّه وهي ما اصطَلَح عليها عبد القاهر باسم الكناية .

وكلّ من العلماء الثلاثة يلحّ على الفصل بينها وبين المجاز ويصرّح به خارج التعريف كما تقدّم ، وهم مصيبون بلا ريب ، أو على الأقل هذا ما يناسبنا؛ لأن الدراسات الأدبية تحتاج إلى فرز النصوص الأدبية موضع الدراسة ، وفرز النصوص يحتاج إلى التحديد الدقيق فلا تغرق الكناية في بحر المجاز ولا المجاز في بحر الكناية .

ولهذا يكون التعريف الجامع ما جمع صور الكناية بأقسامها ، ويكون المانع ما منع غير الكناية من الدخول فيها وأقتصر على المجاز لأنه الذي كان يلتبس بها فقصد الثلاثة لفصله .

وبناء عليه أقول :

تعريف الشيخ عبد القاهر ليس جامعاً إذ يخرج منه صورتان، الأولى ما لو كانت الكناية عن ذات موصوفة كالكناية بالمضياف عن زيد ، وفي تعريفه : " أن يريد المتكلم إثبات معنى ... " والثانية الكناية عن النسبة كالمجد بين ثوبيه ، وفي تعريفه

: "يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود.. " والنسبة لا يكون فيها إرداف ، ولا يُعترض على الشيخ في الأولى لأنه لم يذكر في أقسامها الكناية عن الموصوف ، ولكنه ذكر الكناية عن النسبة .

على أنه تعريف مانع ، ومانع بالأخص من دخول المجاز ، لقوله في المعنى المذكور " ويجعله دليلاً عليه " والدليل مرادٌ ولا سيّما وفق اصطلاح الشيخ الذي يفسّر بلاغة الكناية أنها إثبات الصفة بإثبات دليلها ، فلما أريد المذكور والمستور معاً خرج المجاز .

أما تعريف السكاكي فهو جامع مانع ، ومربط الفرس كلمة " ما يلزمه " ، فإن اللزوم يشمل الإرداف ذي التعاقب الزمني والتبعية التي تحتل التزامن فيجمع أقسام الكناية وصورها ومنها الكناية عن النسبة ، ثم إن ما يلزمه هو ما يقال له اللازم وإذا أنت صرحت باللازم لِيُنْتَقَلَ منه إلى الملزوم فإن الملزوم مرادٌ مع لازمه في الوقت ذاته فخرج المجاز .

وأما تعريف القزويني فغير جامع ولا مانع ، وأبدأ بالثانية لأن في الأولى كلاماً يطول، وسبب عدم المنع في تعريف القزويني هو قوله : "أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه"، واعتبره بقوله المتقدم خارج التعريف أن الفرق بينها وبين المجاز : "من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه فإن المجاز ينافي ذلك " ، فقد يُفهم من كلمة الجواز في التعريف أن الكناية نوعان : مجاز وغير مجاز . وليس هذا مراده ولكنه قد يُفهم منه على كلّ حال ، ومن هنا بدأ الانحراف عن خطّ السكاكي فإنه وإن بدأ صغيراً مقيّداً بتوضيح خارج التعريف إلا أنه صار مع الزمن كبيراً إلى درجة أنه بات ثغرة للخلط بين الكناية والمجاز ، وعدنا نسمع أن الظبية كناية عن المرأة ليس بالمعنى اللغوي كما كانت ، ولكن بمعنى اصطلاحى مستند إلى تعريف القزويني ، وتقدّم مصداق دعواي هذه عند الكلام عن الكناية في الأزمنة المتأخرة والمعاصرة.

وأما كونه غير جامع فلأنه عكس بين اللازم والملزوم فجعل المعنى المصرح به هو الملزوم والمعنى المراد الذي لم يصرح به لازماً ، وفعله عامداً متوخيّاً التلخيص ظاناً الإصابة وتقدم قوله : إن اللازم ما لم يكن ملزوماً يمتنع أن يُنتقل منه إلى الملزوم . نظرياً إنّ من ذكر اللزوم ذكره بالمطلق ، والملازمة المطلقة هي كون الشيء مُقتضياً للآخر والشيء الأول هو المسمى بالملزوم والثاني هو المسمى باللازم كوجود النهار لطلوع الشمس فإن طلوع الشمس ملزوم ووجود النهار لازم¹ .

وعملياً يستقيم العكس للخطيب للقزويني في صورٍ مثل : (قاصرات الطرف) {الصفات: 48} كناية عن العفاف فإن قصور الطرف لازم وملزوم في آن ، فإنّهنّ إن قصرن الطرف عفن وإن عفنن قصرن الطرف ، ولا يستقيم في صور أخرى كحديث : ((أيما امرأة أدخلت على قومٍ من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يُدخلها جنته))² ، فالحرف الأول كناية عن الزنى والزنى هو الملزوم ويلزم عنه اختلاط النسب ولا يُقال العكس .

أمّا إذا كان الخطيب يعني اللزوم الذهني كأن يتصوّر الذهن الكرم بمجرد تصوّره كثرة الرماد فيلزم عن كثرة الرماد الكرم ويصير الكرم لازماً وكثرة الرماد ملزوماً ، فالجواب أن الذهن لم يكن ليشكّل هذا اللزوم لولم يستند على لزوم خارجيّ كان الكرم فيه ملزوماً واقتضى كثرة الرماد ، فلمّا ابتذلت هذه الكناية في الاستعمال تكون هذا اللزوم المعاكس في الذهن ، وأتّى له ذلك في كناياتٍ بعيدة بطبعها عن الابتذال كالمثال المتقدّم : أيما امرأة أدخلت .. إلخ ؟

ثم إذا عيّنا اللزوم الذهني فتحنا على تعريف الكناية باباً مُشرعاً لا يقرّها بعده قرار ، فإنّ الذهن يتصوّر المتناقضات في آنٍ كالבصر والعمى ، أليس إذا ثبت

¹ - ينظر : التعريفات ، الجرجاني ص: 293 .

² - تقدم تخريجه ص 70.

تصوّر العمى في الذهن ثبت تصوّر البصر فيه؟¹ فإذا قيل : إن بقية تعريف القزويني مانع من دخول غير الكناية في هذا الباب ، وهي قوله : مع جواز إرادة معناه ، قلت : إنها لم تكن مانعاً على تقدير اللزوم الخارجي فكيف تكون مانعاً على تقدير اللزوم الذهني !.

ثم إنه عرّف الكناية بأنها لفظ ، والحق أنها أسلوب من أساليب معالجة اللفظ ، فاللفظ موضوعها ، وقد يُطلق اسم الشيء على موضوعه مجازاً في أثناء الاستعمال لا في التعريف. وانظر إلى عبد القاهر يقول : أن يريد المتكلم ... الخ ، وقول السكاكي : هي ترك التصريح ... الخ يتبيّن لك الفرق .

اختيار تعريف السكاكي:

بعد هذه المقارنة أقول : إنه لا شيء يمثل مقاصد العلماء الثلاثة في بحوثهم ويجمع فهمهم مثل تعريف السكاكي ، ولهذا عاد شارح التلخيص البهاء السبكي ليقترّب من تعريف السكاكي فقال : " الكناية لفظ استعمل في لازم معناه مراداً باستعماله فيه إفادة ملزومه " ² ، وعبر بالإفادة ليبين أنه لا يجتمع في الكناية حقيقة ومجاز ولا حقيقتان ، فقال : " لا يتخيّل أن ذلك جمع بين حقيقة ومجاز ولا بين حقيقتين لأنّ التعدّد هنا ليس في إرادة الاستعمال بل في إرادة الإفادة ، واللفظ لم يُستعمل إلا في موضوعه ، وقد يُستعمل اللفظ في معنى ويُقصد به إفادة معانٍ كثيرة " ³.

وعوداً على تعريف السكاكيّ لأضيف نكتة تتعلّق بالربط بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي ، فإن السكاكي استطاع أن يضمّن تعريفه هذا الرابط دون أن يُضعف التعريف ، فقال : " الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر

¹ - ينظر : التعريفات ، الجرجاني ص: 293 .

² - عروس الأفراح 238/4.

³ - عروس الأفراح 238/4.

.. " ، وهذه هي الكناية لغة أن تستر ذكراً بذكرٍ ، وبعبارةٍ أخرى أن تتكلّم بشيءٍ وتريد غيره¹ ، ولا تجد مثل هذا الربط الواضح في تعريفيهما، ثم إنه جاء في تعريف السكاكي بديعاً في موضعه أوّل التعريف كأنما يشير إلى بدء أمر الكناية بالمعنى اللغوي العام وانتقاله - كما في التاريخ البلاغي - إلى الكناية بمفهومها الاصطلاحي الخاص ، ولا أدري إن كان السكاكي قصد إلى هذه الطريقة أم أنها اتّفقت له ، ولكنها على كلّ حالٍ طريفةٌ في بابها .

وبه أنتهي إلى التعريف الذي اختاره للكناية والذي سأبني عليه اختياري للنصوص النبويّة موضع الدراسة . فأقول :

الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه ليُنْتَقَلَ من المذكور إلى المتروك .

المطلب الثاني : علاقة الكناية بسائر الأنواع البلاغية .

إن ترك التصريح يشبه أن يكون قارة في خارطة البلاغة أُطلق عليها ذات يوم اسم الكناية حين كانت ثلث الكلام²، أمّا وقد تمايزت الحدود وصارت الكناية إلى ما صارت إليه في الاصطلاح لزم أن نبين علاقة الكناية بما يمكن أن يلتبس بها من الأنواع البلاغية، وأراها في ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : ضرب منفصلٌ عن الكناية وأهمه المجاز اللغوي والتورية :

أولاً- علاقة الكناية بالمجاز اللغوي (الاستعارة و المجاز المركب)

¹ - ينظر لسان العرب (223/15، كني) .

² - عند المبرّد ، كما تقدم في المبحث الثاني .

أ- الاستعارة : لا صلة بين الاستعارة التصريحية والكناية إلا في المعنى اللغوي إذ يقولون فيها يُكْنَى باسم المشبّه به عن المشبه المستور، فيراد بالظبية المرأة ونحو ذلك ولا لزوم بينهما والحاجة ماسة إلى قرينة لفظية أو حالة .

أما الاستعارة المكنية فتربط بالكناية من جهة أنه يُكْنَى عن المشبه به ببعض لوازمه كقوله تعالى : (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) {مریم:4}، ولهذا يقال لها الاستعارة بالكناية¹.

ب- المجاز المركب: وهو اللفظ المركب المستعمل فيما شُبِّهَ بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه، ويُسمّى تمثيلاً أيضاً².

ومنه قولهم : "إني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى"³، قال القزويني : " شبه صورة تردده في المبايعة بصورة تردد من قام ليذهب في أمر فتارة يقدم وتارة يؤخر . وهذا يسمى التمثيل أو التمثيل على سبيل الاستعارة ومتى فشا سمي مثلاً"⁴.

ورأينا في الحديث عن تطور الكناية أن عبد القاهر عدّه من المجاز وعدّه ابن الأثير من أقسام الكناية لأن الكناية عنده من المجاز . وأما المثال المذكور فقد كان تمثيلاً لحالة التردد في الواقع الذي قيلت فيه حيث لا رؤية ، فإذا قيل ذلك عن عيان ومشاهدة كان كناية .

¹ - ينظر : معجم المصطلحات البلاغية ، للدكتور أحمد مطلوب ص 88 .

² - ينظر : معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب ص 602 .

³ - من كتاب يزيد بن الوليد لمروان بن محمد وفيه : " أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام " ، البيان والتبيين ، الجاحظ 1/164.

⁴ - الإيضاح ص 284 .

ثانياً- علاقة الكناية بالتورية وما وراءها :

أ- التورية : وهي أن يُطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد ويُرادّ البعيد.

كأن يطلق الخال فيُراد به البعيد من معنيين .

والفرق بين الكناية والتورية ظاهر ، فمؤدّي تعريف الكناية أن تذكر شيئاً مريداً لمعناه ومريداً ملزومه في الوقت ذاته ، وأما التورية فإن اللفظ المذكور فيها له معنيان صحيحان يراد البعيد منهما .

ومن أسمائها : الإيهام ، والتخييل ، والتوجيه ، أما تاريخياً فقد خلط ابن رشيق بين التورية والكناية ، سماها السكاكي الإيهام ، وجعلها العلوي باباً كبيراً يندرج تحته الكناية والتعريض والمغالطة والأحاجي والألغاز .¹

وكانت التورية أول الأمر تطلق على الكناية والعكس كذلك ، وذكر الجاحظ أنه إذا قيل إن له بيتاً وشرفاً وقدماً، فنُظر في أمره فوجد من السفلة ، فقال الذي قال الكلام الأول : شرفه أذناه وقدمه التي يمشي عليها وله بيت يأوي إليه ، أن هذا كذب إن كان في مقام لا تجوز فيه التورية كاستشارة ، وكذا لو قيل رزين المجلس نافذ الطعنة فحسبه الناس سيّداً فارساً فإذا هو خيّاط ! قال الجاحظ : " ومن قال للمستشير هذا القول فقد غره وذلك ممّا لا يحلّ في دين ولا يحسن في الحرية...وأدنى منازل هذا الخبر لا يُسمّى صدقاً فأما التسمية له بالكذب ففيها كلامٌ يطول "²، ففي كلامه أمثلة تصلح للتورية وفق مصطلحها وأمثلة تصلح للكناية كرزين المجلس نافذ الطعنة .

¹ - ينظر : معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب ص 334 .

² - البيان والتبيين 1/ 183.

ب- الإبهام: هو إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين ، وقيل متضادين ، وبه يختلف عن التورية كما يختلف عنها بأن التورية توجه ذهن المستمع إلى المعنى القريب ، أما الإبهام فيدع الذهن فريسة الاحتمال .

وهي من خصائص كافوريات المتنبي :
وَيُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسِبُ النَّاسُ أَنَّهُ إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرُمَاتِ وَتُنْسَبُ
وَمَا طَرَبِي لِمَا رَأَيْتُكَ بَدْعَةً لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ فَأَطْرَبُ¹
ومنه قولهم " أترغب أن .. " فيحتمل معنيين متضادين على تقدير " في " أو
" عن " .

وسميت توجيهاً، وكلاماً مُوجَّهاً ، ومحتملاً للضدين² .
فتختلف عن الكناية التي تتألف من معنيين لازم وملزوم كلاهما مرادان .

ج- الاستخدام : وهو أن يكون للكلمة معنيان فتذكر لتخدم المعنيين معاً³ .

مثاله قول بعضهم : " أنا على عهدك الذي تعلمه لم أحلّ لك من أمرك
عَقْدًا وَلَا مَكَانًا آتَسُّ مِنْكَ فِيهِ فَقَدْأ " فاستخدم "أحلّ" للعقد وللمكان .
ويختلف عن التورية والإبهام بأن المتكلم فيهما يقصد في نفسه أحد المعنيين
وهنا يطلب المعنيين معاً ، ويختلف عن الكناية بأنه ليس أحد المعنيين بلازم
للآخر .

¹ - ديوان المتنبي 1/ 186 بشرح العكبري الذي قال : " ليس هذا مما يُمدَح به ولا سيما الملوك
لأنه أشبه بنفي النسب عنه ، وفي الثاني قال : " قال أبو الفتح : لما فرأت عليه هذا البيت قلت له :
جعلت الرجل أبا زَنَّة - وهي كنية القرد - فضحك " الشرح 1/ 187 .

² - ينظر : معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب ص : 25 ، 567 ، 606 .

³ - ينظر : معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب ص : 70 ، 71 .

د- الأحاجي (وتسمى الألفاظ والمعنى والأغاليط) وهي كل معنى يُستخرج بالحدس لا بدلالة اللفظ ولا المفهوم ، والمقصود استخراج الأفهام وامتحان الأذهان¹.

كما قالوا : ربّ ثور رأيت في جُحر نملٍ ! ... ، والثور ذكر النمل².
وتختلف عن الكناية بإرادة المعنى البعيد للكلمة وليس أحد المعنيين في الأحجية بلازم للآخر .

هـ - التلميح : أن يشار إلى قصة أو شعر من غير ذكره ، ومنه ضربٌ يشبه اللغز كقول تميمٍ لبعض بني نمير : ما في الجوارح أحبّ إلي من البازي ، تلميحاً لقول جرير :

أنا البازي المدلّ على نمير أتحتّ من السماء لها انصبابا³
إلى آخر الحكاية⁴.

وقريب منه العنوان وهو أن يأخذ المتكلم في غرض له من وصف أو فخر أو مدح أو هجاء أو عتاب ، ثم يأتي لقصد تكميله بألفاظ تكون عناوين لأخبار متقدمة وقصص سالفه⁵.

¹ - ينظر : تاريخ آداب العرب ، الرافعي 403/3 وما بعدها ؛ معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب ص : 35.

² - ينظر المزهري في علوم اللغة وآدابها ، السيوطي 452/1 .

³ - ديوان جرير 2 / 819.

⁴ - ينظر : الإيضاح ، القزويني ص 389؛ معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب ص413.

⁵ - ينظر معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب ص535 .

الصنف الثاني : ضرب يصدق في بعض صوره على الكناية وهو أعم منها :
أ- اللحن : قولٌ يفهمه المخاطب ويخفى على غيره لأنه يميله عن الواضح المفهوم ، أو هو التعريض عن فطنة كما قيل في بيت مالك بن أسماء :
منطق صائب وتلحن أحياناً وخير الحديث ما كان لحناً¹
وقد كان ابن وهب (- 337هـ) جعله تعريضاً أو كناية ، فقال : " هو التعريض بالشيء من غير تصريح به أو الكناية عنه بغيره "².

ب- لطافة المعنى : سماها ثعلب كذلك ، وقال : " هي الدلالة بالتعريض على التصريح "³ ثم فسره بالإيماء الذي يقوم مقام التصريح لمن يحسن فهمه واستنباطه.
ومثل له بقول امرئ القيس :
وخليلٍ قد أفارقه ثم لا أبكي على أثره⁴
وهذا فيه كناية عن جلدِه واغتنائِه بنفسه عن الأخلاء وانعدام أسفه عليهم.
وبقول نصيب في سليمان :
وعاجُوا فاثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتُوا أثنت عليك الحقائق⁵
وليس فيه كناية بل استعارة. إذاً يمكن للطافة المعنى أن تكون كنايةً وغيرها.

¹ - الأغاني 238/17 .

² - البرهان في وجوه البيان ص 133؛ معجم المصطلحات البلاغية 575.

³ - قواعد الشعر ص 49.

⁴ - ديوان امرئ القيس ص 126.

⁵ - الأغاني 323/1 .

ج - الإشارة والإيماء والرمز بمعناها الأعم لا وفق تصنيف السكاكي ، وتقدم أن الإشارة والإيماء نوع من الكناية عند السكاكي حيث تكون قريبة وواضحة، وأن الرمز كناية قريبة مع نوع خفاء¹.

والإشارة والإيماء كانا بمعنىً عند الأوائل عضويّ غير لفظي أي باليد والعين ونحوها ، وعدّها الجاحظ من أصناف الدلالات على المعاني².

ثم استعملا في الألفاظ ، فعرف قدامة الإشارة بأن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معانٍ كثيرة بإيماء أو لمحة تدل عليها³.

ومما مثّلوا به لمحةً دالة⁴، قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر بن ماثية الكرم المفضل⁵

يريد أنهم ملوك ذوو حاضرة ومستقر عز لم يفرّقوا في البلاد .

وهذا مثال للكناية بديع .

وعدّ ابن رشيق الإشارة أصلاً يندرج تحته أنواع منها الكناية ، والإيماء ، والرمز ومثل للإيماء بقوله تعالى: (فَعَشِيَهُمْ مِنْ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) {طه: 78}، ومثّل للرمز بقول أحدهم يصف امرأة قُتِل زوجها وسُبيت:

عقلتُ لها من زوجها عددَ الحصى مع الصبح أو مع جُنحِ كلِّ أصيل⁶.

والمراد أنه يعطيها بزوجها الهم الذي يدعوها إلى عد الحصى، وعد الحصى هو الرمز وهو كناية في الوقت ذاته .

¹ - ينظر : معجم المصطلحات البلاغية ص 122 ، 489 ، 498.

² - ينظر : البيان والتبيين 1 / 43.

³ - ينظر : نقد الشعر ص 174.

⁴ - ينظر : معجم المصطلحات البلاغية، د. أحمد مطلوب ص 578.

⁵ - ديوان حسان 1 / 74، في قصيدة سائرة تنظر أيضاً في طبقات فحول الشعراء ، محمد بن

سلام الجمحي 218/1؛ والأغاني 17 / 177 .

⁶ - ينظر : العمدة 302/1 ، 303 أما البيت فلم أعثر على نسبه .

الصف الثالث : ضرب بينه وبين الكناية عموم وخصوص نسي :

أ- الاتساع: وهو بحسب المصطلح البلاغي العربي كلّ كلام تتسع تأويلاته فتفاوت العقول فيها لكثرة احتمالاته لنكتة ما ، كأوائل السور .¹
ومنه قول الحماسي :

بيضُ مفارقنا تغلي مراجلنا نأسو بأموالنا آثار أيدينا²

فقد تكون بيض مفارقنا تمثيلاً للطهارة والعفاف ، أو كناية عن السن والتجربة ، أو كناية عن الحرية إذ في المفارق جلاء لون البشرية . وهكذا اجتمع فيها المماثلة والكناية بل وأكثر من كناية لتعدد الملزوم .

ب - التدييج: وهو أن يذكر الشاعر ألواناً يقصد الكناية بها أو التورية بذكرها عن أشياء من مدح أو وصف أو نسيب أو هجاء أو غير ذلك أو لبيان فائدة الوصف فيها³.

فمثال تدييج الكناية قول أبي تمام :

تردّي ثياب الموتِ حمراً فما دجى لها الليلُ إلا وهي من سندسٍ خضُر⁴

فالشرط الأول كناية عن الشهادة، والثاني كناية عن دخول الجنة.

ومثال تدييج التورية قول الحريري : " فمذ اغبر العيش الأخضر و ازورّ المحبوب الأصفر واسودّ يومي الأبيض"⁵ فهذه توريات والمحبوب الأصفر الدينار .

¹ - ينظر : معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب ص : 29 .

² - لبعض بني قيس بن ثعلبة كما في الحماسة 26/1.

³ - ينظر : معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب ص 279 .

⁴ - ديوان أبي تمام 304 /2 (ط. دار صادر) يرثي محمد بن نصر الطوسي .

⁵ - مقامات الحريري، المقامة البغدادية ص 125.

ج -التنكيت : الكلام المتضمن دقائق يحتاج السامع في استخراجها إلى فضل تأمل، أو هو استخراج الدقائق في الكلام حتى لا يكون فساداً في النقد¹، ويُحكى أن الأصمعي سُئل عن قول الخنساء رضي الله عنها :
 يذكّرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكلّ غروب شمس²
 فقال : أرادت بطلوع الشمس للغارة ، وبمغيبها للقرى³ .
 فسار قول الأصمعي ، وأظن هذا لم يخطر ببالها ، فالتكلى أشغل من أن تنكّت، وهل الأخرى التي تقدّم⁴ فيها قول الشاعر :
 عقّلتُ لها من زوجها عدد الحصى مع الصبح أو مع جُنح كلّ أصيل
 تفكّر في الغارة والضيف ؟
 إن ذكرَ طرفي النهار يدلُّ على الاستغراق أو على التكرار، أو إن لهذين الوقتين خصوصية في تهيج الأحزان والخواطر كونهما البداية والنهاية ، وهذا قدّر الشاعرات النائحات الثكالى ، لا أراهن يبلغن ما ذكر الأصمعي -رحمه الله - وإن كان ما قاله بديعاً، والله أعلم .

وأرى أن يمثّل للتنكيت بافتخار الجاهليين بشرب الخمر وحقيقة مقصودهم أنها تبعث على الكرم فهو افتخار بالكرم⁵، وها هنا يلتقي التنكيت بالكناية حيث يكون فيها نوع خفاء .

¹ - ينظر : معجم المصطلحات البلاغية ، د. أحمد مطلوب ص 427 .

² - ديوان الخنساء ص50.

³ - ينظر المزهر ، السيوطي 288 /2 ؛ وهذا فسرهُ أبو الفرج في الأغاني 182/17 .

⁴ - ص 87.

⁵ - وهذا أصل في تسمية الجاهليين العنب كرمًا، قال أبو بكر بن الأنباري: "إنما سمي الكرم كرمًا؛ لأن الخمر المشروبة من عنبه تحثُّ على السخاء وتأمّر بمكارم الأخلاق؛ فاشتقوا لها اسماً من الكرم " الزاهر في معاني كلمات الناس 235 /2؛ وينظر: فتح الباري (567/10) .

مثاله قول طرفة بن العبد:

أُسْدُ غِيلٍ فَإِذَا مَا شَرَبُوا وَهَبُوا كُلَّ أَمُونٍ وَطِمَرٍ

الغيل الأجمة وموضع الأسد، والأمون الناقة الأمانة وثيقة الخلق قد أمنت العثار والإعياء، والطِمَرُ الفرس الجواد طويل القوائم خفيف.¹
فهو يفتخر بشرب الخمر لما تحثُّ بزعمه على الكرم، وسيأتي تفصيل المسألة وانتقادها.²

د- الغلو وهو تجاوز حدّ المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها، ومن أسمائه المبالغة والإغراق والإفراط وقد يُجعل الإغراق بين المبالغة والغلو، ويَجْمَلُ إذا اقترن بكاد ولو ولولا ونحوها³، كقوله تعالى: (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) {النور: 35}، وللبحتري:

لو أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبِرُ⁴

وغير مختارٍ ما فعله العسكري - رحمه الله - إذ مثّل للغلو بقول الله سبحانه وتعالى: (وَبَلَغْتَ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) {الأحزاب: 10}،⁵ فإن القرآن لا يُنَعَتُ بغلو! وإن كان لا مشاحة في الاصطلاح. ثم إنها كناية عن شدة الخوف، وإذا قلنا كناية فدلّلها الذي هو بلوغ القلوب الحناجر ثابت حقيقة وليس مجازاً، وهكذا قال فيها أئمة التفسير فمنهم من ذكر أن القلوب تزول حقيقة عن مواضعها إلى الحناجر، ومنهم من ذكر أنه مثّل جارٍ مضروب لهذه الحال فضرِبَ

¹ - لسان العرب (غيل، 11/ 510) و(أمن، 13/ 21) و(طمر 4/ 502)، وهو في ديوان طرفة ص 65.

² - في الفصل الخامس ص 261، 362.

³ - ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، د. أحمد مطلوب ص 153، 539، 582.

⁴ - ديوان البحتري 2/ 1073، بمدح المتوكل ويصف خروجه للعيد.

⁵ - ينظر: كتاب الصناعتين ص 357.

في القرآن ولا ضير ، ومنهم من ذكر أنه جار على طريقة العرب في المبالغة لكن على إضمار كاد ، ومنهم من قدّر مضافاً محذوفاً هو خفقان القلوب وهو الأظهر في قول القرطبي¹ ، وكيفما قلبت التفسير لم تكن غلوّاً إلا على المعنى الجميل الصادق ، والذي استظهره القرطبي أقرب إلى الحالة الحقيقية التي يلاحظها كل إنسان من نفسه عند الخوف البالغ فيشعر كأن شيئاً في جوفه وثب إلى حنجرتة ، والله أعلم .

وعلى القول الذي يعتبرها مثلاً وقلت عنده لا ضير ، فإنما قلت ذلك لأن ابن قتيبة عند ذكر المبالغة في الاستعارة ومثالها: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ) {الدخان: 29} ذكر أن العرب تقول إذا أرادت تعظيم مهلك رجل: أظلمت الشمس له ، وكُسِفَ القمر لفقده ، وبكته الريح والبرق والسما والارض ، يريدون المبالغة ، قال : "وليس ذاك بكذبٍ لأنهم جميعاً متواطئون عليه والسامع له يعرف مذهب القائل فيه " ².

قلت : فيصبح القول نفسه كناية عن عظمة هذا الرجل وليس الكلام المقول فإنه استعارة .

ولم يكن بدُّ من هذا التعقيب لبيان أنه لا مدخل للإغراق والغلو والمبالغة في الكناية إلا ما كان عن النسبة فقد يخامرها شيء من ذلك لجهة الإسناد المجازي المنفصل عن الكناية عند التحقيق³ ، ثم لا يكون كذباً لأنه أمرٌ تواطؤوا عليه

¹ - الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي 14/145.

² - تأويل مشكل القرآن ص 582 .

³ - ففي المثال المشهور : إن السماحة ... في قبة ضربت على ابن الحشر

ترى أن جعل السماحة في القبة من الإسناد المجازي لأن الرجل هو الذي في القبة ، أما نسبة السماحة إلى شيء يلتبس بالرجل كجعلها في القبة المضروبة عليه فهو الكناية عن نسبة السماحة إليه .

والسامع له يعرف مذهب القائل فيه ، ولهذا منزلة تعرف عند الكلام على أثر
الكناية في الاستنباط ، إن شاء الله تعالى .

الفصل الثاني

الصورة الفنية للكناية النبوية

المبحث الأول: مفهوم الصورة الفنية

- المطلب الأول: تعريف الصورة الفنية .
- المطلب الثاني : علاقة الخيال بالصورة الفنية .
- المطلب الثالث: وظيفة الصورة .
- المطلب الرابع : منهج دراسة الصورة الفنية للكناية .

المبحث الثاني : التجسيم في الكنايات النبوية

- المطلب الأول : تعريف التجسيم ، وفاعليته .
- المطلب الثاني: نماذج من التجسيم الكنائي في الحديث النبوي .

المبحث الثالث : التشخيص في الكنايات النبوية

- المطلب الأول : تعريفه التشخيص وأقسامه .
- المطلب الثاني : منزلة التشخيص من الكنايات النبوية .

المبحث الأول

مفهوم الصورة الفنية

يتناول هذا المبحث تعريف الصورة الفنية، وصلتها بالخيال، ووظيفتها، ومنهج دراستها .

المطلب الأول: تعريف الصورة الفنية

يتألف هذا التركيب الوصفي من كلمتين : الصورة والفن، وحتى نبغّ التعريف لا مناص من المرور بمعاني هاتين الكلمتين في اللغة والاصطلاح .
أ- الصورة: اعتورتها خمس دلالات أثرت في مفهومها الاصطلاحي ، وهي الدلالة اللغوية ، والذهنية ، والنفسية ، والرمزية ، والبلاغية .

وهذا التنوع مرده إلى اختلاف معانيها في **الدلالة اللغوية** أولاً، فالصاد والواو والراء كلمات كثيرة متباينة الأصول، كما ذكر ابن فارس وقال : " وليس هذا الباب بباب قياس ولا اشتقاق "¹.

ومن معانيها في اللغة شكل الشيء وحقيقته وصفته، وصَوْر يَصَوِّر صَوْرًا أي: مال. وهذا الأخير هو الوحيد الذي ذُكر أنه ينقاس²، ولعله السر في اختلاف معاني هذا الباب فلا يستقرُّ على معنى حتى يميل إلى آخر ، والله أعلم .

والذي قاله الدكتور نعيم اليافي أنها " المحاكاة الحرفية لموضوع خارجي بصري على الأغلب "³ يُعدُّ اقتصاراً لا دليل عليه بل الدليل يناقضه كما نقلت من المعاجم، وكذلك الشواهدُ ومن أجلها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

¹ - مقاييس اللغة (صور ، 3 / 319)

² - ينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس (صور ، 3 / 319) ؛ لسان العرب ، ابن منظور (صور 4 / 471).

³ - مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، ص 42 .

((إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ))¹، أي في إضاءة البدر²، فلا شك أن المحاكاة الحرفية مستبعدة تماماً في هذا الحديث.

وللصورة دلالة ذهنية في مجال الفلسفة، فهي العَرَضُ المقابل للجَوْهَر (صورة - مادة)، وكانت في الاتجاه الفلسفي القديم منفصلة عن المادة وصارت في الاتجاه الجديد مندمجة بها³.

ودلالة نفسية في مجال علم النفس، أنها انطباع أو استرجاع أو تذكُّر لخبرة حسية أو إدراكية ليست بالضرورة بصرية⁴.

ودلالة رمزية في الفنون حيث يعتبر العمل الفني كله صورةً أي رمزاً حسيّاً يكشف عن أشياء جوهرية في حياة الفنان وشخصيته ، سواء بُني على بلاغة أم لا⁵.

وتشكل الدلالة الرمزية - فيما أرى - مزيجاً بين الدالتين الذهنية والنفسية .

¹ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : البخاري في بدء الخلق (ما جاء في صفة الجنة وأهلها مخلوقة) 3246 ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر) 2834 ، والترمذي في صفة الجنة عن رسول الله (ما جاء في صفة أهل الجنة) 2537 ، وابن ماجه في الزهد (صفة الجنة) 4333 .

² - ينظر : فتح الباري ، ابن حجر 324/6 .

³ - كذا قال الدكتور نعيم اليافي في مقدمة لدراسة الصورة الفنية ص 42 ، 43 ، لكن من الفلاسفة الأقدمين من عدَّ الصورة جوهرية تعبّر عن حقيقة الشيء كالكندي في رسائله ص 63 ، وعليه تكون مقابلةً للعرض . أما في الفلسفة الحديثة فحقيقة المحسوس هي الحضور المباشر له ، وبذلك يندمج العرض والجوهر (الصورة والمادة) ينظر: مدخل جديد إلى الفلسفة ، د. عبد الرحمن بدوي، ص 149.

⁴ - ينظر: المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى وآخرون (صور 1 / 528) ؛ المدخل إلى علم النفس الحديث ، ركس نايت، مرجيت نايت، ص 150.

⁵ - مقدمة لدراسة الصورة الفنية، د. نعيم اليافي ص 44 .

ودلالة بلاغية فالصورة كل تعبير غير حرفيٍّ وبالتالي تشمل كل الأشكال البلاغية باعتبارها انحرافيةً بطريقة أو بأخرى¹.

وذكر الدكتور نعيم اليافي أن هذه الدلالات المختلفة تشكل متاهة للباحث في الأدب، ثم قال: " ولقد رأيتني ألوبُّ حتى وجدتني أوتر الدلالة الأخيرة الخامسة لمصطلح صورة لكي أبني عليها دراستي القادمة عن تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث "².

وما اختاره هو الأشهر في مسيرة النقد مع تأثره بالدلالات الأخرى ، فمما عُرِفَت به الصورة بناء على الدلالة الذهنية وفق الاتجاه الفلسفي الجديد: " التركيبية اللغوية المحقَّقة من امتزاج الشكل بالمضمون في سياق بيانيٍّ خاصٍّ أو حقيقيٍّ موحٍ كاشفٍ ومعبرٍ عن جانب من جوانب التجربة الشعورية "³.

وبناء على الدلالة النفسية: " كل تعبير عن تجربة حسية تنقل بالحواس إلى الذهن فتنتطبِع فيه، فينقلها الذهن إلى الشعور ثم يعيد استرجاعها بعد غياب المنبِّه الحسي بطريقة مثيرة فيها صدق الإحساس الأصيل "⁴.

وكان النقاد العرب فهموا الصورة من خلال الشكل البلاغي المرتكز على التقديم الحسي للمعنى ولا سيما البصري منه⁵، قال الشيخ عبد القاهر: "وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكره منكرٌ ، بل هو مستعمل

¹ - ينظر: مقدمة لدراسة الصورة الفنية، د. نعيم اليافي ص 46 .

² - مقدمة لدراسة الصورة الفنية ص 47 .

³ - الصورة الشعرية ، د. بشرى الصالح ص 20 .

⁴ - مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، د. اليافي ص 43 .

⁵ - حقق الدكتور جابر عصفور أن الإعلاء من البُلغاء للجانب البصري تناسب مع الإعلاء

الفلسفي لحاسة البصر وشرفها . ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ص312 .

مشهور في كلام العلماء، ويكفيك قول الجاحظ : وإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير "1.

ثم بلغت ذروة الإفادة من المعارف الفلسفية والنفسية عند حازم القرطاجني (-684هـ) فلم تعد الصورة عنده تشير إلى مجرد الشكل أو التقديم الحسي بل أصبحت محددة في دلالة نفسية خاصة تترادف مع الاستعادة الذهنية لمدرِك حسيّ غاب عن مجال الإدراك المباشر ، يقول : "إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق ما أدرك منه، فإذا عُيِّر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم"2.

وتأرجحت في النقد الأدبي المعاصر بين الدلالة النفسية والدلالة البلاغية ، وذكر مصطفى ناصف أنها تستعمل للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي أي الأشكال البلاغية القائمة على إثارة الذاكرة الحسية للمتلقى ، قال : " وتُطلق أحياناً مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات "3، بالنظر إلى تبوؤ الاستعارة منزلة الصدارة في النقد المعاصر وتوسّع معناها ليشمل كل استعمال غير حرفي للكلمات .

وأختار الدلالة البلاغية للصورة؛ لأنها ألصق بالدراسة وأشهر في مسيرة النقد مع الإفادة من الدلالات الأخرى ولا سيما النفسية منها، وهذه الإفادة هي التي اقتضت توصيف الصورة بكونها فنية لتقيّد الدلالة البلاغية من جانب وتطلقها من جانب آخر كما سيأتي بيانه.

1 - دلائل الإعجاز ص 327 .

2 - منهاج البلغاء ص 18.

3 - الصورة الأدبية ص 3 .

ب- الفن :

الفن من الشيء النوع منه¹، وقد يأتي على معنى التّعنية والاطراد الشديد ، وأصله في الإبل يمتلك أمرها ويتمكن منها ويسوقها ويطرؤها يميناً وشمالاً وعلى استقامة وعلى غير استقامة².

وصار يطلق اليوم على أمور شتى فهو: " التطبيق العملي للنظريات العلمية بالوسائل التي تحققها ، ويُكتسب بالدراسة والمران . وجملة القواعد الخاصة بحرفة أو صناعة ، وجملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف وبخاصة عاطفة الجمال كالتصوير والموسيقى والشعر، ومهارة يحكمها الذوق ، والمواهب "³.

والفن في مجال الأدب هو النتاج الإنساني الذي يقوم على عنصر الجمال، وأساسه الخيال الشعري الذي يربط الأفكار بالمحسوسات⁴.

ولهذا استخدمت الكلمة في ترجمة فكرة هيغل في التجلي، فقليل إن الفنون تُعدُّ تجلياً للفكرة أو الروحي ، والحواس نوافذ العالم الداخلي والمجردات⁵.

يقول هيغل : " الفن شكل خاص يتجلى فيه الروح "⁶.

ويقول: " الجمال هو الفكرة المتصورة كوحدة مباشرة بين المفهوم وواقعه، وذلك بقدر ما تتجلى هذه الوحدة في تظاهرها الواقعي والحسي "⁷.

¹ - التعريف ، المناوي ص 565 .

² - ينظر: مقاييس اللغة ، ابن فارس (فن، 4 / 435) ؛ لسان العرب، ابن منظور (فنن، 13 / 326).

³ - المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى وآخرون (فن ، 2 / 703) .

⁴ - ينظر : النقد الأدبي الحديث ، د. محمد زغلول سلام : ص1

⁵ - ينظر : الصورة الفنية في الحديث النبوي ، د. أحمد ياسوف ص 90 .

⁶ - المدخل إلى علم الجمال، ص 16.

⁷ - فكرة الجمال ص 195.

فغاية الفن الجمال ومركبه الخيال، ويقع من الأصل اللغوي على معنى التقديم الحسي لما ذكرنا، وعلى معنى التعنية والاطراد الشديد؛ لأن الفنان غوّاص أو محلّق ومركبه يساعده في ذلك حتى يتفرد ويتميز .. الفن أنا والعلم نحن¹.

وأنتهي إلى تعريف الصورة الفنية بأنها الشكل البلاغي المرتكز على التقديم الحسي للمعنى مُوظّفاً فيه كل ما من شأنه إبراز جمال الصورة من وسائل أخرى ولو غير بلاغية .

فتكون الصورة بهذا الاعتبار "معادلاً فنياً جمالياً يوحى بالواقع ويومئ إليه بأشباهه من الرسوم واللوحات عن طريق الحشد الإيقاعي وسائر ضروب الإيحاء البلاغي والبديعي والصياغات التشكيلية والتقنيات الأسلوبية واللغوية المختلفة"².

إذاً وصف الصورة بالفنية يقيدها ويثريها في آن واحد :

يقيدها بالأشكال البلاغية المرتكزة على التقديم الحسي لأن الفن تجلّ حسيّ للفكرة ، مستبعداً الأشكال البلاغية الأخرى .

ويثريها بتوظيف كل ما يمكن من الوسائل الفنية لإبراز جمالية الصورة كالإيقاع واللون والحركة باعتبار الفن تعنية واطراداً وراء كلّ ما يثير العاطفة ويحرك الإحساس .

¹ - الفن أنا والعلم نحن كلمة متداولة في كتب النقد، تُنسب لغير واحد من الفلاسفة ومنظري الجمال منهم كلورد برنارد (-1878م) الفيلسوف والطبيب الفرنسي مؤسس علم وظائف الأعضاء التجريبي، وذكرها د. محمد زغلول سلام في النقد الأدبي الحديث ص5.

² - قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ، د. زاميل يعقوب، د. بسام بركة، مي شيخاني، ص

والتقديم الحسي للمعنى إما أن يكون تجسيمياً يبرز الأفكار في صور محسوسة وهو الأشهر كتجسيم الكبر بجراً الإزار والتواضع بلين المناكب، أو تشخيصاً يثبث الشعور والحركة في غير الأحياء وهو الأقل كجعل الجبل يحب وجعل الشيب يضحك .

غير أن التجسيم في الكناية يشكل ظاهرة متميزة ، أما التشخيص فهو ألصق بالاستعارة كما سيأتي .

وهذا الفصل والذي يليه ميدانان لعشرات النماذج من التصوير الفني في الحديث الشريف ، حيث يركز هذا الفصل على التقديم الحسي من تجسيم وتشخيص ، ويركز الآتي على الوسائل الفنية من لون وحركة ، ولخصوصية الإيقاع تم درسه في الفصل الرابع علاقات الكناية .

المطلب الثاني : علاقة الخيال بالصورة الفنية

مرّ أن أساس الفن في النقد الحديث هو الخيال الشعري الذي يربط الأفكار بالمحسوسات، بل إن مصطلح الصورة الأدبية في اللغة الإنجليزية (Amage) مشتق من ملكة التخيل (Amagination) ، لكنّ العربي إذا ذكّر الخيال وضع يده على قلبه وهو يرى أن باباً من الباطل قد انفتح ، لما شاع في أذهان الناس من أنه عكس الحقيقة ، والحقيقة تقول غير هذا وتعتبر الخيال خزانة للمحسوسات .

قال المناوي : " الخيال قوّة تحفظ ما يدركه الحس المشترك من صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة بحيث يشاهدها الحس المشترك كلما التفت إليها، فهو خزانة للحس المشترك، ومحله البطن الأول من الدماغ " ¹.

¹ - التعاريف ص 329.

وقد يُعبّر عنه بالتوهم عند فلاسفة المسلمين ، يقول الكندي : "التوهم هو الفنطاسيا: قوة نفسانية مدركة للصور الحسية مع غيبة طينتها" ¹ .

فالحس يلتقط صور المحسوسات فتنتطبّع في الخيال (المصوِّرة) فيحفظها ثم يسترجعها في غياب المحسوسات ذاتها².

وذكر الدكتور جابر عصفور أن التخيل لا يعمل بغياب الحس ، ولقدرته على التجريد فإنه يعيد صياغة الحس وابتكاره³، فهو لا يستهدف نسخاً أو نقلاً حرفياً للواقع⁴، واختار الدكتور أحمد ياسوف كلمة التصور على التوهم والتخيل، وقال: "التصور يمتلك الحرية في تفكيك الواقع وتركيبه من غير الإيغال في الوهم على شكل مرضي" ⁵.

وأرى النقلَ الحرفيَّ غيرَ ممكنٍ أصلاً ولا بد من انحراف ما، ولعله مرادُ الدكتور عز الدين إسماعيل بقوله : " الصورة دائماً غير واقعية وإن كانت منتزعة من الواقع ؛ لأن الصورة الفنية تركيبية عقلية تنتمي في جوهرها إلى عالم الفكرة أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع" ⁶.

وينبغي ملاحظة أمرين :

¹ - رسائل الكندي ص 115.

² - ينظر: الشفاء (علم النفس) ابن سينا ص:40، وما بعدها ، والقوى الذهنية عنده خمسٌ متداخلة : الحس المشترك- الخيال أو المصورة - المتخيلة - الوهمية - الذاكرة . هذا ويمكن أن يُعبّر بالخيال عما بعده تجنباً للاستطراد الفلسفي ، وهو ما فعلت . وللتوسع ينظر كذلك : الشفاء (علم النفس) ص 163 وما بعدها .

³ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، د. جابر عصفور ص 35 .

⁴ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، د. جابر عصفور ص 14 .

⁵ - الصورة الفنية في الحديث النبوي ص 99 .

⁶ - التفسير النفسي للأدب ص 57، 58.

الأول أن الخيال إذ يعتمد على الحس مُعَرَّضٌ للزلل بسبب قصور الحاسة عن استيعاب ماهية المحسوس وصفاته، ومُعَرَّضٌ للشطط بسبب وقوعه في منطقة ملابسة للنوازع والشهوات والغرائز .

والثاني أن ذاكرة الخيال لا تبقى إلا المشاعر التي تحرَّكنا ، أي الصور التي استقبلناها بتفاعل عند عملية الإدراك. أما الصور التي لم تتأثر بها لحظة إدراكها فتبقى -إذا بقيت في الذاكرة - خاملة بعيدة عن عملية الاسترجاع¹.

وهذا يعني انتقائيةً في عمل الخيال يسبب تفاوتاً في الإبداع وفي التلقي على حد سواء، كما يُزعم أنها تسبب تسلُّطاً للصور المستقبلية تجعلها تقتحم على المبدع من غير استئذان وبلا وعي منه ، وهذا ما يسمى التداعي .
ولا شك أن المبدع في درسنا وهو الرسول صلى الله عليه وسلم صادرٌ عن وحي فهو مُبرِّأ من مشكلات الخيال ، وهذا ما ستؤكدُه الدراسة .

والتفكيك والتركيب والانحراف عن الواقع نتيجةً منطقية وطبيعية لعملية الإدراك الحسي والتخزين والاسترجاع ، لكن ما ليس طبعياً ولا منطقياً تكلف هذا الانحراف وهذا التفكيك والتركيب بإعمال عنصرٍ غريبٍ في هذه العملية فيخرج الأمر إلى صَنعة بتطبيق قواعد جاهزة كما حصل في العصر البديعي أو يخرج إلى (صرعة) بمحاولة كسر كل قاعدة ضمنية موجودة في الذهن من قواعد اللغة وسنن الحياة وهو ما يسمى بتهويمات² اللاشعور وتراسلات الحواس ، وهي كذلك صَنعة ولكن على الجانب الآخر و" كلا طرفي قصد الأمور ذميم"³.

¹ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، د. جابر عصفور ص 90 .

² - التهويم أول النوم أو النوم الخفيف كما في لسان العرب (هوم، 12 / 624) فكأن الشاعر بما يخلط بين الحواس ومحسوساتها فيشم بعين ويصير بأذن .. الخ كأنما هو بين النائم واليقظان .

³ - من بيتين مشهورين لم أعرف قائلهما :

عليك بأوساط الأمور فإنَّما طريقٌ إلى نهج الصواب قويمٌ
ولا تكُ فيها مفرطاً أو مفرطاً كلا طرفي قصد الأمور ذميمٌ

المطلب الثالث: وظيفة الصورة

نستطيع ان نحدد وظائف الصورة في ثلاث مراحل :

أولاً - في الفلسفة القديمة ، وبالذات عند أرسطو صاحب نظرية المحاكاة ، التي ترى أن الفنان يحاكي الأشياء بأفضل أو بأسوأ مما هي عليه ، فاقتزنت الوظيفة عنده بالتحسين والتقبيح¹ ، وهي ما تُدعى بالوظيفة التزيينية .

ثانياً - عند الفلاسفة المسلمين : كانت لهم إضافة هائلة في هذا المضمار عندما جعلوا وظيفة الصورة في التأثير على سلوك المتلقي ، وأصلوا ذلك، قال الفارابي: " إن الإنسان كثيراً ما تتبع أفعاله تخيلاته أكثر مما تتبع ظنه أو علمه "2، والتخيلات هي كما مر مُنطَبَع الحسِّ وخازنته، وعدَّ ابن سينا القوة الوهمية - وهي من قوى الذهن - أكثر القوى سيطرة على السلوك .

وأرى أن تركيز الفلاسفة المسلمين على التخيل والتأثير في المتلقي أكثر من التخيل والجوانب الوجدانية التي تصاحبه عند المبدع منبثق عن النظرة الإسلامية التي تتجه إلى الآخر وتأبى الانكفاء على الذات، وما غرَب عن فكر العربية

وكذا قال البغدادي في خزنة أدبه 2 / 107 : " ولا أعلم قائل هذين البيتين " وهذا مع توجه قصده إلى تخريج وشرح شواهد الرضي على كافية ابن الحاجب .

وقال الدكتور حسن يوسف عمر في تعليقاته على شرح الرضي على الكافية 1 / 341 : " لم يذكر أحد اسمه " والله أعلم .

وأشهر من ضمَّنها شعره الإمام الخطابي (- 386هـ) فقال :

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصدي الأمور ذميم .

ينظر: وفيات الاعيان ، ابن خلكان 2/215 ؛ خزنة الأدب ، عبد القادر البغدادي 2 /

107.

¹ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، د. جابر عصفور ص 23

² - إحصاء العلوم ص 67 ؛ وانظر: الشفاء، ابن سينا ص 45 .

الضرورة الوجدانية للمبدع؛ أما قيل: " لا بد للمصدر من أن ينُفث " ¹، ولكنها بقيت وظيفة ثانوية ترفيحية .

ثالثاً- في الفلسفة الجديدة التي تخطت بين التركيز على المبدع تكشف وجدانه ومحيطه من خلال الصورة ، وتعدّها ضرورة لتفريغ الشحنة الموجودة في نفسه ، وبين التركيز على المتلقي للتأثير عليه بغض النظر عن النوايا والأهداف ².

فحصل لدينا ثلاث وظائف للصورة :

1- المحاكاة ويتفرع عنها التحسين والتقبيح .

2- التفسير والمراد منه التأثير في المتلقي .

3- الدلالة على مبدعها ، وتحقيق ضرورته .

وكان الدكتور نعيم اليافي قد اقترح تجربة للكشف عن وظيفة الصورة، بأن نحذف الصورة ونبقي الفكرة فإذا بقي المعنى كانت زيادة صورية تزيينية وإلا فهي تفسيرية تمثل فكرة جديدة متحدة بالفكرة الأصلية ³.

وهذا الاقتراح غير ممكن في الكناية أصلاً؛ لأن الكناية تعبير بالصورة، والصورة فيها فكرة وتوحي بفكرة وكلتاها مطلوبتان وليست إحداها بمغنية عن الأخرى، ولو قلنا (كثير الرماد) فنحن لا نَعْنى بالكرم وحسب بل بكثرة الرماد أيضاً والتي تمثل الدليل الحسي المصور، فوظيفة الصورة الكنائية هي التفسير

¹ - رويت عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود - أحد الفقهاء السبعة - بعد إن ليم في أبيات قالها ، ولم أعثر عليه بسنده ولكنه منسوب إليه في البيان والتبيين للجاحظ 2/ 48 ، وفي ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان 3/ 116 .

² - ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر عصفور ص 382؛ البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ، ص 225.

³ - ينظر : تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ص 17 .

والتأثير دائماً والتلاحم بين الصورة والفكرة لا يبلغ حد التماهي في أيٍّ من الأنواع البلاغية قدّر ما يبلغ في الكناية .

المطلب الرابع: منهج دراسة الصورة الفنية للكناية

تنوّعت مناهج دراسة الصورة الفنية بحسب الدلالات التي تركز عليها ، ومن تعريف الكناية بأنها ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لِيُنْتَقَلَ من المذكور إلى المتروك، ومن طبيعة الكناية وأنها تقديم حسي حيث اللازم محسوس والملزوم معنىً نلاحظ أن أقرب المناهج وأنفعها في دراسة الصورة الفنية للكناية منهجان : الرمزي والنفسي .

1- المنهج الرمزي: الرمز موضوع يشير إلى موضوع آخر وإن كان فيه ما يؤهله لأن يتطلب الانتباه إليه لذاته كشيء معروض¹ .

فالإنسان في هذا المنهج حيوان رامز، ينظر إلى شخصيات الطبيعة على أنها رموز فالبرد والغروب والطين والطحالب صور ظلماء لها دلالاتها .. والنار تحرق وتسبب الحياة أيضاً والماء قبرٌ ورَّجَمَ فطوفانه يغرق ويميت وخيره يخضب ويحيي . وإذا كانت هناك علاقة بين تجربة داخلية عامة وبين شبيه لها في عالم الطبيعة أصبح من السهل أن تشيع في الأدب المكتوب وغير المكتوب .

وعن ذلك نشأ ما يسمى التكوين الشعائري للفن والصور الفطرية التي تظهر نتيجة رواسب وتجارب شعورية لا تحصى ترسخت في الأدمغة بتراكم العصور ثم أصبحت تورث بطريقة ما (اللاوعي الجماعي) ..² والصور فيه غارقة أو بارزة (عميقة أو ظاهرة) بحسب قوة دلالة الرامز على المرموز إليه، وقد يتفرع رمز واحد كلي للعمل الأدبي في عدة رموز جزئية تسمى الصور العنقودية .

¹ - مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، د. نعيم اليافي ص 76.

² - مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، د. نعيم اليافي ص 77 .

إن الكناية بتعريفها تشبه الرمز بتعريفه مع اختلاف التطبيق والأمثلة ، فكثرة الرماد ترمز إلى الكرم وطول النجاد يرمز إلى الطول ولكنها حقائق لا كالإسقاطات التي يجعلونها لمشاعر النفس على مظاهر الطبيعة ، ومع ذلك يمكن تصنيف الصورة الفنية للكناية وفق هذا المنهج إلى صور غارقة وأخرى بارزة بحسب البعد والقرب وعدد اللوازم ، وليس هذا جديداً في درس الكناية بل هو الدرس التقليدي لها والذي مجه النقاد المعاصرون وأنكروه على السكاكي كما سبق ذكره ¹.

2- المنهج النفسي : ويعتمد الدلالة النفسية للصورة أنها انطباع واسترجاع لخبرة حسية ، فوظيفة الأدب الشعري أن ينقل إلينا الإحساس بالأشياء لا المعرفة بها، أشياء كتلك التي نستطيع أن نبصرها ونلمسها ونسمعها ونتذوقها ونشمها ، ويقول الدكتور نعيم اليافي : " الرأي السائد يميل إلى تأكيد ظاهرة التجسيم والتعليل الحسيين وينفر من التجريد وإطلاق العقل للأفكار العامة " ².
والحق أن أكثر الصور بصرية وأن الباقيات تحسُّ بالتوقع .

ويبدو المنهج النفسي أفضل منهج لدراسة الصورة الكنائية؛ لأنه الأقدر على استيعاب أنواعها باعتبارها تصوراً حسياً ، ولأن الدرس وفق هذا المنهج يتسم بالجدة ويتجاوز التقليد ، فهذا هو المنهج الذي اختاره لدراسة الصورة الفنية للكناية النبوية، وفيما يلي دراسة لظاهرة التجسيم في الصورة الفنية للكناية النبوية، ثم للتشخيص وبيان موقعه من الكناية النبوية .

¹ - ص 34.

² - مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، د. نعيم اليافي ص 74.

المبحث الثاني

التجسيم في الكنايات النبوية

المطلب الأول : تعريف التجسيم وفاعليته

أولاً- تعريف التجسيم :

يقع في اللغة على معان ثلاثة : التجسيد ، والتضخيم ، وتحويل ما ليس بجسم إلى جسم .

فالجسمُ الجسد ، على أنه أعم منه إذ الجسدُ جسم الإنسان والعاقلات من الكائنات كالجن والملائكة، ولا يقال لغيرها من خلق الأرض جسد¹.

وجسْمُ أي : عظم . والجسيم العظيم الضخم².

والجسم جوهر قابل للأبعاد الثلاثة الطول والعرض والارتفاع³.

ومن المعنى الثالث استُقي التعريف الاصطلاحي للتجسيم في الآداب والفنون ، فهو : " ميلٌ معاكس للتجريد ، أي إبراز الماهيات والأفكار العامة والعواطف في صور وتشابيه محسوسة هي في واقعها رموزٌ معبّرة عنها"⁴.

وسبق بهذا المعنى في كلام علماء البلاغة العرب ، وقال الراغب (-500هـ) في قوله تعالى: (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) {النحل:112} " جعلَ

¹ - ينظر : لسان العرب ، ابن منظور (جسد ، 120/3) ؛ تاج العروس ، الزبيدي (جسد ، 499 / 7).

² - ينظر : لسان العرب ، ابن منظور (جسم 12 / 99)؛ مختار الصحاح ، الرازي (جسم ، 119 / 1).

³ - ينظر: التعريفات ، الجرجاني 1 / 103 ؛ تاج العروس ، الزبيدي (جسم ، 31 / 404)

⁴ - المعجم الأدبي ، جبور عبد النور ص 59 ؛ وينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة وكامل المهندس ص 50 .

الجوع والخوف لباساً على التجسيم والتشبيه تصويراً له ¹، ومنهم من سماه تشكيلاً و تصويراً²، وكأنهم تنزهوا عن مصطلح التجسيم لما تحمّله من ذمّ باقترانه بالمجسّمة الزاعمين أن الله جسم حقيقة³.

وهناك من تحرز عن هذه اللفظة لمعنى آخر كالشيخ عبد الرحمن حسن حينكة -رحمه الله- حيث اعتبر التجسيم على المعنى الثاني وهو التضخيم ، أما الذي نحن فيه فسماه تجسيدا ، قال : " ربّما يكون تضخيم الحقّ وتجسيمه في الصورة الأدبيّة عملاً أدبيّاً جميلاً؛ لأنّ التضخيم والتجسيم في مفاهيم النّاس لون من ألوان البيان والشرح للحقيقة، وبعد الشرح ترجع الحقيقة في تصوّر النّاس إلى حجمها الطبيعي" ⁴.

وقال : " ومن البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر التّفسية والأفكار تجسيدها في أمثلة حسية ماديّة، كتمثيل العلم بالنور، والجهل بالظلمات، وكتمثيل الكفر بالعمى، والإيمان بالبصر. وكتمثيل القرآن بقلب المؤمن في هدايته بمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة.. (الآية في سورة النور: 35) " ⁵.

وما أحسن ما قال لولا أن الجسد على الحقيقة لا يُطَلَق إلى على جثمان العاقل كما تقدّم أول المبحث فيكون التجسيدُ إضفاء شيءٍ من صفات العقلاء أو لوازمهم على المعاني وما مثّل به ليس من هذا القبيل ، والله أعلم .

¹ - مفردات غريب القرآن 1 / 447.

² - كالباقلائي(- 403هـ) في إعجاز القرآن ص 244 .

³ - ينظر : مقالات الإسلاميين ، أبو الحسن الأشعري ص 207 ؛ المواقف ، العضد الإيجي

38/3.

⁴ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها 1 / 55 .

⁵ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها 1 / 95 .

ومن ثم فلا أجد أفضل من مصطلح التجسيم للتعبير به عن هذه الطريقة في الأدب؛ لأن الجسم أعم من الجسد، ولأن المقصود بتجسيم المجردات الرمز لها بالأجسام مطلقاً .

ثانياً- فاعلية التجسيم :

يتلخّص تعريف التجسيم بأنه تقديم حسي للمعنى ، فالحسيّة فيه ملائمة للفطرة البشرية التي تأنس للمحسوس ، والمغايرة في تحويل المعنى إلى حسّ تُعدّ قيمة جمالية كبرى ، وعلى هذين الفطر والجمال تقوم فاعلية التجسيم :

1- ملائمة الفطرة : إن العقل لا يدخل إلى الذاكرة شيئاً من المعاني إلا بعد مروره بالحواس¹ ، وعند استرجاع المعنى تحضر صورة حسية واحدة على الأقل من الصور التي رافقت هذا المعنى في الدخول إلى الذاكرة ، فالسامع لا يدرك صورة الكرم إلا إذا مثّل لنفسه زيداً في فعل إعطاء² . وعند حضور الصورة الحسية يتحرك الشعور الذي رافقها في رحلتها إلى الذهن أوّل مرة .

وهذا ما عبّر عنه مصطفى صادق الرافعي بصوت الحس وعدّه أعظم وجوه الإعجاز البياني ، وقال : " على مقدار ما يكون في الكلام البليغ من هذا الصوت يكون فيه من روح البلاغة"³ .

2- الجمالية : يفقد التقديم الحسي للمحسوس روحه مع التكرار وطول العهد، أما التجسيم فلا يزال محافظاً على جماله " ممتلكاً روح المغامرة والقفزة الخيالية مهما تكرر"⁴ .

¹ - ينظر : فلسفة البلاغة ، جبر ضومط ص 99 .

² - ينظر : الصورة الأدبية ، د. مصطفى ناصف ص 129 .

³ - تاريخ آداب العرب 2/221 .

⁴ - الصورة الفنية في الحديث النبوي ، د. أحمد ياسوف ص 409 .

والغرض الآن أن نبحر في طائفة من الكنايات النبوية بالقدر الذي يثبت أن التجسيم فيها ظاهرة ، ويُعلمُ منه ملاءمة التجسيم للفكرة ولسائر الحديث مع الاستعانة بالوسائل الفنية الممكنة .

المطلب الثاني: نماذج من التجسيم الكنائي في الحديث النبوي
جسّمت الكناية النبوية المشاعر النفسية كالـكبر والتواضع ، والسماحة والحرص ، والاعتبار والبلادة ، والجوع والشبع ، والاهتمام والإهمال ، وغير ذلك.. وجسّمت الأفكار العامة كالرحمة الإلهية ، والقضاء ، والشهرة ، والقهر ، وذهاب المكانة ، وغيرها ..

أولاً – تجسيم المشاعر النفسية :

– الكبر والتواضع :

الكبرُ شعورٌ عنيف الوطأة ثقيل المحمل ، يشدُّ الجسمَ إلى الأسفل ، فيقيّد من حرّيته ويبيطّئ من حركته ، وانظر الكنايات التي تجسّمه تجدها حركاتٍ ظاهرة متصلةً مُستثقلة في موازاة الشعور الداخلي ، من جرّ الإزار إلى التناول والترفع بالعنق ، إلى صلابة الأكتاف ورفع الرأس .. إلى آخره .

فعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخِيَلَاءِ خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))¹ .

وعن محمد بن زياد قال سمعت أبا هريرة ورأى رجلاً يجر إزاره فجعل يضرب الأرض برجله وهو أمير على البحرين وهو يقول جاء الأمير جاء الأمير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى مَنْ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَرًا))¹.

¹ – البخاري ، في أحاديث الأنبياء (حديث الغار) 3485 ، والنسائي في الزينة (التخليط في جر الإزار) 5326 .

وجر الإزار مظهر كبر لكنه على الاتساع فقد يكون لغيره أيضاً ومن هنا جاء التقييد في الأحاديث بالبَطَر والخيلاء ، وبه ترجم البخاري فقال : "باب من جر ثوبه خيلاء" .

قال ابن حجر : "أي جره تكبراً وطغياناً. وأصل البطر الطغيان عند النعمة واستعمل بمعنى التكبر . وقال الراغب : أصل البطر دهش يعتري المرء عند هجوم النعمة عن القيام بحقها"².

فجر الإزار إذا كناية عن الكبر ، وإنّ هذا ليكون في العروس فلا يقال جرّت إزارها بل سحبت . والمعنى واحدٌ بيد أن كلاهما في سبيل ، قال ابن فارس في جرّ : "الجيم والراء أصلٌ واحد؛ وهو مدُّ الشيء وسحبُه" ، وقال في سحب : "السين والحاء والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على جرّ شيء مبسوطٍ ومدّه" . على أنه مثل للأصل الأول بالجرّ الذي هو أسفل الجبل ، وبالجزور من الأفراس الذي يمنع القياد، وبالجزار الجيش العظيم، وبإجرار لسان الفصيل أي شقّه لئلا يرضع ، ومثّل للأصل الثاني بسحب الذيل على الأرض، وبالسحاب ينسحب في السماء ..الخ³.

فيلاحظ فيما عُبر عنه بالجرّ الشدّة والقوّة ، وفيما عُبر عنه بالسحب اللطف والرفق . والإزار مما يُسحب لكنه إذا أثقل بمعاني الكبر والتعاضم فأخلق به أن يُجرّ جرّاً ، وهذا تناسق في الكناية بين الصورة والمعنى والظاهر والباطن لا يتفق لبلغاء الناس إلا بفكر وروية وتكلف تنزّه عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم .

¹ - البخاري في اللباس (من جر ثوبه من الخيلاء) 5788 ، ومسلم - واللفظ له - في اللباس والزينة (تحريم جر الثوب خيلاء ..) 2087 ، وابن ماجه في اللباس (من جر ثوبه من الخيلاء) 3571 .

² - فتح الباري 10 / 258

³ - مقاييس اللغة (جر ، 1 / 410 ، 411) و (سحب ، 3 / 142) .

وتأمل التصعيد في قوة اللفظ والمعنى في ناحية الجزاء من الحديث ((فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة)) .

قال ابن الأثير : " الجلجلة : صوت مع حركة ، والمراد : أن يسوخ في الأرض .¹

فالتضعيف الثلاثي في يجرُّ جُوزي بتضعيف رباعي في يتجلجل ، والجيم الشديدة الواحدة جُوزيت بجيمين ، والتعالي إلى السماء جوزي بتسقل في الأرض.

وثمة مظاهر كنائية أخرى للكبر في رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتُهُ إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))².

وإعجاب المرء بنفسه يعني ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله³. قال د. أحمد ياسوف : " لغة مصوِّرة أقوى أثراً من قوله بينما رجل متكبر ، إذ جاء التعبير بالصورة مباشرة مع الحركة ، واستُحضرت الحركة المتعالية إلى فوق كما استُحضر التعبير بالمضارع (يمشي) و(تعجبه) للدلالة على نشاطه وحيويته..⁴

وتبيّن لي بالتأمل معنى آخر ، فالأصل أن يتجه نظر المرء إلى الكون المحيط حيث تتجه قدمه ، فإذا انعكس النظر فصار إلى الداخل (إلى نفسه) حدثت

¹ - جامع الأصول في أحاديث الرسول 10 / 621

² - البخاري في اللباس (من جر ثوبه من الخيلاء) 5789 ، ومسلم في اللباس والزينة (تحريم التبخر في المشي مع إعجابه بثيابه) 2088 .

³ - ينظر : فتح الباري ، ابن حجر 10 / 261

⁴ - الصورة الفنية ، د. أحمد ياسوف ، ص 651 .

قوتان متعاكستان في الاتجاه ، ممَّا يضعف الحركة أو يشلّها ، فهناك إذاً حركتان عُبرَ عنهما بالمضارع إحداهما خارجية أفقية هي المشي ، والأخرى داخلية معاكسة هي الإعجاب بالنفس فإذا حمَل هذا الإعجاب قدراً متزايداً من ثَقَل الكبر أخذت الحركة بالاتجاه إلى الأسفل إلى أن يغلب الثقل فيُخسَف به ، فجمال المشي والانطلاق في الحلة قُيِّد بقبح النظر المعكوس ، لِيُعْلَم أن الكبر أَسْرُ وعِبء وثقلٌ وأن التواضع حرية وانطلاق ، والله أعلم .

ومما جَسَم به الكبر أيضاً مشيئةُ المطيطاء :

ففي حديث خولة بنت قيس رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس والروم سُلِّطَ بعضهم على بعض))¹.

¹ - رواه ابن حبان في صحيحه في التاريخ (إخباره صلى الله عليه وسلم عما يكون في أمته من الفتن والحوادث) 6716 ، وسيأتي بيان درجة حديثه في الحاشية التالية.
والطبراني في الأوسط (حديث أحمد بن يحيى بن خالد) 132 ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقال الهيثمي : "إسناده حسن" . مجمع الزوائد 237/10 .

ورواه الترمذي في الفتن عن رسول الله (ما جاء من النهي عن سب الرياح) 2261 ، من طريق موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر بلفظ: ((إذا مشت أمتي بالمطيطاء، وخدمها أبناء الملوك أبناء فارس والروم، سلط شرارها على خيارها)) وقال : حديث غريب . ثم ساق له رواية من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري عن عبد الله بن دينار ، لكن قال لا يعرف لهذه الطريق أصل إنما المعروف حديث موسى بن عبيدة .

وموسى بن عُبيدة الرّبّذي على صلاحه وعبادته ضعيف ولا سيما في عبد الله بن دينار . ينظر : الكامل في الضعفاء، ابن عدي 333/6 ؛ تهذيب التهذيب، ابن حجر 4 / 183 .

لكن الأصل حديث ابن حبان ، وهذان يشهدان له، والحديث صحيح لغيره ، كما سأبيّن فيما يلي .

ورواية ابن حبان هذه أصح روايات الحديث¹، تليها رواية الطبراني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد حسن واللفظ نفسه، ثم رواية الإمام

¹ - ابن حبان يسمي الحسن صحيحاً (ينظر: تدريب الراوي، السيوطي 1/ 82) فالحديث عنده يدور بين الحسن والصحة، ووافقه المنذري حين أخرج الحديث في الترغيب والترهيب (ط بيت الأفكار ص 613) فقال: "وعن خولة بنت قيس رضي الله عنها ... رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه الترمذي وابن حبان أيضاً من حديث ابن عمر".

وللمنذري اصطلاح قاله في مقدمة كتابه بالطبعة المذكورة (ص 24): "إذا كان إسناد الحديث صحيحاً أو حسناً أو ما قاربهما صدرته بلفظة عن ... " ثم ذكر أنه يصدره بلفظة عن إذا كان فيه علة لا تمنع احتمال تحسينه على أن يشير إلى علة، أما إذا كان لا يتطرق إليه احتمال التحسين بوجه فيقول فيه روي، ثم قال: "فيكون للإسناد الضعيف دالتان: تصديره بلفظ روي، وإهمال الكلام عليه في آخره".

فقد صدر حديث خولة بلفظ عن ولم يشر إلى علة فيه، فهو صحيح أو حسن أو ما يقاربهما.

وعلى التفصيل:

فإن ابن حبان يرويه عن الحسين بن محمد بن أبي معشر عن عثمان بن يحيى القرقيساني عن مؤمل ابن إسماعيل عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن عبيد سئوطا عن خولة بنت قيس امرأة حمزة رضي الله عنهما .

والحسين بن محمد أبي معشر هو الحراني أبو عروبة، الإمام الحافظ المعمر الصدوق المؤرخ صاحب التصانيف مفتي أهل حران كان عارفاً بالرجال والحديث (سير أعلام النبلاء 14 / 510؛ معجم المؤلفين 4 / 60).

وهو غير الحسين بن محمد بن أبي المعشر السندي الضعيف (ميزان الاعتدال 1 / 547). ويحيى بن سعيد الأنصاري ثقة ثبت روى له الجماعة (تقريب التهذيب 2 / 591)، وعبيد سئوطا أبو الوليد المدني وثقه العجلي، وروى له الترمذي (تقريب التهذيب 2 / 379). إنما الإشكال في القرقيساني ومؤمل بن إسماعيل، ولا مناص من التحقيق في أمرهما وإن طال المقام.

أولاً- عثمان بن يحيى القرقيساني أبو عمرو الصياد إمام مسجد قرقيسيا، ذكره ابن حبان في الثقات (8 / 455) وقال مات سنة ثمان وخمسين ومئتين .

وقال الهيثمي في المجمع 305/5 في حديث : " رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عثمان بن يحيى القرقيساني وهو ثقة". لكنه قال في حديث آخر 312/7 : " فيه عثمان بن يحيى القرقيساني ولم أعرفه " .

والحق أنه معروف ليس بمجهول، بل هو من شيوخ الإمام الطبري الإمام العلم المجتهد روى عنه مباشرة في مواضع عديدة (ينظر: تفسير الطبري 344/12، 184/20؛ تهذيب الآثار 1/173؛ تهذيب الآثار الجزء المفقود ص399).

وكذلك روى عنه جماعة منهم الإمام الحافظ أبو الحسين بن محمد بن معشر كما في الحديث ، ومنهم أحمد بن محمد بن محمد بن الأزهر السجستاني ، والأصبغ بن خالد القرقيساني، ومحمد بن علي بن مهدي، وعبد الله بن سليمان، وعبد الرحمن بن إسماعيل بن علي الرقي الكوفي، وعلي بن يعقوب الربيعي، وموسى بن جمهور البغدادي، وأحمد بن الحسين بن عبد الصمد، وغيرهم. (ينظر: الكامل لابن عدي 6 / 265؛ الثقات لابن حبان 8 / 455؛ تاريخ دمشق 20 / 317 و 34 / 205 و 37 / 396 و 43 / 290 و 60 / 402 ؛ سير أعلام النبلاء 16 / 241 ؛ ميزان الاعتدال 1 / 359).

وقال السمعاني في الأنساب(4/ 477) في قرقيسيا (قرب الرقة) : "والمشهور من علمائها ... فذكره .

ومثل هذا روى عنه جماعة ولم يأت بمنكر فحديثه صحيح، كذا نسبه الذهبي في الميزان (3/ 426) للجمهور، وذكر ابن حجر في لسان الميزان(5/3) أنه لا ينازع فيه، ينظر كذلك : فتح المغيث، السخاوي 1/ 323.

وأكثر من ذلك فإن ابن أبي حاتم ذكر في الجرح والتعديل 36/2 في باب "رواية الثقة عن غير المطعون عليه أنها تقويه وعن المطعون عليه أنها لا تقويه" فقال : " سألت أبي عن رواية الثقات عن رجل غير ثقة مما يقويه؟ قال: إذا كان معروفا بالضعف لم تقوه روايته عنه وإذا كان مجهولاً (يريد مجهول الحال) نفعه رواية الثقة عنه " وحكى نحوه عن أبي زرعة .

فتحصل أن القرقيساني وثقه ابن حبان وروى عنه جماعة والمتن الذي جاء به غير منكر وروى عنه أئمة ثقات كبار، فالراجح أن حديثه لا ينزل عن الحسن، والله أعلم.

ثانياً - مؤمّل بن إسماعيل العدوي المكي ، وثقه ابن معين وإسحاق بن راهويه، وقال أبو حاتم صدوق شديد في السنة كثير الخطأ يكتب حديثه ، وعن البخاري أنه منكر الحديث، وقال الآجري سألت أبا داود عنه فعظمه ورفع من شأنه إلا أنه يهتم في الشيء ، وذكره ابن حبان في

الثقات وقال ربما اخطأ والاختلاف فيه كثير، مات سنة ست ومئتين، وقد أخرج له البخاري تعليقاً والترمذي والنسائي وابن ماجه .

ينظر : سؤالات الآجري 2 / 156؛ الجرح والتعديل 8 / 374 ؛ تهذيب التهذيب 4 / 193.

وانتهى ابن حجر إلى خلاصة في تقريب التهذيب (2/ 555) أنه " صدوق سيء الحفظ".
وهناك ملاحظتان : الأولى أن قول البخاري منكر الحديث يعني أنه لا تحل الرواية عنه كما نقل ابن القطان عن البخاري وذكره الذهبي في ميزانه (6/1) ، وهذا يتعارض مع روايته هو نفسه عنه في الصحيح ولو تعليقاً (في الفتن، باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما، 7083)، ثم إنني لم أجد كلاماً للبخاري عنه إلا في التاريخ الكبير (8 / 49)، فقال : "مؤمل بن إسماعيل، أبو عبد الرحمن، مولى آل عمر بن الخطاب القرشي، سمع الثوري وحماة بن سلمة مات سنة خمس أو ست ومائتين، البصري سكن مكة". انتهى. ثم أعقبه مباشرة بترجمة مؤمل بن سعيد فقال منكر الحديث ، ولم أجد أحداً سبق الحافظ المزي في نسبة هذا القول للبخاري في حق مؤمل بن إسماعيل (تهذيب الكمال: 29/ 178).

وثمة ما يبرر الشك في صحة كون البخاري قال عن مؤمل بن إسماعيل إنه منكر الحديث؛ إذ لا يوجد نقل مسند عنه في ذلك وليس في كتبه كالتاريخين والضعفاء، بل ترجم له في الكبير وسكت عنه كما تقدم، ولم يكن ليدخله في جامعه الصحيح لو كان منكر الحديث مع اعتقاده بأن الرواية لا تحل عنه.

ثم كأن الإمام الذهبي لم يقتنع بنكارته فقال في (ذكر أسماء من تكلم فيه وهو ثقة ص 183) في ترجمة مؤمل بن إسماعيل : " صدوق ، وقال البخاري منكر الحديث " .

فلم يمنعه قول البخاري ذاك من إعطائه رتبة الصدوق ، مع ذكره له في هذه الرسالة التي قال في مقدمتها (ص 27) : " أما بعد فهذا فصل نافع في معرفة ثقات الرواة الذين تكلم فيهم بعض الأئمة بما لا يرد أخبارهم وفيهم بعض اللين وغيرهم أتقن منهم وأحفظ، فهؤلاء حديثهم إن لم يكن في أعلى مراتب الصحيح فلا ينزل عن رتبة الحسن " واستثنى الأحاديث التي استنكرت عليهم فتكلم فيهم من أجلها فيتوقف فيها.

والملاحظة الثانية أن الترمذي روى عن مؤمل بن إسماعيل في نحو عشرة مواضع من كتابه السنن، وقد استقرت تلك المواضع وتدبرتها ، فحيث تفرد بالحديث ولم يكن له علة قال عنه حسن غريب ، كما في التفسير (الحجرات) 3266، وفي الدعوات (باب منه) 3465 .

الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ قريب بيّنته في تخريج الحديث .

ومشية المطيطاء تجسّم الكبر ، وهي في القرآن الكريم ، قال تعالى : (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى) {القيامة 33} .

فحكى ابن قتيبة عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أن أصل تمطّى تمطّط : " أي : مَدَّ يَدَهُ ، ومنه المِشْيَةُ الْمُطِيطَاءُ وهي التبختر ¹ يعني استثقلوا الجمع بين ثلاث طاءات فقلبت الأخيرة ياء للتخفيف ، وحكى أبو بكر بن الأنباري عن الفراء أن أصله مطا يمحطو؛ لأنه يمدّ مطاه أي ظهره . ²

وقال ابن فارس : " الميم والطاء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مَدِّ الشيء ، والقياس فيه وفي المِطِيطَاء واحدٌ، وهو المشي بتبختر، لأنّه إذا فعل مَطَّ أطرافه " ³.

فالحركة في المطيطاء صاعدة منقطعة إذ لو فُسِحَ للمتمطي في الجِسم لأمعن فيها ، وهي حافزةٌ للمتلقى (السامع أو القارئ) على التمثيل والتجربة الشكلية فيستوي ظهره في محاولة تمطّط انفعالية أو فعلية تمثيلية . والطاء حرف شديد

وحيث توبع أو كانت للحديث شواهد قال الترمذي : حسن صحيح ، كما في أبواب الصلاة (فيمن صلى في اليوم واللييلة اثني عشرة ركعة) 415 ، وفي الأطعمة (أكل الجراد) 1822 .

فحديث مؤمل لا ينزل عن الحسن كما تبين من صنع الترمذي وقول الذهبي .

والإسناد كله لا ينزل عن الحسن كما تبين من صنع الحافظ المنذري وما أوضحت من حال رجال الإسناد تفصيلاً ، ومع حديث الطبراني (حسن الإسناد) وشواهده الأخرى يصح الحديث لغيره .

وقد قال بصحة الحديث الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريجه لأحاديث صحيح ابن حبان (112/15) ، والشيخ الألباني في تعليقه على الترغيب والترهيب (3 / 1074) ، والله أعلم .

¹ - أدب الكاتب ص 376 .

² - ينظر : الزاهر في معاني كلمات الناس 1 / 366 .

³ - مقاييس اللغة (مط ، 5 / 273) .

يتحرّج الصوت في مخرجه برهة، وهو حرف استعلاء¹ ينسجم مع الاستعلاء
الحاصل عند المتطّبي، وألف المطيطاء الذاهبة في السماء إنما هي صورة من
نفوس هؤلاء.

ومما يتصل بالمطيطاء حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سمع
النبي صلى الله عليه و سلم رجلاً يُثني على رجل ويُطريه في المدحة فقال:
((أَهْلَكْتُمْ - أو قَطَعْتُمْ - ظَهَرَ الرَّجُلُ))².

ومن حديث أبي بكرة نُفيع بن الحارث رضي الله عنه : ((قَطَعْتَ عُنُقَ
صَاحِبِكَ))³.

والجملتان بمعنى ، قال القاضي عياض : " عبارة عن المبالغة في أذاه كمن قتل
وقطع فِقار ظهره الذي هو من المقاتل "⁴.

وذكر الإمام النووي أنها استعارة من قطع العنق الذي هو القتل لاشتراكهما
في الهلاك قال : " لكنّ هلاك هذا الممدوح في دينه ، وقد يكون من جهة الدنيا
لما يشتهه عليه من حاله بالإعجاب "⁵، وبنحوه قال الحافظ ابن حجر¹.

¹ - ينظر: علم تجويد القرآن ، د. محمد هشام البرهاني ، ص 153.

² - البخاري ، في الشهادات (ما يكره من الإطناب في المدح ، وليقل ما يعلم) 2663 ،
وفي الأدب (ما يكره من التمداح) 6060 ، ومسلم في الزهد والرقائق (النهي عن المدح إذا كان
فيه إفراط وخيف منه الفتنة) 3001 . وذكر ابن حجر أن هذا الحديث مما اتفق عليه الشيخان عن
شيخ واحد (محمد بن الصَّبَّاح) ومما أورده البخاري في موضعين من كتابه من غير تصرف في متنه أو
إسناده وهو قليل في كتابه . فتح الباري 10 / 476 .

³ - البخاري ، في الشهادات (ما يكره من الإطناب في المدح ، وليقل ما يعلم) 2662 ،
وفي الأدب (ما يكره من التمداح) 6061 ، ومسلم في الزهد والرقائق (النهي عن المدح إذا كان
فيه إفراط وخيف منه الفتنة) 3000 . وأبو داود في الأدب (في كراهة التمداح) 4805 ، وابن
ماجه في الأدب (المدح) 3744 .

⁴ - مشارق الأنوار على صحاح الآثار 2 / 357

⁵ - شرح النووي على مسلم 18 / 127

ولم أر من التفت إلى الصورة في الحديث وإنما لمعجبة ، فالممدوح حال المدح
قد يفقد السيطرة على نفسه فتأخذ بالانتفاخ والتطاول ، فيتمطى بعنقه وظهره
في موازاة المديح حتى يبلغ الغاية التي ينقطع فيها أو يكاد، في مشهد واقعي
معروف لا يغرب عن أحد ، فلا تكون استعارة بل كناية عن الشعور المتعظم
بالفخر تحمّل في طياتها التنفير من جريمة المادح ومن قبح الانفعال في الممدوح،
ضاربةً عصفورين بحجر، والله تعالى أعلم .

وهذا التمطي المكروه في العنق يصبح محبوباً إذا كان على وجه الكرامة يوم
القيامة كحال المؤذنين ، فعن عيسى بن طلحة التيمي قال : كنت عند معاوية بن
أبي سفيان فجاءه المؤذن يدعوه إلى الصلاة ، فقال معاوية : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : ((المؤذّنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة))².

ورواه الطبراني من حديث بلال رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله إن الناس
يتّجرون ويبيعون معاشهم ولا نستطيع أن نفعل ذلك فقال:

((ألا ترضى أن المؤذّنين أطول الناس أعناقاً يوم القيامة))³.

ورواه البيهقي في الشعب بزيادة : ((ويمكثون في بيوتهم))⁴.

وروى في الكبرى عن ابن أبي داود عن أبيه قال : " معني قول النبي صلى الله
عليه وسلم (المؤذّنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة) ليس أن أعناقهم تطول،

¹ - ينظر : فتح الباري 10 / 477

² - مسلم في الصلاة (فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه) 387 ، وابن ماجه في الأذان
والسنة فيه (فضل الأذان وثواب المؤذنين) 725 .

³ - في المعجم الكبير (حديث بلال بن رباح رضي الله عنه) 355/1 .

قال في مجمع الزوائد 410/1 : "رجاله موثقون" .

⁴ - شعب الإيمان 3 / 117 .

وذلك أن الناس يعطشون يوم القيامة، فإذا عطش الإنسان انطوت عنقه،
والمؤذنون لا يعطشون فأعناقهم قائمة"¹.

ورواه ابن حبان عن أبي هريرة، وقال: "العرب تصف باذل الشيء الكثير
بطول اليد، ومتأمل الشيء الكثير بطول العنق فقله صلى الله عليه وسلم:
(المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة) يريد أطولهم أعناقاً لتأمل الثواب"².

وحكى النووي عن النضر بن شميل أن طول أعناقهم من أجل ألا يلجمهم
العرق في ذلك اليوم العصيب، وقيل معناه أنهم سادة ورؤساء والعرب تصف
السادة بطول العنق، وقيل معناه أكثر أتباعاً وقيل أكثر أعمالاً، وقيل هي
(إعناقاً) بكسر الهمزة أي إسراعاً إلى الجنة³.

وقال المناوي: "مدُّ العنق كناية عن الفرح كما أن خضوعها كناية عن
الحزن"⁴.

فتحصّل لنا بطول العنق معانٍ أنه كناية عن التأمل للثواب، وكناية عن أنهم
لا يعطشون، وكناية عن أنهم لا يُلجمون بالعرق، وكناية عن الفرح، وكناية عن
السؤدد والشرف، وكناية عن الفخر والكرامة والاعتزاز.

قال الدكتور عز الدين السيد: "طول العنق يظهر في رفع الرأس إلى الأعلى
شعوراً بكرامة المنزل وفرحاً بحسن الثواب وقد شاع هذا التعبير في الدلالة على
الشرف والكرامة فيقال لمن أنال أهله شرفاً: أطلت أعناقنا"⁵ ونفى أن يراد بها
الزيادة في الطول الخُلقي لأنه في ذاته غير جميل، وردّ عليه الدكتور أحمد ياسوف

¹ - سنن البيهقي الكبرى، في الصلاة (باب الترغيب في الأذان) 1880.

² - صحيح ابن حبان، في الصلاة (الأذان) 1670.

³ - شرح النووي على مسلم 4 / 91.

⁴ - فيض القدير 6 / 250.

⁵ - الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص 212.

بأنه لا قبح في طول العنق وقد مدحت العرب المرأة به وكنت عنه ببعد مهوى القرط ، وأضاف: " ولكنَّ القبح في غِلَظ العنق " ¹.

وللدكتور السيد - لو شاء - مُستند في استقباح طول العنق في كلمة قالها ابن أبي الحديد : " وقال لي قائل : ما أرى لقوله عليه السلام (المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة) كثيرَ فائدة (!)؛ لأن طول العنق جداً ليس مما يُرغَب في مثله ، فذكرت له الخبر الوارد في العرق ²، وقلت : إذا كان الانسان شديد طول العنق كان عن إجماع العرق أبعد، فظهرت فائدة الخبر " ³.

وأحسب الثلاثة أتوا من جهة واحدة ، وغاب عنهم الفرق بين الرجال والنساء في هذه القيمة الجمالية ، فطول العنق حَسَنٌ ممدوحٌ به الرجل والمرأة على أن يكون معه عند الرجال غِلَظٌ أيضاً وهم غُلب الرجال وأسيادُهم وهي صفة عنق النبي صلى الله عليه وسلم ⁴، ولا كذلك عند النساء .

والحديث إذ يبشّر بطول أعناقهم فلا مانع من حمله على الحقيقة ، ولم ينف أن يصحبه الغِلَظ الملائم ، بل هو المظنون ولكن لم يُذكر لأن المقصود الآن بيان العلو الحسي والكناية به عن الفخر والعلو الذهني، فالحديث لما عبّر بأطول الناس كان الطول الزائد في حدود ما يعرف الناس من الجمال فيهم.

وحكى الشيخ ملا علي القاري أن هذا جزء بما كانوا عليه في الدنيا من مد أعناقهم في الأذان ⁵.

فأنعم به جزاءً ، ولا بد مع ذلك من وقفة تأمل في حديث الطبراني وشكوى بلال رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجوابه له بهذه العبارة ،

¹ - الصورة الفنية في الحديث النبوي ص 255 .

² - ينظر تخرجه وشرحه في الفصل الثالث ص 251.

³ - شرح نهج البلاغة 6 / 251

⁴ - ينظر تحقيقه في الفصل الثالث ص 240.

⁵ - ينظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 3 / 104 .

شكا له الضيق فوعده بالشرف ! شكا له احتباس المؤذنين على هذا الأمر وما يفوتهم من الاتجار والعمل والتوسع في تحصيل الرزق ، فأجاب بأن المؤذنين أطول الناس أعناقاً ، وكان الوجه أن يقول : أوسع الناس أرزاقاً ! .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كلمة للزمن وليس لبلال ، بأن أكثر ماسيلقاه المؤذنون من العنت هو في ترفع الناس عنهم ، ولو لم يكن من الدليل عليه إلا زماننا هذا لكفى ، فقد بات الأذان في الأعم الأغلب يُسند إلى الضعفة من الرجال مع قم المسجد وخدمته ، ولا يرد الناس عنهم غير هذا الحديث ولولاه لاجترؤوا عليهم .

فكانت هذه الجائزة العظيمة من جنس تطاولهم بالأذان في الدنيا مع ما يقع من جهل بأقدراهم .

وختاماً فإن (أعناقاً) توحى بالطول شكلاً وإيقاعاً بما يلائم المعنى ، ففي الشكل ثلاث ألفات قائمة ، وفي اللفظ مد في الوسط مشفوع بتنوين النصب آخره موحياً بالغرابة المغايرة للمألوف ، والانطلاق الذي لا يُحْدُ ، وآية ذلك أن قارئ الحديث لو ذهب على سجيته غير متكلف لطار بيده مع المد حتى إذا بلغ التنوين فرج أصابعه واحتبس بها كأنما يطلب شيئاً لا يُدرَك .

وَجُسِّمَ التواضع في الكنايات النبوية بلبين المناكب ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ((خيارُكم أليْنُكم مناكِبُ في الصَّلَاةِ))¹.

¹ - رواه أبو داود في الصلاة (تسوية الصفوف) 672 ، من طريق الضحاك بن مخلد عن جعفر ابن يحيى عن عمه عُمارة بن ثوبان عن عطاء عن ابن عباس ، وابن حبان في الصلاة (صفة الصلاة) 1756 ، وابن خزيمة في الصلاة (فضل تلبين المناكب في القيام في الصفوف) 1566 ، وقال محققه د. محمد مصطفى الأعظمي : إسناده حسن .

المنكب مجتمع رأس الكتف والعَضُد¹، والمعنى كما قال المناوي : " أي ألزمتكم للسكينة والوقار والخشوع والخضوع فيها فلا يلتفت ، ولا يحاشر منكبه منكب صاحبه ، ولا يمتنع لضيق المكان على مريد الدخول في الصف لسد الخلل"².
 وزاد الشيخ ملا علي القاري : " أنه إذا كان في الصف وأمره أحد بالاستواء أو بوضع يده على منكبه ينقاد ولا يتكبر ، فالمعنى : أسرعكم انقياداً"³.
 والحاصل أنها كناية عن التواضع لله وهذا يجعل الجسم لِيناً خاشعاً غير متصلّب ، وعن التواضع لإخوانه في الله والرفق بهم والانقياد لهم ، وصيغة الجمع في الخيار والمنالك ترشّح للمعنى الثاني ، والله أعلم .

وبه رواه البزار في مسنده (مسند ابن عباس) 5195 ، وقال : " وهذه الأحاديث لا نعلمها تُروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد ، وجعفر بن يحيى وعنه من أهل مكة مستورون " .
 وهو إسناد يحتمل التحسين من جهة أن يُقبل حديث المستور إذا كان من أهل القرون الأولى كما سبق ذكره عن ابن الصلاح (ص 71) ، وعمارة بن ثوبان "حجازي مستور ، من الخامسة / بخ د ق " كما في تقريب التهذيب، ابن حجر 408/2 ، فهو من الطبقة الصغرى من التابعين ، وجعفر ابن يحيى بن ثوبان " مقبول ، من الثامنة / بخ د س " تقريب التهذيب 141/1 ، فهو من وسطى الأتباع ، والله أعلم .

وله شاهد من حديث ابن عمر بلفظه ، رواه البزار في مسنده (مسند ابن عمر) 5922 ، وإسناده حسن كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد 2 / 109 .
 وله شاهد آخر رواه عبد الرزاق في مصنفه في الصلاة (فضل ميامن الصفوف) 2480 عن زيد ابن أسلم مراسلاً .

فعسى أن يكون الحديث صحيحاً لغيره ، والله أعلم .

¹ - ينظر : لسان العرب، ابن منظور (نكب ، 770/1) .

² - فيض القدير 3 / 466

³ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 4 / 204

وما زال بعض الناس من لدن الأعراب الجفاة إلى يومنا الحاضر يرون في التأني والعناد فضيلةً ولا يبالون أين تقع عزّتهم على مسلمٍ أو كافرٍ ، فهم ليسوا خياراً ، بل خيار المسلمين أليّنهم على المسلمين وأرفقهم بصلاتهم ونظامهم .

بقي أن لفظ اللين من أشكال الألفاظ بمعناه وأحسنها تصويراً ، إذ لا شدة في حروفه والشأن فيها استفال وانفتاح ، مع توسط الياء حرف اللين فيها ¹ .

والاستفال يوحى بالتواضع والانفتاح بالحرية والانطلاق ، واللين هو اللين ! .

وكذلك جُسِمَ التواضع بوطأة الكنف، ولكن في حديثٍ ليس على الشرط من هذا الكتاب ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟)) قالوا : بلى ، قال : ((خِيَارُكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا)) أحسبه قال : ((الْمُؤَطَّيُونَ أَكْنَفًا)) ² .

قال المناوي : " والأكناف الجوانب . أراد الذين جوانبهم وطئتهم يتمكّن فيها من يصاحبهم ولا يتأذى وهو أحسن البلاغة " ³ . وهذا الحديث يُمثّل به لتنسيق الصفات ⁴ ، ومعناه الذي هو لين الجانب كناية عن لين النفس ؛ لأنه يلزم عنها .

¹ - ينظر : علم تجويد القرآن ، الشيخ هشام البرهاني ص 153 .

² - مسند البزار (مسند عبد الله بن مسعود) 1723 ، قال : " وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن عبد الله إلا بهذا الإسناد " ، قال الهيثمي : " وفيه صدقة بن موسى ضعيف ، والحديث مروى عن أبي سعيد وأبي هريرة بأسانيد ضعيفة " مجمع الزوائد 329/7 . على أنها ولو رقيت بمجموعها إلى الحسن لغيره فإن محل الشاهد في حديثنا روي على الشك ، والله أعلم .

³ - فيض القدير 3 / 464 .

⁴ - وهو أن يُذكر الشيء بصفات متوالية ، ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب ، النويري 7 /

وهذا لا يخرج عن الحديث الذي قبله ، وما أتيت به إلا تقصّياً لتجسيم التواضع ليُعلم أنّ ما بين أيدينا من هذا القبيل قليلٌ ، على العكس من تجسيم الكبر فقد كان وافراً . ولهذا تفسيرٌ معقول وهو أن الكبر يثقله وكثافته يجذب بالطبع إلى التجسيم ، ولا كذلك التواضع في رِقته ولطفه ، فإذا أمكن تجسيمه دون الإخلال بمعنى اللطف فتلك الغاية التي ليس وراءها مطلبٌ ، والكناية بلين المناكب آية في هذا الباب .

– تجسيم السماحة والحرص :

جسّمت السماحة في الكنايات النبوية بحركة اليد وانبساطها ، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((أَسْرَعُكُمْ لِحَاقًا بِي أَطُولُكُمْ يَدًا)) قالت : فكُنَّ يتناولن أَيْتِهْن أطول يداً . قالت : فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدّق¹ .

وروى الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت : " فكُنَّا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم نمدّ أيدينا في الجدار نتناول ،

¹ – البخاري في الزكاة (فضل الصدقة من الصحيح الصحيح) 1420 ، من طريق مسروق عن عائشة ، قال : " فكانت سودة أطولهن يداً " ومسلم – واللفظ له – في فضائل الصحابة (من فضائل زينب أم المؤمنين) 2452 ، من حديث عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين ، والنسائي في الزكاة (فضل الصدقة) 2541 عن مسروق كالبخاري .

والحديث مروي عن عمر أيضاً يذكر زينب ، في مسند البزار (مسند عمر بن الخطاب) 241 ، وقال : " وهذا الحديث قد يروى عن رسول الله من وجوه ، ولا نعلم أحداً رواه عن رسول الله أجل من عمر " . قال الهيثمي : " رواه البزار ورجاله رجال الصحيح " مجمع الزوائد 9 / 199 .

والتحقيق أنها زينب ، قال الإمام النووي في شرحه على مسلم 16 / 9 : " وقع هذا الحديث في كتاب الزكاة من البخاري بلفظ متعقّد يوهم أن أسرعهن لحاقاً سودة ، وهذا الوهم باطل بالاجماع " .

ونقل ابن حجر اتفاق أهل السير على أن زينب بنت جحش أول من مات منهن . ينظر : فتح الباري، ابن حجر 286/3 .

فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت امرأة قصيرة ولم تكن أطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أراد بطول اليد الصدقة¹.

وفي الفتح أنه لما كان السؤال عن آجال مقدرة لا تُعلم إلا بالوحي أجابهن بلفظ غير صريح وأحالهن على ما لا يتبين إلا بآخر، وساغ ذلك لكونه ليس من الأحكام التكليفية، قال ابن حجر : " وفيه أن من حمل الكلام على ظاهره وحقيقته لم يُلم وإن كان مراد المتكلم مجازة؛ لأن نسوة النبي صلى الله عليه وسلم حملن طول اليد على الحقيقة فلم ينكر عليهن"².

ولا يهولنك ذكرهم هذا الحرف مثلاً للمجاز والاستعارة في إطلاق اليد على النعمة والعطاء لأنها إنما تكون بها كما ذكر الشريف الرضي وغيره³، فليست الكناية متعلقة باليد وحدها ولكن بطول اليد، وأكثر ما تأتي اليد على معنى القدرة ولكن لا يصلح ذلك هنا، قال عبد القاهر : " وذلك أن الشبه مأخوذ من مجموع الطول واليد مضافاً ذلك إلى هذه، وطلبه من اليد وحدها طلب الشيء على غير وجهه"⁴. وبقي أن طول اليد بحركة البسط التي مثلوا بها

¹ - المستدرك على الصحيحين ، في معرفة الصحابة (ذكر زينب بنت جحش رضي الله عنها) 6776 ، من طريق عمرة عن عائشة بمثل حديث عائشة بنت طلحة . قال : حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

² - فتح الباري 3 / 286 .

³ - ينظر : المجازات النبوية ، الشريف الرضي ص: 41 ؛ الإيضاح في علوم البلاغة ، القزويني ص: 255.

ومن كلام الرضي في ذلك الموضع : " كناية عليه السلام عن هذا المعنى بطول اليد مجاز واتساع؛ لأن الأغلب أن يكون ما يعطيه الإنسان غيره من الرشد والبر أن يعطيه ذلك بيده " .

⁴ - أسرار البلاغة ص 308 .

للإعطاء إنما هي رديفٌ موازٍ لحركة شعورية داخلية ممتدة بالسماحة والأريحية والكرم وتعلّق القلب بالله والثقة به ، وثَمَّ الكناية .

وقال الشيخ ملا علي القاري : " إيماءٌ إلى أن طول اليد كناية عن قصر الطمع"¹. فكأنه اختار قصر الطمع لمقابلته الطول في اليد، ولو قال كناية عن السماحة لكان أليق بالطول وأشبه بامتداده؛ حيث التعبير بالسماحة يشرح النفس ويمنح شعوراً بالسعة يناسب طول اليد بخلاف التعبير بقصر الطمع ، والله أعلم .

ولا يُشكّل على الكناية أن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فاتحنَّ المراد منها ؛ فإنهن وإن كن أرفع النساء وأذكاهن وأعلمهن إلا أن الطبيعة النسائية ما تزال تقف بالنساء عند ظواهر الأمور دون بواطنها ، فكان هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ملاطفةً لهنَّ حيّاً وميتاً .

وجُسِّم الحرص في حركة حسّية بيئية ، في حديث أسماء رضي الله عنها قالت: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا تُوكي فيوكي عليك)) ، وفي رواية ((لا تُوعي)) و((لا تُحصي))² .

قال الحافظ ابن حجر : " يقال أوعيت المتاع في الوعاء أوعيه : إذا جعلته فيه، ووعيتُ الشيء : حفظته ، وإسنادُ الوعي إلى الله مجاز عن الإمساك،

¹ - مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 177/6 .

² - الستة إلا ابن ماجه : البخاري في الزكاة (التحريض على الصدقة والشفاعة فيها) 1433 ، وفي الزكاة (الصدقة فيما استطاع) 1434 ، ومسلم في الزكاة (الحث على الإنفاق وكرهه الإحصاء) 1029 ، والترمذي في البر والصلة عن رسول الله (ما جاء في السخاء) 1960 ، وأبو داود في الزكاة (الشح) 1699 . والنسائي في الزكاة (الإحصاء في الصدقة) 2551 .

والإيكاء : شد رأس الوعاء بالوكاء وهو الرباط الذي يُربط به، والإحصاء معرفة قدر الشيء وزناً أو عدداً ... والمعنى : النهي عن منع الصدقة خشية النفاق ، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة؛ لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب "1.

ونحن نطلب الكناية في الحديث ، وصرّح بها الحميدي ، فقال " (لا توكي فيوكي الله عليك) كناية عن البخل والمنع ، يقال : سألناه فأوكى علينا أي بخل علينا "2.

وقال القاضي في الإيكاء والإحصاء والإيعاء : "كله كناية عن الإمساك عن الإنفاق، والتقتير "3.

وذكره الجاحظ في البخل في الأحاديث التي تنهى عن البخل "4.
ولا أراه كناية عن البخل في حديث أسماء - حاشاها - بل هو كناية عن الحرص والشُّحّ ، وبين الشُّحّ والبخل بَوْن ، وقد لا نجد ضالّتنا في لسان العرب
وقول ابن منظور رحمه الله: " الشُّحُّ البخل، وقيل: البخل مع حرص . وفي الحديث: (إياكم والشُّحّ) الشُّحُّ أشدُّ البخل، وهو أبلغ في المنع من البخل .
وقيل: البخل في أفراد الأمور وآحادها والشح عام ، وقيل : البخل بالمال والشح بالمال والمعروف "5.

1 - فتح الباري 300/3 .

2 - تفسير غريب ما في الصحيحين ص 276 .

3 - مشارق الأنوار على صحاح الآثار 1/403 .

4 - البخل 2/106 .

5 - ينظر : لسان العرب (شح ، 2/495) .

قد لا نجد ضالّتنا فيه، ولكن الحديث الذي ذكره ابن منظور هو مفتاح الحلّ والتمييز بينهما، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّمَا هَلَكٌ مِّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَّعُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا))¹.

وعاد ابن الأثير ليقول في شرحه : "الشح : أشد البخل ، وقيل : هو بخل مع حرص"². لكن المرء يتساءل كيف يكون الشح والبخل واحداً أو يكون أشدّه أو يكون أعمّ منه ثمّ يكون هو الأمر به ؟ إن كلمة النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرة بأنّ الشحّ غيرُ البخل وأنه أسبقُ وجوداً وأنه يحثُّ صاحبه على البخل وعلى القطيعة وعلى الفجور ، فالفرق بينهما أن الشح عمل نفسي وشعور داخلي أما البخل فهو النتيجة الخارجية لكن أمرها لا يستبينُ لكونها عملاً سلبياً، ويظهر الفرق بأن الرجل قد يستجيب لشحّ نفسه فيبخل وقد لا يستجيب فيعطي ويبدل، وما أبلغ التعبير القرآني في قوله تعالى : (وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ) {النساء: 128} ، وقوله تعالى : (وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) {الحشر: 9} و {التغابن: 16} حيث نسب الشح في جميع المواضع إلى النفس ، وسبق الفخر الرازي إلى تقرير هذا المعنى في تفسير الآية³.

وقد يُختصر الفرق بكلمتين : الشحّ منع النفس والبخل نفسُ المنع . ولم يُذكر في الحديث أن أسماء سُئِلَتْ فمَنَعَتْ حتى نقول إن الإيكاء كناية عن البخل، إلا

¹ - أبو داود في الزكاة (في الشح) 1698 ، وابن حبان في صحيحه في كتاب الغضب 5176 ، والحاكم في المستدرک في الإيمان 55/1 ، وفي الزكاة 576/1، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي .

² - جامع الأصول في أحاديث الرسول 607/1 .

³ - قال الرازي في مفاتيح الغيب 250/29 : "واعلم أنّ الفرقَ بين الشح والبخل هو أن البخلَ نفس المنع والشحّ هو الحالة النفسانية التي تقتضي ذلك المنع".

أن نسمّيه بخل النفس وهذا لا ذمّ فيه ابتداءً ما لم يظهر في منع خارجي فالذي فعلته من الإحصاء والإيكاء حركة خارجية تردّف شحاً نفسياً لكنها ليست بخلاً وإنما نهاها النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك لئلا تقل الثقة برزق الله، ولئلا تنقلب بالإمعان بخلاً ظاهراً ومنعاً للسائلين وتقتيراً في النفقة، والله أعلم .

– تجسيم التأثر والتحجر :

جُسم التأثر القلبي بالبكاء لأنه ينجم عنه بالطبيعة ، وهذا في الكنايات النبوية كثيرٌ ، منه ما جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحاب الحجر : ((لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ))¹.

وهؤلاء ثمود قوم صالح عليه السلام كانوا في رأس وادي القرى ، وخبرهم مشهور ذُكر في القرآن غير مرّة ، قال تعالى : (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ) {الحجر:80-83}.

كانت بيوتهم في أضعاف جبال متفرقة ترى من البعد متصلة، وآثارها اليوم بجوار مدينة العلا قرب تبوك²، ولا يكاد أحدٌ يعوج بها مع كثرة السابلة .

¹ – البخاري في الصلاة (الصلاة في مواضع الخسف والعذاب) 433 ، ومسلم – واللفظ له – في الزهد والرفائق (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا ان تكونوا باكين) 2980 .

² – ينظر: معجم البلدان، الحموي 221/2 ؛ أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس ص 108، خريطة رقم 56؛ الأطلس الإسلامي الجغرافي الجديد، كمال حمود ص 8 .

قال النووي رحمه الله: "(قال لأصحاب الحجر) أي: قال في شأنهم . وكان هذا في غزوة تبوك ... فينبغي للمارّ في مثل هذه المواضع المراقبة والخوف والبكاء والاعتبار بهم وبمصارعهم وأن يستعيد بالله من ذلك"¹.

وأكتفي بهذا القدر فإن الشأن في المعْتَبَر أن تفيض عينه فرقاً ممّا يرى من أمر الله فكُنّي عن الحالة الداخلية بالحالة الحسية الخارجية .

وكذلك جَسَم الحديث التحجّر والبلادة النفسية :

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال بعث علي رضي الله عنه وهو باليمن بذهبة في تربتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس الحنظلي وعُيينة بن بدر الفزاري وعلقمة بن عُلاثة العامري ثم أحد بني كلابٍ وزيد الخير الطائي ثم أحد بني نَبهان ، قال : فغضبت قريش فقالوا : أعطني صنابير نجد وتدعنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنِّي إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَتَأَلَّفَهُمْ)) فجاء رجل كُتُّ اللحية مُشْرِفُ الوجنتين غائرُ العينين ناتئُ الجبين مخلوقُ الرأس فقال : اتق الله يا محمد ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((فَمَنْ يُطِيعَ اللَّهَ إِنْ عَصَيْتُهُ ؟ أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمُنُونِي!)) قال ثم أدبر الرجل ، فاستأذن رجل من القوم في قتله يرون أنه خالد بن الوليد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَقْتُلُونَ

¹ - شرح النووي على مسلم 111/18 .

أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْتَانِ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ . لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّاهُمْ قَتْلَ عَادٍ))¹.

والكناية في قوله (لا يجاوز حناجرهم)، وهذه الكناية حكاية :

كانوا يرون الحنجرة من الحلقوم سبيلاً للطعام والشراب، فذكر ابن عبد البر قولين اختار منهما أنهم " لا ينتفعون بقراءته كما لا ينتفع الآكل والشارب من المأكول والمشروب بما لا يجاوز حنجرتهم "².

وألح عليه في الاستذكار فقال : " معناه أنهم لم ينتفعوا بقراءته إذ تأولوه على غير سبيل السنة المبيّنة له . وإنما حملهم على جهل السنة ومعاداتها وتكفيرهم السلف ومن سلك سبيلهم وردّهم لشهاداتهم ورواياتهم أنهم تأولوا القرآن بآرائهم فضلّوا وأضلّوا فلم ينتفعوا به ولا حصلوا من تلاوته إلا على ما يحصل عليه الماضغ الذي يبلع ولا يجاوز ما في فيه من الطعام حنجرتهم "³.

فذهب بها مذهب الاستعارة ، وتشبيه القارئ بالآكل ، ثم تقدّموا بها فحكى النووي تأويلين أحدهما عن القاضي عياض أنه لا تفقهه قلوبهم ولا ينتفعون بما تلوّوا منه ولا لهم حظ سوى تلاوة الفم والحنجرة والحلق إذ بهما تقطيع الحروف . فها هنا ربط للحنجرة بالصوت، والثاني لا يصعد له عمل ولا تلاوة⁴.

قال الشيخ ملا علي القاري : "هو كناية عن عدم القبول والردّ عن مقام الوصول، والتجاوز يحتمل الصعود والحدور، قال الطيبي : أي لا يصعد عنها إلى

¹ - البخاري في المغازي (بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن) 4351 ،
ومسلم - واللفظ له - في الزكاة (ذكر الخوارج وصفاتهم) 1063 ، وأبو داود في السنة (في قتال
الخوارج) 4764 ، والنسائي في الزكاة (المؤلفه قلوبهم) 2578 .

² - التمهيد 323 / 23 .

³ - الاستذكار 499 / 2 .

⁴ - شرح النووي على مسلم 159 / 7 .

السماء ولا يقبله الله منهم ، ولا ينحدر عنها إلى قلوبهم ليدبروا آياته ويعملوا بمقتضاه" ¹.

ومدار فهم الكناية على كلمة الحناجر، فقد كان يُظن أنها مجرى للطعام كما ذكرتُ وعليه كلام ابن عبد البر، مع كونها مجرى للصوت كسائر أجزاء الحلق وعليه تأويل القاضي، لكن للحنجرة صلةً خاصةً بالصوت عُلِمَت بالتجربة وعقد الإمام عبد الرزاق الصنعاني - وهو سابق لابن عبد البر - باباً في مصنفه سماه باب الصوت والحنجرة ، روى فيه عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في الحنجرة إذا كُسِرَت فانقطع الصوت فيه الدية كاملة ². ثم قيلَ بعدُ إن الطعام لا يجري بها، جاء في اللسان : " الحلقُ والحنجرةُ طبقان من أطباق الحلقوم مما يلي الغَلَصمة، وقيل الحنجرة رأس الغَلَصمة ... وهو مخرج النفس لا يجري فيه الطعام والشرابُ " ³.

ثمَّ كان للحنجرة في الدراسات الصوتية شأن كبير حيث تعتبر من أهم أعضاء النطق؛ لأنها تضم الوترين الصوتيين اللذين خفي أمرهما على الناس حتى العصور الحديثة .

يقول الدكتور غانم قدوري الحمد : " إن من الإنجازات المهمة لعلم الأصوات الحديث إدراك دور الحنجرة في عملية التصويت ، وذلك بعد اطلاع علماء الأصوات على تشريح الحنجرة ، وتقديم وسائل دراسة الأصوات . والحنجرة تكون الجزء الأعلى من القصبة الهوائية ، وهي أشبه بصندوق غضروفي ، أو بحجرة صغيرة ذات اتساع معين ومكونة من عدد من الغضاريف ، وفي الحنجرة يمتد الوتران الصوتيان ، وهما في الواقع ليسا وترين وإنما عبارة عن شفتين أو شريطين من

¹ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 70/7 ، وما نقله عن الطيبي من شرحه على المشكاة 3775 /12.

² - مصنف عبد الرزاق ، العقول (الصوت والحنجرة) 17571 .

³ - لسان العرب، ابن منظور (حنجر ، 4 / 216)

العضلات يتصل بهما نسيج وهما يقعان متقابلين على قمة القصبة الهوائية ويمتدان بالحنجرة نفسها أفقياً من الخلف إلى الإمام حيث يلتقيان عند البروز الناتئ في منتصف الرقبة من أمام ويسمى الفراغ الكائن بين الوترين بالمزمار وتقوم الغلصمة التي قد تسمى بلسان المزمار¹ والكائنة فوق الحنجرة بحماية طرق التنفس أثناء عملية البلع من دخول الطعام إلى القصبة ثم إلى الرئتين².

ثم يتابع في شرح عمل الوترين فيذكر أن فتحة المزمار الكائنة بين الوترين الصوتيين يمكن أن تتسع وذلك بتجافي الوترين عن بعضهما، ويمكن أن تضيق أو تزول ففي حال التجافي أثناء مرور الهواء من الرئتين يحدث الهمس وهو يشبه حالهما عند التنفس العادي ، أما حروف الجهر فتحدث تضاماً بسبب ضغط التيار الهوائي وهذا التضام هو انفتاح وانغلاق سريعان أي تذبذب يحدث الصوت المجهور، وعند الانطباق التام بلا تذبذب يحدث الصوت الانفجاري عند انفراجهما فجأة .

والمجهور عند سيويه (-180هـ) حرف قوي الاعتماد في مخرجه ومنع النفس أن يجري معه، والمهموس ضعف الاعتماد في مخرجه فجرى معه النفس³. وكلامه هو الأصل الذي جرى عليه علماء التجويد والعربية، وقد جمعوا المهموسة بقولهم : فحثة شخص سكت وسائر الحروف مجهورة⁴.

¹ - هكذا تسمى في كثير من كتب اللسانيات الحديثة ينظر : علم اللغة ، محمود السعراي ص 145 ، والأصوات ، كمال محمد بشر ص 84 .

² - الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص 110 .

³ - ينظر : الكتاب ص 112 .

⁴ - ينظر : علم تجويد القرآن ، هشام البرهاني ص 140 .

وكان لابن سينا (- 428هـ) مقارنة في تشريح الحنجرة¹ تعدُّ من أولى المحاولات لكنها لم تبلغ أن تؤثر في سير الدراسات الصوتية أو تزعج من طريقة سيبويه التي لم تفقد قوتها حتى يومنا هذا نظراً لكونها تجريبية عملية سهلة التداول. فحديثُ الحناجر ينبغي أن يُحسب في الإعجاز النبوي ويُشاد به لسبقه في نسبة الأصوات إليها قبل العلم بالوترين الصوتيين والمزمارِ ولسانه ! وفي حقبة لا ينسب الناس فيها إلى الحناجر غير الطعام والشراب ! فانظر قول النابغة الذبياني من فحول الجاهلية في صفة النخل والماء :

من الواردات الماء بالقاع تستقي بأذناها قبل استقاء الحناجر

فأخبر أنها تشرب بعروقها ، وأراد بالأذنان العروق²

وانظر قول أبي العلاء المعري في الإسلام (-449هـ) :

طعامُ غنيِّ الإنس والفاقدِ الغنى سواءً ، إذا ما غيَّبته الحناجر³

ثم تأمل فما الشَّرْقُ بين غمامتين بأضواء من كلمة النبي صلى الله عليه وسلم بين هاتين الكلمتين .

- تجسيم الجوع والشبع :

في حديث الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار : ((فقال أحدهم اللهم إني كان لي أبوانِ شيخانِ كبيرانِ فكنْتُ أخرجُ فأرعى ثمَّ أجيءُ فأحلبُ فأجيءُ بالحلابِ فأتي أبويَ فيشربانِ ثمَّ أسقي الصبيَّةَ وأهلي وامرأتي فاحتبستُ ليلةً فجئتُ فإذا

¹ - أسباب حدوث الحروف ، ابن سينا ص 9 .

² - غريب الحديث لابن سلام 1 / 67 ، ولم أعر عليه في ديوان النابغة بتحقيق د. شكري فيصل.

ووجدته في ديوانه ص 66 طبع الهلال ، وفيه : من الطالبات الماء بالقاع تستقي بأعجازها..

³ - لزوم ما لا يلزم ص 120.

هما نائمان قال : فكرهتُ أن أوقظهما والصَّبِيَّةُ يتضاغون عند رجلي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما حتى طلع الفجرُ اللهم إن كنتَ تعلمُ أيَّي فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافرجْ عَنَّا فُرْجَةً نرى منها السماءَ قال ففرجَ عنهم...¹

قال الشيخ ملا علي القاري : " والمعنى أنه حينئذ سقيتهما أولاً ثم سقيتهم ثانياً تقديماً لإحسان الوالدين على المولودين لتعارض صغرهم بكبرهما؛ فإن الرجل الكبير يبقى كالطفل الصغير ومن لم يصدِّق بذلك أبلاه الله بما هنالك " ².

ورأى العلامة محمد أنور شاه الكشميري في هذا العمل ظلماً للصغار المعصومين، وأنه قُبِلَ لصلاح نيته فإنها تكفي من جاهل معذور ، وسماه صالحاً سفيهاً؛ لأنه تكلف ما لم يُطلب منه³.

¹ - الشيخان : البخاري في البيوع (إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي) 2215 ، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (قصة أصحاب الغار والتوسل بصالح الأعمال) 2743 ، كلاهما من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال : ((يتضاغون عند رجلي)) ، وفي مسلم ((عند قدمي)) ، ورواه البخاري في الأدب (إجابة دعاء من بر والديه) 5794 ، من طريق إسماعيل ابن إبراهيم بن عقبة عن نافع عن ابن عمر ، وفيه : ((والصبية يتضاغون عند قدمي)) ورواه البخاري في أحاديث الأنبياء (حديث الغار) 3465 ، من طريق عبيد الله بن عمر عن نافع وفيه : ((وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع)) . وأبو عوانة في المستخرج في البيوع (ذكر الخير الدال على الإباحة لمتولي مال غيره أن يصرفه في تجارة ..) 5549 ، والبيهقي في الكبرى في الإجارة (باب جواز الإجارة) 11420 ، من طريق صالح بن كيسان عن نافع قال : ((يتضاغون عند رجلي)) .

فما أخذ من الرواة عن نافع قال ((من الجوع)) غير عبيد الله بن عمر ، ولعلها مدرجة لتفسير هذه الكناية .

و أخرجه الإمام أحمد في مسند المكثرين (مسند عبد الله بن عمر) 5937 عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر قال : ((وصبيتي يتضاغون حولي)) .

² - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 14 / 218 .

³ - ينظر : فيض الباري شرح البخاري 4 / 433.

والجواب على دعوى الإمام الكشميري أن هذا الرجل بقي على رجاء استيقاظ أبويه في كل لحظة فبقي على منع بنيه حتى مرّ الوقت وهو قوله (فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما) ولو علم في البدء أنهما لا يستيقظان إلى الصباح لسقى ولده، والله أعلم . وهذا يبيّن الحال العصيبة التي مرّ بها فإن التردد يهيج النفس ويعذبها خلافاً للجزم بأي شيء كان ، فكيف إذا انضم إليه ضُغَاءُ الولد من حوله!

وموضع الكناية : (يتضاغون من حولي) فإنه بكاء واستعطاف يردف الجوع فيكنى به عنه .

قال القاضي عياض : " أي يصيحون . والضُّغَاءُ ممدود صوت الذلة والاستخذاء " ¹.

جاء في اللسان : " الضُّغُوُ الاستخذاء، وضُغَا الذُّبُّ والسِّنُّورُ والشَّلْبُ يَضُّغُو ضُغْواً وضُغَاءً صَوْتٌ وصاح وكذلك الكلبُ والحَيَّةُ، ثم كثر حتى قيلَ للإنسانِ إذا ضُربَ فاستغاثَ ... ويقال: رأيت صبيانا يتَضَاعُونَ إذا تباكوا " ². وفيه تجسيم لحالة الجوع الشعورية بصورة صوتية خارجية تشي بالضراعة والتشبُّث، ولعمري إنها لمحنة .

وجُسِّمَ الشَّبَعُ بامتداد الخاصرة في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا)) . قَالُوا : وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : ((بَرَكَاتُ الْأَرْضِ)) . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالْشَّرِّ قَالَ : ((لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ ؛ إِنَّ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ

¹ - مشارق الأنوار 115/2 ؛ وانظر شرح النووي على مسلم 56/17 .

² - لسان العرب، ابن منظور (ضغا ، 14 / 485) .

يَقْتُلُ أَوْ يُلْمُ إِلَّا أَكَلَةَ الْخَضِرِ فَإِنَّهَا تَأْكُلُ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ
الشَّمْسُ ثُمَّ اجْتَرَّتْ وَبَالَتْ وَثَلَطَتْ ، ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ . إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ
حُلُوةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعَمَ الْمَعُونَةُ هُوَ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ
كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ)) ¹.

موضع الكناية (حتى إذا امتدت خاصرتها).

قال الحافظ ابن حجر : "هما جانبا البطن من الحيوان ... والمعنى أنها إذا
شبت فنقل عليها ما أكلت تحيَّلت في دفعه ، بأن تجترَّ فيزداد نعومةً ثم تستقبل
الشمس فتحمي بها فيسهل خروجه ، فإذا خرج زال الانتفاخ فسلمت وهذا
بخلاف من لم تتمكَّن من ذلك فإن الانتفاخ يقتلها سريعاً " ، ثم حكى فيه مثلين
: أحدهما للمفرط في جمع الدنيا المانع من إخراجها في وجهها ، والثاني للمقتصد
في جمعها وفي الانتفاع بها وهو آكلة الخضر ، وذكر أن الخضر ليس من أحرار
البقول التي ينبتها الربيع ولكنها الحبة ، والحبة ما فوق البقل ودون الشجر فهو
ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر ².

ولعل في قوله آكلة الخضر إشارة لعدم الادخار فإن الخضر أسهل هضمًا
وخروجًا خلافاً للقت والتبن والشعير اليابس والعلف المدخر فإنه قليل الماء كثير
العناء ، ومن اقتصد في الدنيا واقتصر منها على طيبها وجديدها غير مستكثرٍ ولا
متأثِّل غنم منها وسلم ، ويحتمل أن الإنسان لو وُكِّل إلى غريزة كهذا الحيوان لما

¹ - البخاري في الزكاة (الصدقة على اليتامى) 1465 ، ومسلم في الزكاة (خوف ما يخرج
من زهرة الدنيا) 1052 ، والنسائي في الزكاة (الصدقة على اليتيم) 2581 ، وابن ماجه في الفتن
(فتنة المال) 3995 .

² - فتح الباري 11 / 247 .

تعلق بفضل من الدنيا ولكنه وكل إلى اختيار مع بقاء الطبيعة ماثلة أمامه ينظر إليها .

ويا للحسن والنعمة والفراحة في هذا المنظر الربيعي المصور، وفي امتداد الخاصرتين المكنى به عن الشبع ، مع مجيء الخاصرتين فاعلاً مضافاً إلى ضمير آكلة الخضر لينطلق في آخرها مدان كأنهما الخاصرتان في امتدادهما .

– تجسيم الاهتمام والإعراض :

من تجسيم الاهتمام حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَرْعَةً طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَطَانَّةً ، أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعْفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ))¹

قال ابن الأثير : " الهيعة : كل ما أفرعك من صوت وخبر يجيئك من جانب العدو"².

والمراد الكناية بقوله (ممسك عنان فرسه) عن الجاهزية النفسية، قال ابن حجر : "أي لجامها"³، والمعنى فيما حكاه السيوطي أنه لا يخلو في الأغلب من

¹ – مسلم في الإمارة (فضل الجهاد والرباط) 1889 ، وابن ماجه في الفتن (العزلة) 3977 من حديث بَعْجَةَ الجُهَنِيِّ عن أبي هريرة .

² – جامع الأصول في أحاديث الرسول 9 / 483.

³ – ينظر : فتح الباري 160/1 .

ذلك فوصف به¹. ودرس الدكتور أحمد ياسوف تدفق المكان من خلال أفعال هذا الفارس، فقال :

" يمثل وقوفه النقطة في الرسم ، ثم يبدأ الخط إذ ينقلب إلى طير سريع على حصانه من غير اتجاه ... وليست التمددات اللغوية : يطير على متنه ، من هذه الشعف ، من هذه الأودية ، ليست إلا تذكيراً بالحركة القوية السريعة التي تملأ مساحات كبيرة، وهذا يدل على حركة المسلم وفاعليته في الوجود على مستوى الفكر والعمل . والزمان قائم في فعل الطيران الذي يحدد المكان الفسيح ، والمضي في طار يدل على السرعة مثل سمع وهكذا الفعل الماضي كأن بدايته في نهايته ليست في زماننا ، والاستمرار والسيلان الزمني في فعل يبتغي يرشد المسلمين إلى أهمية الجهاد واستمراره " ².

أضيفُ إلى ما قال أن الفرق بين الماضي والمضارعة في (سمع وطار وبتغي) هو الفرق بين العمل والنية فالعمل طارئ لكن النية ينبغي أن تكون مستمرة . والجمال في الصورة، فهي حسية بصرية تشبه أن تكون نحتية في الظاهر لكنها جياشة الأعماق لما نتوقع في قلب صاحبها من تفتن وتأهب وجاهزية يُذكرها التحنن والتوجه إلى الله ، وهذه اللقطة القريبة المركزة التي أثبتت واحداً لعله ألا يكون وحيداً لكن المقصود استشفاف أعماق هذا الواحد من خلال التأمل في هيئته الظاهرة .

ثم في استعمال العنان دون الزمام واللجام والخطام - وكله قريبٌ بعضه من بعض - ما يستدعي نظراً ، وذكر ابن فارس في العين والنون أنهما أصلان، أحدهما يدلُّ على ظهور الشيء واعتراضه ، والآخر يدلُّ على الحبس، قال : " والأصل في العنان ما ذكرناه في الحبس " ³.

¹ - تنوير الحوالك ص 296 .

² - الصورة الفنية في الحديث النبوي ص 657 .

³ - مقاييس اللغة (عن ، 4 / 19) .

لكن جاء في اللسان أن العنان من اللجام ما يعترض من الجانبين دون أن يدخل منه في الفم شيء¹، فيرجع بذلك إلى أصل الظهور أيضاً .

والأصلان يفيدان في التصوير، فالأول الذي هو الحبس يشعر بتمكُّن واستعلاء، والثاني يسلِّط الإضاءة على هذا الجزء الظاهر من أحد الجانبين ولا يكون كذلك حتى تكون الصورة جانبية ، ولفظه يذكّر بعنان السماء وهو ما عنّ أي " ظهر لك منها إذا نظرت إليها"².

فالعنان دون الزمام والخطام واللجام يوحي بخفة الحركة ومرونتها؛ ومردُّ هذا الوحي إلى آخر الكلمة فلا بد مع النون من انفتاح الشفتين ، أما الميم آخر الكلمات الثلاث فتُزَمُّ بها الشفتان وتنطبقان في إيحاء بالحبس والقبض ، وفي العنان معنى الحبس بغير إيحاء، والألف التي تسبق النون فيه غير الألف التي تسبق الميم فيهنّ ؛ ألفهنّ بقدر طول الحبل الذي يُلجِم الدابة ويرتدّ على نفسه ويتصل أوّلُه بآخره ، وألفُ عنان ذاهبة إلى (عنان) السماء .

والحاصل أن في العنان حبساً وامتلاكاً في المعنى وخفّة ومرونة في الإيقاع ، وهذان إذا اجتمعا في الفارس وفرسه كانت النهاية في الحسن والجمال ، وقد حاوله الأدباء فخرجوا إلى جعل الفرس وفارسها شيئاً واحداً متصلاً فحصلوا فائدة واحدة هي صورة التمكن دون الخفّة ، وفي الظاهر دون تحسس المشاعر الباطنية ، وفي الجماعة دون المفرد ، قال المتنبي (-354هـ) :

فكأنما نُتِجَتْ قِياماً تحتهم وكأنما وُلِدُوا على صَهَوَاتِهَا³

وقال البوصيري رحمه الله (-694هـ) :

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبْتُ رُبّاً مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْحُزْمِ¹

¹ - ينظر : لسان العرب، ابن منظور (عنن، 13/290) .

² - لسان العرب (عنن، 13/290) .

³ - ديوان المتنبي 1/230.

فانظر أين يقعان من قول النبي صلى الله عليه وسلم (ممسك عنان فرسه) التي عبّرت عن تمكّن وخفّة ، وظاهر وباطن ، وصوّرت فرداً والفرد يطلب مثاله الموازي وقدوته النبيلة في فردٍ مشاكل لا في الجماعة ، مع الفاعلية التي اختص بها الفارس من خلال اسم الفاعل (ممسك) والتي تميّزه عن الفرس تحته وتمثل الحكمة والتدبير والتسخير ، مع الإيجاز والتلاحم الكنائي الذي يسمو على التشبيه في كأنما وكأنهم .

وأما سياق الحديث فرأيت ملاءمته للكناية القوية الرشيقة بانقلاب الحصان طائراً وتناسق الأفعال مع الحالة النفسية للفارس الذي يمثل في الحديث أحد الأمنين وأشرفهما قدراً لأن به يستقيم معاش الناس إذا أمنوا على أرواحهم من القتل ودينهم من الفتن ، والأمن الثاني هو ما يُدعى بالأمن الغذائي ممثلاً في الراعي المؤمن يتبع غنيمته فيؤدي زكاتها وينتفع مع الناس بلبنها ولحمها لا يصيبهم منه إلا خير ، ولكنه دون ذلك المحلّق .

نعم ، وردت هذه الكناية في حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَأَنْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ . طُوبَى لِعَبْدٍ آخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشَعَتْ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةً قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ))².

ولكن شتان بين الحالين ، فحيث يبدو الفارس عزيزاً في السياق الأول يبدو هنا مُغفلاً في صورة جندي أشعث أغبر لا يؤبه له ولا يملك غير فرسه، فجُهل

¹ - ديوان البوصيري ص 199.

² - البخاري في الجهاد والسير (الحراسة في الغزو في سبيل الله) 2887 ، من حديث أبي صالح عن أبي هريرة .

قدر هذا الفارس واستصغر أمره، ولعلّ هذا أن يكون سرّ التعبير بأخذ دون ممسك في هذا الموضع كأنما أخذ بعنان فرسه تعني أخذاً بشأنه غير ملتفت إلى ذلك الاستخفاف مادام عمله في سبيل الله ، فاستحقّ المواساة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطوبى له ! .

وكذلك جسيم الإعراض في الحديث بعمل سلمي لا يمكن استحضاره في الذهن حتى تستحضر صورة الحركة الإيجابية ، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا ، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً . فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فُقِيَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ))¹ .

الكناية في قوله : (لم يرفع بذاك رأساً) ، فمن الشراح من فهم منها الإعراض كالنووي وابن حجر² ومنهم من فهم التكبر ، قال الإمام العيني: " يقال ذلك ويراد به أنه لم يلتفت إليه من غاية تكبره "³، وكذا قال الشيخ ملا علي القاري⁴.

¹ - البخاري في العلم (فضل من علم وعلم) 79 ، ومسلم في الفضائل (بيان مثل ما بعث به النبي من الهدى والعلم) 2282 واللفظ له .

² - ينظر: شرح النووي على مسلم 46/15 ؛ فتح الباري 177/1 .

³ - عمدة القاري 120/2 .

⁴ - ينظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 14/2 .

وقال الدكتور أحمد ياسوف : " تقترب المصورة من رأس هذا الرجل الذي عبر بحركة رأسه عن الأنفة والكبرياء ، والجمود وعدم التأثر حتى إن الرأس لم يتحرك وذلك في تعبير كنائي عن العناد والتصلف، إذ يبتغي الدين رفع مستوى البشر ... فعدم رفع الرأس يوحي بالهبوط والانحطاط " ¹.

نعم إن التكبر من دوافع الإعراض ، لكن أصل العبارة مجرداً لا يدلُّ عليه بل على مطلق الإعراض بغض النظر عن سببه ، وكذلك استعملته العرب ، فقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري في حديث خاصف النعل - يعني علياً رضي الله عنه - : " فأتيته لأبشّره قال فلم يرفع به رأساً ؛ كأنه قد سمعه " ².

وعن علي رضي الله عنه قال : " إذا رأى أحدكم الهلال فلا يرفع به رأساً إنما يكفي من أحدكم أن يقول : ربي وربك الله " ³.

وعن أبي مسعود البديري قال : " لأن أخيراً من هذا القصر أحبُّ إلي من أن أفعل كما يفعلون إذا رأى أحدهم الهلال كأنما يرى ربه " ⁴.

وفي أمثال العرب : " رفع به رأساً " أي رضي بما سمع وأصاخ له، ذكره الميداني وحكى عن ابن الأعرابي أنه أنشد :

ولا قائل عوراء تُؤذى جليسه ولا رافع رأساً بعوراء قائل

وعن أبي نواس :

إن أنت لم ترفع به رأساً - هُديتَ - فنصفَ راسٍ ⁵

¹ - الصورة الفنية في الحديث النبوي ص 419 .

² - المسند ، مسند المكثرين (مسند أبي سعيد الخدري) 11792 .

³ - مصنف ابن أبي شيبة في الصيام (ما قالوا في الهلال يرى ما يقال) 9729 .

⁴ - مصنف ابن أبي شيبة في الصيام (ما قالوا في الهلال يرى ما يقال) 9732 .

⁵ - مجمع الأمثال 308/1 ، وبيت أبي نواس في ديوانه 44/2 ، وفيه: فديت بدل هديت.

أما الكِبَرُ فمظهره معاكس وهو رفعُ الرأس ، يقال : شَمَخَ بأنْفِهِ ، يريد رفع رأسه كِبَرًا¹.

وإن لم يكن ما أنشده ابن الأعرابي - مع جهالة قائله - جاهلياً فهذه الكناية من الاختراع الذي تداوله الناس بعدُ .

والاختراع في اصطلاح البلاغيين : خَلَقُ الأديب المعاني التي لم يُسَبِّق إليها².
والاختراع أحسنُ الأدب، قال حازم القرطاجني : " مراتب الشعراء فيما يُلْمَنُون به من المعاني إذن أربعة: اختراع واستحقاق وشركة وسرقة. فالاختراع هو الغاية في الاستحسان.."³

وربما سُمِّي الاختراع في بعض المراجع سلامة الابتداع أو سلامة الاختراع، كما عند النويري والسُّبكي وابن حَجَّة الحموي⁴.

وإنما تُرجى سلامته من السبقِ مِمَّا أثّر من كلام العرب وسمع عنهم، لا مما درسَ ولم يؤبّه له¹.

¹ - ينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس (أنف ، 1 / 146).

² - العمدة ، ابن رشيق 265/1 .

وأصل الاختراع في اللغة من الخَرَج وهو الرخاوة واللين ثم صار بمعنى الاشتقاق والابتداع، والرباط بين اللغة والاصطلاح في معنى الاختراع أنّ الأديب سهّل طريقة المعنى وليّنه حتى أبرزه، فأما هو فتَلَطَّفَ ولانَ في استخراجِه ، وأما مَنْ بعده فصار المعنى لهم دَلُولاً مُمَهِّداً.

ينظر: مقاييس اللغة (خرع، 2 / 170)؛ لسان العرب ، ابن منظور (خرع، 8 / 67)؛ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د.أحمد مطلوب ص 42 .

³ - منهاج البلغاء ص 196 ، وتمام كلمته : " .. والاستحقاق تالٍ له، والشركة منها ما يساوي الآخر فيه الأول فهذا لا عيب فيه ومنها ما ينحط فيه الآخر عن الأول فهذا معيب، والسرقة كلها معيبة وإن كان بعضها أشد قبحاً من بعض".

⁴ - نهاية الإرب 7 / 136؛ عروس الأفراح 4 / 469؛ خزنة الأدب 2 / 362.

ومع ذلك فإن لها في الحديث معنى قصّر عنه كلٌّ من ذكرتُ ففي قول علي وأبي سعيد وأبي مسعود رضي الله عنهم ثم في إنشاد ابن الأعرابي لم يكن الأمر يستحق رفع الرأس به ، وقولُ أبي نواس استعطافٌ واسترحام ، أما الكناية في الحديث فينبع جمالها من تصويرها للقبح الشنيع في الإطراق والهبوط والنظر السفلي الذي ليس في محله .

وهذه الطائفة التي لم ترفع رأساً بهدى الله تقابل في المثل القيعان التي لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاً ، فلا خير فيها ولا خير منها ، والقيعان مَظِنَّة السراب يتراءى فيها أنصافَ النهار²، والسراب لا حقيقة له وهؤلاء لا حقيقة لهم فليسوا من الدنيا إلا كخيبة الأمل .

ثانياً - تجسيم الأفكار العامة :

- تجسيم الرحمة الإلهية :

¹ - دأب العلماء على التمثيل للاختراع النبوي بقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((هذا حين حمي الوطيس)) .وهو من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في غزوة حنين . انفرد به من الستة مسلم في الجهاد والسير (في غزوة حنين) 1775 .

والوطيس التَّنُور فاستعاره النبي صلى الله عليه وسلم للحرب تشبيهاً لحرّها واضطرامها بحرّه واضطرامه ، قال أبو بكر بن الأنباري في الزاهر في معاني كلمات الناس 2 / 78: " يُضرب مثلاً لشدة الحرب " ، وقال ابن الأثير في المثل السائر 1 / 77: " ولم يُسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير النبي " يعني قبله .

فهذا مثالهم المشهور من الحديث، وربما ذكروا معه جملاً أخرى يسيرة يتداولها بعضهم من بعض دون مراعاة وصف الصحة في الحديث . ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ 7/2 ؛ نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري 3 / 4؛ المزهري في علوم اللغة، السيوطي 1 / 165.

² - ينظر : لسان العرب، ابن منظور (قوع ، 304/8) .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاةٍ وقمنا معه ، فقال أعرابي وهو في الصلاة : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً. فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال للأعرابي : ((لَقَدْ حَجَرْتَ وَاسِعاً)) يريد رحمة الله .

هذه رواية البخاري، وزاد الترمذي : فلم يَلْبَثْ أَنْ بَالَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : ((أَهْرَيْقُوا عَلَيْهِ سَجَلاً مِنْ مَاءٍ)) - أَوْ دَلُّوا مِنْ مَاءٍ - ثم قال : ((إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ)) . وفي رواية ابن ماجه: ((احتظرت واسعاً))¹.

الكناية فيه : (واسعاً) كناية عن موصوف هو رحمة الله ، فبها جرى القرآن (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) {الأعراف:156} ، وبها صرح راوي الحديث ، قال ابن حجر: "والقائل : (يريد رحمة الله) بعض رواته وكأنه أبو هريرة"¹.

¹ - البخاري في الأدب (رحمة الناس والبهائم) 6010 من طريق الزهري عن أبي سلمة عنه ، والترمذي في الطهارة عن رسول الله (ما جاء في البول يصيب الأرض) 147 ، من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عنه ، وأبو داود في الصلاة (الدعاء في الصلاة) 882 ، من طريق الزهري عن أبي سلمة عنه ، والنسائي في السهو (الكلام في الصلاة) 1216 ، من طريق الزهري عن أبي سلمة ، وابن ماجه في الطهارة وسننها (الأرض يصيبها البول كيف تغسل) 529 ، من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة ، قال فيه : احتظرت .

ومحمد بن عمرو بن علقمة الليثي على جلالته " صدوق له أوهام ، من السادسة ...ع " كما في تقريب التهذيب، ابن حجر 2/ 499 . قال ابن الصلاح: "ضعفه بعضهم من جهة سوء حفظه ووثقه بعضهم لصدقه وجلالته فحديثه من هذه الجهة حسن" علوم الحديث ص: 35 .

نعم روى له البخاري مقروناً ومسلم متابعه ، ينظر : شرح علل الترمذي ، ابن رجب 1/ 115 ، وتعليق محققه الأستاذ الدكتور نور الدين عتر 1/ 116 ، الحاشية رقم 3.

ويلاحظ من مطالعة ترجمته ثم أن أكثر ما نسب إليه من الوهم هو في روايته عن أبي سلمة وبها تكلم ابن معين وعلل اتقاء الناس لحديثه ، وحديثه الذي قال فيه (احتظرت واسعاً) يرويه عن أبي سلمة ويخالف الثقات أيضاً ، فكأنها رواية بالمعنى ، والله أعلم .

وقد بيّن ابن بطال رحمه الله وجه إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على الأعرابي فقال: "لم يعجبه دعاؤه لنفسه وحده لأنه بخل برحمة الله"².

أو على حدّ تعبير الدكتور أحمد ياسوف: "الإسلام يستبعد تضخم الذات على حساب الآخرين"³، ثم إنه قلب الرواية ليستنبط من كلّ معناه، ففي (حجّرت) معنى القسوة والشدة لاقتراها بالحجر، وفي (احتظرت) إيحاء بالحيوانية لاقتراانه بالحظيرة⁴.

وأقدّر أن (احتظرت) وهمّ أو رواية بالمعنى، والمحفوظ (حجّرت) كما عند البخاري وغيره، وانظر تخريج الحديث ففيه مزيد بيان. والحظر وإن كان أصلاً يدل على المنع، إلا أنّ في الحجر معنى زائداً يتعلق بالشدة والصلابة ليس من شرط الحظر⁵، والأعراب يوسّمون بقسوة وتحجّر ولكنهم لا يؤبّنون بدناءة نفس أو هبوط حيواني.

فأقتصر إذاً على الرواية الصحيحة سنداً ومعنى (حجّرت)، قال ابن الأثير: "أي: ضيّقت. من قوله: (حجّر فلان) إذا اتخذ له على أرض حجارةً محدقة بها"⁶.

وتأمل إيقاع الكناية (واسعاً) وملاءمته للمعنى حيث الواو تمنح الألف بعدها فسحة في المد لا يمنحها أي حرف آخر لكونها من حُرّ الفم ولا تعلق لها بالحنك من أي وجه، والسين الرخية في وسطها تقابل الجيم الشديدة المشدّدة في قلب سابقتها (حجرت)، ثم الإطلاق الأخير في الألف المنونة التي لا حدود لها.

¹ - فتح الباري 10 / 439.

² - شرح صحيح البخاري، ابن بطال 9 / 220.

³ - الصورة الفنية في الحديث النبوي، ص 427.

⁴ - ينظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي، ص 428.

⁵ - ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس (حظر، 2 / 80) و (حجر، 2 / 138).

⁶ - جامع الأصول 4 / 522.

فلا يلبثُ القبح في التحجير أن يغيب في هذا الجمال الوسيط كحجرٍ طاش
في سماءٍ أو غارٍ في عين ماء .

وهي من الاختراع الذي لم يكن ، ولا بن فارس اقتباسٌ شهير لهذا التعبير في
رسالة كتبها لبعض إخوانه¹، يعيبُ عليه رفضه أن يؤلف بعض عصره حماساً
بعد أبي تمام ، جاء فيها: " ولمه حجرت واسعة وحظرت مباحاً وحرمت حلالاً
وسددت طريقاً مسلوكةً؟".

قلت : الأولى في السماء والباقيات على الأرض؛ لأنها تطير بمحرك ذاتي من
الإنكار إذ يستحيل تحجير الواسع، وأما الأخريات فالإنكار خارجي عنها إذ لا
يستحيل حظر المباح ولا تحريم الحلال ولا سد الطريق .

ومن عجبٍ أن كنايات الحديث وأمثاله لا تُبتذل بالتضمن والاقتراس من
أهل الأدب بل تزداد توقداً كلما نفخوا فيها ، وتظهر فضيلتها حيث حلت من
كلامهم.

تجسيم ذهاب المكانة والأمر :

فمن تجسيم النفي الذي هو ذهاب أمر الفرد ما جاء في حديث ابن عمر
رضي الله عنهما في قصة إجلاء يهود خيبر ، وأن عمر لما أجمع على ذلك أتاه
أحد بني أبي الحقيق فقال : يا أمير المؤمنين أخرجنا وقد أقرنا محمد صلى الله عليه
وسلم وعاملنا على الأموال وشرط ذلك لنا ؟ فقال عمر : أظننت أني نسيْتُ
قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((كَيْفَ بِكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ حَيْبَرَ ،

¹ - يتيمة الدهر ، الثعالبي 3/ 366، وأثبتها الشيخ عبد السلام هارون في مقدمة تحقيقه
لمقاييس اللغة 16/1.

تَعْدُو بِكَ قَلُوصُكَ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ)) ؟ فقال : كانت هذه هُزَيْلَةً من أبي القاسم . قال : كذبت يا عدو الله ! فأجلاهم عمر¹.

ومعنى الحديث - كما ذكر الشيخ ملا علي القاري - كيف يكون حالك إذا أخرجت من خير ، تُسرِعْ بك ناقتك الشابة القوية ليلة بعد ليلة². قال ابن فارس : " القاف واللام والصاد أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على انضمام شيء بعضه إلى بعض ... وبها سُمِّيَتِ الْقُلُوصُ من الإبل، وهي الفتية المجتمعة الخلق"³.

ولم عبّر بالقلوص دون الناقة ؟ أهو قدر هذا الرجل الذي قلّص بعد سعة حتى آل إلى ناقة تجري به !

فهذه (تعدو بك قلوصك) كناية عن الإجلاء والنفي، لكنها مصوِّرة ولقطة قريبة تظهر فرداً واحداً دون أهله وقومه؛ لأن التشرّد يقع على المشاعر كما يقع على الأبدان ، حيث ينفرط سلك الاجتماع ظاهراً وباطناً وحيث يفقد هذا الزعيم زمام السيطرة لا على قومه فحسب ولكن على فكره ومشاعره وعلى دابته أيضاً ، وتنقلب الأمور فتتولى قلوصه الشابة القوية زمام أمره وتنطلق به مولية لا تلوي على شيء في رحلة طويلة (ليلة بعد ليلة) . إنه لتصوير عجيب وتجسيم لحالة الجلاء والهزيمة وما يرافقها من مشاعر نفسية حيث يصبح الضعف والوهن والشيخوخة خلفية معنوية للوحة تغطي كلّ شيء فيها ، وتظهر القوة نقشاً بارزاً متحرّكاً هو هذه القلوص الشابة الفتية التي تعدو بهذا المحمول كأنها قدره .

¹ - البخاري في الشروط (إذا اشترط في المزارعة إذا شئت أخرجتك) 2730 ، من طريق مالك عن نافع عن ابن عمر ، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (ما جاء في حكم أرض خير) 3007 ، من طريق محمد بن إسحاق عن نافع مختصراً ليس فيه كلمة النبي صلى الله عليه وسلم .

² - ينظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 12 / 298 .

³ - مقاييس اللغة (قلص ، 5 / 21).

ومن تجسيم زوال أمر المجموع :

ما جاء في حديث عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال حدثني أبو عامر - أو أبو مالك - الأشعري والله ما كذبتني سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ((لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَارِفَ . وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عِلْمٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ - يَعْنِي الْفَقِيرَ - لِحَاجَةٍ فَيَقُولُونَ ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا ، فَيَبْيِثُهُمُ اللَّهُ ، وَيَضَعُ الْعِلْمَ ، وَيَمْسَحُ آخِرِينَ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))¹.

¹ - البخاري في الأشربة (ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه) بلا رقم وليس في الباب غيره ، قال : " وقال هشام بن عمار حدثنا صدقة بن خالد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا عطية بن قيس الكلابي عن عبد الرحمن بن غنم " . وأبو داود في اللباس (ما جاء في الخنز) 4039 ، من طريق بشر بن بكر عن عبد الرحمن بن يزيد ببعض هذا الحديث ، وفيه ما يدل على نقصانه حيث قال : " وذكر كلاماً قال يمسح منهم آخرون قردةً وخنازير " قال شمس الحق العظيم آبادي في عون المعبود (58/11) : " هو ما ذكره البخاري : ولينزلن أقوام إلى جنب علم .. الخ " . وما علقه البخاري وصله الطبراني في الكبير (حديث الحارث أبي مالك الأشعري) 3417 ، عن موسى بن سهل الجوني البصري ثنا هشام بن عمار .. الحديث ، والطبراني في مسند الشاميين (حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر) 588 ، عن محمد بن يزيد بن عبد الصمد الدمشقي ، ووصله الإسماعيلي وغيره ينظر : تعليق التعليق ، ابن حجر 3 / 230 .

وموسى بن سهل الجوني الإمام المحدث الرجال، ثقة، وثقه الدارقطني، كما في سير أعلام النبلاء، الذهبي 14 / 261. ومحمد بن يزيد بن عبد الصمد شيخ الطبراني له نحو عشرين حديثاً في الكبير والصغير ومسند الشاميين كلها عن هشام بن عمار.

والقضية أن ابن حزم رحمه الله ردّ هذا الحديث وقال : " وهذا منقطع ، لم يتصل ما بين البخاري وصدقة بن خالد ولا يصح في هذا الباب شيء أبداً " المحلى 9 / 59 .

ورد عليه العلماء كلامه وأجابوا عنه بأشياء منها ما قاله ابن حجر رحمه الله تعالى أن البخاري لا يجزم إلا بما يصلح للقبول ولا سيما حيث يسوقه مساق الاحتجاج كهذا الحديث الذي لم يذكر في الباب غيره وذكره بصيغة الجزم ، قال : " وقد تقرر عند الحفاظ أن الذي يأتي به البخاري من

والمراد وضع العلم فإنه كناية عن وضع المكانة وزوال الأمر ، قال القاضي عياض : " والمعلم والعلم العلامة في الأرض ومنه ذكر العلم في الحديث وقوله (لينزلن قوم إلى جنب علم) أي : جبل ، ويضع العلم أي : يهدمه الله ¹ .

وكذا جرى شراح الحديث على أن العلم هنا هو الجبل ² ، لكن ابن بطال قال : " إن كان العلم بناءً فيهدمه ، وإن كان جبلاً فيدكدكه ، وهكذا إن كان غيره ³ . فالعلم في كلامه أعمُّ من أن يكون جبلاً ، وهو أقرب إلى أصل اللغة ؛ إذ العين واللام والميم - كما ذكر ابن فارس - أصل صحيح يدلُّ على أثرٍ بالشيء يتميَّز به عن غيره ، فمنه العلامة ، والأعلم مشقوق الشفة العليا ، والعُلام الحِناء ، والعلم الجبل والعلم الراية ⁴ .

أما الوضع فأصل واحد أيضاً يدلُّ على خفض الشيء وحطُّه ، ومنه الوضع الديني ، ووضع المرأة ولدها ، وإيضاع السير وهو السير بالدابة سيراً سهلاً يخالف المرفوع ، والإيضاع في الفتنة منه وهو مجاز ⁵ .

وذكروا أن في إطلاق العلم على الجبل في الحديث دلالة على شهرتهم بالغنى حتى صار جبلهم معلماً يُطلب لكونهم في أصله ، ويأتيهم الفقير لحاجته فيجمعون عليه كذباً واستهزاءً وتسويفاً ، فيبيتهم الله ليلاً فيهلكهم وهم غافلون ، ويمسخ من لم يمت منهم قردة وخنازير على خلاف طويل بين الشراح حقيقة هو

التعليق كلها بصيغة الجزم يكون صحيحاً إلى من علّق عنه ولو لم يكن من شيوخه ، لكن إذا وجد الحديث المعلق من رواية بعض الحفاظ موصولاً إلى من علّقه بشرط الصحة أزال الاشكال " فتح الباري 10 / 52 . ثم قد رأيت صحة الحديث من غير طريق البخاري ، والله أعلم .

¹ - مشارق الأنوار 2 / 162 .

² - ينظر : فتح الباري ، ابن حجر 10 / 56

³ - شرح صحيح البخاري ، ابن بطال 6 / 52 .

⁴ - ينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس (علم ، 4 / 109)

⁵ - ينظر : مقاييس اللغة (وضع ، 6 / 117) .

أو مجاز عن تبدل أخلاقهم وطبائعهم، وقيل: المسخ للطائفة الأولى التي استحلّت الحر والحرير والخمر والمعازف، والإهلاك لما نعي حق السائل، وقيل بعض المسخ أهون من بعض فيمسخ قومٌ قردة وقوم خنازير والنفرة من الخنزير أشد¹.

وهذا باب مفتوح للتأمل وقد يخطر في البال أن أهل المعازف وما تغري به من الرقص يُمسخون قردة، ويمسخ أهل الحر والحرير والخمر خنازير!

وأرى في قوله (يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم - يعني الفقير - حاجة) تعريفاً بمبلغهم من الثراء أنّهم قوم مخدومون لا يباشرون عملهم إنما لهم التوجيه وقطف الثمرة، ولا يتعيّن أن تكون السارحة إبلاً وغنماً فقد تكون مالاً وتجارةً. وحذف حرف العطف بين يروح ويأتيهم يشي بسرعة قدوم الفقير عليهم وتحيّنه للفرصة وهو يرى أنه سيوافق منهم سعةً بعد قدوم السارحة، فيعلّلونه بالزمن ويردّونه، فيعظم جرمهم بقدر خيبة أمله، فيستحقون ذلك العذاب.

وعجيب أن يُختار له كلمتا (وضع) و(العلم) دون خسف وأطبق ودمر ودمدم ونسف والجبل والصّرح وغيرها، فما زال الناس إلى اليوم يرمزون للعزة برفع العلم وللذل بوضعه وتنكيسه.

وفي (وضع) طريقة في خفض اللسان مناسبة للمعنى، حيث يهبط اللسان من استعلاء الضاد إلى العين المستفلة، والعكس في (رفع) فإن انتقالاً يتم من الضعف إلى القوة: من الفاء المهموسة الذقية إلى العين المجهورة المصمتة الحلقية.

والحاصل أنه ما كان بطرُ النعمة وعَمَطُ الناس في طائفة من الأمة إلا أذهبها الله ووضعه من دولتها وحطّ من عزّها، والله تعالى أعلم.

- تجسيم القهر والغلبة :

¹ - ينظر : مرقاة المفاتيح ، الشيخ ملا علي القاري 15 / 272 ، وما بعدها .

في حديث أبي هريرة رضي الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَانَ يَسُوقُ النَّاسَ بِعَصَاهُ))¹.

قال ابن الأثير : " لم يرد العصا نفسها ، وإنما ضربها مثلاً لطاعتهم واستيلائه عليهم ، إلا أن في ذكرها دليلاً على ذلك ، وعلى خشونته عليهم وعسفه بهم "².
وقال ابن حجر : " هو كناية عن الملك ؛ شبهه بالراعي وشبه الناس بالغنم ونكتة التشبيه التصرف الذي يملكه الراعي في الغنم وهذا الحديث يدخل في علامات النبوة من جملة ما أخبر به صلى الله عليه وسلم قبل وقوعه ولم يقع بعد "³.

وقال في موضع آخر : " وقد قيل إنه يسوقهم بعصاه حقيقة كما تساق الإبل والماشية لشدة عنفه وعدوانه "⁴.

والتحقيق أن السوق بالعصا إن كان مجازاً فهي (أي يسوق الناس بعصاه) استعارة لتمثيل حال القهر والغلبة، وإن كان حقيقة فهي كناية عنهما .

قال الإمام الكشميري : " وكنت أراه رجلاً ظالماً لما ورد في حقه لفظ (يسوق الناس بعصاه) ثم بدا أنه رجلٌ صالحٌ يكون بعد عيسى عليه الصلاة والسلام لما وجدته ممدوحاً في الأحاديث . وحينئذٍ فالمراد من السوق ... إلخ : لنظم الأمور " ⁵.

وتتبعُ هذه الأحاديث التي ألمح إليها الكشميري والتي جعلته يعدل عن رأيه في القحطاني ، فإذا أصلحها ما روي من طريق عبد الرحمن بن قيس بن جابر

¹ - البخاري في الفتن (تغير الزمان حتى تعبد الأوثان) 7117 ، ومسلم في الفتن وأشراف الساعة (لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ..) 2910 .

² - جامع الأصول 10 / 395 .

³ - فتح الباري 6 / 546 .

⁴ - فتح الباري 13 / 77 .

⁵ - فيض الباري 4 / 473 .

الصَّدَقِي عن أبيه عن جده يرفعه: ((ما القحطاني بدون المهدي))¹، وروي عن علي موقوفاً أنه يسير بسيرة المهدي وتكون على يده الملاحم².

وذكر الحافظ ابن حجر أن المرفوع ضعيف الإسناد والموقوف أصلح إسناداً منه³، لكنه موقوف على أية حال وعبرة ابن حجر تشعر بضعفه أيضاً.

والذي يستدعي النظر حقاً هو أن البخاري رحمه الله أورد هذا الحديث في باب (تغير الزمان حتى تعبد الأوثان) عقب حديث ((لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة))⁴، ولم يخرج غيرها في الباب، فذكروا اعتراض الإسماعيلي بأن حديث القحطاني ليس من الترجمة في شيء وجواب المهلب بأن القحطاني إذا قام وليس من بيت النبوة ولا من قریش الذين جعل الله فيهم الخلافة فهو من تغير الزمان وتبديل الأحكام؛ بأن يطاع في الدين من ليس أهلاً لذلك⁵.

فهذا يخالف طريقة المادحين للقحطاني المعظمين لشأنه.

¹ - أخرجه نعيم بن حماد في الفتن ص 237، والطبراني في الكبير، في مسند من يعرف بالكنى من أصحاب رسول الله (حديث أبي جابر الصدي رضي الله عنه) 22 / 374، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((سيكون من بعدي خلفاء، ومن بعد الخلفاء أمراء، ومن بعد الأمراء ملوك، ومن بعد الملوك جبابرة، ثم يخرج رجل من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، ثم يؤمر القحطاني فوالذي بعثني بالحق ما هو دونه)) .

قال الهيثمي: "رواه الطبراني وفيه جماعة لم أعرفهم" مجمع الزوائد 5/ 190.

² - أخرجه نعيم بن حماد في الفتن ص 237.

³ - فتح الباري: 6 / 546.

⁴ - يأتي تخريجه ص 234.

⁵ - ينظر: فتح الباري، ابن حجر 13/ 78.

وهناك مناسبة أخرى بين الحديث والترجمة لم أر من ذكرها ، وتتعلق بالحديث الآخر من الباب فتكون الترجمة رأس مثلث ساقاه الحديثان وقاعدته تربط بينهما :

– الترجمة : تغير الزمان حتى تعبد الأوثان .

– الحديث الأول يذكر اضطراب أليات نساء دوس على ذي الخلصة وسيأتي أنها كناية عن عبادته.

– الحديث الثاني يذكر القحطاني الذي يسوق الناس بعصاه .

– الرابط بينهما أن دوساً من قحطان وأن هذا القحطاني يتغلب على تلك الناحية ويستبد بأهلها فيسوقهم بعصاه إلى خير أو إلى شرٍّ ، وهم بانحطاطهم يستحقون العصا.

والحال مهينة فهو ليس قائداً بل سائقاً يهش بها عليهم من خلفهم إمعاناً في التشبيه بالتعم ، جاء في اللسان : " القَوْدُ نقيض السَّوْق : يقود الدابة من أمامها ويسوقها من خلفها ، فالقود من أمام والسوق من خلف " ¹.

– تجسيم القضاء.

في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قلت يا رسول الله ! إني رجل شاب وأنا أخاف على نفسي العنت ولا أجد ما أتزوج به النساء ، فسكت عني . ثم قلت مثل ذلك فسكت عني . ثم قلت مثل ذلك فسكت عني . ثم قلت مثل ذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ! جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ ، فَاخْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ أَوْ ذَرِّ)) ².

¹ – لسان العرب، ابن منظور (قود ، 3 / 370) .

² – البخاري في النكاح (ما يكره من التبتل والخصاء) 5076 ، معلّقاً ، قال : قال أصبغ (ابن الفرّج) عن ابن وهب عن يونس عن الزهري عن أبي سلمة . والنسائي في النكاح (النهي عن

التبطل (3215 ، من طريق الأوزاعي عن الزهري عن أبي سلمة ، وقال : "الأوزاعي لم يسمع من الزهري هذا الحديث وهذا حديث صحيح قد رواه يونس عن الزهري" .
ملاحظتان هامتان :

الأولى : رواه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم و حسب قواعد المصطلح فإن ما رواه البخاري بصيغة الجزم كقال ونحوها فهو حكم بصحته عن المضاف إليه والنظر إنما هو في التحاق ما أبرز من سنده بشرط البخاري أو تقاصره عنه .

ينظر : تقريب النووي المطبوع مع تدريب الراوي 90/1 ؛ فتح المغيث ، السخاوي 68/1 .
وساق الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى هذا الحديث في فتح الباري (9/ 119) ولم يذكر له علة تقصر به عن الصحة، وذكر جماعة وصلوه، وبين ذلك في تعليق التعليق (4/396)، فقال : " وقال أبو بكر الجوزقي في الجمع بين الصحيحين: أنا أبو حامد بن الشرقي ومكي بن عبدان، قالوا: ثنا محمد بن يحيى ثنا أصبغ بن الفرّج بهذا...ورواه الإسماعيلي عن القاسم عن الرمادي عن أصبغ، وأخرجه الفريابي في كتاب القدر عن محمد بن إسحاق بن التتوخي عن أصبغ به".
ثم قد حكم الإمام النسائي عليه بالصحة كما مرّ في تخريج الحديث .

الثانية : قال العجلوني في كشف الخفاء (1/398) في حديث (جف القلم بما هو كائن) : " قال في التمييز: رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو حسن. انتهى. ورواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: جف القلم بما أنت لاق ".
فالعجلوني حكى تحسين اللفظ المروي عن ابن عباس (جف القلم بما هو كائن) عن التمييز ، وقال في مقدمة كشف الخفاء (1/ 8) : " وحيث أقول : (قال في التمييز) فمرادي الكتاب المسمى بتمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث للحافظ عبد الرحمن بن الديبع تلميذ الإمام السخاوي ، فإنه اختصر المقاصد الحسنة لشيخه المذكور". فآل الأمر إلى أن الذي حكم بالحسن أصلاً هو الإمام السخاوي وذلك في المقاصد الحسنة (1/257) حيث قال في حديث (جف القلم بما هو كائن) : " ومن طريق الطبراني أورده الضياء في المختارة وهو حسن ".
فالذي أشار العجلوني إلى تحسينه هو لفظ : (جف القلم بما هو كائن) المشتبه على الألسنة والمروي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في المعجم الكبير للطبراني (11/223) رقم 11560، وذكره بعدُ لحديث أبي هريرة الذي أدرسه : (جف القلم بما أنت لاق) إنما هو لبيان إخراج البخاري له صحيحاً من غير طريق ابن عباس.

ونحوها في حديث ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: ((... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رُفِعَت الأَقْلَامُ وجَفَّت الصُّحُفُ))¹.

قال ابن دقيق العيد: "أي لا يكون خلافاً لما ذكرت لك بنسخ ولا تبديل"².

وقال ابن رجب: "هو كناية عن تقدّم كتابة المقادير كلّها ، والفراغ منها من أمدٍ بعيد ، فإنّ الكتاب إذا فُرِغَ من كتابته ورفعت الأقلام عنه وطال عهده ، فقد رُفِعَت عنه الأقلام ، وجفّت الأقلام التي كتب بها من مدادها ، وجفّت الصّحيفة التي كتب فيها والمداد المكتوب به فيها ، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها"³.

وقال ابن حجر : " أي نفذ المقدور بما كتب في اللوح المحفوظ فبقي القلم الذي كتب به جافاً لامداد فيه لفراغ ما كتب به . قال عياض : كتابة الله ولوحه وقلمه من غيب علمه الذي نؤمن به ونكل علمه إليه "⁴.

فالتحسين إنما وقع على حديث ابن عباس (جف القلم بما هو كائن) لا على حديث أبي هريرة الذي هو موضع الدراسة (جف القلم بما أنت لاق) فإنه صحيح رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم ووُصِلَ وحكم النسائي بصحته .

¹ - الترمذي في الزهد (صفة القيامة والرقائق والورع ، باب منه) 2516، وقال : حديث حسن صحيح .

² - شرح الأربعين النووية ص 95.

³ - جامع العلوم والحكم ص 193 .

⁴ - فتح الباري 9 / 119 .

وقال في موضع آخر : " إشارة إلى أن الذي كتب في اللوح المحفوظ لا يتغير حكمه فهو كناية عن الفراغ من الكتابة لأن الصحيفة حال كتابتها تكون رطبة أو بعضها وكذلك القلم فإذا انتهت الكتابة جفت الكتابة والقلم"¹.
وكان الطيبي قال : "هذا من باب إطلاق اللازم على الملزوم؛ لأن الفراغ بعد الشروع يستلزم جفاف القلم عند مداده"².
وكلام الطيبي في غاية الأهمية لأنه فحوى الذي استقر من تعريف الكناية بعد.

وهي من الاختراع غير المسبوق ، وقد رسخت في ذهن الصحابة حتى إن البدوي منهم ليديرها في كلامه كالمتكّن منها ، فعن جابر رضي الله عنه قال : جاء سُراقَة بن مالك بن جُعشم ، قال : يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأنّا خُلِقنا اليوم فيما العملُ اليومَ أفيما جفّت به الأقلامُ وجرت به المقاديرُ أم فيما نَسْتَقْبِلُ ؟ قال : ((لا ، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ)) قال : ففيم العملُ؟ فقال : ((اَعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ))³.

فأنت ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزد في الجواب الأول على ما قاله سراقَة من هذه الكناية تأكيداً واستحساناً وتمكيناً لها في بابها .

وسراقَة من الأعراب من بني مُدَلِج ، خبره في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وفي بُسِه سِواري كسرى ذائع مشهور⁴.

ثم أصبحت مثلاً، ذكر الميداني في أمثال المولدين : "كيف تَوَقَّيكَ وقد جفَّ القلم"¹. ومنها : جفَّ القلمُ فلا تتعنَّ².

¹ - فتح الباري 11 / 491 .

² - شرح الطيبي على المشكاة 2 / 542 .

³ - مسلم في القدر (كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ..) 2648 .

⁴ - ينظر : الإصابة، ابن حجر 41/3 ، وذكر أنه توفي سنة أربع وعشرين هجرية .

كلُّ ذلك تجسيم لمعنى القضاء والفراغ منه .

- تجسيم الشهرة :

جُسِّمَت الشهرة بحركة حسيّة تتوجه بها الأصابع ، ذلك أنه إذا اشتهر المرء بأمرٍ لزمَ ذلك أن يشار إليه بالأصابع في هذا الشأن ، فكلمة (أشير إليه بالأصابع) كناية عن الشهرة .

وجاءت هذه الكناية في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِرَّةً وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ ، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوهُ ، وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فَلَا تَعُدُّوهُ))³.

وقد ذُكر في شرح الحديث معانٍ أبرزها :

- 1- إذا اجتهد وبالغ ليشار إليه بالأصابع، فلا تعتدُّوا به لكونه مرئياً .
- 2- إذا اشتهر وأقبل عليه الناس بوجوههم كان على خطر العُجب والغرور.
- 3- أن المبتدئ في العبادة تأخذه الحميّة والشهوة العميّة فيثقل على نفسه وهو يرى أنه لن ينقطع ، فلا تنظروا إليه في أوليّته وانتظروا فإن عاد إلى السنة وثبت عليها فهو ذاك ، وإن خار وانقطع وارتد على أعقابهِ من حيث بدأ أو

¹ - مجمع الأمثال 2 / 171 .

² - ذكره الزبيدي في تاج العروس أنه نحو مثل: علقت معالْفُها وصرَّ الجندبُ، في إفادة استحكام الأمر (علق ، 26 / 185).

³ - الترمذي في صفة القيامة والرقائق عن رسول الله (باب منه) 2453 ، من طريق محمد بن عجلان عن القَعْقَاعِ بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة . قال أبو عيسى : " هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه " . وهو إسناد قوي إلا ما يقال من أنَّ ابن عجلان اختلط عليه حديث أبي هريرة ، والذي اختلط عليه إنما هو حديث أبي هريرة من طريق سعيد المقبري فحسب ، ينظر : شرح علل الترمذي ، ابن رجب 1 / 124 .

دونه فلا تعتدوه رجلاً إنما هو صاحب مزاج وهوى ، والحال التي يشار إليه فيها بالأصابع هي الثانية لبعده البون بين ما بدأ به وبين ما انتهى إليه ! .

فالأول حكاية المناوي¹، والثاني حكاية الشيخ ملا علي القاري²، والثالث ذكر معناه الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله، وأثبت هذا الحديث في المنهاج الذي رسمه النبي صلى الله عليه وسلم للعابدين، وكان مما قال : " ما كان يرضى أن يُمدح الرجل بعبادته حال هجمته الأولى وشرته ونشاطه أي بادئ الأمر حتى تمضي عليه مدة ويستقر أمره ، فإن انتهى إلى حد السنة مُدح وإن قصر عنها فلا يُمدح "³.

وعبارة (يشار إليه) لا أراها كانت قبل، وأما بعد فأكثر من أن تُحصى ولا سيما في كتب التراجم والطبقات⁴.

والذي ذكره النقاد قريباً منها مما يحتمل أن يكون سابقاً لها كلمة لبيد بن ربيعة (-41هـ) :

من يبسط الله عليه إصبعاً بالخير والشر بأيّ أولعا
يملاً له منه ذنباً مُترعاً⁵

¹ - ينظر : فيض القدير 2 / 512 .

² - ينظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 9 / 151 .

³ - محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، الشيخ عبد الله سراج الدين ص 384 .

⁴ - ينظر مثلاً ترجمة أبي الفرج بن الجوزي ، وقولهم : فأصبح في مذهبه إماماً يُشار إليه . سير أعلام النبلاء، الذهبي 21 / 383.

⁵ - ديوان لبيد بن ربيعة ص 337. وروي: من يجعل الله عليه إصبعا في الخير أو في الشر يلقيه معاً ..

ينظر : تاج العروس، الزبيدي (صبع، 314/21) .

قال الزمخشري : "ومن المجاز : إنَّ له على ماله إصبعاً ، ورأيت على نَعَم بني فلان إصبعاً لهم ، أي : يشار إليها بالأصابع لحسنها ويمنها وحسن أثرهم فيها، قال ليبد:

من يبسط الله عليه إصبعاً... الخ" ¹ .

والتحقيق أنَّ كلمة لبید ليست مما نحن فيه، إنما هما بابان في الإصبع أحدهما قولهم : إن له على ماله أصبعاً ، وبسط عليه إصبعه ، ونحوها ، فهذا من المجاز بالتعبير عن الأثر الحسن بالإصبع كما يُعبّر عن المعروف باليد ، ومثله ما يقال اليوم : ترك بصمةً وله بصمة.

والثاني : الإشارة بالإصبع وليس هذا من المجاز بل كناية عن شهرة الشيء واستدعاء النظر إليه.

وكلمة لبید من الباب الأول، وكذلك قول الراعي النميري (-90هـ) يصف راعياً بحسن تعهده للإبل ورفقه بها :

ضعيفُ العصا بادي العُروق ترى له عليها إذا ما أمحلَّ الناسُ إصبعاً ²
فالمقدمون من العلماء كابن قتيبة (276هـ) والحري (285هـ) خرَّجوه على حسن الأثر ³، والطبقة الذين بعدهم كأبي علي القالي (-356هـ) وابن سيده (-

¹ - أساس البلاغة ص 323 .

² - ديوان الراعي النميري ص 102 ، والبيت لم يذكر ضمن الديوان نفسه ، لكن محققه قال في هامش تلك الصحيفة تعليقاً على إحدى القصائد : " لعل من هذه القصيدة ضعيف العصا بادي العروق..البيت " على أنه مشهور ، ولا يكاد يُتخلف في نسبته إلى الراعي ، ينظر : الأمالي في لغة العرب، القالي 326/2، ومجمع الأمثال، الميداني 363/1.

³ - ينظر : غريب الحديث ،ابن قتيبة 588 / 1 ، غريب الحديث ، الحري 299 / 1 ، ولم يذكر الميداني غيره في شرح مثل (شر الرعاء الحطمة) مجمع الأمثال 363 / 1 .

458هـ) حملوها على الوجهين حسنِ الأثر والإشارة بالإصبع كنايةً عن الشهرة والاستحسان¹.

لكن يُشكل عليه أن الإشارة بالإصبع لا تكون عند الاستحسان بل عند الدم والاستهجان، وما سميت السبابة إلا بذلك، أمّا إذا أريد الحسن فيشار باليد كلها².

فالراجح في قولهم : (له عليها إصبع) حسنُ الأثر أمّا الحمل على الكناية فمتأخّر، وما لي في بيت الراعي أربُّ إلا أنه يفسّر الرجز المنسوب للبيد بن ربيعة رضي الله عنه، الذي عاش أطول عُمره وقال أكثر شعره في الجاهلية³.
فهذه الكناية النبوية (أشير إليه بالأصابع) من الاختراع ولم أعثر على أنها قيلت قبل، وبيت لبيد الذي يُحتمل أنه سابقٌ ليس في هذا المعنى، والله أعلم.
وفي ختام هذا المبحث نخلص إلى أن التجسيم ظاهرة كنائية نظرياً لكونها تعبير باللائم الحسي عن الملزوم المعنوي، وعملياً من خلال النماذج الوافرة المتنوّعة التي مررنا بها وهي نماذج تنبئ عما وراءها على كلّ حال.

¹ - ينظر : الأمالي ، أبو علي القالي 2 / 327 ، المخصص ، ابن سيده 5 / 125 ، 2 / 172 ، ولم أجده ذكر في المحكم 1 / 455 إلا حسن الأثر .
² - قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم 6 / 154 : " سميت (أي السبابة) بذلك؛ لأنهم كانوا يشيرون بها عند السب ".
وروى الطبراني في الكبير (حديث من اسمه هند) 22 / 155 ، والبيهقي في شعب الإيمان 2 / 154 ، من حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان إذا أشار أشار بكفه كلها ، وفي الإسناد راوٍ مبهم (ينظر كذلك مجمع الزوائد ، الهيثمي 8 / 278) ، وعلى ضعفه فإن فيه دلالة على وجود هذه القيمة الأدبية عند العرب ، وهي الإشارة باليد كلها ، قال الشيخ عبد الله سراج الدين في كتابه محمد رسول الله ، ص 320 : " أشار بكفه كلها ، ولا يقتصر على الإشارة ببعض الأصابع لأنه شأن المتكبرين والمحتقرين لغيرهم " .

³ - ينظر : الإصابة ، ابن حجر 5 / 675 .

وتبيّن نظرياً وعملياً أن التلاحم في التجسيم الكنائي بين الشكل والمضمون يبلغ الذروة بسبب إرادة كلّ من اللازم والملزوم معاً وهي خاصة الصورة الفنية الكنائية عموماً.

وتبين أن أكثر التجسيم الكنائي بصري يدرك بحاسة البصر ، مع وجود الصور السمعية واللمسية وغيرها من المحسوسات وجوداً غير ظاهر من جهة أنه لا مناص من عبورها حاسة البصر أولاً إلا في حديث ((أسمع فيه صرير الأفلام)) الذي سيأتي¹ فالصورة فيه سمعية محضة والأثر البصري خافت .

وهذه خصوصيات في الكناية وفي التجسيم ، أما الخصوصية النبوية فظهرت في تمكن الكناية التجسيمية في مكانها من الحديث ، وفي ملائمة الإيقاع لها، ثم ملائمتها لسائر الحديث على وجه ظهر فيه التفوق على بلغاء البشر، وفي جدتها مع كثرة الاختراع فيها وتأثر الأدب العربي بها تأثراً واضحاً مع قصوره عنها .

المبحث الثالث

التشخيص في الكنايات النبوية

المطلب الأول : تعريفه التشخيص وأقسامه

أولاً- تعريف التشخيص :

الشخص لغة كل جسم له ارتفاع وظهور ، وسواد الإنسان إذا سما لك من بعد².

¹ - انظره ص 256.

² - ينظر : معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس (شخص ، 3 / 254) .

والتشخيص في اصطلاح النقد الحديث : "إبراز الجماد أو المجرد من الحياة من خلال الصورة بشكل كائن حي متميز بالشعور والحركة والحياة"¹.

وهو بهذه الصفة موجود في التراث العربي ، قال الشيخ عبد القاهر يمدح الاستعارة : " فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً ..."².

أمّا كلمة التشخيص فاستعملت بمعنى التعيين عند بعض العلماء قديماً وحديثاً³، لكنّ ومضاتٍ أبرقت هنا وهناك في ثنايا كلامهم تُقدِّم التشخيص بالمعنى الذي تعورف عليه اليوم ، لعلّ أقدمها كلام ابن سيده (- 458هـ) تعليقاً على بيت المتنبي :

وما الموتُ إلا سارقٌ دقَّ شخصه يصُولُ بلا كفٍّ ويسعى بلا رجلٍ⁴
قال : " قوله (دق شخصه) كلامٌ شعري ؛ لأن الموت عرض والعرض لا يُشخّص، إنما التشخيص للجواهر . وقد يُتجوّز بالعرض المحسوس كالحمرة والصفرة ، فأما الأعراض النفسانية فلا تُشخّص ، وسوّغ ذلك قوله فيه (سارق)؛

¹ - المعجم الأدبي ، جبور عبد النور ، ص 67 .

² - أسرار البلاغة ص 43 ؛ دلائل الإعجاز ص 62 ، 63 .

³ - قال القزويني في الإيضاح في علوم البلاغة ص: 134 : " وأما (من) فقال السكاكي هو للسؤال عن الجنس من ذوي العلم ... وقيل : هو للسؤال عن العارض المشخّص لذي العلم وهذا أظهر ؛ لأنه إذا قيل : من فلان ؟ يجاب بزيد ونحوه مما يفيد التشخيص ولا نسلم صحة الجواب بنحو بشر أو جني كما زعم السكاكي " .

وقال الإمام السيوطي في شرح سنن ابن ماجه ص: 88 : " أما لعن الحيوانات على التشخيص فغير جائز " .

وحديثاً قال الشيخ متولي الشعراوي رحمه الله مع شهرته بالمتابعات الأدبية : " إن ما حدث لمريم مسألة خاصة بها ولن تحدث بعدها أبداً في بنات آدم لذلك عيّنها وشخّصها ؛ لأن التشخيص ضروري في مثل هذا الموقف . أما حين يترك المثل أو القصة دون تشخيص فهذا يعني أنها صالحة لأن تتكرر في أيّ زمان أو في أيّ مكان، كما رأينا في قصة أهل الكهف " تفسير الشعراوي 22 / 93 .

⁴ - ديوان المتنبي بشرح العكبري 3 / 48 .

لأن السارق لا يكون إلا شخصاً، فلما نسب إليه صفة لا تكون إلا في الجواهر ، وهو السرقة استعار له التشخيص¹.

وأجملها وألصقها بما نحن فيه ما جاء في شرح حديث ((تُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ فَتَقُومَانِ جَنْبَيْ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا))²، حين قال الإمام النووي: "وأما إرسال الأمانة والرحم فهو لعظم أمرهما وكبر موقعهما، فتصوّران مشخصتين على الصفة التي يريدّها الله تعالى"³.

فانظر إلى قوله (فتصوّران مشخصتين) واعتبره بالتعريف الحاضر تجد سبقاً بيّناً .

ثانياً- أقسام التشخيص :

يقسم بحسب التعريف إلى تشخيص الجماد وتشخيص المجرد ، ففي الأول يُمنح الجسم الجامد الذي لا حياة فيه شيئاً من لوازم الحياة ، وفي الثاني يُمنح لازم الحياة للمعنى المجرد بأن يُجسّم أولاً ثم يُشخّص .

ولوازم الحياة الشعور والحركة ذات القصد والصفات الخاصة بالأحياء فيمكن أن ينوّع التشخيص بحسب تنوع اللوازم فيقال: تشخيص بالمشاعر وتشخيص بالأفعال وتشخيص بالصفات . وقد يجتمع أكثر من نوع على الموضوع المشخّص .

المطلب الثاني : منزلة التشخيص من الكنايات النبوية

¹ - شرح المشكل من أبيات المتنبي 1 / 89 .

² - انفرد به من الستة مسلم في الإيمان (أدنى أهل الجنة منزلة فيها) 195، عن أبي هريرة وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما مرفوعاً .

³ - شرح النووي على مسلم 3 / 72.

إن التشخيص لا يشكّل ظاهرة في الكناية على العموم؛ إذ يرادُ فيها اللازم والملزوم معاً على وجه الحقيقة، والتشخيص لا ينفكُّ عن استعارة . نعم يكون التشخيص ظاهرة في الكناية غير المستقلة وهي التي تدخل في الاستعارة المكنية ، فإن السكوت فيها عن المشبّه به - إن كان من الأحياء - والتكنية عنه بأحد لوازمه تشخيص ، لكن الاستعارة المكنية ليست من بحثنا لكونها لا تستقلُّ بنفسها ، ومثال ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي الذي اشتهر مثلاً للاستعارة بالكناية:

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ¹

فالمنيّة شُبّهت بوحش ذي أظفارٍ واختيار فحُذِفَ الوحش وكني عنه بلازمه، فهي كناية استُعيرت للمنية لكنها لولا المنيّة لم تكن شيئاً فخرجت عن بحثنا لذلك.

على أن التشخيص يمكن أن يُرى في كناية كاملة مستقلة إذا كانت الاستعارة التي احتضنت التشخيص عنصراً فيها ، فشأنه في الكناية قليلٌ خلافاً لشأن التجسيم الذي مرّ .

وينضمُّ إلى ذلك قلة وروده في الحديث عموماً لكونه نصّاً دينياً يتبع شكله مضمونه ويلحُّ على أن الطبيعة مسخرة للإنسان غير مكافئة له .

وما جاء في الحديث من تشخيص المعاني أكثره من الشخوص الغيبية التي تتعلق بأحوال الآخرة ممّا تبدّل فيه القوانين أصلاً فلا يبعدُ أن تتمثل فيه المعاني شخوصاً حقيقية ، وأما ما جاء فيه من تشخيص الجمادات فقائم على أصل التشبيه من غير تقمّص أو توحد أو تجسّد ، ومن هذا الباب تسمية الجمادات لتصعيد روح الألفة بينها وبين أصحابها كتسمية السيف بذي الفقار .

¹ - ديوان أبي ذؤيب الهذلي ص 147.

والغرض الآن التمثيل لقسمي التشخيص من الكنايات النبوية تشخيص الجماد وتشخيص المجرد، فأعين موضع التشخيص من الكناية وجماله وملاءمته للسياق العام وسائر ما يبرز الجمال الفني ، مع النظر في جذة الكناية .
أولاً- تشخيص الجماد :

من ذلك ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَدْلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهُ خَالِيًا فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ))¹ .

ونحن في قوله: (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) في معناه أقوال حكاها الحافظ ابن حجر²، أقربها أنها من مجاز التشبيه أي لو تصورنا أن الشمال تعلم لما علمت ما فعلت اليمين ، والثاني أنها من مجاز الحذف أي حتى لا يعلم ملك شماله أو حتى لا يعلم مجاور شماله من الناس ، والثالث - وهو أبعدا - أن المراد

¹ - البخاري في الزكاة (الصدقة باليمين) 1423 ، ومسلم في الزكاة (فضل إخفاء الصدقة) 1031 ، والترمذي في الزهد (ما جاء في الحب في الله) 2391 ، والنسائي في آداب القضاة (الإمام العادل) 5380 .

لكن الإمام مسلماً رواه عن زهير بن حرب ومحمد بن المثنى (بندار) عن يحيى بن سعيد القطان مقلوباً : ((حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله)) ورواه البخاري عن بندار ومسدّد عنه صحيحاً ، بل وترجم البخاري لرواية مسدّد بباب الصدقة باليمين .

قال الحافظ ابن حجر: " ووقع في صحيح مسلم مقلوباً ... لأن السنة المعهودة في الصدقة إعطاؤها باليمين وقد ترجم عليه البخاري في الزكاة : باب الصدقة باليمين " فتح الباري 2 / 146 .
واشتهر هذا مثلاً للمقلوب في المتن ، ينظر: تدريب الراوي، السيوطي 274/1 .

² - ينظر : فتح الباري 2 / 147 .

بشماله نفسه وكذا يمينه من باب تسمية الكل باسم الجزء مجازاً مرسلاً ، فلا تعلم نفسه ما تنفق نفسه .

ويعني بمجاز التشبيه الاستعارة، فقد شُبِّهَت الشمال بذي علم والعلم من لوازم الشخص العاقل فحذف المشبه به وكني عنه ببعض لوازمه وهو العلم في طريقة تسمى الاستعارة المكنية أو الاستعارة بالكناية، فالاستعارة فيها تقوم على عنصرين متمايزين مترابطين: التشبيه والكناية .

وأما إسناد النفقة إلى اليمين فيسوغ اعتباره مجازاً عقلياً لأنه إسناد فعلٍ إلى غير ما هو له، ويسوغ جعله من الاستعارة بالكناية لأنَّ فيها تشبيهاً لليد بحَيٍّ ذي مال وإرادة حُذِفَ وكني عنه بلازمه وهو الإنفاق، وأمثال هذه الصورة دفعت السكاكي إلى إنكار المجاز العقلي أصلاً واعتباره في قسم الاستعارة بالكناية¹.

فتحصّل لدينا استعارتان بالكناية في كلٍّ منهما تشخيص، ثم كناية بالاستعارتين معاً عن المبالغة في الإخفاء .

وكان لا بد من هذا البحث البلاغي لئلا تلبس الاستعارة بالكناية فهما شيئان مختلفان وإن أسهمت الكناية في تشكيل استعارة ثم أسهمت الاستعارة في تشكيل الكناية المدروسة.

إنَّ إسناد العلم والنفقة إلى اليدين تشخيصٌ بالصفات والأفعال وتشخيص باطني وخارجي .

وفي عموم الكناية توصيف دقيق للحالة النفسية وللقوتين الخير والشر ، فقوّة الخير مقدّامة إيجابية فعالة لا تزال في عمل دؤوب تعبر عنه صيغة المضارع تنفق ، وقوة الشر سلبية منفعة عملها الرصد والتربّص بقوة الخير لتعلم ما تفعله ، فيكون عملها السلبي هذا مثبّطاً بحد ذاته ومُقْعِداً عن بلوغ الرتب في حال أعاره الإنسان عيناً أو رفع به رأساً.

¹ - ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ، القزويني ص: 35 .

على أن أعجب ما في هذا التشخيص أنه لا يتم إلا بتجريد ، فليس عندنا إنسان ولكن يَدان تُسب إليهما العلم والنفقة اللذين جُردَ منهما صاحب اليدين، وفي التشخيص من جانب والتجريد من جانب آخر فائدة لا تُضاهى أصبحت اليوم باباً في علم التربية والسلوك الاجتماعي عنوانه: أخرج نفسك من الصندوق¹، فملتصِّق بتجرُّده صار الآن خارج الصندوق يشاهد من علٍ ويتأمل مع النظارة مشهداً مسرحياً بطلاه شخصان يمينٌ وشمال وهذا يعني إدراكاً كلياً متكاملًا للموقف .

ولكلمة (تنفق) دلالة معنوية بالإضافة لدلالاتها اللغوية، لا تقوم لها كلمة تعطي ولا تصدِّق ولا تبدل ولا مثيلاتها في هذا المقام ؛ فالنون والفاء والقاف أصلان صحيحان، يدلُّ أحدهما على انقطاع شيءٍ وذهابه، والآخر على إخفاء شيءٍ وإغماضه، ومن الأول النفقة ومن الثاني النفق (سَرَبٌ في الأرض له مَخْلَصٌ إلى مكان)، قال ابن فارس : "ومتى حُصِّل الكلامُ فيهما تقارباً"².

وقد حُصِّل الكلام فيهما في الحديث فنفقة اليمين تذهب في نفقٍ معنوي من السريّة والكتمان حتى لا تعلم الشمال ما يجري في باطن هذا النفق إلى أن تَخْلُصَ فتقع في يد فقير، و(تَخْلُصَ) فتقع عند الله بمكان .

وأخيراً فإن الإعطاء والإخفاء كانا في الماضي لكن الغاية كلّها جاءت في المضارع لبيان أنها قاعدة في عمل المسلم أن يستمر في النفقة باليمين ويستمر في حجب علمها عن الشمال ، ونستمر نحن أيضاً في رؤية هذا المشهد من خلال شاشة الحديث .

ثانياً- تشخيص المجرد :

¹ - ينظر: التفكير من خارج الصندوق ، مايك فانس و ديان ديكون، ص : 6.

² - مقاييس اللغة (نفق ، 5 / 454) .

في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال :
 ((حَلَقَ اللَّهُ الْخُلُقَ فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ فَقَالَ
 لَهُ¹: مَهْ. قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ
 وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ. قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَذَاكَ))².

موضع الكناية (فأخذت بحقو الرحمن): وهي كناية عن الاستجارة، فيها
 تشخيص للرحم التي هي في الأصل معنى مجرّد.

والحديث صحيح رواه البخاري ومسلم ، ومداره على معاوية بن أبي مزّرّد.
 لكن هذا اللفظ (فأخذت بحقو الرحمن) لم يروه إلا خالد بن مخلّد عن سليمان

¹ - كذا الرواية (له) ، والمعنى قال لهذا الشيء من الخلق .

² - رواه من الستة البخاري ومسلم ، وهذا لفظ البخاري.

ومدار الحديث على معاوية بن أبي مزّرّد يرويه عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه .
 وبهذا اللفظ (فأخذت بحقو الرحمن) رواه البخاري في تفسير القرآن (وتقطّعوا أرحامكم)
 4832 ، عن خالد بن مخلّد عن سليمان بن بلال عن معاوية بن أبي مزّرّد . وبدونها رواه في التوحيد
 (قول الله تعالى يريدون أن يبدلوا كلام الله) 7502 عن إسماعيل بن أبي أويس عن سليمان بن
 بلال عن معاوية ، وفي الأدب (من وصل وصله الله) 5987 من طريق عبد الله بن المبارك عن
 معاوية .

ورواه مسلم في البر والصلة والآداب (صلة الرحم وتحريم قطيعتها) 2554 ، من طريق حاتم بن
 إسماعيل عن معاوية بدونها أيضاً .

إذاً تفرّد بالزيادة خالد بن مخلّد عن سليمان عن معاوية ، وخالد وهو القطّواني أبو الهيثم الكوفي
 " صدوق يتشيع ، وله أفراد . من كبار العاشرة... /خ م ك د ت س ق " . تقريب التهذيب، ابن
 حجر 190/1

لكن هذه الزيادة رواها الإمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة (مسند أبي هريرة) 8349
 عن أبي بكر الحنفي عن معاوية بن أبي مزرد ، وأبو بكر هو عبد الكبير بن عبد المجيد بن عبيد الله
 البصري " ثقة من التاسعة ، ... /ع " . تقريب التهذيب 360/2 .
 فالراجح قبول هذه الزيادة وصحتها .

بن بلال عن معاوية عند البخاري ، وأبو بكر الحنفي عن معاوية في مسند الإمام أحمد . وأبو بكر ثقة كما بيّنت في التخرّيج .

فالزيادة صحيحة ، ويرجح كفتها احتمال أنّ من لم يروها إنما فعل ذلك تحرّجاً وظناً منه أنها لا تؤثر في المعنى واكتفى بقوله (هذا مقام العائذ بك) باعتباره يقوم مقام (فأخذت بحقو الرحمن) ويغني عنها ، وحكي نحو هذا عن أبي زيد المروزي راوي البخاري عن الفربري ، قال ابن حجر : " قال القابسي : أبي أبو زيد المروزي أن يقرأ لنا هذا الحرف لإشكاله "¹

وروي حديث أبي هريرة رضي الله عنه من وجه آخر بلفظ: ((تعلّقت بحقوي الرحمن))²، وهو بمعنى أخذت بحقو الرحمن .

¹ - فتح الباري 580/8 .

² - رواها الطبراني في الأوسط (حديث هاشم بن مرثد) 9317 ، والطبري في تهذيب الآثار (الجزء المفقود) ص 135، من طريق أبي جعفر الرازي عن عبد الله بن دينار عن بشير بن يسار عن أبي هريرة. قال الطبراني : "لم يرو هذا الحديث عن عبد الله بن دينار عن بشير بن يسار إلا أبو جعفر الرازي" .

قال ابن حجر : " مشهور بكنته، واسمه عيسى بن أبي عيسى عبدالله بن ماهان، وأصله من مرو وكان يتجر إلى الري صدوق سيء الحفظ، خصوصاً عن مغيرة، من كبار السابعة .. / بخ 4" تقريب التهذيب 629/2.

قال ابن معين: ثقة وهو يغلط فيما يروي عن مغيرة - أي ابن مقسم- ، وقال أبو حاتم الرازي: ثقة صدوق صالح الحديث ، وقال ابن عدي: روى عنه الناس وأحاديثه عامتها مستقيمة وأرجو أنه لا بأس به. وعن الإمام أحمد: صالح الحديث، وعن ابن المديني فيه ضعف ، وعن النسائي : ليس بالقوي، وعن ابن خراش : صدوق سيئ الحفظ ، وعن ابن حبان أنه ينفرد عن المشاهير بالمناكير، قال: لا يعجبني الاحتجاج بحديثه إلا فيما وافق الثقات.

ينظر: تاريخ ابن معين برواية الدوري 4 / 358؛ الجرح والتعديل ، ابن أبي حاتم 6 / 280؛ الكامل في الضعفاء ، ابن عدي 5 / 254؛ تهذيب التهذيب، ابن حجر 503/4 .

وحديثه هنا ليس عن مغيره ، ويحتمل أن تكون (تعلّقت بحقوي الرحمن) روايةً بالمعنى لأخذت بحقو الرحمن.

والرَّحِمَ رَحِمَ المرأة والرحم القربة .

قال الخليل بن أحمد: "الرَّحِمُ : بَيْتٌ مَنَبِتُ الْوَلَدِ وَوَعَاؤُهُ فِي الْبَطْنِ . وَبَيْنَهُمَا رَحِمٌ أَيْ قَرَابَةٌ قَرِيبَةٌ"¹. ولم يذكر أي الأمرين كان الأصل في تسمية الآخر .
ثم إن منهم من جعل الرحم الذي في بطن المرأة أصلاً في تسمية القربة رحماً ،
قال الراغب الأصفهاني في مفرداته بعد أن ذكر رحم المرأة : " ومنه استعير الرحم للقربة لكونهم خارجين من رحم واحدة "².
وهو المشهور ³.

ومنهم من عكس ذلك فجعل الرحم التي هي القربة أصلاً في تسمية الرحم الذي في بطن المرأة، وأما الرحم التي هي القربة فأصلها من الرحمة ، قال ابن فارس : " الراء والحاء والميم أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الرِّقَّة والعطف والرأفة. يقال من ذلك رَحِمَهُ يَرَحِّمُهُ، إِذَا رَقَّ لَهُ وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ. وَالرُّحِمُ وَالْمَرْحَمَةُ وَالرَّحْمَةُ بِمَعْنَى.
وَالرَّحِمُ: عَلاَقَةُ الْقَرَابَةِ، ثُمَّ سَمَّيْتُ رَحِمُ الْأُنْثَى رَحِمًا مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّ مِنْهَا مَا يَكُونُ مَا يُرَحَّمُ وَيُرَقَّ لَهُ مِنْ وَلَدٍ "⁴.

وحديث ((أنا الرحمن، خلقتُ الرحمَ، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته))⁵ يدلُّ لما قاله ابن فارس حيث جعل اشتقاق الرحم من الرحمن الذي هو فعلاان من الرحمة¹، لا استعارة من رحم المرأة ، والله أعلم .

¹ - العين ، الخليل الفراهيدي ، (رحم ، 3 / 224) .

² - المفردات في غريب القرآن ص 191 .

³ - ينظر : لسان العرب، ابن منظور (رحم، 12 / 230) ؛ أنيس الفقهاء ، القونوي ص 302؛ التعاريف، المناوي ص 360.

⁴ - معجم مقاييس اللغة (رحم ، 2 / 498) .

⁵ - من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه سبحانه وتعالى .

والحقو بالفتح والكسر الكشح والخصر، واستعمل مجازاً عن الإزار أو معقده²، وهو الموضع الذي يستجار به على عادة العرب؛ لأنه من أحق ما يحامى عنه ويُدفع .

قال الإمام البيهقي في شرحها : " معناه استجارت بالله و اعتصمت به، كما تقول العرب تعلقتُ بظل جناحه أي اعتصمت به . و قيل: الحقو الإزار، وإزار الله -عز وجل - عزه، ومعناه أنه موصوف بالعز، فاستعازت الرحم بعز الله من القطيعة و لاذت به "³ .

وقال القاضي عياض: " استعير هذا الكلام للاستجارة يقال : عدت بحقو فلان، أي : استجرت به . لما كان من يستجير بآخر يأخذ بثوبه وإزاره فهو في حق الله تعالى بهذا المعنى والله تعالى مُنَزَّهٌ عن المشابهة بخلقه "⁴ .

وهذا الأخذ والقيام والكلام بالنسبة للرحم هو كما قال الحافظ ابن حجر : " يحتمل أن يكون على الحقيقة والأعراض يجوز أن تتجسد وتكلم بإذن الله . ويجوز أن يكون على حذف ، أي : قام ملك فتكلم على لسانها .

ويحتمل أن يكون ذلك على طريق ضرب المثل والاستعارة، والمراد تعظيم شأنها وفضل واصلها وإثم قاطعها "⁵ . قاله الحافظ ابن حجر ثم شرح الاستعارة بأنه شبه حالة الرحم وما هي عليه من الافتقار إلى الصلة والذب عنها بحال

رواه الترمذي في البر والصلة عن رسول الله (قطيعة الرحم) 1907، وقال صحيح ، وأبو داود في الزكاة (في صلة الرحم) 1694 ، والحاكم في مستدركه في كتاب البر والصلة 173/4 وما بعدها ، وصححه، ووافقه الذهبي .

¹ - الاشتقاق ، ابن دريد ص 58.

² - لسان العرب ، ابن منظور (حقا، 14 / 189) .

³ - شعب الإيمان 6 / 214 .

⁴ - مشارق الأنوار على صحاح الآثار 1 / 411 .

⁵ - فتح الباري 8 / 580 .

مستجيرٍ يأخذ بحقو المستجار به، ثم أسند إليها على سبيل الاستعارة التخيلية¹ ما هو لازم للمشبه به من القيام فيكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة.

وأخذ الرحم بحقو الرحمن من المتشابه²، وذكر الإمام البيهقي في الأخذ بحقو الرحمن أنه يحتمل أن يكون معنى الحقو العرش، قال: "فقد روي في هذا الخبر أنه قال: الرحم

¹ - الاستعارة التخيلية أن يستعار لفظ دال على حقيقة خيالية تقدر في الوهم، ثم تردف بذكر المستعار له إيضاحاً لها وتعريفاً لحالها . وهي قرينة للاستعارة المكنية . ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني ص 290؛ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب ص 91.

² - ينظر: الكواكب الدراري شرح صحيح البخاري، الكرمانى 92/ 18؛ التوشيح على صحيح البخاري، السيوطي، 7/ 3032.

فالمذهب المنسوب للسلف فيها الإمرار وتنزيه الله عن الجارحة (السنة ، عبد الله بن أحمد بن حنبل ، 264/1؛ التبصير في معالم الدين ، الطبري ص142؛ الإبانة، ابن بطة العكبري 3/ 326؛ إبطال التأويلات لأخبار الصفات ، أبو يعلى الفراء 2/ 420؛ المجموع المغني في غريب القرآن والحديث ، أبو موسى المديني 1/ 405؛ جامع العلوم والحكم ، ابن رجب ص37؛ درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية 5/ 363؛ العلو للعلي الغفار، الذهبي (139) مع غموض أو مبالغة في عبارات بعضهم.

وللخطابي مذهب يميز ما ثبت منها بطريق الأحاد عما ثبت ببالواتر (إعلام الحديث 4/ 1911) وعليه فينبغي أن يؤول صفة الحقو ، وكذلك حكى عنه الكرمانى (أقاويل الثقات 1/ 183).

والمذهب المنسوب للخلف تأويل الحقو على ما يليق (أساس التقديس، الرازي ص69؛ المواقف، العضد الإيجي ص 416؛ وعليه جماهير المتكلمين ينظر: الآمدي وآراؤه الكلامية، د. حسين الشافعي ص 235).

ويجمع بينهما بالإمرار فإن احتيج إلى التأويل فُعل مع التنزيه في الحالين (الأسماء والصفات، البيهقي 2/ 385؛ إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل ، بدر الدين بن جماعة ص 192، الباجوري على جوهرة التوحيد، ص 216؛ الحصون الحميدية ؛ حسين الجسر ص 38؛ العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم ، محمد أبو زهرة ص 29؛ كبرى اليقينيات الكونية، د. البوطي ص 138؛ السلفية مرحلة زمنية مباركة.. ، د. البوطي (132).

ويحتمل أن يلتقي في الكناية وفق مصطلحها المستقر إثبات الصفات إمراراً وتنزيهاً بلا تكييف مع تحصيل الفائدة والثمرة من النص، وهذه الثمرة التي كانت تقع في قلوب السلف مع امتناعهم عن التكييف هي ما كان المؤلفون ينتهون إليها عند تأويل النصوص فإذا قلنا "أخذت بحقو الرحمن" كناية عن الاستجارة فالاستجارة ملزوم وتعلّقها بالرحم لازم دلّ عليه من غير كيف حيث إن الخوض في الكيف ليس من شرط اللازم في الكناية. وهي مسألة عرضتها في بحث لي بعنوان : " الجوانب العقدية والبلاغية في حديث أخذ الرحم بحقو الرحمن " أحييز للنشر بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت بتاريخ 12 / 4 / 2011، رقم 357، آملاً أن ينشر قريباً.

مُعلَّقةٌ بالعرش¹. وذكر نحوه الشيخ ملا علي القاري فقال: "ولا يبعد أن يقال: التقديرُ بحَقْوَى عرش الرحمن، أي: بطرفيه أو أطراف ذيله، مترددة من جانب إلى جانب، كما يدلُّ عليه حديث عائشة الآتي : الرحم مُعلَّقة بالعرش²."

والحديث الذي يعنيه ما روته عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((الرَّحْمُ مُعلَّقةٌ بِالْعَرْشِ ، تَقُولُ : مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ))³. وهو حديث صحيح رواه البخاري ومسلم ومداره على معاوية بن أبي مزرَّة، وهذا

¹ - شعب الإيمان 6 / 214 .

² - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 8 / 126.

³ - البخاري ومسلم واللفظ له ، ومداره على معاوية بن أبي مزرَّة عن يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة رضي الله عنها :

- رواه مسلم ، في البر والصلة والآداب (صلة الرحم وتحريم قطيعتها) 2555 . قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب - واللفظ لأبي بكر - قالوا: حدثنا وكيع عن معاوية بن أبي مزرَّة.. اللفظ المثبت وفيه: معلقة بالعرش.

- والبخاري في الأدب (من وصل وصله الله) 5989 من طريق سليمان بن بلال عن معاوية... قَالَ: ((الرَّحْمُ شُجْنَةٌ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَتْهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَتْهُ)). بدون (معلقة بالعرش) .

- ورواها الإمام أحمد في المسند ، باقي مسند الأنصار ، حديث عائشة 23815 ، عن وكيع عن معاوية .. بلفظ: ((الرَّحْمُ مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ)) . بدون (معلقة بالعرش) .

ويروى هذا اللفظ ((الرحم شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ)) من حديث أبي هريرة وابن عمرو وغيرهما ..

- فمن حديث أبي هريرة : رواه البخاري في الأدب (من وصل وصله الله) 5988 ، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ الرَّحْمَ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ . فَقَالَ اللَّهُ مَنْ وَصَلَكِ وَصَلَتْهُ وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعَتْهُ)) .

- من حديث عبد الله بن عمرو : رواه الترمذي في البر والصلة عن رسول الله (ما جاء في رحمة الناس) 1924 ، عن ابن أبي عمر العدني عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً حديث الراحمون يرحمهم الرحمن ، زاد في آخره : ((الرَّحْمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ)) قال : حديث حسن صحيح.

وبهذه الزيادة رواه الإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة (مسند عبد الله بن عمرو ابن العاص) 6458 ، عن سفيان بن عيينة .

لكن أبا داود رواه في الأدب (في الرحمة) 4941 ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ومسدد المعنى قالوا: حدثنا سفيان ... دون الزيادة المذكورة. والراجح الزيادة لتصريح أبي داود بأن روايتهما عن سفيان بالمعنى .

اللفظ (معلقة بالعرش) عند مسلم ، وما قيل في (أخذت بحقو الرحمن) يقال هنا أيضاً من حيث إنها زيادة ثقة وأن من أسقطها يحتمل أنه إنما فعل ذلك تحرجاً وتجنباً للإشكال ظناً منه أنها لا تؤثر في معنى الحديث والمقصود منه .

والصلة بين الحديثين حديث أبي هريرة وحديث عائشة ، ولا سيما أنهما يدوران على راوٍ واحد هو معاوية بن أبي مزرد ، وربما تبادر إلى الذهن أن تكون (معلقة بالعرش) من قبيل (أخذت بحقو الرحمن)، فهذا قولٌ حكاه الإمام البيهقي ولم يستبعده الشيخ ملا علي القاري .

واختاره الدكتور أحمد ياسوف ليني عليه في دراسته للصورة الفنية في الحديث الشريف ، فقال في (معلقة بالعرش) : "ولا شك أن التعليق صورةٌ تستعطف القلوب وتستميلها وتثير فيها الحنان؛ لأنها تدلُّ على حركة تتطلب الإغاثة، فإما الخير وإما الشر. واتصالها بالعرش يعطيها مهابة عظيمة ، فهي ذات حركة تحتاج إلى تدبر سريع وملاحقة الأمر؛ لأن التعليق غير دائم، أو لا يُقصد به الاستمرار" ¹.

والذي أراه أن التعليق في حديث عائشة (معلقة بالعرش) غير التعلق والأخذ في حديث أبي هريرة (تعلقت بحقو الرحمن) ، وإليك البيان :

1- الرحم في حديث أبي هريرة فاعلٌ (تعلقت) وفي الآخر نائب فاعله حيث جاء اللفظ بصيغة اسم المفعول (معلقة) والتمكين في الاسم أكثر منه في الفعل ولا سيما إذا كان الاسم منوَّناً والفعل ماضياً². فالحركة في أخذت أو تعلقت تستعطف القلوب وتتطلب الإغاثة العاجلة ، لكنها في (معلقة) مطمئنة واثقة .

والشجنة قرابة مشتبكة كاشتباك العروق وفيها لغتان الضم والكسر، و الشين والجيم والنون أصلٌ واحدٌ يدلُّ على اتصال الشيء والتفافه (مقاييس اللغة، ابن فارس، شجن ، 3 / 248؛ غريب الحديث، ابن الجوزي 1 / 521).

فإضافتها إلى الرحمن مجازٌ كما قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري 1 / 137 ، أو المقصود اشتقاق اسمها من اسم الرحمن ، كما قال المناوي في فيض القدير 4 / 53.

¹ - الصورة الفنية في الحديث النبوي ص 451 .

² - ويسمى تنوين التمكين، ينظر: مغني اللبيب، ابن هشام 1 / 445؛ شرح ابن عقيل 1 /

2- انتهى حديث أبي هريرة (تعلقت بحقو الرحمن) وحُلَّت الأزمة بقبول الله سبحانه وتعالى لجوءَ الرحم إليه ومنحها الأمان العظيم : (أن أصل من وصلك وأن أقطع من قطعك) ، أما في حديث عائشة فالرحم هي التي تقول : من وصلني وصله الله.. الخ إخباراً بما أعطاه الله من العهد أو دعاءً بصيغة الماضي كأنما قد أُجيب .
فأحسبُ أن الحديثين يمثلان حالين مختلفين للرحم فهي في الأول خائفة مستجيبة ، وفي الثاني واثقة مطمئنة في جوار ربها، والله تعالى أعلم .

وهذه الكناية (الأخذ بحقو الرحمن) من الاختراع ، ولا ريب أنَّ الحالة الشعورية المجسَّمة في حركة تعلُّقٍ بالإزار كانت قبلُ ولكن لم يسجِّلها العرب أولم يحسنوا التعبير عنها حتى جاء الحديث.

وكتبُ اللغة والمعاجم تتناقل بيتين في شرح هذه العبارة من غير نسبة ، أحدهما :
سَمَاعُ اللَّهِ وَالْعِلْمَاءِ أَنِّي أَعُوذُ بِحَقِّ خَالِكِ يَا ابْنَ عَمْرٍو¹
والثاني :

وَعُدْتُ بِأَحْقَاءِ الرِّئَاقِ بَعْدَمَا عَرَكْتُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا²
وهما إسلاميان كما هو ظاهر، فالأصل ما جاء في الحديث كنايةً ثم صار مثلاً يتداوله الشعراء. ومن أشهر ما قيل بعدُ قول أبي تمام (-231هـ) :
ولاذت بحقوقه الخلافةُ والتقت على خدرها أرمأحه ومناصله³
وللبحتري (-284هـ) أخذاً منه :
لاذت بحقوقه الخلافة ؛ إنها قِسْمٌ لأفضل هاشمٍ فالأفضل⁴
وابن الرومي (-284هـ) استعملها في أربعة مواضع من ديوانه¹:

¹ - من شواهد سيبويه في الكتاب 1 / 340 ، وذكره ابن منظور في لسان العرب (حقاً ، 14 / 189).

² - ذكره الأزهري في تهذيب اللغة (حقاً ، 5/124) ، وابن منظور في اللسان (حقاً ، 14 / 189).

³ - ديوان أبي تمام 3 / 26 ، والثفال جلد يوضع تحت الطحين إذا عركته الرحى وقاية له من التراب ، لسان العرب (ثفل ، 11 / 84) .

⁴ - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري 2/338.

ظلمت حاجتي فلاذت بحقوي لك فأسلمتها بكفّ القضاء
وهم لا تذون مني بحقوي لك وشيطانهم ذلول زكوب
أعوذ بحقويك العزيزين أن أرى مُقِرّاً بضيم يترك الوجه حالكا
أنا بالله عائدٌ وبحقوي لك وآلاء كِفِّكَ المسؤولة

ومع كون الأصل في هذه الكناية ما جاء في الحديث على ما تعارف الناس من بيئتهم
عند الاستجارة واللهفة، وعند الاطمئنان في جوار الأعزّة، فإن الناسجين على منوالها
قصرُوا عنها؛ ذلك أن الرحم في الكناية النبوية جاءت مشحّنةً ألبست ثوب الإرادة
والشعور.

والرحم معنى، وثمرّة تشخيصها أن الناس مع اعتقادهم بالمعاني لا يحسبون لها الحساب
ولا يرون لها الحقّ الذي يروونه للأشخاص ذات الإحساس والتفكير . كلّ هذا لاستحياء
صلة الرحم بينهم وإنقاذهم من الغرق في لجّة الحياة فرادى .

وبالتشخيص تفضل البيتين اللذين نقلتهما المعاجم : "أعوذ بحقو خالك" ، و "عذتم
بأحقاء الزنادق" ، أما الكناية في بيتي أبي تمام والبحري فمع تشخيصهما للخلافة إلا أن
التكلف ظاهر فيهما من جهة أن مقام الخلافة بطبعه مقام قوة لا يحسن به الضعف
والاستجارة ، أما الرحم فخلقٌ مُستضعف سرعان ما يهمله الناس إذا غلبتهم الدنيا إقبالاً
أو إدباراً .

وأحسن ما قيل بعدُ بيتُ ابن الرومي "ظلمت حاجتي فلاذت بحقويك" مع كونها لم
تلد بحقويه حتى ظلمت، خلافاً للرحم التي لاذت بحقو الله ابتداءً والتي قد يكون
تشخيصها حقيقياً كما تبين من كلام الحافظ ابن حجر ، والله أعلم .

¹ - هي على الترتيب في ديوان ابن الرومي 1 / 71 ، 1 / 320 ، 5 / 1825 ، 5 / 2042

الفصل الثالث

اللون والحركة في الكناية النبوية

المبحث الأول : اللون في الكناية النبوية

المطلب الأول : الكنايات اللونية .

المطلب الثاني : الكنايات الملونة .

المبحث الثاني : الحركة في الكناية النبوية

المطلب الأول : الكنايات الحركية .

المطلب الثاني : الكنايات المتحركة .

المبحث الأول

اللون في الكناية النبوية

كنت أطمع في ابتداء هذا الأمر أن أقع على دور يقوم به اللون في تنشيط الكناية النبوية يحقق لها التكامل الفني، ويمكّنها في دارة النقد الحديث، فإذا باللون يتعاضم في كثير من الأحيان حتى يكون هو الكناية، لا عنصراً فيها . وتتبع من الأمثلة ما يجعلني أطمئن إلى نظرية لونية قائمة في مضمار الكنايات في الحديث الشريف مفادها أن اللون إذا صُرح به في الكناية كان هو هي، وإذا أُحسَّ بالتوقع أي بذكر أشياء يُعهدُ لوُحَا كان له أثرٌ ما في تنشيطها وتوسيع آفاقها .

فسمّيت الأول كنايات لونية باعتبارها مؤسّسةً على اللون، وسميت الثاني كنايات ملوّنة باعتبار اللون عنصراً داعماً فيها . ثم تمت النعمة بأن ما يُعاب على استخدام اللون في النقد الأدبي من الوقوع في ربط الألوان بالذكريات الخاصة والتجارب الشخصية¹ لم يكن له على كنايتنا سبيل ، لأنها ناشئة عن ملزومات كما هو تعريف الكناية . وأبدأ بذكر النظرة الأدبية إلى اللون قديماً وحديثاً وتحرير نظرة العرب إليها ، ثم أسوق الأمثلة من الكنايات النبوية متحسّساً أثر اللون فيها وخدمته للفكرة وانسجامه مع سائر الحديث ، ورجوت أني لم أقصر في الإفادة من كل ما يمكن أن يغنيَ الفكرة ويؤكد النظرية التي أعرضها .

¹ - ينظر : الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ، د. أحمد ياسوف ص 600 ؛ دراسات في علم النفس الأدبي ، د. حامد عبد القادر ص 111 .

المطلب الأول : الكنايات اللونية

وهي التي يُصرّح فيها باللون فيكون هو الكناية و الألوان في الحديث هي :

1 - اللون الأبيض :

يرمز الأبيض إلى الوضوح والنقاء والخير¹ والاحتفال والسرور إذ هو لون النور المستقيم غير المكسور ، والنور غذاء يتقوى به الجهاز العصبي عامة والعين خاصة².

ويقول الشريف الرضي: " كل أبيض في كلامهم واضح، يقولون وجه واضح إذا كان أبيض المحيا وجبين واضح وجيد واضح على هذا المعنى " ³.

ويبلغ الذروة في معانيه إذا اقترن بالأسود على وجه الطباق ، يقول الدكتور أحمد ياسوف : " ونتيجة للتعارض نحصل على شدة في البياض وشدة في السواد؛ لأن التعارض يقوي كلاً من الطرفين " ⁴.

ولا أجمل مما قاله مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّحِير - من كبار التابعين - " أن نبيَّ الله صلى الله عليه و سلم ائْتَرَزَ بِبُرْدَةٍ سَوْدَاءَ فَجَعَلَ سَوَادُهَا يَشُبُّ بِيَاضَهُ وَجَعَلَ بِيَاضُهُ يَشُبُّ سَوَادَهَا" ⁵.

¹ - ذكر الدكتور أحمد عمر مختار أن الأبيض مقترن عند معظم الشعوب بالطهر والنقاء، اللغة واللون ص 69.

² - ينظر : الألوان نظرياً وعملياً ، إبراهيم دملخي ص 11 ، 85 .

³ - المجازات النبوية ص 284 .

⁴ - الصورة الفنية في الحديث الشريف 614 .

⁵ - أخرجه النسائي في الكبرى ، في الزينة (لبس البرود) 9662 بإسناد رجاله ثقات ، ومطَرِّف بصري ثقة عابد فاضل من الثانية ، مات سنة خمس وتسعين / ع . بنظر : تقريب التهذيب، ابن حجر 534/2 .

قال الخطابي: " أي يزهاه ويجلوه " . غريب الحديث 282/1 .

وهذا وإن كان مرسلًا إلا أنه يدل على رَهافة حسٍّ عند السلف الأول تتعلق بالألوان. ويدل أيضاً على أن اقتران الأبيض بالأسود لا يعني بالضرورة ثنائية الخير والشر إذ هو لمطلق التمايز ، وفي هذه الحالة يتجلى الجمال في كل منهما ومن اجتماعهما معاً وهذا شبيه بحسن المداد الأسود على الصحيفة البيضاء ، قال القلقشندي (-821هـ) : " واعلم أن المداد ركن من أركان الكتابة وعليه مدار الربع منها .. قال بعض العلماء -رحمهم الله - وإنما اختير فيه السواد دون غيره لمصادته لون الصحيفة "1.

وفي الحديث الشريف يمثل الأبيض حالة كنائية أوسع طيفاً مما ذكر ، فيرمز إلى الشرف والكرامة والحبور الذي هو ارتفاع معنوي ، كما يرمز إلى العلو والارتفاع الحسي أيضاً .

فمن الأول ما رواه صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ . قَالَ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ))2.

1 - صبح الأعشى 502/2 .

2 - مسلم في الإيمان (إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه) 181 ، والترمذي في تفسير القرآن (من سورة يونس) 3105 ، وابن ماجه في المقدمة (فيما أنكرت الجهمية) 187 ، جميعاً من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب رضي الله عنه مرفوعاً .

قال أبو عيسى هذا حديث إنما أسنده حماد بن سلمة ورفعه، وروى سلمان بن المغيرة و حماد بن زيد هذا الحديث عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قوله .

قال النووي في شرح صحيح مسلم 17/3 : " وهذا الذى قاله هؤلاء ليس بقادح في صحة الحديث فقد قدمنا في الفصول أن المذهب الصحيح المختار الذى ذهب إليه الفقهاء وأصحاب

والكناية في قوله على لسانهم : " ألم تبيض وجوهنا " ، وأصلها في القرآن في قوله تعالى : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) {آل عمران: 106} .

وجمهور المفسرين أنه على حقيقة اللون المحسوس أي يوسم المؤمن بالبياض والكافر بالسواد ، والآخر أنه مجاز ومثل للنجاح والخيبة جرياً على عادة العرب إذ يقولون يبيضت وجوهنا وسودت وجوهنا.¹

وأشهر من قال بالمجاز فيها الراغب الأصفهاني في مفرداته ، قال : " ابيضاض الوجوه عبارة عن المسرة واسودادها عبارة عن المساءة ، ونحوه : (وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ) {النحل: 58} وحمل بعضهم الابيضاض والاسوداد على المحسوس ، والأول أولى لأن ذلك حاصل لهم سوداً كانوا في الدنيا أو بيضاً² .

وذكر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (-1284هـ) أنهما في آية آل عمران بياض وسواد خاصان؛ لأن هذا من أحوال الآخرة فلا داعي لصرفه عن حقيقته ولا لحمله على معنى البياض والسواد الذي في آية النحل³ .

وأرى أنهما على الحقيقة كناية ، فإذا كانا سمةً يسمُّ الله بهما وجوه الطائفتين فهما كناية عن الأعمال التي أدت إلى هذا الجزاء وكذلك الكناية لازم دل على ملزوم، فيُعرف المؤمن ببياض وجهه والآخر بسواده، وإذا حصل اللونان على الوجوه من أجل ما حصل في النفوس من أريحية التشريف والفوز وفي الآخر من

الأصول والمحققون من المحدثين وصححه الخطيب البغدادي أن الحديث إذا رواه بعض الثقات متصلاً وبعضهم مراسلاً أو بعضهم مرفوعاً وبعضهم موقوفاً حكم بالمتصل والمرفوع؛ لأنهما زيادة ثقة وهي مقبولة عند الجماهير من كل الطوائف والله أعلم .

¹ - انظر : مفاتيح الغيب ، الفخر الرازي 8 / 148 ؛ البحر المحيط ، أبو حيان 24/3 .

² - المفردات في غريب القرآن ص 246 .

³ - التحرير والتنوير 44/4 .

استكانة الذل والسَّوأة وترقب العذاب فكذلك هما كناية لأن البياض والسواد لازمين للتشريف والإذلال.

وبقي المجاز والمثل حيث يقال (بَيَّضَتْ وجهها) ولا بياض حقيقة إنما المقصود أفرحتنا مع أن هذه الحالة أيضاً لا تَعْدَم بصيصَ بياض ونوعٍ إشراق يحصل بهذه الفرحة وأين هي من سرور الآخرة ! .

وفي هذا الحديث الشريف ما يدل على أن بياض الوجه كناية عن أحوال التشريف والسرور والحبور التي أدت إليه، وهو قولهم : "ألم تبيّض وجهنا ؟" ينبؤون عمّا وراء هذه الكلمة من أنواع التشريف والإنعام والمسرة.

فالحسية هنا أن تنقلب الحالة النفسية لوناً يتجلى على الوجه، ويراه قارئ الحديث وسامعه، وهو لون يتملك المضمون ويستوعب الفكرة ويشي بكل أنواع النعيم التي استقبلتهم ، ويتصل هذا اللون بنور حجاب الله¹ لتغدو اللوحة نورانية بكاملها فكيف إذا كشف الحجاب ! .

هذا وقد يدل البياض على ارتفاع حسي :

ففي حديث الرؤيا، قال عليه الصلاة والسلام : ((فسما بصري صُعداً فإذا قصرٌ مثل الرّبابة البيضاء قال، قالوا لي : هذاك منزلك))².

قال أبو عبيد في معنى الربابة: "هي السحابة التي قد ركب بعضها بعضاً، وجمعها ربابٌ وبه سميت المرأة الرّباب"³.

¹ - ففي حيث أبي موسى الأشعري مرفوعاً : ((حِجَابُهُ التُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)) . مسلم قي الإيمان (في قوله : إن الله لا ينام ..) 179 ، وابن ماجه في المقدمة (فيما أنكرت الجهمية) 195 .

² - البخاري من حديث سمرة بن جندب في التعبير (الرؤيا بعد صلاة الصبح) 7047 .

³ - غريب الحديث، أبو عبيد 26/2؛ وانظر فتح الباري ، ابن حجر 444/12 .

وما المراد من وصفها بالأبيض ، أهو جمال اللون فحسب أو شيء آخر معه ؟ إن السحابة لا تكون بيضاء إلا في كبد السماء وهي إذ ذاك خفيفة لم يبرد بخارها فإذا بردَ ثقلت وتغير لونها وهبطت، فيكون هذا الوصف كناية عن السمو والارتفاع مع الحسن في الأبيض، ويؤيده أول الكلمة : فسمما بصري صعداً .
ولم أر من صرح بهذا غير ما يفهم من كلام القاضي عياض حين ذكر أنه وقع في رواية أبي أحمد الجرجاني عن الفريسي لصحيح البخاري (ذُبابة) - بالمعجمة المضمومة - قال: " وعند غيره الرّبابة - بفتح الراء - أي السحابة وهو الصحيح؛ لقوله بعد ذلك : (بيضاء) ولأنه إنما وصفه بالارتفاع لا بالرّقة " ¹.

2- اللون الأسود :

يذكرون في النقد الحديث أن إحياءاته متناقضة : فتارة يشير إلى التكدر والقلق والفرع وعدم الجرأة وفقدان الأمل والغموض والموت والضلال والكفر ، وتارة يشير إلى التحدي والعناد وعزة النفس ².
ومر عند الحديث عن اللون الأبيض أنه قد يدل مع الأسود على تمايز وجلاء في الطرفين وربما كان كلاهما حسناً، لكن الذي يعيننا هو موقعه من الكنايات والكناية النبوية على وجه الخصوص .
وفي مجال الكنايات قد ينشأ الأسود عن أصل ناري حراري ومنه الغيظ والحزن والخوف النفسي والنار المحرقة. كما قد ينشأ عن كثافة المادة فإذا ارتبط

¹ - مشارق الأنوار 536/1 .

² - ينظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، د. أحمد ياسوف ص 622 ؛ والألوان نظرياً وعملياً، الدملخي ص 75 ، من جدول يقارن فيه بين نتائج بحوثٍ لثلاثة مختصين بالألوان. وانظر طائفة من تعبيرات اللون الأسود في اللغة واللون، د. أحمد عمر مختار ص 72.

بالغمام دل على حمولة خيراً أو شراً وإذا ارتبط بالخضرة والشجر دل على كثافة أيضاً ومنه قيل سواد العراق، وذكر البخاري عن مجاهد في معنى (مُدْهَامَتَانِ) {الرحمن: 64}، أنهما سوداوان من الرّي¹.

فمن الأول (أي ظهور الأسود من أصل حراري) حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ . فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا قَدْ اسْوَدُّوا ، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَا أَوْ الْحَيَاةِ - شَكَّ مَالِكٌ - فَيَنْبُثُونَ كَمَا تَنْبُثُ الْحَبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً))².

فقوله : (قد اسودوا) كناية عن شدة احتراقهم في النار ، وهذه رواية البخاري من طريق إسماعيل بن أبي أويس عن مالك عن عمرو بن يحيى بن عُمارة عن أبيه عن أبي سعيد، وفي لفظ مسلم من طريق ابن وهب عن مالك : " قد اَمْتَحَشُوا " والمعنى واحد؛ إذ المَحَش احتراق الجلد وظهور العظم³ وهذا بالغ السواد لا محالة من قِبَل تفحُّم المادة ودخانها .

ومن الثاني (أي كثافة المادة) حديث النَّوَّاسِ بن سَمْعَانَ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَأَلْ عِمْرَانَ وَضَرَبَ هُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

¹ - البخاري في تفسير القرآن (تفسير سورة الرحمن) بلا رقم.

وذلك أن التّبات الناعم الرّيانَ يُرى لشدّة خُضرته من بُعدٍ أسود. ينظر :مقاييس اللغة، ابن فارس (خضر ، 195/2) .

² - البخاري في الإيمان (تقاضل أهل الإيمان في الأعمال) 22 ، ومسلم في الإيمان (إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار) 184 .

³ - ينظر: غريب الحديث لابن سلام 73/1 ؛ فتح الباري، ابن حجر 457/11 .

وَسَلَّمَ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيْتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِرْقَانِ¹ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا² .
والشَّرْقُ الضوء³ .

قال الترمذي عقب تخريجه للحديث : " ومعنى هذا الحديث عند أهل العلم أنه يجيء ثواب قراءته " .

وقال المباركفوري : " ظاهر الحديث أنهما يتجسَّمان حتى يكونا كأحد هذه الثلاثة التي شبهها بها صلى الله عليه و سلم ، ثم يُقَدَّرُهما الله سبحانه وتعالى على النطق بالحجة . وذلك غير مستبعد من قدرة القادر القوي الذي يقول للشيء كن فيكون⁴ .

واللوحة من باب التشبيه ، إنما الكناية في قوله (سوداوان) ، وهذا الوصف كما قال الشيخ ملا علي القاري : " لكثافتهم وارتكام البعض منهما على بعض ، وذلك من المطلوب في الظلال⁵ .

وليس في الظلال وحسب بل في الحمولة الوافرة من الغيث والخير .
وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
((تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ قَبْلَ السَّاعَةِ سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ مِثْلُ التُّرْسِ فَمَا تَزَالُ

¹ - قال القاضي عياض في المشارق 1 / 373 : " كذا هو عند السمرقندي بكسر الحاء وسكون الزاي وقاف مفتوحة ، أي جماعتان . ورواه العذري والسجزي : فرقان ، بالفاء والراء ... والأول المعروف في المصنفات " .

وقال في موضع آخر 1 / 371 : " حرقان من طير : أي جماعتان " .

² - مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (فضل قراءة القرآن وسورة البقرة) 805 ، والترمذي في فضائل القرآن عن رسول الله (ما جاء في سورة آل عمران) 2883 .

³ - غريب الحديث لابن الجوزي 1 / 534 .

⁴ - تحفة الأحوذى 8 / 155 .

⁵ - مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 6 / 477 .

ترتفع في السماء حتى تملأ السماء، ثم ينادي مُنادٍ : يا أيُّها النَّاسُ! فيُقبلُ النَّاسُ بعضهم على بعضٍ: هل سمعْتُم؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشكُّ. ثم ينادي الثانية : يا أيُّها النَّاسُ! فيقول النَّاسُ : هل سمعْتُم ؟ فيقولون : نعم . ثم ينادي : أيُّها النَّاسُ أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه)). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((فو الذي نفسي بيده إن الرجلين لينشُران الثوبَ فما يطويانه أو يتبايعانه أبدأ، وإنَّ الرجلَ ليمدُّرُ حوضَه فما يسقي فيه شيئاً، وإنَّ الرجلَ ليحلب ناقةَه فما يشربُه أبدأ))¹.

والسود في السحابة كناية عما فيها من مادة كثيفة، ويبدو وقد ملأ الأفق وانتشر في كل اللوحة، تؤازره كنايات ثلاث آخر الحديث عن غفلة الناس وفجأة الساعة. إن هذه السحابة تأتي والناس في شغل في مختلف أنواع الاقتصاد والحياة تجارة وزراعة ورعيًا .. وهنا أحدُ عنصري المفاجأة والآخر ما يظنونه من الخير في هذه السحابة السوداء التي تسميها العرب مَحِيلَة أي يُنْفَرَسُ فيها المطر². وتروي عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى مَحِيلَة في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج وتغيَّر وجهه ، فإذا أمطرت السماء سرِّي عنه، فعَرَفَتْه

¹ - الحاكم في المستدرک في الفتن والملاحم 582/4 ، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي .

والطبراني في الكبير (حديث عقبة بن عامر الجهني) 14586 ، ومداره على محمد بن عبد الله مولى المغيرة بن شعبة عن كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن حجية عن عقبة بن عامر وقال المنذري في الترغيب والترهيب ص 738 : " رواه الطبراني بإسناد جيد رواه ثقات مشهورون " . قال الهيثمي في المجمع 256/11 : " رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله مولى المغيرة وهو ثقة " .

والجملة الأخيرة : ((فو الذي نفسي بيده إن الرجلين .. الخ)) روى نحوها البخاري في الفتن (خروج النار) 7121 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

² - ينظر : لسان العرب، ابن منظور (خيل، 226/11).

ذلك ، فقال : ((مَا أَذْرِي لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمُ
الْآيَةُ {الأحقاف:24}))¹.

والأسود إذا كان خالصاً مُحمد في بعض الأحوال ، فإذا شيب بغيره دل على
عكر كالقتر والغبرة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يَلْقَى
إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِهِ آزَرٌ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ : أَلَمْ
أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي ؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ : فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ . فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ : يَا رَبِّ
إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَأَيُّ خَزْيٍ أَحْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ ، فَيَقُولُ
اللَّهُ تَعَالَى : إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ
؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِحٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ))².

قال ابن الأثير : " القتر غبرة معها سواد . والذخ ذكر الضباع " ³.

فالقتر والغبرة كناية عن حال الذل والضعة والتعذيب الذي لقيه فغير لون
وجهه، وأصل هذه الكناية في القرآن (وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ)
{عبس:40،41} ، فالغبرة من الغبار والقتر سواد الدخان ويا للكرب ! قال
العيني : " لا يروى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه " ⁴.

¹ - البخاري في بدء الخلق (ما جاء في قوله وهو الذي أرسل الرياح ..) 3206 ، ومسلم في
الاستسقاء (التعوذ عند رؤية الريح والغيم ..) 899 ، والترمذي في تفسير القرآن .. (ومن سورة
الأحقاف) 3257 ، وأبو داود في الأدب (ما يقول إذا هاجت الريح) 5098 ، وابن ماجه في
الدعاء (ما يدعو به الرجل إذا رأى السحاب والمطر) 3891 .

² - انفرد به من الستة البخاري في أحاديث الأنبياء (قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلاً)
3350 .

³ - جامع الاصول 543/10 .

⁴ - عمدة القاري 15 / 336 ، كذا في النسخة : " ولا يروى أوحش .. " ولعلها : ولا يُرى ،

والله أعلم .

ومن المفسرين من رأى أن ما تحصّل من التراب بعد تحوّل البهائم إليه يرتدُّ غبرةً في وجوه أهل الكفر¹.

فإذا انضم إلى ذلك معنى الضيق الذي يشتمل عليه الأصل الصحيح (قتر)² تحصّل وراء هاتين الكلمتين ما شئت من استخفافٍ وذِلٍّ وضيق وكآبة .
والغبراء كناية عن موصوف هو الأرض وفي الحديث : ((مَا أَظَلَّتْ الْخُضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتْ الْغُبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ))³.

¹ - كالإمام الطبري في تفسيره 233/24 .

² - ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس (قتر، 55/5) .

³ - روي هذا الحديث عن عدد من الصحابة ، من طرق أحسنها :

1- حديث أبي ذر رضي الله عنه ، رواه الترمذي في المناقب عن رسول الله (مناقب أبي ذر)
3802 من طريق النضر بن محمد عن عكرمة بن عمار عن سَمَاك بن الوليد عن مالك بن مَرثَد الزماني عن أبيه عن أبي ذر . وقال حسن غريب من هذا الوجه . وابن حبان في صحيحه في إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة (إخباره عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم بذكر أسمائهم رضوان الله عليهم) 7132 .

وعكرمة بن عَمَّار العجلي البصري اليمامي " صدوق يغلط ، وفي روايته عن يحيى بن أبي كثير اضطراب ، ولم يكن له كتاب . من الخامسة مات قبيل الستين / خت م 4 " تقريب التهذيب، ابن حجر 396/2 .

والناظر في ترجمته في تهذيب التهذيب 3/ 133 يرى أن من ضعفه من أئمة الجرح والتعديل لم يذكروا يحيى بن أبي كثير ، ومن ذكره وثقه في غيرها أو عده صدوقاً واختلفت الرواية عن ابن معين بينهما ، وعن الحاكم قال : جلّ حديثه عن يحيى وليس بالقائم .

وحديثه هنا ليس عن يحيى بن أبي كثير ، ثم لا بد من الإفادة مما قاله ابن عدي في الكامل 276/5، قال : " وهو مستقيم الحديث إذا روى عنه ثقة " ، والراوي عنه النضر بن محمد (وهو ابن موسى اليمامي) ثقة روى له الشيخان ، انظر تقريب التهذيب، ابن حجر 562/2 ، بل هو عالم بحديث عكرمة ففي تهذيب التهذيب في ترجمة عكرمة 3/ 133 : " قال العجلي : ثقة ، يروي عنه النضر بن محمد ألف حديث " .

وأما سَمَاك بن الوليد الحنفي اليمامي ثم الكوفي ، أبو زُمَيْل ، ليس به بأس من الثالثة / بخ م 4 ، كما في التقريب 256/1 ، و في تهذيب التهذيب 2/ 116 : " قال أحمد وابن معين والعجلي ثقة

وقال أبو حاتم صدوق لا بأس به وقال النسائي ليس به بأس ... قلت : وقال ابن عبد البر أجمعوا على أنه ثقة " ، وتدبرت ترجمته في الجرح والتعديل 280/4 فلم أر مطعناً عليه بل ينقل أبو حاتم عن أحمد وابن معين وأبي زرعة توثيقه ، وكذلك لا بأس به عند النسائي تعد توثيقاً (يقول ابن حجر في مواضع كثيرة في الفتح في الراوي : وثقه النسائي ، ويكون قول النسائي فيه : ليس به بأس ، انظر مثلاً ترجمة سهيل ابن أبي صالح في الفتح 1/ 408 ، وفي تهذيب التهذيب 2/ 129 ، وإسماعيل بن أبان الوراق في الفتح 1/ 390 ، وفي تهذيب التهذيب 1/ 137) ولم يتبين لي وجهٌ لوضع سماك هذا عن رتبة الثقة .

ومالك ثقة ، وأبوه مرثد بن عبد الله الرِّمَّاني "مقبول من الثالثة / بخ ت س ق" كما في التقريب 524/2 ، والمقبول في تقريب ابن حجر كما في مقدمته من ليس له من الحديث إلا القليل ولم يثبت ما يترك حديثه من أجله ، وقد توبع .

2- حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) رواه الترمذي في المناقب عن رسول الله (مناقب أبي ذر) 3801 ، وابن ماجه في المقدمة (فضل أبي ذر) 156 ، من طريق الأعمش عن أبي اليقظان عثمان بن عمير ، وقال الترمذي حديث حسن وفي الباب عن أبي الدرداء وأبي ذر . وأحمد في المسند ، مسند المكثرين من الصحابة (مسند عبد الله بن عمرو بن العاص) 6630 ، وفيه عن الأعمش حدثنا عثمان .
والعلة فيه من عثمان بن عُمر ، قال في تقريب التهذيب 2/ 386 : "البجلي أبو اليقظان الكوفي الأعمى ضعيف واختلط ، وكان يدلس ويغلو في التشيع . من السادسة ، مات في حدود الخمسين ومائة / د ت ق " .
قال ابن عدي في الكامل 5/ 167 ، بعد ذكر مثالبه : "على أن الثقات قد رووا عنه وله غير ما ذكرت ويكتب حديثه على ضعفه " .

3- من حديث أبي الدرداء ، رواه الإمام أحمد في مسنده (مسند الأنصار) باقي حديث أبي الدرداء 21772 ، من طريق عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن عَنَم عنه ، قال في المجمع (304/9) : "رجال أحمد وثقوا ، وفي بعضهم خلاف " .
وفي مسند القبائل (من حديث أبي الدرداء) 27533 ، من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن بلال بن أبي الدرداء عنه . قال في المجمع 9/ 303 : "فيه علي بن زيد وقد وثق وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات " .

ورواه الحاكم من هذه الطريق في المستدرک ، في معرفة الصحابة (محنة أبي ذر) 387/3 ، وقال الذهبي : سنده جيد .

فأما شهر بن حوشب فصدوق كثير الإرسال والأوهام من الثالثة مات سنة اثنتي عشرة / بخ م 4 ، كما في التقريب 2/ 269 ، ولكن ذكر الترمذي عن الإمام أحمد أنه لا بأس بحديث عبد الحميد ابن بهرام عن شهر بن حوشب . ينظر تهذيب التهذيب 2/ 182 .

وقال ابن حبان بعد تخريجه الحديث : " يشبه أن يكون هذا خطاباً خرج على حسب الحال في شيء بعينه، إذ محال أن يكون هذا الخطاب على عمومته وتحت الخضراء المصطفى صلى الله عليه و سلم والصدّيق والفاروق رضي الله عنهما " .

والواقع أنهم اختلفوا في تأويل هذه الجملة على ثلاثة أقوال :
الأول أنه خطاب خرج على حسب الحال ، كما قال ابن حبان ، وسبقه إليه ثعلب فقال : " مدحه في فعلة فعلها، أي في حالة واحدة بعينها"¹، ومن هذا القبيل ما ذكره الطيبي أنه " لا يذهب إلى التورية والمعارض في الكلام فلا

وأما علي بن زيد بن جدعان وينسب أبوه إلى جد جده المكي والد عبد الله الجواد المشهور الذي كان حلف الفضول في بيته قبل الإسلام (البداية والنهاية، ابن كثير 2/ 292) فقد اختلف فيه، وانتهى الحافظ ابن حجر في (التقريب : 401/2) إلى ضعفه فقال: " ضعيفٌ من الرابعة مات سنة إحدى وثلاثين وقيل قبلها/ بخ م 4".

وكان حماد بن سلمة - وهو الراوي عنه هنا - حسن الرأي به جداً ويرى أن مجلسه كان للوجوه من القوم حتى طعن به من لم يكن يصل إليه ، وقال الترمذي فيه صدوق ، ومن الأئمة من ضعفه .
انظر ميزان الاعتدال 3/127؛ تهذيب التهذيب 3/163 .

وفي تعليق للذهبي على حديث الخطبة التي رواها الحاكم في المستدرک في کتاب الفتن والملاحم 4/ 551 ، من طريق علي بن زيد بن جدعان، قال : " ابن جدعان صالح الحديث"، والله أعلم .
وكذلك ذكره الذهبي في من تكلم فيه وهو موثق ص 140، فقال : " صويلح الحديث ، قال أحمد ويحيى: ليس بشيء وقواه غيرهما" .

وذكره في هذه الرسالة يقتضي حسب مقدمة الذهبي ص 27 أن حديثه لا ينزل عن رتبة الحسن في غير ما أنكر عليه وتكلم فيه من أجله ، والله أعلم.

والخلاصة أن هذا الحديث لا يُدفع بل هو قوي بكثرة طرقه وبعضها حسن لذاته كحديث أبي ذر والله أعلم .

¹ - مجالس ثعلب ، القسم الأول ص 86.

يرخي عنان كلامه ولا يوارى مع الناس ولا يسامحهم ويظهر الحق البحت والصدق المحض " مما علم من سيرته ولا سيما بأخرة ¹.

والثاني أنه إثبات أعلى مراتب الصدق لأبي ذر وليس فيه نفي غيره من تلك المرتبة إنما فيه نفي غيره أن يكون في مرتبة من مراتب الصدق أعلى منها ، وهذا تخريج الطحاوي وهو الأشهر ².

والثالث أنه مبالغة في صدقه لا أنه أصدق من كل أحد ³.

هذا ما قيل ، وأرى والله أعلم أنه ينبغي الإفادة القصوى من الكناية في هذا الحديث حيث لم يقل الأرض والسماء إنما قال الغبراء والخضراء والوصف بهما يؤكد العموم وينفي إرادة أرض من الأرض أو سماء من السماء ، ويترشح تصوير هذا العموم بمذنين واجبين طويلين مناسبين لاتساع الغبراء والخضراء ، وفي الوصف بهما في معرض الحديث عن أبي ذر مناسبة لحاله وشهرته بالزهد رضي الله عنه ، فليست الدنيا إلا غبراء وخضراء وبنو غبراء هم الفقراء ، يقول طرفة :

رأيت بني غبراء لا يُنكروني ولا أهل ذِيَاك الطَّرَاف الممدد ⁴

لكن حال الزهد حالٌ شديدة يداخلها تلبس وتزوير إلا من عصم الله ، ولا أصدق من أبي ذر .

¹ - شرح الطيبي على المشكاة 3945 / 12.

² - ينظر : شرح مشكل الآثار 46/2 في باب سماه " باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله عليه السلام في صدق أبي ذر رضي الله عنه " . وينظر : الأفعال ، أبو القاسم السعدي 49/3 .

³ - حكاها الطيبي عن التوريشتي ، ينظر : شرح الطيبي على المشكاة 3945 / 12.

⁴ - ديوان طرفة بن العبد بشرح الأعلام الشنتمري ص 31 ، وقال الأعلام الشنتمري في شرحه : " رأيت بني غبراء يعني المحتاجين والفقراء ، والغبراء الأرض ، والفقير ينسب إليها . والطراف قبة من آدم ولا تكون إلا للمياسير والأغنياء " والمقصود أنه صاحب الفقراء والأغنياء ، وينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس (غير ، 409/4) .

فالذي يترجح في نظري هو القول الثاني أي أنه في أعلى مراتب الصدق دون أن ينفي مشاركة غيره له في هذه المرتبة مع استثناء النبي صلى الله عليه وسلم من هذه المقارنة؛ لأن الشهادة بالدرجة العليا بالصدق من النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر تدلُّ على أن النبي أعلى قطعاً وإلا لم تُقبل هذه الشهادة ، ففي الحديث ذاته ما يدل على أوليّة النبي صلى الله عليه وسلم وسموّه عن ميدان المقارنة فلا يرد قول ابن حبان -رحمه الله- المتقدم : " محال أن يكون هذا الخطاب على عمومته وتحت الخضراء المصطفى صلى الله عليه وسلم " .

3- اللون الاحمر :

من أمثال العرب : "الحسن أحمر" ، وأقدم من سُمعت عنه إبراهيم بن متمم ابن نوية في زمن عبد الملك بن مروان أي ما بين (65هـ - 85هـ) فإن عبد الملك قال له : وأراك أحمرَ قرِفاً ، فقال له : الحسن أحمر .

ذكر هذه القصة ابنُ قتيبة ، وأسند إلى الأصمعي أنه قال : " العرب تقول (الحسن أحمر) يُراد به: من أراد الحسن صبر على أشياء يكرهها " ، قال ابن قتيبة: " فذهب الأصمعي في (أحمر) إلى معنى الصُّعوبة والمشقة كما قيل : موت أحمر . وقد تدبّرتُ هذا فرأيت معنى الحديث يدلُّ على أنّه يريد أنّ الحسن في الحمرة لا ما ذهب إليه الأصمعي ، ومما يدلُّ على ذلك قول الشاعر:

فإذا ظَهَرَتْ تَقَنَّعِي بِالْحُمْرِ إِنَّ الْحُسْنَ أَحْمَرُ¹

والبيت لبشار بن برد من القرن الثاني (-167هـ) والذي قبله :

وخذي ملابسَ زينةٍ ومصبَّغات فهي أفخر²

يدلُّ على أنه آخذٌ في حسن اللون لا في باب المشقة .

¹ - غريب الحديث، ابن قتيبة 683/3 .

² - ديوان بشار بن برد 61 / 4 .

ويقول الجاحظ معقّباً على هذين البيتين وبيتٍ للأعشى : " وهذان أعميان قد اهتديا من حقائق هذا الأمر إلى مالا يبلغه تمييز البصير، ولبشار خاصّة في هذا الباب ما ليس لأحد "1.

فهذا الضرير الذي لم ير الحُمرة ولا عرفَ الحُسن لا بد أنه قرّر هذه القاعدة لما تواتر في سمعه من حديث الناس .

ثم إن الأكثرين من أهل الأدب تابعوا الأصمعي على ما فسّر به من الشدة². وطوّر العسكري المعنى فذكر أن الأحمر كناية عن الجهد والشدة؛ لأن المال الذي فيه الجمال لا يُكسب إلا بجهد وشدة يحمرُّ معها الوجه³، وذكر الزمخشري قولاً أنّ وجنتي المحب تحمّران خجلاً لما يسمع من العذل⁴، فهو يرجع إلى الشدة أيضاً.

لكن الميداني ذكر ما يوافق ابن قتيبة وهو أن المرأة إذا خضبت يديها وصبغت ثوبها به قيل لها ذلك يريد أن الحسن في الحمرة⁵.

وحكى ابن أبي حَجَلَة (- 776هـ) عن بعض الأطباء أن الوجه الرقيق البشرة الصافي الأديم إذا خجل يحمرُّ وإذا فزع يصفر ، وقالوا حمرة لون الإنسان يولّدها الفرح والصحة والنعمة وصفرة لونه يولدها الفزع والبؤس والغم والسُّقم، قال : " وأما أحسن الألوان فإنه الأحمر بدليل أن الدم صديق الروح والحمرة لونه

1 - البيان والتبيين 1 / 126.

2 - ينظر : الأمالي في لغة العرب ، القالي 1 / 195؛ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري 1 / 344.

3 - جمهرة الأمثال ، العسكري 1 / 366 .

4 - المستقصى في أمثال العرب ، الزمخشري 1 / 312 .

5 - مجمع الأمثال 1 / 199.

.. " ثم أخذ يعدّ النفائس الحمراء كأجود الذهب والياقوت وأخصب التربة وأكرم الإبل .. الخ¹.

ولارتباط الأحمر بالدم وبالنار فإنه أكثر الألوان حملاً للمعاني كالشهوات والانفعالات والثورة والقتل كأنما هو حالة طارئة في الحياة وليس الأصل .
ويصفونه في الفيزياء الحديثه بأنه لون جريء يتقدم تجاه العين ويمتد خارج حدوده².

وفي خصوص الكنايات النبوية:

أولاً- حمرة العين كناية عن الغضب في حديث أبي سعيد الخدري قال :
صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة العصر بنهارٍ ثم قام خطيباً فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه .. ثم ساق الحديث وفيه : ((أَلَا وَإِنَّ الْعُغْصَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ أَمَّا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاحِ أَوْدَاجِهِ فَمَنْ أَحْسَسَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصِقْ بِالْأَرْضِ)) قال: وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي منها شيء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ))³.

¹ - ديوان الصبابة ص 268.

² - ينظر مبادئ النقد الأدبي ، ريتشاردز ، ترجمة د. محمد بدوي ، ص 208 .

³ - رواه الترمذي في الفتن عن رسول الله (ما جاء ما أخبر النبي أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة) 2191 ، وسمى جماعة من الصحابة ذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم حدثهم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، قال: "وهذا حديث حسن صحيح" .

ورواه الحاكم في المستدرک في کتاب الفتن والملاحم 4 / 551 ، من طريق علي بن زيد بن جدعان، وقال : " تفرد بهذه السياقة علي بن زيد بن جدعان القرشي عن أبي نضرة، و الشيخان

فالأحمرار غضب ونار وحرارة ، قال المناوي : " وذلك لأن الله خلقه من نار وعجنه بطينة الإنسان فمهما نوزع في شيء من الأغراض اشتعلت نار الغضب فيه وفارت فوراناً يغلي منه دم القلب وينتشر في العروق فيرتفع إلى أعلى البدن ارتفاع الماء في القدر ثم ينصب في الوجه والعينين فيحمرّ منه ، إذ البشرة لصفائها تحكي ما وراءها . وإذا تكيف بهذه الحالة ارتعدت أطرافه واضطربت حركاته وأزبدت أشداقه واحمرّت أحداقه وخرج عن حيز الاعتدال ، حتى لو رأى نفسه سكن غضبه حياء من قبح صورته ، ولو كُشف له عن باطنه لراه أقبح من ظاهره فإنه عنوانه الناشئ عنه " ¹ .

وقال الشيخ ملا علي القاري : " كلّ إناء يرشّح بما فيه " ² .

رضي الله عنهما لم يحتجا بعلي بن زيد " لكن الذهبي قال في التلخيص من ذلك الموضع : " ابن جدعان صالح الحديث " .

وقد مرّ الكلام عن علي بن زيد بن جدعان ص 192 ، ومالت الكفّة إلى ترجيح أن يكون حديثه حسناً في غير ما أنكر عليه .

وأصل الحديث في مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء) 2742 .

وقصة الخطبة الطويلة ثابتة من حديث حذيفة بن اليمان في صحيح مسلم في الفتن وأشراف الساعة (إخبار النبي فيما يكون إلى قيام الساعة) 2891 ، قال : " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابي هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه " . فالأصل في هذا الحديث الزيادة وهي أدعى أن تُقبل إن احتُمِل ضعف راويها ، والله أعلم .

¹ - فيض القدير 2 / 179 .

² - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 15 / 25 ، وهذا تضمن من المثل المشهور ، ينظر : مجمع الأمثال 2 / 162 .

وللدكتور عز الدين السيد حديث عن هذا الحديث منه قوله : " والغضب
تنتفخ فيه العروق وتحمّر منه العين ، حتى جعل احمرار العين كناية عنه ، فيقال :
أراه العين الحمراء"¹.

فيُرى من مجموع هذه الأقوال أن الغضب الذي في الداخل يردفه حمرة في
الخارج فيصح أن يكنى بها عنه .

ثانياً- حمرة المولود كناية عن الغضاضة والطراوة ورقة الجسم :

ففي حديث حَبَّةَ وَسَوَاءِ ابني خالدٍ قالا : دخلنا على النبي صلى الله عليه
وسلم وهو يعالج شيئاً فأعنّاه عليه ، فقال : ((لَا تَيْئَسَا مِنَ الرَّزْقِ مَا تَهَزَّزَتْ
رُءُوسُكُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَلَدُّهُ أُمُّهُ أَحْمَرٌ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ))².
والقشر إما اللباس أو الجلد³ فتكون الحمرة كناية عن بُدُو لحمه ورقة بشرته،
أو كناية عن العُري، وهذه الكناية اللونية أعقبت كناية حركية بقوله: "ما تهزّزت
رءوسكما" فإنها كناية عن الحياة⁴.

¹ - الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص 245 .

² - ابن ماجه في الزهد (التوكل واليقين) 4165 ، قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن
سَلَام بن شَرْحِبِيل عن حبة وسوء . وهؤلاء ثقات مشهورون غير سلام بن شرحبيل ، قال الذهبي "
وما روى عنه سوى الأعمش ووثق " ميزان الاعتدال 179/2 ، وإنما توثيقه أن ابن حبان ذكره في
الثقات 332/4 ، ويبقى أن الأعمش رواه بالعنعنة عن سلام ، وكذلك هو عند أحمد في المسند
مسند المكيين (حديث حبة وسوء ابني خالد) 15893 ، والطبراني في الكبير حديث حبة
وسوء ابني خالد ، 7/4 رقم 3479 . لكن قال البخاري في التاريخ الكبير 132/4 : " سلام
بن شَرْحِبِيل ويقال أبو شرحبيل عن حبة وسوء ابني خالد سمع منه الأعمش " . فقد صرح البخاري
بالسماع بينهما .

وذكره ابن حجر في الإصابة 14/2 في ترجمة حبة بن خالد الخزاعي وقال : " روى حديثه ابنُ
ماجه بإسنادٍ حسن " .

³ - ينظر : مقاييس اللغة، ابن فارس (قشر، 90/5).

⁴ - ينظر : فيض القدير ، المناوي 423/6 .

4 - اللون الأخضر :

لون هادئ مهدئ للأعصاب تستريح له العين وتستروح به النفس ، يرمز إلى الحياة والحيوية والنضارة ويشغل مساحات واسعة في الطبيعة ، ومساحات أوسع في الحديث الشريف لارتباطه بالجنة والطير الخضر التي فيها أرواح الشهداء ، والشجرة الخضراء التي ضُربت مثلاً للمسلم ، والحِبرَة التي هي من أحب الثياب إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) من أخضر وأبيض ، والفروة التي كانت بيضاء تحت الخضر ثم اهتزت فانقلبت خضراء ، والدنيا الحلوة الحَضِرَة التي يقف عندها الضعاف وتحجبهم عن الحضرة الأسمى والأسنى¹ .

ولكن شيئاً منها لم يرد في الحديث على سبيل الكناية - فيما بحثت - وجاء الأخضر كناية عن موصوف فمن ذلك الكناية بالخضراء عن السماء في الحديث الذي سبق ذكره : ((مَا أَظَلَّتْ الْخُضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتْ الْعَبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ))².

والكناية بالبحر الأخضر عن البحر الكبير أو المحيط في حديث أنس بن مالك عن خالته أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مِلْحَانَ قَالَتْ : نَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا قَرِيبًا مِنِّي ثُمَّ اسْتَيْقَظَ يَتَبَسَّمُ ، فَقُلْتُ : مَا أَضْحَكَكَ ؟ قَالَ : ((أَنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ يَرْكَبُونَ هَذَا الْبَحْرَ الْأَخْضَرَ كَالْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ)) قَالَتْ : فَادْعِ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ ، فَدَعَا لَهَا . ثُمَّ نَامَ الثَّانِيَةَ ففعل مثلها ، فقالت مثل قولها ، فأجابها مثلها فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : ((أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ)) فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً أوَّلَ مَا رَكِبَ الْمُسْلِمُونَ الْبَحْرَ

¹ - أذكر هنا إشارة مختصرة لموضع كل منها في أحد الصحيحين إذ لا يتعلق بتخریجها غرض : الطير الخضر : مسلم في الإمارة (بيان أن أرواح الشهداء في الجنة) ، الشجرة الخضراء : مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (مثل المؤمن مثل النخلة) ، الحبرة : مسلم في اللباس والزينة (فضل لبس ثياب الحبرة) ، فروة الخضر : البخاري في الأنبياء (حديث الخضر مع موسى) ، الدنيا الخضرة : مسلم في الرقاق (أكثر أهل الجنة الفقراء) .

² - تقدم تخریجه ، والحديث عن الغبراء ص 190 ، وما بعدها .

معاوية ، فلما انصرفوا من غزوهم قافلين فنزلوا الشام فقُرِّبَتْ إليها دابَّةٌ لتركبها فصرعتها فماتت ¹ .

قال الكرمانى : " الأخضر صفة لازمة للبحر لا مخصصة إذ كل البحار خضر، فإن قلت الماء بسيط لا لون له ، قلت : تنوهم الخضرة من انعكاس الهواء وسائر مقابلاته إليه" ². والذي يقابله السماء ويقال لها الخضراء كما مرّ.

¹ - البخاري في الجهاد والسير (فضل من يصرع في سبيل الله ..) 2800 ، من طريق الليث عن يحيى عن محمد بن يحيى بن حبان عن أنس ، وأيضاً من طريق عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري عن أنس . ومن الطريقتين مسلم في الإمامة (فضل الغزو في البحر) 1912 . وفيه البحر الأخضر . وابن ماجه في الجهاد (فضل غزو البحر) 2776 ، من طريق الليث عن يحيى وفيه ظهر هذا البحر .

ومن طريق حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حبان في البخاري الجهاد والسير (ركوب البحر) 2895 : وفيه يركبون البحر ، وعند مسلم من هذا الطريق في الإمامة (فضل الغزو في البحر) 1912 ، وأبو داود في الجهاد فضل الغزو في البحر (2490 ، وفيه : يركبون ظهر البحر .

وروي من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس ، قال فيه : ثبج البحر ، وقال كانت تحت عبادة . البخاري في الجهاد والسير (الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء) 2789 ، ومسلم في الإمامة (فضل الغزو في البحر) 1912 ، والترمذي في فضائل الجهاد (ما جاء في غزو البحر) 1645 ، والنسائي في الجهاد (فضل الجهاد في البحر) 3171 ، ومالك في الموطأ (الترغيب في الجهاد) 994 .

وجاء في هذه الرواية عند البخاري : " ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة - شك إسحاق- .. " قال ابن حجر في الفتح 74/11 : " وهذا الشك من إسحاق وهو ابن عبد الله بن أبي طلحة يشعر بأنه كان يحافظ على تأدية الحديث بلفظه ولا يتوسع في تأديته بالمعنى كما توسع غيره كما وقع لهم في هذا الحديث " ، لكنه مع هذا أوقع في الإشكال لقوله في هذه الرواية: (وكانت تحت عبادة بن الصامت) ، وإنما تزوجها عبادة بعدُ ، فلعلّ مراده الإخبار عما آل إليه الحال ، والله أعلم.

² - الكواكب الدراري بشرح البخاري 103 / 12.

قال ابن حجر : "ويحتمل أن تكون مخصّصة؛ لأن البحر يطلق على الملح والعذب فجاء لفظ الأخضر لتخصيص الملح بالمراد"¹.

والبحر الأخضر عند ياقوت الحموي اسمٌ للبحر المحيط، قال : " ويخرج منه شعبتان إحداهما بالمغرب والأخرى بالمشرق فأما التي بالمشرق فهي بحر الهند والصين وفارس واليمن والزنج ... والشعبة الأخرى في المغرب تخرج من عند سلا فتمر بالزقاق الذي بين البر الأعظم من بلاد بربر المغرب وجزيرة الأندلس وتمر بإفريقية إلى أرض مصر والشام إلى القسطنطينية"² والبحر الذي ركبته أم حرام هو بحر الشام (المتوسط) وغزت فيه جزيرة قبرص زمن عثمان بقيادة معاوية سنة 27³، وقيل: سنة 28هـ⁴.

والحاصل من هاتين الكنايتين بالأخضر والخضراء عن البحر والسماء أنهما يشغلان مساحة كبيرة في الواقع والخيال وهي مساحة زرقاء في اصطلاح هذا الزمن حيث يُعبّر عن لون السماء والبحر بالأزرق لكن الحديث عبر عنهما بالأخضر .

5- اللون الأصفر :

يميل اللون الأصفر إلى الصفة الإيجابية أكثر من ميله إلى الصفة السلبية، وبسبب درجة فتاحته يميل إلى صفة الدفء أكثر من ميله إلى صفة البرودة، هكذا يقول إبراهيم دملخي في كتابه الألوان⁵.

¹ - فتح الباري 11 / 74 .

² - معجم البلدان 1 / 370 .

³ - سير أعلام النبلاء، الذهبي 317/2 ، والإصابة، ابن حجر 189/8 .

⁴ - تاريخ خليفة بن خياط ص 34 .

⁵ - الألوان نظرياً وعملياً ص 68 .

وكلامه يصح إذا نظر إلى الأصفر لوناً مجرداً عما تلبس به ، والواقع المشاهد أن الخضرة في الأحياء دليل على قوة المادة وشبابها، وأن الأصفر دليل على انكسارها وبدء انحسارها حتى ترجع إلى بياض أو سواد على خلاف ما بدأت به إلا أن يكون الأصل في لونها الصفرة كالليمون والعرار، أو كانت الصفرة انعكاساً لأمر خارجي كأشعة الشمس والضوء .

وأما في الأشياء من ملابس وأثاث وصبغ ونحوه مما ليس بحَيٍّ فالصفرة زينة ، قال الراغب الأصبهاني : " سئل بعض الأعراب عن لون الثياب فقال : الصفرة أشكل، والحمرة أجمل، والخضرة أنبل، والسواد أهول، والبياض أفضل"¹.

وأشكل ذو شكلٍ وهيئة²، والبقرة الصفراء في قوله تعالى : (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) {البقرة: 69} حرّكت حوار بحث لوني من المفسرين فذكر أبو الفرج بن الجوزي قولين فيها : قول الجمهور أنه اللون المعروف ، والآخر أنه السواد قياساً على الإبل يقال صفراء وإنما هي سوداء تشوبها صفرة، ورُدَّ بأنه من نعوت الإبل لا البقر، وأن لونها وُصف بالفاقع والعرب لا تقول أسود فاقع في المبالغة من الألوان، وإنما تقول: أسود حالك، وأصفر فاقع، وأحمر قاني، وأخضر ناضر، وأبيض يقق³.

¹ - محاضرات الأدباء 372/2 .

² - ينظر : تاج العروس ، الزبيدي (شكل، 29 / 277) .

³ - ينظر : زاد المسير 97/1 ، وهو ما اختاره جمهور المفسرين . ينظر : مفاتيح الغيب ، الفخر الرازي 110/3 ، وتفسير ابن كثير 299/1 .

وروى الطبري عن وهب بن منبه¹ قال : "إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها"².

ثم أُكِّد هذا المعنى بأنها تسر الناظرين ، هكذا بالجمع ، والألف واللام الدالة على الاستغراق فهو حُسن مُتَّفَقٌ عليه ، ذكره أبو حيان وقال: " وجمهور المفسرين يشيرون إلى أن الصفرة من الألوان السارة "³.

ولن يذهب الوهم إلى صفرة المرض والسقم التي تعتري الأحياء فإنها لا تكون فاقعة، ولا يكون الأصفر فاقعاً إلا إذا كانت الصفرة مادة لونه .

ومدحت المرأة التي تظهر عليها صفرة الأصيل لما ذكرت من أنه انعكاس خارجي لا يدل على مرض، قال الأعشى :

بيضاء ضحوها وصف راء العشية كالعرارة⁴

¹ - من أكابر التابعين وأولي الحكمة والناظرين في الكتب السالفة ، وفي التقريب، ابن حجر 2/ 585 : " ثقة ، من الثالثة مات سنة بضع عشرة (يعني ومئة) / خ م د ت س فق " ترجمته في سير أعلام النبلاء، الذهبي 4/ 545 ؛ الأعلام، الزركلي 8/ 125 .

² - تفسير الطبري 2/ 202 .

³ - البحر المحيط 1/ 418 .

⁴ - ديوان الأعشى ص 196، والعرارة وردة ناعمة صفراء طيبة الرائحة ، اشتهرت بها نجد ، ينظر: تاج العروس ، الزبيدي ، (عرر، 11/13) .

وشرح البيت محقق الديوان د. محمد قاسم، فقال : " إنها بيضاء نهاراً فإذا دخل الليل بدت صفراء كزهر العرار تفوح بطيب كأنه طيبه " .

على أن العشية من النهار فهي إذاً قبل الليل وليست منه، ينظر: لسان العرب، ابن منظور (عشا 15 / 56) و (ليل، 11 / 607) . والمرأة إنما تكون صفراء وقت الأصيل لا في الليل ، ورأيت شاهداً من كلام الجاحظ في البرصان والعرجان ، ص 96 ، في قوله : " والمرأة الجميلة الرقيقة اللون إذا كان العشي ضرب لونها إلى الصفرة، وبالغدادة يضرب لونها إلى البياض، قال الأعشى :

بيضاء ضحوها وصف راء العشية كالعرارة

وقال الآخر: قد علمت بيضاء صفراء الأصيل " .

وقال محققه عبد السلام هارون في هامش الصحيفة ذاتها : "الأصل جمع أصيل وهو العشي " .

وما قيل في الشاعر بشار بن برد غداة الحديث عن الأحمر يقال في الأعشى فالضير لا يعكس نظره الفردي للألوان بقدر ما يعكس الوعي الجمعي والإحساس العام .

وما عدا هاتين الحالين تبدو الصفرة في الأحياء مرضاً وهمماً وضعفاً وخوفاً.. ومما ينسب للإمام الشافعي :

إذا اصفرَّ لونُ المرءِ وابيضَّ شعرُهُ تنعَّصَ من أيَّامه مُستطابُها¹
وهنا مربط الفرس ومجلى الكنايات في اللون الأصفر حين ينبئ عن الحال المؤدية إليه .

وفي الحديث الشريف مما وقع كنايةً صفراء اللون ، قوله صلى الله عليه وسلم: "صفراء ملتوية " في الحديث الذي سبق ذكره : ((يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا قَدْ اسْوَدُّوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ الْحَيَا أَوْ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً))².

قال النووي : " وينبتون نبات الحبة في حميل السيل في سرعة نباتها وضعفها فتخرج لضعفها صفراء ملتوية ثم تشتد قوتهم بعد ذلك ويصيرون إلى منازلهم وتكمل أحوالهم فهذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه "³.

وكذا قال المناوي ولكنه خرج بها مخرج الحسن ، فقال : " وإنما كانت صفراء لأنها أحسن ألوان الرياحين ولهذا تسر الناظرين ... والمراد التشبيه في سرعة

¹ - ديوان الشافعي ص 32 ، ونسبه بهاء الدين العاملي في الكشكول 139/1 لسيدنا علي ، وهو بشعر الشافعي أشبه .

² - سبق تحريجه في معرض الكلام عن اللون الأسود ص 186 .

³ - شرح النووي على مسلم 3 / 38 .

النبات وطراوته وحسن لونه وضعف النبات ، فهو كناية عن سرعة نبتهم وحسن ألوانهم وضعف حالهم ثم يشتد قواهم بعد ويصيرون إلى منازلهم¹.

وأسرع الشراح إلى معنى السرعة في هذا التشبيه ، وتوقف القرطبي متأنياً عند الرواية الأخرى الصحيحة أيضاً، وفيها ((فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ)) ، وعند مسلم : ((ما يكونُ إلى الشمس أصيْفَر وأخْيَضِر))².

فقال: "وفيه تنبيه على أن ما يكون إلى الجهة التي تلي الجنة منهم يسبق إليه البياض المستحسن، وما يكون منهم إلى جهة النار يتأخر ذلك النصوص عنه فيبقى أصيْفَر وأخْيَضِر إلى أن يتلاحق البياض ويستوي الحسن والنور ونضارة النعمة عليهم"³.

وأرى أنّ التشبيه بأمر من الدنيا يقتضي تنزيله على سنن الطبيعة التي تقول إن الشمس هي التي تنتج ما يُسمّى (اليخضور) في النبات⁴، وفي الرواية الثانية تفصيلٌ وشرحٌ للأولى فهي تنبت بيضاء ثم تصفر وتخضر بالشمس، فالخضرة في النبات هي الأكمل والبياض هو أول المنازل، أما صفراء ملتوية فكناية عن

¹ - فيض القدير 2 / 169 .

² - من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد ، البخاري في التوحيد (قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) 7440، ومسلم في الإيمان (معرفة طريق الحق) 183 .

³ - المفهم 1 / 422.

⁴ - جاء في الموسوعة العربية العالمية (الرياض) 295 / 27: "لكن إنتاج اليخضور لا يتم في كثير من النباتات إلا إذا تعرّضت للضوء، لذا تكون النباتات التي تُحفظ بعيداً عن الضوء بيضاء أو صفراء اللون". قارن هذا بما جاء في الحديث الشريف!

ضعفها قبل أن تستوي خضراء، وفي جملة التشبيه إشارة إلى ضعفهم بعد الكد والنصب الذي لقيهم ثم يذهب عنهم، والله أعلم.

وجاء هذا اللون كناية عن موصوف في قولهم بني الأصفر يعنون الروم وهي كناية قديمة استعملها عدي بن زيد العبادي في شعره :
وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم لم يبقَ منهم مذكور¹
وأبو سفيان بن حرب إذ يحدث نفسه : "لقد أمر امرؤ ابن أبي كبشة إنه يخافه ملك بني الأصفر"².

ووردت في الحديث الصحيح فعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وهو في قبة من آدم فقال : ((اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مُوتَانُ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقَعَاصِ الْغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِيفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظِلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فَتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا)).³

¹ - ينظر: الشعر والشعراء ، ابن قتيبة 1 / 225 ؛ الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني 131/2 . وهو شاعر الحيرة وذكره ابن سلام في الطبقة الرابعة من فحول الشعراء ، وذكر أنه خالط الأرياف فسهل لسانه ولان فسهل الحمل عليه ، ينظر طبقات فحول الشعراء ص 117 . والبيت من أشهر قصائده .

² - البخاري في بدء الوحي (كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله) 7 ، ومسلم في الجهاد والسير (كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام) 1773 ، من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما .

³ - البخاري في الجزية (ما يحذر من الغدر) 3176 ، وابن ماجه في الفتن (أشرار الساعة) 4042 .

وروى أبو داود في الأدب (ما جاء في المزاح) 5000 أوله دخول عوف دون الحديث .

وذكر النووي سبب تسمية الروم به أن جيشاً من الحبشة غلب على بلادهم فوطئ نساءهم فولدن أولاداً صُفراً من سواد الحبشة وبياض الروم ، أو نسبوا إلى الأصفر بن الروم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم صلى الله عليه و سلم¹. وقال ابن الأثير: " هم الروم، سمو بذلك لما يعرض لألوانهم في الغالب من الصفرة"².

والكناية عن الموصوف ليست كالكناية عن الصفة في أثرها وقوتها لكن شيئاً في هذه الكناية يجعلها فريدة في بابها، والكشف عنه يبدأ من السؤال التالي: لم ذكروا في هذا الموضع من الحديث بوصفهم هذا ، وفي سائر المواضع بالروم ، ولا سيما في الرسالة المشهورة ((من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم))³؟

أحسب أن وصفهم بهذا الحديث ببني الأصفر خرج مخرج الدم لهم لما يُتَظَر من غدرهم ونكثهم بالعهود، وإذا كانت الصفرة منبئةً عن مرض فإنها كذلك هاهنا لكنه مرض القلب وخبت السريرة ، وآية ذلك ما تعارفه الناس بقولهم: (ابتسامة صفراء)⁴ أي تخفي وراءها شراً وغدراً ، ولم أر من نبّه إلى هذا المعنى في الحديث ، ولكن أبا تمام حام حوله في الشعر فقال في عموريته :
أَبَقَّتْ بَنِي الْأَصْفَرِ الْمَرَضَ كَأَسْمَهُمْ صُفْرَ الْوُجُوهِ وَجَلَّتْ أَوَجَّةُ الْعَرَبِ⁵

¹ - شرح النووي على مسلم 12 / 111 .

² - جامع الأصول 11/265 .

³ - البخاري في بدء الوحي (كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله) 7 ، ومسلم في الجهاد والسير (كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام) 1773 ، والترمذي في الاستئذان والآداب (ما جاء كيف يكتب إلى أهل الشرك) 2717 ، وأبوداود في الأدب (كيف يكتب إلى الذمي) 5136 . من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما .

⁴ - ينظر: اللغة واللون ، د. أحمد عمر مختار، ص 74.

⁵ - من ديوانه بشرح الخطيب التبريزي 1 / 73.

فإن صحَّ ما قلتُ كان في بني الأصفر كناية عن موصوف هم الروم وعن صفة هي المرض والتغيُّر وبها تعدُّ من أعجب الكنايات وأعظمها حملاً للمعنى !
ولا أكتفي بهذا القدر بل أتحمس اللون الأصفر في هذه اللوحة المعروضة فأراه منتشرًا في الموتان ذلك الطاعون الذي يتنقص الناس كما يأخذ القُعاصُ الغنم فلا يلبُّها أن تموت¹، ومن الطاعون ما ظل الناس يسمونه الهواء الأصفر (الكوليرا) إلى وقت قريب .

وأراه في بحر الدنانير الصفراء المستفيضة التي لا تشبع نَهْمَةَ الناس ولا تبلغ رضاهم .

وأراه مستطيرًا في تيك الوجوه الصفراء والسرائر الصفراء الرابضة على الغدر، والتي تُعدُّ ثمانين راية لا حَقَّقَ الله لهم غاية .

وهكذا تبدو الصفرة غالبية في هذه اللوحة من الحديث وإن كانت صفرة غير مستحبة لنشوتها عن مرض أو حرب أو قوم غدر لكنها معبِّرةٌ أيما تعبير، تُجاذِبُ حس الناظر والسامع وتملك عليه نفسه .

6- اللون الأزرق :

وللأزرق حكاية ، نعم هو لون كوني يتمثل فيما لا لون له حقيقة أي في ماء البحار والأنهار وفي أثر السماء، وفيما هو فيه حقيقة كمارج النار ذلك اللهب الأزرق الذي يكون بين حمرة النار ودخانها، أي هو في عناصر الطبيعة الثلاثة .
ويُزَعَمُ أنه يرمز إلى البرودة والعمق ، وتتعلق قوة الرؤية في العين بطول موجة الشعاع الذي تستقبله ، لذا نلاحظ قصرًا في النظر تجاه الألوان الباردة وخاصة

¹ - ينظر: لسان العرب ، ابن منظور (قصاص، 7 / 78) .

اللون الأزرق وقوة وبعداً في النظر تجاه الألوان الدافئة فتغدو قريبة منا وخاصة اللون الأحمر¹.

لكنني تأملت في أدب العرب الأوّل الذي يكشف عن ذاكرتهم الحسية فإذا هو أقلّ الألوان ذكراً، ما رأيته حمداً إلا قليلاً، كيف وهو عندهم في العدوئين المخوفين المرهوبين: الروم في عيونها والجنّ المتغول ، فانظر أين يقع من قول امرئ القيس :

أَيَقْتَلَنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجَعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَنِيَابِ أَغْوَالٍ؟²
قال ابن رشيق: " شبه نصال الثّبل بأنياب الأغوال لما في النفس منها"³.
ويظنّ أنه لون المادة التي خلق منها الجان ، في قوله تعالى : (وَحَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ) {الرحمن: 15}

وأشهر الأقوال فيها أنه لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهمت ، وهو خالص النار لا يشوبه دخان⁴. ومعلوم بالحس والمشاهدة ولا سيما بعد اكتشاف الغاز الذي يعطي لهباً خالصاً ويستعمل في كلّ بيت أنّ لون هذا اللهب أزرق، والله أعلم .

¹ - ينظر : الألوان نظرياً وعملياً ، إبراهيم الدمخني ص 11 .

² - ديوان امرئ القيس ص 33 . والمشرقيّ السيف يصنع في مشارف الشام تلك القرى من بلاد العرب المشرفة على الرّيف . ينظر : تاج العروس ، الزبيدي (شرف ، 503 / 23) . وأغوال جمع عُول ، وجمعها الآخر غِيلان ، قال الجوهريّ في الصحاح (غول ، 1786/5): الغول بالضمّ من السَّعالي ، والسَّعالي جمع سَعْلَة ، وهم سَحرة الجِنّ ، كما في النهاية ، ابن الأثير (سعل ، 369/2) . وضبطها النووي في شرح مسلم (217/14) بفتح السين والعين مهملتين . قال القرطبي في المفهم 620/5 : "كانت العربُ تتحدّثُ أنّ الغِيلانَ تتراءى للناس في الفلوات ، فتتغوّلُ لهم تغوّلاً (أي : تتلوّنُ لهم تلوّناً) فتضلُّهم عن الطريق ، فتهلكهم " .

³ - العمدة 1 / 288 .

⁴ - ينظر تفسير الطبري 27/22 ؛ روح المعاني، الألوسي 105/27 .

ولا أقول بدعاً، فالمفسرون نبَّهوا إلى هذه الظاهرة في تأويل قوله تعالى : (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) {طه: 102}

ولم ترد الزرقة بلفظها في القرآن الكريم في غير هذا الموضع ، قال أبو حيان : "والظاهر أن المراد بالزُّرْق زرقة العيون ، والزرقة أبغض ألوان العيون إلى العرب لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون ... وقيل : زرقة ألوان أبدانهم ، وذلك غاية في التشويه إذ تجيء كلون الرماد وفي كلام العرب يسمى هذا اللون أزرق ، ولا تزرُق الجلود إلا من مكابدة الشدائد وجفوف رطوبتها"¹.

ومن المعلوم بالحس أيضاً أن بشر الإنسان إذا ضُرب أزرق لونه ، وإذا مات وبرد أزرق جثته.

وحكى السَّهيلي أنهم كانوا يئدون من البنات من كانت زرقاء تشاؤماً². ولما ذُكرت السماء في الحديث الشريف وذكر البحر قيل : الخضراء والأخضر كما مرّ، فيحتمل أنه احترز عن هذا اللون المكروه ، والله أعلم . على أن زهيراً بن أبي سلمى - ولم أجد غيره - وضع الزرقة موضعاً يُرى أنه حميدٌ، وذلك في قوله :

فلَمَّا وردن الماء زُرْقاً جِمامُهُ وضعن عِصِيَّ الحاضرِ المتخيم³

يعني كثرة الماء وصفاءه، كما قيل .

وهذا قبل الإسلام وفي الصدر الأول منه، ثم لما فُتحت الشام وذهبت هيبة الروم من القلوب وسُيِّت بنات الأصفر ذوات العيون الزرق سقط القناع عن الأزرق وألفته الشعراء وتغنّت به والأمثلة أكثر من أن تحصى .

¹ - تفسير البحر المحيط، 6 / 258 .

² - الروض الأنف 2 / 363.

³ - ديوان زهير بشرح الأعلام الشتمري ص 13 ، والمعنى أنهن لما بلغن هذا الماء الكثير الصافي أقمن عنده ، كما يقال : حط عصا الترحال ، وينظر لسان العرب، ابن منظور (زرق ، 10/138)

ومن طلائعها قول عمر بن أبي ربيعة القرشي :

سحرتني الزرقاء من مارون إنما السحر عند زرق العيون¹

ويُحَسَّبُ لأحمد شوقي - رحمه الله - أنه ما خبط فيما خبطوا فيه ، ولم أر الزرقاة إلا في موضعين من ديوانه جارياً على مذهب الأوائل من النفرة من هذا اللون ، فقال في وصف بحر الروم²:

تروح المنايا الزرق فيه وتغتدي وما هي إلا الموج يأتي ويذهب
وقال في رثاء بعض سراة الشام :

أما الولي فقد سقاك بسمة ما ليس يسقيك العدو الأزرق³

وعوداً على الحديث الشريف - والكلام عن الأحاديث المرضية غير الواهية - فإن الأزرق ما ذكر فيه بلفظه إلا مرة واحدة فيما وجدت بعد البحث والاستقصاء ، وذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ وَالْآخَرُ النَّكِيرُ ، فَيَقُولَانِ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ : هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . فَيَقُولَانِ : قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا . ثُمَّ يُفْسَخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : تَمْ . فَيَقُولُ : أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأُخْرِجُهُمْ ! فَيَقُولَانِ : نَمْ كَنُومَةَ الْعُرْسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ : سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ لَا أَدْرِي . فَيَقُولَانِ : قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ .

¹ - ديوان عمر بن أبي ربيعة 342/2.

² - من ديوانه 37/1 .

³ - من ديوانه 80/3 .

فَيَقَالُ لِلْأَرْضِ: ائْتِنِي عَلَيْهِ ، فَتَلْتَمِعُ عَلَيْهِ فَتَحْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ))¹.

¹ - الترمذي في الجنائز عن رسول الله (ما جاء في عذاب القبر) 1071 قال : وفي الباب عن علي وزيد بن ثابت وابن عباس والبراء بن عازب وأبي أيوب وأنس وجابر وعائشة وأبي سعيد كلهم رووا عن النبي صلى الله عليه وسلم في عذاب القبر . قال : وحديث أبي هريرة حديث حسن غريب.

ورواه ابن حبان في الجنائز (المريض وما يتعلق به) 3117 .

ومداره على عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة . وهو مدني نزل البصرة ، قال ابن حجر في تقريب التهذيب 336/2 : " صدوق رمي بالقدر ، من السادسة / بخ م 4 " .

وفي تهذيب التهذيب (2/ 487) أن إخراج مسلم له في الشواهد فيما ذكر الحاكم ، وقال النسائي : ليس به بأس ، واختلف قول ابن معين فيه بين صالح وثقة ، وعن أحمد أنه روى عن أبي الزناد أحاديث منكورة ، وقال أبو حاتم يكتب حديثه وليس بالقوي ، وهو قريب من ابن إسحاق صاحب المغازي ، وهو حسن الحديث . وعن البخاري أنه ليس ممن يعتمد على حفظه إذا خالف من ليس بدونه . وحكى الترمذي في العلل عن البخاري أنه وثقه.

وقال ابن عدي في الكامل 301/4 : " وفي حديثه بعض ما قلنا (أي ما يُنكر) ولا يتابع عليه ، والأكثر منه صحاح وهو صالح الحديث كما قال ابن حنبل " .

وذكر أبو حاتم أن يحيى بن سعيد القطان قال : سألت عنه في المدينة فلم أرهم يحمّدونه ، ولم يذكر ابن أبي حاتم مسألة القدر . ينظر : الجرح والتعديل 212/5 .

والمفهوم من قول البخاري الأول أنه يُعتمد على حفظه إذا لم يخالف ، أو إذا خالف من دونه . والحاصل من النقد عليه أن أهل المدينة لم يحملوا عنه؛ لأنه كان يرى القدر ، ومنه جاء أكثر النقد عليه . والثاني أنه روى عن أبي الزناد أحاديث منكورة كما قال أحمد ، وليس حديثه هنا عن أبي الزناد ، كما أنه لم يخالف أحداً إنما هي زيادة تفرّد بها .

وأرى والله أعلم أن نقد أهل المدينة له خفضه وربما ظنّ ذلك من قبل الضبط وإنما هو من جهة البدعة ، والقدر بدعة متوسطة غير مكفرة ، والمعتمد أن يُقبل حديث المبتدع الذي لم يكفر ببدعته ولم يكن داعياً إليها . كذا عن أحمد وغيره : ينظر شرح علل الترمذي، ابن رجب 1/ 55 ، وتعليقه الأستاذ الدكتور نور الدين عتر عليه في الحاشيته رقم 3 .

قال الشيخ ملا علي القاري : " يحتمل أن يتمثل الملكان للميت بهذا اللون حقيقة لأنهما مبعوضان ، والزرقة أبغض الألوان عند العرب ... ويحتمل أن يكون المراد بالسواد قبح الصورة وفظاعة المنظر على طريق الكناية ، وبالزرقة تقليب

والقدرية هم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى .
التعريفات، الجرجاني ص222 .

ويشهد له ما روي بهذا السياق موقوفاً عن أبي الدرداء في مصنف ابن أبي شيبة في الجنائز (في المسألة في القبر) 12051 ، عن غندر عن شعبة عن يعلى بن عطاء عن تميم بن غيلان بن سلمة عن أبي الدرداء ، ورجاله ثقات غير تميم بن غيلان ، قيل: ولد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل إن له صحبة ، وقال العلاني : " ذكره الصغاني فيمن في صحبته نظر " جامع التحصيل ص 151 ، وفي الإصابة عن ابن منده - وذكر حديث ابنه المفضل عنه - فقال : مرسل . ينظر الإصابة ، ابن حجر 376/1 .

وقد ذكره الإمام مسلم في الوجدان (ص 168) لكن الإحصاء يُظهر أنَّ الرواة عنه أربعة : ابنه المفضل وعبد العزيز بن أبي رواد وابن جريج ويعلى بن عطاء ، فذكره البخاري في تاريخه برواية ابن جريج عنه عن عبد الرحمن بن عوف ، وابن أبي حاتم برواية يعلى بن عطاء وعبد العزيز عنه ، وابن حبان في الثقات بروايته عن عبد الرحمن بن عوف وأبي الدرداء وعنه ابن جريج ويعلى بن عطاء .
ينظر : التاريخ الكبير 135/2 ، والجرح والتعديل 441/2 ، والثقات 86/4 .

فإن لم يكن صحابياً فهو مستور وثقه ابن حبان ، ومن القرون الأولى التي تقادم العهد بها ويقبل حديث مستوريتها كما سبق ذكره غير مرة .

وحديث أبي الدرداء رضي الله عنه هذا له حكم المرفوع لأنه من الغيبيات التي لا تحصل إلا عن سماع .

فلعل الحديث أن يكون صحيحاً لغيره والله أعلم .

والمقصود بالبحث هذه الجملة اللونية (أسودان أزرقان) ، وإلا فسؤال القبر ثابت في أحاديث أخرى كما ذكر الترمذي منها حديث البراء بن عازب في الصحيحين : البخاري في تفسير القرآن)
يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت (4699 ، ومسلم في صفة الجنة ونعيمها وأهلها (عرض مقعد الميت من الجنة أو النار) 2871 ، بل تواترت به الأحاديث كما في نظم المتناثر ، الكتاني ص 123.

البصر فيه وتحديد النظر إليه، يقال زرقت عينه نحوي إذا انقلبت وظهر بياضها وهو كناية عن شدة الغضب¹.

وأحسب الكناية في السواد والزرقة وفي اجتماعهما معاً ، وذكر الدكتور أحمد ياسوف أنهما يدلان على الغرابة وشدة السواد وظلمة الزرقة²، وأضيف أن الزرقة توحى بالبرودة الشديدة التي تبلغ العظام فيسكب الأزرق على الأسود من برودته والأسود على الأزرق من ظلمته واجتماعهما من وحشته، وهذان الاسمان العجيبان (منكر ونكير) يوحيان بالصورة الفظيعة المنكرة التي مهما قدّم في وصفها فإنها ستكون منكرة عند المعاينة، يبلغ بها ذلك المبلغ اجتماع هذين الاسمين على صيغتين مختلفتين كأنما لاستقصاء النكارة وبلوغ المنتهى فيها، وكونهما اثنين يوحي بمعنى الحصار كما يقال اليوم : بين فكي كمامشة ، فهما إذاً في القبر ضيق على ضيق ، ولو أن هذه الصورة الفظيعة القائمة الباردة هامة لا تنطق ولا تتحرك لهان الأمر ولقيل موت من الموت ، ولكن ما إن يُنزل المرء قبره وحيداً غريباً حتى يبدأ ظهور متدرّج لأشخاص مفزعين منكراً أشكالهم وألوانهم تسبقهم برودتهم التي تخترق العظام ، في لقطة تصويرية عجيبة عصيّة على المحاكاة والتمثيل.

ونحن في صدد اللون الأزرق ودوره في هذه اللوحة الحية، وفضلاً عن كونه مكروهاً كما سبق ذكره ولا سيما بامتزاجه مع الأسود ، فقد أشمّ فيه رائحة الموت العتيق فالجثة إذا بردت وذهبت عنها حرارة الحياة ازرق لونها ، ومن هنا أرى الزرقة في هذين الملكين كناية عن البرودة ، إذ لم يتحول القبر بعد عما هو عليه ، فالأوان أوان امتحان ، ومن تمام المحنة في السؤال والامتحان البرودة ،

¹ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 1/ 233 .

² - ينظر : الصورة الفنية في الحديث النبوي ، ص 627 .

وهذا مشاهدٌ في الدنيا ؛ تصطك الركبتان برداً على مشارف امتحانٍ في اليوم الحار فكيف في البارد ! .

المطلب الثاني: الكنايات الملونة

وهي التي يُحسّ اللون فيها بالتوقع، وسبق ما يصلح مثلاً له في المطلب الأول في الحديث عن بني الأصفر عندما رافقته في اللوحة ملامح توحى بالصفرة كالمرض والدنانير والغدر ، وسأحاول في هذا المطلب استحضار نماذج لم يرافقها التصريح بلون من الألوان إنما يحسّ فيها اللون بذكر الأشياء الملونة .

فمما وقع كناية وفيه من هذا الضرب النارُ التي تضيء أعناق الإبل ببصرى ، في حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى))¹.

وثمة نار أخرى تحشر الناس تأتي في الكنايات الحركية ، أما هنا فالكناية ملونة وإذا كان لون النور المستقيم غير المكسور أبيض ، فإن لون الضوء الناجم عن النار أحمر أو تغلب الحمرة عليه بقدر ما يتنوّع وقودها وما يختلط بها من دخان ، وفي إضاءتها وهي في الحجاز أعناق الإبل ببصرى الشام كناية عن عظم هذه النار.

ونحن نسلم بما يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يخبرنا في هذا الحديث إلا عن عجبٍ من الأمر لو خالف سنن الطبيعة لما أنكرناه ، ولكن ما يزال الله عز وجلّ يزيدنا به إيماناً .

¹ - البخاري في الفتن (خروج النار) 7118 ، ومسلم في الفتن وأشراف الساعة (لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز) 2902 .

وها هنا فتحٌ في الجغرافيا، وحق من الحق منسجماً مع الطبيعة ، طريق فهمه المقارنة مع قول امرئ القيس الملك الذي غبرَ متنقلاً بين الجزيرة والشام :

تنوَّرتُها من أذرعاتٍ وأهلها يثرب أدنى دارها نظرٌ عالٍ¹

ومعنى تنوَّرتُها : تبصَّرت نارها . وحاص أهل الأدب حيصتهم على هذا البيت أين يضعونه ؟ أفي باب التوهّم والنظر القلبي فليس فيه ما يُنكر ، أو في باب المبالغة حتى الكذب أو ما دُعي بالإغراق الذي أصبح بيت امرئ القيس هذا رمزاً له ودليلاً عليه .

قال ابن حجة الحموي : " وبين المكانين بعدُ تأمُّ ، فإن أذرعات من الشام والنار التي تنوَّرها من أذرعات كانت يثرب مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أثبتوا هذا الشاهد في باب الإغراق لأنهم قالوا : لا يمتنع عقلاً أن تُرى النار من بعد هذه المسافة وأن لا يكون ثمَّ حائلٌ من جبل أو غيره من عِظَم جِرم النار، ولكن ذلك ممتنعٌ عادةً "².

قلت : تقع بصرى في الجنوب من سورية في الخليج الداخل في الأردن ، في سهل يرتفع بين 1000-1500 قدم ، بين جبلين جبل العرب شرقاً في سورية والمفرق من جبال عجلون في الأردن غرباً، ثم يهبط سهلها إلى الأردن حتى يعبرها لا يبلغ الارتفاع في الأردن أكثر من 1000 قدم ، حتى يخرج منه فيدخل السعودية صاعداً سهل تبوك الفسيح الذي يرتفع بحدود 1500 قدم بين جبلي الطبيق واللوز ثم يصعد قليلاً قليلاً في محاذة جبال الحجاز حتى يبلغ ما بين المدينة المنورة وجبال الحجاز بين 1500 - 2000 قدم³.

¹ - ديوان امرئ القيس ص 31 .

² - خزانة الأدب 13/2.

³ - ينظر الأطلس الإسلامي الجغرافي ، كمال هاشم حمود ص 8 ، ص 16 ، ص 74 .

فلو أن خطأ انطلق مستقيماً من الحجاز مما يلي المدينة إلى بصرى لأصابتها لا يعترضه جبل ذو شأن فليس في إضاءة نار الحجاز لأعناق الإبل في بصرى ما يمتنع عقلاً مع دلالاته البالغة على عظم هذه النار التي تبدو وكأنها شبت في بصرى ذاتها، أمّا أذرعاً - درعا اليوم - فتقع شمال غرب بصرى لكن يحول بينها وبين جهة يثرب جبلٌ من جبال عجلون في الأردن¹ ومهما كان نظره عالياً فإنه سيصطدم بهذا الجبل إلا أن ينظر من طائرة في كبد السماء أو من فوق هذا الجبل ولن يقال حينها أنه نظر من أذرعاً! وغاية الأمر أنه خطأ في الجغرافيا لا يُستنكر على من في زمنهم، ولكن يجعلنا نقف بإجلال أمام الدقة العلمية التي تجمل بها الحديث الشريف .

ويذكر أن ناراً خرجت في الحجاز ظاهر المدينة سنة 654 هـ - زمن الخليفة العباسي المستعصم بالله - أضاءت أعناق الإبل ببصرى ، وتواتر العلم بها²، ويبدو فيما وصفوها أنها كانت بركاناً ، قال ابن كثير رحمه الله: " يسيل الصخر حتى يبقى مثل الأنك، ثم يصير كالفتح الأسود "³ والله أعلم .

ومن هذا الضرب أيضاً ما روي عن سالم أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله⁴ وكان كاتباً له قال : كتب إليه عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه فقرأته : إن

¹ - ينظر : معجم البلدان ، ياقوت الحموي 130/1؛ الأطلس الإسلامي الجغرافي كمال هاشم حمود ص16 .

² - ينظر : شرح النووي على مسلم 18 / 28 ؛ سير أعلام النبلاء ، الذهبي 180/23 .

³ - البداية والنهاية 6 / 255 .

⁴ - هو عمر بن عبيد الله التيمي (-82هـ) ، سيد تميم ، البطل الجواد ، كان مع مصعب بن الزبير فكان فارسه وولي له ولايات ، ولما استحکم الأمر لعبد الملك بن مروان أعانه في قتال الخوارج فنكّل بهم .

ينظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر 290/45 ؛ الأعلام ، الزركلي 54/5 .

رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس خطيباً، قال : ((أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمْهُمْ فَأَصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ)) ثُمَّ قَالَ : ((اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجَرِّي السَّحَابِ وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ))¹.

والكلام في هذا الحرف : (الجنة تحت ظلال السيوف) ، هذه الجملة العجيبة التي تمثّل ذروة التصعيد المعنوي في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لهؤلاء المجاهدين ، حيث ابتداءً بالنهي عن تمني لقاء العدو، ثم سؤال العافية كأنما يريد تنظيم الحماسة التي تضطرم في نفوسهم حتى يلتزموا النظام والحذر وعدم الاستخفاف بالعدو، وأن القتل ليس للقتل بل الأصل السلم ولا يُترك حتى تلجئ إليه ضرورة إعلاء كلمة الله فإنها السِّلْم الحق . ولئلا تؤدي بهم هذه المقدّمة إلى شيء من الخوف أو التقاعس حتّهم على الصبر عند اللقاء، ثم سقاها هذه الشّربة الأدبية الرائقة اللذيذة : واعلموا أنّ الجنة تحت ظلال السيوف .

¹ - البخاري في الجهاد والسير (لا تمنوا لقاء العدو) 3024 بهذا اللفظ، واقتصر على الجملة المقصودة في باب (الجنة تحت بارقة السيوف) 2819 ، ومسلم في الجهاد والسير (كراهية تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء) 1742، وأبو داود في الجهاد (في كراهية تمني لقاء العدو) 2631 .

قال الدارقطني في الإلزامات والتتبع ص 305 : " وهو صحيح حجة في جواز الإجازة والمكاتبه؛ لأن أبا النضر لم يسمع من ابن أبي أوفى وإنما رآه في كتابه " .

ومن طريق إسماعيل بن أبي خالد عن ابن أبي أوفى قال سمعته يقول - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - يدعو على الأحزاب فقال اللهم .. الخ الدعاء . رواه الترمذي في الجهاد عن رسول الله (ما جاء في الدعاء عند القتال) 1678 ، وابن ماجه في الجهاد (القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى) 2796 .

والسياق الأول أتم .

ولقد وقعت هذه الكلمة من الصحابة في حَبَّات قلوبهم ، وها هو القائد أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في بعض مشاهدته يذكرها ولا يذكر غيرها ، فعن ابنه أبي بكر سمعَ أباه وهو بحضرة العدو يقول، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ)) . فقام رجل رثُ الهيئة فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله يقول هذا ؟ قال : نعم . قال فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام. ثم كسر جَفَنَ سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قُتِلَ¹.

فانظر أين وقعت مَن بعدهم أيضاً ! .

وأحسب أن كلمة (أبواب) في حديثه مدرجة ، إذ خلا منها حديث ابن أبي أوفى وهو مما اتفق عليه البخاري ومسلم فأفاد علماً قطعياً نظرياً²، مع وجود قرينة تدل على الدقة فيه وهي المكاتبة التي لم تكن - في هذا الموضع - إلا مع رويّة واستجماع فكرٍ وتمام سياق، ليس كمن يروي في حال التحام مع العدو فيجتزئ على بعض الحديث، إلا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قالها على الوجهين ، والله أعلم .

وكما شكَّلت هذه الجملة ذروة التصعيد ، فكذلك كان التصعيد في شرحها كلُّ بحسب ما تأمل، فابن قتيبة يقول: "يريد أن الجهاد يؤدي إلى الجنة فكأن الجنة تحته"³.

وصرّحوا بأنه كناية عن الدنو من العدو، والقرب من القرن حتى يصير تحت ظلّ سيفه⁴.

1 - مسلم في الإمارة (ثبوت الجنة للشهيد) 1902 .

2 - ينظر : تدريب الراوي ، السيوطي 106/1 .

3 - تأويل مختلف الحديث 1 / 122 .

4 - ينظر : فتح الباري، ابن حجر 152/1 .

قال الإمام القرطبي : " هذا من الكلام النفيس البديع الذي جمع ضروب البلاغة من جزالة اللفظ وعدوبته وحسن استعارته وشمول المعاني الكثيرة... فإنه استفيد منه مع وجازته الحظ على الجهاد ، والإخبار بالثواب عليه ، والحظ على مقاربة العدو ، واستعمال السيوف ، والاعتماد عليها ، واجتماع المقاتلين حين الزحف بعضهم لبعض... حتى كأن السيوف أظلت الضارين بها " ¹.

وإنها لكناية مُحَبَّرَةٌ اللون والملمس، فعند تثبيت اللقطة وحبس الزمن يظهر لوان من أجمل الألوان وأطيبها هما الأبيض والأخضر، فالأبيض لون السيوف المتشابهة تحت شعاع الشمس، وهي وإن كانت أميل للسواد حقاً بيد أن العرب لا تصفها ولا تمدحها في أغمارها ولكن مُشَهَّرَةً بيضاء بَرَّاقَةً في ضوء الشمس إِبَّان القتال، والأخضر اللون المقترن بالجنة من بساطها وطيرها وسندسها وشجرها .

وكما تجاور اللونان يتجاور الملمسان الحارّ والبارد، فالحار يُحَسُّ بالتوقُّع من احتكاك السيوف واصطدامها وحرّ الشمس فوقها وحرّ القتال والحركة والنفوس والأجسام، والبارد بالتوقُّع من كلمة الظلال ظلال السيوف وظلال الجنة . وهذه المعاني هي التي تجاذبُ الحسّ وتهيمنُ على الذاكرة الوهمية صاحبة الدفع والتأثير في أفعال المرء وسلوكه ، والله أعلم .

وأرى في هذا الحديث اقتصاداً في التأثير على حس المتلقي ² من جانبيين :
أولاً- التدرج في الوصول إلى القمة البلاغية التي تختزن أكبر قدر من المؤثرات الحسية (اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) ، وهذا التدرج يهيئ المتلقي ويعده

¹ - المفهم 3 / 525.

² - سيأتي مطلب خاص بهذا الاقتصاد في الفصل الخامس.

لتمثّل هذه البلاغة السامية، ولو ابتدأ الحديث بهذا المستوى فقد يستنفذ حسّ المتلقي من أول الأمر ويضعفه عمّا بعده، والله أعلم.

ثانياً- إظهار المكروه من الأمر الذي لا تحبه النفوس وهو الالتحام بالعدو مع ما يرافقه من نفع أغبر ودم أحمر وحرّ وضرّ بثوبٍ محبّب تقبله النفس وتقبل عليه في لونين أخضر وأبيض وظلّ واستراح.

والدراسات النفسية الحديثة تعتبر اللون الأحمر مُهيّجاً للأعصاب يخلق حالة من التوتر أو يدفع إليها، خلافاً للأخضر المهدئ والأبيض الذي يعني الوضوح والارتياح.¹

والنتيجة من استبدال الظلّ بالحرّ والأبيض والأخضر بالأحمر والأغبر إشاعة أجواء السكينة والثبات وصفاء القرينة في حس المتلقي بدلاً من التوتر والاضطراب وتهيج الأعصاب ، والله أعلم.

ثم هي من الاختراع الذي تسابق إليه أكابر البلغاء في العصور كلها مع قصورهم عنها وانقطاعهم دونها، وأضرب الأمثلة من الأول والأوسط والآخر :
فمن الأول خطبة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه (-73هـ) في مقتل أخيه مصعب: " وإنا والله ما نموت حبجاً كميتة آل أبي العاص، إنما نموت قتلاً بالرماح، وقُعصاً تحت ظلال السيوف " والحبج موت البعير من انتفاخ بطنه والقعص القتل والموت الوحي².

ومن الأوسط قول الوزير ضياء الدين بن الأثير (-637هـ) ممثلاً للاقتباس من الحديث النبوي : "ومن ذلك ما ذكرته في ضيق مجال الحرب ، وهو : وضاق

¹ - ينظر: الألوان نظرياً وعملياً، إبراهيم دملخي ص 69، 72، 73.

² - ينظر : الكامل في اللغة والأدب، المبرد 1 / 238؛ جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت 2 / 177.

الضرب بين الفريقين ... واستُظِلَّ حينئذٍ بالسيوف لاشتباك مجالها ، وثُبُوت
مقاعدُ الجنة التي هي تحت ظلالها " ¹.

ومن الآخر قول مصطفى صادق الرافعي رحمه الله (- 1356هـ =
1937م) في المرأة إنها كانت جزءاً من تاريخ الحرب في الجاهلية ، قال : " فإن
كانت بنتاً لم تعش إلا في ظلال السيوف ، وإن كانت أمّاً لم تلد إلا قاتلاً أو
مقتولاً... " ².

فأما الأول والأخير فلم يذكر إلا ظلال السيوف ولكل وجهه هو مؤيها،
وأما ابن الأثير فما زاد على أن فسر العبارة .

وهكذا تبين من جميع المواضع التي مرّت في هذا المبحث أن اللون إذا صُرح
به في مظان الكناية كان هو هي لأنه يمثل تجلياً لحالة داخلية، وإذا أحسّ بالتوقع
من أشياء معهودة الألوان لَوْن الكناية وزاد من تأثيرها، وهذا الذي قدّمْتُ في
أول المبحث ثم سعيت لإثباته، والله تعالى أعلم.

¹ - المثل السائر 1/141 .

² - تاريخ آداب العرب 3/65 .

المبحث الثاني

الحركة في الكناية النبوية

الحركة تعني الحياة، تعني الإمداد بعد الإيجاد، تعني الزمان والمكان، ومن هذه المعاني تصنع قَدْرَها في الكناية .

وإذ أقسِمُ الكنايات إلى حركية ومتحركة فلست أريد اصطلاح الدكتور نعيم اليافي في الصورة الحركية والمتحركة أنها في الأولى حركة في الخيال وفي الثانية حركة في الخارج¹، فلو عكس لما كان بعيداً، وأصحُّ في المذهب أن نعتبر الحركية ما كانت الحركة فيها هي الصورة فتُنسَب إليها، والمتحركة ما كانت الحركة فيها عنصراً نشطاً وليس هو كلّ الصورة .

والمقصود أن نبين تنوع الحركة في الكنايات النبوية، ثم في كل كناية نحدّد أهمية الحركة ، وأثرها النفسي وإيجاءاتها ، ومناسبتها للفكرة ، والعناصر الأخرى التي تلائم الحركة في الحديث ولو من خارج الكناية .

المطلب الأول : الكنايات الحركية

وهي أنواع :

أ- من حيث ارتباطها بالجسم : تُقسَم إلى إشارية وغير إشارية .

1- إشارية (لغة الجسد) :

أصبحت الإشارة أي التعبير بالحركة فرعاً من علوم اللغة يطلق عليه لغة الجسد²، ويقال إن هذه اللغة تمثل ثلثي الحديث العادي والثلث الباقي كلام

¹ - ينظر : تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ، ص 207 .

² - ينظر : دراسات في علم اللغة ، د. فاطمة محبوب ص 159 .

منطوق وهي التي تقيم الاتصال وتبلغ به الغاية¹، فتفسّر أو تعبّر مستقلةً عن الكلمة ، وتحمل من المعاني أضعاف ما تحملها الكلمة ، وقديماً عدّها الجاحظ من أصناف الدلالات على المعاني ، وقال: " فأما الإشارة فباليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب اذا تباعد الشخصان ...والإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له ونعم التّرجّمان هي عنه ، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط "2.

وما أكثرها في القرآن الكريم ، وتأمل قول الله تعالى : (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا) {كهف : 42} تلهّفاً وحسرة³، وقوله : (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ) {فرقان : 27} ندماً وتفجّعا⁴.

فتقليب الكف وعض الأصابع حركات تنبئ عمّا خلفها ، أما قولنا : (فلان يقلب كفيه ويعض يده) فهو الكناية ، ويقول الدكتور أحمد ياسوف : " تتضمن هذه الآيات وأمثالها إشارات يمكن أن نقول إنها صور حركية تكني عن مشاعر خلفها، وهي لغة تفوق الكلام في هذا المضمار؛ لأن الحركة تومئ إيماءً لطيفاً وتهجم إلى العين وتؤدي بعد ذلك المغزى المبتغى من الحركة "5.

لكن أول دلالة وأعم دلالة لحركة الجسد هي الحياة ، ومن ثم كانت الحركة كناية عنها، وفي حديث حَبَّةَ وَسَوَاءِ ابني خالدٍ الخزاعي قالاً : دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعالج شيئاً فأعنّاه عليه ، فقال : ((لَا تَيْئَسَا مِنْ الرِّزْقِ

1 - ينظر : لغة الجسد للإيحاءات والحركات ، عبد الهادي غلاييني ص 4 .

2 - البيان والتبيين 1/ 43 .

3 - ينظر : تفسير الطبري 27/18 .

4 - ينظر : البحر المحيط ، أبو حيان 6/ 454 .

5 - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص 396 .

مَا تَهَزَّزَتْ رُؤُوسُكُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَلْدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرٌ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ¹.

وهذا الحديث تقدم في الكنايات اللونية الحمراء، وتقدم أن (ما تهززت رؤوسكما) كناية عن الحياة.

والهاء والزاء: أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ في شيء وحركة².

ولم قال: ((ما تهززت رؤوسكما))؟ أفكانت رؤوسهما تهزُّز في علاج ذلك الشيء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختر هذا المعنى؟ على أنه ضرب من التوفيق والبلاغة المعصومة التي لا تأتئ لكلِّ أحد؛ فالرأس آخرُ الجسم سكوناً ومن فمه تخرج الروح بعد انسلاخها من سائر الجسد والأطراف، والرزق كائنٌ ما دام هذا الرأس يهتز وتُخَفِّق فيه الروح، والحديث أوعب حياة المرء من ساعة مولده إذ يخرج أحمر لا قشرة له إلى ساعة موته إذ يسكن رأسه عن الحراك.

2- غير إشارية: وهي الحركات التي لا تعبّر عن أحوال نفسية داخلية، ومع ذلك تبلغ أن تكون كناية إذا رَدِفت شيئاً ودلّت عليه، ومنه:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ))³.

¹ - تقدم تخريجه ص 198.

² - مقاييس اللغة، ابن فارس (هز ، 6 / 9) .

³ - البخاري في الفتن (قول النبي صلى الله عليه وسلم من حمل علينا السلاح فليس منا)

7072 ، ومسلم في (البر والصلة والآداب) (النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم) 2617 .

هذا الحديث متفق عليه ولم يروه من الستة غير البخاري ومسلم¹، وما من اختلاف بين الروایتين سوى أنه جاء في بعض نسخ البخاري ينزَعُ بالمعجمة وفي بعضها ينزِعُ بالمهملة كما هي عند مسلم².

ومعنى (ينزِعُ في يده) كما قال الإمام النووي: "يرمي في يده ويحقق ضربته"³.
وأما (ينزَعُ) فمعناها أن يُغري الشيطان بعضهم ببعض ويحملهم على الفساد، وعلى المعنيين هو من باب قطع الذرائع - كما قال ابن بطال - حتى لا تؤول الإشارة بالسلاح إلى ما يخشى من نزع ونزع الشيطان⁴.

ثم إن قوله صلى الله عليه وسلم (فيقع في حفرة من النار) كناية عن قتل أخيه، قال الحافظ ابن حجر: "كناية عن وقوعه في المعصية التي تفضي به إلى دخول النار"⁵.

وكان الإمام الطيبي قال: "الفاء في قوله: (فيقع) فصيحة، أي: ينزع يده فيقتله، فيستوجب النار، فيقع في حفرتها"⁶.

والفاء الفصيحة سميت بذلك لأنها تفصح عن المحذوف وتبين سببته، فشرطها إذاً أن يكون المحذوف سبباً للمذكور⁷.

والتسارع في الحدث الناجم عن الكناية واستعمال الفاء الفصيحة والذي يوحى بحجم الخطر وبُعد الهاوية يناسبه مبالغة في النهي أوّل الأمر لهذا جاء النهي

¹ - البخاري في الفتن (قول النبي صلى الله عليه وسلم من حمل علينا السلاح فليس منا) 7072، ومسلم في (البر والصلة والآداب) (النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم) 2617.

² - ينظر: فتح الباري، ابن حجر 25 / 13.

³ - شرح النووي على مسلم 16 / 170.

⁴ - ينظر: شرح ابن بطال على البخاري 10 / 17.

⁵ - فتح الباري 13 / 25.

⁶ - شرح الطيبي على المشكاة 8 / 2488.

⁷ - ينظر: الكليات، أبو البقاء الكفوي، ص 1049.

على هيئة الخبر ولفظه (لا يشير)، قال الإمام النووي : " وقد قدّمنا مرات أن هذا أبلغ من لفظ النهي " ¹.

ومّا تفضّل به (لا يشير) على (لا يُشِرُّ) في هذا الموضع أن الأولى ممدودة والأخرى مقتضبة، والمقام مقام تأنّ وتحلّم أليق به الإيقاع الهادئ الرخيم ، أمّا عند المخالفة فإن الإيقاع يتسارع فينزِعُ فيقعُ مع حذفٍ بينهما ، فيستشعر قارئ الحديث رغبةً في إمساك قلبه ألا يقع أيضاً، وذلك أن الأفعال المضارعة - وهي في حديثنا أربعة- تعين على استحضار المشهد في كل زمان ومكان ².
والكناية في هذا الحديث مثّلت ذروة الحدث فكانت مالكة الأثر وداعية الحذر.

وفي الحديث اقتصاد في التأثير على حس المتلقي من جانبين :
الأول: الحذف الذي يُتجنّب فيه ما لا يُرغب، ويؤدي إلى النتيجة دون التصريح بالفعل المستفزع (قتل الأخ) ؛ ذلك أن التصريح بهذا الفعل مرهق لأعصاب المتلقي وربما يحول بينه وبين تمثّل الجزء الذي هو الوقوع في النار .
الثاني: الإيقاع في الحديث حيث كان هادئاً رخيماً في جزء النصيحة والتوجيه مما يناسب حال التلقي والاستيعاب الهادئ ويبثّ الحِلْم في نفس المتلقي، ثم تسارع الإيقاع فجأة لإثارة حس المتلقي نحو خطورة الموقف وتداعياته .
ولو أن الإيقاع بدأ متسارعاً من أول الحديث لأتعب حس المتلقي وأضعفه عن تحيّل الجزء وتتبعه، والله أعلم .
ب- من حيث العدد : تقسم إلى مفردة ومركبة واهتزازية .

¹ - شرح النووي على مسلم 16 / 170 .

² - وانظر كثرة المدود في جزء التحذير من الحديث إلى قوله (لعل الشيطان) ففيه سبعة مدود؛ ستة طبيعية وواحد صلة ، وكلّها في الأسماء أو الأفعال، في حين قلّت المدود في القسم الثاني من الحديث فإذا هي أربعة: أحدها في الاسم (النار) وآخر صلة(يده) وآخران في حرف الجر (في) .

وذلك أن الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله رفع من شأن الحركة المركبة وهي عنده " أن يكون للجسم حركات في جهات مختلفة " ¹، والمفردة ذات الجهة الواحدة أحوج إلى شكل أولون تتجلى معه ²، وهذا نظره ، وأنت واجدٌ في الكنايات النبوية ما شئت من الحركات لها شأنها في ذاتها وشأنها في سياقها ، مفردةً أو مركبةً أو اهتزازية وهي المركبة المتكررة على نظام واحد .

1- مفردة : وهي الحركة الواحدة في جهة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَةً جَاهِلِيَّةً)) ³.

وفسره الحميدي بأنّ : "كل جماعة عقدت عقداً يوافق الكتاب والسنة فلا يجوز لأحد أن يفارقهم في ذلك " ⁴.

وقال القاضي عياض : " ظاهره سواد الناس وما اجتمعوا عليه في الإمارة، وقيل هم أهل العلم " ⁵.

وذكر ابن حجر رحمه الله أنها كناية عن معصية السلطان ومحاربتة ، وقال : " وليس المراد أنه يموت كافراً بل يموت عاصياً . ويحتمل أن يكون التشبيه على ظاهره ومعناه أنه يموت مثل موت الجاهلي وإن لم يكن هو جاهلياً ، أو أن ذلك ورد مورد الزجر والتنفير وظاهره غير مراد " ⁶.

1 - أسرار البلاغة ص 159 .

2 - ينظر : المصدر السابق ص 157 .

3 - البخاري في الفتن (قول النبي سترون بعدي أموراً تنكرونها) 7054 ، مسلم في الإمارة (وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن) 1849 .

4 - تفسير غريب ما في الصحيحين ص 59 .

5 - مشارق الأنوار 1 / 297 .

6 - فتح الباري 13 / 7 .

والحاصل أن من فارق الجماعة في فكره وشعوره وسلوكه يغلب أن يفارقهم في جسمه، فكيف عن المفارقة المعنوية بالمفارقة الحسية ، وهي غير مرضية ولو شبراً أصغر مسافة .

ثم هي حركة مفردة وحيدة، صغيرة في حجمها، قصيرة في مسافتها، تناسب ضالة هذا المنفرد إذا قيس بعظمة الجماعة ، وهي في نطاق الشبر تعبر عن إرادته ويُعاقب عليها بفصله عن الحضارة والمدنية ورده إلى الزمن الجاهلي الوحش ، فإن زادت عن الشبر تقاذفته الرياح وطوّحت به في البطاح .

2- مركبة : وهي الحركة المتعددة ، ولا بد فيها من تعدد المكان أو تكرره أما الزمان فإما أن يتحد أو يسيل .

فمن الحركة المركبة مع اتحاد الزمان التفريق بين اثنين، في حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((لا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طَهْرٍ ، وَيَدَّهْنُ مِنْ دُهْنِهِ أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى))¹.

¹ - البخاري في الجمعة (الدهن للجمعة) 883 من طريق ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبيه عن ابن وديعة عن سلمان ، والنسائي في الجمعة (فضل الإنصات وترك اللغو يوم الجمعة) 1403 ، من طريق علقمة بن قيس عن قُرْنَع الضبي عن سلمان .

ورواه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (ما جاء في الزينة يوم الجمعة) 1097 ، من حديث ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبيه عن ابن وديعة عن أبي ذر .

وقد تتبع الدرايطني (في الإلزامات والتتبع ص 206) هذا الحديث على البخاري للاختلاف على سعيد المقبري، فابن أبي ذئب جعله في مسند سلمان ، و ابن عجلان جعله في مسند أبي ذر ، وعند أبي يعلى في مسنده (مسند أبي هريرة) 6549 من طريق عبيد الله بن عمر العمري عن المقبري عن أبي هريرة .

قال في الفتح 371/2 : " فأما ابن عجلان فهو دون ابن أبي ذئب في الحفظ فروايته مرجوحة ، مع أنه يحتمل أن يكون ابن وديعة سمعه من أبي ذر وسلمان جميعاً ، ويرجح كونه عن سلمان وروده

ونحن في قوله صلى الله عليه وسلم : ((لا يفرق بين اثنين)).
قال الكرمانى : " كناية عن التبكير، أي عليه أن يبيّـر فلا يتخطى رقاب
الناس" ¹.

وساق بدر الدين العيني كلمة الكرمانى مضيفاً : " ويقال معناه : لا يزاحم
رجلين فيدخل بينهما؛ لأنه ربما ضيق عليهما خصوصاً في شدة الحرّ واجتماع
الأنفاس" ².

من وجه آخر عنه (يعني حديث النسائي) ... وأما العمري فحافظ وقد تابعه صالح بن كيسان عن
سعيد عند ابن خزيمة , وكذا أخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج عن رجل عن سعيد , وأخرجه ابن
السكن من وجه آخر عن عبد الرزاق وزاد فيه مع أبي هريرة عمارة بن عامر الأنصاري ... وإذا تقرر
ذلك عُرف أن الطريق التي اختارها البخاري أتقن الروايات , وبقيتها إما موافقة لها أو قاصرة عنها أو
يمكن الجمع بينهما "

وابن أبي ذئب هو " محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب القرشي العامري،
أبو الحارث المدني، ثقة فقيه فاضل، من السابعة، مات سنة ثمان وخمسين وقيل سنة تسع/ع " تقريب
التهذيب، ابن حجر 2/ 493.

أما محمد بن عجلان فمن جلة أهل الحديث وذكره ابن رجب في قوم ثقات في أنفسهم لكن
حديثهم عن بعض الشيوخ فيه ضعف، وذكره في رواياته عن سعيد المقبري . شرح علل الترمذي
629/2 . وذكر ابن حجر في التقريب 496/2 أنه " صدوق إلا أنه اختلطت عليه أحاديث أبي
هريرة، من الخامسة / بخ م 4 " ، وقال الأستاذ الدكتور نور الدين عتر : وعلى هذا يمكن تحسين
حديثه عدا مروياته عن أبي هريرة " شرح علل الترمذي، ابن رجب 1/ 125، حاشية رقم 2 ؛ وانظر
تهذيب التهذيب 3/ 647، وإنما أخرج له مسلم في المتابعات .

وقال الترمذي بعدما روى حديث أبي هريرة ((إن الله يحب العطاس)) في الأدب (ما جاء أن
الله يحب العطاس ويكره التثاؤب) 2747 : " و ابن أبي ذئب أحفظ لحديث سعيد المقبري وأثبت
من محمد بن عجلان".

وانظر أصحاب سعيد في شرح علل الترمذي، ابن رجب 2/ 478 .

¹ - الكواكب الدراري بشرح البخاري 6/ 9.

² - عمدة القاري 6/ 252 .

والحق أنه لا منافاة بين القولين فكلاهما مراد ولا تتخرج إرادتهما معاً إلا على الكناية، فإنه إذا بكَر لم يزاحم ولم يفرق فكان في النهي عن التفريق كناية عن طلب التبكير .

لكن هذه الكناية تشكّلت من حركة مركبة في اتجاهين متعاكسين في وقت واحد، وهذه الحركة بغض النظر عن المعنى توحى بالنفرة والوحشة إذا كانت داخلية بين المتحرّكين ، فإذا تمت بسبب خارج عنهما أوحى بالتكلّف والخشونة، وهي صورة المفرّق بين اثنين يهجمُ برجله فينفلق ذلك التآليف الجميل ويرفضّان هكذا وهكذا ، فأَي تكلّفٍ وأية خشونةٍ أوحشُ من هذا ! فلا وضاعة الجسم ولا طهارة الثوب ولا رقة العبير بمغنيةٍ عن الرقيّ الروحي الذي يحمل المرء على الأدب.

ومن الحركة المركبة مع سيلان الزمن وتدقّقه حركة النار التي تحشر الناس ، فيما روى أنس رضي الله عنه في خبر إسلام عبد الله بن سلام ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ))¹.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ ، وَعَشْرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا وَتَبَيْتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا))².

¹ - البخاري في أحاديث الأنبياء (خلق آدم وذريته) 3329 .

² - البخاري في الرقاق (كيف الحشر) 6522 ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة) 2861 ، والنسائي في الجنائز (البعث) 2085 .

وعن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم في غرفة ونحن أسفل منه ، فاطلع إلينا فقال : ((مَا تَذْكُرُونَ)) قلنا : الساعة . قال : ((إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَالْدُّخَانُ ، وَالْدَّجَالُ ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قُعْرَةِ عَدْنٍ تَرْحَلُ النَّاسَ))¹.

وطال الكلام في أمر هذه النار أتحشر أحياء الناس ، أو بعد القيام من القبور ، وحقيقة هي أو مجاز عن الفتن العظيمة التي طالما خرجت من المشرق وفر منها الناس إلى الشام؟²

فأدع ما كان من الخلاف في أمرها إلى التصوير فيها، وما زلت أعتقد أن الصورة هي مناط التأثير، والكناية هي في النار التي تحشر الناس أو ترحلهم فإنها لا تكون كذلك حتى تستطير عرضاً وارتفاعاً فيظن الناس ألا منفذ لهم فينبعثون أمامها وتلحق بهم في حركتين دائبتين في اتجاه واحد ، فلا يزال ذلك من شأنها وشأنهم حتى تبلغ بهم محشرهم، فكُنِّي بالحشر عن شدتها وعِظَم جِرمها. على أن أخوف ما فيها هو التشخيص وثوب الإرادة الذي ألبسته ونسبة الحشر إليها ولا سيما في حديث أبي هريرة حيث النار ثقيل وتبيت وتصبح وتمسي مع أولئك المتعثرين فهي معهم وكأنها منهم، وإذا لها كيد وتدبير كما لها حرٌّ وتحمير .

¹ - مسلم في الفتن وأشراط الساعة (في الآيات التي تكون قبل الساعة) 2901 ، والترمذي في الفتن (ما جاء في الخسف) 2183 ، وأبو داود في الملاحم (أمارات الساعة) 4311 ، وابن ماجه في الفتن (الآيات) 4055 .

² - ينظر : فتح الباري ، ابن حجر 11 / 379 ؛ فيض القدير، المناوي 86/3 .

وأقوى ما قيل في الطرائق الثلاث التي يُحشَر عليها الناس أنَّ من اغتنم الفرصة وكان من أهل التيقُّظ سار على فسحة من الظهر والزاد راغباً فيما يستقبله راهباً لما يستدبره فهذه طريقة، ومنهم من يتوانى حتى يضيق الوقت ويقلَّ الظهر فيشتركون فيه، والثالثة من عجزوا عن الظهر وتخلَّفوا عن الناس¹.

وإن تعجب فمَن البعير الذي يحمل العشرة ! لا تجد من الشراح إلا من يؤوِّله أو يستغربه، فقليل يحمل العشرة على التعاقب إذ لا يقدر بعيرٌ عليهم جميعاً ، وقيل هو من بدائع فطرة الله تعالى حتى يقوى على ما لا يقوى عليه غيره من البُعران².

والمشهور في البعير أنه الجمل وكنت أحسب أنه يمكن حمله على المركبة الحديثة كالحافلة مجازاً فلا يُستغرب حينئذٍ أن يَحْمِلَ (البعير) منها العشرة والعشرين ، وذاكرتنا ملأى بصور النازحين ! ثم عثرتُ على أنه يمكن إطلاق البعير على المركب الآليِّ على وجه الحقيقة ، وقيل إن البعير الذي ذُكر في القرآن: (وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) {يوسف:72} كان حملاً إذ هي مراكبهم في تلك البلاد وكانت عَيْرَ بني يعقوب، كذا رُوي عن مجاهد في تفسير الآية³، وذُكر أن البعير كلُّ ما يَحْمِلُ⁴، فالراجح من القولين أنه من بدائع فطرة الله تعالى التي مازالت تطلع علينا بالبدائع، والله أعلم .

3- اهتزازية : وهي المركبة المتكررة على نظام واحد .

¹ - ينظر : فتح الباري ، ابن حجر 379/11 .

² - ينظر : المرجع السابق 380 / 11 .

³ - ينظر : تفسير مجاهد 1 / 313 ؛ تفسير الطبري 16 / 177 .

⁴ - ينظر: لسان العرب ، ابن منظور (بعير ، 71 / 4) .

ومن هذا الضرب حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلْيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الْخُلَصَةِ)) وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية¹.

وهو البيت الذي هدمه جرير البجلي رضي الله عنه ، عبدته حَتَمٌ ودَوْسٌ وبَجِيلَةٌ وبَطُونٌ من الأزد وهوازن ، وذكر ابن الكلبي أنه كان مروءةً بيضاء منقوشةً، عليها كهيئة التاج، وكانت بَتْبَالَةً بين مكة واليمن ، على مسيرة سبع ليالٍ من مكة (هي اليوم بناحية بيشة جنوب غرب السعودية على الحدود مع اليمن)².

وروى عبد الرزاق عن معمر قال : "وسمعت غير الزهري يقول : على ذلك الحجر بيتٌ بني اليوم"³.

ومعمر هو ابن راشد(- 153هـ) بصري نزل اليمن وتزوج بها واختلف إلى مكة⁴ وهو شيخ عبد الرزاق الصنعاني ، وَتْبَالَةٌ في طريقهما إلى مكة فلعلَّ التحقق من أمره تعذّر لكونه بيتاً سُكِنَ ، أو أنهم تجنبوه لئلا ينبعثَ بزيارة مشاهير الناس ورؤوسهم⁵.

¹ - البخاري في الفتن (تغير الزمان حتى تعبد الأوثان) 7116 ، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة) 2906 .

² - ينظر : الأصنام ، ابن الكلبي ص 34 ؛ الأطلس الإسلامي الجغرافي، كمال حمود ص 8 .

³ - مصنف عبد الرزاق في الجامع للإمام معمر (باب أشراط الساعة) 20795 .

⁴ - ينظر : سير أعلام النبلاء ، الذهبي 5 / 7 وما بعدها .

⁵ - وحكى المبرّد عن أبي عبيدة معمر بن المثنّى (- 209هـ) أنها بالعبّلات من تلك الناحية ، وأنه مسجدُها الجامع ، واقتصر عليه البكري في معجمه ، والله أعلم.

ينظر : الكامل في اللغة والأدب 55/4 ؛ معجم ما استعجم 2 / 508 .

وجاء في الحديث ذكرُ نساء دوس ، لكن الحاكم روى عن عبد الله بن عمرو وقد سأله سائل ، فقال: ممن أنت ؟ قال : من بني عامر بن صعصعة . فقال : " لا تقوم الساعة حتى تدافع نساءُ بني عامر على ذي الخلصة " ¹.

فهذا له حكم المرفوع لأنه من الغيب ، وبنو عامر بطن من هوازن ، وتلك منازلهم وبساتينهم من الطائف حتى تبالة²، يشاركون القبائل اليمانية كدوس وبجيلة فيها وفي تعظيم ذي الخلصة فلا تعارض بين الحديثين.

وعوداً على اضطراب ألياقهنّ ، قال ابن الأثير : " المعنى : أنهم يرتدّون ويرجعون إلى جاهليتهم في عبادة الأوثان ، فترمّلُ نساء دوس طائفاتٍ حوله ، فترتجُ أردافهن " ³.

فهي كناية عن التعلُّد له، وربما عن الزحمة أيضاً كما يفهم من حديث عبد الله ابن عمرو، والنساء أسرع إيضاعاً في مثل هذه الفتن من الرجال لما يلبسهن من أوهام وآمال وعواطف وتعلُّقٍ بكلِّ (ذي خلصة) يُخلّصهنّ من عذاب أو يخلّصُ بهنّ في سراب، والرجال إما شركاء لهنّ في شركهن أو ذاهبُ أمرهم لا يؤبه لهم!. وحركتهنّ توحى بالبلادة والتكرّر الآلي لمعشرٍ فقدوا عقولهم وتحولت رؤوسهم في أدبارهم ، وهذه اللقطة القريبة المركزة قد يراد بها الاستخفاف والتصغير لشأنهن، فلسن غير ألياتٍ تضطرب فهي التي تصعد وتهبط وهي التي ترجو وترهب ، ولا عجب فإنّ أكثر سعي النساء إلى السحرة والكهنة والأوثان إنما هو في هذا السبيل الوضيع .

ج- ومن حيث السرعة : تقسم إلى رشيقة وبطيئة .

¹ - المستدرک علی الصحیحین، فی الفتن والملاحم (522/4) ، وقال صحیح علی شرطہما ولم یخرجاه ، ووافقه الذهبي .

² - ينظر : جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ص 279 ، وما بعدها.

³ - جامع الأصول 393 / 10 .

1- رشيقة سريعة : وهي حركة لا يفضل الزمن عنها ، فهو كساؤها وهي ملء كسائها ، مع خفة في الظل ورقة في الروح وإحساس بالانطلاق والحرية .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوماً يحدث وعنده رجل من أهل البادية ((أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ فَقَالَ لَهُ : أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ ؟ قَالَ بَلَى . وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ . قَالَ فَبَذَرَ فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتَوَاوُهُ وَاسْتَحْصَادُهُ فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ . فَيَقُولُ اللَّهُ : دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ)) فقال الأعرابي : والله لا تجده إلا قرشياً أو أنصاريّاً ، فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ¹.

قال العيني رحمه الله : "والمعنى أنه لما بزر لم يكن بين ذلك وبين استواء الزرع ونجاز أمره كله من القلع والحصد والتذرية والجمع إلا قدر لمحة البصر" ².
ورُشِّحت السرعة بالحذف الحاصل للإذن ، والأصل فإذن له فبذر .
والغاية (فبادر الطرف نباته) كناية عن السرعة الفائقة إذا كان سبق الطرف، والطرف لحظ العين أو تحريك الجفن ³، وفي (بادر) الركيزة والركاز حيث معناه المتبادر إلى الذهن : أسرع إلى الشيء ، أو سبقه . على أن فيه خلافاً يكشف عن كنز مخبوء . فقليل : الأصل في معناه السرعة وسمي البدر بداراً لمبادرته غروب الشمس بالطلوع أو لمبادرته طلوع الشمس بالغروب ، وقيل : الأصل في معناه الامتلاء وبه سُمِّيَ البدر، وبمعنى السرعة لا يخرج عن هذا الأصل إذ يصبح معنى بادر : استعمل غاية قوته وملء قدرته على السرعة ⁴.

¹ - البخاري في المزارعة (كراء الأرض بالذهب والفضة) 2348 .

² - عمدة القاري 12 / 261 .

³ - ينظر : تاج العروس، الزبيدي (طرف ، 24 / 70) .

⁴ - تاج العروس ، الزبيدي (بدر ، 10 / 137 وما بعدها)

لكن ابن فارس - رحمه الله - ذكر أن (بدر) أصلان: أحدهما كمال الشيء وامتلاؤه، والآخر الإسراع إلى الشيء¹.

وفي (بادر الطرف نباته) اجتمع الأصلان : السرعة والكمال لقوله بعدُ : ((فكان أمثال الجبال)) .

وبه تظهر فضيلة الفعل بادر على الفعل سبق في هذا المقام إذ يمثِّل الحركة الكاملة في سرعتها والكاملة في حسننها ، وإلا فكم من عَجَلٍ أورث العِللَ وخطفٍ أورد الحتف .

والحديث مع ذلك آية في الظرف والرفقة ، ففيه الغرابة التي تداعب الخيال ، وفيه اللطف والتحبب مرتين مرة في قول الله تعالى : "دونك يا بن آدم فإنه لا يشبُعك شيء "، وهذه رآها بعض الشراح توبيخاً² فلعله توبيخٌ يتخرَّج على التحبُّب أيضاً وإلا فكيف يتفق مع الإغراء في (دونك يا بن آدم)؟ ويظهر أن الموضوع موضع تبسُّطٍ ومفاكهة، وشاع جو المفاكهة على الحاضرين فحرَّك داعية الظرف عند الأعرابي فاسترسل فيها، ولم تكن كلمته غريبةً عن جوِّ الحديث فضحك النبي صلى الله عليه وسلم.

وواهاً لأهل الأدب والسَّمَر لعب الحديث في قلوبهم واستروحوا نسيمه فأودعوه دوواوينهم ومؤانساتهم³.

2- بطيئة ثقيلة : والبطء والثقل في حركة ما في الخارج تنعكس قوةً لمسية ضاغطة في الداخل أقلُّ ما فيها الإحساس بالضييق وشيء من اختناق القلب .

¹ - مقاييس اللغة (بدر ، 208/1) .

² - كالشيخ ملا علي القاري رحمه الله في المرقاة 261 / 16 .

³ - منهم الشيخ أبو البركات بدر الدين الغزي (984هـ) في كتابه المراح في المراح ص 78.

كالبغيض الذي جاء نعتُه في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْبَلِغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ))¹.

¹ - الترمذي في الأدب عن رسول الله (ما جاء في الفصاحة والبيان) 2853 ، وأبو داود في الأدب (ما جاء في المتشدد في الكلام) 5005 ، قال الترمذي عقبه : " هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وفي الباب عن سعد " .

ومدار الحديث على نافع بن عمر الجمحي عن بشر بن عاصم الثقفي عن أبيه عاصم بن سفيان عن عبد الله بن عمرو ، قال المناوي في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي حسنه الترمذي : " وإنما لم يصححه لأن فيه عمر بن علي المقدمي ، قال الذهبي : كان مدليساً موثقاً " . فيض القدير 283 / 2 ؛ الكاشف 76/2 .

وهو " عمر بن علي بن عطاء بن مُقَدَّم ... بصري أصله واسطي ، ثقة وكان يدلّس تدليساً شديداً ، من الثامنة مات سنة تسعين وقيل بعدها / ع " تقريب التهذيب ، ابن حجر 2 / 416 . لكنه صرح بالتحديث عن نافع عند الترمذي ، وأرى والله أعلم أنه لم يصححه من أجل عاصم ابن سفيان الثقفي ، فإنه تابعي روى عن أبيه سفيان بن عبد الله بن ربيعة الثقفي وعمر بن الخطاب وأبي ذر وأبي أيوب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعقبة بن عامر الجهني ، وروى عنه ابنه بشر وابن ابنه سفيان بن عبد الرحمن وعمرو بن شعيب . ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل مكة ، قال : وكان في الطائف بعد هؤلاء من الفقهاء والمحدثين فذكره . الطبقات الكبرى 518/5 . وذكره ابن حبان في الثقات 236/5 .

وفي تقريب التهذيب ، ابن حجر 2 / 285 : " صدوق ، من الثالثة / 4 " ، ولم يذكر في كتب الجرح والتعديل ما يدل على غمزة في حفظه أو أنه خالف ، وما وثقه غير ابن حبان ، والله أعلم .

ينظر : التاريخ الكبير ، البخاري 6 / 479 ، الجرح والتعديل ، ابن أبي حاتم 6 / 344 . وحديث سعد الذي أشار إليه الترمذي رواه أحمد في المسند (مسند العشرة المبشرين) 1597 من طرق أحسنها من طريق زيد بن أسلم عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً : ((لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بألسنتهم كما يأكل البقر بألسنتها)) .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد 8 / 32 : " ورجاله رجال الصحيح إلا أن زيد بن أسلم لم يسمع من سعد ، والله أعلم " .

قال المناوي : " ووجه الشبه إدارة لسانه حول أسنانه وفمه حال التكلم كما تفعل البقرة بلسانها حال الأكل . وخص البقرة من بين البهائم؛ لأن سائرهما تأخذ النبات بأسنانها والبقرة لا تحتش إلا بلسانها ¹ .

ولسنا في سبيل التشبيه بيد أن قوله : ((يتخلل بلسانه)) كناية عن التكلف والتفاحص إذ لا يكون التخلل إلا عن حالة ذاهبة في النفس مذهب اللسان بين الأسنان وقعر الفم، فإذا هو يشقق الكلام ويتلبث فيه ويتقعر فلا يكاد المعنى يصل إلا شاحباً مما لقي من وطأة الإيقاع الثقيل .
ولا جرم أن لسان هذا (البليغ) ليس بأثقل على السامعين من روحه .

هـ- ومن حيث القوة : تنقسم إلى عنيفة وضعيفة .

1- عنيفة : وهي الحركة القوية وبقدر ما تحتاج من الطاقة الطبيعية تأخذ من الطاقة النفسية للمستمع حتى يستطيع تمثلها، وفي حديث صلح الحديبية .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّا لَمْ نَحْجِ لِقَتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جُنَّا مُعْتَمِرِينَ وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكْتُهُمُ الْحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ فَإِنْ شَاءُوا مَا دَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُحْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ ، فَإِنْ أَظْهَرُ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ

وذكر البيهقي في الشعب 4/ 253 عن نعيم بن حماد عن ابن المبارك قال : " أدركت أصحابنا يقطعون الكلام "، قال البيهقي: " يريد أنهم كانوا يخافون حديث النبي صلى الله عليه وسلم: يكون قومٌ يأكلون بالسنتهم " .

وهذا يدل على شهرته عندهم .

¹ - فيض القدير 2 / 283 .

فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جُمُّوا ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرَدَ سَالِقَتِي وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ ...))¹.

قال ابن الأثير : " السالفة : صفحة العنق، وانفرادها كناية عن الموت ؛ لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت "².

أي بقطع العنق بالسيف ونحوه أو بتقطيع الأوصال في القبر كما ذكر القاضي عياض، وحكى قولاً أن معناها الانفراد عن الناس بمصيري وحيداً في القبر، قال : "والأول أولى وأشبه بذكر السالفة "³. ويحتمل أن يكون الانفراد عن الناس ببقائه وحيداً في القتال "⁴.

وفي صفة النبي صلى الله عليه وسلم من حديث علي رضي الله عنه أنه كان " إذا التفت التفت معاً "⁵، ومن حديث أم معبد قالت : " في عنقه سَطْعٌ "⁶ والسَطْعُ من كل شيء انتشار وارتفاع⁷. وهاتان كلمتان يشد بعضهما بعضاً ، فإن المرء لا يلتفت معاً إلا إذا كان في عنقه سَطْعٌ ، وهو الذي يُدعى أغلب العنق، ويقال للأسد أغلبٌ لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعاً⁸، قال ابن

¹ - البخاري في الشروط (الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب) 2734 ، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، وأبو داود في الجهاد (في صلح العدو) 2765 ، من حديث المسور ليس فيه هذه الجملة ، وهي في البخاري فكأنها من حديث مروان ، والله أعلم .

² - جامع الأصول 286/8 .

³ - مشارق الأنوار 289/2 .

⁴ - ينظر : فتح الباري، ابن حجر 338/5 .

⁵ - الترمذي في المناقب عن رسول الله (ما جاء في صفة النبي) 3638 ، وحسنه .

⁶ - الحاكم في المستدرک ، كتاب الهجرة (10/3) وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

وينظر : محمد رسول الله ، الشيخ عبد الله سراج الدين ص 14 ، 18 .

⁷ - ينظر : لسان العرب، ابن منظور (سطع ، 8/154).

⁸ - ينظر : المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصبهاني ص 364 ؛ الجامع لأحكام القرآن

، القرطبي 19 / 222 . في تفسير قوله تعالى : (وَحَدَائِقُ غُلْبًا) {عبس: 30}.

منظور: " وهم يصفون السادة أبدأً بِغَلْظِ الرَّقَبَةِ وطولها"¹. وكذلك يصفون الأشداء من الرجال ، ولنا قول كعب بن زهير رضي الله عنه يمدح الأنصار بأبلغ ما يقدر عليه إرضاءً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول :

دَرَبُوا كَمَا دَرَبْتُ بِبَطْنِ خَفِيَّةٍ غَلْبُ الرَّقَابِ مِنَ الْأَسْوَدِ ضَوَارِي²

فإذا عُلِمَت هذه الصفة من عنق النبي صلى الله عليه وسلم ، وانضم إليها قوة العزم ووثاقة الجسم وشدة العضلة ، فهم كم في هذه الحركة المفترضة المعبر عنها بانفراد السالفة من عنف وشدة.

وهذا كله على سبيل الفرض³، إذ الأمر إلى الله ، يُقَسِّمُ به النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : ((والذي نفسي بيده)) لا إلى الملائة المؤمنين ولا بيدهم ، وأتَى لهم، وقد عصمه الله وفداه المؤمنون بأرواحهم ، ولكنها كما قال الرافعي الأديب رحمه الله : " وإنما لكلمة بمعركة ! "⁴.

2- ضعيفة : وهذه على العكس من سابقتها حركة واهية متهاكة لا تستهلك كبير طاقة من الواقع ولا من النفس لتحسَّ بها وتتخيَّلها .

وفي الحديث : ((خَرًّا عَلَى وَجُوهِهِمَا)) كناية عن الموت وصعود الروح التي كانت تمسك الجسم ، أو عن تلاشي القدرة وفقدان القوة والإرادة .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يَتَرُكُونَ الْمَدِينَةَ عَلَى خَيْرٍ مَا كَانَتْ لَا يَغْشَاهَا إِلَّا الْعَوَافِ - يُرِيدُ عَوَافِي السَّبَاعِ - وَالطَّيْرِ

¹ - لسان العرب (غلب ، 651/1) .

² - ديوان كعب بن زهير ص 28 ؛ الأمالي في لغة العرب ، أبو علي الفاي ، 209/1 .
ودرب بالأمر ضري به وصار ذا دُربة، كما في لسان العرب (درب ، 374/1) ، فشبههم كعب بن زهير بالأسد الغلب الضارية في غياضها.

³ - كذا قال الحافظ ابن حجر في الفتح 338/5 ، لقوله بعد : ((وَلْيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ)) .

⁴ - تاريخ آداب العرب 337 /2 .

وَأَخْرَ مَنْ يُحْشَرُ رَاعِيَانِ مِنْ مُزَيِّنَةِ يُرِيدَانِ الْمَدِينَةَ يُنْعَقَانِ بَغْنَمَهُمَا ، فَيَجِدَانَهَا وَحْشًا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَا ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ خَرَا عَلَى وَجْهِهِمَا))¹.

النق صياح الراعي بغنمه وزجره لها ، وهو صوت الغراب أيضاً ، هو له حقيقة وقد يستعار لغيره من الحيوان ، ثم هو في الغراب يقال: نَعَقَ ونَعَقَ ونَعَبَ وشَجَبَ ، ويقال: نَعَقَ بخير، ونَعَقَ ونَعَبَ وشَجَبَ بَيْنَ².

ورأى القاضي عياض أن هذا الترك للمدينة جرى في العصر الأول وانقضى حين نُقِلَت الخلافة إلى الشام والعراق وكانت المدينة في أحسن أحوالها ديناً وعمراناً ، وأن ثمارها تُرِكَت لعوافي الطير والوحش في بعض الفتن ثم رجعوا إليها³. واستظهر النووي واختار أن ترك المدينة يكون في آخر الزمان عند قيام الساعة ، محتجاً بحديث الراعيين وأنها آخر من يُحْشَرُ⁴.

وقوله: (فوجدانها وحشاً) أي خلاءً قفراً، وقيل ذات وحش، وهذا من هذا. وقيل يجدان غنمهما حال الزعق بها وحوشاً تبديلاً في الخلق أو نفرةً وتأنيباً في الخُلُق، ويؤيده أن هذا الوجود المذكور كان قبل بلوغهما ثنية الوداع ودخولهما المدينة⁵، وبعود الضمير في (يجدانها) إلى الغنم يحصل معنىً جديداً وفائدة لا تحصل في عودِه إلى المدينة التي عُلِمَت وحشتها من أول الحديث، والمعروف من

¹ - البخاري في الحج (من رغب عن المدينة) 1874 ، ومسلم في الحج (في المدينة حين يتركها أهلها) 1389 . وروى عمر بن شبة في تاريخ المدينة 1 / 277 أن ابن عمر رد على أبي هريرة قوله في الحديث " خير ما كانت " وقال : " أعمر ما كانت " ولا تعارض إذ الخير يطلق على المال والرزق وال عمران ولا يتمحض للدين بدليل قوله تعالى : (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) {العاديات : 8} ينظر : تفسير الطبري 24 / 568 .

² - ينظر لسان العرب ، ابن منظور (نعق ، 10 / 356) ، (شجب ، 3 / 102) .

³ - ينظر: إكمال المعلم 4 / 507 .

⁴ - ينظر: شرح النووي على مسلم 9 / 160 .

⁵ - ينظر: فتح الباري ، ابن حجر 4 / 91 .

أمر الحيوان والدواب أنها تنفر وتتوحش قبيل الظواهر الطبيعية المحليّة كالزلازل والأعاصير ونحوها ، فكيف يكون حالها قبيل الساعة! وهذا يرجع بنا إلى البُعران التي تحمل الناس غداة فرارهم من النار الحاشرة¹، فما ترجّح من أنها مراكب آلية يقوى الآن بأنه لن يكون من السهل تذليل الدواب وركوبها في تلك الحالة الكونية العصبية ، والله أعلم .

وإذا انقلبت الغنم وحشاً أو توحّشت طباعها فلا أظنهما يقدران عليها بل يُعِنّان منها هرباً أو يُعِنّان لها طلباً بحسب معنى التوحش ، فيصِلان ثنية (الوداع!) وقد لقيا من سفرهما نصباً ، فيلقيان نظرة على المدينة ، ويخرّان على وجوههما .

حركةٌ ضعيفة هي آخرُ أمر البشرية والفضلة الباقية من قوّتها .
ونسلم في هذا المشهد نعيتهما ، ثم يتلاشى الصوت ويمضي المشهد صامتاً مع توقّع لهاث متقطّع وأنفاس مبهورة .
وأعجبُ من اختيار النعيق في هذا الموضع دون الصياح والزجر وهو في ذاكرة الناس ألصقُ بغراب البين ، فهل بقيا من دون أهل الأرض راعيين للغنم أو ناعيين للدنيا ؟

وعجيبية أخرى تتعلق بالحبكة القصصية والسرد السينمائي ، فإن الكارثة إذ تحلُّ بالقوم وتستأصل خضراءهم لا تذهبُ بهم جملةً بل تدع منهم بقية تكون كالشاهد على الدمار فإذا تم المرادُ وقُرئت الحكاية من خلال هذه البقية عادت الكارثة على هذه البقية وألحقتها بأصلها .

وأزعم أن أثر الحديث ما كان له أن يظهر لو لم يُنظر إلى الحادثة من خلال هذين الراعيين ، والله أعلم .

¹ - مرّ الحديث عنها ص 233.

و- ومن حيث الاستمرار والتعاضد: ثلاث حركات منقطعة وممتدة ومتنامية .

1- منقطعة : وهي حركة مُنَعَت عن وجهها مع وجود الحافز، وهذا المنع في رأي الدكتور أحمد ياسوف : " يقرب الصور الحركية من مظهر النحت ، إذ يجمد الزمان في الظاهر مما يوحد المكان " ¹.

والجمود في الظاهر كما قال، أمّا في الباطن فقد يحدث المنع مع الدفع توتراً في الطبيعة وتوتراً موازياً في نفس المتلقي للصورة ².

وأصدق مُعَبِّر عن هذا التوتر قولُ النبي صلى الله عليه وسلم: ((كيف أنعم؟)). فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((كيف أنعمُ وصاحبُ الصُّور قد التَقَمَ القَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ متى يُؤْمَرُ أن يَنْفُخَ ؟)) قال: قلنا يا رسول الله فما نقول يومئذ ؟ قال: ((قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل)) ³.

¹ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص 665.

² - يرى الدكتور شكري عياد (بين الفلسفة والنقد ص 68) أن السكون الظاهري قد يكتسب من خلال طريقة تأليفه شاعرية تضيف حركة داخل السكون تكون جوهر الجمال الحق.

³ - صحيح ابن حبان ، في الرقائق (الأذكار) 823 ، من طريق عثمان بن أبي شيبة عن جرير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري ، وهو في مسند أبي يعلى بهذه الطريق (مسند أبي سعيد الخدري) 1084 ، وهؤلاء ثقات رجال الشيخين ، وأخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله (ما جاء في شأن الصور) 2431 ، من طريق عطية العوفي عنه وقال: "حديث حسن، وقد روي من غير وجه هذا الحديث عن عطية عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه" ، ولم يشر الترمذي إلى رواية أبي صالح ذكوان السمان وهي أقوى من رواية عطية العوفي، وعطية صدوق يخطئ كثيراً، وكان شيعياً مدلساً " من الثالثة مات سنة إحدى عشرة / يخ د ت ق " تقريب التهذيب، ابن حجر 393 / 2 . فتحسين الترمذي للحديث إنما هو من طريق عطية فقط ، وأما من طريق أبي صالح فهو صحيح ، والله أعلم.

والحركة هنا في التقام القرن وحنى الجبهة ، قال الشيخ ملا علي القاري: " وهو كناية عن المبالغة في التوجه لإصغاء السمع وإلقاء الأذن، ينتظر متى يؤمر بالنفخ . والظاهر أن كُلاً من الالتقام والإصغاء وما بعده على الحقيقة " ¹.
ويبدو الملك في حالة من الجاهزية القصوى والإقبال التام على شأنه لا يحول بينه وبين النفخ إلا الإذن ، وإنها لنفخة لها ما بعدها! إنها خراب العالم . وإنما ينعم من لا يعلم ، لكن من علم وفهم طار لبه وصار إلى حال من الترقب والقلق موازية لحال الملك في الجاهزية وأدمن على قول حسبنا الله ونعم الوكيل .

2- ممتدة : وهي الحركة المستمرة لا يوجد ما يعوقها ، ولا تزيد عما كانت عليه ، فتبدو انسيابية سهلة ، لا تعلو ولا تهبط ، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ ، وَاقْرَءُوا إِنَّ شِئْتُمْ : (وَزِلِّ مَمْدُودٍ) {الواقعة: 30} . وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدَكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ)) وعند مسلم : ((لا يقطعها)) ².

فهذا حديث صحيح متفق عليه ، ورواه مع الشيخين الترمذي وابن ماجه ، وموضع الشاهد من الحديث ((في الجنة شجرة يسيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ

¹ - مرقاة المفاتيح 16 / 87 .

² - من حديث أبي هريرة : البخاري في بدء الخلق (ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة) 3253 ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (إن في الجنة شجرة ...) 2826 ، والترمذي في تفسير القرآن عن رسول الله (ومن سورة الواقعة) 3292 ، وابن ماجه في الزهد (صفة الجنة) 4335 .

سَنَةٍ)) لا اختلاف فيه، وهو كناية عن عِظَم الشجرة في صورة حركية ممتدة انسيابية سهلة لا يوجد ما يعوقها.

قال ابن قتيبة في معنى ظلها : " أي ذراها . وهو مثل قولك للرجل: أنا في ظلك. تريد في ذراك وناحيتك . والعرب تجعل الليل ظلاً وهو لا شمس فيه " ¹.
وذكر القاضي عياض أنه قد يكون بمعنى الراحة والنعيم ، كما قيل : عيش ظليل أي طيب ².

قال الشيخ بدر الدين العيني: " وإنما احتيج إلى هذا التأويل لأن الظل المتعارف إنما هو وقاية حر الشمس وأذاها ، وليس في الجنة شمس ، وإنما هي أنوار متوالية لا حر فيها ولا قر " ³.

ولا مانع من حمله على الحقيقة وأنه يمشي تحت أغصانها ويسمى ظلاً وإن لم تكن شمس على مذهب العرب في تسمية الليل ظلاً كما في آخر المنقول عن ابن قتيبة ، بل الظل في الأصل الستر مطلقاً، فيقع على ما يستر من الشمس، وعلى ما لا تطلع عليه الشمس، وبذلك يكون أعم من الفيء الذي هو بعد الزوال ⁴.
وبسط الحريري هذا المعنى فقال : " ومعنى الظل الستر ، ومنه اشتقاق المظلة ؛ لأنها تستر من الشمس ، وبه أيضاً سُمِّي سواد الليل ظلاً ؛ لأنه يستر كل شيء . فكأن اسم الظل يقع على ما يستر من الشمس ، وعلى ما لا تطلع عليه " ⁵.

وهذا من معنى الطلح المنضود والظل الممدود الذي في سورة الواقعة، والذي ذكر الإمام مجاهد بن جبر أنه الطلح المتراكم، ذلك أن أهل قريش كانوا يُعجبون

¹ - غريب الحديث 1 / 361 .

² - ينظر : مشارق الأنوار 1 / 645 .

³ - عمدة القاري 15 / 216 .

⁴ - ينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس (ظل ، 3 / 461) ؛ لسان العرب، ابن منظور (ظلل،

11 / 415) .

⁵ - درة الغواص ص: 110 .

بَطْلَحٍ وَجَّ وظلاله¹، فأخبر الله عز وجل أن أهل الجنة في ظلٍّ دائمٍ لا تنسخه الشمس فتذهبه، وكل ما لا انقطاع له فإنه ممدود².

وقال الفخر الرازي(-606هـ): " الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة، وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس ... وهذه الحالة أطيّب الأحوال؛ لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية فإذا أطيّب الأحوال هو الظل³."

إذاً على الحقيقة بلا تأويل يكون لهذه الشجرة ظل ندي ممدود دون أن يعني هذا وجود شمس وحرٍّ وضوءٍ باهر .

ورب اختلاف في كلمة يفتح باباً للتأمل: علام اختيرت هذه الكلمة دون غيرها في هذا الموضع ؟

فمن عجائب هذا الحديث أنك تقرؤه فلا يخطر في بالك العناء والمشقة رغم أنّ المسير الطويل مَظَنَّتُهُ، ولو ذُكِرَ مسير مئة سنة في خبرٍ من الدنيا لتعبت النفس طويلاً في تعقُّب هذا المسافر وتصور رحلته، ولكنها الجنة، والسرُّ في كلمة الظل؛ كأن وقوعها في الحديث ولا حرّاً ولا شمسَ للإيحاء بمعاني النزهة المستحبة في أذهان الناس ، كما جاء الفعل (يسير) بصيغة المضارع مذكّراً بالوصف المحبوب السهل: يسير .

¹ - وجَّ هو الطائف أو ناحية منها ، والطلح مفردة طلحة شجرة طويل يستظل بها الناس والإبل ولها أغصان طوال عظام تنادي السماء ، ولها ساق عظيمة لا تلتقي عليه يدا الرجل وتسمى أم غيلان، وقيل إن الطلح شجر الموز ، والله أعلم . ينظر: لسان العرب ، ابن منظور (وجج، 2/ 397) و (طلح، 2/ 530) .

² - ينظر: تفسير مجاهد 2 / 647 ؛ تفسير الطبري 23 / 114 .

³ - مفاتيح الغيب 24 / 77 .

فهنا اقتصادٌ في التأثير الحسي في نفس المتلقي يتعلق بكلمة الظل التي تنشرُ الراحة واليسر، وبه تحقّق المقصود من الكناية بسير مئة سنة عن عِظَم هذه الشجرة وأغصانها، دون أن تشعر النفس بأدنى هِناةٍ من وعشاء السفر ووطأة السنين ممّا لا يتفقُ وروح الجنة وهناءها .

3- متنامية : تبدأ صغيرة ثم تتعاضم ، وتقابلها حركة متنامية في نفس المتلقي وشعوره.

وفي حديث السبعة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَدْلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ))¹.

وامتلاؤها بالدمع حركة متنامية تنبئ عن شعور متعاضم ، هو في الحديث الحبُّ أو الخشية أو كلاهما معاً ، وفيضاها كناية عن هذا الشعور .
قال ابن حجر: " وفيض العين بحسب حال الذاكر ، وبحسب ما يُكشَف له؛ ففي حال أوصاف الجلال يكون البكاء من خشية الله ، وفي حال أوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق إليه"².

¹ - البخاري في الزكاة (الصدقة باليمين) 1423 ، واقتصر على الشاهد في في الرقاق (البكاء من خشية الله) 6479 ، ومسلم في الزكاة (فضل إخفاء الصدقة) 1031 ، والترمذي في الزهد (ما جاء في الحب في الله) 2391 ، والنسائي في آداب القضاة (الإمام العادل) 5380 .

² - فتح الباري 2 / 147 .

وكونه خالياً أدلّ على صدقه وأبعد عن الرياء والتصنّع والمؤثرات الجمعيّة ،
ومن ثمّ كان حقيقاً باصطفاء خاص يوم القيامة ، قال المناوي : " فلما فعل ذلك
حيث لا يراه أحدٌ إلاّ الأحد كان معاملةً لله فأواه إلى ظله " ¹.

والحال (خالياً) توحى بوجهين لدينار واحد ، الأول أنه ذكر الله خالياً عن
الناس ، والثاني أنه ذكر الله خالياً به . وبينهما فرق كحدّ السيف فالخلوة في
الأول عارضةٌ أحسن اغتنامها وصرف داعية الهوى والمعاصي بذكر الله ، وفي
الثاني خلوة مقصودة مُرادٌ بها ذكر الله ، والثانية أرفعُ والشغل فيها بالله من أوّلها
ولذا قلت : خالياً به ، وتُرشّح لجزءٍ من جنس العمل ، فقاصدُ الخلوة بالله إنما
يأوي من حر الدنيا وهمومها وأحزانها إلى ظل الله ولا يركن إلى شيء سواه ،
والجزء أن يأويه الله إلى ظلّه يوم الحرّ الأكبر .

ز- ومن حيث الشكل الهندسي : أفقية، وشاقولية، ومنحنية تحكي الدائرة
إذا ارتد آخرها على أولها .

1- أفقية : وهي أكثر الحركات في الواقع وفي الحديث أيضاً وأخفها على
النظر ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((
مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي
السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا
أَقْرَنَ ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ
الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ
الدُّكْرَ)) ².

¹ - فيض القدير 4 / 89.

² - البخاري الجمعة (فضل الجمعة) 881 ، ومسلم في الجمعة (الطيب والسواك يوم الجمعة)
(850 ، والترمذي في الجمعة عن رسول الله (ما جاء في التبكير إلى الجمعة) 499 ، والنسائي

هؤلاء ملائكة البُكور يكتبون الناس على قدر منازلهم في الحضور ، في هيئة راقية تمثّل النظام وتطلب الكمال في تصعيد الزمن والحدث : الزمن يتقارب والقربان يتضاءل من بدنة إلى بيضة ويخرج الإمام ، فإذا خرج حضرت الملائكة ، وحضورهم كناية عن طي الصحف وانقضاء الكتابة وفوات فضيلة التبكير .

ويحضرون من باب المسجد إلى مواضع استماعهم في حركة أفقية تشبه حركة الناس ليس فيها غرابة ، فكأنهم بعض جماعة المسلمين أُسند إليها عمل الرقابة مع كونها حريصة على استماع الذكر . والفعل حضرت يوحي بالحضارة والأصل فيهما واحد¹، وجاء الفعل بالماضي وكنايةً عن محذوف هو طي الصحف إجماعاً بالسرعة وحثاً على الاستعجال وإضراباً عن المتخلفين الجفاة الكسالى .

على أنهم غير الحفظة المكلفين بكتابة الأعمال في كل آن².

وقد استلهم الأدباء من هذه الحركة معنى السبق والفضل وجرّوا بها مجرى المثل وصاروا يقولون عند كل مناسبة : خشيتُ أن تُطوى صحائف أهل البرِّ وليس لي فيها ذكر³.

في الجمعة (وقت الجمعة) 1388 ، وأبو داود في الطهارة (في الغسل يوم الجمعة) 351 ، وابن ماجه في إقامة لصلاة والسنة فيها (ما جاء في التهجير إلى الجمعة) 1092 ، من طريق ابن المسيب عن أبي هريرة ((إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الناس على قدر منازلهم الأول فالأول ، فإذا خرج الإمام طوّوا الصحف واستمعوا الخطبة ، فالمهجر إلى الصلاة كالمهدي بدنة ...)) .

¹ - ينظر : مقاييس اللغة العربية ، ابن فارس (حضر ، 75/2) .

² - ينظر : فتح الباري ، ابن حجر 368 / 2 .

³ - ينظر : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، ابن حبان ص 245 .

2- شاقولية : صاعدة أو هابطة ، ومنها في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ))¹.

قال الحربي : " الرشح العرق لأنه يرشح من البدن "².

وعند القاضي عياض يحتمل أن المراد عرق نفسه وغيره فيخفف عن بعض ويشدد على آخرين كلٌّ بحسب عمله، ويحتمل عرق نفسه خاصة³.

قال النووي: "وسبب كثرة العرق تراكم الأهوال ودنو الشمس من رؤوسهم ورحمة بعضهم بعضاً"⁴.

وقال ابن حجر : " واستشكل بأن الجماعة إذا وقفوا في الماء الذي على أرض معتدلة كانت تغطية الماء لهم على السواء لكنهم إذا اختلفوا في الطول والقصر تفاوتوا فكيف يكون الكل إلى الأذن ؟ والجواب أن ذلك من الخوارق الواقعة يوم القيامة . والأولى أن تكون الإشارة بمن يصل الماء إلى أذنيه إلى غاية ما يصل الماء، ولا ينفي أن يصل الماء لبعضهم إلى دون ذلك "⁵، واستدل لما قال بأحاديث منها حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ ... قَالَ فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ فَمِنْهُمْ مَنْ

¹ - البخاري في تفسير القرآن (يوم يقوم الناس لرب العالمين) 4938 ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها) 2862 ، والترمذي في صفة القيامة والرقائق (ما جاء في شأن الحساب والقصاص) 2422 ، وابن ماجه في الزهد (ذكر البعث) 4278 .

² - غريب الحديث، الحربي 1 / 288 .

³ - ينظر: إكمال المعلم 8 / 392 .

⁴ - شرح النووي على مسلم 17 / 195 .

⁵ - فتح الباري 11/393 .

يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ الْجَامَاً)) قال: وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه¹.

وسواءً عبّر الحديثان عن موقفين مختلفين أم عبّرا عن الموقف ذاته ، فإن لكل منهما وجه يختلف عن صاحبه، فالأول (حديث ابن عمر) يبدأ بصورة جماعية وينتهي بلقطة قريبة مركزة على فرد واحد، ولم يبيّن سبب العرق لكنه ذكر القيام لرب العالمين. والثاني (حديث المقداد) لَوْحَةٌ جماعية عنقودية تفرّع إلى صورٍ أصغر لكنها جماعية أيضاً، ويذكر سبب العرق دنوّ الشمس من رؤوس العباد .

فكأن العاملَ في الأول عند القيام لرب العالمين معنويٌّ والعرق فيه ناجمٌ عن حالة نفسية داخلية من خجل أو خوف فناسب التمثيل بواحد، و العاملَ في الثاني حسيٌّ نجم العرق فيه عن سبب خارجي هو دنو الشمس فناسب تصوير الجماعة.

وفي أيامنا يقف المرء موقف خزي فيصفونه بقولهم : غَرِقَ في عَرَقِهِ ، أي: غاب في رشحه مجازاً عن الخجل ، أما أن يغيب في رشحه يوم القيامة فكناية عن الخجل؛ لأن العرق حاصلٌ حقيقة. وتمّت الكناية في حركة شاقولية متنامية حيث لا يُراد صرف الفكر في الحديث الأول إلى امتداد العرق أفقياً بل المراد ارتفاعه حتى يبلغ أنصاف أذنيه ، والله أعلم .

3- دائرية : وهي المنحنية التي ارتد آخرها على أولها . وفي الحديث : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))¹.

¹ - مسلم في الجنة وصفة نعيمها (في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها) 2864 .

واللجام حبلٌ أو عصاً تُدخَل في فم الدابة وتُلزق إلى قفاه².
 فذكر الخطابي أن الممسك عن الكلام ممثّل بمن أجم نفسه . فإذا أجم لسانه
 عن قول الحق والإخبار عن العلم والإظهار به يُعاقب في الآخرة بلجامٍ من نار ،
 وخرج هذا على معنى مشاكلة العقوبة للذنب³.
 وقال المناوي : " شَبَّه ما جُعِل من النار في فم الكاتم باللجام تشبيهاً بليغاً
 حيث خصّ النار وهو الذي أخرجه من باب الاستعارة "4.
 وتقدّم الشيخ ملا علي القاري بالفكرة ، فذكر تشبيه النار باللجام الذي قاله
 المناوي ، وزاد : " وَشَبَّه بالحيوان الذي سُخِّر وَمُنِع من قصده ما يريدُه "5.
 وأرى - والله أعلم- أن (أجمه الله بلجام من نار) ليست من باب (ومنهم من يلجمه العرق) في الحديث السابق ، فالثانية (يلجمه العرق) تعني

¹ - من حديث عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة : الترمذي في العلم (ما جاء في كتمان العلم) 2649 ، وأبو داود في العلم (كراهية منع العلم) 3658 ، وابن ماجه المقدمة (من سئل عن علم فكتمه) 261 ، وابن حبان في صحيحه في العلم (الزجر عن كتابة السنن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها) 95 ، والحاكم في المستدرک ، في العلم (1 / 181) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي ، وأخرج عَقْبُه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقال : على شرط الشيخين وليس له علة ، ووافقه الذهبي . يشير بقوله وليس له علة إلى ما قيل في سماع عطاء من أبي هريرة في الحديث الأول وحكاة عَقْبِ الأول عن شيخه أبي علي الحافظ النيسابوري .
 وحديث أبي هريرة حسنه الترمذي ؛ لأنه رواه من طريق عُمارَة بن زاذان " أبو سلمة البصري ، صدوق كثير الخطأ من السابعة / بخ د ت ق " كما تقدم ص 48 ، أما الحاكم فرواه من طريق صحيحة رجالها رجال الصحيح ولا علة له كما تبين .

² - لسان العرب ، ابن منظور (لجم ، 12 / 534) .

³ - ينظر : عون المعبود ، العظيم آبادي 10 / 66 .

⁴ - فيض القدير 3 / 145 .

⁵ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 2 / 134 .

مطلق المنع وانسداد الفم، لكن الأولى صُرح فيها باللجام بعد الفعل يُلجِم تأكيداً ، فاللجام حقيقي إذاً مصنوع من نار لا على وجه التشبيه ولا الاستعارة، يُوضَع في فمه ويُلفُّ إلى قفاه في حركة دائرية والدائرة في الأصل تعني حبساً وانغلاقاً، وليس هذا بأول مُستغربٍ من أحوال الآخرة أن تتحوَّل النار لكثافتها إلى حبل مفتولٍ صلب!.

فإذا عُلِمَ هذا وأنه إنما يُفَعَّل في عُرف الناس بالدابة المسحَّرة ، توجهت الكناية بها عن حيوانية هذا الكاتم الآثم ، أو عن غاية الإذلال له بتخريجه مخرج الحيوان .

فالذي ارتقى بالعلم إلى العلياء الروحية سقط بكتمانه إلى الحضيض البهيمي ، ولعله كتم العلم كتم اليهود يُظهرون بعضاً ويكفُّون بعضاً يتأكَّلون به في غايات رديئة من محابة أهل المال والأعمال والسلطان ، وعليه يكون الكاتم بهيمةً مُلجَمةً مُسحَّرة من أول الأمر فإذا كانت الآخرة تحوَّل هذا المعنى حقيقةً محسوسةً ظاهرةً، والله أعلم.

المطلب الثاني : الكنايات المتحركة

وهذه الكنايات لا تقوم على عنصر الحركة ولكن الحركة فيها بارزة ومنشطة للصورة وهي بين أن تُحَسَّ بالتوقع ، أو يُصَرَّح بها :

- فمما يُحَسُّ بالتوقع ما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ((إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَأَدْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ . فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ . فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ

. فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ)) ¹.

قال القاضي : "معناه أنها مسموعة متقبلة والله تعالى متقدِّسٌ أن تحيط به حجب ، أو تحول دونه حجب إذ هي صفة المخلوقين " ².

وحكى ابن حجر أنها تعليل للاتقاء وتمثيل للدعاء ، كمن يقصد دار السلطان متظلماً فلا يُحجَّب ، والتعبير بنفي الحجاب أبلغ من التعبير بالقبول ، لأنَّ الحجاب من شأنه المنع من الوصول إلى المقصود فاستعير نفيه لعدم المنع ³. والقول باستعارة نفي الحجاب - مع طول هذه الطريق - يتضمَّن القول باستعارة الحجاب ، وما يعدُّه بعض العلماء وسيلة للتخلص من مهاوي التجسيم قد يعدُّه آخرون تعطيلاً، ولئن ساغ هذا البحث في مواضع فلا أراه يسوغ الآن إذ لا حاجة تلجئ إليه، فليعتبر نفي الحجاب في هذا الحديث حقيقةً ما دام لا يستلزم إثبات الحجاب، وبها نخرج من الإشكال، ونختصر الطريق ، ولا نتأوَّل ⁴.

¹ - البخاري في المظالم والغصب (الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم) 2448 ، ومسلم - واللفظ له - في الإيمان (الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام) 19 ، والترمذي في الزكاة (ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة) 625 ، والنسائي في الزكاة (إخراج الزكاة من بلد إلى بلد) 2522 ، ، وأبو داود في الزكاة (في زكاة السائمة) 1584 ، وابن ماجه في الزكاة (فرض الزكاة) 1783 .

² - مشارق الأنوار 1 / 351 .

³ - ينظر : فتح الباري 13 / 431 ؛ شرح السيوطي على النسائي 4/5 .

⁴ - سيأتي إنشاء الله مبحث خاص في الفصل السادس عن المذاهب العقدية في الصفات، ودور الكناية في التقريب بينها.

وبالحقيقة تكون هذه الجملة (ليس بينها وبين الله حجاب) كناية عن قبول دعوة المظلوم، وتظهرُ فائدة التخصيص بتعظيم شأنها وتخرج أمرها ، فهذا من النصرة ولا مفهوم له¹.

أما الحركة المرافقة للكناية فَوَحِيَّةٌ خاطفة لا تكاد تخرج من فم المظلوم حتى تقع عند الله بمكان .

والعجب في هذا الحديث كيف انقلب الضعفُ قوةً، وانقلبت دعوة المظلوم المستباح خطراً يُحذَر ويؤمر باتقائه، وأصبحت هذه الكناية حصناً للمقهورين وموثلاً للمستضعفين !

وما زال الناس يذكرون قول يحيى بن خالد البرمكي في نكبتهم : " دعوة مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون "².

- ومما صُرح به من الحركة ما جاء في حديث الإسراء عن ابن عباس وأبي حية الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
((ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ))³.

1 - أي لا دليل خطاب له ، فلا يعني أن دعوة غير المظلوم بينها وبين الله حجاب .
ودليل الخطاب أو مفهوم المخالفة هو أن يعلق الحكم على إحدى صفتي الشيء فيدل على أن ما عداها بخلافه كقوله تعالى : (إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا) {الحجرات:6} فيدل على أنه إن جاء عدل لم يتبين .

أخذ به الجمهور ، وقال عامة أصحاب أبي حنيفة رحمه الله وأكثر المتكلمين : لا يدل على أن ما عداه بخلافه بل حكم ما عداه موقوف على الدليل .
على أنه حتى عند القائلين به له شرطان : ألا تظهر أولوية ولا مساواة في المسكوت عنه ، وألا يكون خرج مخرج الغالب .

ينظر: اللمع ، الشيرازي ص24 ؛ المستصفى ، الغزالي ص 265 ؛ المختصر ، البعلي 132 .

2 - البداية والنهاية ، ابن كثير 205 / 10 .

3 - البخاري في أحاديث الأنبياء (ذكر إدريس وهو جد نوح) 3342 ، ومسلم في الإيمان (الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات) 163 .

مستوى : أي مكان مستو معتدل ¹.

وصريف الأقلام صريرها على اللوح ونحوه حال الكتابة²، والمراد ما تكتبه الملائكة من أقضية الله سبحانه وتعالى³.

وفيه علو منزلة نبينا صلى الله عليه وسلم⁴.

وقال المناوي: "المعنى : بلغت في الارتقاء إلى رتبة عليا فاتصلت بمبادئ الكائنات واطلعت على تصاريف الأحوال وجري المقادير . ولذلك أخبر عن حوادث مستقبله وأشياء معينة وانكشف الحال على ما قال"⁵.

على أن سماعه صلى الله عليه وسلم صريف الأقلام لا يستلزم اطلاعه على جري المقادير، ولكن يدلُّ على قرب وعلو يلزم منهما سماع الصريف فيكون كناية عنهما، والحركة المرافقة لها نشطة جداً ودائمة لا تفتر والعمل جماعي. ومن وجه آخر تُعدُّ هذه الكناية من الصور السمعية التي تمحّضت للسمع لا يشاركه فيها حسُّ آخر . والله أعلم.

وهكذا أظهر المبحث ما للحركة من أثر في بناء الكناية أو تنشيطها حسب نسبة وجود الحركة في الصورة، كما ظهر تنوع الحركة في الكنايات النبوية وتنوع إيجاءاتها ، ومناسبتها للفكرة العامة وسياق الحديث، ورصد ما أمكن من تأثيرها في نفس المتلقي، والله تعالى أعلم.

¹ - تفسير غريب ما في الصحيحين ، الحميدي ص: 19.

² - مشارق الأنوار ، القاضي عياض 78/2 .

³ - ينظر : فتح الباري، ابن حجر 462/1 .

⁴ - إكمال المعلم، القاضي عياض 510 / 1 ؛ شرح النووي على مسلم 2 / 221 .

⁵ - فيض القدير 311 / 4 .

الفصل الرابع

علاقات الكناية النبوية

تمهيد في العلاقات ومناهج دراستها

المبحث الأول: علاقة الكناية النبوية بالتركيب اللغوي

المطلب الأول : علاقة الكناية بالمعنى

المطلب الثاني : علاقة الكناية بمعنى المعنى

المطلب الثالث: مشكلات التركيب في البلاغة التقليدية ودفعها عن الكناية

المبحث الثاني: علاقة الكناية النبوية بالإيقاع

المطلب الأول: تعريف الإيقاع

المطلب الثاني: إثبات الإيقاع في اللغة العربية

المطلب الثالث: ملائمة إيقاع الكناية النبوية للفكرة العامة

المطلب الرابع: عناصر الإيقاع في الكناية النبوية

المبحث الثالث : علاقة الكناية النبوية بالطبيعة

المطلب الأول: نظرة القرآن والحديث والأدب إلى الطبيعة

المطلب الثاني : وظيفة الطبيعة في الكناية

المطلب الثالث: تنوع المشاهد الطبيعية في الكناية النبوية

المبحث الرابع: علاقة الكناية النبوية بالبيئة

المطلب الأول: علاقة الأدب بالبيئة

المطلب الثاني: الخصوصية البيئية في الكناية

المطلب الثالث: فاعلية الكناية البيئية النبوية واستمرارها

المبحث الخامس: علاقة الكناية النبوية بالمبدع

المطلب الأول: المبدع في النقد الأدبي

المطلب الثاني: الصدق الفني للمبدع في الكناية النبوية

المطلب الثالث: دلالة الكناية النبوية على الانشغال الفكري للمبدع

في العلاقات ومناهج دراستها

في كل ما مرّ من الكنايات النبوية تبين أن هناك علاقات تسهم في تشكيل الكناية باعتبارها حدثاً لغوياً إبداعياً، منها ما هو داخلي يختص بالتركيب والإيقاع، ومنها ما هو خارجي يختص بالمبدع والبيئة والطبيعة والمتلقي .

وقد كان يكفي هذا للشروع في تحليل العلاقات الكنائية لولا أن المنهج العلمي يقضي بتنزيل الدراسة على أصول ومناهج توطئ مهادها .

إن علم البلاغة يفتح الباب على النص الأدبي مباشرة وعلى طرفيه المبدع والمتلقي تبعاً للنص ومن هذين الطرفين كانت تداخله الملاحظات النفسية والتاريخية، ويقول الدكتوران خفاجي وشرف: " الرأي عندنا أن الدلالة اللغوية العربية للبلاغة هي المقابل الصحيح لما نسميه اليوم بعلم الاتصال ¹ .

ويُرى أن كلّ حدث لغوي يتضمّن ستة عناصر : مرسل - ملقط - إقامة الاتصال - لغة مشتركة code - رسالة لغوية - المحتوى اللغوي للمرسل ² .

فالغرض من الرسائل اللغوية الإعلام مجرداً أو الإعلام المقترن بنية جمالية يُراد منها إسباغ الجمال على الرسالة اللغوية للتأثير في عاطفة المتلقي، ويتصل البحث البلاغي بالإبداع، أي بالإعلام المقترن بنية جمالية ³ .

ويمكن رد العناصر الستة إلى ثلاثة مع مراعاة وصف الإبداع وهي: المبدع والمتلقي والرسالة .

ولأن الطبيعة والبيئة (الموقف التاريخي) ذواتا تأثير كبير على المبدع ومنها يستمد مفرداته وصوره فقد صار لدراستهما شأن . وغدا التحليل الأسلوبي

¹ - البلاغة العربية بين التقليد والتجديد ، ص 56.

² - ينظر : الألسنية ، د. ميشال زكريا ص : 53 ، وسبق ذكر هذه النظرية والإفادة منها ص 68.

³ - ينظر : البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ص 219.

يتعامل مع ثلاثة عناصر : العنصر اللغوي (نصوص اللغة) والعنصر النفعي (المؤلف والقارئ والموقف التاريخي وهدف الرسالة) والعنصر الجمالي (تأثير النص على القارئ، والتفسير والتقييم الأدبي للنص)، وهدف التحليل الأسلوبي إدراك مدى تكامل هذه العناصر في تحقيق الحد الأقصى لفعالية النص¹.

ولهذا كان أفضل سبيل لسبر العلاقات الكنائية وتحليلها باعتبارها نصاً أدبياً أن نطبق اتجاهي الأسلوبية² الوصفي والتفسيري :

أ- المنهج الوصفي: يعتدُّ بالأبنية اللغوية ووظائفها داخل النظام اللغوي، ويدرس العلاقة بين الصيغ والفكر في عمومها، ويتوقف على علم الدلالة ودراسة

¹ - ينظر : الأسلوبية والبيان العربي ، خفاجي وشرف ص: 16، 17.

² - الأسلوبية (علم الأسلوب) تقترب مما سماه العرب علم البلاغة .

يقول الدكتور علي عبد الواحد (علم اللغة ص 15) : " هذا وقد وضع المؤلفون العرب أسماء لبحوث تشبه بعض البحوث السابقة فوضعوا اسم الصرف لبحوث من فصيلة المورفولوجيا التعليمي، واسم البلاغة لبحوث من الستيلستك التعليمي (أي: علم الأسلوب) " وواضح أنه يقصد علم البلاغة لا البلاغة ذاتها .

لكنها عند الغربيين ثمة الألسنية وعليها طابعها ، يقول د. صلاح فضل في (علم الأسلوب والنظرية البنائية ص : 19) : " ينحدر علم الأسلوب من أصلا ب مختلفة ترجع إلى أبوين فتيين هما علم اللغة الحديث أو الألسنية إن شئنا أن نطلق عليها تسمية أشد توافقاً مع دورها في أمومة علم الأسلوب من جانب وعلم الجمال الذي أدى مهمة الأبوة الأولى من جانب آخر " ، ويمكن القول بأنَّ الألسنية برزت علم الجمال في تكييف الأسلوبية ، فلحقت بأمتها ، و"استمدت منها منهجيتها ومفاهيمها الأساسية " كما قال د. ميشال زكريا في الألسنية ، ص : 12.

ويعدُّ السويسري دي سوسير (1875-1931) أبا الألسنية بكتابه "دروس في الألسنية العامة" ومؤسس الاتجاه البنائي فيها ، الذي طوره تشومسكي الأمريكي صاحب النظرية التوليدية بكتابه "البنى التركيبية " 1957م ، وهذان الاتجاهان البنائي والتوليدي أثرا في توجيه الأسلوبية أيضاً فكان فيها المنهجان الوصفي والتفسيري . ينظر : الألسنية ، د. ميشال زكريا ص: 38، 40، 65.

المعاني في ذاتها، فهو منهج يصفُ الكلام ودلالته وفق الفلسفة العامة للغة دون النظر إلى الحثيات الأخرى وتأثيرها في صنع الكلام وتوجيه معناه.

ب- المنهج التفسيري: وهو نقدٌ للأسلوب بدراسة علاقة التعبير بالفرد والجماعة التي تبدعه وتستخدمه، فيحدد بواعث الأبنية اللغوية وأسبابها، ويُعنى بالمقاصد ويرتبط بالنقد الأدبي¹، فهو منهج ينظر إلى الكلام من خلال المؤثرات الخارجية عليه مما يكسب الكلام شحناً شعورياً فوق ما في دلالته وذلك بتفسير محيط هذا الكلام .

فالأول يناسب تحليل العلاقات الداخلية من إيقاعٍ وتركيب، والثاني يناسب تحليل العلاقات الخارجية وصلة النص بالمبدع والطبيعة والبيئة والمتلقي، والمنهجان معاً ينتجان تحليلاً أسلوبياً وافياً .

ولأن الكناية في درسنا نصٌ ديني أيضاً فالغرضُ منه المتلقي أولاً وأخيراً، ولهذا نحْيُّه عن فصلنا هذا، وجعلتُ له فصلاً مستقلاً سمّيته أغراض الكناية النبوية .
وأما سائر عناصر التحليل فسأعرضها في هذا الفصل معتمداً على ما سبق من كنايات في البحث، ومضيفاً كناياتٍ جديدة، في خمسة مباحث تجلو علاقة الكناية النبوية بكلٍّ من التركيب والإيقاع والطبيعة والبيئة والمبدع .

¹ - ينظر : الأسلوبية والبيان العربي ، خفاجي وشرف ص: 12، 13 ؛ البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ص 214.

المبحث الأول

علاقة الكناية النبوية بالتركيب اللغوي

تشمل علاقة الكناية بالتركيب اللغوي علاقتها بالمعنى ومعنى المعنى : أي بالمستويين النحوي والبياني، أو ما يسمى العلاقات السياقية والإيحائية، أو ما سماها جاكبسون علاقة المجاورة وعلاقة التشابه ويعني بها العلاقات المجازية¹. فالمستوى النحوي يقوم على السياق ومجاورة الكلم بعضه بعضاً، وهذه تمنح الدلالات الأولى للكلام، وهي مرحلة المعنى. والمستوى البياني يقوم على تجاوز الدلالات الأولى إلى غيرها بطريق الإيحاء أو بطريق التشابه ونحوه، وهي مرحلة معنى المعنى.

يقول الدكتور إحسان عباس: "من مرحلة المعنى يتكون علم المعاني ومن مرحلة معنى المعنى يجيء علم البيان"².

والكناية في جوهرها ستر معنى ملزوم بمعنى لازم مع طلب المعنيين وإرادتهما، فيلتقي عندها المستويان النحوي والبياني . وهذا ما سأبيّنه في مطلبين:

¹ - رومان جاكبسون مؤسس مدرسة الشكليين الروس أهم وأشهر المدارس البنائية تكونت عام 1915م، ودارت في مجملها على الجوهر الداخلي للعمل الأدبي واتجه بحثها إلى فنية الشكل الأدبي ، في أربعة مستويات متفاعلة فيما بينها : الأول الدراسات الصوتية ، والثاني الدراسات الدلالية ، والثالث البنية النحوية ، والرابع الشكل الصوري الذي تتجسد فيه جزئيات الصورة والمواقف والأحداث والشخصيات في وحدة متكاملة .

ينظر : البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ص 182.

² - تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص 429.

المطلب الأول : علاقة الكناية بالمعنى

المعنى هو السطح من الكناية، ولا يعني قولي السطح أنه لا بلاغة فيه، بل هو ميدان علم المعاني وفقه النحو، على أنه بحرٌ لا مطمع في استيعابه في هذه الفقرة ويكفي التمثيل لإثبات أنه لم يتخلف عن الكناية من جهة، وأنه يتغلغل في نسيجها ماءً ورواءً ويؤثر في توجيه الكناية من جهة أخرى :

ويظهر أثره البالغ في حديث الرحم أنها ((تعلقت بحقو الرحمن))، والآخر أنها ((معلقة بالعرش))¹ وتوجّه الكناية في الأول عن الاستجارة وفي الثاني عن الطمأنينة والرفعة، والمدار على التعلّق فقد جاء في الأول فعلاً ماضياً والماضي بدايته في نهايته ليس في زماننا.. لحظات وانقضت، والفاعل فيه الضمير (المستتر) (هي) دلّت عليه تاء (التأنيث) فهذا ضَعْفٌ في ضعفٍ. أما في الثاني فجاء اسم مفعول والاسمية تفيد الديمومة والثبات والفاعل فيه لم يُصرّح به للعلم به أو الإجلال أو شغل الأذهان بالصورة دون الفاعل، فانقلب ضعفها قوّة ورفعةً بنسبتها إلى العرش .

هذا مثال، والواقع أنه لم تكد تخلو كناية في أثناء ما قدّمتُ من الحديث عن الصورة الفنية واللون والحركة من تطبيقٍ لعلم المعاني، وإن شئت فانظر الكناية ((ممسكٌ عنانَ فرسه)) ص 138، و((أخذ بعنان فرسه)) ص 141، والكناية ((فيقع في حفرة من النار)) ص 225 ... الخ .

¹ - انظر الكلام على هذين الحديثين مع تخريجهما ص 169 ، 174 .

المطلب الثاني : علاقة الكناية بمعنى المعنى

إن نظرية معنى المعنى من أشهر نظريات البلاغة العربية، وطالما اقترن ذكرها بالشيخ عبد القاهر الجرجاني الذي أطلق هذه التسمية وعنى بها أن تعقل من اللفظ معنىً يفضي بك إلى معنى آخر، وجعل مداره على الكناية والاستعارة والتمثيل .

قال الدكتور إحسان عباس: "مرحلة معنى المعنى هي المستوى الفني من الكناية والاستعارة والتشبيه"¹.

وتقدّمت النقول عن عبد القاهر في هذا الأمر في المبحث الثاني من الفصل الأول²، وحُقِّق آنذاك أن الكناية تشترك مع المجاز في وصف جامع هو المعنى ومعنى المعنى، ويفترقان في مسألة النقل عن الوضع فإن اللفظ في كلّ منهما وإن كان معناه الأول الذي وُضع له سيفضي إلى المعنى الثاني إلا أنه في الكناية لا يُنقل عما وضع له فيدل على المعنيين في آن واحد لا من قبيل الاشتراك بل من قبيل أن المعنى المذكور يدل على المعنى المستور لأنه يلزم عنه ويردّفه في الوجود ، وفي المجاز يُنقل فإذا دل على المعنى الثاني توقفت دلالته على المعنى الأول .

وكان الشيخ عبد القاهر قال : "من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه، متمكناً في دلالته مستقلاً بوساطته، يسفّر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك إليه أبين إشارة، حتى يُخيّل إليك أنك فهمته من حاقّ اللفظ وذلك لقلّة الكلفة فيه عليك وسرعة وصوله إليك"³.

¹ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص 429.

² - ص 21 ، 22.

³ - دلائل الإعجاز ص 207.

وهذا يتعارض في الظاهر مع قول آخر له: "ومن المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى وبالمزية أولى ، فكان موقعه من النفس أجل وألطف"¹.

وتقدّم أنّ هذا التعارض في قضية المعنى ومعنى المعنى يختص بالمثل والمجاز²، ومع ذلك فالجمع بين القولين قريب نحو الذي قاله الدكتور إحسان عباس بأنها "تعمية فنية وتعقيد فني، وليست تعقيداً ناشئاً عن اختلاف في النظم، فهي تكلف القارئ مشقة، إلا أنها مشقة الغائص الذي يبحث عن اللؤلؤة في جوف الصدفة ، أما التعقيد المؤرق الذي لا يخرج الإنسان منه بجدوى فذلك هو الشيء المذموم"³.

أما الكناية فهي خارج نطاق التعارض المذكور، وخصوصيتها تجعلها أسرع إلى الفهم من المجاز؛ لأنها إثبات الشيء بإثبات دليله، ونجاحها منوط بقرب دلالة المعنى المذكور على المعنى المستور، وكذا قال الشيخ عبد القاهر⁴.

وقد مرّ أيضاً أن جمود العين يُخَطِّرُ في البال الموت أو تحجّر القلب ، فهو كناية ناجحة بهذا الاعتبار ، فإذا قصد بها الأديب السرور وانقضاء البكاء قصّرت عن أداء الغرض؛ لأنها لا تدل عليه⁵.

هذا ما كان من أمر الشيخ عبد القاهر ونظريته، ثم صار لمعنى المعنى في النقد الأدبي الحديث دولةً واشتهار منذ صدور الكتاب الذي حمل هذا الاسم: "The Meaning of Meaning" أي : معنى المعنى ، واشترك في تأليفه

¹ - أسرار البلاغة ص 126.

² - ص 72.

³ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص 430 .

⁴ - ينظر قوله ص 25 من الأطروحة، أو في دلائل الإعجاز ص 57 .

⁵ - ينظر: ص 27.

الناقدان الشهيران رتشاردز وأوغدن، ونشراه سنة 1923م، قبل نشر رتشاردز لكتابه " مبادئ النقد" بعام واحد، ويعدُّ هذا الكتاب أهم أسس النقد الأدبي الحديث¹.

المطلب الثالث: مشكلات التركيب في البلاغة التقليدية ودفعها عن الكناية

إنَّ أشنع ظلم وقع على الكناية في النقد العربي الحديث أن صُنِّفت ضمن أشكال البلاغة العربية التقليدية ثم نُظِرَ إلى البلاغة العربية - ومنها الكناية - نظرة النقد الأجنبي إلى بلاغته القديمة حيث لا يراها إلا تشبيهاً أو استعارة وحيث أسقطها بأربع تُهم! .

نعم هناك ضوابط وقيود في بلاغتنا العربية تحول دون انفلات تعبيرٍ لكن السُّبُل المتاحة غنية وثرية جداً، والعربية ذات أسس ووظائف تتجاوز التواصل الأفقي في الجيل الواحد إلى تواصل تصاعديٍّ عبر الأجيال لذا ينبغي ألا يُسمَح بتعدي الحدود .

والتهم الأربع التي رمى بهن النقد الأجنبي بلاغته القديمة ثم (استُعرن) لبلاغتنا هي : الإثنية ، والمشابهة ، والمنطقية ، والجمود ، وقد استقيت توصيفهن من الدكتور نعيم اليافي، وتولّيت إخراج الكناية من دائرة الاتهام غير مُثبتٍ دورانها على التشبيه والاستعارة .

¹ - ينظر : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ستانلي هايمن (ترجمة د.إحسان عباس و د. محمد يوسف نجم) 1 / 30.

الأولى - مشكلة الرؤية الثنائية : وهي أصل المشكلات إذ التشبيه (ومن ثم الاستعارة) يعتمد على مركّبين : المركب الأول (ب) والثاني (ج) فالثالث في الرؤية النقدية التقليدية (ب- ج) لكنها عند الأديب ليست هكذا وإنما هي (بج) كما ينبغي أن تكون، أي ما يُعبر عنه بالتلاحم بين الصورة والفكرة . ويرى الدكتور نعيم اليافي أن النجاح لا يُنَاط بالقرب أو البعد بين التركيبين بل بالطريقة التي وُلد بها التركيب الثالث، وأنَّ هذه الطريقة سرٌّ لا ينبغي المبالغة في تفسيره¹.

أقول: في التشبيه (حاتم بحر) مركّبان هما طرفا التشبيه ، وفي الاستعارة (جاء البحر) مركّبان كذلك أحدهما (جاء) الذي هو من لوازم الأحياء ويصرفُ النظر عن إرادة الحقيقة في البحر، مدعوماً بالقرينة الحالية . أما الكنايةُ (كثير الرماد) فمركّب واحد مرادُّ على وجهه، وإنما يدلُّ على الكرم بالإيحاء فهو ليس من قبيل (ب- ج) ، ولا حتى من قبيل (بج) ، إنه من قبيل (ب ج .) حيث الجيم في عمق الباء ، وحيث الكرم في عمق كثرة الرماد وحيث الملزوم في عمق اللازم.

الثانية - مشكلة المشابهة: التي جعلها النقد القديم أساساً يقوم عليه التشبيه والاستعارة القائمة على علاقة المشابهة، ثم باتت تُلاحظ في كل تشبيه وفي كل استعارة، مع أن المغايرة لا تقلُّ عن المشابهة أهميةً في ذهن الأديب الذي يقصد إلى المركّب الناتج عن انعكاس هاتين النسبتين وتداخلهما².

¹ - ينظر : مقدمة لدراسة الصورة الفنية ص 57 .

² - ينظر : مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، د. نعيم اليافي ، ص 56 .

أقول : الكناية مركّب واحد لذا لا يمكن الحديث فيها عن مشابهة ولا عن مغايرة كالتي تعقد بين حاتم والبحر مثلاً، لكن يمكن الحديث عن قرب دلالة المعنى المذكور على المعنى المستور أو بعده مع أن كلا المعنيين مرادّ مطلوب .

الثالثة - مشكلة البناء المنطقي: حيث يُراعى المنطق في بناء الأشكال البلاغية التقليدية، والحق أن الانفعال هو مصدر الصورة لا المنطق ، والذهن العلمي يرى الأشياء من الخارج ويبنى العلاقات بينها على هذا الأساس، أما ذهن الشعري فيراها من الداخل . فما ينبغي أن تكون العلاقات بين المركبات منطقية تقوم على الضرورة ولكن حدسية تقوم على الاحتمال¹.

أقول: بما أنّ الكناية مركّب واحد دال على معنى ومعنى آخر في عمقه فالعلاقة فيها أصلاً داخلية ولا يمكن رؤيتها إلا من الداخل، ومن ثم فلن تكون إلا عن انفعالٍ وانبثاقٍ روحي، والاحتمال ملازمٌ لها لا ينفك عنها؛ لأنها تعتمد الإيحاء سبيلاً إلى المعنى المستور .

لكن لا بد مع ذلك من التنبيه إلى أمرٍ غاية في الأهمية: إنه لا يختصُّ المنطق والانفعال إلا في نفوس المرضى من الفنانين أصحاب التهويمات والتغريبات ، أمّا في الفطرة السليمة الكاملة فلا يكون الانفعال إلا منطقياً ولا المنطق إلا انفعالاً بوجه من الوجوه، وهذا ما لاحظناه في كلام أكمل البشر نبينا صلى الله عليه وسلم .

الرابعة- مشكلة الجمود : حيث زعم الدكتور نعيم اليافي أن البلاغة التقليدية أدّارت العلاقة بين المركبات على المشابهة وقانون الجامع في كلّ ، لذا لا تستطيع

¹ - ينظر : مقدمة لدراسة الصورة الفنية، د. نعيم اليافي ص 61 .

بهذا الجمود تفسير الأبنية الصورية كالرمز والأسطورة وعنصر التورية الساخر والأشكال المتراسلة ..

ويرى أن القانون الآن هو قانون حرية التعبير فهو أساس العلاقات الصورية ، ويقول: " الحرية أشق من القيد وأعسر، وتلك هي مهمة الفنان فعليه دائماً أن يدرك بوعي أين ينتهي الصدق والإخلاص في تجربته وأين يبدأ الافتعال والزيف"¹.

فالوحدة بدل المشابهة والإثنية، والإسقاط الروحي عوض المنطق ، والتطور هو المحصلة بدلاً من الجمود² .

أقول: الكناية تعبير صوريّ إيحائيّ آنيّ غير جاهرٍ ولا مُعدّ مُسبقاً، وليس له إلا مظهرٌ واحد وتركيبٌ واحد هو الصورة فلا مشكلة في التشابه ولا المغايرة . ولا ثنائية في الرؤية ولا جمود فيها ؛ لأنها متجددة بتجدد اللوازم ولأنها تعبير بالصورة الحسية من الواقع المعاش. ولكنّ النقدُ أُنِيّ من جهة الأمثلة المختارة للكناية مثل كثير الرماد ونحوها، فأخذ يتبصّرها بعين عصره لا بعين عصرهم فرآها جثةً هامدةً خبا رمادها وبرّد، وإنما الكناية شيءٌ نابعٌ من الأعماق الحارة على غير قياس وسبيل ذلك التفاعل مع البيئة والطبيعة والانفعال بهما، ولا أقول بموت الكنايات القديمة المستعملة مثل كثير الرماد وطويل النجاد، لكن أقول بالتحول: إن الكنايات لا تموت ولكن تتحوّل بكثرة الاستعمال أمثالاً ومجازات³.

وقد مررنا في البحث بجملة وافرة من كنايات النبي صلى الله عليه وسلم فرأيناها تتسم بالتنوع والحيوية منها ما كان بيئياً نحو قوله ((لا تُوكي فيؤكى عليك

¹ - مقدمة لدراسة الصورة الفنية ص 66 .

² - ينظر : مقدمة لدراسة الصورة الفنية ص 67 .

³ - تقدم تحقيق هذا التحول ص 31 .

((كناية عن الشح¹، وطبيعياً نحو قوله في آكلة الخضر ((حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ
خَاصِرَتَاهَا))² كناية بصرية مجسمة للشبع، وصوتية تجسّم شدة الجوع ((يَتَضَاغُونَ
عند رجلي))³، وحركية نحو ((تَعْدُو بِكَ قُلُوبُكَ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ)) كناية عن
الجلاء وبعد المسافة⁴، وسكونية نحو ((مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا)) كناية عن
الإعراض والجمود⁵.

وغير ذلك مما سبق البحث به من الكنايات المفعمة بالتصوير، فتأمل هل
تجد في أي من هذه الكنايات إثنيّة أو جفافاً منطقياً أو جموداً ؟

¹ - ينظر تخريجه وشرحه ص 126.

² - ينظر تخريجه وشرحه ص 136 .

³ - ينظر تخريجه وشرحه ص 135 .

⁴ - ينظر تخريجه وشرحه ص 148 .

⁵ - ينظر تخريجه وشرحه ص 142 .

علاقة الكناية النبوية بالإيقاع

إن حديث الإيقاع ما يزال شاباً فتياً، فيه مجالٌ ومُستَراذٌ فسيحٌ لذا سأدرسه في أربعة مطالب : تعريف الإيقاع، وإثباته في اللغة العربية والحديث النبوي ، وملاءمة الإيقاع للكناية النبوية، وعناصر الإيقاع مع تطبيقها في الكناية النبوية . وأستعجل الإشارة إلى بعض الأمور إجمالاً يكون كالبريد يحملُ هذا البحث إلى قلوب علمائنا الأفاضل ممن يخشون فتح مثل هذه الأبواب على النصوص الدينية:

- 1- لا يدخل الإيقاع في تحديد معنى النص ولكن في تأكيد المعنى وتذوّقه بعد ظهور المعنى بالطرق العلمية، شأنه في ذلك شأن سائر بنود الصورة الفنية كاللون والحركة إنما هي لتذوّق النص بعد ثبوته وظهور التأويل الراجح له .
- 2- الريادة في مجال الإيقاع للعرب؛ وذلك لخصوصية اللغة العربية وأنها لغة موقّعةٌ ، وليس الإيقاعُ بُنياناً أو أجنبياً كما قد يُتوهم، وليس التكلُّل في العينين كالكل.

وقد حاولت طائفة من العلماء العرب استثمار الإيقاع في النصوص الدينية منهم الأديب مصطفى صادق الرافعي حين جعل الإيقاع خطوة للمعنى في سبيله إلى النفس، وسيد قطب رحمه الله الذي عدّ الإيقاع جزءاً من دلالة النص وطبقه بنجاح في كتابه التصوير الفني في القرآن، والدكتور أحمد ياسوف الذي وصف الإيقاع بأنه دعوة العواطف للتفاعل مع النص، وطبقه في كثير من مواضع كتابه الصورة الفنية في الحديث النبوي، وسيأتي ما نقلتُ عنهم مستوفى في المطلب الثاني، وبهذا لا أكون مبتدعاً وإنما حاولت تنظيم هذا البحث وبلورته ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

3- علاقة الكناية بالإيقاع تأتي من جهة أن الكناية صورة، والصورة لا تنشأ إلا عن انفعالٍ نفسي ينتج عنه بالضرورة شيء آخر هو الإيقاع، فالانفعال يُحدث صورة وإيقاعاً في وقتٍ واحد فبالضرورة أن يكون بينهما تناسب وتعاون. ومن جهة ثانية وقد عُلِم أن الإيقاع والصورة مصدرهما الانفعال، والانفعال هو مادة الصدق الفني، تبين أن الكناية بصورتها وإيقاعها دليل على الصدق الفني الذي هو مطلبٌ من مطالب الدراسة، وسيأتي .

4- إن مما زادني شغفاً بهذا المجال ما رأيت من أن حُسن الإيقاع في الكنايات النبوية ظلّ يدور مع صحة الرواية، فما ثبت بمقارنة الأسانيد أنه أصحّ لفظاً ظهر جمال الإيقاع فيه وفضله على نظيره في الروايات بالمعنى .
وسيأتي بيان هذه الأحكام المقدمة وتوثيقها فيما يلي من المطالب:

المطلب الأول : تعريف الإيقاع

أ- تعريف الإيقاع لغة:

جاء في اللسان: "الإيقاعُ من إيقاع اللحن والغناء، وهو أن يوقع الأَلْحَانَ ويبيّنُها"¹. وفي الوسيط: "الإيقاع : اتفاق الأصوات وتوقعها في الغناء"².
وقارب ابن فارس بين الإيقاع والعروض فذكر إجماع العروضيين أنه لا فرق بينهما إلا أن صناعة العروض تقسم الزمان بالحروف، وصناعة الإيقاع تقسم

¹ - لسان العرب ، ابن منظور (وقع ، 8 / 403) ، والأصل فيه كلام الخليل الفراهيدي ، وعنه أيضاً أن يوقع الأَلْحَانَ ويبيّنُها بدل ويبيّنُها ، والمآل واحد . ينظر: تاج العروس ، الزبيدي (وقع ، 22 / 359) .

² - الوسيط ، إبراهيم مصطفى وآخرون (وقع ، 2 / 1050) .

الزمان بالنغم . قال: "ولما كان الشعر ذا ميزان يناسب الإيقاع والإيقاع ضرب من الملاهي لم يصلح ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم"¹.

يعني قوله تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) {يس : 69}².

وإذا كان الشعر لا يصلح له صلى الله عليه وسلم لمعنى الإيقاع الذي فيه فإن بطلان الإيقاع ونفيه عن حديثه أولى، على أن بحثنا ليس في الإيقاع الذي قيل قديماً، ولكن في المعنى الأعم الذي اصطلح عليه بعد الذي يقوم على دعامتين : هما الحركة والتنظيم، أو التكرار والتوقع سواء تحقق المتوقع أم لا³.

ب- تعريف الإيقاع في الاصطلاح

¹ - الصاحبى في فقه اللغة ص 230.

² - أي ما علّمنا محمداً الشعر وما ينبغى أن يكون شاعراً ، ينظر : تفسير الطبري 549 / 20 ، قال الرازي في مفاتيح الغيب 92/26 : " ولا يصلح له وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير المعنى ، مراعاة اللفظ والوزن ، فالشارع يكون اللفظ منه تبعاً للمعنى ، والشاعر يكون المعنى منه تبعاً للفظ ؛ لأنه يقصد لفظاً به يصح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج إلى التحيل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ". فهذا مع ما قاله ابن فارس معنيان ، وذكر العلماء غيرهما ، ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم 14/15 .

وكما لا يصلح له نظمه فكذلك إنشاده ، واختار الإمام النووي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد إلى الشعر ولا أراده ، فما وجد من كلامه على هيئة الشعر ، فليس بشعر . ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم 119/12 .

³ - ينظر : الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي ، د. ابتسام حمدان ، ص 22.

يعرّف الإيقاع عموماً بأنه: "خاصية التتابع لأحداث، في زمان، تنتج في عقل المشاهد انطباعاً عن التناسب بين فترات الأحداث الكثيرة أو مجموعات الأحداث، التي تتألف منها المتوالية المتسلسلة" ¹.

وهذا يعني وجود الإيقاع في كل الفنون :

فهو في الموسيقى تنظيم لحركة اللحن بحيث يتناوب خلال هذه الحركة عنصر التأكيد المتوتر وعنصر إطلاق هذا التوتر وتخفيفه، وهو في الرسم تكرار المساحات مكوناً وحدات قد تكون متماثلة أو مختلفة أو متقاربة أو متباعدة، ويقع بين كل وحدة وأخرى ما يعرف بالفترات ².
وهلّم جرّاً ...

ولما كان الأدب يقوم على عنصري الصوت والزمن مع كون الصوت يحمل دلالات معنوية وتصويرية عُدَّ الأدب فناً زمانياً مكانياً يدخله الإيقاع باعتبار توالي الظواهر الحرفية بدرجات متفاوتة من الانتظام، وهذا لا يختص بالشعر العروضي الموقَّع أصلاً بل يمتدّ إلى النثر لکنهم سموا إيقاع العروض خارجياً وإيقاع الحروف داخلياً ³ ليجعلوا من بعض النثر قصيداً، أو على حدّ تعبير الدكتور عبد

¹ - النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، د. ستانلي هايمن (ترجمة د. إحسان عباس و د. محمد يوسف نجم) 2 / 156 .

² - ينظر : نظرة جديدة في موسيقى الشعر العربي ، د. علي يونس ص 17؛ الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي ، د. ابتسام حمدان ، ص 17، 18.

ويقول الدكتور عز الدين إسماعيل : " الشاعر ككلّ فنان يحاول أن يخلق نوعاً من التوافق النفسي بينه وبين العالم الخارجي عن طريق ذلك التوقيع الموسيقي الذي يعدّ أساسياً في كلّ عملٍ فنيّ " .
التفسير النفسي للأدب ص 56.

³ - أطلق الدكتور شوقي ضيف هذه التسمية " الموسيقى الداخلية " على الإيقاع الصوتي في كتابه الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص 79، ثم اشتهرت بعدّ .

الملك مرتاض : "نظاماً إيقاعياً يقع وسطاً بين دقة العروض في ميزانها، وتساهل النثر في فوضاه"¹.

فنحن إذاً مع الإيقاع الداخلي في الحديث وفي الكنايات منه من غير أن يُدعى شعراً، وسبيل ذلك أن نعيد النظر في كلمة الدكتور عبد الملك مرتاض الأنفة: (تساهل النثر في فوضاه) فالفوضى في النثر غير حتمية بل وغير مقبولة، وإنما تباين من تباين من فصحاء العرب واختلفت مراتبهم بانتظام نثرهم في إيقاع تسيعه الآذان وتحسُّ له الأسماع، فهذا وجه من التباين والآخر البيان والثالث التصوير، فأما أن يكون نثر مترايل الحروف متنافر الإيقاع بالكلية فهذا مما لا يُعرف إلا في كلام المتأخرين، والعربية بطبعها ذات إيقاع سواء في الشعر أم في النثر وليس هناك منزلة بين المنزلتين تُسمى الإيقاع الداخلي إذ يجوز تكلف هذه المنزلة في غير العربية أما فيها فلا، وهذا من غير إنكار لتفاوت البلغاء في نصيبهم من هذا الإيقاع، وأوفرهم حظاً منه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يقول مصطفى صادق الرافعي: "... لكن أصوات الحرف إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيفما اتفقت، فلا بد لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضاً ويتألف فيها شيء مع شيء فتتداخل خواصُّها وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحن الموسيقي، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده"².

¹ - السبع المعلقات (مقاربة سيمائية أنثروبولوجية) ص 217 .

² - تاريخ آداب العرب 1/ 213 .

ووسّع الدكتور نعيم اليافي من دائرة الإيقاع ليشمل الترتيب الصوتي من حيث مخارج الحروف وصفاتها وما يتعلق بها والترتيب الشكليّ القائم على طول الجملة وقصرها والتصعيد فيها وغير ذلك من وجوه التناسب¹.

المطلب الثاني: إثبات الإيقاع في اللغة العربية

يقول الدكتور حسني يوسف: "اللغة العربية لغة الوزن في أصلها ومنشئها ومعناها ومبناها، كما أنّها لغة التوافق الصوتي والإيقاعي"².

وإذا تم إثبات الإيقاع في اللغة العربية وأنه من طبيعتها فهذا يعني أنه موجود في الحديث وكنائياته ضرورةً وموجود في أعلى مراتبه؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب .

ومعنى قولي إنه من طبيعة اللغة أن المعاني تطلبه فيلزم عنها، وفي حال التلقي يكون الإيقاع جزءاً من المعنى وسبيلاً يقرّب من إدراكه.

والنقد الأدبي الحديث يستند إلى نظرية دي سوسير عالم اللغة السويسري الذي يعرف اللغة بأنها تنظيم من الإشارات المفارقة ومنها صاغ مبدأه : (جزافية العلامة اللغوية ونظام العلاقة اللغوية) فالعلامة في رأيه تجمع بين تصوّر وصورة سمعية لا بين شيء واسم، أي إنّ الكلمات إنما هي أدواتٌ تشير بها الإنسان إلى الأشياء، وأنه ليست هناك علاقة مباشرة بين الدال بوصفه رمزاً، والشئ الكائن في الخارج الذي عبّر عنه، واستدل بالشجرة أنه لا يمكن إقامة علاقة بين صوت الشجرة ومفهومها بدليل اختلاف هذا الشئ من لغة لأخرى³.

¹ - ينظر: ثلاث قضايا حول موسيقى القرآن، د. نعيم اليافي، مجلة التراث العربي، ع17، ص90.

² - موسيقى الشعر العربي ، الجزء الأول دراسة فنية وعروضية ص12.

³ - ينظر : الألسنية ، د. ميشال زكريا ص38 وما بعدها .

أقول: إن اختلاف الشيء من لغة لأخرى ليس دليلاً على جزافية العلامة اللغوية، وإلا ما كان ينبغي تعدد اللغة أصلاً والحق أن اللغات مختلفة في قدمها ونشوتها وخصائصها، وكلامه يصدق على اللغة الإنجليزية مثلاً حيث إيقاع الشجرة (Tree) لا يوحي بمعناها، أما الشجرة في العربية فواضحة العلاقة بين الصوت والمعنى .

قال ابن فارس: "الشين والجيم والراء أصلان متداخلان، يقرب بعضهما من بعض، ولا يخلو معنهما من تداخل الشيء بعضه في بعض، ومن علو في شيء وارتفاع"¹.

وذكر أن الشجرة لا تخلو من ارتفاع وتداخل أغصان، ومنه المشاجرة حيث يرتفع الصوت ويتداخل الكلام .

ومن ناحية الإيقاع : الجيم والشين يخرجان - مع الياء المدية - من شجر الفم أي منتفخه ومفرجه وهو بين وسط اللسان ووسط الحنك الأعلى، والجيم والشين يتداخلان في المخرج ويتعاكسان في الصفات فالجيم جهر شديد مقلقل ، والشين رخو مهموس متفشٍ بسبب الرخاوة، فهذا التداخل ثم التخالف يشبه أغصان الشجر، وكذلك تكون الجيم في النطق أصلاً مكثفاً كالجدع وتكون الشين فرعاً المتفشي عنه (لاحظ وجود الجيم في أول كلمة جذع وأول جذر ووسط شجرة وغياهما عن كلمة فرع ومعانيها كالغصن والفن وغيرها ..) وتكون الراء ذات الانحراف والتكرار موحية بالجذور المنحرفة المكررة².

فكان مبدأ دي سوسير عقبةً في طريق بحوث الإيقاع ثم أزيلت، لكن الأمر الأشد كان في نظرية الشيخ عبد القاهر في النظم التي تنفي العلاقة بين دلالة

¹ - مقاييس اللغة (شجر ، 246/3) .

² - تنظر صفات الجيم والشين والراء في علم تجويد القرآن ، الشيخ محمد هشام البرهاني ، ص 129 ، 153 .

اللفظ وإيقاعه، حين يقول في دلائل الإعجاز: "وذلك أنّ نظمَ الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمُها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحرّاه؛ فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد¹."

والطريقة المأمونة أن ينظر إلى دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر من خلال الموقف التاريخي لا مجرداً عنه، فقد كان الكتاب رداً متحمساً على أقوال القاضي عبد الجبار المعتزلي (- 415هـ) في كتابه المغني كما يرى الأستاذ محمود شاكر²، وهذا الحماس أظهره في مواضع كثيرة على هيئة المغالي في نصره النظم على حساب المفردة .

فهل لو أن واضع اللغة قال (ربض) مكان (ضرب) لم يكن فساداً ؟
تأمل : إن الحروف الثلاثة جهرية مع تميز الضاد بالاستطالة، لكن من حيث جريان الصوت عند النطق بالحرف فإن الضاد رخوة أي يجري معها الصوت والراء متوسطة والباء شديدة ينحبس عندها الصوت .
فالصوت يبدأ في (ضرب) رخواً مع استطالتها ثم يتوسط ثم يشتد، وانحباس الصوت عند النطق بالباء وانطباق الشفتين ثم انفتاحهما يماثل حالة الضرب فعلاً حيث يبدأ باستطالة على المضروب وينتهي بوقوع آلة الضرب عليه ثم انفكاكها عنه .

¹ - ينظر : دلائل الإعجاز، ص 56 .

² - ينظر : مقدمة الأستاذ محمود محمد شاكر على دلائل الإعجاز ، ص : ب (مطبعة الخانجي، القاهرة، 1375هـ)، وكان القاضي عبد الجبار يرى المزية باختيار الكلمات لا بالنظم ، ويقول: " فالذي تظهر فيه المزية ليس إلا الإبدال الذي تختص به الكلمات ، أي اختيار الكلمات لأداء المعنى المناسب..ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى أفصح منها إذا استعملت في غيره ، فأما حسن النغم وعدوبة القول فمما يزيد الكلام حسناً على السمع لا أنه يوجد فضلاً في الفصاحة " المغني في أبواب التوحيد والعدل : 199/16.

أما العكس (ربض) فيبدأ متوسّطاً ثم يشتدُّ ثم يكون رخواً مستطيلاً ليعبر عن حال استقرار وارتياح بعد العناء والتوقُّز، ومن ثمَّ دل الأصل ربض على سكون واستقرار، وقيل: ربضَ البعير، وسمّوا المسكن - أيَّ مسكن - ربضاً¹. فكيف يمكن لواضع اللغة أن يجعل ربض مكان ضرب وينقلبُ الترتيب الصوتي كُلُّه ثم يكون له الدلالة ذاتها؟!

لهذا نجد كثيراً من النقاد الثقات آخرَ الدهر مع إجلالهم للشيخ عبد القاهر أضربوا عما قاله في (ضرب وربض) وأيقنوا بمراعاة الإيقاع في اللفظ المفرد العربي. فالرافعي سمى هذا الإيقاع صوت النفس، وقال: "وهو الصوت الموسيقي الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخرجها وحركاتها ... بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى في سبيله إلى النفس"².

ويذكرُ سيد قطب أن الإيقاع الموسيقي للفظ هو في الأغلب جزء من دلالاته³.

ويرى أستاذنا الدكتور نور الدين عتر أن نغم الكلام يجب أن يعبر عن الحالة النفسية في الأدب وأن الحديث النبوي امتاز بموسيقاه الداخلية في تركيب أصوات الكلمات والحروف والحركات⁴.

وألحَّ الدكتور أحمد ياسوف على وجوده في المفردة العربية وكونه منبهاً جمالياً، وطبقه في مواضع كثيرة في كتابه الصورة الفنية في الحديث، وأنا في دراستي هذه نقلت عنه ضروباً من ذلك، وهو الذي قال: "الإيقاع دعوة العواطف إلى التفاعل مع النص"، وضرب مثلاً من القرآن كلمة (رخاء) في قوله تعالى: (فَسَحَّرْنَا لَهُ

¹ - ينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس (ربض 2 / 477) .

² - تاريخ آداب العرب 221/2 .

³ - ينظر: النقد الأدبي ص 35 .

⁴ - في ظلال الحديث النبوي ص 425.

الرَّيْحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) {ص:36}، حيث يمكن أن تصور السهولة بصوتها لا بمعناها وهذا ما يسمى المحاكاة (الأوتوماتويا) أي محاكاة الوضع اللغوي لمظاهر الطبيعة، وهي نظرية قديمة عند علماء المسلمين كما في الخصائص لابن جني (-392هـ)¹.

وإنما ناقشها ابن جني في الخصائص كمذهب قائم ولم يجزم به ولا بالنظرية الأقرب له وهي المواضعة والاصطلاح، ولا بنظرية شيخه أبي علي الفارسي أنها توقيف².

وقد خلت في بحثنا النماذج في مفردات الكنايات، ومن ذلك :

1- يضع :

في حديث ((لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَّ وَالْحَرِيرَ ...)) وفيه : ((فَيَبْيِئُهُمُ اللَّهُ ، وَيَضَعُ الْعِلْمَ ، وَيَمْسَحُ آخِرِينَ قِرْدَةً ...)).

ويضع العلم كناية عن ذهاب المكانة وانحطاط الأمر ، وسبق تخريج الحديث وشرح الكناية فيه³، وذكرت حينها أن في (وضع) طريقة في خفض اللسان مناسبة للمعنى، حيث يهبط اللسان من استعلاء الضاد إلى العين المستقلة. والقياس على رأي الشيخ عبد القاهر أن واضع اللغة لو قال (عضو) مكان (وضع) لهذا المعنى لم يضر. لكن اللسان حينها سيعبر عن خفض وهو يرتفع!

2- تنفق :

في حديث ((وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ))⁴.

¹ - دراسات فنية في القرآن ص 28 .

² - الخصائص ، ابن جني 1 / 40، وما بعدها.

³ - ص 149، وما بعدها.

⁴ - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 166.

وحتى وما بعدها كناية عن المبالغة في الكتمان.
وإيقاع (تنفق) يوحى بالتلطف وحسن التخلص فالنون متوسّطة مخفّية في
الفاء، والفاء رخوة والقاف شديدة، والنون والفاء مستفلتان ذلقتان والقاف
مستعلية مصمّمة. النون والفاء كأنهما شيء من النفقة ينساب في رفق حتى يبلغ
مأمّنه تحت ستار القاف الغليظ.

ماذا لو أن واضع اللغة قال (تقفن) ؟!

3- أَلَيْنُ :

في حديث ((خِيَارُكُمْ أَلَيْنُكُمْ مَنَاقِبَ فِي الصَّلَاةِ))، وتقدّم هذا الحديث كنايةً
عن سهولة الانقياد والتواضع¹، وذكرت حينها أن لفظ اللين من أشكال الألفاظ
بمعناه وأحسنها تصويراً بإيقاعه، إذ لا شدة في حروفه والشأن فيها استفالٌ
وانفتاح، مع توسط الياء حرف اللين فيها. والاستفال يوحى بالتواضع والانفتاح
بالحرية والانطلاق، واللين هو اللين !.

ترى هل من كلمة أخرى يمكن أن تحلّ مكان اللين في الدلالة على معناها
!؟

إذاً لا مفرّ من ملاحظة الإيقاع في المفردة العربية والتسليم به وعدّه من موازين
الفصاحة، وما مثّلْتُ به إنما هو من بعض مفردات الكنايات النبوية التي سبقت
في البحث ورأيت حُسْنَهَا وهي في مواضعها أحسن، وسأزيد الأمر بياناً في الفقرة
الثانية: ملاءمة الإيقاع للمعنى وللسياق في الكنايات النبوية، على أنه لا ينبغي
مغادرة هذه الفقرة قبل الإدلاء باقتراح :

¹ - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 121 .

إنّ ابن فارس رحمه الله في مقاييسه اجتهد أن يرد المعاني المتعددة إلى أصول واحدة فأصاب من مظاهر الإعجاز ما جعله يعتقد بتوقيف اللغة¹، من دون أن ينبّه للإيقاع الموسيقي في تلك الأصول وأجزم لو أن دارساً صوتياً تتبع أصول المعاني التي استخلصها ابن فارس بملاحظة الإيقاع والتحليل الصوتي لانتهى إلى عجب يكتمل به صرح مقاييس اللغة، والله أعلم .

المطلب الثالث: ملائمة إيقاع الكناية النبوية للفكرة العامة

رأيت ملائمة إيقاع المفردة النبوية للمعنى في الأمثلة السابقة حيث إيقاع "وضع" يوحي بالخطّ، وإيقاع "تنفق" يوحي بالسرية والكتمان، وإيقاع "ألين" يوحي باللين والرفق .

وأما ملائمة إيقاع الكناية مفردةً أو مركبةً للفكرة العامة وللسياق الكلي فهذا باب واسع يدخل فيه ما قبله أيضاً، وهذه الملائمة قد تكون موافقةً لسياقها أو سباقها أو معاكسةً ولكنها في النهاية ملائمةٌ للفكرة المقصودة :

فمن الضرب الأول حيث الملائمة في الموافقة حديث ((مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ ...))².

تقدّمت الكناية بقوله (ممسك عِنان فرسه) عن الجاهزية النفسية ، وبحث في موضعه عن العلة التي استعمل لأجلها العِنان دون الزِّمام واللجام والخطام ، ورأيت أن العِنان يشي بخفة الحركة ومرونتها زيادةً على دلالتة في الحبس والتمكن، ومردُّ هذا الوحي إلى آخر الكلمة فلا بد مع النون من انفتاح الشفتين، أما الميم آخر الكلمات الثلاث فتزُومُ بها الشفتان وتنطبقان في إيحاء بالحبس والقبض ففيهِنَّ معنى الحبس وإيحاءه، وفي العِنان معنى الحبس بغير إيحاء، فالعِنان

¹ - صرح بالتوقيف في كتابه الصاحي في فقه اللغة ص 5.

² - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 137 .

امتلاكٌ في المعنى ومرونة في الإيقاع، والامتلاك والمرونة مناط الحسن في الفارس وفرسه.

ومن الضرب الثاني حيث الملاءمة في المعاكسة قولُ النبي صلى الله عليه وسلم للأعرابي: ((لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا))¹.

فقوله "واسعاً" كناية عن موصوف هو رحمة الله .

وتأمل في إيقاع الكناية (واسعاً) وإيقاع سباقها (حجَّرت) تر الجيم الشديدة المشددة وسط (حجَّرت) توحى بالتكلف، وصورة التاء المبسوطة آخر الفعل حجرت مع العَقْفَتَيْنِ في جانبيها كأنما هي رسمٌ موضَّحٌ للتحجير . وتلك الشدة والانحباس يقابلها سهولة وانطلاق في الكناية (واسعاً)، ثمَّ إن الواو والألف المدية في واسعاً تجعل الفم يتجه في ضمة ثم فتح ممدود، فالواو تمنح الألف بعدها فسحة في المد لا يمنحها أي حرف آخر لكونها من حُرِّ الفم ولا تعلق لها بالحنك من أي وجه، والسين الرخية في وسطها تقابل الجيم الشديدة في قلب سابقتها، وبعد السين العينُ التي لا تنضُب والتي تبتلع كل محاولة للنَّزح، ثم الإطلاق الأخير في الألف المنونة التي لا حدود لها. قلت حينها: فلا يلبثُ القبح في التحجير أن يغيب في هذا الجمال الواسع كحجرٍ طاشَ في سماءٍ أو غارَ في عين ماء.

ففي هذا المثال كان إيقاع الكناية (واسعاً) معاكساً لإيقاع (حجرت) كأنما يمتصُّه أو يبدِّده، لكنه ملائم للفكرة الكلية أن رحمة الله لا تُحَدُّ .

ولكن ما هي علة التناسب بين الإيقاع والفكرة :

العلة هي مصدرُ الإيقاع أنه انفعال النفس، يقول مصطفى صادق الرافعي رحمه الله: "وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا

¹ - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 145.

الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرج فيه مدّاً أو غنةً أو ليناً أو شدة... الخ"¹.

ويرى عبد الملك مرتاض أنه لا يجوز جني الثمرة وقطع الشجرة، فالإيقاع النفسي هو الذي يولد الإيقاع الداخلي المؤدي بدوره إلى إيقاع خارجي في الشعر الموزون².

وهذا جليّ في لغة العرب ولا ينبغي التعويل على تقليل ريتشاردز لشأن الانفعال في ظهور الإيقاع³، فإن كلامه في عموم اللغات، وإذا اكتفى برّد جانبٍ من الإيقاع إلى الحالة النفسية، فلا يبقى للجانب الآخر منه إلا الصنع والتكلف، والتكلف في الأدب نوعٌ فساد يقل ويكثر بحسب المبالغة فيه⁴.

ومع القول بأنّ الانفعال هو مصدر الإيقاع فلا يتحتّم أن يقود الانفعال صاحبه، ووحدته الذات والموضوع التي يسمون بها الشاعر دون المفكّر⁵ لا تتمحّض للشعر ولا تلغي الفكر بل البليغ يوصل الفكر بالطريقة المؤثرة المفعمة بالروح .

أمّا ما وراء الانفعال فهو الافتعال، فقد يُقصد إلى الإيقاع قصداً فيثقل على نفس المتلقي ثقله على نفس المتكلّم، ذلك أنّ عملّ الانفعال في إيقاع الكلام يشبه عمله في الأسنان؛ إذا تركها المرء عمّلت على سجيّتها وإذا بدأ يراعيها ويلاحظ عملها خرج إلى التكلف وعرض شفته أو لسانه، وكذلك تناسق حركة اليدين في المشي إذا صرف المرء الفكر إليهما اختلّ وخرج مخرج التمثيل .

¹ - تاريخ آداب العرب 2/215.

² - ينظر : السبع المعلقات (مقاربة سيميائية أنثروبولوجية) ص 219 .

³ - ينظر : مبادئ النقد الأدبي، ريتشاردز ص 188، إذ يرّد جانباً من الإيقاع إلى الحالة النفسية، وهذا يعني صنّع سائره وتكلفه .

⁴ - ينظر : الشعر الجاهلي ظواهره وقضاياها الفنية، د. كريم الوائلي ص 223 .

⁵ - ينظر : مقدمة في الصورة الفنية ، د. نعيم اليافي ص 30 .

ومع ذلك لو أنّ الفصحاء جميعاً أرسلوا العنان لأدبهم بغير تكلفٍ لم يخرج على الدرجة نفسها في حسن الإيقاع نظراً لتفاوت الحسن الجمالي عندهم وتباين انفعالاتهم واختلافهم في امتلاك اللغة .

ولا ريب أن أكمل الخلق حسناً وامتلاكاً للغة هو النبي صلى الله عليه وسلم وشاهد ذلك مر في كثير من مواضع البحث وفيما ذكرنا آنفاً ونذكر لاحقاً، ويجدر بالذكر أن ما سقناه من الأمثلة إنما هو من الكنايات وقد انتهى البحث في بعض التحقيقات إلى أن بلاغة الكناية تتمثل بأنها قفزة نوعية إلى الدليل فهي إثبات الشيء (المزوم) بإثبات دليله (اللازم)، والواثب يتخفف عادةً ويجعل همّة الوثبة، لكن الإيقاع في الكناية النبوية منسجمٌ مع المعنى متصلٌ بسائر إيقاع النص الكليّ الفاضل عن الكناية مما يدلُّ على توحد الكناية مع النص وعلى غاية التمكن والامتلاك منه صلى الله عليه وسلم لناصية اللغة.

المطلب الرابع: عناصر الإيقاع في الكناية النبوية

هي صفات الحروف والحركات والسكنات والمدود والرسم، وكلها متعاونة يطلب بعضها بعضاً، لكني أركز على الأظهر منها في كل كناية :

1- صفات الحروف :

كالهمس والجهر والشدة والرخاوة والصفير والقلقلة، ونحو ذلك مما درسه علماء العربية ثم انتظم في علم التجويد¹، وأثرها في الإيقاع لا يخفى، وانظر مثلاً حديث: ((ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ))² كنايةً عن

¹ - ينظر : الكتاب، سيبويه ص 110 وما بعدها، وعلم تجويد القرآن ، الشيخ هشام البرهاني ص 139 وما بعدها .

وعاد متخصصوا اللغة إلى دراسته في العصر الأخير فيما يسمى اللسانيات، ينظر: علم اللغة ، محمود السعران ص 139 وما بعدها؛ الأصوات ، كمال محمد بشر ص 75، وما بعدها .

² - تقدم تحريجه وشرح الكناية فيه ص 256 .

العلو وشدة القرب، وتأمل ملاءمة الصغير في السين والصاد لصوت صرير الأفلام المعهود، فكأنها تحكيه .

2- الحركات والسكنات :

كما في حديث: ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنْ الْخِيَلَاءِ حُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))¹.

فجر الإزار كناية عن الكبر، ورأينا أن الكنايات التي تجسّمه تتسم بالثقل الموازي للشعور الداخلي، وأنّ الإزار مما يُسحب لكنه عبّر بالجر إمعاناً في التغليف، ورأينا التصعيد في قوة اللفظ والمعنى في ناحية الجزء من الحديث (فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة) وأنّ التضعيف الثلاثي في يجرّ جُوزي بتضعيف رباعي في يتجلجل ، والجيم الشديدة الواحدة جُوزيت بجيمين ، والتعالي إلى السماء جُوزي بتسقل في الأرض .

وأضيف الآن حالة الضجيج في الإيقاع وتكرّر الجيم في (رَجُلٌ يَجُرُّ) والخاء في (الخِيَلَاءِ حُسِفَ) ، ويتجلجل التي تحكي صوت الارتطام العنيف بطبقات الأرض المنتهية بحرف الضاد .

فلاحظ في حركات الجزء الأول من الحديث كثرة الضم والفتح حتى نصل إلى (حُسِفَ) وهي المحوّل من الفعل إلى الجزء، ومن الضمّ على الخاء إلى الكسر على السين، والفتح يعطي قوة للمعنى الذي قبله ضمّاً كان أم كسراً، وقد أعقب الكسر على السين فتحاً على الفاء يوحي بالإمعان في الانكسار، وعلى العموم فإن الكسر في قسم الجزء من الحديث كثيرٌ بالنسبة إلى القسم الأول، أمّا السكنات فهي للمتلقى فرصةٌ لالتقاط الأنفاس والتأمل .

3- المدود :

¹ - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 109.

تَبَطَّئُ الْإِيقَاعَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي مَرَّ ((لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ
بِالسِّلَاحِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ))¹.
وقوله (فيقع في حفرة من النار) كناية عن القتل ونحوه كما سبق ذكره، ورأينا
فضل الخبر (لا يشير) على النهي (لا يشير) مما يرجع إلى علم المعاني، على أن له
مزيةً أخرى ترجع إلى الإيقاع حيث المقام مقام تأنٍّ وتحلُّمٍ أليقُّ به الإيقاع الهادئُ
الرخيم فكانت (لا يشير) ذات المدِّ أولى به من (لا يشير) المقتضبة، وانظر كثرة
المدود في جزء التحذير من الحديث إلى قوله (لعل الشيطان) ففيه سبعة مدود؛
سنة طبيعية وواحد صلة، وكلها في الأسماء أو الأفعال . أمّا عند المخالفة فإن
الإيقاع يتسارع.. فينزِعُ فيقعُ مع حذفٍ بينهما هو الملزوم المكتى عنه، مع قلة في
المدود أربعةً أحدها في الاسم (النار) وآخر صلة (يده) وآخران في حرف الجر في.

4- الرسم :

لِشَكْلِ الْحُرُوفِ أَثَرٌ جَمَالِي سِوَاءِ كَانَ ظَاهِرًا يَرَاهُ الْقَارِئُ أَوْ مُتَخَيَّلًا يَتَوَقَّعُهُ
السَّامِعُ، مِنْ ذَلِكَ الْأَلْفَاتِ فِي حَدِيثِ ((الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ))² كناية عن الشرف، ففي الإيقاع الشكلي في (أعناقاً) ثلاث ألفات
قائمة، تشبه أن تكون ثلاثة أعناقٍ من أعناق المؤذنين يوم القيامة .
وكذلك حديث ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَانَ يَسُوقُ النَّاسَ
بِعَصَاهُ))³ كناية عن القهر والغلبة، وفيه من إيقاع الرسم عشرُ عَصِيَّ قائماتٍ ما
بين ألف ولام أشدّها إثارةً وتصويراً للألف الأخيرة التي في (عصاه).

¹ - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 225.

² - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 118 .

³ - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 152، 153.

وحدث ((لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَغْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى))¹ كنايةً عن عظمة هذه النار، وفيها من الحسن أن الألف المدية في (نار) تلائم ارتفاع هذه النار وذهابها السماء، وأختها في (أغناق الإبل) متسقة مع طول هذه الأغناق، وأختها التي ببصرى تغري بتخيّل البعد فقارئ الحديث يطلق يده عفواً بالتزامن مع هذا المدّ كأنما يشير إلى بعدها، وبقي ما يصل بين هذه النار في الحجاز وبين بصرى وإنها لمسافة بعيدة أبعد من أن يسعها مدّ طبيعي، إنها لتطلب مطيّةً من نوع (تضيء) ذلك المد الطويل الواجب والذي يتجه معترضاً لا مرتفعاً كالألِفَات السابقة .

والآن مع كناية جديدة نطبّق عليها مع سياقها جميع عناصر الإيقاع:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((لَنْ يَزَالَ المرءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا))².

¹ - تقدم تخرّجه وشرح الكناية فيه ص 215 .

² - البخاري في الديات (قول الله تعالى : ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ..) 6862 ، والإمام أحمد في المسند، باقي مسند المكثرين من الصحابة (مسند عبد الله بن عمر) 5648 ، واللفظ واحد وهو من طريق إسحاق بن سعيد عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن عبد الله ابن عمر ، إلا أنّ البخاري رواه عن علي بن الجعد الجوهري عن إسحاق ، فقال في حديثه: "المؤمن" ورواه الإمام أحمد عن أبي النضر هاشم بن القاسم الليثي عن إسحاق، وفي حديثه : "المرء " وكلاهما من الثقات الأثبات ، ولا خلاف في موضع الكناية كما قدّمت .

وكذلك روى أبو داود في الفتن والملاحم (في تعظيم قتل المؤمن) 4270 ، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا صَالِحًا مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ)) ، والعنق انبساط السير ، والتبليح الإعياء والانقطاع

و(يصب دماً حراماً) كنايةً عن القتل المحرّم إذ كان يردف القتل في الغالب خروجُ الدم فكني به عنه، وموضع الكناية لا خلاف فيه، والمعنى ظاهر في التضيق والتعسير على القاتل وبعد الرحمة والتوفيق عنه¹.

والغرض من الكناية بإصابة الدم عن القتل التصويرُ والتنفير؛ لأن رؤية الدم - ولو تحيُّلاً - لها مالها من الوقع في القلوب، وهذا في فطرة الناس وأجل ما يكون عند الأطفال²، فإذا نهيتَ الطفل عن النافذة وقلت له إنه قد يموت إذا وقع فلن يرعوي، ولكن إذا قلت: ستُجرّح ويسيلُ منك الدم، فإنه أنجع في ردعه.

. ينظر : غريب الحديث ، الخطابي 1 / 203 ، 204 . وهو في معنى حديث ابن عمر رضي الله عنه .

وقد اخترت رواية الإمام أحمد التي فيها المرء لسببين :

الأول: أن الإمام البخاري قال : "حدثنا علي حدثنا إسحاق.."، قال ابن حجر في الفتح 12 / 188: " (حدثنا علي) كذا للجميع غير منسوب ، ولم يذكره أبو علي الجياني في تقييده، ولا تَبَّه عليه الكلاباذي، وقد ذكرتُ في المقدمة أنه علي بن الجعد ؛ لأن علي بن المديني لم يدرك إسحاق بن سعيد " فهو كيفما كان اجتهداً من الحافظ ابن حجر ، وانظر مقدمة الفتح (1 / 233) إذ يقول إنه لم يجد فيما جمع البغوي من حديث علي بن الجعد رواية عن إسحاق بن سعيد . وأنا راجعت مسنده هذا فما وجدت رواية له عن إسحاق بن سعيد ولا وجدت متن الحديث والله أعلم .

والثاني : أنَّ أبا النضر هاشم بن القاسم الليثي أجَّل من علي بن الجعد الجوهري وكلاهما بغداديان ، والأول أشهر وأذكر عندهم وهو "ثقة ثبت من التاسعة، مات سنة سبع ومائتين وله ثلاث وسبعون/ع" تقريب التهذيب ، ابن حجر 2 / 570 ، والثاني علي بن الجعد "ثقة ثبت ، زُمي بالتشيع ، من صغار التاسعة ، مات سنة ثلاثين ومائتين/ خ د" تقريب التهذيب 2 / 398.

¹ - فتح الباري ، ابن حجر 12 / 188.

² - لأن إدراك الإنسان عموماً والطفل خصوصاً للمحسوسات والمفاهيم البسيطة أقوى من إدراكه للمجرّدات والمفاهيم المعقّدة . ينظر: المدخل إلى علم نفس النمو ، د. عباس عوض، ص74.

ولكن سرّ التأثير في الحديث ليس هذا وحسب، فنتمّ الإيقاع الذي يترافق مع قراءة الحديث أو استماعه أو النظر فيه ويبعث العواطف على التفاعل مع النص ،

قال الدكتور أحمد ياسوف: "احتمال قيام المرء بفعل القتل المحرّم يجعل المكان الفسيح أضيق. والاستمرار قائم في الجملة الأولى (لا يزال) والفجاءة المغايرة المضيقّة للمساحة هي (مالم يصب دماً) وكأنّ تضاول المساحة يحوّلها حبس أنفاس القاتل، مع ما يشي به المدّ في لا يزال من الانفساح وما يشي به توالي الميم في القسم الأخير من الالتصاق وضيق المكان فهو حرفٌ شفويّ ما لم دماً حراماً، وكأنّ اللون الأحمر يحصر جسده وروحه في حيّز مكاني ذهني"¹.

هكذا اعتمد الدكتور أحمد في ضبط الإيقاع على المدود وتوالي الميم، ومع التأمل والترديد والاختبار العملي نحسّ بجميع عناصر الإيقاع في هذا الحديث وكنائته، والإيقاع يؤثر في نفس المتلقي ولو لم يُعَرِه اهتماماً، وإليك البيان :

الحديث جزءان :

الأول (لا يزال المرء في فسحة من دينه) ، ومركزه المعنوي كلمة فسحة .
والثاني الكناية (مالم يصب دماً حراماً) ، ومركزها المعنوي كلمة يُصَب.
و(ما لم) هي المحوّل من الجزء الأول إلى الثاني.

1- صفات الحروف :

تتصف السينُ بالهمس الذي هو جريانُ النفس عند النطق بالحرف، والرخاوة التي هي جريان الصوت مع الحرف لضعف الاعتماد على المخرج².
وتمثل السين المحور من الجزء الأول إذ هي وسط في كلمتها (فسح) ووسط في جملتها، وجريانُ النفس والصوت فيها هو الذي يوحي بالفسحة، مع كون

¹ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص 699 .

² - علم تجويد القرآن ، د. هشام البرهاني ص 240 ، 241 .

حروف الفسحة كلّها توحى بالحرية من جهة اتسامها جميعاً بالهمس أي جريان النفس .

ويقابل السين في الجزء الثاني حرف الباء في كلمة (يصب) وهو معاكس في الصفة حيث يتسم بالجهر وهو انحباس النفس والشدة التي هي انحباس جري الصوت، فهو يوحى بالانقباض، وليس في الجزء الثاني من الهمس شيء إلا في الصاد المكسورة في (يصب) والتي فيها شيء من معنى الحبس يتعلّق بصفة الإطباق بالتصاق اللسان بالحنك الأعلى، والآلية إلى انحباس النفس في الباء ، ثمّ سائر حروف هذا الجزء جهرية .

2- الحركات والسكنات :

تختلف الجملتان في الرحابة والاتساع من هذه الحيثية، فالجملة الأولى تتألف من (14) حركة و(10) سكنات، والثانية من (9) حركات و(6) سكنات .
ويبلغ الجزء الأول (لا يزال المرء في فسحة من دينه) أن يدخل في ضرب من الرمل (فاعلاتن فاعلاتن فاعلن) على أن هذا مما يقع عرضاً ولا يُلتفت إليه ولا يُزعم أنه شعر¹ لكونه يتّفق في الكلم بلا قصدٍ، وإنما ذكرته لبيان طول الجملة الأولى .

¹ - قال الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) {يس:69} :
" لو صدر من النبي (صلى الله عليه وسلم) كلامٌ كثيرٌ موزونٌ مقفى لا يكونُ شعراً لعدم قصده اللفظَ قصداً أولياً، ويُؤيد ما ذكرنا أنك إذا تتبعت كلام الناس في الأسواق تجد فيه ما يكون موزوناً واقعاً في بحر من بحور الشعر، ولا يُسمّى المتكلّم به شاعراً ولا الكلامُ شعراً لفقد القصد إلى اللفظ أولاً " مفاتيح الغيب 92 / 26 . وانظر تعليقا في هذا المعنى في أول المبحث .

والحركات في الجزء الأول متنوّعة : (5) فتحات، (3) ضمات، (6) كسرات، والتنوُّع ضمّاً وفتحاً وكسراً يوحي بحرية التصرف وتنوّع السلوك ، والكسرُ هنا دالٌّ على الخصوصية ولا سيما أن ثلاثاً منه كانت في كلمة (دينه).
أما في الجزء الثاني (ما لم يصب دماً حراماً) فالحركات قليلة التنوع : (7) فتحات، (1) ضمة، (1) كسرة، فقد سُبِّيت من القاتل حرية التصرف حتى لم يكن له إلا تصرُّف واحدٌ فيه ضمة وكسرة وسكون هو التصرف الأخير الذي تم به القتل (يُصَب) ثم لا شيء إلا الفتح كأنما هو سَلْبٌ للإرادة وتسييرٌ مُطلق من عِل .

3- المدود :

تعبّر في الجزء الأول عن الفسحة في المكان والزمن، وهي ثلاثة مدود طبيعية (يزال - في - دين) ومدّ صلة آخر المقطع الأول (دينه)، مدودٌ ثلاثم الفسحة مكانياً والمضارع المستمر في (يزال) زمانياً .
أما في المقطع الثاني فمدّ واحدٌ في أوله (ما) هو آخر العهد بالفسحة، وما وراءه الهاوية المتسارعة المؤدية إلى الحبس المعنوي، ثم تختفي المدود حتى تظهر في آخر المقطع في مدّين طبيعيّ وعوضٍ في كلمة واحدة (حراماً) إن أشعرا بشيءٍ فبطول ذلك الحبس .

4- الرسم :

تدور مسألة الرسم هنا على الميم والألفات.
فالميم : تنطبق بلفظه الشفتان، ويُرسم نحو دائرة مغلقة فيعبّر شكل لفظه وهيئة رسمه عن حبسٍ.
والميم في الجزء الأول من الحديث تكرّرت مرتين: ميم (المرء) ، وميم (من دينه) .

وما زلت أنظر إلى (المرء) كصورة، أرى الميم رأسه وفي داخل هذا الميم عقله الذي يبتُّ فيه المروءة ويعقله ألا يشتطّ ويحجزه عما لا يليق . وفي رواية (المؤمن) ميمان أي عقلان أحدهما الذي في الرأس والآخر الإيمان .

أما ميمٌ (من دينه) فقد جاءت مكسورة تعبر عن احتواء في الخصوصية التي ذكرتها في (دينه)، والخصوصية كذلك مظهرٌ للحرية .

وفي الجزء الثاني (ما لم يصب دماً حراماً) تبدو الميم سمةً بارزة تكررت فيه أربع مرات مُضْفِيَةً جَوْ الانغلاق على هذا الجزء حيث تغلقُ الشفتان خمس مرات: أربعَ بَهْنٍ ومَرَّةً في بَاءٍ (يصب)، وهذا يعني أن الشفتين تغلقان في كل كلمة من هذا المقطع الصغير نسبياً .

وفي المحوّل (ما لم) الذي يفصل بين الفسحة والهاوية نلاحظ في الشكل ارتفاع الميم إلى الأعلى حيث كان العقل ما يزال سامياً (ما) ثم انحطاطها إلى الأسفل (لم) تعبيراً عن الهويّ.

وفي (دماً حراماً) نلاحظ تكرار (ما) (ما) آخر الكلمتين كأنهما جدارا سجن شاهق، يختلطُ بهما اللونُ الأحمر بالتوقع من كلمة الدم، والجدران الحمراء تذكر بغرف الإعدام .

والخلاصة : ما يزال المرء في عقله ودينه يُحَسِّنُ فيُنصِرُ، ويعثرُ فيُجبرُ ، وهو في الجملة في سموِّ وارتفاعٍ وانطلاقٍ حتى ينزعَ إلى الحيوانية فيقتل أخاه فيقعَ حبيسَ دمه مخذولاً محروباً .

علاقة الكناية النبوية بالطبيعة

المطلب الأول: نظرة القرآن والحديث والأدب إلى الطبيعة

قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) {الحج:18}.

وإذا تخطينا البحث في سجود الكائنات حقيقةً هو أو مجاز عن الانقياد¹، فإن وراءه كنوزاً من علم الطبيعة توحى بماهيتها وأنواعها ووظيفتها ومآلها، فهي البوابة الأجل والمدخل الأمثل لحديث الطبيعة .

إنَّ (مَنْ) في الآية تفيد العموم والعاقلية²، ففيه تشخيص للطبيعة الظاهرة والمغيبية، الكل يسجد لله وهذا إجمالٌ ثم يبدأ التفصيل : الطبيعة الثابتة التي لا روح فيها (الشمس والقمر والنجوم والجبال)، والنامية (الشجر)، والمتحركة غير العاقلة (الدواب)، والمتحركة العاقلة (الناس) لكن الاختيار الذي مُنح لهذا الأخير جعله فريقين : ساجدٌ وجاحدٌ، مؤمنٌ وكافرٌ، فكثيرٌ من الناس يتجهون مع مفردات الكون جميعها باتجاه واحد، وكثيرٌ من الناس حقَّ عليهم العذاب على أنَّ هذا الكثير الجاحد إنما هو كذلك بالنسبة للناس أمَّا بالنسبة للكون الساجد فهو

¹ - ينظر : تفسير الطبري 18 / 587 ؛ مفاتيح الغيب ، الرازي 19/23 .

² - قال الشيخ الخضري في حاشيته على شرح ابن عقيل 1 / 40: " استُعْمِلَتْ مَنْ فِي غير العاقل لا اختلاطه بما وتغليب عليه " وهو يتحدث عن هذه الآية ، فالمشهور في استعمال (مَنْ) أنها للعاقل ، وما ذكر من أن مسوَّغ استعمالها في الآية وفيها غير العقلاء هو اختلاطهم بالعقلاء وتغليب هؤلاء ذكره من جهة النحو ، أما من جهة البلاغة فالثمرة أكبر من ذلك والمراد تشخيص غير العقلاء وتنزيلهم منازل العقلاء ، والله أعلم.

قليلٌ قليلٌ بل هو مفردةٌ واحدةٌ ضئيلةٌ لذلك عاد عليها ضمير المفرد (وكثيرٌ حقٌ عليه العذاب)¹، ولا جرم أن الذي يعترض هذا التيار الهائل من الساجدين يريد أن يمضي خلافه لا جرم أنه مسحوقٌ هالكٌ سيلاقي أشدَّ الهوانِ على يدِ خلق الله، ولا مُنقِذَ له، مع ما ينتظره من عذاب الله يوم القيامة .

هَمَّتْ سَمَكَةٌ بِابْتِلَاعِ الْحَوْتِ فَابْتَلَعَتْ فُقَاعَةً مِنْ رَبْدِهِ ثُمَّ قَرَّتْ فِي بطنِهِ! .
ولئن ظن الجاحدون أنهم سَحَرُوا الطَّبِيعَةَ وملكوا أمرها واستخدموها في مآربهم فليعلموا أن هذا التسخير جزئيٌّ ظاهريٌّ يمضي وفق تسخيرٍ كليٍّ واضح الجهة وسنة كونية ثابتة تقضي بأن الأرض يرثها عبادُ الله الصالحون .

والطبيعة في الحديث النبوي الشريف لا تخرج عن هذا الاعتبار اعتبار التسخير والألفة بينها وبين المؤمن، وما يحدث من مصادمات جزئية بينهما يرجع إلى خطأ بشري وإلا فالطبيعة جندٌ مسخَّر .

وأما في النقد الأدبي فقد فُرعَ من حديث الطبيعة وأنها مظهرُ التجلي الذي هو سمة الفنون²، وأنَّ النظر اتجه إلى تفضيل الجمال الفني الذي هو انعكاس الطبيعة في المرآة الأدبية (البليغة) على الجمال الطبيعي الأصلي، لما يضيفُ إليه المبدع من ذاته وموقفه الشعوري³.

¹ - إن صيغة فَعِيل المفرد قد تستعمل للجماعة ، ولذلك شواهد (ينظر: قطر الندى، ابن هشام ص 401)، بل الآية التي نحن في ظلالها كافية شافية، لكن المتدبر في جميع تلك الشواهد يرى أنه لم يُعدل عن استعمال صيغ الجمع إلى صيغة فَعِيل إلا لأغراض بلاغية جليلة كالذي ذكرْتُ في (وكثيرٌ حق عليه العذاب) والله أعلم.

² - ينظر : الصورة الفنية في الحديث النبوي ، د. أحمد ياسوف ص 300 .

³ - ينظر : النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته ورواده، د. محمد زغلول سلام ص 5؛
المغامرة النقدية ، د. نعيم اليافي ص 194 .

والحديث الشريف أرفعُ الأدب لصدوره عن الخالق معنيٍّ وعن أكمل البشر لفظاً.

وليس الغرضُ استقراء مفردات الطبيعة في الحديث وكنائياته، ولكن أرمي إلى بيان وظيفة الطبيعة في الكناية، وأصناف المشاهد الطبيعية فيها، معتمداً على ما سبق من أمثلة الدراسة مع تقديم مثال جديد في آخر المبحث .

المطلب الثاني : وظيفة الطبيعة في الكناية

لها وظيفتان: التفسير والتأثير .

أولاً - التفسير :

وبه يتبيّن أثر الطبيعة في صنع الكناية، فإن الكناية بطبيعتها إرداف ولزوم: شيءٌ يردف شيئاً فيُكنى به عنه ، وبذلك لا تخرج عن كونها حركةً طبيعيةً أو بيئةً علماً أن البيئة هي من الطبيعة أيضاً ولكنها مصنوعة . ويتجلّى هذا الأثر واضحاً في الكنايات اللونية والحركية فاللون مظهرٌ للطبيعة، والحركة مظهرٌ للحياة، إِنْهُمَا يعكسان التفاعلات الداخلية في الأجسام وعنها ينجمان.

ففي الطبيعة الفيزيولوجية للإنسان يصبح اللون الأبيض في الوجه كناية عن السرور النفسي لأنه ناجم عنه، كحديث ((أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا))¹، والأسود كناية عن الحزن ((وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتْرَةٌ وَغَبْرَةٌ))²، والأحمر يدل على طوارئ المشاعر ومدّها كالغضب والشهوة والحياء ((أَلَا تَرَوْنَ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاحِ أَوْدَاجِهِ))³،

¹ - تقدم تحريجه وشرح الكناية فيه ص 182، 183.

² - تقدم تحريجه وشرح الكناية فيه ص 189.

³ - تقدم تحريجه وشرح الكناية فيه ص 196.

والصُّفْرَة على جَزَرٍ في الدم حيث ينكفى على نفسه ويرتد إلى جُحْرِه ارتدادًا الخائف أو انجحازَ الماكر ((بني الأصفر))¹، والزرقة يُكنى بها عن البرودة لأنها لون جسم ذهبته منه حرارة الدم بالكلية ((مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْزَقَانِ))².

وأما في الطبيعة الخارجية فبحسب الحال والسنة الكونية، فقد يُكنى بالبياض عن ارتفاع حسي يمثل به لارتفاع معنوي كالسحابة في حديث ((فإذا قصر مثل الرِّبَابَةِ الْبِيضَاءِ))³؛ فإنها لا تكون بيضاء إلا وهي مرتفعة في السماء لحَقَّتْهَا، بخلاف السواد الذي يُكنى به عن الكثافة الحسية والامتلاء والقرب ((عَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ))⁴. وإذا كان البياض أكمل الأحوال في معظم الأحيان فإنه في عالم النبات يعبر عن أدناها ويعبر الأصفر عن الوسط والكمال في الأخضر، كحديث الحَبَّةِ التي تخرج ((صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً))⁵ وبيان ذلك في رواية أخرى أن ما كان إلى الظل فهو أبيض وما كان إلى الشمس فهو أصفر أو أخضر؛ لأن الشمس لها الدور الأجل في تركيب اليخضور كما رأينا في موضعه.

وكذلك الطبيعة في الكنايات الحركية لكن دورها في صنع الكناية أقل؛ إذ اللون بتفاعلاته يعم جميع أنواع الطبيعة الثابتة والنامية والمتحركة، أما الحركة فألصق بالنوعين الأخيرين ولاسيما الثاني منهما. والحركة كناية عن الحياة في حديث ((مَا تَهَزَّزَتْ رُؤُوسُكُمْ))⁶، وإذا كان ثمة حالة نفسية تدفع إلى حركة فإن عدم الحركة

¹ - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 206، 207.

² - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 211-214.

³ - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 184.

⁴ - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 186.

⁵ - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 186، 204-205.

⁶ - تقدم تخرجه وشرح الكناية فيه ص 198، 225.

يعني انعدام الحالة فكان قوله صلى الله عليه وسلم ((مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا))¹ كناية عن جمود الحسّ والإعراض عن الأمر كما مر .
وفي المحصلة قد يبلغ دور الطبيعة في الكناية أن يكون تفسيرياً ولا يقتصر على المظهر الجمالي فحسب .

ثانياً- التأثير :

يتعلق التأثير بالناحية الجمالية، وهو موجود لا شك فيه في كل حديث وفي كل كناية، بل الكناية بحد ذاتها تعبير جمالي فيه مغايرة حتمية للتعبير السطحي وفيه قفزة نوعية من الملزوم إلى اللازم لفظاً ومن اللازم إلى الملزوم ذهنياً وهذا يعني مجاذبةً للأعصاب وتحريكاً للأوتار الحسية عند المتلقي، ويأتي المنظر الطبيعي فيضيف إلى هذا المقدار من الحسّ مقداراً آخر يأتي من الملابس بين الإنسان والطبيعة ووقع مشاهداتها في نفسه .

وقد رأينا حديث آكلة الخضر ((حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا))²، وهي كناية عن الشبع تملأ العين والقلب وتشرح نفس المتلقي لهذا المشهد الطبيعي المألوف المحبوب، فترشح لتفهّمه المثل المضروب به، فإذا الطبيعة المسخرة تغدو معلّمة وتعطي المثال النموذجي لغريزة الجوع والأكل، فيثوب إليه أقوام جاوزوا حدّ الطبيعة والاعتدال، فأكلوا الأخضر واليابس، وبسطوا اليد على نصيبهم ونصيب غيرهم .

¹ - تقدم ترجمته وشرح الكناية فيه ص 141، 142.

² - تقدم ترجمته وشرح الكناية فيه ص 136.

المطلب الثالث: تنوّع المشاهد الطبيعية في الكناية

ليس المقصود إحصاء مشاهد الطبيعة في الكناية النبوية واستقصاؤها فهذا سبيل يطول ولا طائل منه الآن، على أنّ مشاهد الطبيعة أصناف :
مشاهد ثابتة، ومشاهد تمثيلية، ومشاهد رمزية، وهي كذلك في الكناية النبوية.

فمن المشاهد الثابتة: ((مُحْسِكُ عَنَانَ فَرَسِهِ))¹ كنايةً عن الجاهزية. وتُصوّر فارساً على فرسه مستعداً للطيران في كلّ لحظة، واسمُ الفاعل يدلُّ على الثبات والديمومة.

ومن المشاهد التمثيلية: ((تَعْدُو بِكَ قُلُوبُكَ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ))² كناية عن الجلاء والتغريب البعيد، والمضارع يفيدُ الاستمرار ويستحضر المشهد، ويتأيد التمثيل فيه بتعاقب الليالي على هذه الحال.

ومن المشاهد الرمزية: ((وَيَضَعُ الْعَلَمُ))³ كناية عن انخراط المكانة وذهاب الشأن والعلم الجبل وهو مشهد طبيعي ثابتٌ، ودكُّه مشهد طبيعي هائل مثير ولكن التعبير بالوضع والعلم حوّل القضية إلى رمز للذلّ وجعل الحديث طائراً في الزمن حتى لو تبدّل العلم فصار رايةً مثلاً وبأيّ وضع كان.

مثال زاخر بالطبيعة من الكنايات النبوية

ونحن مع حديث مفعم بالطبيعة والحياة والحركة، مختوم بالكناية ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ

¹ - تقدم تحريجه وشرح الكناية فيه ص 137، 138.

² - تقدم تحريجه وشرح الكناية فيه ص 148.

³ - تقدم تحريجه وشرح الكناية فيه ص 149.

يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ . فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنْ
الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي . فَنَزَلَ الْبُئْرَ، فَمَلَأَ حُقْفَهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ
حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهَ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ)). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَإِنَّ لَنَا
فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا؟. فَقَالَ: ((فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ)).¹

و(يلهث) أي: يُخْرِجُ لِسَانَهُ مِنْ شِدَّةِ الْعَطَشِ وَالتَّعَبِ، كَذَا قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ
أَحْمَدَ وَالْجَوْهَرِيُّ وَغَيْرُهُمَا².

وذكروا أن كلَّ شيء يلهثُ فإنما يلهثُ من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه
يلهثُ في حال التعب وحال الراحة، وفي حال الرِّيِّ وحال العطش.
قال الجاحظ: "إننا ما نرمي بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضةٌ وادعةٌ إلا وهي
تلهثُ من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها والذي طُبعت عليه من
شأنها"³.

وهذه خبرةٌ قديمةٌ قيِّمة أثبتتها العلم الحديث، وثبتَ أن درجة حرارة جسم
الكلب الطبيعي تبلغ 38,6°م (الإنسان 37°م) وليس للكلب غددٌ تبريدٌ تفرز
العرق كما هو الحال عند الإنسان، إنما يخرج الكلبُ لِسَانَهُ ويلهثُ للتخفيف من
غلواء حرِّه، بين عشر لَهَثَاتٍ في الدقيقة إلى ثلاثمئة لَهْثَةً عند العطش والجهد⁴.

¹ - أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والإمام مالك في الموطأ .

البخاري في الأدب (رحمة الناس والبهائم) 6009 ، ومسلم في الأدب (فضل سقي البهائم
المحترمة وإطعامها) 2244 ، أبو داود في الجهاد (ما يؤمر به من القيام على الدواب
والبهائم) 2550 ، وهو في الموطأ ، في الجامع (جامع ما جاء في الطعام والشراب) 1729 .

² - ينظر : العين ، الخليل بن أحمد (لهث ، 42/4) ، والصحاح ، الجوهري (لهث ،
292/1) .

³ - الحيوان 17/2 .

⁴ - ينظر : الموسوعة العربية العالمية 8/20 .

وهذا يعني أن اللهات أنفسه ليس بدليل عطشٍ ما لم يقتزن بما يدلُّ على سرعته لذا جاء في الحديث (يأكل الثرى) والثرى التراب الندي¹، فاللهات المتسارع هو الكناية عن العطش.

والمشهد تمثيليٌّ والأجواء حارَّةٌ يزيدُها اللهاتُ حرًّا.

وفيه الثرى والكلب والرجل، أي أنواع الطبيعة الثابتة والمتحركة والعاقلة. ثمَّ البيئة المتجليَّة في البئر والخفِّ، والطبيعة المغيَّبة أعني الملائكة الذين يُوحى بهم قوله صلى الله عليه وسلم ((فشكر الله له)) والمعنى أظهر عمله للملائكة وأظهرهم عليه²، وفيه ذكرُ خالق الطبيعة جلَّ جلاله.

وكلُّ ذلك في حركةٍ نشِطةٍ من سبعة عشرَ فعلاً منها ما هو خارجيٌّ ومنها ما هو داخليٌّ يتعلَّقُ بالنيَّة والشعور.

وإنَّ سؤالَ من سأل من الصحابة متعجِّبين من قصَّة هذا الرجل وما أكرمه الله به من الأجر في قولهم: "وإن لنا في البهائم لأجراً" ليدلُّ على قطيعة سابقة بين العربي والطبيعة الحيوانية تتَّسم بجفاف الشعور وتلاشي الرحمة، دع عنك

¹ - شرح النووي على صحيح مسلم 241/14 ؛ فتح الباري ، ابن حجر 41/5 .

² - قال الإمام القرطبي في المفهم (545/5) : " أي : أظهر ما جازاهُ به عند ملائكتِهِ ، وأثنى عليه عندهم ".

وقيل في الشكر إنه بمعنى : قَبِلَ الله عمله ، ورجَّح القاضي عياض الأولُ أي إظهار عمله على الملائكة (إكمال المعلم 180/7) وهو ما اختاره القرطبي بعدُ ولم يذكر غيره . وكلُّ معاني الشكر ترجع عند التحقيق إلى أصل الظهور، والشُّكُورُ من أسماء الله تعالى، ومعناه كما في لسان العرب، ابن منظور (شكر، 425/4) : أنه يزكو عنده القليلُ من أعمال العباد فيُضاعف لهم الجزاء .

فيمكن الحمل على هذا المعنى فيقال إن عمل هذا الرجل على ضالَّته زكا عند الله فأصبح ظاهراً عظيم الأجر، ويمكن توجيه الظهور فيه بإظهاره على الملائكة، والحق أن كلا المعنيين يستلزم الآخر لا محالة ، والله أعلم .

شعراءهم فإنهم شعراء وانظر إلى سوادهم وعامتهم، فلما جاء الإسلام ترقّت مشاعرهم وتهدّبت نفوسهم وتأصّلت مناهجهم حتى في معاملة الحيوان والإحسان إليه.

ونصل الآن إلى التقرير النظري الذي تُوجّه به الواقع العملي وحُتم به الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم: ((في كلّ كبدٍ رطوبةٌ أجرة)) فالرطوبة كناية عن الحياة إذ هي لازمةٌ عنها، قال القاضي عياض: "لأن من مات جفّ جسمه وكَبِدُهُ"¹.

وقال الإمام الأبي: "ظاهره كلّ كبدٍ حتى في الكافر"².

قال الإمام القرطبي: "في هذا الحديث ما يدلُّ على أنّ الإحسان إلى الحيوان والرّفق به، تُغفّر به الذنوب، وتعظم به الأجور، ولا يناقضُ هذا أنا أمرنا بقتل بعضها، أو أُبيحَ لنا؛ فإنّ ذلك إنّما شرع لمصلحةٍ راجحةٍ على قتله، ومع ذلك فقد أمرنا بإحسان القِتلة، والرّفق بالذبيحة"³.

وكان لأستاذنا الدكتور نور الدين عتر وقفة أدبية جمالية مع هذا الحديث مشيراً إلى الحوار الداخلي (المنولوج) في حديث الرجل مع نفسه ثم في الحوار الجماعي بين الصحابة والنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم في الجملة الختامية الثرية بما فيها من كناية وإيجاز وتعميم، فليراجع في موضعه⁴.

ولا مزيد على ما قالوا سوى التذكير بأن الطبيعة لعبت في الكنايات النبوية دور المفسّر والمؤثّر، وتنوّعت مشاهدّها، واستحقّت التكريم النبوي الأخير المشتمل على الكناية: ((في كلّ كبدٍ رطوبةٌ أجرة)) .

¹ - إكمال المعلم 181/7.

² - إكمال إكمال المعلم 57/6 .

³ - المفهم 546/5 .

⁴ - ينظر: في ظلال الحديث ص 345 - 346.

المبحث الرابع

علاقة الكناية النبوية بالبيئة

المطلب الأول: علاقة الأدب بالبيئة

الإنسان ابن بيئته فهي الإطار الذي يتحرك فيه ويتعلم ويتكلم . وقد بنى علماء الاجتماع فنهم على مقدمة أن الاجتماع الإنساني ضروري ، وحكى ابن خلدون كلمة فيه تقول : "الإنسان مدني بالطبع"¹.

وهذا من قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) {الحجرات:13} .

فالإنسان إذاً مخلوق من اجتماع ، ثم هو لا يزال في اجتماع يجعل الله سبحانه وتعالى، وهذا معنى قولهم: (مدني بالطبع)، ومن ثم كانت البيئة من الطبيعة وكانت ذات مستويين :

الأول: العلاقات والعادات النازمة لها وضعية أو شرعية .

الثاني: ما ينشأ من تفاعل هذه العلاقات والعادات من مصنوعات تخرج بإعادة تكييف ما يمكن تكييفه من الطبيعة باستثمار سننها وقوانينها .

فلا عجب أن يكون الأدب انعكاساً لهذين المستويين وصورةً لهما كما هو انعكاس وصورة للدائرة الطبيعية الأم.

يقول الدكتور نعيم اليافي بعد ذكره مواضيع النقد الثلاثة المبدع والنص والقارئ: " نستطيع أن نضيف إليه طرفاً رابعاً أو عنصراً لاحظته النقاد على

¹ - مقدمة ابن خلدون 4 / 53 .

استحياء، بعضهم أغفله وبعضهم أبرزه أوقننه بشكل أو بآخر، إنه عنصر الإطار أو المهاد الذي يشمل الأطراف الثلاثة ويضمها ويؤثر فيها كلها¹.
وعني بالإطار البيئة، وإذا تخفف الأدب من إطار البيئة فلن يخرج من فلك الطبيعة .

إلا أنّ الحديث النبوي الشريف معانٍ مُنزلةً من وراء البيئة والطبيعة، ووحىٍ من خالقهما، لكنّ ضرورةً أنه متجةٌ لهداية الناس إلى النظام الأمثل للعلاقات تحتم أن تكون هذه المعاني بألفاظهم ورسومهم، يقول الدكتور أحمد ياسوف: " الفكر النبوي وحيٌّ لا علاقة له بالمحيط، في حين استدعى مشاهدات البيئة إلى مملكة التصوير لما تتمتع به هذه من حرارة المعاشة لدى المتلقين"².

المطلب الثاني: الخصوصية البيئية في الكناية

يقول د. محمد الحسن أمين أحمد: "الذي يقرأ العربية يعرف معنى (كتب زيد)، ولكن الذي ليست له ثقافة عربية ومعرفة بطرق تعبيرها عن عادات العرب وتقاليدهم لا يستطيع فهم (مهزول الفصيل) كناية عن الكرم"³.
وإذا عمدنا إلى الكناية النبوية على وجه الخصوص ففيها من البيئة عاداتها وتقاليدها ومصنوعاتها من سيفٍ ورمحٍ وسهمٍ وثوبٍ ونعلٍ ووكاءٍ وقلمٍ وغير ذلك مما لا يُستغرب ولا يُنكر إذ هو من بيئتهم وفي كلامهم .
والغرضُ خصوصيّةُ العلاقة بين الكناية والبيئة، فلا طائل من تتبّع مفردات البيئة مع انتشارها في الكناية وغيرها، والخصوصيّة تتعلّق باللزم الذي تقوم عليه الكناية، وأراه من جهتين :

¹ - المغامرة النقدية د. نعيم اليافي ص 38 .

² - الصورة الفنية في الحديث النبوي ص 356 .

³ - الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي ص 114 .

الأولى: أن اللزوم الطبيعي أقوى من اللزوم البيئي، وهذا يعني أن الكناية الطبيعية أبقى وأسرى في الزمن من الكناية البيئية، فبياض الوجه يلزم عن السرور، والسواد عن الحزي، والحمرة عن الغضب والحركة عن الحياة .. فهذه لزومات طبيعية لا تختلف وسبقَ حديثُها في مطلب الطبيعة وفي بحوث اللون والحركة في الكناية، أما الإشارة بكثرة الرماد عن الكرم وطول النجاد عن الطول وحمل العصا عن الضرب فهذه كنايات اللزوم فيها بيئيٌّ عرْفِيٌّ وليس طبعياً، وغالباً ما تتحوّل الكنايات البيئية العرفية إلى أمثال فتسري في الزمن بثوب المثل لا بثوب الكناية .

وما أكثرَ ما تُخَرِّجُ الكناية البيئية على الاتساع ما لم يجزم معاشوها بمعناها أو تُفسَّرَ من قريبٍ؛ وذلك لاختلاف البيئات عبر المكان والزمان، ولنا شاهدٌ في الكناية النبوية الشهيرة في قوله صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها : ((وأما أبو الجهم فلا يضعُ العصا عن عاتقه))¹ فقد أُؤْلِتَ بالضرب وأُؤْلِتَ بكثرة السفر وأُؤْلِتَ بغير ذلك مما نُضِرِبُ عنه الآن وقد سبق ذكره في الفصل الأول من البحث حين انتهيت إلى ترجيح التأويل بالضرب من قِبَلِ أَنَّ أبا بكر بن عبد الله بن أبي الجهم وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف دخلا على فاطمة بنت قيس فحدثتهما حديثها فرواه كل منهما على وجه: رواه أبو سلمة بهذا، ورواه أبو بكر هكذا : ((أما أبو جهم فرجلٌ ضرابٌ للنساء)) فظهر أنه روى بالمعنى كما فهم وعلم من سيرة جدّه.

الثانية: أن اللزوم العرْفِي هو السُرُّ في استدامة الكناية البيئية وانتشارها عبر المكان والزمان ولو تبدّل اللازم صورةً، كالكناية في حديث ((لا تُوكي فيوَكِي عَلِيكَ)) ورواياته: ((لا توعي)) و((لا تحصي))².

¹ - ينظر تحريجه وشرح الكناية فيه ص 55.

² - ينظر تحريجه وشرح الكناية فيه ص 126 .

فها هنا لزوم بين حالة نفسية هي الشح وبين الفعل البيئي العرفي وهو الإيكاء والإيعاء والإحصاء، فربما استعملت بعد استعمال المثل فيقال للمرء يُغلقُ خزانته أو يُخبأ ماعونه: (لا توك فيوكي عليك) ولا إيكاء حقيقة، وربما لوحظ فيها اللزوم فحسبُ وبقيت كناية مع تبدل الصورة فيقال لا تُغلق ولا تخبأ كنايةً عن الشح فيه.

أما العنصر البيئي المصنوع فيأتي في المرتبة الثانية بعد اللزوم العرفي الذي يدخل في مستوى العادات البيئية، فالكناية ((رُفعت الأقلام وجفت الصحف))¹ تحولت إلى مثل يُستعمله الناس للبتّ والقطع بأمرٍ، وعاش وعمر ولكن في ثوب المثل الذي أصله كناية، لا في ثوب الكناية مع أن القلم والصحيفة من الأشياء البيئية الطائرة في الزمن .

المطلب الثالث: فاعلية الكناية البيئية النبوية واستمرارها

لا توجد كناية نبوية يقال فيها انقضى زمنها وذهب وجهها؛ لأن الحديث النبوي الشريف شريعةً فيّاضة لن يبرحها العلماء إلى يوم الدين ساقين أو شاربين، حتى في أخصر الكنايات البيئية وهي الكنايات التاريخية التي تصوّر بيئةً جاهلية دارسة، وأقف عند هذه النقطة تحديداً وفيها أختار المثل فإنه إذا ثبتت فيها الفاعلية المستمرة فثبوتها فيما فوقها أولى .

جاء في الصحيح عن زينب بنت أم سلمة قالت: سمعت أمي أم سلمة تقول جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن ابنتي تُوفّي عنها زوجها وقد اشتكت عينها، أفنكحُها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا)). مرّتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول لا، ثم قال: ((إنما هي

¹ - ينظر تحريجه وشرح كنايته ص 156 .

أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا. وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ
الْحَوْلِ)).

قال حميد قلت لزَيْنِب وما تَرْمِي بالبعرة على رأس الحول ؟
فقلت زَيْنِبُ: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حِفْشاً، ولبست شَرَّ
ثيابها، ولم تَمْسَ طيباً ولا شيئاً، حتى تَمَرَّ بها سنة . ثم تَوْتِي بدابة حمارٍ أو شاةٍ أو
طيرٍ فتفتضُّ به، فقلَّما تفتضُّ بشيءٍ إلا مات ! ثم تَخْرُجُ فتُعْطَى بَعْرَةً، فترمي بها،
ثم تراجعُ بعدُ ما شاءت من طيبٍ أو غيره¹.

قال الإمام مالك عقب الحديث : الحفش البيت الرديء، وتفتض تمسح به
جلدها كالنشرة .

وقال الإمام الشافعي: "الحفش البيت الصغير الذليل من الشعر والبناء
وغیره"².

وقال أبو داود عقب حديثه : الحفش بيت صغير .
وقال الإمام الخطابي: " سمي حِفْشاً لضيقة وانضمامه، والتحفش الاجتماع
والانضمام . قال الأصمعي تحفش القوم إذا اجتمعوا"³.

¹ - البخاري في الطلاق (تحذ المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً) 5337 ، ومسلم في
الطلاق (وجوب الإحداد في عدة الوفاة ..) 1489 ، والترمذي في الطلاق واللعان (ما جاء في
عدة المتوفى عنها زوجها) 1197 ، والنسائي في الطلاق (ترك الزينة للحادة المسلمة ..) 3533 ،
وأبو داود في الطلاق (إحداد المتوفى عنها زوجها) 2299 ، وابن ماجه في الطلاق (كراهية الزينة
للمتوفى عنها زوجها) 2084 .

وأخرجه الإمام مالك في الموطأ ، في الطلاق (ما جاء في الإحداد) 1270 .
وموضع الكناية (ترمي بالبعرة على رأس الحول) لا خلاف فيه .

² - مسند الإمام الشافعي، كتاب العدد 2 / 1676.

³ - غريب الحديث ، الخطابي 2 / 584.

وكذلك الحاء والفاء والشين أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الجمع¹.

أما الافتضاضُ فيؤول ما فسّر به إلى معنيين:

أحدهما: الاغتسالُ حتى تكون مثل الفضّة، وهذا عن الأخفش².

والآخر عن ابن قتيبة وقد قال: "سألتهم -يعني الحجازيين- عن ذلك الافتضاض كيف هو؟ فذكر لي رجلٌ منهم يُكنى أبا يونس أنَّ المعتدّة كانت لا تغتسل ولا تمسُّ ماءً ولا تُقلِّم ظُفراً ولا تستاك ولا تبتف من وجهها شعراً، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظرٍ، ثم تفتضُّ بطائر تمسح به قُبْلَها وتنبِّدُه فلا يكاد يعيش!"³.

والتفسيرُ الأول من اللغة أما الثاني فمن البيئة وهو أولى بالاعتماد.

وأما قول الإمام مالك الذي مرّ: (تمسح به جلدها)، فهو أعم من التفسير الذي قاله ابن قتيبة (تمسح به قُبْلَها)، ولا تعارض بينهما؛ لأنه من تخصيص بعض أفراد العام بالذكر لأهميته، أو "لأنه أطلق الجلد وتبيّن أنَّ المراد به جلدُ القُبْل"⁴.

ويُتَوَجَّحُ هذا العناء بقطف الثمرة ورمي البعرة! وبَيَّنَّ أبو عبيد رحمه الله مذهبه في رمي البعرة أنَّ الذي صنعت بنفسها من قعودها أهونُ عليها من بعرة يُرمى بها كلب⁵.

¹ - ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس (حفش، 2 / 86).

² - حكاه ابن حجر في فتح الباري 490/9.

³ - غريب الحديث، ابن قتيبة 2 / 497.

⁴ - فتح الباري، ابن حجر 490/9.

⁵ - غريب الحديث، ابن سلام 2 / 96.

والخلاصة أنها عادة بيئية جاهلية درّسها الإسلام، وخزيّ وقذّر وامتهانٌ عجيب للمرأة لا يوازيه إلا ما كان من إحراق نساء الهندوس أنفسهن حداداً على أزواجهن¹.

وهي لا تخرج من هذا الخزي والقذر إلا إذا رمت البعرة آخر الحول .
إذا رميها للبعرة يردف حول التوحّش والتحفّش فكفى النبي صلى الله عليه وسلم به عنهما وعمّا تلاقيه المعتدة من الشدّة وطول المدة بما يشبه العنوان الذي يُسكت عمّا تحته تعبيراً وتعيباً وتقبيحاً، وقد بيّنت منه زينب قدراً يفهم الناس وما تركته أكثر.

والغرض من هذه الكناية شدُّ عزائم النساء المسلمات في التزام أحكام العدة الشرعية المطهّرة المبرّأة الميسّرة قياساً على ما كنّ يلتزمه في الجاهلية .
فهذه الكناية على خصوصيتها البيئية المحضة وعلى أنها تصويرٌ لما عَفَى عليه الزمن ونَقَضَهُ الإسلام فإن تأثيرها وفاعليّتها سيبقيان أبداً الدهر ما بقي في القوم أزواجٌ وعددٌ واستثقالٌ وتبرُّم .

¹ - كما وصف ابن بطوطة عياناً في رحلته 2/ 14 .

علاقة الكناية النبوية بالمبدع

المطلب الأول: المبدع في النقد الأدبي

نظراً لخصوصية المبدع في درسنا وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا بد من عرض وجهة النظر النقدية في شأن المبدع في البلاغة العربية القديمة والنقد الحديث وبيان الصواب فيها .

أ- المبدع في البلاغة والنقد الأدبي عند العرب :

كان للمبدع شأنٌ وافر في علم البلاغة والنقد الأدبي عند العرب من جهتين: الأولى: أن للمشافهة والإلقاء أعظم الأثر في نشر الأدب، والعرب ميّالون للاستماع أكثر من القراءة من لدن كونهم أمة أميّة حتى مصيرهم أمة غير أميّة وإلى النهضة الحديثة حيث ينشد علي الجارم قصائد أحمد شوقي نيابةً عنه¹، فالمبدع هو المنطلق الأول للكلمة ومن ثم كان المحط الأول للنقد .

وهذا يشترك به غير العرب معهم وإن قل حظهم منه، و" المهارة في الأدب لا تتناول سوى الألفاظ التي يستخدمها الكاتب، بينما مهارة الحديث تتناول أيضاً ما للمحدث من شخصية قد يكون أثرها أكبر وأعمق من أثر الألفاظ "².

والثانية: أن الصدق الواقعي وإن كان مبحثاً يهم الأخلاق إلا أن المتلقّي العربيّ قلّما يستطيع النظر إليه مجرداً عن المرسلة فهو يحاكم الأديب أخلاقياً ويحاول التطبيق بين ما يفعل الأديب وما يقول، أمّا جاء في بعض تعريفات بلاغة الكلام أن يكون صدقاً في نفسه؟³ وهذا ناشئ من معنى كلمة الأدب أنه

¹ - ينظر: الشعراء وإنشاد الشعر ، علي الجندي، ص 78.

² - قواعد النقد الأدبي، لاسل أبر كرمي، ص 41.

³ - ينظر : التعاريف ، المناوي ص 143، وفيه أن البلاغة تقال على وجهين: أحدهما أن يكون الكلام بذاته بليغاً وذلك يجمع ثلاثة أوصاف: صواباً في موضع لغته وطبقاً للمعنى المقصود به

دعوة إلى مآدبة أخلاقية ومن وظيفة الأدب أنه إصلاحٌ وسموٌ، وكذا رأى الرافعي رحمه الله أنَّ أساس الفن على الإطلاق هو ثورة الخالد في الإنسان على الفاني فيه، وأنه يكون في الأدب من النقص والكمال بحسب ما يجتمع له من الاتساق والحق والخير والجمال¹.

وإنك لترى العربي إذا تمثّل بقولٍ صدر عن غير أهله قدّم له بحديث: ((الحكمة ضالة المؤمن))² محتماً به.

ب - المبدع في النقد الأدبي الحديث :

توسعت الدائرة وبات ينظر إليه على أنه عنصر في عملية التوصيل يتأثر بسائر عناصرها وتؤثر فيه، فتعاورت قضيتاه اتجاهات ثلاثة :

1- التقليديون الناهلون من أرسطو وأفلاطون ويسمّون بالكلاسيكيين، وهم يؤكدون على الواقع الخارجي وتأثيره على المبدع، وأن اختلفت الوجهة فأفلاطون يعتقد أن الأسلوب صفة تتوفر في بعض الكتابات على أساس أن الفكرة لا بد أن تكون كاملة في الشكل والمضمون³، وبناء عليه رآه الناثرون مزيجاً بين الجمال

وصدقاً في نفسه. والثاني أن يكون بليغاً باعتبار القائل والمقول له وهو أن يقصد القائل أمراً ما فيورده على وجه حقيق أن يقبله المقول له .

¹ - ينظر : وحي القلم 2/213.

² - الترمذي في العلم عن رسول الله (ما جاء في فضل العلم على العبادة) 2687 ، وابن ماجه في الزهد (الحكمة) 4169 ، كلاهما من طريق إبراهيم بن الفضل عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً .

قال الترمذي : "حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإبراهيم بن الفضل المدني المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه " . وفي التقريب (92/1) : " متروك ، من الثامنة / ت ق " .

وللحديث شواهد، ومعناه صحيح، ينظر : كشف الخفاء (435/1) .

³ - ينظر : البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب ص 221.

والحقيقة ورأى الشعراء أن الإلهام يسبق الأسلوب، يقول الشاعر والناقد الإنكليزي ماثيو أرنولد (-1888م): "كأن الطبيعة أخذت القلم من يده وكتبت له بقدرتها الشفافة النافذة"¹.

وهذا هو الإنسان الكوني، الذي يحسبه الناس نافذاً بفكره من خلال الكون على حين أن حقائق الكون هي النافذة من خلاله، يقول مصطفى صادق الرافعي: "ولو أردت أن تعرّف الأديب من هو لما وجدت أجمع ولا أدقّ في معناه من أن تسميه الإنسان الكوني وغيره هو الإنسان فقط"².

أما أرسطو فيرى أن الأسلوب صفة في كلّ كتابة أدبية على اختلاف جودته، وبناء عليه يتم الربط بين الأسلوب ومبدعه كما عند بوفون الرائد الأسلوب الفرنسي (-1788م) القائل بأن الأسلوب هو الرجل، حيث في كل أسلوب جانبان: شخصي ولاشخصي أي لغة المبدع ولغة المجتمع³.

2- الذاتية (أي الرومانسية) الفرنسية وأهم رجالها سبترز (-1960م) وتمنح المبدع أهمية تفوق الواقع، وتعدّ العمل الأدبي تعبيراً عن العالم الداخلي للفنان، فلا بدّ لفهم النص من فهم مبدعه، وذلك من خلال سيرته وما يُعلم عنه⁴، وفضيلة الأدب عندهم أنه معيّر عن الذات حتى يكون الأسلوب بصمة لصاحبه وحتى إن الكلمة تستمد قوتها من شخصية صاحبها، يقول د. عز الدين

¹ - البلاغة والأسلوبية، الدكتور محمد عبد المطلب ص 222، نقلاً عنه .

² - وحي القلم 214/2 ، وينظر المصدر نفسه : 14 /3 ، 206/2 . وأظن هذا المعنى هو الذي أوحى للرافعي بتسمية مقالاته : "وحي القلم" .

³ - ينظر : البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ، ص 225.

⁴ - ينظر : البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ، ص 225.

إسماعيل: "فمن حيوية الشخصية وقوتها تستمد الكلمة، وهي بهذه الحيوية والقوة تؤثر في الآخرين"¹.

ويعلّل الأستاذ أحمد الشايب ربط الأسلوب بمبدعه بأنه معان مرتبة في نفس صاحبها قبل أن يصبح ألفاظاً مرتبة، فهو طريقة التعبير التي يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه².

3- النقد الأدبي بأسلوبيته المعاصرة، حيث جنح إلى السكوت عن المبدع ودعا إلى تنحيته عن دائرة الدراسة الأدبية، قال الدكتور أحمد ياسوف: "وهو نهج أدبي رسخت أصوله هذه الأيام، إذ صار الاعتناء بالمبدع مضيعة للوقت، وإهمالاً للنص، وإجحافاً بالمتلقي"³. ثم أكّد منهج تنحية المبدع بالنظر إلى الخطأ المحتمل في نسبة النص الأدبي إلى صاحبه، مع الإقرار بأن كلمة في الزهد مثلاً يتضاعف أثرها إذا نُسبت لمشهور به، ويهبط إذا نُسبت لمتهتِك خليع.

على أن ما ذكره أدعى ألا يُنظر إلى المبدع أصلاً لئلا تفوت نصوص قيمة. وقد كان هذا المنهج استقر حتى أدّى إلى خفوت المبدع من تعريف الأدب حيث قالوا في تعريفه: "الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به التأثير على مشاعر القراء والسامعين"⁴، فمال الاتجاه العام في الأسلوبية إلى النظرة الموضوعية وإلى التخلي عن الربط المحكم بين النص ومبدعه، ومحاولة إعطاء النص وجوداً مستقلاً عن حياة صاحبه. ويُذكر في هذا السياق سبترز الفرنسي الذي ابتدأ متأثراً بنظريات فرويد (-1939م) حول اللاشعور فأغرق في الرومانسية ثم أنكر

¹ - الأدب وفنونه ص 33.

² - ينظر: الأسلوب ص 41.

³ - دراسات فنية في القرآن الكريم ص 24.

⁴ - تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف ص 7.

منهجه السابق وتحول إلى التفسير الذي يعيش داخل بنائية النص بحيث يكون الأسلوب سطحاً يقود الدارس إلى أغوار أعماق في النص تساعد على إيجاد رؤية جديدة للعالم ليست بالضرورة شخصية ، وتكون مهمة الأسلوب الممارسة العملية لأدوات اللغة¹.

ج- وجهة نظري في قضية المبدع :

الوسط الأعدل -فيما أرى- هو استكشاف المبدع ثم التأثر بمصادقية شعوره من خلال النص ذاته لا من حيثية خارجية، وعندها لا يكون هناك إهمال للنص ولا خطر من الخطأ في شخص مبدعه، ولهذا كان سيد قطب رحمه الله مصيباً لما عرف النص الأدبي بأنه "التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية"²، فلا بد أن يكون للأديب أو الشاعر طابع خاص حتى يصلنا بالكون الكبير، ولن يكون كذلك حتى يتسم بالصدق الفني أي صدق التأثر، قال: "ونحن لا نملك حق الاطلاع على ضمير الأديب ولكننا لا نعدم وسيلة لإدراك الصدق الفني في عمله من خلال تعبيره"³.

وضرب مثلاً من شعر شوقي :

قف بتلك القصور في اليمّ غرقى مُمسِكاً بعضُها من الدُّعر بعضا

كعذارى أخفّين في الماء بضاً ساجحاتٍ به وأبدّين بضاً⁴

فكل بيت بمفرده يعرض صورة جميلة الرسم والإيقاع، ولكنهما مجتمعين يكشفان عن اضطراب في الشعور أو تزوير فيه .

¹ - ينظر : البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ص 232، 233.

² - النقد الأدبي ، سيد قطب ، ص 7.

³ - النقد الأدبي ، سيد قطب ، ص 31.

⁴ - الشوقيات 280/1 .

قلت: هذا التحول المفاجئ من أقصى الشمال جهة الأسى إلى أقصى اليمين جهة الأنس يشقّ على القارئ مما قد يحمله على الانسحاب من مصاحبة الكاتب في رحلته، والرحلات الباردة واقعةً حتى عند الأمير الأول للشعراء في قوله :

كأنّ عيونَ الوحش حول خبائنا وأرْحَلنا الجزعُ الذي لم يُثَقَّب¹
فإنّ الوَحْشة التي تمثلها عيون الوحش حول الخباء لا تتفق مع الطمأنينة
والأنس اللذين يمثلهما الجزعُ (أي الخرز)، وقد كان عنده فسحة في الأعصاب
لينبّه إلى أنه يعني في التشبيه الجزعَ الذي لم يُثَقَّب! وهذا فتورٌ في الشعور حوّل
البيت إلى مجرد تشبيه بصري يليق بدروس علم الأحياء .

وما قدّمته يتصل بسبب إلى نظرية الفحص الباطني للعمل الأدبي التي ألحّ
عليها العقّاد، والتي تقوم على أن نتاج الأديب صورة لنفسه وحياته الباطنية فلا
عُرِفَ الأديب إن لم يُعرَف من خلال أدبه! وهذا جوهر علم النفس اللانسوبي
المنسوب إلى لانسون الفرنسي (-1934م) الذي "يقوم أساساً على نوع من
الاحتمية التي لا بد وأن تتشابه فيها تفصيلات عمل أدبي معين مع تفصيلات
حياة المؤلف وصفاته النفسية"².

لكن العقّاد كان ينظر إلى الملامح العامة وانعكاسها في النتاج الكلي³.
ويُستثنى من البحث كتب الأدب العربي التي سميت أدباً والمبدع فيها أدبٌ
غائب كأدب الكاتب لابن قتيبة، فإنّها "وُضِعَت لتكون أدباً لا من معنى أدب
الفكر وفنه وجماله وفلسفته بل من معنى أدب النفس وتثقيفها وتربيتها وإقامتها

¹ - ديوان امرئ القيس ص 53.

² - البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ص 176.

³ - ينظر: الفصول ، العقّاد ص 223 .

فهي كتب تربية لغوية قائمة على أصول محكمة في هذا الباب¹ لذلك لا ترى المؤلف في تأليفه؛ إذ الغرض منها أن تقوم مقام الأعراب الفصحاء في ملازمتهم والأخذ عنهم وهذا من أسرار حفظ اللغة .

ولا يفوتني التنويه بأنه قد تهيأ للنقد الأدبي ببلاغته العربية تجربة السكوت عن المبدع في أرقى صورها من خلال دراسة النصوص القرآنية والنبوية حيث اتجه النظر إلى الرسالة والمتلقي، لكن لا يعني هذا أنها الطريقة المثلى في نقد الأدب غير المقدّس .

المطلب الثاني: الصدق الفني للمبدع في الكناية النبوية

بخصوص المبدع في بحثنا الذي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن حديثه نُقلَ نُقلًا وأُحسنه، وميّز علماء الحديث السقيم من الصحيح، والآفة من بعض الناقلين من جهة الضبط أو العدالة، وأمرهم مثبت مدوّن، فلا خشية من الخطأ في شخص المبدع.

ومن ذا يستطيع تجاهل حضور النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب المسلمين، ممّا يضيف على متلقي الحديث في كلّ عصر شحنة شعوريةً تزيد وتنقص بقدر إيمانه؟.

ثم إنّ رواة هذا الحديث ومبلّغيه كثير لا يُقاس بهم رواة شعر أو نثر، لا كمّا ولا كيفاً، من صدق تأثّر، وحسن تصرّف، وجودة إلقاء. فهو مادة الخطب وأحد أصول الدين، ولهذا أثره في المتلقي. مع الإقرار بوجود ثقل باردين من النقلة المبلّغين يفسدون القضية على المتلقي ويبدّدون حماسه.

¹ - شرح أدب الكاتب للجواليقي ، مقدمة الرافعي ص : 8 .

وفي هذه الحال وحال تلقي الحديث من غير مؤمنٍ وحال تلقي الحديث قراءةً من كتاب يلعبُ الصدقُ الفني في الحديث الدورَ الأكبر في التأثير على المتلقي الواعي بديلاً عن حضور المبدع وتأثير شخصه، فما هو الصدق الفني ؟
يُعنى بالصدق الفني انفعال الأديب أي إحساسه بما يقول وتأثره به لحظة الإبداع، وسبق أن ذاكرة الخيال في عقل الإنسان لا تبقى إلا المشاعر التي تحركه، أي الصور التي استقبلها بتفاعل عند عملية الإدراك، أما الصور التي لم يتأثر بها لحظة إدراكها فتبقى - إذا بقيت في الذاكرة - خاملةً بعيدةً عن عملية الاسترجاع¹.

إذاً لا بدّ للأديب من انفعالٍ ما في لحظة تلقي الحدث، أما لحظة الإبداع فقد يعيش انفعالاً وثَمَّ الصدق الفني وقد يفتعلُ انفعالاً بمزاولة المنطق والترتيبات العقلية أو بمحاولة التلفيق والتزوير.

والانفعالُ قسيمٌ للعاطفة وللشعور ويتخلف عنهما زمناً، فالإحساس الهادئ الكامن في الطبع يسمى العاطفة وهو الذي يقابل الفكر، والإحساس الآني المتقدم لحظة تلقي الحدث من الخارج يسمى الشعور، والإحساس الإضافي الذي تولّد عن الشعور وكَمَن مدّة بعد الحدث ثم تمكن من الصدور على شكل تعبير هو الانفعال².

والحدث الذي يتلقاه المبدع في درسنا هو الوحي الإلهي المعنوي دون اللفظي، ولا شك أن الشعور حالة تلقّي الوحي هو في أرفع درجاته، وجماهير الأصوليين على جواز أن يؤخر النبي صلى الله عليه وسلم تبليغ الوحي قرآناً أو غيره إلى

¹ - ص 101.

² - ينظر: مقدمة في دراسة الصورة الفنية ، د. نعيم اليافي ص 105 .

وقت الحاجة إليه، ومنعه الآمدي والرازي في تبليغ القرآن خاصة؛ لأنه متعبّد بتلاوته فيدخل في الحاجة إليه من وقت الخطاب¹.

فقد يدخل الشعور بالوحي المعنويّ حالة كُمون بين لحظة التلقي ولحظة التبليغ، لكنّ هذا لا يعني أن تقلّ درجة الانفعال عن درجة الشعور؛ لأنه إذا تم التأخير إلى ظهور الحاجة فظهور الحاجة حدث آخر يعطي دفعا شعورياً يسبق الانفعال أثناء التبليغ فيخرج التبليغ - الإبداع اللفظي - حاراً بالانفعال والشعور معاً².

ومن هذه النقطة تأتي أهميّة تلمس مظاهر الصدق الفني في الحديث النبوي، علماً أن الإحاطة بها تستدعي الخوض في جميع فنون البلاغة، ثم لا يزعم أحد بعد ذلك أنه استوعب المقصود . وأكتفي بالقدر الذي يتعلّق بالصدق الفني في الكناية النبوية ممّا نجم في تحقيقات البحث السابقة.

فمن أدلة الصدق الفني في الكناية النبوية :

أولاً- الكناية نفسها باعتبارها صورةً انحرافيةً دليلٌ على الصدق الفني فيها:
إن الكناية انتقال لفظي من الملزوم إلى اللازم ومن الصفة إلى دليلها، ذكرت هذا مراراً، والشاهد الآن أنّ هذا القفز النوعي إلى الدليل مباشرة لا يمكن أن يتمّ بغير طاقةٍ إضافيةٍ من الإحساس هي ما يُسمّى الانفعال أو الصدق الفني.
ثانياً- الكناية باعتبارها صورةً فنيّةً دليلٌ على الصدق الفني فيها:

¹ - ينظر: المعتمد، أبو الحسين البصري 1 / 314 ؛ الحصول، الرازي 3 / 327؛ الإحكام، الآمدي 3 / 53.

² - هذا في قياسنا البشري الذي لا ندري إن كان يسري على الشخصية البشرية الكاملة المحفوظة بالعصمة والرعاية أو أنّ لها سرّاً فوق ذلك، والله أعلم .

قلت في مبحث التجسيم من الفصل الثاني إنّ التلاحم في التجسيم الكنائي بين الشكل والمضمون يبلغ الذروة بسبب إرادة كلّ من اللازم والملزوم معاً وهي خاصّة الصورة الفنية الكنائية عموماً¹، فالشكل والمضمون في الكناية مُركَّبٌ واحد يُرى غوره من سطحه ومُحُّه من سُوِّقه؛ لأن الكناية مُركَّبٌ واحد دال على معنى ومعنى آخر في عمقه، فالعلاقة فيها أصلاً داخلية ولا يمكن رؤيتها إلا من الداخل، ومن ثمّ فلن تكون إلا عن انفعالٍ وانبثاقٍ روحي.

فالصورة على العموم مصدرها الانفعال²، وهي دليل عليه، مع التأكيد على انسجامها والمنطق، وأنه في الأدب الحق والفترة السليمة لا يكون الانفعال إلا منطقياً ولا المنطق إلا انفعالاً كما قدمت³.

ثالثاً- الإيقاع في الكناية النبوية دليل على الصدق الفني :

الإيقاع كما رأينا⁴ يصدر عن انفعال، وبقدر ما يتسق الإيقاع يظهر الصدق الفني، وتبيّن بالأدلة أن النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى المراتب البشرية في هذا المضمار، وأنه يمتلك ناصية الحس واللغة معاً.

وتقدمت الأمثلة مبيّنة في مباحثها بما يغني عن الإعادة .

رابعاً- الصدق الواقعي في الكناية النبوية دليل على الصدق الفني :

يعني الصدق الواقعي مطابقة الكلام للواقع، ويُعتَبَر في الأدب دافعاً يؤدي إلى الصدق الفني وتأثر الأديب بما يقول ودافعاً لتأثر المتلقي بما يسمع، وهو في الحديث مُسلَّمٌ به عند المبدع والمتلقي على حد سواء لأن مصدره الوحي، لكنه في الكناية خاصّة يُعتَبَر مظهراً ودليلاً على الصدق الفني وليس دافعاً إليه؛ ذلك

¹ - ص 162.

² - ينظر : مقدمة في دراسة الصورة الفنية ، د. نعيم اليافي ص 30 .

³ - ص 268.

⁴ - في مبحث الإيقاع من هذا الفصل ص 283.

أنّ الكناية باعتبارها انتقالاً من الصفة إلى الدليل تتميز عن سائر ضروب البيان ببعدها الطبيعي عن الإغراق والغلو والمبالغة، إلا في الكناية عن النسبة فقد يخامرها شيء من ذلك، وهذا يفسر ندرتها في الحديث الشريف¹، مع أن الحديث الشريف لو جاء بما ظاهره مبالغة وإغراق فإنه من الغيب الذي اطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فيدخل في الصدق الواقعي ولو استغربه الناس في حينه. وقد رأينا حديث النار التي تضيء أعناق الإبل ببصرى، وتمت المقارنة بنار امرئ القيس التي تنورها من أذرعات فظهر الفرق بين الصدق الواقعي وبين الإغراق².

وأخيراً يمكن الاستئناس بالصدق الفني لتمييز الروايات

وممن أسّس لهذا النهج في الأدب الدكتور ناصر الدين الأسد في إثبات قصائد الشعر الجاهلي ومعرفة المنحول منها، في أطروحته حين قال معلقاً على من زعم التوليد في قولهم:

إن بالشعب الذي دون سلعٍ لقتيلاً دمه ما يُطْلُ³
"إن أكثر هذه القصيدة لا يمكن أن يكون موضوعاً متكلفاً منحولاً لما يظهره فيها النقد الفني الداخلي من أصالة وصدق فني وشخصية صادقة"⁴.

¹ - ينظر ص 91 .

² - ص 215 .

³ - نسبه في الحماسة بشرح المرزوقي 35 / 2 لتأبط شراً، وقيل هي للشنفرى يرثيه، وقيل هي لابن أخت تأبط شراً خفاف بن ندبة .

وزعم المرزوقي أنها منحولة ولدها خلف الأحمر ، وكان ابن قتيبة ذكر ذلك في الشعر والشعراء 790 / 2 ، وانظر تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ، د. شوقي ضيف ص 154 .

⁴ - مصادر الشعر الجاهلي، ناصر الدين الأسد ص 75 .

والذي ينبغي في الصدق الفني نقد الصورة والإيقاع، فيقال بعد ذلك هذا أشبه بشعر فلان وهذا نابٍ عنه وهكذا.. مع احتمال الخطأ في الحكم؛ لأن الشاعر يعلو ويهبط ولا يكون شعره جنساً واحداً.

أما الحديث الشريف فنسيجُ واحدٌ يعلو فلا يهبط، ويشكّل القمة البشرية في الفصاحة والبلاغة إذ هو أفصح العرب الذين هم أفصح الناس، والمعول في تمييز الروايات فيه على الدراسة المنهجية الدقيقة للمتن والإسناد، وبعد ذلك يمكن الاستئناس في تمييز الروايات بالصورة والإيقاع اللذين هما مظهرها الصدق الفني، وسبق أن طبقت هذا المنهج في بحث التجسيم الكنائسي في قول النبي صلى الله عليه وسلم للأعرابي: ((لَقَدْ حَجَرْتَ وَاسِعاً)) يَكْنِي عن موصوف هو الرحمة الإلهية، وهي الرواية الأصح سنداً، وفي الأخرى التي خرّجها ابن ماجه ((احتظرت واسعاً))، وبعد التحقيق في سند الروايتين وترجيح الأولى منهما، سعيثُ إلى الاستئناس لهذا الترجيح بالنقد الداخلي المتعلق بالإيقاع والصورة وظهر لي من ذلك ما تقرُّ به العين فانظره في موضعه¹.

المطلب الثالث: دلالة الكناية النبوية على الانشغال الفكري

للمبدع

الانشغال الفكري مطلب ينبغي إلا نغادر قضية المبدع قبل أن نلّم به؛ فإنهم يحفلون به في النقد الأدبي، ويرون الدليل عليه بالإحصاء وتفقد التكرار الذي يكشف عنه أي: "التكراريات التي تأخذ شكل ظاهرة أسلوبية"² مثل ما يُسمّى

¹ - ص 145 ، وما بعدها، وللتوسع ينظر: ص 282، 283.

² - البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب ص 191.

بالكلمات المفتاح، التي تصبح بتكرارها منفذاً إلى نفس الأديب لإضاءة بعض زواياها والكشف عن انشغاله الفكري¹.

وبالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم فماذا نتوقع أن يكون انشغاله وهو رسولٌ مُبتعثٌ لهداية العالمين وإخراجهم من الظلمات إلى النور وإنقاذهم من النار بعبادة الله الواحد القهار، وإقامة حياة الناس على شريعته ؟

ومع ذلك لو كان بحثنا في عموم البلاغة والنقد لحاولت الإحصاء وتقصي الكلمات المكررة، لكنّ بحثنا في الكناية وإني لأجد في الكناية دليلاً على الانشغال الفكري لا يُستهان به، كيف وهي قفْزٌ من الملزوم إلى اللازم ما كان له أن يتمّ لولا تمكُّنٌ عميقٌ للفكرة في النفس .

والمثال يوضح المراد :

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))².

والشراكُ سِرُّ النعل³ الذي يدخلُ فيه إصبعُ الرجل، ويُطْلَقُ على كلِّ سِرٍّ وُقِيَتْ به القدم⁴.

والجنة والنار كنايةتان عن الموت لأنهما يردفانه، وسيأتي توجيه الكناية، وقبلها أذكر ما قاله الشراح في معنى الحديث وسبب اختيار الشراك، قالوا :

¹ - ينظر : اللغة والإبداع ، د. شكري عياد ص 87 .

² - البخاري في الرقاق (الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك) 6488 .
والإمام أحمد في مسنده ، مسند المكثرين من الصحابة (مسند عبد الله بن مسعود) 3658 .

³ - لسان العرب، ابن منظور (شرك، 10 / 448).

⁴ - ينظر : فتح الباري ، ابن حجر 11 / 321 .

1- إنّ الطاعات الموصلة إلى الجنة والمعاصي المقرّبة من النار قد تكون في أيسر الأشياء. كذا قال ابن بطلال¹.

2- إن سبب حصول الثواب والعقاب إنما هو سعي العبد، والسعي بالأقدام وكلُّ من عمل خيراً استحق الجنة بوعدّه، ومن عمل شراً استحقّ النار بوعيدّه، وما وعدَ وأوعدَ منجزان فكأُنهما حاصلان ، قاله الإمام الطيبي².

3- إن سبب دخول الجنة والنار صفةٌ مع الشخص وهو العمل الصالح والسيئ، وهو أقرب إليه من شراك نعله؛ إذ هو- أي شراك النعل - مجاورٌ له والعملُ صفة قائمة به³.

وعلق الدكتور أحمد ياسوف على هذا الحديث باعتباره يحتوي على عنصر بيئيٍّ مهم هو شراك النعل، وقال بعد ذكره القولين الأول والثاني: "وعلى أية حال القربُ ليس بحسي، بل هو معنوي، فالنص يلوّح إلى سهولة دخول الجنة للمطيع وسهولة دخول النار للعاصي، والشراك جزئية معيّنة في الواقع، وضبطُها الأصابع يذكر بضبط النفس إزاء الحرام، وتكرّر مشاهدتها يعدُّ تكريراً للموعظة"⁴.

ولما كان الحديث الشريف جارياً على أساليب العرب مهيماً عليها فأرى أن يُنظر إلى هذا الحديث من خلال أسلوب العرب وعاداتهم في استثمار الجزئية البيئية شراك النعل في أدبهم، وقد كانت العرب تقول: الموت أدنى من شراك النعل.

¹ - شرح ابن بطلال على صحيح البخاري 10 / 198. وينظر : فتح الباري ، ابن حجر 11 / 321 .

² - شرح الطيبي على المشكاة 6 / 1861.

³ - حكاية المناوي في فيض القدير 3 / 360.

⁴ - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، ص 375 .

ويحفظُ الناس من حديث عائشة رضي الله عنها أنها عادت أباهَا أبا بكرٍ رضي الله عنه وقد مرض عقيب الهجرة فسألته كيف تَجِدُكَ يا أبت؟ فقال رضي الله عنه :

كُلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ في أهله والموتُ أدنى من شِرَاكٍ نعلِه¹
 وذكر المؤرخ النسابة أحمد بن يحيى البلاذري (-279هـ) أن حكيماً النهشلي التميمي - وقيل اسمه الحكم - ارتجزه يومَ الوقيط من أيام بكرٍ وتميم²، وذلك في

¹ - روى الإمام البخاري في المناقب (مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة) 3926 ، والإمام مالك في الموطأ ، الجامع (ما جاء في وباء المدينة) 1648، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وُعِكَ أبو بكرٍ وبلالٌ. قالت: فدخلت عليهما، فقلت: يا أبت كيف تَجِدُكَ؟ ويا بلالٌ كيف تَجِدُكَ؟ قالت: فكان أبو بكرٍ إذا أخذته الحمى يقول:

كُلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ في أهله والموتُ أدنى من شِرَاكٍ نعلِه
 وكان بلالٌ إذا أقلع عنه الحمى يرفعُ عقيرته ويقول:
 ألا ليت شعري هل أبيتُ ليلَةً بوادٍ وحوالي إذ خَرَّ وجليلُ
 وهل أَرَدَن يوماً مِياهَ مَجَنَّةٍ وهل يَبْدُونَ لي شامةً وطَفِيلُ
 قالت عائشة: فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، فقال: ((اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ ، وَصَحِّحْهَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَانْقُلْ حُمَاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ)).

وفيما أنشده بلال رضي الله عنه من الغريب الإذخر والجليل وشامة وطفيل ومجنة:
 فأما الإذخر والجليل فكما قال ابن عبد البر: "نبتان من الكلاء طيبا الرائحة يكونان بمكة وأوديتها لا يكادان يوجدان بغيرها" التمهيد 190/22 .
 وأما شامة وطفيل فجبلان إلى الجنوب من مكة يطلآن على مَجَنَّةِ ماءٍ عكاظ . ينظر : معجم البلدان، ياقوت الحموي 3 / 315.

والبيت : كل امرئٍ مصبح .. الخ مثبت في ديوان أبي بكر رضي الله عنه ص 51.
² - جمل من أنساب الأشراف 12 / 133، وانظر أخبار يوم الوقيط في الكامل في التاريخ، ابن الأثير 1 / 230.

الجاهلية¹، فإن صحَّ كان أبو بكرٍ رضي الله عنه قد تمثَّل به وليس من قوله ، وربما لم يكن من قول حكيم أيضاً بل هو مما توارد عليه العرب لشهرة معناه، ففي أمثالهم : أدنى من الشَّسع ، وأدنى من شرك النعل² .

فقول النبي صلى الله عليه وسلم : (الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شرك نعله) هو من هذه الباب، والجنة والنار كناية عن الموت فإنهما يردفانه، لكن عندما يقف العرب عند الموت ويقولون: (الموت أقرب من شرك النعل) فإنهم ينظرون إلى زوال الحياة وانقضاء اللذات وهذا سواء منهم من كان مؤمناً أو كافراً. أما النبي صلى الله عليه وسلم فيتجاوز هذا الحجاب ويَكْنِي عنه بما يردِّفه وما هو أهمُّ منه لأن الغاية التي ينتهي إليها المرء هي الجنة والنار. فإذا كان الموت أقرب من شرك النعل كما تقول العرب، فالجنة والنار كذلك أقرب إلى شرك النعل كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم .

والخلاصة أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يقف فكرُ الناس على حدود الموت بل يريد أن ينتقلوا إلى الجنة والنار من بعده. فالحديث جاء تطويراً وتعميقاً لفكرةٍ وقولٍ سائدٍ عند العرب، ودالاً على انشغال فكري راسخٍ بالحساب والجزاء عند النبي صلى الله عليه وسلم، والله أعلم .

وقيل : يوم الوقيط كان بين تميم وبكر بن وائل في الإسلام. ينظر: الشعر والشعراء ، ابن قتيبة، في ترجمة سعد بن ناشب 696 / 2؛ معجم ما استعجم، البكري 4 / 1383؛ مجمع الأمثال ، الميداني 433/2 ؛ معجم قبائل العرب ، د. عمر كحالة 1 / 128.

لكن ابن عبد ربه في العقد الفريد 6 / 46 والنويري في نهاية الأرب 15 / 290 ذكرا شعراً لعنترة في يوم الوقيط في مقتل حكيم النهشلي فإن صحَّ فهو دليل على أنه كان في الجاهلية، والله أعلم .

² - ينظر : المستقصى في أمثال العرب ، الزمخشري 1 / 121.

الفصل الخامس

أغراض الكناية النبوية

تمهيد في أغراض الصورة

المبحث الأول: الأغراض التهذيبية للكناية النبوية

المطلب الأول: التهذيب الاجتماعي في الكناية النبوية

المطلب الثاني: التهذيب الجنسي في الكناية النبوية

المبحث الثاني: الأغراض الترغيبية للكناية النبوية

المطلب الأول: الترويح بحظ النفس

المطلب الثاني: التحبيب

المطلب الثالث: التسلية

المطلب الرابع: تعظيم المصاب لتعظيم الجزاء

المطلب الخامس: التبشير

المبحث الثالث: الأغراض الترهيبية للكناية النبوية

المطلب الأول: التخويف بإظهار نتيجة الفعل المرهَّب منه

المطلب الثاني: الوعيد

المطلب الثالث: التقبيح

المطلب الرابع: الترويع

المبحث الرابع: الأغراض الفنية للكناية النبوية

المطلب الأول: الاقتصاد

المطلب الثاني: المشاكلة

المطلب الثالث: الموازنة الفنية

المطلب الرابع: التخصيص والاحتراز

المطلب الخامس: التهوين

المطلب السادس: المواساة

المطلب السابع: التأكيد

تمهيد

في أغراض الصورة

رأينا في المباحث السابقة أن الكناية صورةٌ باعتبارين:

1- انحرافي بياني يتعلق بالمعنى ومعنى المعنى .

2- فني يتعلق بالتجسيم والتشخيص واللون والحركة والإيقاع .

ورأينا تركيز الفلاسفة المسلمين على التخيل والتأثير في المتلقي أكثر من التخيل عند المبدع وأن هذا من طبيعة الدعوة الإسلامية المتجهة إلى الآخر. أمّا الفلسفة الجديدة فتخبّطت بين التركيز على النص الأدبي لاكتشاف أدبيته، والتركيز على المبدع وعدّ الصورة وسيلة تفرّغ لشحنة إبداعه، والتأثير على المتلقي بغض النظر عن النوايا.

وبالمحصلة كان للصورة - ومنها الكناية - ثلاث وظائف¹:

1- المحاكاة، ويتفرع عنها التحسين والتقبيح.

2- التفسير، والمراد منه التأثير في المتلقي.

3- الدلالة على مبدعها، وتحقيق ضرورته.

والفصول السابقة عرضت أدبيّة الكناية النبوية وخصوصيّة المبدع وبقي المتلقي، وفي البلاغة العربية تبرز أهمية المتلقي من خلال مطابقة الكلام لمقتضى الحال كما جاء في بعض تعريفات البلاغة²، وإنما يُراعى حال المخاطب لا المتكلّم ومنه جاء إنكارهم لبعض مطالع القصائد، وجاء النسيب كالمفتاح للقلوب وأما الختام فهو الختام على كل حال.

¹ - سبق ذكر هذه الوظائف وبيانها في أول المبحث الثاني ص 102، 103.

² - ينظر : ص 3.

واليوم يُنظر إلى الأسلوب باعتباره قوة ضاغطة يسلطها المرسل على المستقبل تحوي الإقناع والإمتاع ومن ثم التأثير مما يسلب المستقبل حرية التصرف فيسلس قياده¹.

وقد تصبح الصورة مضحكة أحياناً كما في قول أبي تمام في ممدوحه :
جذبتُ نَداه غدوة السبت جذبةً فخرَّ صريعاً بين أيدي القصائد²
وهناك اتجاه في الأسلوبية الحديثة يحدد مفهوم الأسلوب من خلال أثره في المتلقي، ويمثل هذا الاتجاه ميشال ريفاتير فالأسلوب عنده إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام وحمل القارئ على الانتباه إليها، ويرى أن البحث الموضوعي يستدعي ألا ينطلق المحلل الأسلوبي من النص مباشرة وإنما ينطلق من الأحكام التي يبيدها القارئ حوله، ويقسُ المحلل الأسلوبي ضغطَ الأسلوب على المتلقي ووسائله وفرص نجاحه، ذلك أن المتلقي يمتلك حاسة التوقع والانتظار وتأتي براعة الأديب بإعطائه فوق ما يتوقع، وكلما زادت المفاجآت في الأسلوب زادت القوة الضاغطة³.

ويُحشى أن يمثل قانون مراعاة الحال قوة ضاغطة عكسية يمارسها المتلقي على المرسل فينشأ نفاقٌ خفيٌّ يتطور مع الزمن إلى قناعة⁴.
فالحالة الصحية - فيما أرى- أن تكون مراعاة الحال غلافًا للمضمون المراد توصيله لا أن تصبح هي المضمون .

¹ - ينظر: البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ص 235.

² - ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي 2/ 42 .

³ - ينظر البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ص 240، 241.

⁴ - ينظر: فصول في التفكير الموضوعي ، د عبد الكريم بكار ص : 259.

والأدب النبوي لا يُطلَب لذاته ولا لتحقيق ضرورة المبدع وتفرغ شِحنته، بل هو أدب هداية وتشريع ومهما فصّلنا في عناصره ودرسنا أدبيّته فإن الغاية والمطلوب النهائي فيه هو المتلقي.

وإن للكناية النبوية أغراضاً في المتلقي أحصيتُ منها في هذا الفصل نحو عشرين نوعاً ثم صنفْتُها في أربع مجموعات وفي أربعة مباحث: الأغراض التهذيبيّة، ثم الترهيبية، ثم الترغيبية، ثم الفنية، ولمُستكثرٍ أن يزيدَ .

وحسبي أنني تجاوزت بأشواطٍ ما ظلّوا يقصرون عليه وظيفة الكناية من الستر والتهذيب، مع رصد ما قدرت عليه من المؤثرات الصُّورية، وقياس أثرها في المتلقي .

المبحث الأول

الأغراض التهذيبية للكناية النبوية

طفقَ الناس في المدة قبل استقرار مصطلح الكناية عند علماء البلاغة العرب ينوِّعون الكناية بحسب الغاية منها، فخرجوا إلى نوعين: كناية يرجى منه الإيجاز، وأخرى يرجى منها الستر والتغطية لما لا يحسن ذكره. والثاني يتنوع بحسب بواعثه إلى الستر لُتبُّح اللفظ، أو الخوف، أو التفخيم، أو لغير ذلك من أسباب النفس التي لا تكاد تنتهي¹.

وبعد استقرار المصطلح توثق النسب بين الكناية والتهذيب؛ لأنها أصبحت تقوم على مبدأ تغطية الملزوم باللازم، ولستر الملزوم أغراض منها أن الملزوم قد يكون قبيحاً لا يحسن ذكره واحتيج إليه فعُمِدَ إلى بعض ما يلزم عنه ليشار به إليه فتخلَّص بذلك من النطق بالقبيح.

على أنَّ التهذيبَ واختيارَ الكلمات الحسنة اللائقة من مهمَّات الأدب، وهذا في حق البلغاء حقيقة وفي حق رسول الله صلى الله عليه وسلم تجوِّز؛ لأن كلامه طبعٌ مترسِّل لا يكون فيه عيب حتى يحتاج منه إلى تهذيب .

إذ **التهذيب في اللغة** التنقية، قال ابن فارس: "الهاء والذال والباء: كلمة تدلُّ على تنقية شيءٍ مما يعيبه يقال: شيءٌ مهذَّبٌ: منقَّى مما يعيبه. وأصله الإهذاب: السرعة في الطيران والعدو، ومعناه أنه لا يُمكنُ التعلُّق به. يقال مرَّ الفرسُ يُهذَّبُ..."².

¹ - ينظر ص 11 وما بعدها ، حيث كان معنى الكناية أن تعبر عن الشيء بغير لفظه.

² - مقاييس اللغة (هذب، 45/6) .

وفي اللسان أنّ أصل التهذيب تنقية الحنظل من شحمه ومعالجة حَبّه حتى تذهب مرارته ويطيب لآكله، وفيه أيضاً أن التهذيب في القِدَح هو العمل الثاني والتشذيب العمل الأول¹، فعلى هذا يكون أبلغ في التنقية من التشذيب.

ثم استعمل التهذيب في البلاغة، فعقد له أسامة بن منقذ (-544هـ) في بديعه باباً سماه: التهذيب والترتيب، وقال: "اعلم أن التهذيب والترتيب هو أن يحصل المعنى قبل اللفظ، والقوافي قبل الأبيات، ويُقصَد الكلام الجزل دون الرذل، والعذب دون الجهم، ولا يُعمل نظم ولا نثر عند الملل، فإن الكثير معه قليل، والنفيس خسيس، والخواطر ينابيع، فإذا رَفَقَ بها جُمّت، وإذا عُنِفَ عليها نزحت"².

وقال ابن حجة الحموي: "هو عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله، والشروع في تهذيبه وتنقيحه نظماً كان أو نثراً، وتغيير ما يجب تغييره، وحذف ما ينبغي حذفه، وإصلاح ما يتعيّن إصلاحه". وذكر أن علماء البلاغة لم يقرروا له شاهداً يخصه؛ لأنه وصف يعمُّ كلّ كلامٍ منقَّحٍ محرّر، على أنه عملٌ اشتهر به زهير بن أبي سلمى في حوлияته³.

ونشهد في الدراسات المعاصرة إصراراً على الوظيفة التهذيبية للكناية، فقرّرت الدكتورة هيفاء عربية النمط الاجتماعي التهذيبي للكناية في القضايا والعلاقات الاجتماعية التي يأنف العربي من إيرادها بصريح اللفظ ولا سيما ما يتعلّق بالمرأة التي هي عرضه وشرفه⁴.

¹ - لسان العرب ، ابن منظور (هذب، 1/ 782).

² - البديع في نقد الشعر ص 295.

³ - خزنة الأدب 2/ 31.

⁴ - ينظر : الكناية في البلاغة العربية ، ص 193 .

وقال الدكتور أحمد ياسوف: "الصورة الكنائية في الحديث النبوي ضرورة فنية لأنها مادة تصويرية، وضرورة اجتماعية لطابعها التهذيبي ... فالصورة الكنائية في الحديث ذات وظيفتين؛ لأنها أصلاً سجلٌ يحفل بالعادات والتقاليد الاجتماعية"¹.

ويقول أيضاً: "التهذيب هو المظهر الاجتماعي لوظيفة الكناية، فثمة دوافع اجتماعية تعبّر عن الذوق العام والخلق كامنة خلف الكثير من الكنايات، وهذه الوظيفة الخلقية ليست غريبة عن الكناية النبوية التي هي ظل لفكرة قائمة خلف جدار اللفظ، فالبعد الخلقي من الطبيعة التقنية للكناية"².

وأصول الشواهد عندهم قضية (كانا يأكلان الطعام) باعتبارها كناية عن الحدث، وقد حققت في الفصل الأول أنها كناية عن بشرية عيسى عليه السلام وأمه³، وقضية (رفقاً بالقوارير) وحققت في ذلك الفصل أيضاً أنها استعارة وليست كناية على الحدّ والمصطلح⁴.

ولست أنفي الطابع التهذيبي للكناية، فالتهذيب طابع الحديث الشريف عموماً وصفته التي لا تنفك عنه، لكن غنى الكناية النبوية يأبى أن تتمحّض للتهذيب؛ ذلك أنه في كل كناية يُرى أنها للتهذيب تظهر فوائد وغايات ليست أقلّ شأنًا واعتبارًا.

ويُتصوّر التهذيب في سياق العلاقات الاجتماعية والشؤون الجنسية، فالأول حاديه الأدب، والثاني باعثه الحرج، وسأمثل لهذين القسمين في مطلبين: التهذيب الاجتماعي والتهذيب الجنسي.

¹ - الصورة الفنية في الحديث النبوي ، ص 252 .

² - الصورة الفنية في الحديث النبوي ، ص 264 .

³ - ص 73 .

⁴ - ينظر : ص 17 ، 70 .

المطلب الأول: التهذيب الاجتماعي في الكناية النبوية.

روى الليث بن سعد عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال النبي صلى الله عليه ((مَا أَظُنُّ فُلَانًا وَفُلَانًا يَعْرِفَانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا)) قال الليث: كانا رجلين من المنافقين¹.

فذكر ابن حجر رحمه الله أنه لم يقف على تسميتهما، وحكى عن الداودي استبعاد تأويل الليث².

إذاً هناك احتمالان :

الأول أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم يعلم حالهما فالظن هنا بمعنى اليقين وعلى هذا تأويل الليث.

والثاني أن يكون الظن على وجهه، ويكون ما قال ابن حجر: "ليس من الظن المنهي عنه؛ لأنه في مقام التحذير من مثل من كان حاله كحال الرجلين والنهي إنما هو عن ظن السوء بالمسلم السالم في دينه وعرضه"³.

والأول أولى والليث مع إمامته وجلالته هو راوي الحديث والظن به ألا يصرح بنفاقهما إلا بدليل من علم أخذه عن فوقه في السند، أو من فهم واجتهاد وتدبر للنص وللكناية فيه، فإنَّ عدم معرفة شيء من الدين لمن يعيش في دار الإسلام تلزم غالباً عن النفاق فيصح أن يُكنى بها عنه.

وبالكناية نفع على ضرب من الرقي والتهذيب القولي والفتنة والسياسة التي تقضي ألا يصرح الرئيس بنفاق المنافقين تصغيراً لأمر النفاق وإطفاءً لشبهه وتخریباً

¹ - البخاري في الأدب (ما يكون من الظن) 6068 .

² - ينظر : فتح الباري 10 / 486.

³ - فتح الباري 10 / 486.

له مخرج الجهل الوضيع وانعدام المعرفة، وقديماً قالوا: "الكيس العاقل هو الفطن المتغافل"¹، والله أعلم.

المطلب الثاني : التهذيب الجنسي في الكناية النبوية

كما جاء في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ حَيِّهِ وَمَا بَيْنَ رَجُلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ))². قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في التمهيد: "معلوم أنه أراد بقوله (ما بين الحية) اللسان و(ما بين رجلية) الفرج والله أعلم"³.

وفي الاستذكار أنهما مصدر الكبائر، قال: "ومن الفم ما يتولد من اللسان وهو كلمة الكفر وقذف المحصنات وأخذ أعراض المسلمين، ومن الفم أيضاً شرب الخمر وأكل الربا وأكل مال اليتيم ظلماً، ومن الفرج الزنى واللواط، ومن اتقى ما يأتي من اللسان والفرج فأحرى أن يتقي القتل"⁴.

نعم هما أصل الشهوة الطبيعية الباعثة على القتل، وإلا فالقتل نفسه مُنافٍ للفطرة ولا باعث عليه، ثم إنهما سبب الخروج من الجنة فيكون ضمائمهما سبب العود، والله أعلم .

¹ - رواها البيهقي بسنده إلى الربيع عن الشافعي في شعب الإيمان 330/6، ونسبها النووي إلى الشافعي كذلك ، وقيدتها بألا يترتب على هذا التغافل مفسدة. ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم 147/14 .

² - البخاري في الرقاق (حفظ اللسان) 6474 ، والترمذي في الزهد (ما جاء في حفظ اللسان) 2408 ، وروى الإمام مالك نحوه في الموطأ في الجامع (ما جاء فيما يخاف من اللسان) 1854 عن عطاء بن يسار مرسلاً .

وثمة اختلاف في ضَمْن وتكفل وتوكل وهذا القبيل لكن موضع الكناية لا خلاف فيه .

³ - التمهيد 5 / 62.

⁴ - الاستذكار 8 / 565.

ويرى الإمام المناوي أن الحديث قدّم اللسان اهتماماً به لأنه أخص ويؤدي عن القلب ما فيه من الصور فإذا كذب كذب القلب واعوجج به، وإذا أخذ في الفضول أظلم القلب وتلبّد¹.

وفيما يخص الثانية (ما بين رجليه) ذكر الدكتور أحمد ياسوف أنها إيماءة تواكب الذوق العربي بالعدول إلى اللفظ الأكثر تهذيباً وارتياحاً لدى المستمع والقارئ، وقال: "يبدو لنا أن المدلول الحسي لما بين اللحيين وما بين الرجلين يرتبط باللّجم والخصي فالحيوان يُلجَم ليُمنع عن العضِّ والأكل في غير وقته، كما يأتي الخصي لمنع الحيوان من ممارسة الجنس، وكأنما يوحي الحديث بأن المسلم لا يحتاج إلى عمليّتي اللجم والخصي ليصون نفسه فليده ما يغني من الروادع الدينية"².

وفي هاتين الكنايتين بـ (ما بين) عن موصوفين يلتقي علم البيان وعلم المعاني، فذكر الشيخ عبد الرحمن حبنكة رحمه الله في فوائد اسم الموصول ودواعي اختياره: "تحاشي التصريح باسمه لكونه مُستهجناً، أو يُؤثر المتكلم عدم التصريح به تأدّباً أو تعقُفاً أو استحياءً أو غير ذلك، فيكون تمييزه بالوصف عن طريق الموصول وصلته محققاً لمطلوب البيان، دون التعرض للتلفُّظ بما هو مستهجنٌ ممجوج مُستكرهٌ في آذان المتلقين، أو ما يؤثر المتكلم عدم التصريح به لسبب من الأسباب " واستشهد بالحديث³.

هذا أهم ما ورد في شرح الحديث من النقول القديمة والمتأخرة والمعاصرة، وما سواها صادرٌ عنها ودائرٌ حولها بالتوسّع في ذكر آفات اللسان وآفات الفروج. والحديث في حَظَر هذين العضوين يطول، وفي حال افترضنا أن الغاية من الكناية

¹ - ينظر : التيسير بشرح الجامع الصغير 2 / 869 .

² - الصورة الفنية في الحديث النبوي ص 267 .

³ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها 1 / 430، 431.

(ما بين رجليه) التهذيب ألا يُذكر العضو باسمه تكونُ هي التي استدعت الكناية الأولى (ما بين لحييه) من باب التنسيق إذ لا حرج في لفظ اللسان .
لكن يُشكّل عليّ أن لو صرّح باللسان والفرج لم يكن ضيّرٌ من جهة الأدب؛ لأن الفرّج في الأصل مجازٌ مرسل عن عضو النسل الموجود في مُنفَرَج الفخذين علاقته المحليّة وليس هو على الحقيقة، قال ابن فارس: "الفاء والراء والجيم أصلٌ صحيح يدلُّ على تفتُّح في الشَّيء"¹ ومنه قيل للهناة بين الرّجلين فرجٌ، وأكثر ما يذكره العرب به، إلا أن يكونَ بكثرة الاستعمال صار اسماً ذابت فيه المجازية وتحوّل إلى حقيقة.

والغرض أن هذه الكناية لم تخلُص للتهذيب، وثمة فوائدُ أخرى تتجلى في البينية: (ما بين.. وما بين..) فكأن فيهما تقييداً وحسباً وإضعافاً لهذين العضوين، وتذكيراً بالقدرة عليهما، وتحذيراً من خطرهما الكامن، بخلاف ما لو أطلق لفظيهما من هذا المحبس فستبدو الحيوانية وقد تحرّرت من أقفاصها وانطلقت على غير هُدى، والله أعلم .

وليست القضيةُ في لفظٍ صريحٍ يدل على عضو جنسي فهذا سهلٌ قد يرد في مواضعه اللاتقة ولا عيب فيه، إنما القضية في التصوير الجنسي الذي هو مناطُ الإثارة، وقد تفتن علماء البلاغة إلى هذه المسألة، وعابوا على المتنبي ما روي من قوله :

إني على شغفي بما في حُمْرِها لأعفُ عمّا في سراويلاتها
وعدها العسكري من شنيع الكناية كما تقدّم².

¹ - مقاييس اللغة (فرج ، 4 / 498) .

² - في الفصل الأول ص 15، وثمّ عزو البيت أيضاً.

فاستعماله للكناية (عما في سراويلاتها) في هذا الموضع أشد من تصريحه بالهن؛ لأنه وسّع دائرة الصورة وزاد من عمل الخيال الذهني .
فهذا لا نجده في الحديث، وربما يُمعن الحديث في تحاشيه، وأحيلُ على كناية: (جفَّ القلمُ بما أنت لاقٍ) إذ يشكو أبو هريرة رضي الله عنه الفقرَ وخشية العنت ويُلِمح إلى الخصاء، فيكونُ هذا جوابه لا (رُفعت الأقلام وجفّت الصحف) التي قيلت لابن عباس، إنّ ذكرَ القلم مع الصحيفة والرفع مع الجفاف في سياق النكاح بالذات يُعري بتصوّرٍ ما لعلّ النبي صلى الله عليه وسلّم تحرّز عنه وضرب عليه حجاباً¹، والله أعلم.

¹ - ينظر تخريج الحديثين وشرح الكنايتين فيهما ص 155 - 158.

المبحث الثاني

الأغراض الترغيبية للكناية النبوية

أعني بالأغراض الترغيبية الأدوار التي تؤديها الكناية في سياق الترغيب، فتعضد به الجزاء المرتب على العمل الذي يقصد الشارع الترغيب فيه، فيكون عندنا أمران في الغالب:

الأول: أمرٌ أو ترغيبٌ هو مقصود الحديث .

والثاني: كناية تحمل في طياتها ترغيباً ذاتياً سواءً في طبقة المعنى الذي هو اللازم والنتاج والرديف، أو في طبقة معنى المعنى الذي هو الملزوم .
فيمكن أن تحمل الكناية ترويحاً أو تحبيباً أو تسليّةً أو تعظيماً أو تبشيراً
فيتأيد به معنى الترغيب الذي يطلبه الحديث كله.

المطلب الأول: الترويح بحظ النفس

نحو الكناية: ((حتى ما تجعل في في امرأتك)).

فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني عام حجة الوداع من وجعٍ اشتدّ بي فقلت: إني قد بلغ بي من الوجع، وأنا ذو مالٍ ولا يرثني إلا ابنةٌ أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: ((لا)) . فقلت بالشّطر؟ فقال: ((لا)) ثم قال: ((الثلثُ والثلثُ كبيرٌ -أو كثيرٌ- إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ)) فقلت يا رسول الله، أُخلفُ بعد أصحابي؟ قال: ((إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا إِلَّا أزدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً ، ثُمَّ لَعَلَّكَ أَنْ تُخْلَفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ . اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى

أَعْقَابِهِمْ ، لَكِنَّ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ)) يَرِثِي لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ¹.

ونحن مع قوله صلى الله عليه وسلم : حتى ما تجعل في في امرأتك .
قال الإمام النووي رحمه الله: "إذا وضع اللقمة في فيها فإنما يكون ذلك في
العادة عند الملاعبة والملاطفة والتلذذ بالمباح"².

وللدكتور أحمد ياسوف كلمة في هذا الحديث، قال: " تعبر القلة هنا عن
الترغيب، وقد بدأ النصّ بكل النفقات معممًا ثم دخل إلى جزئية هي إطعام
الزوجة لاستيفاء كلّ الأعمال الفاضلة. وفي التعبير مشهد يكتنفه الحنان والتراحم
في مؤاكلة الزوجة إذ جعلت الصورة الإنسان المنفق هو الذي يُلَقِّم زوجته بدلاً
من الاعتماد على نفسها"³.

إذاً هي كناية عن الملاعبة، مع كناية أخرى عن موصوفٍ هو الشيء القليل
وهذا قدّر الفهم. ومن عَجَبٍ تلاحم الكنايتين المعبر عن الآصرة الزوجية فإن
القليل يغدو كثيراً بحسن العشرة وجمال الصورة، وتزداد الطلعة بهاءً بالجناس بين
(في) و(في) الذي يوحى بعمق الشعور والتوحد .

¹ - البخاري في الجنائز (رثاء سعد بن خولة) 1296 ، ومسلم في الوصية (الوصية في الثلث
(1628 ، والترمذي في الوصايا عن رسول الله (ما جاء في الوصية بالثلث) 2116 ، والنسائي
في الوصايا (الوصية بالثلث) 3626 ، وأبو داود في الوصايا (ما جاء في ما لا يجوز للموصي في
ماله) 2864 ، وابن ماجه في الوصايا (الوصية بالثلث) 3708 .

وأخرجه الإمام مالك في الأفضية (الوصية في الثلث لا تتعدى) 1495 .
وهذه رواية البخاري من طريق مالك عن ابن شهاب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه
وهي أكمل الروايات مع كثرة ما أخرج البخاري وغيره هذا الحديث وقطّعه في مناسبات عدة ، ولم
يغيب وضع اللقمة في فم المرأة إلا عند النسائي وابن ماجه، وهو في الصحيحين والموطأ وسائر
الروايات إنما يقولون : (اللقمة تجعلها في في امرأتك) أو : (ترفعها إلى في امرأتك) ونحو ذلك .

² - شرح النووي على مسلم 11 / 78 .

³ - الصورة الفنية في الحديث النبوي ص 263 .

واستنبط منه العلماء أن حظَّ النفس لا يقدر في الثواب، فللنفس في هذه الصورة مدخلٌ ظاهر يتعلق بالظرف الجنسي أولاً لما فيه من الملاعبة والملاطفة وما تؤولان إليه، ثم في ذات الإنفاق على الزوجة مجرداً عن الصورة فإنه يقع بداعية النفس وفي صلاح بدنها مصلحة للزوج بخلاف غيره من الإنفاق الذي تعظم فيه المجاهدة، وإذا حصل الأجر في الأولى ففي الآخرة أولى¹.

قال الإمام النووي: "ويتضمن ذلك أن الإنسان إذا فعل شيئاً أصله على الإباحة وقصد به وجه الله تعالى يُثاب عليه"².

وإذا فتحنا النافذة على مصراعيها وظهر لنا الحديث بحذافيره ونزلنا الكناية منزلتها وجدنا الحديث في سياق العيادة والترويح عن المريض؛ يخالُ سعدٌ أنه هامةٌ اليوم أو غد، ويستفتي النبي صلى الله عليه وسلم في ماله وابنته التي لا وارث معها من زوجة أو ولد، فيأمره النبي صلى الله عليه وسلم ألا يزيد في الوصية عن الثلث وأن يُبقي لورثته، وأنّ النفقة على الأهل صدقة حتى اللقمة يُلقمها زوجها يلاعبها ويداعبها. ففي هذه الصورة ترويح ظاهرٌ عن النفس وتقويةٌ للروح ونشرٌ للبهجة مع كونه حقاً لا ريب فيه، فإن سعداً شفي وتزوج بعدُ ووُلد له نحو ثلاثين بين ذكر وأنثى³ أحدهم عامراً راوي الحديث .

والحاصل أن الترغيب في ثواب النفقة على الأهل استعان بالكناية المصوّرة لحظ النفس والمرّوحة عنها بتذكّر الملاعبة والمعاشرة، والله أعلم .

¹ - ينظر : شرح النووي على مسلم 78 / 11 ؛ فتح الباري ، ابن حجر 1 / 137 .

² - شرح النووي على مسلم 78 / 11 .

³ - ينظر : فتح الباري ، ابن حجر 5 / 366 .

المطلب الثاني : التحبيب .

كالبردين في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ))¹.

والبردان كناية عن موصوفين هما صلاة الفجر وصلاة العصر، كذا قال الأكثرون وتُرجم به للباب في صحيح مسلم.

قال الخطابي: "البردان الغداة والعشي، وهما الأبردان... وإنما قيل أبردان لطيب الهواء وبرده في هذين الوقتين"².

ويعنون بالعشي العصر، فإذا غابت الشمس فهي عشاء³.

وحكى ابن حجر قولاً فيه أن مَنْ موصولة وليست شرطية، والمراد الذين صلّوها أول ما فرضت الصلاة ثم ماتوا قبل فرض الصلوات الخمس؛ لأنها فرضت أولاً ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، ثم فرضت الصلوات الخمس، فهو خبر عن أناسٍ مخصوصين لا عموم فيه، ثم قال ابن حجر: "قلت: ولا يخفى ما فيه من التكلف، والأوجه أن (مَنْ) في الحديث شرطية، وقوله (دخل) جواب الشرط. وعدل عن الأصل وهو فعل المضارع كأن يقول (يدخل الجنة) إرادةً للتأكيد في وقوعه بجعل ما سيقع كالواقع"⁴.

¹ - البخاري في مواقيت الصلاة (فضل صلاة الفجر) 574 ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليها) 635 .

² - غريب الحديث، الخطابي 86 / 1 ؛ غريب الحديث ، ابن الجوزي 64 / 1 .

³ - ينظر : لسان العرب ، ابن منظور (عصر ، 575 / 4) .

⁴ - فتح الباري 2 / 53 .

ويقال إنه صلى الله عليه وسلم خصّ الصلاتين بالذكر لأن الصبح لذيدُ الكرى والعصر وقتُ الاشتغال بالتجارة، فتشققان على الأنفس، أو لأنهما مشهودتان تشهدهما ملائكة الليل والنهار¹.

وأرى أن الكناية عن هاتين الصلاتين بالبردين هي للتحبيب بهما؛ فإن كان فيهما مشقة من مغالبة النوم ولذيد الكرى ففي هوائهما من الطيب والروح ما ينعش القلب ويبعث على النشاط، وإن كانت المشقة من مجاهدة النفس الميالة إلى الكسب وحب المال ومبايعة الخلق ففيهما من الأجر والفضيلة وشهود الملائكة الأكرمين ما يبرد الغليل ويثلج الفؤاد.

فالكناية جاءت للتحبيب في سياق الترغيب مما يساعد في الإقبال ويمهّد السبيل إليه، والله أعلم .

المطلب الثالث: التسلية

نحو قوله صلى الله عليه وسلم: ((لم يبلغوا الحنث))، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَا مِنَ النَّاسِ مِنْ مُسْلِمٍ يُتَوَفَّى لَهُ ثَلَاثٌ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ))².

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله: "الْحِنْثُ الذَنْبُ الْعَظِيمُ، ويقال: بلغ الغلام الحنث، أي: بلغ مبلغاً جرى عليه القلم في المعصية والطاعة، والْحِنْثُ إِذَا لَمْ يَبْرَ بِيَمِينِهِ"³.

¹ - ينظر: فيض القدير، المناوي 6 / 164؛ مرقاة المفاتيح، ملا علي القاري 3 / 74 .

² - البخاري في الجنائز (فضل من مات له ولد فاحتسب) 1248 ، والنسائي في الجنائز (من يتوفى له ثلاثة) 1873 ، وابن ماجه في ما جاء في الجنائز (ما جاء في ثواب من أصيب بولده) 1605 .

³ - العين (حنث، 3 / 206)

وقال أبو القاسم السعدي: "حَنَثَ في اليمين حنثاً لم يبرّ فيها"¹.
 وقال الراغب: "وعبر بالحنث عن البلوغ لما كان الإنسان عنده يؤخذ بما يرتكبه خلافاً لما كان قبله، فقليل بلغ فلانُ الحنث"².
 والشُّراح في هذا النهج، قال ابن حجر رحمه الله: "المعنى: لم يبلغوا الحلم فتُكتب عليهم الآثام"³.
 فهي على ما قالوا كناية عن البلوغ لأنه يردفه؛ إذ المرء لا يؤخذ بما يعمل حتى يبلغ .
 والأمر دائرٌ على الحنث، لا على المحبة إذ لا يُعلم أيهما أحبُّ إلى القلب: الصغيرُ معدنُ البراءة ومعقدُ الأمل والذي لا يُتصوّر منه العقوقُ أو الكبير الذي بلغ السعي ورُجي نفعه وطالت صحبته ؟ لا يمكن الجزم بشيءٍ فيه .
 بيد أن الإمام الكشميري قال: "إن قيل: إن زيادة الحزن والوجع على موت الكبار قلنا: إن الغرض التشفيع، والشفاعة تكون من المعصومين الذين لم يحتلموا"⁴.
 وكلامه يردُّ على الزين بن المنير في قوله: إن الكبير يدخل بطريق الفحوى؛ لأنه إذا ثبت ذلك في الطفل الذي هو كلُّ على أبويه فكيف لا يثبت في الكبير الذي بلغ معه السعي ووصل له منه النفع وتوجّه إليه الخطاب بالحقوق، ولعل هذا هو السر في إلغاء البخاري التقييد بذلك في الترجمة⁵.

¹ - الأفعال 1 / 239.

² - المفردات في غريب القرآن 1 / 133 .

³ - فتح الباري 3 / 120.

⁴ - العرف الشذي 2 / 344.

⁵ - حكاة ابن حجر في فتح الباري 3 / 120، والمعروف الآن كتاب ناصر الدين بن المنير أخي الزين واسمه المتواري عن تراجم البخاري ، ولم يعلّق على هذه الترجمة ولا ذكرها في كتاب الجنائز ، ولا في جميع الكتاب . ينظر: ص122، وما بعدها من الكتاب المذكور.

ويردُّ عليه آخرُ الحديث أيضاً فإنه يدل على التخصيص بالصغار، والضميرُ في (رحمته) يعود إلى الله عز وجل لا إلى المسلم¹.
واستنبط الإمام القرطبي المفسِّر منه أن أطفال المسلمين في الجنة، وحكى الإجماع عليه إلا شذوذَ من لا يعتدُّ به، قال: "لأن الرحمة إذا نزلت بآبائهم استحال أن يُرحموا من أجل من ليس بمرحوم"².

بقي أن نسأل: لم قال (لم يبلغوا الحنث) دون (لم يبلغوا الثواب) ؟
قال ابن حجر: "خص الإثم بالذكر لأنه الذي يحصل بالبلوغ؛ لأن الصبي قد يُثاب"³.

قلت: كان ممكناً أن يقول: (لم يبلغوا الحلم) أو (لم يبلغوا) على أن الكناية في هذا السياق أبلغ، ولا ننسى أنه سياق تعزية فالغرض تسلية الوالد بأن ولده لم يبلغ الحنث، أي لم يذنب، فهو على طهره ونقاؤه ومن ثمَّ كان في رحمة الله وجنته تمهيداً للبشارة بأن الوالد مغفورٌ له بموت هؤلاء، والله أعلم.

¹ - ينظر : فتح الباري 3 / 120.

² - الجامع لأحكام القرآن 11 / 140.

³ - فتح الباري 3 / 120.

المطلب الرابع : تعظيم المصاب لتعظيم الجزاء

كحبيبيته، في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ((إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتِهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ)) يُرِيدُ عَيْنِيهِ¹.

هذه رواية الإمام البخاري من طريق عمرو مولى المطلب عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وثمة روايات في غير الصحيح تقول (كرمتي عبدي) (وبصر عبدي) ذكرتها في التخريج وكأنها من الروايات بالمعنى، والكرمتان كالحبيبتين تُخَرَّجان على الكناية عن موصوف، أما (بصر عبدي) فصريحة وهي مروية في المسند عن النضر بن أنس عن أنس بن مالك، فلعلّ هذا ما جعل الشيخ ملا علي القاري يقول فيما جاء في الصحيح من تفسير الحبيبتين بالعينين: "والظاهر أن هذا التفسير من أنس"²، على حين قال ابن حجر: "فسّرهما آخر الحديث بقوله (يريد عينيه) ولم يصرح بالذي فسّرهما"³، وكذا قال المناوي⁴.

¹ - البخاري في المرضى (فضل من ذهب بصره) 5653، من طريق الليث عن ابن الهاد عن عمرو مولى المطلب عن أنس رضي الله عنه. ورواه الترمذي في الزهد عن رسول الله (ما جاء في ذهاب البصر) 2400، من طريق عبد العزيز بن مسلم عن هلال بن أبي هلال (أبي الظلال) عن أنس، وقال: حسن غريب من هذا الوجه، وفيه: أخذت كرمتي عبدي.

وروى الإمام أحمد في المسند، باقي مسند المكثرين (مسند أنس بن مالك) 12059، ما في البخاري، وروى في المسند نفسه، 12185: (بصر عبدي)، وهي من طريق حرب بن ميمون الأنصاري عن النضر بن أنس عن أنس، وحرب هو أبو الخطاب البصري "صدوق رمي بالقدر من السابعة، مات في حدود الستين/م ت فق". تقريب التهذيب، ابن حجر 1/ 155.

² - مرقاة المفاتيح 5 / 272.

³ - فتح الباري 10 / 116.

⁴ - ينظر: فيض القدير 4 / 488.

ولا يتحتّم أن يكون التصريح والتفسير بالعينين من أنس رضي الله عنه، أمّا الفهم فنعم؛ لأن التعبير عن العينين بالحيبتين ممّا تتواردُ عليه الأذهان ولا يكاد يلتبس على أحد، ولهذا لم يعتنِ المصنّف بذكر المفسّر، وصحّت الكناية .

وغيرُ خافٍ أن هذه الكناية لا يراد منها ستر القبيح بل التعظيم بالوصف وتكثيفُ المعنى قال ابن حجر رحمه الله: "المراد بالحيبتين المحبوتان؛ لأنهما أحبُّ أعضاء الإنسان إليه، لما يحصل له بفقدتهما من الأسف على فوات رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسرّ به أو شرّ فيجتنبه"¹.

وقال المناوي: "سماهما بذلك لأن العالم عالمان عالم الغيب وعالم الشهادة وكل منهما محبوب ، ومُدرك الأول البصيرة ومُدرك الثاني البصر... ولأن السرور يُكنى عنه بقرة العين لما يشاهد المحبوب، ويُكنى عن الحزن بسخونتها للمفارقة عنه"².

وأرى أنّ هذه الكناية تشتمل على تصوير فني قوامه التشخيص فالتعبير بالحيبتين أبلغ في هذا السياق من المحبوتين ذلك أن الحبيب يقال عن المحبِّ والمحبِّ³، وفيه من إسباغ المشاعر على العينين وجعل الافتراق من جانبيين ما يزيد من حزن الفؤاد ولوعة البين.

وأتساءل علام هذا الشَّحْنُ العاطفي، أليس إذا عبّر بالعينين والبصر كان أبرَد وأصلب وأذكر للجَلَد ؟

¹ - فتح الباري 10 / 116.

² - فيض القدير 4 / 488.

³ - ينظر : لسان العرب ، ابن منظور (حب ، 1 / 289) .

وأيُّم الله إنه لأدبٌ رفيعٌ وفضلٌ مطلقٌ وحسنٌ عزاءٍ أن يجري مع المصاب في تعظيم مصيبته واحترام حزنه ثم يرتب عليها الجزاء العظيم الذي لم يكن ليفهم لولا تعظيم المصيبة، والله أعلم .

فكأن المراد بهذه الكناية بما فيها من تعظيم للمصيبة التمهيدُ للعوض الكبير المنتظر ألا وهو الجنة .

المطلب الخامس : التبشير .

كالذي في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتُنْفِقَنَّ كُنُوزَهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ))¹.

فالكناية في قوله (فلا كسرى بعده...ولا قيصر بعده) عن ذهاب دولة الفرس ودولة الروم فإن المملكة بالملك، وجاءت بشارة لقريش . بيان ذلك ما رواه الإمام البيهقي بسنده عن الإمام الشافعي، قال:

"كانت قريش تنتاب الشام انتياباً كثيراً وكان كثيراً من معاشها منه وتأتي العراق، فيقال: لما دخلت في الإسلام ذكرت للنبي صلى الله عليه وسلم خوفها من انقطاع معاشها بالتجارة من الشام والعراق إذ فارقت الكفر ودخلت في الإسلام مع خلاف ملك الشام والعراق لأهل الإسلام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ))، فلم يكن بأرض العراق كسرى يثبت له أمرٌ بعده، وقال: ((إِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ))، فلم يكن بأرض الشام قيصر بعده، وأجابهم على ما قالوا له، وكان كما قال لهم

¹ - البخاري في المناقب (علامات النبوة في الإسلام) 3618 ، ومسلم في الفتن وأشراف الساعة (لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ..) 2918 ، والترمذي في الفتن عن رسول الله (ما جاء إذا ذهب كسرى فلا كسرى بعده) 2216 ، وقال : حسن صحيح . وموضع الكناية لا خلاف فيه .

صلى الله عليه وسلم، وقطع الله الأكاسرة عن العراق وفارس وقيصر ومن قام بالأمر بعده عن الشام"¹.

قال ابن حجر: "كسرى بكسر الكاف ويجوز الفتح، وهو لقب لكل من ولي مملكة الفرس، وقيصر لقب لكل من ولي مملكة الروم"².

والمراد من الحديث وقع، ولم تبق مملكتهما على الوجه الذي كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وانحسروا عن الشام والعراق إلى ما وراءهما، ودبّ الوهن في أوصالهما، وأذن أمرهما بالزوال، وكان الفساد إلى مُلك الفرس أسرع.

قال ابن كثير: "وعمّ هذا الدين وغلب وعلا على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمته في زمن الصحابة ومن بعدهم، وذلت لهم سائر البلاد ودان لهم جميع أهلها على اختلاف أصنافهم، وصار الناس إمّا مؤمنين داخلين في الدين وإمّا مهادن باذلين للطاعة والمال وإمّا محاربين خائفين وجلّ من سطوة الاسلام وأهله"³.

وتدبر هذه الكناية فإنها غنية بالتركيب الذي فيها: لا النافية للجنس واسمها وخبرها، ففيه إشارة إلى ذهاب ملكهما وبشارة بأنه لا يعود .

ومعلوم أنّ لا النافية للجنس لا تعمل في المعرفة عند البصريين وأجازها الكوفيون في بعض الصور كالعلم المفرد والمضاف لكنية⁴. وكسرى وقيصر معرفتان، فالنحاة يذكرون هذا الحديث في جملة من الأمثلة التي عملت فيها (لا)

¹ - دلائل النبوة 4 / 394.

² - فتح الباري 6 / 626 .

³ - البداية والنهاية 6 / 183.

⁴ - ينظر: شرح التصريح على التوضيح، الأزهرى 1 / 237، 238.

في المعرفة سماعاً، قال الإمام السيوطي: "وأما ما سُمع مما ظاهره إعمالها في المعرفة كقوله: (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده)، وقوله: (قضية ولا أبا حسن لها)¹ ... فمؤوَّل باعتقاد تنكيره كما تقدّم في العلم بأن جعل الاسم واقعاً على مسمّاه وعلى كلّ من أشبهه فصار نكرةً لعمومه أو بتقدير مثل"².

ولم يرق هذا التأويل للأستاذ عباس حسن رحمه الله، وقال في أمثلة هذا الصنف وذكر منها الحديث: "تناولها النحاة بالتأويل كي يخضعوها لشرط التنكير. وهو تأويل لا داعي لتكليفه مع ورود تلك الأمثلة الصريحة، الدالة على أن فريقاً من العرب لا يلتزم التنكير. فعلياً أن نتقبّل تلك النصوص بحالها الظاهر دون محاكاتها، ونقتصر في استعمالنا على اللغة الشائعة المشهورة التي تشترط الشروط التي عرفناها؛ توحيداً لأداة التفاهم، ومنعاً للتشعيب بين المتخاطبين بلغة واحدة"³.

¹ - اشتهر على ألسنة الناس من قول سيدنا عمر بن الخطاب في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وجرى ذلك في كتب المتأخرين كابن هشام في شرح شذور الذهب ص 273، والمعاصرين كالشيخ متولي الشعراوي رحمه الله في تفسيره 9 / 142 .

والحق أنه بهذا اللفظ من كلام معاوية رضي الله عنه، رواه الخطابي في غريب الحديث 2 / 199، وحكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن 3 / 159، وأهل المعاجم كابن منظور في لسان العرب (عضل ، 11 / 451) ، وغيرهم كثير .

وأما عمر رضي الله عنه ، فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق (42 / 406) من طريق ابن عيينة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عنه أنه كان يتعوّذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن.

فهذا لفظه ، وانظر : الإصابة ، ابن حجر 4 / 568 ؛ كنز العمال ، الهندي 10 / 300 .

² - هم الهوامع 1 / 523 .

³ - النحو الوافي 1 / 695.

وأرى أنّه كلّما تعمّقنا في تعقيد اللغة واقتصرنا على المشهور منها أمعنا في الجفاء والقطيعة واستغراب تلك النصوص لتغدو ضرباً من التاريخ الذي ينسخُ جديده قديمه، ثم يوشك أن ندع المشهور لما هو أشهر .. وهكذا ، وأي ضيرٍ في محاكاة نصوص هي آياتٌ في الحُسن والبلاغة ؟
على أن اقتراحه هذا فرعٌ من تحكيم الغاية في النحو، ثم التحكُّم في تفسير الغاية:

فإن تكن الغايةُ التخاطبُ في الجيل الواحد ومسايرةُ النُّظم التعليمية الراهنة، كما صرح الأستاذ عباس حسن -رحمه الله- في مقدمة كتابه¹ فنعم، وربما ساغ في سبيلها استبدالُ الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ إذا تغلّب وصار لغة العلم والعالم .

وإن تكن الغايةُ الحفاظُ على شخصية الأمة والتواصل بين أجيالها الحاضرة وأجيالها الماضية ولا سيما العزيزة منها فالأمر على غير ما قال، والله أعلم .

إن كسرى وقيصر علما لا كالعلمين، فلاهما من الأسماء الدالة على ذوات معينة (علم الشخص) ولاهما من الألقاب الدالة على ذوات مشخّصة معينة مع الإشعار بمدح أو ذم، والعلم لا يخلو في اصطلاحهم أن يكون اسماً أو لقباً أو كنية².

وأقرب ما يوسمان به أنهما من الأعلام التي تدلُّ على كل فرد من أفراد الجنس كأسامة وثُعالة أي من علم الجنس، وعلم الجنس نكرةٌ معنى معرفة لفظاً³.

¹ - النحو الوافي 7/1، 8 .

² - ينظر : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك 1 / 119.

³ - ينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، ابن هشام 1 / 132؛ شرح ابن عقيل 1 /

فكلُّ من ملك الفرس يسمى كسرى وكل من ملك الروم يسمى قيصر¹،
وقال ابن سيده: "كسرى وكسرى اسم كل ملك للفرس، وهو بالفارسية خسرو،
أي: واسع الملك"².

ومن قولهم :

إذا ما مات كسرى قام كسرى نَعُدُّ ثلاثة متواترينا³

إذا كسرى وقيصر في منزلة بين التعريف والتنكير هي التي سوّغت دخول لا
النافية للجنس عليهما، بل إن كونهما من أعلام الجنس الدالة على فرد فيه غير
معين يجعلهما أليق الأسماء بلا النافية للجنس وأولى بها من النكرات المطلقة.
والترغيب بالإسلام قام هنا على تبشير بزوال ملك كسرى وقيصر وتبشير
ضمي آخر بأن الملك يؤول لأهل الإسلام، والله أعلم .

¹ - ينظر : الكليات، أبو البقاء الكفوي، ص 742.

² - المخصص 1/ 323 .

³ - عزاه الإمام الخطابي في غريب الحديث (2/ 518) لعبد الله بن همام السلولي من هوازن
(-100هـ)، وهو شاعر ذكره محمد بن سلام في الطبقة الخامسة من الشعراء الإسلاميين ، وقال كان
حظياً عند آل حرب مكيناً فيهم . وهو الذي حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية، وكان
سَلماً لهم ولوعاً بإغرائهم في الملك والبيت ظاهر في هذا المعنى ، والذي يليه :

ولو جاؤوا بِرِملَةٍ أو بِهِنْدٍ لباعينا أَمِيرَةً مؤمنينا !

ينظر طبقات فحول الشعراء 2/ 625 ؛ الأعلام ، الزركلي 4/ 143.

المبحث الثالث

الأغراض الترهيبية للكناية النبوية

أعني بالأغراض الترهيبية الأدوار التي تؤديها الكناية في سياق الترهيب، فتعضد به الجزاء المرتب على العمل الذي يقصد الشارعُ الترهيب منه، فيكون عندنا أمران في الغالب:

الأول: نهْي وترهيب مصرح به هو مقصود الحديث .
والثاني: كناية تحمل في طياتها ترهيباً ذاتياً سواءً في طبقة المعنى الذي هو اللازم، أو في طبقة معنى المعنى الذي هو الملزوم .
ويمكن أن تحمل الكناية تخويفاً أو ترويعاً أو وعيداً أو تقبيحاً فيتأيد به معنى النهي الذي يطلبه الحديث كله.

المطلب الأول: التخويف بإظهار نتيجة الفعل المرهَّب منه
كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمٍ مِّنْ لِّسَنِ مِنْهُمْ فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ وَلَنْ يُدْخِلَهَا جَنَّتَهُ))¹.
قال الإمام المناوي: "المراد أنها حملت من زنى أو نحوه، فأنت بولدٍ فنسبته لصاحب الفراش فصار ولده في الظاهر يطَّلَع على باطن أمره ويعولُه ما دام حياً ويرثه إذا مات... فالزنى يُفْضِي إلى اختلاط المياه واشتباهِ الأنساب فهي جديرة بغضب رب الأرباب"².

¹ - تقدم تحريجه في الفصل الأول ص 70 .

² - فيض القدير 1 / 515.

والغالب فيه الزنا ولا باعثَ للمرأة على تكبُّد مشاق الحمل والولادة غيره،
والغالب أنها إذا حملت سفاحاً وهي تقدر أن تسترَ بزوجه أن تسترَ وتسكُتَ
عمّا كان، وتُدخِلَ في القوم من ليس منهم، فالبارة بهذا الوصف كناية عن الزنى.
والحديث يرهب النساء ألا يقعن فيه، على أن الترهيب هنا يقوم على شيئين:
الأول: الجزاء المقدر، وهو الذي يتوجّه نظراً المتلقي إليه في أحاديث الترهيب
عادةً، فإنّ من طبع الإنسان وقد خُلِقَ عجولاً أن يتعجّل العلمَ بالجزاء ، والجزاءُ
فظيع بلا شكٍّ: أدخلت على القوم من ليس منهم فليست من الله في شيء،
وكانت السبب في دخول هذا اللصيق جنّة الأسرة فمُنعت به من دخول جنّة الله
سبحانه وتعالى. وترى ما للكناية من دور ومشاركة في هذا النوع من الترهيب
بالتمهيد للجزاء والتوطئة له .

ثمّ هي لا تدخل الجنة مع المحسنين، بل تؤخّر وتعذّب ما شاء الله، إلا أن
تكون كافرةً فيجب عليها الخلود¹.

وربما أدّى إدخالها هذا الدعيّ إلى إخراجها من الملة بتقدير الله عزوجل، فلا
تدخل الجنة على التأبید، والله أعلم .

والثاني: التخويف بالقبح الذاتي، وللكناية هنا الدور كلّهُ إذ هي بطبعها سترٌ
وإفصاح؛ سترٌ للملزوم وإفصاح عن اللازم، سترٌ للسبب وبيان للأثر الذي به
تُدرك جسامَةُ الفعل وشناعته لئِنْفَر منه ويُحذَر، فمن دون العقوبة المقدّرة يبدو
الأمر جليلاً مهولاً يتعلّق بدخول شخصٍ غريبٍ في نسيجٍ واحد فيصبحُ يطلّعُ
على باطن أمرهم ويعولونه ويرثهم، ويعيش بينهم أجنبياً في هيئةٍ محرم، فيغدو
الحرام حلالاً والحلال حراماً، وهم عنه غافلون وبه حافلون، وغير ذلك من
المحاذير التي لا يعلمها إلا الله ! فهذا في الجملة شيء شنيعٌ لا يحتمله قلبٌ .

¹ - ينظر: مرقاة المفاتيح، ملا علي القاري 10 / 296 .

وهكذا كان الترهيب من الزنى بترتيب ذلك الجزاء يستعين بترتيب آخر هو الكناية التي تستر اسم الشيء وتبدي سوءته ونتائج ترهيباً وتنفيراً يعتمد على القبح الذاتي فيه، والله أعلم .

المطلب الثاني: الوعيد

كيوم السبع، في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس فقال: ((بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقْرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ!)). فقال الناس: سبحان الله بقرة تكلم! فقال: ((فَإِنِّي أُوْمِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ)) وما هما ثم ((وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَانَتْهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ: هَذَا اسْتَنْقَذْتُهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبْعِ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي؟)) فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم! قال: ((فَإِنِّي أُوْمِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ)) وما هما ثم¹.

فنحن مع خبر الذئب، وقوله: "فمن لها يوم السبع".

ذكر القاضي عياض أن الرواية الصحيحة بضم الباء (سبع) وهو الحيوان المعروف وأن الحربي رواه بتسكينها، وعن بعضهم ولم يسمه أنها بالمشاة التحتية الساكنة (السبع) أي الضياع².

¹ - البخاري في أحاديث الأنبياء (حديث الغار) 3471، ومسلم في فضائل الصحابة (من فضائل أبي بكر الصديق) 2388، والترمذي في المناقب عن رسول الله (في مناقب عمر بن الخطاب) 3695.

² - ينظر: مشارق الأنوار 2 / 402. وفي لسان العرب، ابن منظور (سبع، 8 / 170): أسعت وأضعت بمعنى، وناقاة مسياع تدع ولدها حتى يأكله السبع، ومن الإتياع ضائع سائع ومضياع مسياع، وأساع الراعي الإبل أساء حفظها فضاغت.

فعلى التسكين لها معنيان:

1- السَّبْعُ الموضعُ الذي عند المحشر من أرض الشام يومَ القيامة، فيكون المعنى: من لها يوم القيامة؟، رُوي عن ابن الأعرابي، ولم يذكر ابن الجوزي غيره، وقال: "من ضمَّ الباءَ غلط" ¹.

وَتُعَقَّبَ هذا بأنَّ الذئب حينئذٍ لا يكون راعياً للغنم ولا تعلق له بها ².
فلعل الذي ساقه إلى هذا التفسير البريئة المشهورة بين القدس والكرك، والتي تسمى السَّبْعُ بسبع آبار فيها ³، وهي اليوم بير السبع من أرض فلسطين ⁴.
2- يوم السَّبْع عيدٌ كان لهم في الجاهلية يجتمعون فيه للهوهم، ويهملون مواشيهم فيأكلها السبع، وهذا مذكور عن أبي عبيدة مَعَمَر بن المثنى ⁵، ويحتمل أنهم يجترؤون فيه على ما يتحفظون منه في العادة، فإنهم يقولون: عبدٌ مُسَبَّعٌ إذا ترك حتى صار كالسَّبْع لجرأته على النَّاس ⁶.

ثم بالضمِّ معانٍ أيضاً ⁷:

1- قيل: يحتمل أنه أراد بيوم السَّبْع يوم أكلي لها، يقال: سَبَعَ الذئب الغنم، أي: أكلها.
2- وقيل: يوم السَّبْع يوم الإهمال، فعن الأصمعي أنَّ المِسْبَعَ المهمل، وأسبَعَ الرجل غلامه إذا تركه يفعل ما يشاء. ونحوه ما ذُكر من أن المِسْبَعَ الرضيع الذي

¹ - غريب الحديث 1 / 457.

² - ينظر: فتح الباري، ابن حجر 1 / 129.

³ - ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي 3 / 185.

⁴ - ينظر: الأطلس الإسلامي الجغرافي، كمال حمود ص 101.

⁵ - معجم ما استعجم، البكري 3 / 719.

⁶ - ينظر: العين، الخليل (سبع، 1 / 344).

⁷ - حكاها ابن حجر في الفتح 1 / 129.

تموت أمه فيتولى إرضاعه غيرها حكاه ابن فارس¹، كأن ذلك لأجل الإهمال الذي يصيبه.

3- وعن الداودي أن المعنى إذا طردك عنها السبع فبقيت أنا فيها أتحكم دونك لفرارك منه.

4- وحكى الإمام النووي عن بعضهم أنه يوم القيامة لأن يوم السبع يوم الفزع ويوم القيامة يوم الفزع، فعبر بهذا عن هذا .

5- يوم السبع إشارة إلى الفتن التي تهجم على الناس، فيدعون ماشيتهم هملاً لا راعي لها، نُبهةً للسباع، فجعل السبع لها راعياً أي منفرداً بها، وهذا هو الأصح في تفسيرها كما قال النووي وابن حجر² وقريبٌ مما ذكر عن الأصمعي وابن فارس آنفاً، وهو الذي اقتصر عليه الإمام السيوطي في شرحه على صحيح مسلم³.

وعلى الأصح الذي قالوا يكون يوم السبع كنايةً عن الفتنة العارمة التي يردفها في الغالب أن تخلو الأيام للسباع فترتع في السائمة بلا رادع ولا راع .
وزاد من روعة الصورة لفظُ السَّبع بإيقاعه المصوّر، حيث في السين همسٌ وحسيسٌ يشبه الحركة الخفية والأنفاس البطيئة للوحش القابع بين الشجيرات، والباء التي تنطبق بها الشفتان وتنحبس بها الأنفاسُ تمثّل الهدوء اللحظي المرعب الذي يسبق الهجوم، ثم تُفتَح الشفتان بالضم وهو الحركة المتقدمة المفاجئة التي تثب وثباً من الباء الشفوية إلى العين الحلقية بما يشبه وثبة السبع على فريسته

¹ - ينظر : مقاييس اللغة ، (سبع، 3 / 128)

² - ينظر : شرح النووي على صحيح مسلم 15 / 157؛ فتح الباري ، ابن حجر 1 / 129.

³ - ينظر : الديباج على صحيح مسلم 5 / 376.

لابتلاعها، والمشهور من ديدن الأطفال في لعبهم أن يفجأ أحدهم رفيقه فيقول:
بُع ، كالمروّع له ولهذا دلالته.

وما علاقة البقرة بالذئب ؟

البقرة التي تدمرت من صاحبها ووبخته لأنه ركبها ثم ضربها فأخطأ في حقها
مرّتين، فقالت له: لم تُخلق لهذا إنما خُلِقنا للحرث! وعبرت بضمير الجماعة
(خُلِقنا) ولم تقل (خُلِقتُ) كأنما تعطيه درساً في علم الأحياء ووظائف
الحيوانات!.

ولم أجد من حاول الربط بين القصّتين، فيمكن القول بأن القسوة والظلم
والتعسف في استعمال الكون المسخر وليّ غنقه، وسوء استخدامه، ووضع الشيء
في غير محله المعبر عن الطمع والجشع وغياب الحكمة مثل الذي كان في خبر
البقرة، سيؤدي بالضرورة إلى اقتتال الناس ثم ضياع المال بالكلية وهذا يوم السبع،
والله أعلم.

فأظن الغاية من الكناية في هذا الحديث الترهيب من الظلم والتعسف المؤدّين
إلى الفتنة، بطريقة الإنذار والوعيد بالفتنة وذهاب المال حتى تسلّو عنه القلوب
ولا تتعلّق به وتصرف همّتها إلى تجنّب الفتن والأسباب الموصلة إليها .

واستعمل الترهيب حيواناً مفترساً وصورة طبيعية بيئية معاً مما يعيشه الناس
ويعهدونه، كما استعمل الأسلوب القصصي وتحقيق ما يُستغرب من نطق
الحيوانات وتوثيقه بإيمان النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضي الله عنهما.

المطلب الثالث : التقبيح .

كما في الكناية (حتى إن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف) .

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث وفد عبد القيس وأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا حي من ربيعة وبيننا وبينك كفار مضر، ولا نقدر عليك إلا في أشهر الحرم، فمرنا بأمر نأمر به من وراءنا وندخل به الجنة إذا نحن أخذنا به. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَأُكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ : اْعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَصُومُوا رَمَضَانَ وَأَعْطُوا الْخُمُسَ مِنَ الْغَنَائِمِ . وَأَنْهَأُكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنِ الدُّبَاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالْمُرَقَّتِ وَالنَّقِيرِ)). قالوا : يا نبي الله ما علمك بالنقير ؟ قال: ((بلى، جَذَعٌ تَنْقُرُونَهُ فَتَقْدِفُونَ فِيهِ مِنَ الْقُطَيْعَاءِ ثُمَّ تَصُبُّونَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا سَكَنَ غَلْيَانُهُ شَرِبْتُمُوهُ حَتَّى إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَضْرِبُ ابْنَ عَمِّهِ بِالسَّيْفِ)). قال وفي القوم رجل أصابته جراحة كذلك، قال: وكنت أخبأها حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: ففيم نشرب يا رسول الله؟ فقال: ((فِي أَسْقِيَةِ الْأَدَمِ الَّتِي يُلَاثُ عَلَى أَفْوَاهِهَا)). قالوا: يا رسول الله، إن أرضنا كثيرة الجرذان، ولا تبقى بها أسقية الأدم! فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: ((وَأِنْ أَكَلَتْهَا الْجُرَذَانُ وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجُرَذَانُ وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجُرَذَانُ))¹.

¹ - الحديث من رواية أبي سعيد الخدري أخرجه مسلم في الإيمان (الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين) 18، وأخرج ابن ماجه شيئاً يسيراً منه في الزهد (الحلم) 4187 ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ، باقي مسند المكثرين (مسند أبي سعيد الخدري) 10791 . وهو من رواية ابن عباس أذكر ، ورواها البخاري في مواضع كثيرة منها في المغازي (وفد عبد القيس) 4368 ، ومسلم في الإيمان (الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين) 17 ، والترمذي في الإيمان عن رسول الله (ما جاء في إضافة الفرائض إلى الإيمان) 2611 ، والنسائي في الإيمان وشرائطه (أداء الخمس) 5031 ، وأبو داود في الأشربة (الأوعية) 3692 . وليس في أي من مواضعه قصة السيف على أن حديث أبي سعيد أتم سياقاً ، وفي المسند رواية تؤيده من حديث بعض الوفد ، سآتي عليها .

فالدُّبَاءُ القَرَعُ اليابس، أي الوعاء منه، والْحَنْتَمُ نوع من الجرار خُضِر، والنَّقِير: جذع يُنْقَر وسطه، والمزَقَّت المطلي بالقار، والقُطِيعاء نوع من التمر صغار. قال الإمام النووي: "أما معنى النهي عن هذه الأربع فهو أنه نُهي عن الانتباز فيها، وهو أن يُجعل في الماء حبات من تمر أو زبيب أو نحوهما ليحلوا ويُشرب. وإنما خُصَّت هذه بالنهي لأنه يُسرَع إليه الإسكار فيها فيصير حراماً نجساً وتبطل مالهته"¹.

ثم ذكر الإمام النووي أن هذا النهي نُسخ في قول الجماهير من العلماء². والغرض الآن قولُ النبي صلى الله عليه وسلّم: ((حتى إن أحدكم ليضرب ابن عمه بالسيف)) فإنه كنايةٌ عن غلبة السُّكْرِ الذي يردفه مثل هذه الأفعال.

¹ - شرح النووي على مسلم 1 / 185.

² - بحديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه عند مسلم مرفوعاً: ((كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنِ الْأَشْرَبَةِ إِلَّا فِي ظُرُوفِ الْأَدَمِ فَاشْرَبُوا فِي كُلِّ وَعَاءٍ غَيْرَ أَنْ لَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا)). مسلم في الأشربة (النهي عن الانتباز في المزفت ...) 977، والنسائي في الأشربة (الإذن في شيء منها) 5653، وأبو داود في الأشربة (في الأوعية) 3698.

قال ابن رشد: "فمن رأى أن النهي المتقدم الذي نسخ إنما كان نُهيًا عن الانتباز في هذه الأولاني إذ لم يُعلم ههنا نُهيٌ متقدّم غير ذلك قال: يجوز الانتباز في كل شيء. ومن قال إن النهي المتقدم الذي نسخ إنما كان نُهيًا عن الانتباز مطلقاً قال: بقي النهي عن الانتباز في هذه الأولاني "بداية المجتهد 1/383.

فالجماهير على الأول، وبقي الإمام مالك على كراهته وكذا الإمام أحمد والمذهب أنه لا يكره، والله أعلم.

ينظر: حاشية ابن عابدين 10/39؛ الشرح الكبير، الدردير 2/117؛ الحاوي الكبير، الماوردي 13/397؛ الشرح الكبير، ابن قدامة 10/340.

قال المناوي: "معناه إذا شرب هذا الشراب سَكِر فلم يبق له عقل" ، وهاج به الشر فيضرب ابن عمّه الذي هو عنده من أحب أحبائه. وهذه مفسدة عظيمة ونَبّه بها على ما سواها من المفاسد ¹.

وما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليفتات عليهم - حاشاه - ففي وفدهم رجلاً أصابه ذلك، والوفد الجماعة المختارة تفد عن القوم إلى الملك ونحوه في قضية²، فهم أشرف القوم ونجباؤهم ومظنة العقل والحكمة فيهم، وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم يدل على أنه من متكلمتهم، فإن وقع له ما ذُكر فَمَن دونه بها أجدر.

وهذا الرجل اسمه الحارث وكان حضر شرباً في بيت فتمثل بشعر في امرأة منهم فقام بعض أهل البيت فضربه بالسيف فأصاب ساقه، فجعل يوم الوفد إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قال يُسدل ثوبه ليغطي الضربة ³!

ثم إن الرجل لما طفق يستر رجله بادر إلى السؤال عما ينبغي أن ينتبذوا به كأنما يريد ألا يقف القوم على هذه الملاحظة طويلاً. والقوم يعلمون خبره حين لم يستغربوا على النبي صلى الله عليه وسلم، وسكتوا عنها، ثم حاولوا أن يرخص لهم بأسقيتهم تعللاً بكثرة الجرذان في أرضهم ونقبها أوعية الجلد، فعزم عليهم ولم يرخص .

¹ - فيض القدير 2 / 7 .

² - ينظر: العين ، الفراهيدي (وفد ، 8 / 80) ؛ لسان العرب ، ابن منظور (وفد ، 3 / 464) .

³ - ينظر الخبر بتمامه من رواية العصريين أنفسهم عن بعض الوفد في المسند، مسند الشاميين (حديث وفد عبد القيس) 17376 . قال الهيثمي في المجمع 178/8 : " رواه أحمد ورجاله ثقات "

وذكر السهيلي وفدَ عبد القيس في سياق من أقبلوا عام الوفود سنة تسع، وذكر أن اسم الرجل جَهم بن قُثم¹. والظاهر أنهما وفادتان الأولى متقدّمة لقولهم فيها بيننا وبينك كَقَار مضر ولا نقدر عليك إلا في أشهر الحرم، والثانية عام الوفود حين دانت الجزيرة.

وعبد القيس من أسد بن ربيعة بن نزار وكانت مساكنهم البحرين وسرّتها هَجَرُ الهُفوفُ غربَ السعودية اليوم، ومن أفضلهم بنو عصر رهطُ الأشجّ رئيس الوفد رضي الله عنه².

والحديث على طوله تمثل الكناية فيه موضع الوسط من القلادة فهي رمز لما كانوا عليه من الجاهلية، ولما ضاقوا بالنهي عن هذه الأسقية مع اعتيادهم لها وشغفهم بها، جبههم النبي صلى الله عليه وسلم بالكناية وغلبهم، فغلقوا وأذعنوا، وقد كان من حُب العرب للخمر في الجاهلية أنهم جعلوا ضرّها نفعاً وسيئاتها حسناتٍ، فهي بزعمهم تحثّ على الشجاعة وتهوّن من شأن العدو، يقول امرؤ القيس :

ونشرب حتى نحسب الخيلَ حولنا نقاداً وحتى نحسب الجونَ أشقرا³
يشربون فيتعاضمون حتى تصغر خيل العدو في أعينهم فيرونها نقاداً والنقاد
والنقد صغار الغنم!⁴.

¹ - الروض الانف 7 / 428 .

² - الأنساب ، السمعاني 4 / 201 ؛ الأطلس الإسلامي الجغرافي، كمال حمود ص8 .

³ - ديوان امرئ القيس ص 71.

⁴ - ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس (نقد، 5 / 467)، والجون الأسود والجون الأبيض ، والأشقر من الدواب الأحمر ، ومن الناس الأبيض تعلوه حمرة خالصة ينظر : مقاييس اللغة (جون 1 / 496) ؛ لسان العرب، ابن منظور (نقد ، 4 / 421) . وورود كلمة الجون في هذا الموضع وهي من الأضداد يأتي ليرسخ معنى الاضطراب في الرؤية وانعدام التمييز الذي يعتري السكران .

وتحث على الكرم بزعمهم، يقول عنتره:

وإذا شربتُ فإنني مستهلكٌ مالي، وعرضي وافِرٌ لم يكَلِّم¹

وقال طرفه:

أُسْدُ غَيْلٍ فإذا ما شربوا وهبوا كلَّ أُمُونٍ وَطِمَرٍ²

أي وهبوا في سُكرهم كلَّ ناقة أمينة وثيقة الخلق، وفرسٍ جوادٍ طويل القوائم خفيف.³

قال أبو بكر بن داود الأصبهاني: "وهذا قبيحٌ كله لأنهم صيَّروا سببَ السماحة والشجاعة زوال التمييز والمعرفة. وصاحب هذه الحال والمجنون سواءٌ بمنزلة؛ لأنه يأتي الشيء بغير معرفة"⁴.

ولكنهم صيَّروه على كل حال، وقلبوا الخيل نقاداً والأسود أشقر والكبير صغيراً والصغير كبيراً والقبيح حسناً والحسن قبيحاً، وهكذا فعلوا، فلما قَبَّح النبي صلى الله عليه وسلم المسكر لهم قَبَّحه بهذا الشيء الغريب الذي لا تملكُ العرب أن تخرجه مخرج حُسْنٍ بأي وجه؛ لأن ابنَ العم عُصبة، وضرَّبه بالسيف سَفَهٌ يُجَمِّع العرب عليه إذ كان أمرهم يدور على العصبية والقبلية، وانظر قول قيس ابن عاصم المِنْقَرِي - سيد أهل الوبر - لما قتل ابنُ أخيه ابنه: "قطعتَ رحمك، وقتلت ابن عمك، ورميت نفسك بسهمك، وقللت عددك"⁵.

¹ - ديوان عنتره بن شداد ص 206.

² - ديوان طرفه بن العبد ص 65، ويروى البيت : فإذا ما شربوها وانتشوا وهبوا....

³ - تقدم البيت وشرحه في الفصل الأول ص 89.

⁴ - الزهرة 2 / 726.

⁵ - ينظر : المستقصى من أمثال العرب، الزمخشري 1 / 70، في قولهم : "أحلم من الأحنف"؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان 2 / 501 في ترجمة الأحنف بن قيس .

المطلب الرابع : الترويع

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلْتُ بَعْضِي بَعْضًا ! فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ، نَفْسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا يَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ وَأَشَدُّ مَا يَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهِيرِ))¹.

موضع الكناية : ((أَكَلْتُ بَعْضِي بَعْضًا)) كناية عن خلاء جوفها وشدة جوعها إذ يردف خلوّ النار مما تأكله أن تأكل بعضها.

قال الإمام الباجي: "يريد بذلك كثرة حرّها، وأنها تضيق بما فيها، ولا تجد ما تأكله وتحرقه حتى يعود بعضها على بعض"².

ولا بد لفحص الكناية من تبين معنى شكوى النار إلى ربها، فهذا الضرب من الشكوى والتغيّظ والزفير ونحوه فيه مذهبان :

الأول: الحمل على الظاهر والحقيقة وأنّ شدة الحر من وهجها وفيحها، وجعل الله تعالى فيها إدراكاً وتمييزاً بحيث تكلمت بهذا، وهو الذي استصوبه الجماهير من العلماء منهم ابن عبد البر والإمام النووي³، وعليه فإن النار مخلوقة كما هو مذهب أهل السنة، وبه ترجم الإمام البخاري للحديث.

والثاني: الحمل على المجاز وتقديره أن شدة الحر تشبه نار جهنم فاحذروه، وشكواها مجاز عن غليانها، ويكثر أن تستعير العرب الكلام للحال وتسميه لسان

¹ - البخاري في بدء الخلق (صفة النار وأنها مخلوقة) 3260 ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر ..) 617 ، والترمذي في صفة جهنم (ما جاء أن للنار نفسين ..) 2592 ، وابن ماجه في الزهد (صفة النار) 4319 .

² - المنتقى 1 / 31.

³ - ينظر : التمهيد ، ابن عبد البر 5 / 11 ؛ شرح النووي على صحيح مسلم 5 / 120.

الحال، فمنهم من ذهب إليه مع القول بإمكان الأول كالإمام البيضاوي¹، ومنهم من قال بالمجاز ومنع الحقيقة كالإمام الزمخشري² والمعتزلة الذين لا يجوزون قيام الحياة إلا ببنية مخصوصة تُتصوّر فيها الحياة³، خلافاً لأهل السنة الذين لا يشترطون البنية ويجوزون أن يخلق الله تعالى الحياة ولو في جزء واحد من الأجزاء التي تتجزأ بوجه من وجوه الانقسام⁴.

قال الإمام الرازي : "هؤلاء المعتزلة ليس لهم في هذا الباب حجة إلا استقراء العادات ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات في حق الرسل، فهؤلاء قولهم متناقض بل إنكار العادات لا يليق إلا بأصول الفلاسفة"⁵.

واستعارة العرب الكلام للحال لا تظهر في هذا الحديث، وعن الزين بن المنير أن المختار فيه الحمل على الحقيقة "لصلاحية القدرة لذلك، ولأن استعارة الكلام للحال وإن عُهدت وسمعت لكن الشكوى وتفسيرها والتعليل له والإذن والقبول والتنقّس وقصره على اثنين فقط بعيدٌ من المجاز خارج عما أُلّف من استعماله"⁶.

¹ - ينظر: تفسير البيضاوي 4 / 208.

² - ينظر: الكشف 3 / 272.

³ - قال القاضي عبد الجبار : " ولا يكون المحل مهياً لصحة وجود الحياة فيه إلا مع بنية مخصوصة تقتضي كونه جسماً" المجموع في المحيط بالتكليف ص 124.

وأصل المعتزلة أصحابُ واصل بن عطاء الغزال الذي اعتزل عن مجلس الحسن البصري، ثم كانوا فرقاً وطرائق، ينظر: مقالات الإسلاميين، الأشعري ص 155-171؛ التعريفات، الجرجاني ص 282.

⁴ - ينظر: المواقف ، العضد الإيجي 2 / 55 .

⁵ - تفسير الرازي 24 / 49.

⁶ - نقله الحافظ ابن حجر في فتح الباري 2 / 19 عن المتواري في تراجم البخاري لزين الدين علي بن المنير (-699هـ) وكتابه مفقود ، والمعروف - كما سبق ذكره - كتاب أخيه ناصر الدين أحمد (-683هـ) ، وهو أخصرُ من الأول ، طُبِعَ بتحقيق صلاح الدين مقبول في الكويت ، وليس فيه العبارة التي ذكرها الحافظ ابن حجر .

فالآن ندرس الكناية ((أكل بعضي بعضاً)) في ضوء الحقيقة، إن هذه الكلمة الموجزة تصوّر هول الموقف وشدة ما ينتظر الكافرين وتجمع أنواعاً من الفنون التصويرية البصرية والسمعية واللمسية والتشخيص والتجسيم والإيقاع التصويري واللون والحركة .

فالتشخيص في النار أن تنطق وتعبر عن نفسها بياء المتكلم (بعضي) ، ومع أن النار شخصية حقة كما ترجح فالخوف منها يتعاضد إذا جُلِبَت بثوب الإرادة، وتسَلَّل إلينا صوتها كأنه صوت مخلوق عظيمٍ مخيفٍ يتضوّر جوعاً .

والتجسيم أن تحوّل اللطيف إلى كثيف في صورة بصرية عجيبة حيث النار تتبعض ويأكل بعضها بعضاً، ومعلوم أن النار الدنيوية المعهودة إذا نفذ زادها أكل بعضها بعضاً على سبيل المجاز أي أخذت بالضمور والتلاشي، أمّا جهنم فيأكل بعضها بعضاً ولا تخبو ولا تنطفئ، وهذا يعني أن التبعض حقيقي وأن الأكل حقيقي حيث يبلغ من كثافة النار أن تكون وقوداً وناراً في آن واحد، كما بلغ من كثافتها أن يُصنع منها الجُمُّ لَكُتَامٍ¹ العلم، والله أعلم .

وهي صورة لمسية ضغطية، حيث ينتقل الإحساس إلى المتلقي بوحى الحالة فيستشعر هذا التبعض واضطرامه واعتراكه في بطنه هو ، وسائر الحديث يؤكد الصورة اللمسية بالنفسين الحرور والزمهير اللذين يعانيهما المتلقي ويحسُّ بهما أشدَّ إحساس وأبلغه في لُبَّتِي الصيف والشتاء .

والإيقاع مصوّر فتوالي الباء والعين في بعضي بعضاً يوحي بالتجزئة لتباعدهما في المخرج إذ الباء شفوي والعين حلقيه، وهذا معنى البعضية في الأصل²، وتليهما

¹ - تقدّم هذا في حديث وكناية ص 254.

² - قال ابن فارس رحمه الله : " الباء والعين والضاد أصلٌ واحدٌ، وهو تجزئة للشيء. وكلُّ طائفة منه بعضٌ " مقاييس اللغة (بعض، 1 / 269) . ولا أظن من قبيل المصادفة أن تُستعمل الباء

الضادُّ مُطَبَّقَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ مُشْعَرَةٌ بالتجسيم والكثافة، ويأتي الخفض ثم النصب
ممدودين مصوَّرين لحركة تداخل النار واختلاف ألسنتها على نحو ما نرى في نيران
الدنيا .

ويزيد من حيويَّة الحركة في الصورة ما نتوقَّعه فيها من ألوان نارية متغيرة أسود
وأحمر وأزرق وغير ذلك ..

فانظر إلى الكناية ومنزلتها من الحوار الذي جرى بينها وبين ربها سبحانه
وتعالى تجذُّها المستودع الذي شُحِنَ بالمؤثرات، وما ينبغي للقلب إلا أن يطيرَ
شعاعاً من قول النار: أكل بعضي بعضاً ، فثمَّ الترويعُ الذي يعضد الغاية
الترهيبة غير المباشرة .

وأحسبها من الاختراع فإن العرب وإن بعَّضت مجازاً ما لا يتبعَّضُ نحو
تبعيضهم الشرَّ في قول طرفة :

أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضنا حنانيك بعضُ الشرِّ أهونُ من بعض¹

والعين في بُعد للدلالة على الانفصال والإرداف، وفي بُعْد للدلالة على التباين ، ينظر: مقاييس اللغة
(بعد، 1 / 268) .

¹ - ديوان طرفة بن العبد ص 172.

وجرى قوله هذا مجرى المثل ، ينظر : جمهرة الأمثال ، العسكري 1 / 580 ؛ المستقصى في
أمثال العرب ، الزمخشري 2 / 10 .

ومعنى حنانيك : تحنناً بعد تحنن ورحمة بعد رحمة . ثم اختلف في التوجيه ف قيل رحمتك أنت ،
وقيل : رحمتك الله ، ينظر : غريب الحديث ، أبو عبيد 4 / 401 ؛ الزاهر في معاني كلمات الناس ،
ابن الأنباري 1 / 96 .

وقال الأعلام الشنتمري في شرحه على ديوان طرفه في الموضع المذكور: " لم يقصد بهذا مقصد
التثنية خاصة، وإنما يراد به التكثير فجعلت التثنية علماً لذلك؛ لأنها أول تضعيف العدد وتكثيره".

إلا أنّ هذا التركيب (بعضي بعضاً) لم يسبق في كلامهم إلا بما يتبعّض حقيقة؛ لأنه موغل في الجسمية، ولم أر فيه إلا قول النمر بن تولب رضي الله عنه:

أصبحتُ لا يَحْمِلُ بعضي بعضاً أشكو العروق الآبضاتِ أبْضاً¹
يذكر تفكُّك جُسمانه وانحلال بنيانه والوهن في أعضائه وأبعاضه، وعلى حُسْنِها فأين تقع من الكناية النبوية التي بعّضت النار تبعيضاً زاد من هولها وعُنفوانها بما يشبه تبعيض الذرة وانشطار النواة واعتلاج الصخور واعتراك الوحوش؟

لقد حاولها ابن المعتز (-296هـ)، فقال :
إصبرْ على كيد الحُسودِ فإنَّ صبرك قاتله
فالتَّارُ تَأْكُلُ بعضَها إنْ لم تجدْ ما تأكله²
وهذا التشبيه الضمني غاية في الحسن، موفِّق في بابه إذ يشبّه ضُمور الحسود وموته بغِيظه بالنار التي نفذ زادها فأكلت بعضها حتى خبت ، لكن جهنم يأكل بعضها بعضاً فتزيد حرّاً واضطراماً .

¹ - ديوان النمر بن تولب العُكلي ص 79 ؛ الأغاني، أبو الفرج 22 / 286.
والأَبْضُ الشَّدُّ والأَبْضُ التَّخْلِيَةُ فهما ضِدَّان، والأَبْضُ السَّكُونُ والأَبْضُ الحَرَكَةُ فهما ضِدَّان، وأنشده ابن الأعرابي في معنى الحركة على ما قال الزبيدي ، تاج العروس (أبض ، 18 / 222) .
فيبدو لي أن لهذه الكلمة وظيفة التوتر في البيت لدلالاتها على الأضداد ، وهذه هيئة الهَرَم لا تَطْمئن عروقه ، ولا تزال بين شِدِّ وتخلية وسكون وحركة ، وأكثر أوجاعه من هذا التوتر والاضطراب الحاصل في الدم .

والنمر بن تولب العكلي يذكر في الصحابة ، كان شاعراً مجيداً جواداً يُشَبَّه شعره بشعر حاتم، قيل وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وكتب له كتاباً ، ثم نزل البصرة وعمر طويلاً . ينظر : الإصابة ، ابن حجر 6 / 470 .

² - كذا في نهاية الأرب ، النويري 3 / 95 ، وفي ديوان ابن المعتز 2 / 403 : تأكل نفسها .

على أن ابن المعتز حُرِّمَ مع ذلك الإيقاع الفذَّ في (بعضي بعضاً)، حين اقتصر على بعضٍ واحد .

وأخيراً فإن الصورة الفنية لهذه الكناية قد تَوَثَّرَ في توجيه المعنى في الحديث وكيفية الزمهير الذي فيه، فالزمهير شدة البرد، ويقول العلماء إنه لا مانع من حصول الزمهير من نفس النار؛ لأن المراد من النار محلُّها وهو جهنم وفيها طبقة زمهيرية وأن الزمهير يحرق أهلها ببرده كما تحرقهم النار بحرِّها، وأنهم أبداً من كفَّ هذه لكفَّ هذه¹.

لكنَّ أكل النار بعضها بعضاً يُتصوَّر في اضطرام اللهب الذي هو حركة
واحتياجٌ ولا يتصوَّر في الزمهير الذي هو تجمُّد وانكفاء وهذا فيما نعهد من الدنيا، وقد أُذِنَ للنار بنفثة حرِّ فعلاً يؤذِن لها بنفثة زمهير ؟

لعلَّ المقصود بالنَّفْسَيْنِ في الحديث الشَّهيقَ والزفيرَ، إذ الشَّهيقُ النَّفْسُ الداخِلُ والزفيرُ النَّفْسُ الخارجُ²، فإذا شَهِقَتِ النَّارُ سَلَبَتْ من هواء الكون وحرَّه حتى يشتدَّ برده، وإذا زَفَرَتْ بَثَّتْ في الكون من فيحِ نارها ما يبلغ به أوجَ حرِّه، والشَّهيقُ يسبقُ الزفيرَ فلعلَّ هذا أيضاً هو السر في تقديم نفس الشتاء في الحديث على نفس الصيف³، والله أعلم .

¹ - ينظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي ص 135؛ عمدة القاري، العيني 5/34؛ الدر المنثور، السيوطي 8/373 .

² - ينظر لسان العرب، ابن منظور (شقيق ، 10/191) .

³ - كلُّ من روى الحديث رواه بتقديم نفس الشتاء على نفس الصيف ومنها الروايات التي في البخاري ومسلم من طريق سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة ، إلا في مصنف ابن أبي شيبة في ذكر النار (ما أعد لأهل النار وشدته) 34137 ، من طريق عبد الله بن إدريس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وفيه: ((فجعل لها نفسين: نفس في الصيف ونفس في الشتاء، فشدة ما تجدون من البرد من زمهيريها وشدَّة ما تجدون من الحرِّ من سُمومها)).

لكنه عاد في آخر الحديث فقدم نفس الزمهير على نفس الحر، ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبه بهذا الإسناد فقدم نفس الشتاء على نفس الصيف كما هو عند سائر الرواة، وذكرت موضع روايته في تخريج الحديث.

الأغراض الفنية للكناية النبوية

وهي الأدوار التي تؤديها الكناية في غير سياق التهذيب والترغيب والترهيب، وإنما هي أحوال فنية محضة لها أبعادها النفسية كالاقتصاد، والتأكيد، والمشاكلة، والموازاة، والتخصيص، والمواساة، والتهوين .

المطلب الأول: الاقتصاد.

وأعني به الاقتصاد في التأثير على الحس النفسي للمتلقي¹.
والاقتصاد لغة من القصد، وهو استقامة الطريق والعدل والتوسط بين طرفين،
بين إفراط وتفریط وإسراف وتقصير².

فللاقتصاد إذاً مدخلٌ محمودٌ في العلوم والفنون والأخلاق وسائر الشؤون.
قال ابن الأثير: "اعلم أن هذه المعاني الثلاثة من الاقتصاد والتفريط والإفراط
توجد في كل شيء من علم وصناعة وخلق ... وقد نُقلت هذه المعاني الثلاثة إلى
هذا النوع من علم البيان"³.

ثم عرّف الاقتصاد في البلاغة، فقال: "هو أن يكون المعنى المضمّر في العبارة
على حسب ما يقتضيه المعبر عنه في منزلته"⁴.

وشرحه العلوي فقال: "معناه أن يكون المعنى المندرج تحت العبارة على
حسب ما يقتضيه المعبر عنه مساوياً له من غير زيادة فيكون إفراطاً، ولا نقصانٍ
فيكون تفريطاً"⁵.

¹ - مرت الإشارة إليه في موضعين ص 220، 227 .

² - ينظر لسان العرب، ابن منظور (قصد، 3 / 353)؛ التعاريف ، المناوي ص 583 .

³ - المثل السائر 2 / 298 - 299.

⁴ - المثل السائر 2 / 299.

⁵ - الطراز 2 / 301؛ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب ص 163 .

ويُذكر الاقتصاد في الألسنية بمعنى المجهود الأدنى والإنتاج الأقصى، وعُدَّ محرّك التطوير في اللغة باتجاه الانتفاع أو الاستفادة القصوى من المجهود الذي يقوم به متكلم اللغة¹.

وفي الأدب "يشير هذا المصطلح إلى الاستخدام المقتصد المحكم للكلمات وهي تعبر عن الأفكار والانفعالات. والكلمة (أي: الاقتصاد) ترادف الإيجاز الدقيق وذات معنى مناقض للإسهاب اللفظي"².

وهذا غير الاقتصاد الأدبي الذي بشر به الناقد السوري حنا عبود وسمّاه "علم الاقتصاد الأدبي" ليكون بديلاً عن الاقتصاد السياسي الناظم لحياة المجتمعات، ويعني به ترشيد الحياة المادية بالتربية الجمالية، وحكم الأدب للدولة والشعب³. وهذا طرح غريب يتجاهل الوجود الراسخ لمصطلح الاقتصاد في علم البلاغة العربية، ولا ينطلق من أرضيته.

ورأينا أن تعريف الاقتصاد في البلاغة العربية يقوم على مساواة المعنى المعبر عنه للأسلوب المعبر به، والاستخدام المحكم للكلمات في الإفصاح عن الأفكار والانفعالات، وانطلاقاً من هذا التعريف أبدع مصطفى صادق الرافعي (-1356هـ) ما سمّاه الاقتصاد في التأثير على الحس النفسي للمتلقى، واعتبره من

¹ - ينظر : الألسنية، ميشال زكريا ص : 108، 109.

² - معجم المصطلحات الأدبية ، إبراهيم فتحي ص 41.

³ - ينظر : فصول في علم الاقتصاد الأدبي ص 20.

وخلاصة مراد الناقد حنا عبود من مصطلحه هذا أن تسود التربية الجمالية وترشد الحياة المادية وتتحول ملكية الطمع إلى ملكية القناعة .

وسمّي له عناصر أربعة: الفلز الأدبي الذي هو مزيج من الأسطورة والواقع الاجتماعي، والأنماط الأولية التي تعني التقليد الأدبي الحاكم على الأدب والمانع له من الجنوح ، والصياغة الفنية والحرية التي تعني إعادة إنتاج الأنماط الأولية . ينظر المصدر نفسه ص 10، 11، 18.

أخص خصائص القرآن الكريم "أنه لا يُسرف على النفس ولا يستفرغ مجهودها بل هو مقتصدٌ في كل أنواع التأثير عليها فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا يتخونها الملل"¹.

فهذا اقتصاد من طبيعة البلاغة التي هي مراعاة الخطاب لمقتضى الحال، واقتصادٌ ينسجم ودرس الصورة الفنية القائمة على التقديم الحسي للمعنى والتي تتفاعل مع علمي النفس والجمال، ثم هو لا يتعارض مع التعريف السائد لها في البلاغة العربية الذي صاغه ابن الأثير بل هو تعميقٌ للبعد النفسي في ذلك التعريف.

وتمضي صور الحديث النبوي الشريف في هذا السبيل .. يقول الدكتور أحمد ياسوف : "الصورة الحديثية لا تستهلك بحسبها كل الطاقة النفسية، بل تحرّضها على تفهّم ما بعد الحسية"². ويذكر الفيلسوف الفرنسي جويو أنه حين يكون إحساس من الإحساسات اللذيذة القوية غير متّصفٍ بالجمال فمرّدٌ ذلك إلى أنّ الشدة المحليّة لهذا الإحساس تحول بطبيعتها دون انتشاره في الجملة العصبية فينتج عن ذلك أن يُستنفذ الشعور في منطقةٍ معيّنة³.

وهذا العيب من عيوب الصور الحسية التي تستنفذ طاقة المتلقي غير موجود في الحديث النبوي، فهو يتّسم بالاقتصاد ومداورة النفس وتربيتها دون إرهاقها. ونظراً لخصوصية الكناية في الانتقال من الملزوم إلى اللازم لفظاً ومن اللازم إلى الملزوم ذهنياً وإثبات الصفة بإثبات دليلها فهي مظنة اقتصادٍ لغوي يتعلق

¹ - تاريخ آداب العرب 223/2.

² - الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص 451 .

³ - ينظر : مسائل فلسفة الفن ص 68 .

بالإيجاز، وهي من وجه آخر مظنة إسراف على الحس النفسي للمتلقي لأجل الانتقال الذي فيها.

على أن الكناية النبوية تخلصت من هذه الإشكالية بطريقتين:

1- توظيف السياق: فإذا كان في الكناية مقدار كبير من التصوير المنبّه للحس النفسي فجعل ما قبلها سلماً يُتدرّج به للوصول إليها، وسبق الشاهد في الكناية (اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) إذ هي القمة البلاغية ومستودع المؤثرات الحسية، لذلك تدرّج الحديث في الوصول إليها، لئلا يُستنفذ حس المتلقي من أول الأمر¹، ففي هذا الحالة كان السياق هو الذي يلعب دور الاقتصاد لكنها هي الباعث عليه.

أو يكون ما بعدها من اليسر والسهولة بحيث يمتصّ الفاضل الحسيّ فيها كالكناية بالمطيّاء في حديث خولة بنت قيس رضي الله عنها مرفوعاً: ((إذا مشيت أمتي المطيّاء وخدمتهم فارس والروم سلّط بعضهم على بعض))².

وهذه كناية سبق شرحها، وقلت آنذاك: إن الحركة في المطيّاء صاعدة منقطعة؛ إذ لو فُسِحَ للمتمطي في الجسم لأمعنَ فيها، وهي حافزة للمتلقي على التمثيل والتجربة الشكلية. وذكرتُ الاستعلاء في حرف الطاء والألف التي ردفته وملاءمتها لنفوس المتكبرين وأثرها على المتلقي (المتجاوب) الذي يستوي ظهره في محاولة تمطُّط انفعالية أو فعلية تمثيلية.

وأضيف الآن أنّ هذا تصوّر المجهد للحس لا يلبث أن يخفّ ضغطه وتلين وطأته بالانتقال إلى الكناية الأخرى الوثيرة حيث الخدم والحشم من أبناء الملوك، والراحة والدعة في أبناء هذه الأمة البادية، في قوله صلى الله عليه وسلّم: ((خدمتهم فارس والروم)) كناية عن قهرهم والغلبة عليهم وسي أبنائهم وبناتهم

¹ - ينظر شرح ذلك وافياً في الفصل الثالث ص 218 - 221.

² - ينظر تحريجه وشرح كناية المطيّاء فيه ص 112، 116.

وتسخير مهرتهم وصناعاتهم وهم أهل الملك والحضارة، ويفرغ العرب للترف والترفيه ويتنافسون في الدنيا فيسلط بعضهم على بعض، وقد كان¹.

والحاصل أن الكناية فضلاً عن المعنى الذي حملته أدت مهمة أخرى في امتصاص وتفريغ الجهد الحسي الذي أصاب المتلقي من تمثله لمعنى المطيطاء، والله أعلم .

وهذا النمط من الأدوار سبق الرافعي إلى ملاحظته وسمّاه قوة الضعف في حديث له مع حافظ إبراهيم الشاعر مطالع القرن الماضي، قال: "وقد قرّرت له أن للألفاظ ما يشبه الألوان فليست كلها زرقاء ولا صفراء ولا حمراء، وربّ لفظة رقيقة تقع ضعيفة في موضع فيكون ضعفها في موضعها ذاك هو كل بلاغتها وقوتها... وهذا من روح الفن في الأسلوب، وأدرك شاعرنا من يومئذ ما سمّيته قوة الضعف"².

وكلام الرافعي في فصاحة الألفاظ ينسحب على بلاغة التراكيب ومنها الكناية.

¹ - الحديث من المعجزات النبوية من جهة الإخبار بما تحقق بعد . ينظر : البداية والنهاية، ابن كثير 255 / 6 ؛ فيض القدير ، المناوي 1 / 445 .

² - وحي القلم 279/3. وكلامه في الألفاظ المفردة ، وضرب مثلاً لقوة الضعف كلمة "تناولها" في قول ديك الجن (ونسبه الرافعي خطأ إلى علي بن الجهم، ينظر: ديوان ديك الجن ص108؛ نهاية الأرب، النويري 4/111):

مشعشة من كفّ ظبي كأنما تناولها من خده فأدارها

ويقابلها ضعف القوة في كلمة "عصروها" في بيت حافظ إبراهيم (من ديوانه ص 241) :

خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح في يوم عرس

قال الرافعي: "كلام من لم ينضج في البيان ولا الذوق ولا يكاد يُنوّهم معه إلا أن في حدود الملاح (خراجات) عُصرت ، وعلى ضد هذا قول ابن الجهم (تناولها من خده)...". وحي القلم 282/3.

وتلعب الكناية غالباً دورَ القوة؛ لأنها بطبعها تصوّر حسي، وأحياناً دورَ الضعف فيكون ضعفها قوةً في امتصاص الفاضل الحسي، كما في الكناية التي مثلتُ بها، والله أعلم.

2- الكناية ذاتها بمفرداتها وتركيبها، كما فعلت كلمة "الظل" في شجرة الجنة التي يسير الراكب في ظلها مئة سنة، حيث أسبغت هذه الكلمة معنى الزهدة على ذلك المسير الطويل، وصرفت عنه معنى المشقة¹.

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَّبِعُ مَا فِيهَا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ))².

رواه الإمام مسلم هكذا بذكر المغرب من طريق بكر بن مضر وعبد العزيز الدَّرَاوَرْدِي عن يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن عيسى بن طلحة التيمي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ورواه الإمام البخاري من طريق عبد العزيز بن أبي حازم عن يزيد بن الهاد بهذا الإسناد: ((أبعد مما بين المشرق)) هكذا دون ذكر المغرب . قال الحافظ ابن حجر: "كذا في جميع النسخ التي وقعت لنا في البخاري"³.

ووجهه الكرمانى، فقال: "فإن قلت: لفظُ بين يقتضي دخوله على متعدّد قلت: المشرق متعدّد معنى؛ إذ مشرق الصيف هو غير مشرق الشتاء وبينهما بعد

¹ - ينظر: الفصل الثاني ص 247، 248.

² - البخاري في الرقاق (حفظ اللسان) 6477 ، ومسلم في الزهد والرقائق (التكلم بالكلمة يهوي بها في النار) 2988 ، والترمذي في الزهد (فيمن يتكلم بالكلمة يضحك بها الناس) 2314 ، وابن ماجه في الفتن (كف اللسان عن الفتنة) 3970 .

³ - ينظر : فتح الباري، ابن حجر 11/ 311 .

عظيم وهو نصف كرة الفلك، أو اكتفى بأحد الضدين عن الآخر... وفي بعض الروايات جاء صريحاً المغرب "1.

والمصريحون في روايتهم بذكر المغرب عن يزيد بن الهاد أكثر عدداً وفيهم من هو أجلُّ من عبد العزيز بن أبي حازم المدني الذي هو "صدوق فقيه... /ع". وهؤلاء المصريحون هم: بكر بن مضر المصري "ثقة ثبت... /خ م د ت س" و عبد العزيز الدراوردي المدني "صدوق كان يحدث من كتب غيره فيخطيء... /ع" وكلاهما عند مسلم، وحيوة بن شريح المصري "ثقة ثبت فقيه زاهد... /ع"2 وروايته في صحيح ابن حبان3.

فالأرجح إثبات المغرب في الرواية ، والله أعلم.

أما الترمذي وابن ماجه فقد روياه من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن عيسى بن طلحة عن أبي هريرة، وفي روايته: ((يهوي بها في النار سبعين خريفاً)).

1 - الكواكب الدراري بشرح صحيح البخاري 23 / 6.

2 - تنظر تراجم الرواة الأربعة عن يزيد بن الهاد في تقريب التهذيب، ابن حجر : عبد العزيز بن أبي حازم (2 / 356)، وبكر بن مضر (1 / 127)، وعبد العزيز الدراوردي (2 / 358)، وحيوة بن شريح (1 / 185) .

3 - صحيح ابن حبان، في الحظر والإباحة (ما يكره من الكلام وما لا يكره) 5708 ، عن قتيبة بن سعيد عن حرمة بن يحيى عن ابن وهب عن حيوة عن يزيد بن الهاد بإسناده ولفظه بذكر المغرب كما هو عند مسلم ، وإسناده صحيح ورجاله ثقات كبار مشهورون غير حرمة بن يحيى فإنه "صدوق... /م س ق" تقريب التهذيب 1 / 156 ، على أنه أعلم الناس بحديث ابن وهب كما روى الدوري عن ابن معين في تاريخه 4 / 477.

ومحمد بن إسحاق إمام المغازي ولكنه ليس في طبقة يزيد بن الهاد الثقة المجمع عليه¹.

فالأصح في هذا الحرف : ((أبعد ما بين المشرق والمغرب)) .

وهي الكلمة يسعى بها الرجل على المسلم عند سلطان جائر تؤدي إلى هلاكه، أو الكلمة ترضي السلطان في سخط الله، أو الكلمة الفاحشة التي فيها مجنون أو استخفاف بالشرع، أو الكلمة التي لا يعرف القائل حسنَها من قبحها .. أقوالٌ للعلماء جمعها الحافظ ابن حجر رحمه الله.²

والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم (أبعد ما بين المشرق والمغرب) فإنه إذا طالت المسافة جداً بحيث لا يُدرك شأؤها ردِّف ذلك أن يقال: أبعد ما بين المشرق والمغرب فهي كناية عن طول المسافة، قال الإمام العيني: "كناية عن عظمها ووسعها"³.

وقال الدكتور أحمد ياسوف: "تبين لنا هذه اللوحة حركةً سريعة، إذ يقع المرء في النار بعد أن تزلّ قدماه، فالمسافة تُرسم بسرعة في الذهن؛ لأن الزلّ حركة سريعة ومفاجئة وهو مبدأ المسافة النارية ، وبعد ظلمة الحركة في النار نصعد مع التصوير إلى نور المشرق والمغرب لنقيس مدى هذا الانزلاق الهائل"⁴.

¹ - هو يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثي ، أبو عبد الله المدني، وثقه ابن معين والنسائي وأبو حاتم وغيرهم مع كونه مكثراً ، وروى له الجماعة، توفي سنة تسع وثلاثين ومئة . ينظر الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم 275/9 ؛ تهذيب التهذيب، ابن حجر 418 /4 .

أما محمد بن إسحاق بن يسار المدني فوثقه غير واحد ووهاه آخرون ، روى له مسلم والأربعة والبخاري تعليقا . ينظر: ميزان الاعتدال، الذهبي 3/ 468؛ تهذيب التهذيب، ابن حجر 3/ 504.

² - ينظر : فتح الباري 11 / 311.

³ - عمدة القاري 23 / 72 .

⁴ - الصورة الفنية في الحديث النبوي ، ص 692 .

وأرى في هذا الحديث اقتصاداً في التأثير الحسي من جانبين :

الأول : العودة بخيال المتلقي من عالم الغيب (النار) إلى عالم الشهود (بين المشرق والمغرب) وكلاهما بالنسبة للمتلقي غير محدود لكنه بالثانية آنس ، فكأنما كانت رحلة خاطفة من الدنيا (كلمة) إلى الآخرة (نار) إلى الدنيا (مشرق ومغرب) ، وسرعة هذه الرحلة مع عمق مضمونها وخطره تلائم صِغَر الكلمة مع ما انطوت عليه من بلايا ومصائب ، ولا يُراد من المتلقي أن يعيش في الأجواء النارية أكثر من ذلك فيذهل عن سبب هذه الأجواء وينسى أنها كلمة ! .

والثاني : العودة بخيال المتلقي من المحور الرأسي (الهوي في النار) إلى المحور الأفقي (بين المشرق والمغرب)، وكنت أتساءل لم لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض ؟ فإنه في الظاهر أليق للتوازي في الجهة الواحدة، نعم جاء في بعض روايات الحديث (بين السماء والأرض) لكنها شديدة الضعف¹.

¹ - رواها ابن المبارك في الزهد ، باب من كذب في حديثه ليضحك القوم، رقم 734 ، عن يحيى بن عبيد الله بن موهب التيمي المدني عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقُولُ الْكَلِمَةَ لَا يَقُولُ إِلَّا لِيُضْحِكَ بِهَا النَّاسَ يَهْوِي بِهَا أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)) .

ويحيى بن عبيد الله ضعيف جداً في قول أكثر أهل الجرح والتعديل ، وعن الإمام مسلم والنسائي وغيرهما أنه متروك الحديث . ونسخته عن أبيه عن أبي هريرة ومنها الحديث المذكور أكثرها مناكير، وأبوه لا يعرف كما قال الإمام أحمد ، فالحديث بهذا الإسناد شديد الضعف .

ينظر: التاريخ الكبير، البخاري 8 / 295؛ الضعفاء ، العقيلي 4 / 415 ؛ المجروحون ، ابن حبان 3 / 121؛ تهذيب التهذيب، ابن حجر 4 / 375.

يقول الناقد الإنجليزي إيفور رتشاردز : " الحركة من أعلى أو أسفل لها طابعٌ يختلف عن طابع الحركة من اليمين أو اليسار ... فالمسافة الرأسية لا تبدو مساوية للمسافة الأفقية وإن كان لها نفسُ المقاس " ¹.

والسرّ في ذلك أن العين بحُكم خَلقتها واتساعها العرضي ووجود صاحبته (العين الأخرى) في الخطّ ذاته تستروح للمشاهد الأفقية العرضية أكثر من المشاهد الشاقولية الرأسية ، وكلُّ منا يدرك بتجربة نظره من العرض أكثر مما يدرك من الارتفاع بأضعافٍ ، وفي المشاهد الشاقولية الرأسية ثقلٌ على البصر ولا سيما إذا استدعت ليّ الرقبة ومطّها وارتدادَ الرأس للأسفل والأعلى فإنه أشدُّ من الالتفات يمنةً ويسرةً ، وما شقَّ على العين شقٌّ على النفس وطُبعَ فيها استثقاله . وبالعود إلى الحديث نجده يرحمُ خيال المتلقي من متابعة حدث الهويّ السريع العنيف النافق في النار، وينقله إلى البُعد الأفقي الأسهل تصوُّراً وتأثُّلاً . فتمت إدارة المحور من الشاقول إلى العرض ومن الغيب إلى الواقع، والله أعلم.

وهكذا تبين أن دراسة الاقتصاد في البلاغة ينبغي ألا تكتفي بملاحظة التساوي الظاهري بين المعنى واللفظ المعبر عنه بل ينبغي الاتجاه إلى أغوار نفس المتلقي ورصد أثر التصوير فيها.

وكان النظر في النماذج المدروسة من الكنايات النبوية إلى نفي الإفراط، أما التفريط والتقصير في إثارة الحس فلسنا في سبيله؛ إذ المشكلة التي يقع بها الأديب من سما بفكره وفصاحته عن أهل عصره أن يفرط عليهم بتعبيره فيشق عليهم مجاراته لا أن يفرط، فكيف يُتصوّر التفريط من أبلغ البشر وأفصحهم ومن كان لفظه وعاءاً لمعاني الوحي الإلهي!

¹ - مبادئ النقد الأدبي ص 221 .

إن الاقتصاد بمعنى السلامة من الإفراط في التأثير على حسّ المتلقين مع اختلاف طبقاتهم وعصورهم إنما يعني امتلاكاً لخاصية اللغة والفكر والعاطفة في آن واحد، وجاءت الكناية النبوية لتبعث على هذه الفائدة، أو تحملها مع فائدتها الأصلية، والله أعلم.

المطلب الثاني : المشاكلة .

المشاكلة ذكرُ الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته¹.

ووجدت لها شاهداً في الكناية النبوية، قوله صلى الله عليه وسلم : ((أين المحترق؟)).

ففي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أتى رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد في رمضان، فقال: يا رسول الله، احترقت احترقت ! فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شأنه؟ فقال: أصبت أهلي. قال: ((تَصَدَّقْ)). فقال: والله يا نبي الله مالي شيءٌ وما أقدرُ عليه. قال: ((اجلس)). فجلس، فبينما هو على ذلك أقبل رجلٌ يسوق حمراً عليه طعام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أَيْنَ الْمُحْتَرَقُ آنِفًا))؟ فقام الرجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تَصَدَّقْ بِهَذَا)). فقال: يا رسول الله أغيرنا؟ فوالله إنا لجياع ما لنا شيءٌ. قال: ((فَكُلُّوهُ)).²

¹ - الإيضاح في علوم البلاغة ، القزويني ص 328.

² - البخاري في الحدود (من أصاب ذنباً دون الحد فأخبر الإمام فلا عقوبة عليه) 6822 ، ومسلم- واللفظ له- في الصيام (تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم) 1112 ، وأبو داود في الصوم (كفارة من أتى أهله في رمضان) 2394 .

ولا اختلاف في موضع الكناية .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه القصة فقال في حديثه: (هلكْتُ) بدل (احتترقت)، وفيه أن الرجل قال لما أُعطي الصدقة ليتصدق بها: ما بين لابتيتها أهل بيت أفقر من أهل بيتي . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابُه¹.

وفي حديث سلمة بن صخر البياضي رضي الله عنه أنه أوتي من جماع النساء ما لم يؤت غيره فلما جاء رمضان ظاهر من امرأته توثيقاً لعزمه ثم وقع عليها، وفي خبره أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يعتق رقبة فذكر أنه لا يملك غير رقبته وضرب بيده على صفحتها، فأمره بالصيام، فقال: وهل أصبتُ الذي أصبتُ إلا من الصيام. فأمره بالإطعام، فذكر أنهم طووا ليلتهم بغير عشاء .. الحديث².
ف قيل إن المحترق هو سلمة بن صخر وقيل غيره وأن حديث سلمة بن صخر في كفارة الظهار والمحترق في كفارة الصيام، وما جزم ابن حجر بشيء في هذا الأمر³.

والذي يعني حديث عائشة موطن الكناية أما الحديثان الآخران فيسهما في تصوير جو القصة واستحضارها، فقول الرجل: (احتترقت احتترقت) كناية عن

¹ - حديث أبي هريرة رواه البخاري في الصوم (إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتُصَدَّق عليه) 1936 ، ومسلم في الصيام (تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم) 1111 ، والترمذي في الصوم عن رسول الله (ما جاء في كفارة الفطر في رمضان) 2390 ، وأبو داود في الصوم (كفارة من أتى أهله في رمضان) 2390 ، وابن ماجه في الصيام (ما جاء في كفارة من أفطر يوماً من رمضان) 1671 .

² - حديث سلمة - أو سلمان - بن صخر رواه الترمذي وحسنه في تفسير القرآن عن رسول الله (ومن سورة المجادلة) 3299 ، وأبو داود في المناسك (باب في الظهار) 2213 ، وابن ماجه في الطلاق (باب في الظهار) 2062 ، والحاكم في المستدرک ، في الطلاق 221/2 ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وابن خزيمة في صحيحه في الزكاة (الرخصة في إعطاء الإمام المظاهر من الصدقة ما يكفّر به) 2378 .

³ - ينظر : فتح الباري 4 / 162 ، 164 .

الذنب الذي فعله إذ يلزم منه - في اعتقاده- أن يحترق في النار، فصَحَّ أن يكني عنه بالاحتراق .

وكرر الكلمة فظهر أنه ملهوف مستغيث، وهذا ظنه ومبلغ علمه، فما بال النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((أين المحترق)) ويعيد الكناية ذاتها؟ قال ابن حجر رحمه الله: "أثبت النبي صلى الله عليه وسلم له هذا الوصف إشارة إلى أنه لو أصرَّ على ذلك لاستحقَّ ذلك، وفيه دلالة على أنه كان عامداً"¹.

وذكر الإمام العيني نحوه²، ولم أر مزيداً عند غيرهما، والرجل قد تاب فعلام يثبت النبي صلى الله عليه وسلم له هذا الوصف؟ أقول: ظُفِرَ الرجل ظاهرٌ في الأحاديث الثلاثة، ففيها مجتمعة جلاء الصورة: هيئته حين طلع مستصرخاً (احتُرقت احتُرقت) ثم هيئته وهو يجيب النبي صلى الله عليه وسلم ويضرب بيده على رقبة نفسه أنه لا يملك غيرها، ثم هيئته حين طمِعَ وقيله (ما بين لابتيتها) الذي بات ديدنَ لسان الفقراء من أهل العلم اليوم، واللاعبة الحرة، قال الزمخشري: "أصله في المدينة وهي بين لابتين، ثم جرى على أفواه الناس في كلِّ بلدة"³.

فما زال الرجل ينتقل من عَجَبٍ إلى عجب حتى بلغ أن يُضحك النبي صلى الله عليه وسلم فتبدو أنيابه وقلما كان .

قال ابن حجر رحمه الله في هذه الفقرة من حديث أبي هريرة: "قل إن سبب ضحكك صلى الله عليه وسلم كان من تباين حال الرجل حيث جاء خائفاً على

¹ - فتح الباري 4 / 162 .

² - عمدة القاري 11 / 37.

³ - أساس البلاغة (لوب، 2 / 182).

نفسه راغباً في فداؤها مهما أمكنه فلمّا وجد الرخصة طمِع في أن يأكل ما أُعطيَه من الكفارة .

وقيل ضحك من حال الرجل في مقاطع كلامه وحسن تأتيه وتلطّفه في الخطاب وحسن توصّله في توصّله إلى مقصوده¹.

فأظن هذه الكناية (أين المحترق) أريد منها المشاكلة لحال الرجل ومقاله ومراعاة المستوى الفني في الخطاب، مع كونها حقّاً لا ريب فيه لأنها تعني أين الذي احترق في ظنه؟ أو أين الذي قال إنه احترق؟ والله أعلم.

المطلب الثالث: الموازنة الفنية

وتلك أن يكلم أحدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسلوب فنيّ (انحرافي) فيكون جواب النبي صلى الله عليه وسلم له فنيّاً كذلك، نحو قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة ((كُتِبَ عَلَيْكَ مَا كُتِبَ عَلَيْهِنَّ)) كنايةً عن الحيض جواباً لقولها: "لا أصلي".

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلّين بالحج في أشهر الحج وحُرِّم الحج، فنزلنا سرف فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: ((مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ فَأَحَبُّ أَنْ يَجْعَلَهَا عُمْرَةً فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلَا)). وكان مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجال من أصحابه ذوي قوة الهدْي فلم تكن لهم عمرة، فدخل علي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي فقال: ((مَا يُبْكِيكَ؟)). قلت: سمعتك تقول لأصحابك ما قلت فمُنعت العمرة. قال: ((وَمَا شَأْنُكَ؟)). قلت: لا أصلي! قال: ((فَلَا يَضُرُّكَ، أَنْتِ مِنْ بَنَاتِ آدَمَ، كُتِبَ عَلَيْكَ مَا كُتِبَ عَلَيْهِنَّ، فَكُونِي فِي حَجَّتِكَ، عَسَى

¹ - فتح الباري 4 / 171.

الله أَنْ يَرْزُقَكِهَا)). قالت : فكنيت حتى نَفَرْنَا مِنْ مَنَى، فنزلنا المحصَّب فدعا عبد الرحمن فقال: ((اُخْرُجْ بِأَخْتِكَ الْحَرَمَ، فَلْتَهْلَ بِعُمْرَةٍ، ثُمَّ افْرُغَا مِنْ طَوَافِكُمَا أَنْتَظِرْكُمَا هَاهُنَا)). فأتينا في جوف الليل فقال: ((فَرَعْتُمَا؟)). قلت: نعم . فنأدى بالرحيل في أصحابه فارتحل الناس ومن طاف بالبيت قبل صلاة الصبح ثم خرج موجهًا إلى المدينة.¹

هذه رواية البخاري من طريق أفلح بن حميد عن القاسم عن عائشة، وثمة روايات أخرى ذكرتها في تخريج الحديث فيها التصريح بالحيض دون الكناية، وهي في الصحيحين وغيرها من طريق عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة، والمخرجان صحيحان وعبد الرحمن أجل² لكن رواية أفلح فيها من التفصيل ما يربو على الروايات عن عبد الرحمن التي درأت على مسألة الحكم الفقهي المتعلق

¹ - أخرجه الستة، وهذا لفظ البخاري في الحج (المعتمر إذا طاف طواف العمرة ثم خرج ..)

1788، عن الفضل بن دكين عن أفلح بن حميد عن القاسم بن محمد عن عائشة .

وروي الحديث مختصراً فيه التصريح بلفظ الحيض وبغير (كتب عليك ما كتب عليهن) من طرق عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة عند البخاري في الحيض (كيف كان بدء الحيض) 294 ، ومسلم في الحج (بيان وجوه الإحرام) 1211 ، والنسائي في الطهارة (ما تفعل المحرمة إذا حاضت) 290 ، وأبو داود في المناسك (في أفراد الحج) 1782 ، وابن ماجه في المناسك (الحائض تقضي المناسك إلا الطواف) 2963 .

ورواه الترمذي في الحج عن رسول الله (ما جاء ما تقضي الحائض من المناسك) 945 مختصراً جداً من طريق عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه عن عائشة ليس فيه لفظ النبي صلى الله عليه وسلم .

² - تظهر فضيلته بالمقارنة بين ترجمتيهما في تقريب التهذيب ، لابن حجر ، ففي ترجمة أفلح بن حميد الأنصاري النجاري المدني (114/1) : "ثقة من السابعة مات سنة ثمان وخمسين ، وقيل بعدها/ خ م د س ق" وفي ترجمة عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، التيمي المدني (348 /2) : " ثقة جليل قال ابن عيينة : كان أفضل أهل زمانه، من السادسة، مات سنة ست وعشرين وقيل بعدها /ع".

بالحائض فيحتمل أن عبد الرحمن سَمَّى الأشياء بأسمائها، والمظنون مما تُخبر من أمر النساء وما طُبعن عليه من الحياء قديماً وحديثاً أنهن يَكْنين عن الحيض عندما يُخبرن أزواجهن به، وكذلك الرجال لا يَجْبهون زوجاتهن بالسؤال عنه بلفظه، والله أعلم.

والشاهد في رواية أفلح قوله صلى الله عليه وسلم: ((كُتِبَ عَلَيْكَ مَا كُتِبَ عَلَيْهِنَّ...)) إذ لم أعثر على كلامٍ في بيان وبلاغة هذه الكلمة، مع أن الإمام العيني قال في كلمة عائشة رضي الله عنها (لا أصلي): "كناية عن الحيض، وهي من ألطف الكنايات"¹.

قلت: ألطف منه جواب النبي صلى الله عليه وسلم لها، وكنايته عن الحيض باسم الموصول وصلته، ويعدُّ هذا من الموازنة الفتيّة أن لو صرّحت بالحيض لصرح به ولكنها كنّت فكنتي، مع ما في كنايته من المواساة لها بعموم البلوى بهذا في بنات جنسها، فعوّضها النبي صلى الله عليه وسلم من فائدة فائدتين، وردّها لها صاع البلاغة صاعين .

المطلب الرابع: التخصيص والاحتراز

حيث لا يبدو للكناية وجه معنوي غيرهما، كحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: ((نِسَاءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ أَخْنَاهُ عَلَى طِفْلٍ وَأَزْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ)) يقول أبو هريرة على إثر ذلك: ولم تركب مريم بنت عمران بغيراً قط².

¹ - عمدة القاري 10 / 177.

² - أخرجه الشيخان، وباللفظ المذكور رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (قوله تعالى : إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك ...) 3434 ، معلقاً على ابن وهب عن يونس عن الزهري عن

قال الإمام النووي: "ومعنى (ركبن الإبل) نساء العرب؛ ولهذا قال أبو هريرة في الحديث: لم تركب مريم بنت عمران بغيراً قط. والمقصود أن نساء قريش خير نساء العرب، وقد عُلِمَ أن العربَ خيرٌ من غيرهم في الجملة، وأمّا الأفراد فيدخلُ بها الخصوص" ¹.

وصرح العيني والمناوي بأن (ركبن الإبل) كناية عن نساء العرب ².
فبالكناية أخرج أبو هريرة مريمَ بنت عمران من هذه المقارنة، واستثناؤه لها بهذه الصورة لا يفيد الحصر بل يمكن استثناء غيرها أيضاً كآسية امرأة فرعون ³، وسبق أن مراكبهم في مصر والشام كانت الحمير والبغال ولم تكن الإبل ⁴.
فالغاية من هذه الكناية التخصيص بالعربيّات، والاحتراز عن غيرهن ممن عُلِمَت فضيلتهن، وكذا فهمَ راوي الحديث أبو هريرة رضي الله عنه.

المطلب الخامس : التهوين .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما قُتِلَ أبي جعلتُ أكشف الثوب عن وجهه أبكي وينهوني عنه والنبي صلى الله عليه و سلم لا ينهاني،

سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ، ووصله مسلم عن حرملة بن يحيى عن ابن وهب ، في فضائل الصحابة (من فضائل نساء قريش) 2527.

ورواه البخاري في النفقات (حفظ المرأة زوجها في ذات يده) 5365 من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ، بنحوه ليس فيه قوله الأخير .

¹ - شرح النووي على مسلم 16 / 80 .

² - ينظر : عمدة القاري 16 / 36؛ فيض القدير 3 / 492.

³ - أخرج البخاري قبل حديث أبي هريرة في الباب نفسه حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يرفعه : ((فَضُلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ، كَمَلِ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ)) .

⁴ - في الفصل الثالث ص 233.

فجعلت عمّي فاطمة تبكي فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((تَبْكِينَ أَوْ لَا تَبْكِينَ مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ))¹ .

هذه رواية البخاري من طريق شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر، ورواية مسلم من هذا الطريق جاءت بصيغة الغائب (تبكيه أو لا تبكيه).

ورواية البخاري ونحوها عند مسلم من طريق سفيان بن عيينة عن ابن المنكدر قال: ((فَلَمْ تَبْكِي أَوْ لَا تَبْكِي فَمَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ))².

والنتيجة أن الروايات عن شعبة فيها التخيير وعن سفيان فيها الشك .
فحمل القاضي عياض التخيير على الشك وقال في (تبكين أو لا تبكين):
"قد يكون هذا شكاً من الراوي في أي الكلمتين قال، أو يكون على طريق التسوية للحالين... والأول أظهر"³.

وحمله النووي على وجهه من التسوية، فقال: "معناه سواء بكت عليه أم لا فما زالت الملائكة تظله، أي فقد حصل له من الكرامة هذا وغيره، فلا ينبغي البكاء على مثل هذا، وفي هذا تسوية لها"⁴.

وقال ابن حجر: "تبكين أو لا تبكين للتخيير، ومعناه أنه مُكْرَمٌ بصنيع الملائكة وتزاحمهم عليه لصعودهم بروحه، ويحتمل أن يكون شكاً من الراوي"¹.

¹ - البخاري في الجنائز (الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه) 1244 ،
ومسلم في فضائل الصحابة (من فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر) 2471 ،
والنسائي في الجنائز (في البكاء على الميت) 1845 .

² - البخاري في الجنائز (ما يكره من النياحة على الميت) 1293 ، ومسلم في فضائل
الصحابة (من فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر) 2471 ، والنسائي في الجنائز
تسجية الميت) 1842 .

³ - مشارق الأنوار 1 / 101.

⁴ - شرح النووي على مسلم 16 / 25 .

وجزم العيني بالتخير على معنى التسوية، فقال: "كلمة (أو) ليست هي للشك من الراوي بل هي من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم للتسوية بين البكاء وعدمه أي فوالله إن الملائكة تظله سواء تبكين أم لا"².

ومع صحة الروايات بالنهي، فإن رواية التخير هذه أبلغ الروايات ولعل سائرهما كان بالمعنى، وتفضل عليهن بالكناية ذلك أن التخير هنا كناية عن التسوية، والتسوية عن انعدام قيمة الفعل، والمعنى ليس بكأوك بذي قيمة ولا يعول عليه ولا يؤثر سلباً ولا إيجاباً وقد حقت للشهيد أبي جابر الكرامة وحفاوة الملائكة به .

فهو صلى الله عليه وسلم يهون من شأن بكائها ومن مصيبتها بأسلوب كنائي لطيف جارٍ عند العرب ومؤثر في نفوس المتلقين أعظم الأثر، وفي شعر حسان يخاطب المشركين من هجا منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء³

أي سواء منكم من يهجو ومن يمدحه، أي لا قيمة لكم ولا اعتبار ولا وجود، وهذا من أبلغ التهوين وأفضعه، لا يحسن إلا هذا وليس بجيدٍ تحريجه على الاستفهام الإنكاري بمعنى: هل يستوي من يهجو رسول الله منكم ومن يمدحه (منكم أو منا)⁴؟ هذا في البلاغة دون الأول وأقرب إلى المباشرة والسطحية، والله أعلم.

¹ - فتح الباري 3 / 116.

² - عمدة القاري 8 / 25.

³ - ديوان حسان بن ثابت 1 / 18.

⁴ - ممن خرجه على هذا المعنى ابن السراج في الأصول في النحو 2 / 177.

المطلب السادس : المواساة .

روى الشَّعْبِي عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأضحى بعد الصلاة، فقال: ((مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَنَسَكَ نُسُكَنَا فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ ، وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ قَبْلَ الصَّلَاةِ وَلَا نُسُكَ لَهُ)). فقال أبو بُرْدَةَ بن نِيَارٍ خالُ البراء: يا رسول الله، فإني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليومَ يومٌ أَكَلٍ وشربٍ وأحببت أن تكون شاتي أَوَّلَ ما يُذْبَح في بيتي، فذبحت شاتي وتغديتُ قبل أن آتي الصلاة. قال: ((شَاتُكَ شَاةٌ حَمٍ)) قال: يا رسول الله، فإن عندنا عَنَاقاً لنا جَدَعَةٌ هي أَحَبُّ إِلَيَّ من شاتين، أَفَتَجْزِي عني؟ قال: ((نَعَمْ وَلَكِنْ تَجْزِي عَنْ أَحَدٍ))¹.

والعَنَاق ولد المعز، والحكم محلُّ إجماع، قال ابن رشد: "فإنهم أجمعوا على أنه لا يجوز الجذع من المعز بل الثنيُّ فما فوقه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام لأبي بردة لما أمره بالإعادة: يجزيك، ولا يجزي جذعٌ عن أحد غيرك"².

والقضية في قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((شَاتُكَ شَاةٌ لَحْمٍ)) أي لحمٍ لك تنتفع به³، وكوئُها شَاةٌ لحم يردف عدمَ قبولها أضحيةً فهي كناية عنه .

والسؤال: ما الغرض من هذه الكناية ؟

قيل إن أبا بردة لما اعتقد أن شاته شاة أضحيةٍ أوقع صلى الله عليه وسلم في الجواب قوله (شاة لحم) موقع قوله (شاة غير أضحية)¹.

¹ - البخاري في الجمعة (الأكل يوم النحر) 955 ، ومسلم في الأضاحي (وقتها) 1961 ، والترمذي في الأضاحي عن رسول الله (ما جاء في الذبح بعد الصلاة) 1508 ، والنسائي في صلاة العيدين (ذبح الضحية قبل الإمام) 1563 ، وأبو داود في الضحايا (ما يجوز من السن في الضحايا) 2801 .

² - بداية المجتهد 348 / 1 ، وينظر : حاشية ابن عابدين 9 / 466 ؛ حاشية البجيرمي على الخطيب 4 / 279 ؛ الشرح الكبير ، ابن قدامة 3 / 535 ، مع الإشارة إلى اختلافهم في سرِّ الثني من الماعز .

³ - ينظر: فتح الباري، ابن حجر 10 / 13 ؛ عمدة القاري ، العيني 6 / 403 .

وأحسب أن المراد مواساةً أبي بردة والتلطّف برّد أضحيتّه أبلغ تلطّف وأحسنه بإخباره أن شأته شاة لحم، وهذا يعني أن منفعتها لم تبطل بالكلية وأن أصل المنفعة وهو اللحم باقٍ وإنما فسد وصف الأضحية، وجوّ الحديث يشي بهذه المواساة في الكناية أولاً، ثم في الترخيص له بذبح العناق، والله أعلم .

المطلب السابع : التأكيد

ومثاله الكناية (تخطفنا الطير) .

فقد روى الإمام البخاري وأبو داود من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: جعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرّجالة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلاً - عبد الله بن جبير، فقال: ((إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ)). فهزموهم، قال: فأنا والله رأيتُ النساء يشتدّدن قد بدت خلاخلهنّ وأسوقهنّ رافعاتٍ ثيابهنّ، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة! ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قالوا: والله لنايتنّ الناسَ فلنُصيبنّ من الغنيمة. فلما أتوهم صُرِفَتْ وجوههم فأقبلوا منهزمين ...²

وروى الإمام أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الحديث في قصة غزوة أحد وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للرماة:

¹ - ينظر: فتح الباري، ابن حجر 10 / 13.

² - البخاري في الجهاد والسير (ما يكره من التنازع والاختلاف ...) 3039 ، وأبو داود في الجهاد (في الكمناء) 2662 .

وعزاه الإمام السيوطي في الخصائص الكبرى (ص361) للإمام النسائي دون أبي داود ، ولم أعر عليه في الصغرى لكنه في الكبرى في التفسير (سورة آل عمران) 11079 .

((اَحْمُوا ظُهُورَنَا فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقَتِّلْ فَلَا تَنْصُرُونَا وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تَشْرِكُونَا))¹.

¹ - أخرجه الإمام أحمد في المسند ، مسند بني هاشم (مسند ابن عباس) 2604 ، والحاكم في المستدرک ، کتاب التفسیر (سورة آل عمران) 324/2 ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

وجميع رجاله ثقات إلا عبد الرحمن بن أبي الزناد بن ذكوان المدني البغدادي "صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد وكان فقيهاً من السابعة ولي خراج المدينة فحُمِد .../ خت م 4" تقريب التهذيب ، ابن حجر (2/340). ورواية مسلم له في المقدمة (في أن الإسناد من الدين) 30، عن أبيه موقوفاً وذلك قوله : "أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمونٌ ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهله".

فيقال إنه أتى في بغداد من قبل الرواة عنه، وعن علي بن المديني: ما حدثت بالمدينة فهو صحيح وما حدثت ببغداد أفسده البغداديون، وعنه أيضاً : حديثه بالمدينة مقارب وما حدث به بالعراق فهو مضطرب، قال : وقد نظرت فيما روى عنه سليمان بن داود الهاشمي فرأيتها مقاربة .
وتكلم أيضاً في روايته عن أبيه، طعن بها الإمام مالك لإغرابه فيها . ينظر : تهذيب الكمال، المزي 99/17.

وذكره ابن رجب رحمه الله فيمن ضَعَف حديثه في بعض الأماكن دون بعض. شرح علل الترمذي 605/2 ، 606 .

والذي قاله ابن المديني عن سليمان بن داود احترازٌ واستثناء له من البغداديين ، قال ابن حجر: "سليمان بن داود بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس، أبو أيوب البغدادي الهاشمي، الفقيه ثقة جليل، قال أحمد بن حنبل : يصلح للخلافة، من العاشرة مات سنة تسع عشرة وقيل بعدها/ ع 4 " تقريب التهذيب 251/1 .

فحديث ابن أبي الزناد هاهنا تجاذبه أمران :
الأول: أن الراوي عنه بغدادي ولكنه سليمان بن داود الثقة الجليل ، فلا ضير .
والثاني: أن روايته فيه عن أبيه ، وتكلم بها الإمام مالك ، والله أعلم .
ورأيت الإمام الذهبي يقرّ الحاكم على تصحيح حديثه في مواضع كثيرة منها هذا الموضع ، وعلى كلٍّ فلا يقوم لإسناد البخاري عن البراء بن عازب .

والأول أصحّ إسناداً، ويفضل عن الثاني بأن البراء شهد المعركة وهو قوله في الحديث : فأنا والله رأيت النساء يشتددن ... ، أما ابن عباس رضي الله عنه فقد رُوِيَ له فرواها وهذا لا يضر في الصحة¹، لكن يقوي احتمال أنه روى بالمعنى وأن البراء روى باللفظ.

ثمّ إذا ترجّح حديث البراء على حديث ابن عباس بالنظر إلى الإسناد فسنرجع إلى المقارنة بينهما في المستوى البلاغي، والبلاغة في حديث البراء أظهر حين قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن رأيتُمونا تخطفنا الطير)) فاعتبرها برواية ابن عباس: ((إن رأيتُمونا نُقتل)) تجد الفرق بيّناً. والخطف الاستلاب بخفة².

قال الإمام الخطابي: "قوله (يخطفنا الطير) مثل، والمعنى: إن رأيتُمونا قد انهزمنا وولّينا فلا تبرحوا. يقال: فلان ساكن الطير وواقع الطير إذا كان هادئاً وقوراً، وضرب المثل بالطير؛ لأنه لا يقع إلا على الشيء الساكن، ويقال للإنسان إذا طاش وأسرع قد طار طيره"³.

وقال ابن الأثير في الجامع: "تمثيلٌ لشدة ما يُتوقع أن يلقاه، أي: لو رأيتُمونا وقد أخذتنا الطير وأعدمتنا من الأرض فلا تبرحوا مكانكم"⁴.

¹ - لأنه مرسل صحابي محكوم باتصاله على المذهب الصحيح الذي سارت عليه جماهير العلماء. ينظر: المنهل الروي، بدر الدين بن جماعة ص 45؛ التقييد والإيضاح، زين الدين العراقي ص 75؛ الإيضاح في علوم الحديث والاصطلاح، د. مصطفى الخن، د. بديع السيد اللحام ص 142، 143.

والحديث في مغازي النبي صلى الله عليه وسلم فرواية ابن عباس فيه عن الصحابة، لا ريب في ذلك .

² - مقاييس اللغة، ابن فارس (خطف، 2 / 196).

³ - غريب الحديث ، الخطابي 1 / 114.

⁴ - جامع الأصول في أحاديث الرسول 8 / 235.

وقال في النهاية: "أي تَسْتَلِبُنَا وتطير بنا وهو مبالغة في الهلاك"¹.

ويظهر لي أن المثل الذي طلبه ابن الأثير غير المثل الذي طلبه الخطابي، فالخطابي لم يرد أخذ الطير لهم بل الهزيمة والهلع الذي يصيبهم حتى يشبه حالهم حال الطائش طائر الطير زائل الوقار، الذي يُزَعِجُ الطيرَ بحركته فلا تسكن إليه، وعلى هذا يتنزل مثل الخطابي: فلان طار طيره إذ أسرع وطاش .

ومراد ابن الأثير أن تأخذهم الطير وتزيلهم عن وجه الأرض فهو تخيل لما يمكن أن يقع، وحكى الإمام العيني عن الداودي نحوه².

وعليه فإن المصطلح الأمثل لهذه الحال هو الكناية، ومنهم من صرح بها، قال شمس الحق آبادي رحمه الله: "(تخطفنا الطير) كناية عن الهزيمة والقتل"³.

والأمر كما قال، فإن الجيش إذا هُزم وتناثر قتلاه تناهبَتهم الطير غالباً فصَحَّ أن يُكنى به، والطير لا تنتهب الأشلاء حتى ينصرف عنها العدو المنتصر وتخلو لها الأجواء، فيكون نهي النبي صلى الله عليه وسلم للرماة ألا يرحوا بهذه الكناية أقوى وأعظم تأكيداً وأشدَّ تحريجاً وأبلغ في إعدارهم وإقامة الحجة عليهم، فينبغي ألا يزولوا عن مواضعهم بأي احتمالٍ وأية حالٍ ولو هُزِمَ المسلمون ولو قُتِلوا ولو انصرف العدو وأقبلت الطيور ترتع في الجثث وتنافس في سرقتها حتى يأتِيهم الأمر من النبي صلى الله عليه وسلم! ثم كان ما كان من قدر الله سبحانه وتعالى.

فهذا الوجه أقرب مما قاله الإمام الخطابي رحمه الله، وليس لكلمة (تخطفكم) منزلٌ يصلح في كلامه، والله أعلم .

بقي شيء من روح التأكيد في هذه الكناية ولعله كلُّ روحها؛ أنها صورة فنية تقوم على التقديم الحسي للمعنى على نحو ما مرّ في بحث التجسيم، ثم هو تقديم

¹ - النهاية في غريب الحديث (خطف ، 2 / 49) .

² - ينظر عمدة القاري 14 / 392 .

³ - عون المعبود 7 / 232.

مرتکز على الطبيعة والبيئة معاً فالطير من الطبيعة الحیة المتحركة التي تأنس بها النفس في الجملة كشيء يوحى بالعلو والحرية والنشاط، ولكنه إذا اقترن بالحرب دلّ على الفتك واستحرار القتل وثمّ البيئة وما تثيره من التداعيات والذكريات في هذا الشأن، فإنه من المعاني الراسخة عند العرب، توارثه الشعراء وتنافسوا فيه وقلّ كتاب من أمهات البلاغة والنقد إلا وخصّه بالدرس¹.

فقد غلب عليه في الجاهلية النابغة الذبياني فقال:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهدي بعصائب²

ثمّ من الإسلاميين حميد بن ثور رضي الله عنه:

إذا ما غدا يوماً رأيت غمامةً من الطير ينظرون الذي هو صانع³

ثم غلب عليه أبو نواس فقال:

تتأيا الطير غدوته ثقةً بالشّبع من جَزْرة⁴

واستحسنوا قول أبي تمام:

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحىً بعقبان طير في الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تُقاتل⁵

والشاهد أن هذه الصورة من وقوع الطير في القتلى بعد جلاء المعركة تحوّلت إلى كناية ثابتة ومديح رصين لا يكاد شاعرٌ من مدحة الملوك يُخلي ممدوحه منه وبه يتبيّن أثر هذه الكناية التي استعملها النبي صلى الله عليه وسلّم والتأكيد الذي تقرّره في نفوس المتلقين، والله أعلم .

¹ - ينظر : كتاب الصناعتين، العسكري ص 225؛ دلائل الإعجاز ، عبد القاهر ص 384 .

² - ديوان النابغة الذبياني ص 57، ويروى : (أبصرت فوقهم) بدل (حلق فوقهم).

³ - ديوان حميد بن ثور ص 106.

⁴ - ديوان أبي نواس 1/ 500. والمعنى : تنتظر الطير مسيره للحرب ثقة بما سيتركه لها منتصراً

من قتلى وأشلاء .

⁵ - ديوان أبي تمام 2/ 40.

الفصل السادس

أثر الكناية النبوية في الاستنباط

المبحث الأول: تأصيل الاستنباط الكنائي

المطلب الأول: تعريف الاستنباط

المطلب الثاني: أنواع الاستنباط من النصوص

المطلب الثالث: اعتبار النبي صلى الله عليه وسلم للاستنباط الكنائي

المطلب الرابع: تأثير الاستنباط الكنائي في أصل التكليف

المطلب الخامس: طرق التأثير الكنائي في الاستنباط

المبحث الثاني: أثر الكناية النبوية في الاستنباط العقدي

المطلب الأول: الكناية ونزول عيسى عليه السلام

المطلب الثاني: الكناية وخلق أفعال العباد

المطلب الثالث: الكناية وقانون الأسباب والمسببات

المبحث الثالث: أثر الكناية النبوية في الاستنباط الفقهي والأخلاقي

المطلب التمهيدي: تعريف الفقه والأخلاق والصلة بينهما

المطلب الأول: أثر الكناية في الاستنباط حين لا تتعين

المطلب الثاني: أثر الكناية في الاستنباط حين تتعين ثم يختلف توجيهها

المبحث الرابع: أثر الرواية بالمعنى في الاستنباط الكنائي

المطلب الأول: الرواية بالمعنى والاحتجاج بالحديث في اللغة

المطلب الثاني: نماذج من تحيّر اللفظ وتأثيره في الاستنباط

المبحث الأول

تأصيل الاستنباط الكنائي

هذا الفصل "أثر الكناية النبوية في الاستنباط" بمباحثه الأربعة ثمرة لما تقدّمه من مباحث، ولا يجوز قطع الشجرة لجني الثمرة، بمعنى أنه لا يمكن الانتفاع بهذا الفصل على الوجه المستحسن ما لم تتم القراءة المتأنيّة لما سبق من مباحث الأطروحة حيث أُصِلت الكناية ونُفي عنها ما كان يلتبسُ بها ودُرست خصائص اللون والحركة والبيئة والطبيعة والتصوير وصلة كلٍّ منها بالزوم الكنائي الذي يقوم عليه فصل الاستنباط الآن، وأبدأ هذا الفصل بتأصيل الاستنباط الكنائي في خمسة مطالب تشمل تعريف الاستنباط، وأنواعه، واعتبار الشارع للاستنباط الكنائي، وتأثير الاستنباط الكنائي في أصل التكليف، ثم في طرق التأثير الكنائي في الاستنباط على العموم.

المطلب الأول: تعريف الاستنباط

الاستنباط لغةً: استخراج الماء من الأرض، فالنون والباء والطاء كما يقول ابن فارس: "كلمة تدلُّ على استخراج شيء. واستنبطُ الماء: استخرجته، والماء نفسه إذا استُخرجَ نَبَطٌ. ويقال: إِنَّ النَّبَطَ سُمُّوا به لاستنباطهم المياه"¹.

واصطلاحاً: استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن وقوة القرينة².

قال علاء الدين البخاري (-730هـ): "في العدول عن لفظ الاستخراج إلى لفظ الاستنباط إشارة إلى الكلفة في استخراج المعنى من النصوص التي بها

¹ - مقاييس اللغة (نبط، 5 / 381) ؛ وانظر : لسان العرب، ابن منظور (نبط، 7 / 410).

² - ينظر : قواطع الأدلة في الأصول ، أبو المظفر السمعاني 2 / 92؛ التعريفات ، الجرجاني ص 38. والمنقول لفظه .

عُظِّمَتْ أَقْدَارُ الْعُلَمَاءِ وَارْتَفَعَتْ دَرَجَاتُهُمْ، فَإِنَّهُ لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسَ كُلَّهُمْ¹،
وَالِىَّ أَنَّ حَيَاةَ الرُّوحِ وَالِدِّينَ بِالْعِلْمِ وَالْغَوْصِ فِي بَحَارِهِ كَمَا أَنَّ حَيَاةَ الْجَسَدِ وَالْأَرْضِ
بِالْمَاءِ².

وَالْأَصْلُ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ
الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) {النساء: 83}

قال الإمام الطبري (-310هـ): "وكلُّ مستخرجٍ شيئاً كان مستتراً عن أبصار
العيون أو عن معارف القلوب، فهو له مُسْتَنْبِطٌ، يقال: استنبطتُ الرُّكْبَةَ إذا
استخرجتُ ماءها"³.

وقال أبو جعفر النحاس (-338هـ): "العلمه الذين يستنبطونه منهم: أي
يستخرجونه. يقال: نبطتُ البئرَ إذا أخرجت منها النبط وهو ما يخرج منها. ومن
هذا سمي النبط لأنهم يخرجون ماء في الأرض"⁴.

فيحتمل أن لفظ الاستنباط حقيقة في كلِّ استخراج ومنه استخراج المعاني
واستخراج الماء، ويحتمل أن يكون حقيقةً في استخراج الماء وحده، فيكون
استنباط المعاني استعارة على التشبيه باستنباط الماء، والله أعلم .

¹ - هذا صدر بيت للمتنبّي ، وقامه :

لولا المشقّة ساد النَّاسُ كُلُّهُمْ الجود يُفَقِّرُ والإقدام قَتْلُ

ينظر : ديوان المتنبّي 287/3، والمعنى ظاهر .

² - كشف الأسرار عن أصول البزدوي 1 / 35.

³ - تفسير الطبري 8 / 571 .

⁴ - معاني القرآن 2 / 141.

المطلب الثاني: أنواع الاستنباط من النصوص

النصوص في بحثنا هي من كنايات النبي صلى الله عليه وسلم باعتبارها موضوعاً مستقلاً للاستنباط، أو مؤثراً في الاستنباط من السياق التي هي فيه. والاستنباط منها قد يكون عقدياً أو فقهيّاً أو أخلاقياً .

ذلك أن الفقه في الأصل هو فهم غرض المتكلم من كلامه. ثم بدأ اصطلاحه من هذه القاعدة عريضاً يشمل¹:

- الاعتقادات كوجوب الإيمان ونحوه، وهو علم الكلام أو التوحيد أو العقائد.

- والوجدانيات، أي: الأخلاق الباطنة والملكات النفسانية كالتواضع وحب الخير وحرمة الكبر والحسد، وهو علم الأخلاق أو السلوك أو التصوف.

- والعمليات كالعبادات والمعاملات ونحوها من الأحكام الشرعية الفرعية العملية، وهي التي سميت بعدُ بالفقه.

فهذه أنواع الفقه التي تُستنبط من النصوص وللكناية مدخل في جميع هذه الأنواع كما سيأتي.

المطلب الثالث: اعتبار النبي صلى الله عليه وسلم للاستنباط

الكنائي.

فائدة هذا المطلب أن يكون للاستنباط الكنائي قدوةً وسابقةً يُحتذى بها ويُتَّكَأ عليها، وإن لم تكن في الأصل شرطاً له؛ إذ الكناية من كلام العرب ولا يحصل بها انتفاع ما لم تكن محلّ استنباط .

¹ - ينظر: أبعاد العلوم، صديق حسن القنوجي 2 / 400.

ومرّ معنا في الفصل الأول تنويه النبي صلى الله عليه وسلم بالكناية بلفظها قبل أن يُصطلح على تخصيص عمومها اللغوي بلازم وملزوم¹، واستفدنا منه آنذاك اعتبار النبي صلى الله عليه وسلم للكناية على عمومها .

فالآن نسوق مثالا عمليا يدل على اعتباره الكناية وفق مصطلحها وجعلها موضع استنباط، وأتعمّد في المثال المختار أن يكون اللزوم فيه بيئياً عرفياً؛ لأنه إذا صلح للمقصود صلحت له الكنايات الطبيعية بالأولى إذ اللزوم فيها أقوى كما سبق بيانه².

فلو أن رجلاً ابتدأ مسلماً، فقال: عليك السلام، بتأخير لفظ السلام كان هذا كناية عن اعتقاده بموت المسلم عليه، وكذلك هي عند العرب كانوا إذا سلّموا على الميت قالوا: عليك السلام، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن السلام على الحي بهذه الهيئة. وفي حديث جابر بن سليم رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: عليك السلام يا رسول الله! فقال: ((لَا تَقُلْ عَلَيْكَ السَّلَامُ؛ فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّلَامُ تَحِيَّةَ الْمَوْتَى))³.

قال الإمام القرطبي: "قوله (عليك السلام تحية الميت) يعني أنه الأكثر في عادة الشعراء، كما قال:

¹ - ص 8.

² - في مبحث علاقة الكناية بالبيئة في الفصل الرابع ص 305.

³ - الترمذي في الاستئذان والآداب عن رسول الله (ما جاء في كراهية أن يقول عليك السلام مبتدئاً) 2721، من طريق أبي تيممة الهجيمي عن رجل من قومه، وفي 2722 عن أبي تيممة عن أبي جريّ جابر بن سليم، وقال: حسن صحيح.

والنسائي في الكبرى، عمل اليوم والليلة (كيف السلام) 10149، وأبو داود في الأدب (كراهية أن يقول عليك السلام) 5209، وفي اللباس (ما جاء في إسبال الإزار) 4084.

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا¹
 لَا أَنَّ ذَلِكَ اللَّفْظَ هُوَ الْمَشْرُوعُ فِي حَقِّ الْمَوْتَى؛ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ
 سَلَّمَ عَلَى الْمَوْتَى كَمَا سَلَّمَ عَلَى الْأَحْيَاءِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ
 مُؤْمِنِينَ²3.

¹ - لِعَبْدَةِ بْنِ الطَّبِيبِ فِي رِثَاءِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ الْمَنْقَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فِي قِطْعَةٍ مَشْهُورَةٍ رَوَاهَا
 أَبُو تَمَامٍ فِي الْحِمَاسَةِ 461/1، وَهِيَ فِي شَعْرِ عَبْدِ بْنِ الطَّبِيبِ، د. يَحْيَى الْجُبُورِي ص 87.
 وَقَدْ كَانَ شَعْرُهُ وَصَلَ إِلَيْنَا مُتَفَرِّقًا. يَنْظُرُ : تَارِيخُ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، الْمَجْلَدُ الثَّانِي، فَوَادِ سَرْكِين
 185/2 .

² - رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ : مُسْلِمٌ فِي الْجَنَائِزِ (مَا يُقَالُ عِنْدَ دُخُولِ الْقُبُورِ
 وَالِدَعَاءٍ لِأَهْلِهَا) 974 ، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْجَنَائِزِ (الْأَمْرُ بِالِاسْتِغْفَارِ لِلْمُؤْمِنِينَ) 2039 ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي
 الْجَنَائِزِ (مَا يَقُولُ إِذَا زَارَ الْقُبُورَ أَوْ مَرَّ بِهَا) 3237، وَابْنُ مَاجَهَ فِي مَا جَاءَ فِي الْجَنَائِزِ (مَا جَاءَ فِيهَا
 يُقَالُ إِذَا دَخَلَ الْمَقَابِرَ) 1546 .

وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا ؛ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَحْيَاهُمْ لِنَبِيِّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ،
 أَوْ أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ مُخْصِصًا بِمَنْ يَرَى أَنَّهَا تَحْيَا الْمَوْتَى وَبِمَنْ يَتَطَيَّرُ بِهَا مِنَ الْأَحْيَاءِ؛ فَإِنَّهَا
 كَانَتْ عَادَةً جَاهِلِيَّةً وَجَاءَ الْإِسْلَامُ بِخِلَافِ ذَلِكَ .

وَيُرَدُّ عَلَى الْإِحْتِمَالِ الْأَوَّلِ (إِحْتِمَالِ الْخُصُوصِيَّةِ) بِحَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَّمَهَا كَيْفَ تَسَلِّمُ عَلَى أَهْلِ الْبَقِيعِ، فَقَالَ: ((قُولِي : السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ)). مُسْلِمٌ فِي الْجَنَائِزِ (مَا يُقَالُ عِنْدَ دُخُولِ الْقُبُورِ وَالِدَعَاءٍ لِأَهْلِهَا) 974 ،
 وَالنَّسَائِيُّ فِي الْجَنَائِزِ (الْأَمْرُ بِالِاسْتِغْفَارِ لِلْمُؤْمِنِينَ) 2073 .

ذَكَرَهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ 6 / 11 ، وَنَقَلَ عَنِ الْقُرْطُبِيِّ أَنَّهُ قَالَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَدِيثُ عَائِشَةَ
 لِمَنْ زَارَ الْمَقْبَرَةَ فَسَلَّمَ عَلَى جَمِيعٍ مِنْهَا، وَحَدِيثُ ابْنِ جُرَيْجٍ إِثْبَاتًا وَنَفْيًا فِي السَّلَامِ عَلَى الشَّخْصِ
 الْوَاحِدِ.

وَقَدْ كُنْتُ أَلْحَظُ مَرَارًا مِنْ صَنِيعِ الْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا قَالَ : (الْقُرْطُبِيُّ) فَيَعْنِي
 الْمُحَدِّثَ صَاحِبَ الْمَفْهَمِ وَكَثِيرًا مَا يَنْقُلُ عَنْهُ. لَكِنِّي لَمْ أَجِدْ هَذَا النَّصَّ عِنْدَهُ ، وَوَجَدْتُهُ فِي تَفْسِيرِ
 الْقُرْطُبِيِّ الْجَامِعِ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ (301/5) ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

³ - الْمَفْهَمُ 484/5.

وفائدة النهي الكراهة، كما ذكر القاضي عياض والإمام النووي وغيرهما¹.
والسبب أنّ هذا القول كان كناية عن الموت فإنه كان يلزم عند العرب من
اعتقاد المرء موت صاحبه أن يقول راثياً له: عليك السلام. فاعتبرها النبي
صلى الله عليه وسلم، ونهى عن ابتداء الحيّ بها، والله أعلم .

المطلب الرابع : تأثير الاستنباط الكنائي في أصل التكليف

بحسب الكناية من الاستنباط دخولها في أصل التكليف في بيان من هو
المكلف من المسلمين.

فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((رُفِعَ الْقَلَمُ
عَنْ ثَلَاثٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ
حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفِيْقَ))².

¹ - إكمال المعلم شرح صحيح مسلم 7/ 41، وقال الإمام النووي في شرحه على صحيح
مسلم 14/140: "إن قاله استحقّ الجواب على الصحيح المشهور. وقيل: لا يستحقّه". وهو ما
أكده أيضاً في المجموع 4/502، وفي الروضة 4/17 أنه تسليم مع كراهته يجب فيه الرد .
والأكثرون على أنه ليس بسلام :

ينظر : حاشية ابن عابدين 9/ 596 ؛ المغني ، ابن قدامة 1/ 626. هذا مع اتفاقهم جميعاً
على الكراهة فيه.

² - النسائي في الطلاق (من لا يقع طلاقه من الأزواج) 3432 ، وأبو داود في الحدود (في
المجنون يسرق أو يصيب حداً) 4398 ، وابن ماجه في الطلاق (طلاق المعتوه والصغير والنائم)
2041 . وابن حبان في صحيحه في الإيمان (التكليف) 142 ، والحاكم في المستدرک في البيوع
67/2 ، وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

جميعاً من طريق حماد بن سلمة عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم النخعي عن الأسود عن
عائشة.

ولا خلاف في موضع الكناية سوى أن في رواية النسائي من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن حماد بن سلمة (ثلاث) وقال غيره عن حماد: (ثلاثة) .

قال التقى السبكي في إبراز الحكم من حديث رفع القلم ص 28 ، بعدما ساق من روايات الحديث: " فأما حديث عائشة رضي الله عنها فهو حديث متصل حسن ورجاله كلهم علماء؛ الأسود بن يزيد النخعي، وابن أخيه إبراهيم بن يزيد النخعي جبلان علماً وديناً، متفق عليهما. وحماد ابن أبي سليمان فقيه أهل الكوفة جليل وحديثه يدخل في الحسن. وحماد بن سلمة عالم كبير روى له الجماعة إلا البخاري.. " .

وفي تقريب التهذيب 1/ 178 : "حماد بن أبي سليمان مسلم الأشعري مولاهم، أبو إسماعيل الكوفي فقيه صدوق، له أوهام. من الخامسة، ورمي بالإرجاء. مات سنة عشرين أو قبلها/ بخ م 4". وللحديث شواهد يرتفع بها إلى الصحة منها ما رواه الإمام الترمذي في الحدود عن رسول الله (ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد) 1423، من طريق الحسن البصري عن علي بن أبي طالب مرفوعاً ، وقال : حسن غريب من هذا الوجه وقد روي من غير وجه عن علي عن النبي صلى الله عليه و سلم. قال : ولا نعرف للحسن سماعاً عن علي بن أبي طالب. وقد روي هذا الحديث عن عطاء بن السائب عن أبي ظبيان عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه و سلم نحو هذا الحديث. ورواه الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس عن علي موقوفاً ولم يرفعه. والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم .

قال أبو عيسى: كان الحسن في زمان علي وقد أدركه ولكننا لا نعرف له سماعاً منه اهـ . وحديث عطاء عن أبي ظبيان عن ابن عباس عن علي مرفوعاً رواه الحاكم في كتاب الإمامة (باب التأمين) 1/ 398 ، وقال صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي.

وقد رأيت تصحيح ابن حبان والحاكم لحديث عائشة وموافقة الذهبي ، وقال الإمام النووي في المجموع 3/ 6 : " هذا الحديث صحيح رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم علي وعائشة " .

أما الشوكاني فقال في إرشاد الفحول (32/1) : " وهو - أي حديث رفع القلم - وإن كان في طرقة مقال لكنه باعتبار كثرة طرقة من قسم الحسن، وباعتبار تلقّي الأمة له بالقبول لكونهم بين عامل به ومؤول له صار دليلاً قطعياً " .

والذي تبين من استعراض الطرق وأقوال العلماء أن حديث عائشة بنفسه دائر بين الحسن والصحة وباعتبار تعدد طرقة صحيح كما ذكر الإمام النووي .

قال الإمام المناوي: "كناية عن عدم التكليف؛ إذ التكليف يلزم منه الكتابة فعبر بالكتابة عنه"¹.

ولا يفيد التعبير بالرفع أنه كان موضوعاً عليهم قبل، قال الإمام الطحاوي: "وإنما المعنى رُفِعَ عنهم فلم يُكْتَبَ عليهم"².
إذاً فلم عبر بالرفع؟

يحتمل كما ذكر الآمدي أنه يدلُّ على الحطِّ تخفيفاً في حال الانتقال والنقصان عن رتبة الكمال، فالعقل والفهم عند الصبي مثلاً يظهران بالتدريج فجعل الشارع البلوغ ضابطاً وعبر بالرفع للإشارة إلى أن الأصل أن يوضع عليهم القلم بقدر ما ظهر من العقل لكنه خفف عنهم ذلك³.

ويحتمل كما قال الإمام المناوي أنه: "عبر بلفظ الرفع إشعاراً بأن التكليف لازم لبني آدم إلا لثلاثة وأن صفة الوضع لا تنفك عن غيرهم"⁴.

فيكون في هذا التعبير فائدة لطيفة جداً كما قال الأستاذ الدكتور نور الدين عتر: "توجب الحذر من المعصية، فإن التكليف لازم لبني آدم كلهم لا ينفك عنهم إلا للثلاثة المذكورين"⁵.

فهذا الحديث أصل في باب الأهلية والتكليف، ولا بد من العقل والبلوغ واليقظة وإلا فلا تكليف ولا واجبات.

¹ - فيض القدير 4 / 35.

² - بيان مشكل الآثار 10 / 175.

³ - بنظر: الإحكام في أصول الأحكام 1 / 199.

⁴ - فيض القدير 4 / 35.

⁵ - إعلام الأنام شرح بلوغ المرام ، المعاملات والأسرة ص 501 .

قال الإمام سيف الدين الآمدي: " اتفق العقلاء على أن شرط المكلف أن يكون عاقلاً فاهماً للتكليف؛ لأن التكليف خطابٌ، وخطابٌ من لا عقل له ولا فهم محالٌ كالجماد والبهيمة"¹.

وقال الشاطبي: " فجميع هؤلاء لا قصد لهم، وهي العلة في رفع أحكام التكليف عنهم"².

وقال ابن النجار: "يُشترط فيه العقل وفهم الخطاب؛ لأن التكليف خطاب وخطاب من لا عقل له ولا فهم له مُحال، ولأن المكلف به مطلوب حصوله من المكلف طاعة... والقصد إلى ذلك إنما يتصور بعد الفهم"³.

وأما وجوب الزكاة والضمان على الصغير والمجنون فهذا لتعلقه بالمال، وأمر المميّز بالصلاة ليس من جهة الشارع بل من جهة الولي، فهذا كله من أحكام الوضع لا التكليف فلا يعارض الحديث⁴.

المطلب الخامس: طرق التأثير الكنائي في الاستنباط

نحن في صدد الكناية عند علماء البيان وهذا حررته في الفصل الأول وانتهيت إلى أن الكناية يراد فيها اللازم والملزوم معاً: اللازم على وجه الحقيقة والملزوم بطريق الإفادة إذ اللازم يدلّ عليه وينجم عنه.

وكان من البيانيين أصوليون انتهوا إلى هذا التقرير كالبهاء السبكي الذي قال: "لا يتخيّل أن ذلك جمع بين حقيقة ومجاز ولا بين حقيقتين؛ لأنّ التعدّد هنا

¹ - الإحكام في أصول الأحكام 1 / 199.

² - الموافقات 1 / 237.

³ - شرح الكوكب المنير 1 / 499.

⁴ - ينظر: أصول السرخسي 2 / 334؛ الإحكام، الآمدي 1 / 200؛ الفروق، القرافي 2 / 105؛ إرشاد الفحول، الشوكاني 32/1؛ البحر المحيط، الزركشي 1 / 280.

ليس في إرادة الاستعمال بل في إرادة الإفادة، واللفظ لم يُستعمل إلا في موضوعه، وقد يُستعمل اللفظ في معنى ويُقصد به إفادة معانٍ كثيرة¹. وهو مذهب أخيه أيضاً².

وفي الجملة فإن للأصوليين في الكناية أربعة مذاهب لخصها جماعة منهم ابن النجار الحنبلي من متأخريهم (-972هـ) فذكر³:

1- حقيقة إن استعمال اللفظ فيما وضع له أولاً وأريد الملزوم بانتقال الذهن إليه ومجاز إذا أريد الملزوم ولم يلاحظ حقيقة اللازم أبداً، كالتعبير عن الكرم بكثرة الرماد دون ملاحظة لكثرة الرماد.

وهذه الصورة تدخل في المثل كما حققت غير مرة فإنك إذا قلت لكريم: (كثير الرماد) ولا رماد حقاً فالمعنى أنه مثل من قيل فيه كثير الرماد أيّام الرماد.

2- حقيقة مطلقاً.

3- مجاز مطلقاً.

4- قسم ثالث سوى الحقيقة والمجاز.

وفي حاشية العطار أن الرابع هو المعروف الذي اقتصر عليه المحققون ومنهم السكاكي وصاحب التلخيص من أن الكناية حقيقة غير صريحة، وأما الكناية عند الفقهاء فما احتمل معنيين فأكثر سواء كان أحد المعنيين أو المعاني لازماً لغيره منها أم لم يكن⁴.

¹ - عروس الأفراح 238/4.

² - شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع لتاج الدين السبكي، المطبوع مع حاشية العطار 432/1.

³ - ينظر: شرح الكوكب المنير 1/ 199-202.

⁴ - حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع 433/1، وما بعدها.

فالواقع عند الفقهاء والأصوليين في تحديد الكناية يشبه ما حصل عند البيانين مما بذلتُ الفصل الأول في تحريره وبيان استقرار المصطلح فيه ثم رصد الخروج عنه نظرياً وعملياً، والسبب تداخل العلوم وتأثر كل من علمي البيان والأصول بالآخر .

واستقرار المصطلح البياني كان على يد السكاكي (-626هـ) في مفتاح العلوم، والذي أفاد منه بهاء الدين السبكي (-773هـ) الفقيه الأصولي فاستقر المصطلح عند الأصوليين أيضاً.

وثمة خروجٌ عليه عند الأصوليين كما وقع عند البيانين، ومن ذلك ما قاله بدر الدين الزركشي (-794هـ): "الكناية ما احتمل معنيين فصاعداً وهي في بعض المعاني أظهر"¹.

وكذا الإمام الشاطبي (-790هـ) في موافقاته². حين ذكر الكناية عما يُستحي التصريح به، كالكناية عن قضاء الحاجة بالغايط، جارياً على الأصل اللغوي.

وهذا عَوْدٌ على أول أمر الكناية ومعناها العام في الستر حين قال شمس الأئمة السرخسي (-483هـ): "وكل ما يكون متردّد المعنى في نفسه فهو كناية"³.

وقال: "الحكم بها لا يثبت إلا بالنية أو ما يقوم مقامها من دلالة الحال؛ لأنّ في المراد بها معنى التردّد، فلا تكون موجبةً للحكم مالم يُزل ذلك التردد بدليل يقتزن بها"⁴.

¹ - المنشور في القواعد، 3 / 101.

² - الموافقات 2 / 165.

³ - أصول السرخسي 1 / 188.

⁴ - أصول السرخسي 1 / 188.

وبحثنا في تأثير الكناية كما استقر عليها المصطلح البياني وإنما ذكرت ما ذكرت لبيان أنّ المحققين الأصوليين على مصطلح البيانين وأن ما يرى أعمّ من ذلك عندهم وعند الفقهاء فهو على الأصل اللغوي ومعنى الستر .

ففي الكناية ثروة؛ لأنها من طبقتين كما تقرّر لازم وملزوم (المعنى ومعنى المعنى) والاستنباط منها استخراج الملزوم (معنى المعنى)، ولكن لما كان اللازم والملزوم فيها مرادين فيمكن الاستفادة من اللازم أيضاً خلافاً للمجاز الذي يحوي لازماً وملزوماً فإذا طُلب فيه اللازم أُعْرض عن الملزوم.

ويتجلى تأثيرها في طريقتين :

أولاً- حين لا تتعيّن الكناية، فيراها البعض كنايةً، ويقف البعض عند المعنى لا يتعدّاه إلى معنى أعمق ولا يفترض وجود ملزوم له .
ثانياً- حين تتعيّن الكناية، ولكن يُخْتَلَف في توجيه اللازم فيؤدي ذلك إلى اختلاف في توجيه الملزوم.

والآن نمضي في جولة حول تأثير الكناية في أنواع الاستنباط العقدي والفقهية والأخلاقي ثم نختم الفصل بأثر الرواية بالمعنى في الاستنباط الكنائى.

المبحث الثاني

أثر الكناية النبوية في الاستنباط العقدي

للكناية النبوية أهمية بالغة في كثير من المسائل العقدية. وكان يمكن أن أقسم هذا المبحث باعتبار طرق التأثير الكنائي في الاستنباط التي يبتتها آخر المبحث السابق، لكنني آثرت تنويعه بحسب العناوين العقدية المشهورة؛ لأنَّه أجلي لتأثير الكناية في المباحث العقدية. والمقصود التمثيل لا الحصر والاستيعاب، فسأضرب الأمثال للتأثير الكنائي في قضية نزول عيسى عليه السلام، وخلق الأفعال، وقانون الأسباب والمسببات، مع بيان طرق التأثير في كلٍّ منها.

المطلب الأول : الكناية ونزول عيسى عليه السلام

نزول عيسى عليه السلام متواتر، صرح به الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ خُذْ هَٰذَا وَتَمِيزْ بَيْنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا) { آل عمران: 55 }، وساق جملة من الأحاديث، وأولها الحديث الذي سأدرسه وهو موطن الكنايات¹.

وروى ابن منده رحمه الله (-395هـ) في كتابه الإيمان جملةً من الأحاديث تحت عنوان: "ذكر وجوب الإيمان بنزول عيسى بن مريم عليه السلام، وإيمانه بالمصطفى عليه السلام وبشريته"² وأولها الحديث موطن الكنايات .

¹ - ينظر : تفسير الطبري 6 / 458.

² - الإيمان ، ابن منده 1 / 512 .

ثُمَّ أَلْفَتْ فِيهِ الْكُتُبَ وَمِنْ أَشْهَرِهَا وَأَجْمَعُهَا كِتَابُ التَّصْرِيحِ بِمَا تَوَاتَرَ فِي نَزُولِ الْمَسِيحِ لِلْعَلَامَةِ مُحَمَّدِ أَنْوَرِ شَاهِ الْكَشْمِيرِيِّ (-1352هـ) بِتَحْقِيقِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْفَتَّاحِ أَبُو غَدَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، كُتِبَ فِيهِ سَبْعِينَ حَدِيثًا صَرِيحًا فِي نَزُولِ الْمَسِيحِ¹، وَأَوَّلُهَا الْحَدِيثُ مُوْطَنُ الْكُنَايَاتِ، وَالْحَدِيثُ هُوَ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ))².

ففيه كُنَايَاتُ ثَلَاثِ يَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ .

أولاً- يَكْسِرُ الصَّلِيبَ :

قال النووي: "معناه يكسره حقيقة ويبطل ما يزعمه النصارى من تعظيمه"³.

¹ - ينظر ص 55 من الكتاب المذكور .

² - البخاري في المظالم والغصب (كسر الصليب وقتل الخنزير) 2476 ، ومسلم (في الإيمان نزول عيسى بن مريم حاكماً بشرية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم) 155 ، والترمذي في الفتن (ما جاء في نزول عيسى بن مريم) 2233 ، وابن ماجه في الفتن (فتنة الدجال وخروج عيسى ..) 4078 ، كلهم من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ، ورواه أبو داود في الملاحم (خروج الدجال) 4324 ، من طريق قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة ، وفيه زيادة : ((ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام)) وعبد الرحمن هو "ابن آدم البصري ... صدوق من الثالثة/ م د " تقريب التهذيب ، ابن حجر 2 / 336.

وفي البخاري من رواية الكشميهني ((ويضع الجزية)) وفي رواية غيره ((ويضع الحرب)) فتح الباري ، ابن حجر 6 / 491.

وعند الطبراني في الأوسط (حديث أحمد بن محمد بن صدقة) 1342، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة : ((ويقتل الخنزير والقرد)) . قال الحافظ ابن حجر : " إسناده لا بأس به " فتح الباري 6 / 491 .

³ - شرح النووي على صحيح مسلم 190/2 .

قال ابن حجر: "أي يبطل دين النصرانية"¹.
فكسر الصليب لازم لإبطال النصرانية كناية عنه .

ثانياً- يقتل الخنزير:

قال ابن حجر: "أي: يأمر بإعدامه مبالغة في تحريم أكله. وفيه توبيخ عظيم
لنصارى الذين يدعون أنهم على طريقة عيسى ثم يستحلون أكل الخنزير ويبالغون
في محبته"².

وهو أولى مما ذكره الشيخ ملا علي القاري وتابعه عليه شمس الحق العظيم
آبادي ثم المباركفوري³، أي: يحرم اقتناءه وأكله، ويبيح قتله .
فلفظ (ويقتل الخنزير) عزيمة لا إباحة.
ثالثاً- يضع الجزية :

قال الإمام الطحاوي: "إن المال إذا عاد في الناس إلى أن صار لا يقبله أحد
صاروا بذلك جميعاً أغنياء، وذهب الفقر والمسكنة وجميع الوجوه التي جعل الله
الصدقة لأهلها ... وكذلك الجزية إنما جعلها الله تعالى على من جعلها عليه
لئصرف فيما يحتاج إليه من قتال ومما سواه مما يجب صرفها فيه فإذا ذهب ذلك
ولم يكن لها أهل تُصرف إليهم سقط فرضها"⁴.

وقال القاضي عياض: "قيل: معناه يسقطها ولا يقبل من أحد إلا الإيمان.
وقيل: يفرضها على من عصاه لظهوره على الكفرة وقهره لهم. وقيل: يقتل من
كان يؤذيها لنبذهم العهد وخروجهم مع الدجال"⁵.

¹ - فتح الباري 491/6.

² - فتح الباري 4 / 414.

³ - ينظر : مرقاة المفاتيح 16 / 58 ؛ عون المعبود 11 / 306؛ تحفة الأحمدي 6 / 405.

⁴ - شرح مشكل الآثار 1 / 60.

⁵ - مشارق الأنوار 2 / 580.

فهذه أربعة أقوال في معنى وضع الجزية:

- 1- يسقط الجزية أي يحمل الناس على الإسلام أو القتل ولا يقبل الجزية .
- 2- يثبت الجزية ويقهر بها الكفرة ويفرضها عليهم، فيكون الوضع هنا لإفادة الإذلال والقهر.

3- يقتل من كان يؤذيها لنبذهم العهد وخروجهم مع الدجال .

4- توضع الجزية لاستغناء الناس بكثرة الأموال.

وجماهير الشراح على القول الأول، واستدلوا بقول أبي هريرة في بعض روايات الحديث : واقرؤوا إن شئتم : (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ..) { النساء : 159 }¹.

قال البغوي رحمه الله : "فلا يبقى أحدٌ إلا آمنَ به حتى تكون الملة واحدة، ملة الإسلام"².

وكذلك فهمها أبو هريرة رضي الله عنه .

واستدلوا كذلك بما جاء في رواية أبي داود المذكورة في التخريج: ((ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام)). وغير ذلك³.

وهو مناسب لما قبله من كسر الصليب وقتل الخنزير .

وعلى هذا القول تنجم مشكلة: هل ينسخ عيسى عليه السلام حكم الجزية الذي جاء به الإسلام، وهو إنما ينزل حكماً به؟ وقد قال ابن قتيبة: "إذا نزل

¹ - البخاري في أحاديث الأنبياء (نزول عيسى بن مريم) 3448 ، ومسلم في الإيمان (نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم) 155 .

² - معالم التنزيل 2 / 308 .

وفي الآية قولان بحسب عود الضمير في موته، قبل موت عيسى أو قبل موت الكتابي، لكن فهم أبي هريرة رضي الله عنه يرجح الأول. ينظر: تفسير الطبري 9 / 379 .

³ - تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي ص 118؛ شرح النووي على مسلم 2 / 190؛ فتح الباري، ابن حجر 6 / 491؛ عون المعبود، العظيم آبادي 11 / 306.

المسيح عليه السلام لم ينسخ شيئاً مما أتى به محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم¹؟

والجواب - كما ذكر الإمام النووي - أن النبي صلى الله عليه وسلم هو المبيِّن للنسخ، فليس بإسقاط الجزية نسخٌ لما تقرّر بشريعتنا؛ لأنه مقيّد بأنها تستمرّ إلى نزوله فتوضع².

فرجعت الجمل الثلاث: يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، كنايةً واحدة عن زوال الملل وبقاء الإسلام.

فأما يكسر الصليب ويقتل الخنزير فلا اختلاف في لازمها ولا ملزومها، وأما يضع الجزية فاختلف في توجيه لازمها هل هو إثبات للجزية أو إلغائها لها، ثم هل يلغيها عيسى عليه السلام أو تلغو بنفسها بموت أهلها، ويترتب على ذلك اختلاف في الملزوم، وإن كان المؤدى في النهاية واحداً هو ظهور ملة الإسلام وزوال غيرها.

المطلب الثاني: الكناية وخلق أفعال العباد

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّيِّ أَذْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَرِزْنِي الْعَيْنَيْنِ النَّظْرَ، وَزِنِي اللِّسَانَ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَتَّى وَتَشْتَهَى، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ))³.

¹ - تأويل مختلف الحديث ص 188.

² - ينظر : شرح النووي على مسلم 2 / 190.

³ - البخاري الاستئذان (زنا الجوارح دون الفرج) 6243 ، و مسلم في القدر (قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره) 2657 ، وأبو داود في النكاح (ما يؤمر به من غض البصر) 2152.

وفي رواية أخرى عن أبي صالح عن أبي هريرة يرفعه: ((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّيْنِ مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الْإِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ))¹.

والرواية الثانية أطول لكن لا خلاف في الخاتمة: (الفرج يصدق ذلك أو يكذبه)، ولا خلاف في أنها كناية عن فعل الزنا الحقيقي المعروف .
قال الإمام النووي: "معناه أنه قد يحقّق الزنى بالفرج وقد لا يحقّقه بأن لا يولج الفرج في الفرج وإن قارب ذلك"².

واللازم الذي هو تصديق الفرج وتكذيبه كان مثار استنباط؛ لأن نسبة التصديق إلى الفرج قد تكون حقيقية أو مجازية .

فتصديق الفرج يعني وقوع الحكم وفق ما تشتهي النفس، وهذا الوقوع كناية عن الزنا، فنسبة التصديق والتكذيب إلى الفرج على سبيل الاستعارة لا يغيّر من حقيقة الكناية شيئاً، فهي هنا من طبقتين: لازم هو وقوع الحكم وفق الشهوة وملزوم هو الزنا.

ثم إيقاع الحكم قد ينسب إلى الفرج مجازاً والحال أن العبد هو الذي أمعن في الشهوة حتى أوقع الزنا أو ثاب وارعوى فلم يوقعه .

وقد ينسب إلى الفرج حقيقة وهو الأصل إذا أمكن، فيغدو الفرج موقعاً أو مانعاً للزنا، ويكون فيه دليلٌ على أن العبد لا يخلقُ فعلَ نفسه .

قال ابن حجر: " في قوله (والنفس تشتهي والفرج يصدق أو يكذب) ما يُستدلُّ به على أن العبد لا يخلق فعل نفسه؛ لأنه قد يريد الزنا مثلاً ويشتهيهِ فلا يطاوعه العضو الذي يريد أن يزني به، ويعجزه الحيلة فيه، ولا يدري لذلك سبباً.

¹ - مسلم في القدر (قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره) 2657.

² - شرح النووي على مسلم 16 / 206.

ولو كان خالقاً لفعله لما عجز عن فعل ما يريد مع وجود الطوعية واستحكام الشهوة، فدلّ على أن ذلك فعلٌ مقدّرٌ يقدرها إذا شاء ويعطلها إذا شاء"¹.

و مسألة خلق أفعال العباد مشهورة في كتب العقيدة منذ زعم القدرية أن كلَّ عبدٍ خالقٌ لفعله ولم يروا الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى².

قال الإمام البيهقي: "وإنما سُمُّوا قدريةً؛ لأنهم أثبتوا القدر لأنفسهم ونفوه عن الله سبحانه وتعالى، ونفوه عنه خلق أفعالهم وأثبتوه لأنفسهم. فصاروا بإضافة بعض الخلق إليه دون بعض مظاهرين للمجوس في قولهم بالأصلين النور والظلمة وأن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة"³.

وينسب القول بالقدر إلى المعتزلة أيضاً على أن أكثرهم يرون أن العبد يخلق أفعاله بقدره خلقها الله فيه، ثم منهم من يقول بعد ذلك إن الله لا يوصف بالقدرة على شيء يقدر عليه عباده ومحال أن يكون مقدور واحد لقادرين، ومنهم من يصفه بها فإن حصل الفعل بالقدرة القديمة كان اضطراراً وإن بالحادثة كان اختياراً⁴.

¹ - فتح الباري، ابن حجر 11 / 504.

² - التعريفات، الجرجاني ص 222.

³ - الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ص 237.

⁴ - ينظر: الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار ص 77 وما بعدها؛ مقالات الإسلاميين، الأشعري ص 549.

وثمة من قال بأن الله - تعالى عن قولهم - لا يوصف بالقدرة إلا على الجواهر لا على الأعراض من حياة وموت وصحة ومرض وقوة وعجز ولون وطعم وريح، وأن ذلك أجمع فعل الجواهر بطبائعها، وهؤلاء هم المعمرية أصحاب معمر بن عباد السلمي، وهم ينفون القدرة عن الله عز وجل وعن العبد أيضاً ويثبتونها للجواهر ولهم فظائع منكراً غير هذا. ينظر: مقالات الإسلاميين، الأشعري ص 11، 548؛ المواقف، الإيجي 3 / 656، 667.

وعلى الضفة الأخرى فرقة الجبرية وأشدّها الجهمية، قالوا: لا قدرة للعبد أصلاً
لا مؤثرة ولا كاسبة بل هو بمنزلة الجمادات¹.

والمذهب ما قاله أهل السنة أنه ليس للعبد من أفعاله الاختيارية إلا الكسب
فليس مجبوراً كالجبرية ولا خالقاً كالمعتزلة. والكسب هو تعلق القدرة الحادثة، وقيل
: هو الإرادة الحادثة، من غير صحّة كون العبد ينفرد بذلك المقدور، ومن غير
صحّة المشاركة منه وإنما له مجرد المقارنة، أي توجّه القصد².

قال الإمام اللقاني (1014هـ) في الجوهرة :

فخالقٌ لعبده وما عملٌ موفّق لمن أراد أن يصل
وعندنا للعبد كسبٌ كلّفاً به ولكن لا يؤثّر، اعرفاً³
وأدلتهم مشهورة في هذا الباب :

فمن القرآن قوله تعالى : (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) { الأنعام: 102 } .
وقوله : (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) { الصافات: 96 } .
قال البيهقي: "فدخل فيه الأعيان والأفعال من الخير والشر"⁴.

¹ - أصحاب جهم بن صفوان الذي قُتل في مرو آخر ملك بني أمية .

ينظر : مقالات الإسلاميين ، أبو الحسن الأشعري ص 279، 280 ؛ التعريفات ، الجرجاني
ص 108.

² - حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد ص 247 .

³ - شرح جوهرة التوحيد ، الباجوري ص 236، وما بعدها.

⁴ - الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ، البيهقي ص 142.

ومن الأحاديث: حديث أبي هريرة مرفوعاً: ((جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ)) ،
وحديث جابر أن سراقه بن مالك سأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: يا
رسول الله بيّن لنا ديننا كأنّا خُلِقْنَا اليومَ فيما العملُ اليومَ أفيما جَفَّتْ به الأَقْلَامُ
وجرت به المقاديرُ أم فيما نَسْتَقْبِلُ ؟ قال: ((لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ
بِهِ الْمَقَادِيرُ)) قال : ففيمَ العملُ ؟ ...فقال: ((اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ)) وجفافُ
القلم كنايةٌ عن إبرام القضاء، ومرَّ الحديثان وشرح الكنايتين فيهما في مبحث
التجسيم من الفصل الثاني¹.

ومن العقل أن الفعل الاختياري قد يتخلف عن القصد، ولو كان الإنسان
خالقه لم يتخلف عن قصده، وهذا محسوسٌ مشاهد، ويشهدُ له الحديث الذي
طلبناه: والفرج يصدّق ذلك أو يكذبه .

قال الإمام البيهقي: "وقوع هذه الأفعال أو بعضها على وجوه تخالف قصدَ
مكتسبها يدلُّ على مُوقع أوقعها على ما أراد غير مكتسبها، وهو الله ربّنا خلقنا
وخلق أفعالنا، لا شريك له في شيء من خلقه تبارك الله رب العالمين"².

فقد ظهر أثر الكناية حجةً نقليةً لمذهب أهل السنة في هذه المسألة وتلك
الكناية (جَفَّ القلمُ بما أَنْتَ لَاقٍ) عن إبرام القضاء، ودليلاً للحجة العقلية في
أن الفعل الاختياري قد يتخلف عن القصد وتلك الكناية (الفرج يصدق ذلك
أو يكذبه)، والله أعلم.

¹ - ص 155، 157.

² - الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ص 144.

المطلب الثالث: الكناية وقانون الأسباب والمسببات

يتفرع عن القول بأن الله خالق كل شيء بطلان دعوى أن شيئاً يؤثر بطبعه أو بقوة أودعها الله فيه.

فمن اعتقد أن شيئاً يؤثر بطبعه كفر إجماعاً، ومن اعتقد أن شيئاً يؤثر بقوة أودعها الله فيه فالأصح تفسيقه، ومن اعتقد أن المؤثر هو الله لكنه جعل بين الأسباب والمسببات تلازماً عقلياً فهو جاهل ربما جرّه الجهل إلى كفر إذا هو أنكر المعجزات، ومن اعتقد أن الله هو المؤثر وأن بين الأسباب والمسببات تلازماً عادياً فهو الناجي الذي بان سبيله وصحّ إيمانه¹.

وقد جاءت الكناية في حديث يُعتبر أصلاً في القضية، حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر²، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد)).

¹ - ينظر: حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد ص 236.

² - الطيرة التشاؤم، وكان لهم فيه طريقة أنهم ينفرون الطباء والطيور، فإن أخذت ذات اليمين تبركوا به، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم، وتشاءوا بها، وأصلها قضية السوانح والبوارح. ينظر: المفهم، القرطبي 140/2؛ لسان العرب، ابن منظور (برج، 411/2). وذكر الأبيّ (إكمال إكمال المعلم 39/6) أنها ربما أخذت من الطيران؛ لأن الإنسان إذا تشاءم بشيء وكرهه تباعد عنه، فشبهت سرعة إعراضه عنه بالطيران.

- والمشهور في الهامة أنها البوم والذكر منها الصدى، والعرب تشاءم به وإذا سقطت في دار أحدهم رآها ناعيةً (ينظر: المعلم، المازري 178/3)، وقيل: إنّ عظام الميت أو رأسه ينقلب هامةً تطير، وقيل: إذا قُتل الرجل خرجت من رأسه هامة (طائر أو دودة) فتدور حول قبره تقول: اسقوني اسقوني، فإن أدرك بثأره وإلا بقيت سبعة أيام على زعم اليهود (!)، وفي ذلك يقول ذو الأصبع العدواني (كما في المفضليات، الضبي ص 160):

يا عمرؤ إلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة: اسقوني

ينظر: التمهيد، ابن عبد البر 24 / 199؛ فتح الباري، ابن حجر 241/10.

وفي رواية عن الزهري أن أبا سلمة بن عبد الرحمن حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا عدوى)) ويحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يؤرّد مُمرَضٌ على مُصِحٍّ)).

قال أبو سلمة: كان أبو هريرة يحدثهما كلتيهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صمت أبو هريرة بعد ذلك عن قوله ((لا عدوى)) وأقام على أن ((لا يؤرد ممرض على مصح)) قال فقال الحارث بن أبي ذباب وهو ابن عم أبي هريرة: قد كنت أسمعك يا أبا هريرة تحدثنا مع هذا الحديث حديثاً آخر قد سكت عنه، كنت تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لا عدوى))، فأبى أبو هريرة

- والمشهور في **الصفّر** ما فسّر به جابر بن عبد الله رضي الله عنه في حديثه ((لا عدوى ... ولا صفّر))، قال: هي دواب البطن. [مسلم في السلام (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ...)] 2222، وعليه أكثر العلماء (ينظر: تفسير غريب الموطأ، ابن حبيب 148/2، غريب الحديث، ابن سلام 26/1)، وبه ترجم البخاري فقال: "لا صفّر: وهو داء يأخذ البطن" كما سيأتي في تخريج الحديث. ثم قيل في هذه الدواب أنها حيّة تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب. رواه الطبري في تهذيب الآثار (38/3) بإسناده عن أبي عبيدة معمر بن المثنى عن يونس ابن عبيد الجرمي، أنه سأل روبة بن العجاج عنه فذكره. وقيل دوّد في البطن يهيج عند الجوع (المعلم، المازري 177/3)، وشاهده ما روى الأصمعي (الأصمعيات ص 90) لأعشى باهلة يرثي أخاه:

لا يغمزُ الساق من أين ولا وصبٍ ولا يعضُّ على شرسوفه الصفرُ

الأيّن: الإعياء والتعب، والشرسوف: رأس الضلع مما يلي البطن. فهذا وصف بشدة الخلق وصحة البنية وعفة النفس وسمو الهمة.

والثاني أن صفّر هو النسيء بتأخير المحرم إلى صفّر، الذي كانوا يفعلونه بالجاهلية. وهو تفسير الإمام مالك رواه عنه أبو داود في الطب (في الطيرة) 3914. ويتفرّع عنه قول آخر أن أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون بدخول صفّر وانقضاء الحرم لما فيه من عود الحروب والغارات. ينظر: إكمال المعلم، القاضي عياض (146/7). وكل هذا يجوز أن يكون مراداً بالإبطال. ينظر: شرح النووي على مسلم (215/14).

أن يعرف ذلك، وقال: ((لا يورد ممرض على مصح)) فما رآه الحارث في ذلك حتى غضب أبو هريرة فرطن بالحشية، فقال للحارث: أتدري ماذا قلت؟ قال: لا. قال أبو هريرة قلت: أبيت.

قال أبو سلمة: ولعمري لقد كان أبو هريرة يحدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا عدوى)) فلا أدري أنسي أبو هريرة¹، أو نسخ أحد القولين الآخر².

¹ - قطع الإمام القرطبي في المفهم (625/5) بأن (لا عدوى) غير منسوخ بالآخر (لا يورد ..)، وفسر سكوت أبي هريرة عنه باحتمالات : أحدها النسيان. والثاني : أنهما لما كانا خبرين متغايرين لا مُلازمة بينهما، جاز للمحدث أن يحدث بأحدهما، ويسكت عن الآخر، حسبما تدعو إليه الحاجة. والثالث: أن يكونَ خاف اعتقادَ جاهلٍ يظنُّهما متناقضين فسكت عن أحدهما، حتى إذا أمِنَ من ذلك حدّث بهما جميعاً. والرابع: وجّهٌ لم يطلع عليه أحدٌ .

وعلى احتمال النسيان فلا يؤثر في صحة حديث (لا عدوى) لسببين ذكرهما الإمام النووي في شرحه على مسلم (214/14) : الأول أن نسيان الراوي للحديث لا يقدر في صحته عند جماهير العلماء ولا في وجوب العمل به. والثاني : أن (لا عدوى) ثابت من رواية غير أبي هريرة . كحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عند مسلم في الباب نفسه 2222 ، و عند الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين (مسند جابر بن عبد الله) 13703 و 13939.

ولا يتعارض نسيان أبي هريرة هنا مع حديث ((من بسط رداءه ثم ضمّه إليه لم ينس شيئاً سمعه من مقالي)) [البخاري في المزارعة (ما جاء في الغرس) 2350 ، ومسلم في فضائل الصحابة (من فضائل أبي هريرة الدوسي) 2492]،

فلعل أبا هريرة كان يسمع حديث (لا عدوى) قبل واقعة بسط الرداء . أو يحتمل أن يكون المراد أنه لا ينسى تلك المقالة التي قالها ذلك اليوم، لا أنه ينتفي عنه النسيان أصلاً . ينظر : فتح الباري، ابن حجر 242/10 ؛ أبو هريرة راوية الإسلام ، د. محمد عجاج الخطيب، ص 109، 118،

² - أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه: من طرق خمسٍ عن أبي هريرة : أبي سلمة بن عبد الرحمن ، و سنان بن أبي سنان الدؤلي ، ويعقوب بن عبد الرحمن ، وذكوان السّمان ، وسعيد بن ميناء .

أولاً - من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة :

- رواه البخاري في الطب (لا صفر : وهو داء يأخذ البطن) 5717 ، من طريق صالح عن الزهري ، ومسلم في السلام (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر..) 2220 ، من طريق يونس وصالح عن الزهري عن أبي سلمة .. الحديث : ((لا عدوى ولا صفر ولا هامة)) فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَمَا بَالُ الْإِبِلِ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الطَّبَّاءُ ، فَيَجِيءُ الْبَعِيرُ الْأَجْرَبُ ، فَيَدْخُلُ فِيهَا ، فَيَجْرِبُهَا كُلُّهَا؟ قَالَ : ((فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلُ؟)) . وليس فيه : ((وفر من المجدوم..)) .

وهذا الأعرابي مبهم في متن الحديث ، قال في الفتح (241/10) : "لم أقف على اسمه " .
- ورواه البخاري أيضاً في الطب (لا هامة) 771 ، وأبو داود في الطب (الطيرة) 3911 ، من طريق معمر عن الزهري نحو الرواية الأخرى عند مسلم في السلام (باب لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر ، ولا نوء ، ولا غول ، ولا يورث الممرض على مريض) 2221 من طريق يونس عن ابن شهاب .

- و من طريق محمد بن عمرو بن علقمة الليثي عن أبي سلمة عن أبي هريرة : رواه ابن ماجه في الطب (من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة) 3541 ، من طريق علي بن مسهر عن محمد بن عمرو ابن علقمة عن أبي سلمة ، بلفظ : ((لا يورث الممرض على المصح)) . دون أن يذكر شيئاً آخر .
ومحمد بن عمرو من المشهورين بالصدق والصيانة مع كلام في حفظه والخلاصة أن حديثه في مرتبة الحسن كما ذكر ابن الصلاح ، ومر ذلك في ترجمته ص 146 .

ثانياً - من طريق سنان بن أبي سنان الدؤلي عن أبي هريرة :
البخاري في الطب (لا عدوى) 5775 ، ومسلم في السلام (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر..) 2220 نحو حديث يونس وصالح عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن .

ثالثاً - من طريق العلاء بن يعقوب عن أبيه عن أبي هريرة :
رواه مسلم من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء ... الحديث ، بلفظ : ((لا عدوى ولا هامة ولا نوء ولا صفر)) . بزيادة : ولا نوء . وليس فيه خبر الأعرابي .
و أبو داود في الطب (في الطيرة) 3912 ، عن القعني عن عبد العزيز بن محمد عن العلاء ... به عند مسلم .

رابعاً - من طريق أبي صالح ذكوان السمان عن أبي هريرة :
رواه البخاري في الطب (لا هامة) 5757 ، بلفظ : ((لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر)) . دون أن يذكر شيئاً آخر .

فنحن مع خبرين متعارضين في الظاهر :

الأول: ((لا عدوى))، والعدوى اسم من الإعداء وهو التجاوز، وأعداء الداء يُعديه إعداءً جاوز غيره إليه، حتى يصيبه ما بصاحب الداء، وقيل: مثل ما بصاحب الداء، وكذلك العرب كانت تظن أن المرض بنفسه يتعدى¹.
فيحتمل كما ذكر القاضي أن يكون نهيًا عن قول ذلك أو اعتقاده، أو يكون خبراً، أي: لا تقع عدوى بطبعها².

خامساً - من طريق سعيد بن ميناء عن أبي هريرة :

رواه البخاري في الطب (الجذام) في ترجمة الباب ، قال : وقال عفّان : حدثنا سليم بن حيّان حدثنا سعيد بن ميناء قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ((لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجدوم، كما تفر من الأسد)).
قال في الفتح (158/10) : "عفّان هو ابن مسلم الصفّار ، وهو من شيوخ البخاري لكن أكثر ما يخرج عنه بواسطة، وهو من المعلقات التي لم يصلها في موضع آخر ، وقد جزم أبو نعيم أنه أخرجه عنه بلا رواية، وعلى طريقة ابن الصلاح يكون موصولاً" ، وفي تدريب الراوي (1/ 183) : "ما عزاه البخاري لبعض شيوخه بصيغة قال فلان وزاد فلان ونحو ذلك، فليس حكمه حكم التعليق عن شيوخ شيوخه ومن فوقهم، بل حكمه حكم العنونة والاتصال بشرط اللقاء والسلامة من التدليس، كما جزم به ابن الصلاح"، ينظر: علوم الحديث، ابن الصلاح ص67، وما بعدها.
وأما قوله: ((وفر من المجدوم كما تفر من الأسد)) فقد قال ابن حجر 159/10: "لم أقف عليه من حديث أبي هريرة إلا من هذا الوجه".

وروي هذا الحرف مستقلاً عن حديث (لا عدوى) بأسانيد ضعيفة عند أحمد وعبد الرزاق : رواه أحمد في باقي مسند المكثرين (باقي مسند أبي هريرة) 9429 من طريق شيخ بمكة عن أبي هريرة مرفوعاً ، ففيه راو مبهم ، ورواه الإمام معمر في الجامع (في المجدوم) 20332 من حديث أبي قلابة مرسلاً .

¹ - ينظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (عدا، 192/3) ؛ لسان العرب، ابن منظور (عدا، 31 / 15).

² - ينظر: إكمال المعلم (145/7).

والثاني: ((فر من المجذوم فرارك من الأسد))، فظاهره كناية عن وجود العدوى في الجذام؛ إذ يلزم عن هذا الوجود الأمر بالفرار منه.
ومثله ((لا يورد ممرض على مصح)) أي لا يورد صاحب الإبل المراض إبله على إبل صاحب الإبل الصحاح¹.
فهذا النهي الذي جاء بصورة النفي يمكن أن يعدّ كنايةً عن وجود العدوى.
فكيف ينفي العدوى ويثبتها في آنٍ واحد؟
اختلف العلماء في الجواب، ورأيت خلافهم يدور على طريقتين: النسخ والجمع.

الطريقة الأولى: النسخ

أي أن ((فر من المجذوم)) ومثله ((لا يورد ممرض على مصح)) منسوخ بقوله: ((لا عدوى)).

ويفهم من كلام عائشة رضي الله عنها، فقد أخرج ابن أبي شيبة عنها وقد سألتها امرأة عن الحديث المتقدم في الفرار منه، فقالت: كلا والله! ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا عدوى)) و ((من أعدى الأول؟))، وقد كان لنا مولى أصابه ذلك فكان يأكل في صحافي، ويشرب في أقداحي، وينام على فراشي².

قال القاضي عياض: "وهذا يدل على فحوى كلام عائشة، أنها لم تنكر الحديث الأول، ولكنها ذهبت إلى نسخة بقوله: ((لا عدوى)) وبفعله عليه السلام، وقد روي ذلك عن أئمة السلف"³.

¹ - شرح صحيح مسلم، النووي (217/14).

² - مصنف ابن أبي شيبة في العقيقة (الأكل مع المجذوم) 24541.

³ - إكمال المعلم 162/7، ومن أشار إليهم سلمان الفارسي وابن عباس، كما روى عنهم الطبري في تهذيب الآثار 3/ 28-31.

ويتأيد هذا بما رُوي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم واكل مجذوماً وقال له: ((كل ثقةً بالله، وتوكلاً عليه))¹ .

لكن جماهير العلماء أنكروا النسخ كما سيأتي وذلك لعدم توفر شرطي النسخ اللذين هما التعارض وتأخر الناسخ؛ فالجمع ممكن، ولم يعرف تاريخ أيّ من النصّين فيعرف المتأخّر منهما والمتقدّم. وإنما ينبغي الجمع بين حديث الفرار من المجذوم وحديث مؤكلة النبي صلى الله عليه وسلم له، قال النووي: "وحمل الأمر باجتنابه والفرار منه على الاستحباب والاحتياط لا للوجوب، وأما الأكل معه ففعله لبيان الجواز، والله أعلم"² .

وهذا الذي قاله الإمام النووي من اجتناب المجذوم هو الذي اعتمده جماهير العلماء، بما فيهم المذاهب الأربعة³.

وخالف ابن حزم الظاهري بالنظر إلى توجيهه حديث ((لا عدوى وفر من المجذوم فرارك من الأسد)) بأنك لو فررت ذلك الفرار لما نفعك إن كان الله قدّر عليك أمراً⁴.

وسياقي بيان قول ابن حزم، وكونه مرجوحاً .

الطريقة الثانية : الجمع

¹ - أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه: الترمذي في الأُطعمة (في الأكل مع المجذوم) 1817، وأبو داود في الطب (في الطيرة) 3925 ، وابن ماجه في الطب (الجذام) 3542، وذكر الترمذي عقبه أنه حديث غريب، لا يعرف إلا من حديث يونس بن محمد عن الفضل بن فضالة البصري ، وأنه يُروى موقوفاً عن ابن عمر ، وهو أصح . مشيراً إلى ضعف الحديث بسبب ضعف راويه، وهو غير الفضل بن فضالة بن عُبَيْد المصري الثقة المشهور .

² - شرح صحيح مسلم 228/14.

³ - ينظر : بدائع الصنائع، الكاساني (328/2) ؛ حاشية الدسوقي (389/1) ؛ مغني المحتاج، الخطيب (236/1)؛ كشف القناع، البهوتي (126/6) .

⁴ - ينظر : المحلى 203/4 .

لقد اعتبر علماء المصطلح هذه الجمل الثلاث مثلاً واضحاً للجمع بين ما
ظاهرة التعارض في بحث مختلف الحديث حتى إن الحافظ العراقي، قال في ألفيته:

والمتنُّ إنْ نافاهُ متنُّ آخرُ وأمكنَ الجمعُ ، فلا تنافُرُ

كمتن "لا يُوردُ" مع "لا عدوى" فالنفي للطَّبعِ و "فَرَّ" عدوا

أو لا ، فإن نسخُ بدا فاعملْ به أو لا ، فرجِّحْ واعملْ بالأشبه¹

قال الإمام السخاوي: "المتن الصالح للحجّة إن نافاه بحسب الظاهر متن
آخر مثله وأمكن الجمع بينهما بوجهٍ صحيحٍ زال به التعارض فليس بينهما حينئذٍ
تنافُرٌ بل يُصارُ إليهما ويُعملُ بهما معاً وأمثله كثيرة كمتن فر **من المجدوم** فرارك
من الأسد الموازي لمعنى متن لا يورد... مع متن لا عدوى ولا طيرة وكلها في
الصحيح"².

وهو الذي عليه الجمهور أنه يجب الجمع بينهما، وهما صحيحان، كما نقل
ذلك النووي، وغيره³.

ثم على هذا القول، هناك تفاسير أقربها خمسة :

التفسير الأول أن يقال إن نفيه للعدوى باقٍ على عمومته، وأما الأمر بالفرار
من المجدوم فمن باب سد الذرائع، لئلا يتَّفَق للشخص الذي يخالطه شيءٌ من
ذلك بتقدير الله تعالى ابتداءً لا بالعدوى المنفية، فيظن أن ذلك بسبب مخالطته،
فيعتقد صحة العدوى فيقع في الحرج، وكذلك النهي في (لا يورد) .

¹ - ألفية العراقي ص 193.

² - فتح المغيث 71/3

³ - شرح صحيح مسلم 214/14.

وهذا التفسير هو الأشهر بين جماهير العلماء، وهي طريقة أبي عُبَيْد، والطحاوي، واختاره الحافظ ابن حجر، وتبعه السخاوي¹، وعليها لا يكون في الأمر بالفرار من المجذوم كناية ولا بالآخر لا يورد ممرض على مصح.

والثاني أن يكون (لا عدوى) نهيًا عن اعتقاد كون بعض الأمراض تفعل في غيرها بطبيعتها، وأما أن تكون سبباً بخلق الله سبحانه عندما يمرض ما وردت عليه فلم ينفه، فيكون نهي أن يورد الممرض على المصح لئلا يمرض الصحاح من قبل الله جلّت قدرته عند ورود المرضى فتكون المرضى كالسبب فيها. واختاره العراقي في ألفيته - كما سبق ذكره - فقال:

كمتن "لا يُورِدُ" مع "لا عدوى" فالنفي □ للطَّبعِ و"فَرَّ" عَدُوا
وهذا القول قريبٌ من الأول.

والثالث أن العدوى جنسان:

عدوى الجذام والجرب ونحوهما وليست هي المنفِية في الحديث؛ لأن الجذام قد تشتد راحته فيؤذي الجليس بطول الاشتمام فينتقل إليه، والمثال في الجرب أوضح؛ وذلك أن الجرب في الإبل يكون رطباً فيسيل مع الماء نُطْفٌ منه فتصل إلى بغير آخر فتأخذه الحكّة، وعدوى الطاعون، وهذه مَنفِية في الحديث؛ لأن الفرار منه كالفرار من قدر الله. هذا توجيه ابن قتيبة واستدلّ له بالمشاهدة²، وينبني على أن (فر من المجذوم) كناية عن وجود العدوى في الجذام.

¹ - غريب الحديث (223/2)؛ شرح معاني الآثار (310/4)؛ فتح الباري (62/6)؛ شرح الألفية (72-71/3).

² - ينظر: تأويل مختلف الحديث (103/1).

والرابع : إن إثبات العدوى في الجذام ونحوه مخصوص من عموم نفي العدوى. وهذا القول رجّحه الشوكاني¹، وهو قريب من الثالث، وينبغي أيضاً على أن (فر من المجذوم) كناية عن وجود العدوى في الجذام.

والخامس : يتعلق بـ (لا عدوى) و(فر من المجذوم)، أن معناه : فرّ من المجذوم فرارك من الأسد لا عدوى، أي: لا يعديك ولا ينفعك فرارك مما قُدّر عليك. قاله ابن حزم، وأضاف : "ولو لم يكن معناه هذا لكان آخر الحديث ينقض أوله وهذا محال، وأيضاً فلو كان على معنى الفرار لكان الأمر به عمومياً فوجب أن تفر منه امرأته وولده وكل أحد حتى يموت جوعاً وجهداً ولوجب أن تقفل الأزقة أمامه كما يفعل بالأسد وهذا باطل بيقين، وما يشك أحد أنه قد كان في عصره عليه السلام مجذومون فما فرّ عنهم أحد"².

فالذي حملَ ابنَ حزمٍ على هذا التوجيه أنه إن لم يفعل ذلك لكانت (فرّ من المجذوم) كناية عن وجود العدوى ولعارض آخرُ الحديث أوّله، ورأيه رحمه الله مرجوحٌ بعدم تعيّن الكناية في (فر من المجذوم)، وبعدم تعيّن هلاك المجذوم إذا اجْتَنِبَ؛ لأنه لا تعدم الوسيلة للتعامل معه بطريقة تكفل له العيش دون أن يحصل الأذى لغيره، والله أعلم .

وكثيراً ما نسمع اليوم بالأمراض المعدية، وعرفوا العدوى حديثاً بأنها نقل مرض معد بالاتصال المباشر أو غير المباشر مع المريض بواسطة إفرازاته، وذكروا أن الجذام سببه عدوى بجرثومة عُصَيَّات الجذام، وأن طريقة العدوى به غير معروفة، لكنه من المتفق عليه أنه لا بد لحصول العدوى من الاختلاط الوثيق

¹ - ينظر: نيل الأوطار 377/7 .

² - المحلى 203/4 .

بالمريض ودخول الجراثيم إلى الجسم بواسطة خدش أو جرح الجلد أو بواسطة الغشاء المبطن للأنف¹.

وهو أقرب ما يكون إلى تفسير ابن قتيبة (الثالث)، ومع ذلك فالراجح من التفاسير هو الأول قول الجمهور أنه لا عدوى، ولا عدوى عند التحقيق؛ لأنه إذا كان مرض الأول بسبب خلقه الله تعالى من الجرثومة وغيرها، فمرض الثاني كذلك، وانتقال الجرثومة لا يعني انتقال المرض.

فأرى ما للكناية من أثر في حصول الاختلاف في هذه القضية، ذلك أن الكناية عن العدوى بـ (فرّ من المجذوم فرارك من الأسد) ونظيره (لا يورد ممرض على مصح) لم تتعين فمن قال بالكناية أثبت العدوى في الجذام، ومن لم يقل بها جعل الحديث أمراً واحداً يدل على ظاهره وحسب، والذي ترجّح لديّ هو الثاني أنهما ليسا بكناية، وأن نفي العدوى أمر واقع في الشريعة الإسلامية، لكنه ينبغي أن يفهم من خلال عقيدتها في ردّ الأسباب إلى الخالق سبحانه، ومن خلال نظامها العملي في مواجهة كلّ المواقف والأزمات، فالحذر مطلوب، والقدر مسلّم به، وبين هذا وذاك تتقدّم الحياة وتزدهر.

¹ - ينظر: القاموس الطبي العربي ، د. البدي ص 725 ، 335.

المبحث الثالث

أثر الكناية النبوية في الاستنباط الفقهي والأخلاقي

يخطر في البال أول وهلة أن يُشَقَّ هذا المبحث مبحثين، أو يُعرضَ في مطلبين أحدهما لأثر الكناية النبوية في الاستنباط الفقهي والآخر لأثرها في الاستنباط الأخلاقي، لكن خصوصية التعبير الكنائي وكونه من طبقتين معنى ملزوم ولازم محسوس يرشّح الكناية لتكون من طبقتين أيضاً: فقه وأخلاق، فأجلى لأثر الكناية أن يُجعلاً معاً ويُعرضَ المبحثُ في مطلبين حسب طريقتي التأثير الكنائي في الاستنباط التي مرت في المبحث الأول من هذا الفصل: ألا تتعين الكناية، أو تتعين ويختلف في توجيهه اللازم.

مع التمهيد بمطلب يعرف الفقه والأخلاق وما بينهما من آصرة شبيهة بالتي بين اللازم والملزوم من الكناية.

المطلب التمهيدي: تعريف الفقه والأخلاق والصلة بينهما

أ- تعريف الفقه:

هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية¹. وربما أضافوا قيداً احترازياً فقالوا: بحيث لا يُعلم كونها من الدين ضرورة². والتعريفات المعاصرة تدخل في التعريف كلمة: (فرعية) ليشمل القيد المذكور؛ لأن ما يُعلم من الدين بالضرورة هو من الأحكام الأصلية التي تدخل في باب العقائد، فيقولون: العلم بالأحكام الشرعية الفرعية العملية.. الخ³.

¹ - الحدود الأنيفة، زكريا الأنصاري ص 67. وينظر: التعريفات، الجرجاني ص 216؛ التعاريف، المناوي ص 563.

² - كما في تعريف الإمام الرازي في المحصول 1 / 92.

³ - ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية 1 / 12.

وقد يُستغنى عن ذلك بقيد: (المكتسب من أدلتها التفصيلية) أي بالاجتهاد، والاجتهاد سبيله الظن، وإنما سمي علماً لأن المجتهد إنما يصل إلى الحكم بالظن الغالب، فيجب عليه العمل قطعاً بما أدّى إليه اجتهاده، قال الإمام الرازي: "فالحكم معلوم قطعاً والظن واقع في طريقه"¹. فللقطع بوجوب العمل سمي علماً. ثم كان قيد (العملية) الذي يُقصد به أعمال الجوارح هو المخرج لعلم الأخلاق المتعلق بأعمال القلوب.

ب- تعريف علم الأخلاق:

هو معرفة النفس ما لها وما عليها من الوجدانيات. ويسمى : بعلم الأخلاق وبعلم التصوف وعلم السلوك²، وخلاصة الكل رياضة النفس على محاسن الأخلاق.

والخلق "عبارة عن هيئة راسخة للنفس، تصدر عنها الأفعال المحمودة بسهولة من غير حاجة إلى فكر وروية"³ فمنه ما يكون جبلة ومنه ما يُكتسب بالمران، وثمرته الألفة وانقطاع الوحشة بين الخلق⁴.

فالبرّ والعفة والحياء والصدق والزهد ومحبة الخير للأخ والسماحة والقناعة والشكر والتواضع والصبر والإيثار أخلاق حسنة، ونقيضها الفجور والخسة والفحش والكذب والحسد والحقد والشح والطمع والكفران والكبر والجزع والأثرة ..

¹ - المحصول ، الرازي 1 / 92.

² - أبجد العلوم، القنوجي 2 / 328 . وينظر: التعريفات، الجرجاني ص 83؛ التعاريف ، المناوي ص 44.

³ - أبجد العلوم ، القنوجي 2 / 308.

⁴ - إحياء علوم الدين ، الغزالي 2 / 158.

ومر بنا في البحث طائفة من كفايات الأخلاق الحمودة والمذمومة كـلين المناكب ووطاءة الكنف وطول اليد وجر الإزار والمطيطاء والإيكاء مما كان في مبحث التجسيم من الفصل الثاني.

ج- الصلة بين الفقه والأخلاق:

قد يلحق العلماء هذا العلم (الأخلاق) بمباحث العقيدة لكونه من شعب الإيمان¹، ولأن مبعثه الإيمان بالله واليوم الآخر، فمن آمن بالله علم أنه مراقب ومن آمن باليوم الآخر علم أنه محاسب، فيجتهد في قول الخير وإكرام الضيف وإكرام الجار وسائر المعروف.

وقد يثبتونه في ثنايا المباحث الفقهية لأن الأخلاق تتجلى في السلوك العملي ممّا يرجع نظامه إلى موازين الفقه .
وقد يفردونه بالتأليف .

وأنا اخترت أن أجعل الأخلاق مع الفقه سواءً للأسباب التالية:
أولاً- إن الأخلاق كما قال ابن تيمية "معانٍ تقوم بالشخص المحسوس، ونفس الأخلاق القائمة فيه ليست بمحسوسة وإنما يُحسُّ بالأفعال الظاهرة الصادرة"².

فرجعت القضية إذاً من أعمال القلوب إلى أعمال الجوارح .
والعكس صحيح أيضاً فكل مسألة فقهية ترجع إلى خُلُقٍ لا مناص من ذلك، فإن عُلِمَت علّة الحكم ظهر وجه الخُلُق، وإن لم تُعَلَم رجعت إلى أمّ الأخلاق وهي الخضوع والتعبد لله عز وجل.

¹ - ينظر: مختصر شعب الإيمان، القزويني ص 21 وما بعدها، وفهرس المختصر ص 159 وما بعدها.

² - درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية 3 / 344.

ولا تتجلى هذه الثنائية في شيءٍ كما تتجلى في الكناية؛ لأنها أصلاً من طبقتين، لازم محسوس وملزوم معنوي، وذلك ما كنا نقول إنها تقديمٌ حسيٌّ للمعنى، فالطبقة الحسية تخضع لأحكام الفقه العملي، والطبقة المعنوية تخضع لأحكام الفقه الوجداني .

لكن ينصرفُ النظرُ إلى الفقه أو الخلق بحسب الأظهر منهما في السياق. ثانياً- إنَّ شرطَ البحثِ ألاَّ يعدوَ الكنايات النبوية الصحيحة الثابتة، فلن تؤثر فيه قضية قبول الحديث الضعيف في فضائل الأعمال¹؛ لأن الضعيف هنا ليس من موضوع البحث، ولا شأن لنا به مذ طلبنا الصحيح من لفظ النبي صلى الله عليه وسلم، فالكنايات في بحثنا تصلح للفقه وللفضائل معاً.

فسأعرضُ في كلِّ مطلبٍ مما يلي مثالين للتأثير الكنائي في الاستنباط إحداهما يغلب عليه طابع الفقه، والآخر يغلب عليه طابع الأخلاق.

المطلب الأول: أثر الكناية في الاستنباط حين لا تتعين

- المثال الأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقَطَّعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقَطَّعُ يَدُهُ))².

¹ - ينظر: الكفاية في علم الرواية ، الخطيب البغدادي ص 133؛ توضيح الأفكار ، الصنعاني 186 / 1.

² - البخاري في الحدود (لعن السارق إذا لم يسم) 6783، ومسلم في الحدود (حد السرقة ونصابها) 1687 ، والنسائي في قطع السارق (تعظيم السرقة) 4873 ، وابن ماجه في الحدود (حد السرقة) 2583 .

وهو حديث يعارض في الظاهر نصاب القطع الذي أقله في المذاهب الأربعة ربع دينار كما سيأتي، وأين البيضة والحبل من ربع دينار ؟ فاختلفوا لذلك في توجيه المعنى.

وفي رواية البخاري المشار إليها في التخريج، قال الأعمش: "كانوا يرون أنه بيض الحديد، والحبل كانوا يرون أنه منها ما يسوى دراهم".

وقال ابن حبان عقب رواية الحديث: "يشبه أن يكون أراد به صلى الله عليه وسلم بخطابه هذا بيضة الحديد أو بيضة النعامة التي قيمتها تبلغ ربع دينار فصاعداً، وكذلك الحبل أراد به الحبال الكبار التي تكون بالآبار العميقة القعر أو للمراكب العمالة في البحر"¹.

وسبق أن أنكر ابن قتيبة على يحيى بن أكثم القاضي (-242هـ) هذا التأويل أي بيضة الحديد وحبل المراكب، قال: "وهذا التأويل لا يجوز عند من يعرف اللغة ومخارج كلام العرب؛ لأن هذا ليس موضع تكثير لما يسرق السارق فيُصرف إلى بيضة تساوي دنانير وحبل عظيم لا يقدر على حمله السارق، ولا من عادة العرب والعجم أن يقولوا: قبح الله فلاناً فإنه عرض نفسه للضرب في عقد جوهر وتعرض لعقوبة الغلول في جراب مسك، وإنما العادة في مثل هذا أن يقال: لعنه الله تعرض لقطع اليد في حبل رث أو كبة شعر أو إداوة خلق، وكلما كان من هذا أحقر كان أبلغ"².

وذكر الشريف المرتضي (-436هـ) الجواب على ابن قتيبة بأن البيضة من السلاح وحبل السفينة ليسا بعلمين في النفاسة كعقد الجوهر وجراب المسك بل هي من الأشياء الحقيمة للسرقة وربما اشترت بأقل من نصاب القطع، ثم علق

¹ - صحيح ابن حبان في الحظر والإباحة (اللعن) 5748 .

² - تأويل مختلف الحديث ص 166؛ غريب الحديث 1 / 149.

على هذا الجواب قائلاً: "وهو متوجّه لكن أي وجه لتخصيص البيضة والحبل بالذكر وليس هما النهاية في التقليل؟"¹.

وأيدّ ابن عبد البر ما قال ابن قتيبة من أنهما بيضة الدجاجة والحبل المعهود، وقال في تأويل يحيى بن أكثم: "ليس بشيء والصواب ما قدمت لك"² يعني أحد ثلاث: شذوذ الحديث، أو كان قبل إحكام الحدّ بنصاب القطع، أو أريد به جنس القلة.

وجمعت ما قيل في توجيهه: (يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده) فإذا هي عشرة أقوال جعلت الكناية آخرها:

- 1- إن الحديث شاذٌّ لمعارضته نصاب القطع الذي تملأت فيه الأحاديث³.
- 2- إن الحديث قيل في وقت نزول آية قطع السارق مجملَةً ثمّ أحكمت بعدُ بأحاديث النصاب⁴.

3- تمثيلٌ لجنس القليل، و تنبيه على عظيم ما خسر وهي يده في مقابلة حقير من المال وهو ربع دينار فإنه يشارك البيضة والحبل في الحقارة، وإن كانا أقلّ منه⁵.

- 4- المراد جنس البيض و جنس الحبال، أي يسرق منهما ما يبلغ النصاب⁶.
- 5- المراد يسرق البيضة أو الحبل فيقطعه بعض الولاة سياسةً لا قطعاً جائزاً شرعاً⁷.

¹ - أمالي المرتضى 3 / 94.

² - ينظر: الاستذكار 7 / 536.

³ - قاله ابن عبد البر في الاستذكار 7 / 536.

⁴ - قاله ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص 166.

⁵ - قاله ابن عبد البر في الاستذكار 7 / 536.

⁶ - شرح النووي على صحيح مسلم 11 / 183 .

⁷ - شرح النووي على صحيح مسلم 11 / 183 .

6- المراد: بيضة المغفر وحبل السفينة¹. وقد أخرج بن أبي شيبة عن حاتم بن إسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي رضي الله عنه أنه قطع يد سارق في بيضة حديد ثمنها ربع دينار². قال الحافظ ابن حجر: "ورجاله ثقات مع انقطاعه، ولعلّ هذا مستند التأويل الذي أشار إليه الأعمش"³.

7- أن يبقى من نصاب القطع ثمن البيضة والحبل فيقطع به⁴.

8- المراد المبالغة في التنفير عن السرقة وجعل ما لا قطع فيه بمنزلة ما فيه القطع مبالغةً والعرب تسلك هذا الطريق إذا أغيت في تكثير شيء أو تحقيره فتذكر ما لا يصح وجوده أو ينذر وجوده، كما في حديث ((مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ كَمَفْحَصِ قِطَاةٍ أَوْ أَصْغَرَ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ))⁵.⁶

ويرد عليه أن المبالغة فيما يستحيل عادةً إنما تُقبل إذا دخله ما يدل عليه مثل كاد ولو وكان والتشبيه ونحوه بحيث لا يتوقع المرء الحقيقة منه⁷، وحديث المسجد من هذا الباب أما القطع بالبيضة والحبل فالذهن قد يتوجّه إلى الحقيقة فيه.

9- البيضة في اللغة تقال للمبالغة في المدح والذم، وذلك أنها تعني التفرد وعدم النظر فعلى المدح يُعنى بها بيضة النعام التي تحاط وترعى كالمرجّو نجابتهم

¹ - قاله الأعمش ثم ابن حبان كما رأينا أول المطلب.

² - مصنف ابن أبي شيبة في الحدود (في السارق من قال يقطع في أقل من عشرة دراهم) 28671، وجعفر هو الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهما ، والانقطاع ظاهر بين محمد وعلي رضي الله عنه .

³ - فتح الباري 12 / 83.

⁴ - الحاوي الكبير ، الماوردي 13 / 576.

⁵ - من حديث جابر بن عبد الله: ابن ماجه في المساجد والجماعات (من بنى لله مسجداً) 738 ، وابن خزيمة في صحيحه في الصلاة (فضل المسجد وإن صغر المسجد وضاق) 1292 ، ومن حديث أبي ذر رواه ابن حبان في صحيحه في الصلاة (المساجد) 1611 .

⁶ - ذكره القرطبي في المفهم 5 / 74 .

⁷ - ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ، القزويني ص 340.

من الأبناء، وعلى الذمّ يقال عن بيضة النعام التي تُترك في الفلاة حتى تفسد فلا يكون شيءٌ أذلَّ منها وأضيع¹.

فحسن بها التمثيل كأن المراد: يسرق الجليل والصغير، وأما الحبل فأكثر ما يستعمل للتحقير².

10- إذا سرق البيضة فلم يُقطع جرّهُ ذلك إلى سرقة ما هو أكثر منها فيُقطع، فكانت سرقة البيضة هي سبب قطعه، أي يجرّهُ من سرقة القليل إلى سرقة الكثير عادةً، قال الطيبي: "لعلّ المراد باللّعن هنا الإهانة والخذلان كأنه قيل: لما استعمل أعز شيء عنده في أهون شيء وأحقّره خذله الله وأهانته حتى قطع"³. وثمّ الكناية بقطع اليد عن حدوث سرقة النصاب فهو اللازم له شرعاً، والبيضة ليست نصاباً لكنها ستؤدي بالاعتیاد إلى سرقة ما هو أكبر من البيضة ممّا قد يُقطع به.

فالكناية كما ترى لم تتعيّن بل هي وجهٌ من عشرة أوجه، ومع ذلك فلها تأثيرها في الاستنباط، وذلك أنه إذا قلنا بالكناية بالقطع عن حدوث سرقة النصاب يكون فيه إشارة إلى اشتراط النصاب للقطع، وإذا لم نقل بالكناية كان في الحديث دليل على عدم اشتراط النصاب فيكون حجةً لمن لا يشترطونه، ويُجوّج المشتريين إلى تأويل الحديث كما تقدّم.

¹ - ينظر : البيان والتبيين ، الجاحظ 3 / 146 ؛ مجمع الأمثال ، الميداني 1 / 285 .

² - ينظر : فتح الباري، ابن حجر 12 / 83.

³ - شرح الطيبي على المشكاة 9 / 2531. وينظر: فتح الباري ، ابن حجر 12 / 82 ، الديباج، السيوطي 4 / 292، فيض القدير، المناوي 5 / 269.

والذين لا يشترطون النصاب هم أهل الظاهر وحُكي عن الحسن البصري والخوارج، قالوا: يُقطع في القليل والكثير؛ لظاهر هذا الحديث، وحملاً للآية (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) {المائدة: 38} على عمومها¹.

وأما جماهير العلماء والمذاهب الأربعة فاشتروا النصاب لقطع يد السارق؛ لحديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: ((لَا تُقَطَّعُ الْيَدُ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَمَا فَوْقَهُ))².

فهذا نصٌّ في اشتراط النصاب، والنصاب في أحاديث أخرى أعلى من هذا ولكنه مشترط على أية حال³.

¹ - ينظر: المحلى، ابن حزم 11 / 327؛ الاستذكار، ابن عبد البر 7 / 536؛ شرح النووي على مسلم 11 / 181.

² - الستة : البخاري في الحدود (قول الله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما..) 6789، ومسلم - واللفظ له - في الحدود (حد السرقة ونصابها) 1684 ، والترمذي في الحدود عن رسول الله (ما جاء في كم تقطع يد السارق) 1445 ، والنسائي في قطع السارق (ذكر الاختلاف عن الزهري) 4916 ، وأبو داود في الحدود (ما يقطع فيه السارق) 4384 ، وابن ماجه في الحدود (حد السارق) 2585 .

³ - أخذ الشافعية بحديث عائشة رضي الله عنها، فقالوا: النصاب ربع دينار ذهباً أو ما قيمته ربع دينار سواء كانت قيمته ثلاثة دراهم أو أقل أو أكثر ولا يقطع في أقل منه .
ينظر: حاشية البجيرمي على الخطيب 4 / 164، 165.

- ومذهب المالكية والحنابلة القطع في ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما قيمته أحدهما ولا قطع فيما دون ذلك؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع في مجنٍّ ثمنه ثلاثة دراهم [البخاري في الحدود (قول الله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما..) 6795 ، ومسلم في الحدود (حد السرقة ونصابها) 1686 ، والترمذي في الحدود عن رسول الله (ما جاء في كم تقطع يد السارق) 1446 ، والنسائي في قطع السارق (القدر الذي إذا سرقه السارق قطعت يده) 4908 ، وأبو داود في الحدود (ما يقطع فيه السارق) 4385 ، وابن ماجه في الحدود (حد السارق) 2584] .

ينظر: بداية المجتهد، ابن رشد 2 / 368؛ المغني، ابن قدامة 10 / 235 .

والحاصل أن الكناية أثّرت فقهياً بدلالاتها للجماهير على النصاب دون أهل الظاهر، وأخلاقياً بدلالاتها على أن الحِسَّة تتحوّل بالاعتیاد إلى خلقٍ يبعثُ على الفظيعة من الأعمال.

- ومذهب الأحناف أنه لا يُقطع إلا في عشرة دراهم أو ما قيمته ذلك، وحجتهم الاختلاف في قيمة المجن زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " كان ثمن المجن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقوّم عشرة دراهم ". [المستدرك على الصحيحين ، في الحدود 4 / 420. وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي] . وما روي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما أنه لا قطع إلا في دينار أو عشرة دراهم. [حديث علي في مصنف عبد الرزاق في اللقطة (في كم تقطع يد السارق) 18952 ، وسنن الدارقطني في كتاب الحدود 349 . وحديث ابن مسعود في مصنف عبد الرزاق في اللقطة (في كم تقطع يد السارق) 18950 ، وسنن الدارقطني في كتاب الحدود 330 . قال الترمذي عقب حديث ابن عمر في الحدود عن رسول الله (ما جاء في كم تقطع يد السارق) 1446 في حديث ابن مسعود: "وهو حديث مرسل رواه القاسم بن عبد الرحمن عن ابن مسعود والقاسم لم يسمع من ابن مسعود، وفي حديث علي : "ليس إسناده بمتصل"]

فأخذوا بالاحتياط ودرء الحدود بالشبهات وقرروا النصاب عشرة دراهم.

ينظر: حاشية ابن عابدين 6 / 140، 141.

وذكر ابن رشد أن الجمع بين الأحاديث ممكن على مذهب الشافعي بأن يكون ربع الدينار هو الأقل وما كان فوق ذلك من واقعات الأعيان فلا تعارضه وإن جعل النصاب فوق ربع دينار لزم بطلان العمل بحديث عائشة مع صحته، قال : "فإن كان الجمع أولى من الترجيح فمذهب الشافعي أولى المذاهب" بداية المجتهد 2 / 368. والله أعلم.

- **المثال الثاني :** عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إِيَّاكُمْ وَالْدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ)) فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَفَرَأَيْتَ الْحُمُو؟ قَالَ : ((الْحُمُو الْمَوْتُ))¹.
فهذا تحذيرٌ شديدٌ، ونهي وكيد، قال الحافظ ابن حجر: "(إياكم والدخول) بالنصب على التحذير، وهو تنبيه المخاطب على محذورٍ ليحترز عنه كما قيل: إياك والأسد. وقوله (إياكم) مفعول بفعلٍ مضمّرٍ تقديره: اتقوا، وتقدير الكلام: اتقوا أنفسكم أن تدخلوا على النساء والنساء أن يدخلن عليكم"².

والحمو أحدُ الأحماء وهم قرابةُ الزوج مثل أخيه، وعمّه وابنيهما، ويقالُ لهؤلاء من جهة الزوجة: أختانٌ . والصِّهْرُ يجمعُ ذلك كله³. وحكى الإمام النووي اتفاق

¹ - البخاري ومسلم والترمذي جميعاً من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير مرثد بن عبد الله عن عقبة بن عامر الجهني ، واللفظ واحد .
البخاري في النكاح (لا يخلون رجل بامرأة) 5232 ، ومسلم في السلام (تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها) 2172، والترمذي في الرضاع (ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات) 1171 وقال : " حديث عقبة بن عامر حديث حسن صحيح . وإنما معنى كراهية الدخول على النساء على نحو ما روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: لا يخلون رجلٌ بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان [الترمذي في الفتن عن رسول الله (ما جاء في لزوم الجماعة) 2165]
ومعنى قوله (الحمو) يُقال هو أخو الزوج . كأنه كره له أن يخلو بها ."
وروى الإمام مسلم في هذا الحديث عن الليث بن سعد أن الحمو أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج ، ابنُ العم ونحوه.

² - فتح الباري 331/9.

³ - ينظر: إكمال المعلم، القاضي عياض 60/7.

أهل اللغة عليه¹، وكذا فسرهِ الليث بن سعد والترمذي كما تقدم في تخريج الحديث .

لكن أبا عبيد القاسم بن سلام رحمه الله قال : " الحَمَو أبو الزوج ... يقول: فليمت ولا يفعل ذلك. فإذا كان هذا من رأيه في أبي الزوج وهو مُحَرَّم فكيف بالغريب؟"² .

وفي تفسير (الحمو الموت) أقوالٌ تُؤوِّل إلى خمسة آخرها الكناية :
الأول- ما ذكره أبو عبيد أنه خطاب للحمو الذي هو أبو الزوج: فليُمت ولا يخلُ بكنته .

الثاني- لابن الأعرابي في كلمة له رواها الخطابي، قال: "هذه كلمة تقولها العرب مثلاً، كما تقول: الأسد الموت، أي: لقاءه مثل الموت. وكما تقول: السلطان نار، أي: مثل النار. والمعنى: احذروه كما تحذرون الموت"³.

وهذه على أن الحمو أخو الزوج وابن عمه ونحوهما، قال الإمام القرطبي: "يشبه الموت، في الاستقباح والمفسدة، أي: فهو مُحَرَّم معلوم التحريم . وإنما بالغ

¹ - ينظر : شرح صحيح مسلم 153/14 . لكن الحافظ ابن حجر نقل في ذلك خلافاً فقال في الفتح 331/9 : "وقد اقتصر أبو عبيدٍ وتبعه ابن فارسٍ والداوديُّ على أن الحَمَو أبو الزوجة ، زاد ابن فارس : وأبو الزوج . يعني أن والد الزوج حمُّ المرأة، ووالدُ الزوجة حمو الرجل، وهذا الذي عليه عرف الناس اليوم . وقال الأصمعي وتبعه الطبري والخطابي ما نقله النووي [يعني أنهم قرابة الزوج] ، وكذا نُقِل عن الخليل " .

ينظر : الغريب للخطابي (72/2) ؛ العين ، الخليل (حمو ، 311/3) ؛ مجمل اللغة، ابن فارس (حمو، 294/1) ؛ النهاية ، ابن الأثير (حما ، 448/1) .

² - غريب الحديث، ابن سلام 3 / 354.

³ - غريب الحديث ، الخطابي 71/2 .

في الزَّجر عن ذلك، وشبَّهه بالموت؛ لتسامُح الناس في ذلك من جهة الزوج والزوجة؛ لإلْفهم ذلك، حتى كأنَّه ليس بأجنبيٍّ من المرأة عادةً¹.

والتأويلان عن أبي عبيد وابن الأعرابي ذكرهما الإمام المازري سواءً²، وقال القاضي عياض: "الأشبه أنه في غير أبي الزوج ومن عدا المحارم منهم"³، واقتصر القرطبي على تفسير ابن الأعرابي، وقال الإمام النووي رافضاً تفسير أبي عبيد: "والمراد بالحمو هنا أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه . فأما الآباء والأبناء فمحارم لزوجته تجوز لهم الخلوة بها، ولا يوصفون بالموت ... فهذا الذي ذكرته هو صواب معنى الحديث . وأما ما ذكره المازري ، وحكاه أن المراد بالحمو أبو الزوج، وقال : إذا نهي عن أبي الزوج ، وهو محرم ، فكيف بالغريب ؟ فهذا كلام فاسد مردود، ولا يجوز حمل الحديث عليه"⁴.

الثالث- أن الحموَ شرٌّ لا بد منه كالموت، قاله ابن الأثير وفسره بأن خلوة المحرم بها أشدّ من خلوة غيره من الأجانب؛ لأنه ربما حسّن لها أشياء، وحملها على أمور تنقل على الزوج من التماس ما ليس في وسعه، فتسوؤ العشرة بين الزوجين بذلك؛ ولأنّ الزوج قد لا يؤثّر أن يطلّع والدُ زوجته أو أخوها على باطن حاله ولا على ما اشتمل عليه"⁵.

والحمو على هذا القول هو أبو الزوجة أو أخوها، وفتنته لا تعدو إفساد المعيشة.

¹ - المفهم 502/5.

² - المعلم 153/1.

³ - إكمال المعلم 60/7.

⁴ - شرح صحيح مسلم 154/14.

⁵ - ينظر : النهاية (حما، 448/1) .

الرابع- لا ينبغي لأحد أن يخلو بالمرأة إلا الموت، وهو ما حكاه الحافظ ابن حجر عن عبد الغافر الفارسي (-529هـ) أنه قال: "يحتمل أن يكون المراد أن المرأة إذا خلت فهي محل الآفة، ولا يؤمن عليها أحد، فليكن حموها الموت. أي: لا يجوز لأحد أن يخلو بها إلا الموت، كما قيل: نعم الصهر القبر، وهذا لائق بكمال الغيرة والحمية"¹.

وذكر المناوي أن خبر (نعم الصهر القبر) لا أصل له، وأن من قال بنحوه في الإسلام، فقد قاله تعزياً ومواساةً عند موت البنت، لا على مذهب الجاهلية من بغضهم للبنات².

ويُحفظ عن عقيل بن علفة المرِّي الغطفاني - شاعر أموي- قوله :

إني وإن سيق إلى المهر ألف وعُبدانٌ وذود³ عشر

أحب أصهاري إلى القبر⁴

وكانوا إذا دفنوا البنات قالوا: زوّجناهن من القبر⁵. وهذا كله ليس على مذهب الوأد، بل على التعزي حين فقد البنات .

¹ - فتح الباري 332/9.

² - ينظر: فيض القدير 533/3 . لكن ورد في الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي (259/4)، رقم 6764 عن ابن عباس (رضي الله عنه) : ((نعم الكفء القبر للجارية)) لكنه بغير إسناد . وذكر العجلوني في كشف الخفاء (490/1) شواهد موقوفة ومرفوعة له ، وأشار إلى ضعفها كلها.

³ - الذُّودُ للقطيع من الإبل الثلاث إلى التسع، وقيل ما بين الثلاث إلى العشر أو أكثر من ذلك، على أنه من الإناث . ينظر : لسان العرب، ابن منظور (ذود، 3 / 167).

⁴ - روى هذا الشعر ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق 32/41.

ويضرب المثل بعقيل في الأنفة والغيرة، وابنته زوج الخليفة يزيد بن عبد الملك، ينظر: طبقات فحول الشعراء، الجمحي 710/2 ؛ الأعلام، الزركلي 242/4 .

⁵ - ينظر : اللسان، ابن منظور (صهر، 471/4) .

وتأويل الحديث به مستبعد؛ لأن العرب وهي تعزي بفقد البنات سمّت الموت والقبر صهراً لا حمّاً، كما مرّ في الأخبار والأشعار .

الخامس - لقاء الحمو يفضي إلى الموت، يفهم هذا من كلام القاضي عياض "مؤدّ إلى الفتنة والهلاك"¹، وهو نص كلام الإمام القرطبي إذ قال: "يُفْضِي إلى موت الدّين، وإلى موتها بطلاقها عند غيرة الزوج، أو برجمها إن زنت معه"². وهذا الوجه معتبرٌ جداً ويمكن أن نضيف إليه موت آصرة القرابة وانحلال العصبية بما يثيره دخول الحمو -أخو الزوج- على المرأة من شرّ ينجم عنه تقطيع الأرحام.

وثمّ الكناية : الحمو الموت، أي: لقاءه يفضي إلى الموت، أي يلزم عنه الموت، فثمة حذفٌ للمضاف، والأصل: لقاء الحمو، وإلى هذا الحد لا كناية؛ لأنّ الملزوم (الحمو) مصرّحٌ به، لكن ثمة حذفٌ آخر هو لازمٌ عن لقاء الحمو ملزومٌ للموت، إذ لا يكون لقاء الحمو مؤدياً إلى الموت إلا بهذه الوساطة وهي الفتنة، فكفي باللازم (الموت) عن ملزوم محذوف هو الفتنة، وهذه الفتنة تؤدي إلى موت حقيقي أو مجازي بحسب معناها، وربما أثارت غيرة الزوج فطلّقها وهذا للمرأة موتٌ مجازي، وربما بلغت أن يزني بها فتُرجَمَ معه فتموت حقيقة، وربما لم يكن هذا ولا ذاك ولكن أدّت إلى زوال العِرض والحياء فهذا موت الدين، وربما قطعت الأرحام فهذا موت العصبية.

فعلى القول الثالث بأن الحمو أبو الزوجة وأخوها وأن خلوته بها مع كونها تكدر صفو المعيشة لا يمكن اجتنابها والاحتراز منها، على هذا القول لا حرمة،

¹ - إكمال المعلم 60/7.

² - المفهم 503 /5

وعلى قول أبي عبيد بأن الحمّ أبو الزوج وليمت ولا يفعل ذلك فالخلوة ليس على التحريم بل الكراهة عنده.

وسائر الأقوال التي بُنيت على أن الحمّو أخو الزوج ونحوه من أقاربه تقضي بتحريم الخلوة، ولا سيما القول المبنيّ على الكناية بالموت عن المفاسد التي تفضي إليه كالطلاق والزنا.

وخلوة الرجل حمّاً أو غيره بأجنبية عنه حرام¹، لعموم الأحاديث التي تنهى عن الخلوة بالأجنبية، ومنها هذا وحديث ابن عباس المرفوع: ((لا يخلون رجلٌ بامرأةٍ إلا مع ذي محرمٍ))².

أما خلوة أبي الزوج بكنّته ونحو أبي الزوج من المحارم على المرأة فليست بحرام، ولكن لمعنى الفتنة وضعف المانع العادي كره الإمام مالك سفر الرجل بزوجة أبيه، إن كان قد طلقها، ففي مواهب الجليل: "وسئل مالك عن سفر الرجل بامرأة أبيه: أتراه ذا محرم؟ فقال: قال الله سبحانه: (أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ) {النساء: 23}. وقال: هؤلاء ذو المحرم، فأما الرجل يكون أبوه قد طلق المرأة وتزوجت أزواجاً يريد أن يسافر معها، فلا أحب ذلك"³.

فالكناية على القول بها تؤثر هنا خلقيّاً بالحضّ على الغيرة والحدّ من الاختلاط الذي يشيع بين الأحماء والكنائن محارم وغير محارم، وفقهياً باستنباط كراهة الخلوة للأحماء المحارم في بعض الأحوال وتحريمها لغير المحارم.

¹ - ينظر: الهداية، المرغيناني 86/4 ؛ حاشية العدوي 637/2؛ المجموع، النووي 241/4؛ كشاف القناع، البهوتي 16/5.

² - متفق عليه: البخاري في النكاح (لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم) 5233 ، ومسلم في الحج (سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره) 1341.

³ - مواهب الجليل، الخطاب 521/2.

المطلب الثاني: أثر الكناية في الاستنباط حين تتعين ثم يختلف توجيهها.

فهنا الكناية متعينة ولا موضع لغيرها، ولكن اختلافاً في توجيهه اللازم يؤدي إلى اختلاف في توجيهه الملزوم .

- المثل الأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : ((لا تَبْدَوْا اليهودَ ولا النَّصارى بالسَّلامِ . فإذا لَقِيتُمْ أحَدَهُم في طريقٍ فاضطُّروهُ إلى أَضيقِهِ))¹.

¹ - أخرجه مسلم والترمذي :

مسلم في السلام (النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وكيف يُردُّ عليهم) 2167، والترمذي في الاستئذان والآداب عن رسول الله (ما جاء في التسليم على أهل الذمة) 2700 ، كلاهما عن قتيبة ابن سعيد عن عبد العزيز الدراوردي عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة.. الحديث .

ورواه الإمام مسلم في الموضع ذاته من طرق عن سهيل قال في بعضها ((إذا لقيتم اليهود)) ، وفي بعضها ((أهل الكتاب))، وفي بعضها : ((إذا لقيتموهم)) ...

فليس ثمة كبير خلاف، ولا خلاف في موضع الكناية (فاضطروهم إلى أضيقه) .

والمدار على سهيل بن أبي صالح (دُكَّوان السَّمان) " أبو يزيد المدني، صدوق تغير حفظه بأخرة، روى له البخاري مقروناً وتعليقاً ، من السادسة .../ع" تقريب التهذيب ، ابن حجر 259/1 .

وقد أنكر النسائي على البخاري تركه الرواية عن سهيل في الصحيح (يعني في الأصول)، قال في التهذيب (129/2) : ((وعاب ذلك عليه النسائي، فقال السلمي: سألت الدارقطني لم ترك البخاري حديث سهيل في كتاب الصحيح ؟ فقال : لا أعرف له فيه عذراً ، فقد كان النسائي إذا مر بحديث سهيل قال : سهيل - والله - خيرٌ من أبي اليمان ويحيى بن بُكير !)) .

إلا أن عذر البخاري بينه ابن حجر - وقال: إن البخاري ذكره في تاريخه - وهو أنه كان لسهيل أخ فمات، فوجد عليه فنسي كثيراً من الحديث . ينظر : تهذيب التهذيب (129/2) ، وكذا نسبه للبخاري في مقدمة الفتح 408 /1 .

ولم أجد هذا المنقول عن البخاري في أي من التاريخين الصغير والكبير ، ورأيت الذهبي نسبه في الميزان (224/2) لعلي بن المديني .

والكناية في قوله: (فاضطروه إلى أضيقه)، ففي حال التقاء المسلم والذمي في طريق واحد وجهاً لوجهٍ فإن أحدهما ينبغي أن يُفسح للآخر، والعادة تجري أن يفسح المفضول للفاضل؛ لأجل إكرامه واحترامه فإنه يلزم عن الإكرام التقديم وعن عدمه المشاحة في ذلك. وهذا قد يُتسامح فيه بين مسلمين فيفسح الفاضل للمفضول إرادة التواضع وتحصيل الأجر، ولكن مع الذمي لا يجوز تواضع المسلم بل يجب مراعاة وصف الإسلام العزيز الذي فيه وتقديم هذه المصلحة على هوى نفسه بالتواضع .

واختلفت الرواية عن ابن معين في تضعيف سهيل ، وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به

وقال ابن عدي : لسهيل نسخ ، وقد روى عنه الأئمة ، وحدث عن أبيه وعن جماعة عن أبيه ، وهذا يدل على تمييزه كونه ميز ما سمع من أبيه وما سمع من غير أبيه ، وهو عندي ثبت لا بأس به مقبول الأخبار .

ونقل في التهذيب عن الحاكم قوله : سهيل أحد أركان الحديث ، وقد أكثر مسلم الرواية عنه في الأصول والشواهد ، إلا أن غالبها في الشواهد ، وقد روى عنه مالك وهو الحكم في شيوخ أهل المدينة الناقد لهم ، ثم قيل في حديثه بالعراق أنه نسي الكثير منه ، وساء حفظه في آخر عمره . ينظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (2/129) ، والكمال، ابن عدي (3/449) ، والجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (4/246) .

وأما تضعيف ابن معين له ، فقد أنكره عليه الإمام أحمد ، فيما نقله ابن رجب، وقال : لم يكن ليحيى بسهيل علم ... وسهيل صالح .وأورد ابن رجب مع ذلك رواية أخرى عن عباس عن ابن معين أن سهيلاً ثقة .

ينظر : شرح علل الترمذي ص:120-121-122 .

والخلاصة ما قاله الإمام الترمذي : " تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي صالح ومحمد بن إسحاق وحماد بن سلمة ومحمد بن عجلان، وأشبه هؤلاء إنما تكلموا فيهم من جهة حفظهم في بعض ما رووا وقد حدث عنهم الأئمة " . شرح علل الترمذي (ص:120) فيما عنون له محققه أستاذنا الدكتور نور الدين: "تراجم طائفة من جلة أهل الحديث تكلم فيهم من جهة حفظهم" .

وبالمحصلة يكون التنحي للذمي كناية عن رفعه وتعظيمه، وعدمه كناية عن عدم رفعه وتعظيمه.

وبتطبيق الكناية في الحديث يكون قد تمّ العمل باللازم حين اضطره إلى التنحي وهو فرعٌ فقهي، وبالملزوم إذ لم يحصل الإكرام والتعظيم والتواضع لمن لا ينبغي التواضع له مما يدخل في مسائل الأخلاق.

قال الإمام القرطبي: "أي لا تتنحوا لهم عن الطريق الضيق، إكراماً لهم واحتراماً. وعلى هذا، فتكون هذه الجملة مناسبةً للجملة الأولى في المعنى والعطف¹.

وليس معنى ذلك أننا إذا لقيناهم في طريقٍ واسعٍ، أننا نلجئهم إلى حَرَفه حتى نُضَيِّق عليهم؛ لأن ذلك أذىً منا لهم من غير سببٍ، وقد نُهينا عن أذاهم². وهذا نحو ما قاله القاضي عياض: "ألا يظهر برّهم بالتنحي لهم عن منهج الطريق وعن سبيله ويؤثرهم به"³.

¹ - ووجه المناسبة مع الجملة الأولى أنه إنما نُهي عن ذلك؛ لأنَّ الابتداء بالسَّلام إكرامٌ، والكافر ليس أهلاً لذلك. فالذي يناسبهم الإعراض عنهم.

قال النووي: "مذهبنا تحريمُ ابتدائهم به ... وبهذا الذي ذكرناه عن مذهبنا قال أكثر العلماء وعامة السلف" شرح صحيح مسلم 14/ 145.

وإنما قالوا ذلك استدلالاً بظاهر الحديث حاشية العدوي 2/ 617؛ حاشية البجيرمي على الخطيب 4/ 245؛ كشف القناع، البهوتي 2/ 445.

وإلا فمكروه، ينظر: حاشية ابن عابدين 9/ 591، 592.

وتناقلت كتب الشروح مثل إكمال المعلم، القاضي عياض (7/ 52)، وفتح الباري، ابن حجر (11/ 45) كلمةً للإمام الأوزاعي أنه قال: "إن سلّمت فقد سلّم الصالحون، وإن تركت فقد ترك الصالحون" ولم أعر على إسنادٍ لها بعد طول بحث، والله أعلم .

² - المفهم 5/ 490.

³ - إكمال المعلم 7/ 53.

وقريبٌ من ذلك ما قاله الإمام النووي: "قال أصحابنا: لا يترك للذمي صدر الطريق بل يُضطرُّ إلى أضيقه إذا كان المسلمون يطرقون، فإن خلت الطريق عن الزحمة فلا حرج... قالوا: وليكن التضيق بحيث لا يقع في وَهْدَةٍ ولا يصدِّمه جدارٌ ونحوه"¹.

وبالغ المباركفوري رحمه الله فقال في التضيق عليه: "بحيث لو كان في الطريق جدارٌ، يلتصقُ بالجدار، وإلا فيأمره ليعدلَّ عن وسط الطريق إلى أحدِ طرفيه... وذلك أنا مأمورون بإذلالهم (حتى يُعْطُوا الْجَزِيَّةَ عن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) {التوبة: 29}"².

وأكثر الشراح قصدوا ألا يُؤثر الذمي بصدر الطريق دون المسلم، وهكذا في كلِّ أمر. ولكن الذي فهمه المباركفوري من الآية واقعٌ نحوه في تفسير ابن كثير لها إذ يقول: "(وهم صاغرون) أي: ذليلون حقيرون مُهانون فلهذا لا يجوز إعزازُ أهل الذمة ولا رفعُهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.. "و ساق الحديث"³.

واكتفى آخرون بإعطاء الجزية صغاراً، وممن قال ذلك ابن قيم الجوزية في أحكام الذمة⁴.

واتجه ابن عابدين (-1252هـ) رحمه الله إلى مراعاة الزمان في معاملة أهل الذمة فإن قويت شوكتُهم حسنَ التشدُّد معهم وإن ضعفوا خُفِّف عنهم، كلُّ

¹ - شرح صحيح مسلم 14 / 147.

² - تحفة الأحمدي 5 / 188 .

³ - تفسير ابن كثير 4 / 133 .

⁴ - أحكام الذمة 1 / 23.

ذلك اعتباراً لعزة الإسلام وأهله، ومال في زمنه إلى التشدد ووجوب أن يلازموا الصَّغار والهوان¹.

إذاً فقد أثرت هذه الكناية (فاضطروهم إلى أضيقه) في الاستنباط من وجهين:
1- العمل باللازم والملزوم معاً، بأن أخذ من اللازم عملُ الجارحة والتصرفُ المحسوس، وأخذ من الملزوم عملُ القلب والنية .

2 - الاختلاف في توجيه الكناية بسبب اختلاف في معنى اللازم:
فمن رأى أن معنى اللازم عدمُ التحي لهم كان كناية عن ملزوم هو عدم الإكرام، وعليه أكثر الشراح كما أسلفت.
ومن رأى أنَّ معناه المبالغة في جبههم والتضييق عليهم حتى يلتصقوا بحرف الطريق كان كناية عن إذلالهم ووضع عصا الصغار عليهم .

- المثال الثاني: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((كَانَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَصِيرَةٌ، تَمْشِي مَعَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، فَاتَّخَذَتْ رِجْلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ، وَخَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ مُغْلَقٍ مُطْبَقٍ، ثُمَّ حَشَتْهُ مِسْكَاً - وَهُوَ أَطْيَبُ الطَّيِّبِ - فَمَرَّتْ بَيْنَ الْمَرْأَتَيْنِ، فَلَمْ يَعْرِفُوها، فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا ((وَنَفَضَ شُعْبَةً يَدَهُ .

روى الحديث أبو أسامة عن شعبة هكذا، ورواه يزيد بن هارون عنه وسائر الرواة باختصارٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكرَ امرأة من بني إسرائيل حشت خاتمها مسكاً والمسك أطيب الطيب².

¹ - حاشية ابن عابدين 336 / 6.

² - أخرجه مسلم، والنسائي ، والترمذي ، وأبو داود .

ومدار الحديث على حُكَيْد بن جعفر والمستمِر بن الرِّثَّان تارة على الانفراد ، وأخرى على الاقتران عن أبي نَضْرَةَ المنذر بن مالك عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه :

والمعروف أن أبا أسامة يأتي بالسياق على أتم وجوهه¹.

-
- أولاً - من طريق خُليدٍ عن أبي نضرة عن أبي سعيد :
- رواه مسلم في الألفاظ من الأدب (في استعمال المسك وأنه أطيب الطيب ..) 2252، عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي أسامة عن شعبة عن خليل بن جعفر عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري... الحديث الذي أثبتته في المتن .
- ورواه النسائي في الزينة (أطيب الطيب) 5119 ، عن عبد الرحمن بن محمد بن سلام عن شبابة عن شعبة ... بإسناده عند مسلم ، واقتصر لفظه على ذكر خاتم الذهب ، أنها حشته مسكاً وأنه أطيب الطيب .
- ورواه النسائي في الجنائز (المسك) 1905، عن محمود بن غيلان عن أبي داود وشبابة عن شعبة ... بإسناده عند مسلم ، بلفظ : ((أطيب الطيب المسك)) هكذا دون قصة.
- ورواه الترمذي في الجنائز عن رسول الله (في ما جاء في المسك للميت) 991، عن محمود بن غيلان عن أبي داود وشبابة عن شعبة ... بإسناده عند مسلم ، بلفظ : ((أطيب الطيب المسك)) هكذا دون قصة . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
- ثانياً - من طريق خُليدٍ والمستمر عن أبي نضرة عن أبي سعيد :
- رواه مسلم في الألفاظ من الأدب (في استعمال المسك وأنه أطيب الطيب ..) 2252، عن عمرو الناقد عن يزيد بن هارون عن شعبة عنهما معاً عن أبي نضرة عن أبي سعيد ... الحديث ، واقتصر لفظه على ذكر خاتم الذهب ، أنها حشته مسكاً وأنه أطيب الطيب .
- ورواه النسائي في الزينة (ذكر أطيبي الطيب) 5264 ، عن أبي بكر بن إسحاق عن عبد الرحمن بن غزوان عن شعبة ... بإسناده عند مسلم ، واقتصر لفظه على ذكر خاتم الذهب ، أنها حشته مسكاً وأنه أطيب الطيب . لكنه لم يقل إنها من بني إسرائيل.
- ثالثاً - من طريق المستمر عن أبي نضرة عن أبي سعيد :
- رواه أبو داود في الجنائز (في المسك للميت) 3158 ، عن مسلم بن إبراهيم عن المستمر بن الريان ... بهذا الإسناد ، ولفظه : ((أطيب طيبكم المسك)) هكذا دون قصة.

¹ - ينظر: شرح علل الترمذي، ابن رجب 2/ 488، في أصحاب هشام بن عروة وأن حماد بن أسامة كان يجود الحديث، بمعنى يتقنه ويتم سياقه، أما ما يُرمى به من التدليس فالصحيح براءته منه، ينظر: ميزان الاعتدال، الذهبي 1/ 588؛ شرح علل الترمذي، ابن رجب 2/ 681، وحاشية

قال الإمام القرطبي: "يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ فَعَلَتْ هَذَا لِتَسْتُرَ قِصَرَهَا عَنِ النَّاسِ، فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا. وَلَعَلَّ قِصَرَهَا كَانَ خَارِجاً عَنْ غَالِبِ أَحْوَالِ الْقِصَارِ. فَإِنْ كَانَ هَذَا فَلَا إِثْمَ عَلَيْهَا؛ لَصِحَّةِ قِصْدِهَا وَحُسْنِ تَسْتُرِهَا. وَإِنْ كَانَتْ فَعَلَتْ ذَلِكَ لِتَتَزَيَّنَ بِالْحَاقِهَا نَفْسَهَا بِالطَّوَالِ، فَذَلِكَ مَمْنُوعٌ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِ تَغْيِيرِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا تَقَدَّمَ"¹ يَشِيرُ إِلَى كَلَامِهِ فِي كِتَابِ اللِّبَاسِ (فِي لَعْنِ الْمُتَنَمِّصَاتِ وَ الْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحَسَنِ) لَكِنَّهُ قَالَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ: "قَالَ عُلَمَاؤُنَا: هَذَا الْمَنْهِيُّ عَنْهُ الْمُتَوَعَّدُ عَلَى فَعْلِهِ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا يَكُونُ بَاقِياً؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ تَغْيِيرِ خَلْقِ اللَّهِ، فَأَمَّا مَا لَا يَكُونُ بَاقِياً كَالْكحلِ وَالتَّزَيَّنَ بِهِ لِلنِّسَاءِ فَقَدْ أَجَازَهُ الْعُلَمَاءُ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ"².

فالذي يبدو من خلال مقارنة كلام الإمام القرطبي في الموضعين أن المرأة إنما اتخذت رجلين من الخشب باقيتين، وعليه فرَّع ذلك التفرع من جواز فعلها إذا قصدت التستر وحرمتها إذا قصدت الزينة.

وهذا تفصيل بنحو ما ذكره القاضي عياض³، وذكره النووي أيضاً⁴ وهو أن الأمر دائر على القصد، فحيث كان القصد صحيحاً شرعاً فلا بأس عليها وإن كان القصد التزوير والتعاضم والتبرُّج فهو حرام.

محققه الأستاذ الدكتور نور الدين عتر (رقم 1) من تلك الصحيفة؛ طبقات المدلسين، ابن حجر ص 30.

وكان الإمام أحمد يجلُّ أمره جداً وينعته بالضبط، وقد روى له الجماعة، ينظر: سير أعلام النبلاء الذهبي 9/ 278.

¹ - المفهم 5/ 556.

² - المفهم 5/ 444.

³ - إكمال المعلم 7/ 193.

⁴ - شرح صحيح مسلم 15/ 9.

ويغلب على ظني أن الرجلين من الخشب كالحذاء الذي يزيد الطول ويصدر الصوت لا سيما إذا كان من الخشب، فليستا باقيتين حتى تكونا من تغيير خلق الله، ولكن مناط التحريم الفتنة، والله أعلم .

ثم لم يعيّن أحدٌ منهم مراد هذه المرأة، لكن يدلُّ على سوء القصد نفضُ خاتمها بالطيب في حضرة الملاء، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدنيا، فقال: ((إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَأَتَّقُوهَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ)). ثم ذكر نسوةً ثلاثاً من بني إسرائيل، امرأتين طويلتين تُعرفان وامرأة قصيرة لا تُعرف، فاتخذت رجلين من خشب، وصاغت خاتماً فحشته من أطيب الطيب المسك، وجعلت له غلقاً، فإذا مرّت بالملاء أو بالجلس قالت به، ففتحته، ففاح ريحُه. قال المستمر بخنصره اليسرى فأشخصها دون أصابعه الثلاث شيئاً وقبض الثلاثة¹.

فالحديث جليٌّ في أنها فعلت ذلك ليُنظر إليها وتستميل قلوب الرجال بالعطر والمنظر، والله أعلم .

وكان هذا هو السبب في منعهن المساجد، كما ثبت ذلك **في مصنف عبد الرزاق من حديث** عائشة موقوفاً، قالت: "كنّ - نساء بني إسرائيل - يتخذن أرجلاً من خشب، يتشرفن للرجال في المساجد، فحرّم الله عليهن المساجد، وسلّط عليهن الحيضة"²، قال الحافظ ابن حجر: "وهذا وأن كان موقوفاً فحكمه حكم الرفع؛ لأنه لا يقال بالرأي"³.

¹ - المسند، مسند المكثرين (مسند أبي سعيد الخدري) 11034، عن عبد الصمد عن المستمر بن الريان .. به عند مسلم.

² - المصنف في الصلاة (شهود النساء الجماعة) ، 5114 ، قال ابن حجر في الفتح 350/2 : " أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح".

³ - فتح الباري (350/2).

فالظاهر من سياق الحديث سوء قصدها وقد نُهي عن تطيّب المرأة في غير أهلها¹، لكن قال القرطبي: "وكلُّ ذلك هو شرُّنا، وهل كان كذلك في شرع بني إسرائيل أو لا؟ كلُّ ذلك مُحتمَل".

وللكناية "فلم يعرفوها" دور كبير في هذا الشأن، ذلك أنها كناية عن مبلغ تبرُّجها وتحمُّلها، وما زال المرء يقول لصديقه إذا ظهر في حلة بارعة: ما عرفناك! تعجباً من هيئته.

أو كناية عن حصول قصدها في التستر كما رأى الشراح .
أو كناية عن سقوط حرمتها في نظر الناس ويترتب عليه أن تتعرّض لأذى الفساق ولهوهم، من الآية (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً) {الأحزاب: 59}.

والمعنى يُعرفن من الحرائر فلا يتعرّضن لهنّ الفساق كتعرضهنّ للإماء².

¹ - لحديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً: ((كلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ، والمرأة إذا استعطرت فمَرَّتْ بالمجلس فهي كذا وكذا)) يعني زانية .
رواه الترمذي في الأدب عن رسول الله (ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة) 2786 ، قال : حديث حسن صحيح .

والنسائي في الزينة (ما يكره للنساء من الطيب) 5126 ، بلفظ : ((أُمَّا امْرَأَةٌ اسْتَعطرت ، فمَرَّتْ على قومٍ ليجدوا من ريحها فهي زانية)) .

وحديث أبي هريرة مرفوعاً : ((وليخرجنَّ وهنَّ ثَفَلَاتٌ)) رواه أبو داود في الصلاة (ما جاء في خروج النساء إلى المسجد) 565 ، وابن حبان (موارد الظمآن) في المواقيت (دخول النساء المسجد وصلاتهن فيه) 327 ، وابن خزيمة في الصلاة (الأمر بخروج النساء إلى المساجد ثَفَلَاتٌ) 1679 ، وأول الحديث : لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ... الحديث . ورواه ابن حبان أيضاً من حديث زيد بن خالد في الباب المذكور رقم 326 .

² - ينظر: تفسير الطبري 20 / 324 ؛ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي 6 / 135.

وقال الرازي: "ويمكن أن يقال: المراد يعرفن أنهن لا يزنين"¹.

وقال أبو حيان (-745هـ): "ليحتشمن ويُهَبَن، فلا يطمع فيهن"².

وهذا مذهب مشهور له في عدم التفريق بين الأمة والحرة في وجوب التستر، قال: "والظاهر أن قوله (وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ) يشمل الحرائر والإماء، والفتنة بالإماء أكثر، لكثرة تصرفهن بخلاف الحرائر، فيحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح"³.

والحاصل أن هناك اختلافاً في توجيه اللازم (لم يعرفوها) يؤدي إلى اختلاف في توجيه الملزوم :

فإذا قصد به التعجب كان كناية عن مبلغ تبرُّجها.

وإذا قصد به الجهل بعينها كان كناية عن تسُّرُّها حتى لا تعرف.

وإذا قصد به الجهل بحرمتها (كما في الآية) كان كناية عن ابتذالها والتعريض لها من قبل فساق القوم.

وهو في الأول والثالث يدخل في باب ذمِّ التهتك والفتنة ويترتب عليه تحريم ما فعلته من اتخاذ رجلٍ الخشب، وفي الثاني يدخل في باب الحياء والستر ويترتب عليه جواز فعلها ذلك.

فظهر أن الكناية في جميع ما سبق لعبت دوراً في اختلاف المستنبطين من الأحاديث الشريفة سواء كان ذلك من جهة تعيينها وعدمه أم من جهة

¹ - مفاتيح الغيب 25 / 198.

² - تفسير البحر المحيط 7 / 240.

³ - تفسير البحر المحيط 7 / 240.

الاختلاف في توجيه لازمها ومن ثم في توجيه ملزومها، وبأن أيضاً أنّ الكناية بطبيعة تكوينها هي القلب الأمثل لإخراج المسألة بفقهها وحُلُقها، والله أعلم.

المبحث الرابع

أثر الرواية بالمعنى في الاستنباط الكنائى

قبل البدء بمطالبه أنوّه بأمرين:

- أنّ المبحث لا بدّ متعرّضٌ لأثر الرواية بالمعنى في التصوير تبعاً للاستنباط ما دام الهدف من التصوير هو التأثير في المتلقي وهذا يعني دخول الصورة الفنية الدينية في بابٍ واسعٍ من الاستنباط الأخلاقي هو الحكمة في الوعظ والتلطّف في الأمر والنهي بأحسن السبل المؤثّرة .

- وأنه كان في الصدارة من الخطوة الأولى من الأطروحة، ثم استقرّ الرأي على تأخيرهِ إلى هذا الموضع حتى يمرّ العمل بجملةٍ وافرة مُستَكنة من الكنايات النبوية يمكن البناء عليها لهذا المبحث الهام.

وجعلتُ هذا المبحث في مطلبين، أحدهما الرواية بالمعنى والاحتجاج بالحديث في اللغة، وثانيهما نماذج من تخيّر اللفظ وتأثيره في الاستنباط.

المطلب الأول: الرواية بالمعنى والاحتجاج بالحديث في اللغة

أ- حكم رواية الحديث بالمعنى :

الجمهور على جوازها بشروط.

يقول الإمام الترمذي: "فأما من أقام الإسناد وحفظه وغير اللفظ فإن هذا واسع عند أهل العلم إذا لم يتغير المعنى... وإنما تفاضل أهل العلم بالحفظ والإتقان والتثبت عند السماع، مع أنه لم يسلم من الخطأ والغلط كبير أحد من الأئمة مع حفظهم"¹.

¹ - العلل الصغير ، الترمذي 1 / 746.

قال ابن رجب في شرحه على العلل: "كلامه يشعر بأنه إجماع وليس كذلك، بل هو قول كثير من العلماء"¹.

وهذا الكثير الذي قاله هم جمهور العلماء والذي استقر عليه العمل، قال الإمام النووي: "جمهور السلف والخلف من الطوائف على أنه يجوز في المعنى بجميعة إذا قطع بأداء المعنى"².

أما "إن لم يكن عالماً بالألفاظ ومقاصدها، خبيراً بما يحيل معانيها لم تجز له الرواية بالمعنى بلا خلاف، بل يتعين اللفظ الذي سمعه"³.

ويُنسب إلى الإمام مالك تجويزها في غير حديث النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، قال الترمذي: "سمعت معن بن عيسى القزاز يقول: كان مالك بن أنس يشدد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الياء والتاء ونحوهما"⁴.

وطريقة أخرى تميز الرواية بالمعنى للصحابة دون غيرهم لما اجتمع لهم من الفصاحة والبلاغة والجليلة العربية ومشاهدة أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله، جزم بها ابن العربي المالكي (-543هـ)، وقال: "فأفادتهم المشاهدة عقل المعنى جملةً واستيفاء المقصد كله، وليس من أخبر كمن عاين"⁵.

¹ - شرح علل الترمذي 1/ 147.

² - التقريب المطبوع مع تدريب الراوي 2/ 91 ، 92 .

ويُنظر: اللمع في أصول الفقه، الشيرازي ص 43؛ الأصول، شمس الأئمة السرخسي 1 / 349؛ قواطع الأدلة في الأصول، أبو المظفر السمعاني 1 / 354؛ المنهل الروي، بدر الدين بن جماعة ص 99؛ الباعث الحثيث، ابن كثير ص 141.

³ - التقريب المطبوع مع تدريب الراوي 2/ 91 .

⁴ - العلل الصغير 1 / 748.

⁵ - ينظر: أحكام القرآن 1/ 35، في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ...﴾ {البقرة: 59}.

وطريقة تُحيزُ مطلقاً، وأخرى تمنع مطلقاً .. لكن الجمهور على جوازها بالشرط المذكور، والكلام في غير ما جرى التبعّد بلفظه كالتشهد ونحوه.

قال الشيخ أحمد محمد شاكر: "والمتبّع للأحاديث يجد أن الصحابة أو أكثرهم كانوا يروون بالمعنى¹... كذلك نجد التابعين حرصوا على اللفظ، وإن اختلفت ألفاظهم، فإنما مرجع ذلك إلى قوة الحفظ وضعفه، ولكنهم أهل فصاحة وبلاغة وقد سمعوا ممن شهد أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وسمع ألفاظه. وأما من بعدهم فإن التساهل عندهم في الحرص على الألفاظ قليل، بل أكثرهم يحدث بمثل ما سمع"².

ويتفرّع عن هذه المسألة رواية بعض الحديث الواحد، فمنعه بعضهم مطلقاً بناء على منع الرواية بالمعنى، ومنعه بعضهم مع تجويز الرواية بالمعنى، وجوّزه بعضهم مطلقاً، قال الإمام النووي: "والصحيح التفصيل، وجوّزه من العارف إذا كان ما تركه غير متعلّق بما رواه بحيث لا يختلّ البيان ولا تختلف الدلالة بتركه"³.

ب- الاحتجاج بالحديث في اللغة:

لم تنجم مسألة الاحتجاج بالحديث الشريف في قواعد اللغة إلا في الأزمنة المتأخرة لما أنكر أبو حيان الأندلسي (-745هـ) على ابن مالك (-672هـ) كثرة اعتماده على الحديث بأنّ المتقدّمين من أئمة النحو كالخليل وأبي عمرو بن العلاء وأبي زيد والكسائي وسيبويه لم يكونوا يستشهدون به، وأن بعض أذكّاء

¹ - كذا قال ابن الصلاح أن الغالب على المتقدمين الرواية بالمعنى . ينظر: أدب المفتي والمستفتي ، 1 / 240.

² - الباعث الحثيث، الحاشية ص 143.

³ - التقريب المطبوع مع تدريب الراوي ص 97/2 .

المتأخرين علّل ذلك بعدم وثوقهم به لأجل الرواية بالمعنى، والرواة من العجم والمولّدين¹.

لكن هذا التعليل لم يصرّح به المتقدّمون، ولا هم صرّحوا برفض الاحتجاج بالحديث².

فيحتمل أنهم لم يستشهدوا بالحديث لأنه يحتاج إلى صناعة في الجرح والتعديل ولم يكونوا من أهلها، إنما غلب عليهم استقراء اللغة من البوادي كما في نظرية النموذج الحديثة³.

¹ - ينظر : همع الهوامع ، السيوطي 1 / 393؛ توجيه النظر إلى أصول الأثر، الشيخ طاهر الجزائري 2 / 700؛ الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية ، د. محمد ضاري حمادي ص 430، وما بعدها .

² - ولست أدري ما مستند الرفض الذي جاء في كتاب الدكتور فاضل السامرائي (ابن جني النحوي ص 129) : " النحويون القدامى لا يحتجون بالحديث النبوي ولا يستشهدون به ورفضوه جملة"، وهو يقول في كتابه الآخر (الحجج النحوية ص 148): "لم يهمل النحاة الأوائل الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف" وذكر احتجاج الفراء وسيبويه ببعض الحديث.

³ - في النظرية التوليدية التحويلية التي أسسها تشومسكي ومر ذكرها في الفصل الرابع ص 260، وفيها ينطلق الباحث التوليدي من فرضية الحدس اللغوي المستند إلى الكفاية اللغوية، فالإنسان الذي يتكلّم لغة معينة يستطيع أن يفهم جمل لغته هذه كما أنه يستطيع أن يحكم على اللغة الجديدة من حيث الخطأ والصواب في التركيب، هذه هي الكفاية. أمّا الحدس اللغوي فهو المعطيات اللغوية التي يتوصّل بها الباحث الألسني إلى قواعد اللغة عبر ما يسمى بالأنموذج، أي يضعون قواعد اللغة بناء على ما يسمعون من متكلّمها لكنهم يفترضون أنّه مثاليّ ويهملون العوامل التي تحدّ من الكفاية اللغوية كالشروء الذهني ومحدوديّة الذاكرة وغيرها. ينظر : الألسنية ، د. ميشال زكريا ص : 156 - 164.

وقد سبق بها أئمة اللغة العربية الذين أقاموا في البادية ليسمعوا الأعراب ويضبطوا اللغة على كلامهم في القرن الثاني الهجري حين وجد أئمة اللغة وأوائل مصنفي المعاجم في أعراب البادية ملاذاً من هذا الخضم العالمي من أوزاع اللغات المقبلة إلى حواضر الخلافة الإسلامية إبّان الفتح، فبات الأعراب يومئذ أهل الفصاحة، يلتمسهم الرواة ويحملون عنهم ويرون فيهم بقية اللغة ومادة العرب.

ثم كان مَنْ بعدهم يُكثِّرون أو يُقلُّون، بحسب شوكتهم في الحديث حتى جاء ابن مالك رحمه الله، فنصر الاستشهاد بالحديث على وجه الاحتجاج¹.

وأخيراً كانت قرارات مجمع اللغة العربية بمصر في العصر الأخير في محاولة للتوسُّط بين أنصار المذهبين، وما كلُّ توسُّطٍ وسَطٌ، ونص قرارهم:

"اختلف علماء العربية في الاحتجاج بالأحاديث النبوية؛ لجواز روايتها بالمعنى ولكثرة الأعاجم في رواتها.

وقد رأى المجمع الاحتجاج ببعضها في أحوال خاصة، مبيّنة فيما يأتي:

1- لا يُحتجُّ في العربية بحديثٍ لا يوجد في الكتب المدونة في الصدر الأول، كالكتب الصحاح الستة فما قبلها.

2- يحتجُّ بالحديث المدوّن في هذه الكتب الآنف الذكر، على الوجه الآتي:

أ- الأحاديث المتواترة والمشهورة.

ب- الأحاديث التي تُستعمل ألفاظها في العبادات.

ج- الأحاديث التي تعدُّ من جوامع الكلم.

د- كتب النبي صلى الله عليه وسلم.

ينظر: المزهري في علوم اللغة، السيوطي 1 / 244؛ شرح أدب الكاتب، مقدمة الرافعي ص 8.

على أنهم قديماً وحديثاً يفترضون المثالية في متكلّم اللغة وهذا يعني وجود هامشٍ من أخطاء الذاكرة والوهم أغضّوا عنه وتسامحوا فيه. وهذا الهامش واسع اليوم ضيقٌ في بادية العرب آنذاك؛ لصفاء عقولهم وقوة قريحتهم.

¹ - على سبيل المثال يقول ابن مالك في وقوع الشرط مضارعاً والجواب ماضياً، وساق حديث النبي صلى الله عليه وسلم، يرويه أبو هريرة: ((مَنْ يَمْلِكُ لَيْلَةَ الْقَدَرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ)) [متفق عليه: البخاري في الإيمان (قيام ليلة القدر من الإيمان) 35، مسلم في صلاة المسافرين (الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح) 760] : "إن النحويين يستضعفون ذلك ويراه بعضهم مخصوصاً بالضرورة، والصحيح الحكم بجوازه مطلقاً لثبوته في كلام أفصح الفصحاء، وكثرة صدوره من فحول الشعراء" شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، ص 14، 15.

فيجعل الأصل في الاحتجاج لصحة القضية ثبوتها في الحديث الشريف.

هـ- الأحاديث المروية لبيان أنه كان صلى الله عليه وسلم يخاطب كل قوم بلغتهم.

و- الأحاديث التي دَوَّنها من نشأ بين العرب الفصحاء.

ز- الأحاديث التي عرف من حال رواتها أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى، مثل القاسم بن محمد، ورجاء بن حيوة، وابن سيرين.

ح- الأحاديث المروية من طرق متعددة، وألفاظها واحدة¹.

وقد يرى أنّ هذا التقنين الشكلي لمادة تفيض حيوية يتعدّد عن الواقع العملي لهذه المادة وما يقوم بها من الصناعة الحديثية.

ففيما يخص البند (ج) وقولهم: (يُجْتَجُّ بالأحاديث التي تعدّد من جوامع الكلم) هذا يعني أنّ في حديث النبي صلى الله عليه وسلم جوامع وغير جوامع ! وجوامع الكلم هي الموجز من القول بأن يكون كثير المعاني قليل الألفاظ². وهي عند التحقيق سمة حديثه كلّها، ولا وجه لتخصيص بعضه دون بعض، لكنهم عندما يمثّلون لها يذكرون أحاديث قصاراً³؛ لأنها أجلى للغرض، على أنها في الغالب تكون جزءاً من حديث أطول، أو تكون كالتقرير لسبقها أو القاعدة لسياقها، وكلّ كلامه صلى الله عليه وسلم معيّن لا ينضب .

وفيما يخص البند (ز) وقولهم: (يُجْتَجُّ بالأحاديث التي عرف من حال رواتها أنهم لا يجيزون الرواية بالمعنى مثل القاسم بن محمد ورجاء بن حيوة وابن سيرين) فهذا فيه مغالطة؛ لأن منع هؤلاء الأئمة من الرواية بالمعنى لا يعني أن الأحاديث التي يروونها سلمت من الرواية بالمعنى، والإمام الترمذي الذي روى

¹ - مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً، مجلة المجمع اللغوي 7/4.

² - ينظر: مشارق الأنوار ، القاضي عياض 1 / 296؛ شرح النووي على صحيح مسلم 13 / 170.

³ - ينظر: فتح الباري، ابن حجر 13 / 248.

التزام النفر الثلاثة بتأدية الألفاظ روى في الموضع نفسه عن ابن سيرين أنه كان يسمع من عشرة: اللفظ مختلف والمعنى واحد¹.

فالذي يستفاد من التزامهم باللفظ الترجيح²، فإذا انتهى الحديث إلى أكثر من راوٍ بينهم القاسم بن محمد مثلاً فاختلف لفظهم ترجح لدينا لفظ القاسم إذ كان لا يروي بالمعنى، من غير أن يدلّ هذا على أن الحديث لم تدخله رواية بالمعنى قبل أن يصل إلى القاسم أو بعد خروجه من يده، وسيأتي في المطلب الثاني حديث رواه القاسم فيه مصداق ما أقول³.

وأكثر من ذلك فإن القاسم بن محمد الذي ضربوه مثلاً كان يلحن مع جلالته وتقدمه في العلم، فعن ابن أبي عتيق أنه تحدّث والقاسم عند عائشة رضي الله عنها قال: وكان القاسم رجلاً لحناً وكان لأمّ ولد، فقالت له عائشة: مالك لا تحدّث كما يتحدّث ابن أخي هذا؟ أما إني قد علمت من أين أُتيّت، هذا أدّبه أمّه وأنت أدّبتك أمك... الحديث⁴.

فلعلّ هذا مما جعل القاسم بن محمد يلتزم أداء اللفظ، والله أعلم.

وللأستاذ الدكتور نور الدين عتر كلمة هي الفيصل الذي طبّق المفصل، يقول: "نلفت النظر إلى أننا في الدراسة الأدبية نتطلب لفظ الحديث، لأنه مطلوب بشكل أساسي في الدراسة الأدبية. ونستطيع أن نقول: إن من تحرّى رواية الثقات واختبرها وجدها تحرص على رواية الحديث بلفظه في معظم

¹ - العلل الصغير 1 / 746.

² - ذكر الحافظ العراقي في التقييد والإيضاح ص 286، في النوع السادس والثلاثين (معرفة مختلف الحديث) من وجوه الترجيحات الترجيح بكون الراوي لا يروي بالمعنى .

³ - ص 481.

⁴ - رواه مسلم في المساجد (كراهة الصلاة بحضرة الطعام...) 560.

الأحوال، وإن ما يروونه بالمعنى قليل، وأكثر ما يكون بوضع لفظ موضع آخر، مما لا يبعد الباحث عن أسلوب الحديث النبوي الأصلي، ويستطيع إن كان له إلمام بفنّ المصطلح أن يتوصّل إليه ويتخيّره للدراسة الأدبية"¹.

وهذا الكلام ينسحب على الدراسات اللغوية عموماً نحوية أو بيانية، وأصدر عنه من جهتين :

الأولى - إذا كانت الدراسة الأدبية تتطلب لفظ الحديث فإن درس الكناية النبوية ألصق بلفظ النبي صلى الله عليه وسلم وأشدّ طلباً وتحرياً له.
الثانية - الوصول إلى ما يغلب على الظن أنه لفظ النبي صلى الله عليه وسلم ممكن بتطبيق قواعد المصطلح عند الموازنة بين الروايات وتخيّر الأصح منها.

والقضية أن رواية الصحابة وعرب التابعين بالمعنى لا تضر في الاحتجاج للنحو لأنهم في زمن الاحتجاج، والشأن في غيرهم أيسر وأكثر ضبطاً لما أكبوا على سماع الحديث وروايته فدارت الأسانيد على الأئمة الذين يُجمع حديثهم، وهي أكثر الحديث، فيُعلم اللفظ الأصح بمقارنة الروايات.

على أن موضوع بحثنا كناية النبي صلى الله عليه وسلم ولفظه.
ولا نعدم وسيلة للوصول إلى لفظ النبي صلى الله عليه وسلم يقيناً أو غلبة ظن بسبر الروايات وفحصها وتمحيصها وموازنتها وتخيّر اللفظ بكون أحد الحديثين فصيحاً والآخر دونه، أو كونه اتفق عليه الشيخان، أو كون راويه أكثر أو أجل، أو أحسن سياقاً واستقصاءً .. وغير ذلك من طرق الترجيح والتخيّر التي بلغ بها الحافظ زين الدين العراقي مئة وعشراً، ثم قال: "وتمّ وجوه آخر"².

¹ - علم الحديث والدراسات الأدبية ص 65 .

² - التقييد والإيضاح، زين الدين العراقي ص 289.

المطلب الثاني: نماذج من تَخْيَرِ اللفظ وتأثيره في الاستنباط

جوهرُ الكناية لازمٌ كُنِيَ به عن ملزومٍ مع إرادتهما معاً.

فمن الزاوية النظرية المنطقية لا يعدو تأثير الرواية بالمعنى في الكناية إحدى ثلاث: أن تُحذف الكناية بالكلية جرّاء اختصار الحديث، أو يُصرَّح بالملزوم ويُستغنى عن اللازم، أو يُستبدل ببعض كلماتها كليماً آخر مع بقاء اللازم والملزوم.

وعملياً إذ لم أزل في بحثي متفحّصاً موضع الكناية من كلّ حديثٍ جاء، إن كان في لفظها خلافٌ في الكتب الستة أو خلافٌ قوياً من غير الكتب الستة بيّنته ووازنّت الروايات حتى أبلغَ الأصحَّ والأمثلَ، فتحصّل لديّ من نحو مئة كناية نبوية مدروسةٍ مخرّجةٍ أحاديثُها أن تأثير الرواية بالمعنى في هذا النوع البلاغي ثم في الاستنباط منه يمكن ردّه جميعاً إلى الأصناف الثلاثة التي تقررت نظرياً، فسأذكرها الآن وأمثّل بما سبق تخريجه ودراسته مُلخّصاً بما يؤدي الغرض إنشاء الله.

الصنف الأول- أن تُحذف الكناية من بعض الروايات جرّاء اختصار

الحديث .

وله أسباب منها:

1 - أن يستغني الراوي عنها بالسياق ظناً منه أنها لا تؤثر في المعنى .

مثاله: حديث الرحم ((خَلَقَ اللَّهُ الْخُلُقَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهُ: مَهْ. قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ)).

فهذا الحديث رواه البخاري ومسلم، وخلاصة ما جاء في تخريج الحديث ودراسته¹ أنّ مداره على معاوية بن أبي مزّرذ يرويه عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

فرواه البخاري في تفسير القرآن عن خالد بن مخلّد عن سليمان بن بلال عن معاوية بن أبي مزّرذ، بهذا اللفظ الذي فيه ((فأخذت بحقو الرحمن)).
ورواه في التوحيد عن إسماعيل بن أبي أُويس عن سليمان بن بلال عن معاوية بدون هذه الجملة.

وفي الأدب من طريق عبد الله بن المبارك عن معاوية بدونها أيضاً.
أما مسلمٌ فرواه من طريق حاتم بن إسماعيل عن معاوية بدونها أيضاً .
على أنّ زيادة خالد بن مخلّد عن سليمان عن معاوية، مؤيّدَةٌ بما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي بكر الحنفي عن معاوية بن أبي مزّرذ أثبت فيه هذا اللفظ، وأبو بكر ثقة روى له الجماعة.

فالزيادة صحيحة، ويرجح كفتها احتمال أن من لم يروها إنما فعل ذلك تحرجاً منه وظناً أنّها لا تؤثر في المعنى واكتفى بقوله (هذا مقام العائد بك) على أنّها تقوم مقام (فأخذت بحقو الرحمن) وتغني عنها، كما مرّ.

ورأينا في موضعه ذاك² أنّ الشهرة فيها لمذهبين: طريقة الإمرار بلا كيف وطريقة التأويل، وبالتأويل تكون استعارةً تمثيلية لحال المستجير، ويحتمل أنه إذا طبّقنا عليها قانون الكناية باصطلاحها من دلالة اللازم على الملزوم - حيث لا يشترط في اللازم الخوض في الكيف - تيسّر لنا إمرار الصفة بلا كيف مع تحصيل معنى من الكلام، إذ هو كناية عن الاستجارة، والله أعلم.

¹ - حُجّج ودُرست الكناية فيه في مبحث التشخيص من الفصل الثاني ص 169، وما بعدها.

² - في الفصل الثاني ص 174.

2- الميل إلى الفقه على حساب التصوير .

كما في حديث وفد عبد القيس ونهي النبي صلى الله عليه وسلم إياهم عن التّقيير ونحوه من أوعيتهم، وقوله كناية عن مبلغ سُكرهم به: ((حتى إن أحدكم ليضرب ابن عمه بالسيف)) وما جعل الرجل منهم يخبأ جراحته تلك . ذكرتُ هذا الحديث في مطلب التقييح من فصل أغراض الكناية¹.

وهذه رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجها الإمام مسلم . وقلتُ ثمَّ إن الحديث من رواية ابن عباس رضي الله عنهما أذكرُ وأشهر ، فقد رواه البخاري عنه في مواضع كثيرة منها في المغازي، ومسلم في الإيمان، والترمذي في الإيمان، والنسائي في الإيمان وشرائطه، وأبو داود في الأشربة . وليس في أي من مواضعه قصة السيف، إنما يتعلّق جميعها بما علّمهم النبيّ صلى الله عليه وسلم من شرائع الإسلام وما نهاهم عنه من الأشربة.

على أن حديث أبي سعيد أتمّ سياقاً، وفي المسند سياقٌ أتمّ منه وأكثر تفصيلاً يذكر قصة السيف واسمَ الرجل الذي خبأ الجراحة وسبب جراحته تلك، وهو من رواية العصريين أنفسهم عن بعض الوفد في خبرهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، بإسنادٍ رجاله ثقات، ولا يضر كون الصحابي مبهماً، كما تقدّم في موضعه². وقدوم الوفد في السنة الخامسة أي قبل هجرة ابن عباس مع أبيه قبيل الفتح³.

¹ - في الفصل الخامس ص 358، وما بعدها.

² - في الفصل الخامس ص 360.

³ - ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر 3 / 631.

فكان ابن عباس رضي الله عنه لما سمع الحديث من الصحابة سمعه بغير قصة السيف أو أنّ اهتمامه في هذا الحديث كان بالشرائع منه دون القصص، أمّا أبو سعيد الخدري فرواه أتمّ، ورواه بعض الوفد بحذايره.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم (حتى إنّ أحدكم ليضرب ابن عمّه بالسيف) وإن كان لا يؤثر في حقيقة النهي لكنّه يؤثر في قبول النهي رغم استحكام العادة، ويستفاد منه استعمال الفطنة والحكمة في الحجاج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- وحديث ((كُتِبَ عَلَيْكَ مَا كُتِبَ عَلَيْهِنَّ)) فيه كنايةٌ باسم الموصول وصلته عن الحيض جواباً لقول عائشة رضي الله عنها: "لا أصلي" الذي هو أيضاً كناية عن الشيء نفسه.

تقدّم إخراج الستة له¹، وأنّ هذا من لفظ البخاري في الحج من طريق أفلح ابن حميد عن القاسم بن محمد عن عائشة، وأن الحديث رُوي مختصراً دون (كتب عليك ما كتب عليهن) وفيه تصريح عائشة بالحيض، من طريق عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها عند البخاري في الحيض، ومسلم في الحج، والنسائي في الطهارة، وأبو داود في المناسك، وابن ماجه في المناسك .

ورواه الترمذي في الحج عن رسول الله مختصراً جداً من طريق عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه عن عائشة ليس فيه شيءٌ من لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم.

والمخرجان صحيحان وأفلح وابن القاسم ثقتان، مع كون عبد الرحمن بن القاسم أجلاً - كما رأينا في ترجمة الرجلين في موضعه - لكنّ رواية أفلح فيها من

¹ - تقدم تخرجه والكناية فيه في مطلب الموازنة الفنية من الفصل الخامس ص 384، وما

بعدها.

التفصيل ما يربو على الروايات عن عبد الرحمن التي درات على مسألة الحكم الفقهي المتعلق بالحائض فيحتمل أن عبد الرحمن سمى الأشياء بأسمائها واقتصر على مراده مراعاةً للفقهاء، والمظنون مما حُبر من أمر النساء وما طُبعن عليه من الحياء أنهن يكنين عن الحيض، وكذلك الرجال لا يجبهون زوجاتهن بالسؤال عنه بلفظه. فالزيادة من أفلح زيادة ثقة وسياقه أتم ويُستأنس بما ذكرت أخيراً في تأييد روايته.

وفي الكنايتين (لا أصلي) و (كتب عليك ما كتب عليهن) فوائد جمعة تتعلق بالحكمة وسعة الصدر وحسن السياسة ولطف المعشر .
مع ما في كناية النبي صلى الله عليه وسلم (كتب عليك..) من الموازنة الفنية لقول عائشة (لا أصلي) وأن فيها كنايةً ومواساةً لها بعموم البلوى في بنات جنسها كما ذكر في موضعه.

3 - تقطيع الحديث بحسب الحاجة .

كحديث المرأة من بني إسرائيل التي حشت خاتمها مسكاً وهو أطيب الطيب واتخذت رجلين من خشب ((فمرت بين المرأتين فلم يعرفوها)).
تقدم¹ إخراج مسلم والنسائي والترمذي وأبي داود له، فسأذكر خلاصة ذلك مع أسماء الأبواب من الكتب لتعلقها بالغرض الآن:
مدار الحديث على حُليد بن جعفر والمستمر بن الريان تارة على الانفراد ،
وأخرى على الاقتران عن أبي نضرة المنذر بن مالك عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) :

¹ - تقدم تخرجه والحديث عن الكناية فيه في مبحث الاستنباط الفقهي والأخلاقي من الفصل السادس ص 448، وما بعدها.

- من طريق خليدٍ وحده :

رواه مسلم في الألفاظ من الأدب (في استعمال المسك وأنه أطيّب الطيب ..)، من طريق أبي أسامة عن شعبة عن خليد بن جعفر عن أبي نضرة عن أبي سعيد يرفعه: ((كَانَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَصِيرَةٌ ، تَمْشِي مَعَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ ، فَاتَّخَذَتْ رِجْلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ ، وَخَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ مُغْلَقٍ مُطْبَقٍ ، ثُمَّ حَشَتْهُ مِسْكَاً - وَهُوَ أَطْيَبُ الطِّيبِ - فَمَرَّتْ بَيْنَ الْمَرَأَتَيْنِ ، فَلَمْ يَعْرِفُوهُمَا ، فَقَالَتْ يَدَيَّاهَا هَكَذَا)) وَنَفَضَ شُعْبَةُ يَدَهُ .

ورواه الترمذي في الجنايز عن رسول الله (في ما جاء في المسك للميت)، عن محمود بن غيلان عن أبي داود وشبابة عن شعبة ... بإسناده عند مسلم ، بلفظ : ((أطيّب الطيب المسك)) هكذا دون قصة . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه النسائي في الزينة (أطيّب الطيب) عن عبد الرحمن بن محمد بن سلام عن شبابة عن شعبة ... بإسناده عند مسلم ، واقتصر لفظه على ذكر خاتم الذهب ، أنها حشته مسكاً وأنه أطيّب الطيب.

ورواه في الجنايز (المسك) عن محمود بن غيلان عن أبي داود وشبابة عن شعبة ... بإسناده عند مسلم ، بلفظ : ((أطيّب الطيب المسك)) هكذا دون قصة.

- من طريق خُليدٍ والمستمرّ معاً :

رواه مسلم في الألفاظ من الأدب (في استعمال المسك وأنه أطيّب الطيب ..) من طريق يزيد بن هارون عن شعبة عنهما معاً عن أبي نضرة عن أبي سعيد ... الحديث ، واقتصر لفظه على ذكر خاتم الذهب ، أنها حشته مسكاً وأنه أطيّب الطيب .

ورواه النسائي في الزينة (ذكر أطيب الطيب) ، من طريق عبد الرحمن بن غزوان عن شعبة ... بإسناده عند مسلم ، واقتصر لفظه على ذكر خاتم الذهب، أنها حشته مسكاً وأنه أطيب الطيب. لكنه لم يقل إنها من بني إسرائيل.

-من طريق المستمّرّ وحده :

رواه أبو داود في الجنائز (في المسك للميت) عن مسلم بن إبراهيم عن المستمّرّ بن الريّان ... بهذا الإسناد، ولفظه: ((أطيب طيبكم المسك)) هكذا دون قصة.

والكناية في قوله (فلم يعرفوها) تفرد بها أبو أسامة عن شعبة عن خلود عن أبي نصرّة . أما يزيد بن هارون عن شعبة، وسائر الرواة فقد رووه باختصارٍ، همّهم في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : والمسك أطيب الطيب .

فانظر إلى أسماء الأبواب تجدها جميعاً تلهجُ بالمسك، حتى عند الإمام مسلم الذي فيه طريق أبي أسامة إذ جاء: باب استعمال المسك ..

فكأن غرض سائر الرواة والمصنفين منهم إثباتُ جواز استعمال المسك ومدحُه، واتخاذُ المرأة رجلين من خشبٍ وأنها مرّت بالماء فلم يعرفوها لا يؤثّر في هذا الغرض فلم يُذكر إلا في حديث أبي أسامة .

وأبو أسامة يأتي بالسياق على أتم وجوهه كما مرّ في ذلك الموضع، والترجيح بكون الراوي يحرص على تمام السياق طريقةً معتبرة من الطرق التي أحصاها العراقي كما تقدّم¹.

ومن هذه الكناية (لم يعرفوها) التي أغفلها الرواة غير أبي أسامة يُستنبطُ جواز التغيير في الخلقة إذا كان الغرضُ التستّر وإزالة الشهرة وصرف الأنظار كما ذكره بعض الشراح احتمالاً، أو يُعلم بها مبلغُ تبرّج المرأة، أو يفهم منها سقوط حرمتها

¹ - في هذا المبحث ص 462.

وتعترض الفساق لها، فللكناية أثرٌ بالغٌ في الاستنباط والتصوير، كما تقدّم في موضعه.

الصنف الثاني - أن يُصرّح بالملزوم، ويُضرب على اللازم :

وهذا أكثر ما يقع من رواية الكناية بالمعنى، إذ يفهم الراوي من اللازم الذي سمعه ملزوماً فيدعُ اللازم ويتعلّق بالملزوم فيذكره، فتتعلّط الكناية، ويذهب وجه التصوير الفني، وربما فوّت ذلك فرصة استنباطٍ من اللازم .

كحديث ((أما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه)) وما ذُكر من أنه كناية عن كثرة الضرب أو كثرة السفر.

تقدم تخريج الحديث¹ ورواية مسلم والنسائي وأبي داود وابن ماجه له من طرقٍ عن فاطمة بنت قيس في خبر نكاحها من أسامة رضي الله عنهما .

- فمن طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن عن فاطمة بنت قيس: ((أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه)) رواه مسلم في الطلاق، والنسائي في النكاح، وأبو داود في الطلاق.

- ومن طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي الجهم بن صُخَيْرِ العَدَوِي أنه دخل مع أبي سلمة بن عبد الرحمن على فاطمة بنت قيس فحدثتهم الحديث، وفيه: ((أما أبو جهم فرجلٌ ضرابٌ للنساء)). رواه مسلم في الطلاق، والترمذي في النكاح وفيه : ((فرجل شديد على النساء))، وابن ماجه في النكاح وفيه ((وأبو جهم يضرب النساء)).

- ومن طريق عبد الرحمن بن عاصم بن ثابت عن فاطمة بنت قيس، وفيه: ((أخاف عليك قسقاسته للعصا)) رواه النسائي في الطلاق.

¹ - تقدم تخريجه في الفصل الأول ص 56 .

وانتهيتُ في موضعه إلى أن المتأمل في روايات الحديث يرى أن حديث أبي سلمة وأبي بكر بن أبي الجهم واحد، ففي رواية أبي بكر بن أبي الجهم أنه دخل مع أبي سلمة إلى فاطمة بنت قيس فحدثتهم. فكأن أبا سلمة روى ما سمعه منها بلفظه، ورواه ابن أبي الجهم بالمعنى أنه ضرب للنساء، أو شديد على النساء أو يضرب النساء، وابن أبي الجهم أعلم بجده .

فلما رواها حفيد أبي الجهم بالمعنى ذهب وجه الكناية أي لازمها وبقي الملزوم، وفي ذلك من جواز ضرب النساء ما لا يخفى، لكن من الوجهة التصويرية فالتأثير في الكناية أبلغ وأجمل إذ فيها صورة التهديد المستمر وليس فيها صورة الضرب وما يقتزن بها من الغلظة والوحشة. كما أن المشورة في الخطبة وقد استثنيت من أصل الغيبة ينبغي التحفظُ فيها قدر الإمكان فإذا حصل المراد بالعبارة الخفيفة لم يُصر إلى ما هو أشد، والله أعلم.

- وقول النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة عمة جابر وهي تبكي أخاها: ((تَبْكِينَ أَوْ لَا تَبْكِينَ مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ)).

تقدم درسه¹، وهذه رواية البخاري في الجنائز من طريق شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر، ونحوها عند مسلم في فضائل الصحابة، والنسائي في الجنائز، من هذه الطريق .

وروى البخاري في الجنائز أيضاً من طريق سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر، قال في روايته: ((فَلَمْ تَبْكِي أَوْ لَا تَبْكِي)) على الشك من الراوي. ونحوها عند مسلم في فضائل الصحابة ، والنسائي في الجنائز.

والنتيجة أن الروايات عن شعبة فيها التخيير وعن سفيان فيها الشك. فاستظهر القاضي عياض أن (أو) في رواية شعبة على الشك ، وفسرها النووي بالتخيير ، ومال إلى التخيير ابن حجر وجزم به العيني .

¹ - تقدم تخرجه ودراسة الكناية فيه في الفصل الخامس ص 387، وما بعدها.

وبالتخير (تبكين أولاً تبكين) تحصل الكناية؛ إذ التخير في مثل هذا الموضوع جارٍ في كلام العرب كنايةً عن التسوية، والمعنى: سواءً بكاءك وعدمه، ثم التسوية كناية عن النهي إذ العقل يقضي بالتنزه عن الشيء الذي يستوي وجوده وعدمه.

فالحاصل النهي وكذا رواه سفيان في أحد الشكّين فذهب اللازم وبقي الملزوم، وفقد مع اللازم في روايته أسلوبٌ عربي ذكيّ بليغ أتيت بشاهد له من شعر حسان في ذلك الموضوع .

– وقول النبي صلى الله عليه وسلم للرماة في أحد : ((إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ))¹.

رواه البخاري في الجهاد والسير ، وأبو داود في الجهاد ، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

وروى الإمام أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الحديث في قصة غزوة أحد وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للرماة: ((اخْمُوا ظُهُورَنَا فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلْ فَلَا تَنْصُرُونَا وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تَشْرِكُونَا)).

وفي إسناده عبد الرحمن بن أبي الزناد، وحديثه هذا تجاذبه أمران : الأول: أن الراوي عنه بغدادى وهم لا يثقون برواية البغداديين عنه، لكنه سليمان بن داود الثقة الجليل، فلا ضير .

والثاني: أن روايته فيه عن أبيه، وتكلّم بها الإمام مالك، والله أعلم . ومع تصحيح الحاكم والذهبي له فلا ينهض لإسناد البخاري في حديث البراء.

¹ – حُجِّجَ الحديث وُشِّرِحَت كُنَايَتُهُ فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ ص 390، وما بعدها.

ويفضل حديث البراء حديث ابن عباس -سوى قضية الإسناد- بأن البراء شهد المعركة، وهو قوله في الحديث : فأنا والله رأيت النساء يشتددن ... ، أما ابن عباس رضي الله عنه فقد رُوِيَ له فرواها وهذا لا يضر في الصحة، لكن يقوي احتمال أنه روى بالمعنى وأن البراء روى باللفظ .

و(تخطفنا الطير) التي ذكرها البراء كناية عن القتل الذي ذكره ابن عباس، لكن اللازم الذي هو خطف الطير ذهب من رواية ابن عباس فذهب معه وجه غايته في البلاغة يتعلق ببيئة العرب وتأثرها بمنظر الطير التي تنافس على الجثث بعد انحسار المعركة وانصراف الجند، فيكون نهي النبي صلى الله عليه وسلم للرماة ألا يبرحوا بهذه الكناية أقوى وأعظم تأكيداً وأشدَّ تحريجاً وأبلغ في إعدارهم وإقامة الحجة عليهم كما تبين في موضعه.

الصنف الثالث- أن يُستبدل شيء (تركيب أو كلمة) ضمن الكناية مع بقاء اللازم والملزوم.

وفي هذه الحال تخسر الصورة الفنية بعض عناصرها المتعلقة بفصاحة النبي صلى الله عليه وسلم دون تغيير في جوهر الكناية .

نحو قول النبي صلى الله عليه وسلم لسعد : ((إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا يَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ)).

تقدم درسه¹، وأن البخاري رواه في مواضع منها الجنائز، ومسلم في الوصية، والترمذي في الوصايا، والنسائي في الوصايا، وأبو داود في الوصايا، وابن ماجه في الوصايا .

وهذه من رواية البخاري من طريق مالك عن ابن شهاب عن عامر بن سعد ابن أبي وقاص عن أبيه وهي أكمل الروايات مع كثرة ما أخرج البخاري وغيره

¹ - خُرج الحديث وُشِّرت كُنَايَتُهُ فِي مَطْلَبِ التَّرْوِيحِ فِي الْفَصْلِ الْخَامِسِ ص 339 وما بعدها.

هذا الحديث وقطّعه في مناسبات عدة، ولم يغِب وضع اللقمة في فم امرأته إلا عند النسائي وابن ماجه، وسائر روايات الصحيحين والموطأ تثبتُها وإن اختلف في بعض تفصيلاتها، ففي رواية: (اللقمة تجعلها في في امرأتك) وفي رواية: (ترفعها إلى في امرأتك) ونحو ذلك .

و "ما تجعل في في امرأتك" كناية عن الملاعبة والملاطفة، مع كناية أخرى عن موصوفٍ هو الشيء القليل الذي هو قدُرُ الفم. وذكرت في موضعه تلاحم الكنايتين المعبر عن الأصرة الزوجية وأن القليل يغدو كثيراً بحسن العشرة وجمال الصورة، وقوة الجنس بين (في) و(في) الذي يوحي بعمق الشعور والتوحد . والمعنى الأخير (الجناس) يزول بالرواية الأخرى (ترفعها إلى في امرأتك) لكنه لا يؤثر في جوهر الصورة ولا يزيل عنها وصف الكناية ولا يغيّر من لازمها أو ملزومها.

- وحديث ((إِنْ اللَّهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتِيهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ)) يُرِيدُ عَيْنِيهِ.

تقدّم درسه¹، وهذه من رواية الإمام البخاري في المرضي بإسناد جليل من طريق الليث عن ابن الهاد عن عمرو مولى المطلب عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

وثمة روايات في غير الصحيح تقول ((كريمتي عبدي)) و ((بصر عبدي)) روى أولاهما الترمذي في الزهد، من طريق عبد العزيز بن مسلم عن هلال بن أبي هلال (أبي الظلال) عن أنس، وقال : حسن غريب من هذا الوجه . وروى الثانية الإمام أحمد في مسنده من طريق حرب بن ميمون الأنصاري عن النضر بن أنس عن أنس، وحرب هو أبو الخطاب البصري، صدوق رمي بالقدر، كما سبق ذكره، والإسنادان لا يقومان لإسناد البخاري .

¹ - في مطلب تعظيم المصاب لتعظيم الجزاء من الفصل الخامس . ص 345، 346.

وكأنهما من الروايات بالمعنى، فأما (بصر عبدي) فصريحة، وأما الكريمتان فكالحبيبتين تُخَرَّجان على الكناية عن موصوف، مع أن الكناية بالحبيبتين تشتمل على تصوير فني قوامه التشخيص إذ الحبيب يقال عن المحبِّ والمحبِّ، ففيه من إسباغ المشاعر على العينين وجعل الافتراق من جانبين ما يزيد من حزن الفؤاد ولوعة البين كما ذكرت في ذلك الموضع، والمقصود تعظيم المصيبة بفقدتهما تمهيداً لفهم العوض الكبير المنتظر الذي هو الجنة .

وهذا التعظيم يحصل بالكناية بالحبيبتين، وهو من الكناية بالكريمتين أبعد، وليس من التصريح بالبصر في شيء.

- وحديث ((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)) .

تقدّم درسه¹، وهذه رواية البخاري في الرقاق، ومسلم في الزهد والرقائق . ورواها الترمذي في الزهد، وابن ماجه في الفتن، من طريق محمد بن إسحاق ابن يسار إمام المغازي، قال فيها : ((يهوي بها في نارجهنم سبعين خريفاً)) وهو صدوق تكلم فيه وليس من شرط الصحيح . ويشبه أن تكون رواية بالمعنى، إذ فهم الراوي معنى البعد فقيده بسبعين خريفاً.

وثمة رواية شديدة الضعف² فيها: ((يهوي بها أبعد ما بين السماء والأرض)) رواها ابن المبارك في الزهد عن يحيى بن عبيد الله بن موهب التيمي المدني عن أبيه عن أبي هريرة، ويحيى بن عبيد الله متروك، كما مرّ في موضعه.

والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم (أبعد ما بين المشرق والمغرب) فإنه إذا طالت المسافة جداً بحيث لا يُدرك شأؤها ردّف ذلك أن يقال: أبعد ما بين

¹ - تقدم تحريجه وشرح الكناية فيه في مطلب الاقتصاد من الفصل الخامس ص 375 وما بعدها .

² - خرجت في الفصل الخامس ص 378 .

المشرق والمغرب فهي كناية عن طول المسافة، لكن فيها اقتصاداً في التأثير الحسي من جانبيين:

الأول: العودة بخيال المتلقي من عالم الغيب الموحش (النار) إلى عالم الشهود المأنوس (بين المشرق والمغرب)، إذ لا يُراد به أن يعيش في الأجواء النارية أكثر من ذلك فيذهل عن سبب هذه الأجواء وينسى أنها كلمة!.

ورواية محمد بن إسحاق (يهوي بها في النار سبعين خريفاً) لا تعطي هذه الفائدة ولا ترجع المتلقي إلى عالم الشهود ليتفكر في كلمته.

والثاني: العودة بخيال المتلقي من المحور الشاقولي (الهوي في النار) إلى المحور الأفقي (بين المشرق والمغرب) لاسترواح العين للمشاهد العرضية، وما شقَّ على العين شقَّ على النفس، فترحم هذه الكناية خيال المتلقي من متابعة حدث الهوي السريع العنيف النافق في النار، وتنقله إلى البعد الأفقي الأسهل تصوُّراً وتأمُّلاً.

وهذا لا يتحقق بالرواية الثالثة (بين السماء والأرض) على فرض قبولها. فالكناية التي جاءت في الرواية الأصح أدارت المحور من الشاقول إلى العرض ومن الغيب إلى الواقع مقتصدةً في التأثير على الحس النفسي للمتلقي، وهذه خلاصة ما جاء في موضعه، والله أعلم.

وهكذا تبين ما للرواية بالمعنى من أثرٍ في الاستنباط الكنائي في حال حذف الكناية من بعض الروايات استغناءً بالسياق، أو حذف اللازم والتصريح بالملزوم، أو الإبقاء عليهما مع تغيير لفظ في الكناية، وظهر أنه بسبر الروايات ومقارنتها يمكن الوصول إلى ما يغلب على الظن أنه لفظ النبي صلى الله عليه وسلم لجعله موضوعاً للدراسة الأدبية، والحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

آيون تائبون عابدون لربنا حامدون

بلغنا المنزل من سفرنا هذا في الكناية النبوية الشريفة وأثرها في الاستنباط ، ولم يبق إلا بصماتٍ أسجلها في ختامه ؛ فإن الضيف مخبر أهله بمبيت ليلته.

النتائج:

أ- نتائج عامة في البلاغة والكناية في الأدب والحديث.

- إن البلاغة العربية التقليدية بحدودها وتقسيماتها هي الضمان الذي يمكن النقد الأدبي من الخوض في الأسلوبية الحديثة والإفادة من جديد علم النفس والجمال دون ضياع الشخصية العربية.

- إن تعريف السكاكي للكناية جامع مانع، وهو الذروة التي توجت ما سبقها من جهود ولا سيما جهود الشيخ عبد القاهر، أما ما بعده فكان رجوعاً إلى ما قبله في المستوى النظري حيناً وفي المستوى التطبيقي أحياناً.

- تتحول الكناية إلى مثلٍ عند كثرة الاستعمال ، ومن هذه النقطة جاء الخلط بين الكناية والمجاز بالنظر إلى الأمثلة التقليدية للكناية التي لم تعد لوازمها حقيقة ، والحق أنها ليست بكنايات بل هي أمثال ذات أصلٍ كنائي.

- الكناية تعبير بالصورة، والتلاحم بين الصورة والفكرة لا يبلغ حد التماهي في أيٍّ من الأنواع البلاغية قدر ما يبلغ في الكناية.

- مزية الكناية هي في الإيجاز المعنوي والتصوير الفني وليس في الغموض.

- التجسيم في الكناية يشكل ظاهرة متميزة ، أما التشخيص فهو ألصق بالاستعارة.

- فائدة التجسيم أنه تقديم حسي للمعنى يلائم الفطرة ، ويحافظ على المغايرة الجمالية، وفائدة التشخيص أن الناس مع اعتقادهم بالمعاني لا يحسبون لها الحساب ولا يرون لها الحق الذي يرونه للأشخاص ذات الإحساس والتفكير .

- للطبيعة (ومنها البيئة) دور بالغ في صنع الكناية ، والكناية باعتبارها إردافاً ولزوماً لا تخرج عن كونها حركة طبيعية ، ولمشاهد الطبيعة دور في زيادة التأثير الكنائي يأتي من الملابس بين المتلقي والطبيعة ووقع مشاهداتها في نفسه.

- الكنايات الطبيعية أسرى في الزمن من الكنايات البيئية التي غالباً ما تتحول إلى أمثال وتُخرّج على الاتساع، وذلك لاختلاف البيئات عبر المكان والزمان، ولأن اللزوم العرفي أضعف من اللزوم الطبيعي.
- اللون والحركة مظهران طبيعيان يعكسان التفاعلات الداخلية في الأجسام وعنهما ينجمان، ولهذا كان قالب الكناية بلازمها وملزومها أليق أنواع البلاغة بهما .
- الكناية باعتبارها صورة بيانية وصورة فنية دليل على الصدق الفني .
- اللغة العربية موقّعة ابتداءً من اللفظ إذ يلائم معناه موسيقاه، وإنما يتفاضل أهل الأدب في تملك اللغة وصدق الشعور.
- المنطق والانفعال لا يختصمان عند أصحاب الفطرة السليمة وكلما اقتربت الفطرة إلى الكمال توخّذ المنطق والانفعال.
- الكناية ذات صلة بالإيقاع باعتبارها صورة تنبعث مع الإيقاع من مصدر واحد هو الانفعال.
- خصوصية الكناية في الانتقال اللزومي من الصفة إلى الدليل تجعل الصدق الواقعي فيها مظهراً للصدق الفني ، وليس دافعاً إليه فحسب كما في سائر أنواع البلاغة ، وذلك بسبب بعدها الطبيعي عن الإغراق.
- الكناية دليل على الانشغال الفكري للمبدع ، وهي قفْزٌ من الملزوم إلى اللازم ما كان له أن يتمّ لولا تمكُّن عميق للفكرة في النفس.

ب- نتائج خاصة بالكنايات في الحديث لشريف

- إنّ السمو البلاغي في الأحاديث النبوية دائرٌ مع صحة اللفظ، وهذا يؤكد ضرورة الاعتماد على منهج نقد المحدثين للمتن والإسناد، ومقارنة الروايات وتخيّر لفظ النبي صلى الله عليه وسلم في الدراسة الأدبية .
- الكناية أهم دليل على أصالة البلاغة العربية لورودها في الحديث الشريف باسمها ، ثم بتكييفها الذي اصطلح عليه.

- لا تقتصر أغراض الكناية النبوية على التهذيب ، بل لها أغراض تقوم بها الصورة من ترغيب وترهيب ذاتين يتأيدُ بهما معنى الأمر والنهي الذي يطلبه الحديث كله، ولها أغراضٌ فنية تساهم في درجة التأثير في المتلقي.
- تحتوي الكنايات النبوية على عناصر متنوعة من التصوير الفني من تشخيص وتجسيم ولون وحركة وإيقاع وهذا يؤدي إلى زيادة التأثير في المتلقي.
- استحضار الصورة يفيد في فهم الحديث وحل مشكله؛ فهو يقرب المتلقي من الواقعة ويجعله كالمشاهد لها.
- إن النبي صلى الله عليه وسلم صادرٌ عن وحيٍ فهو براءٌ من مشكلات الخيال التي تنشأ من قصور الحاسة وتسلب بعض الصور على ذهن المبدع.
- تنساب الكناية النبوية في حديثها بغير نفور ولا فتور ، فيأتي تصويرها وإيقاعها ملائماً لسائر الحديث الشريف ، وقد تلعب الكناية دور الاقتصاد فيه.
- أظهرت النماذج المدروسة من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم حكمةً بالغة في مداورة النفس ومحاورتها والتأثير فيها بغير مللٍ ولا كللٍ ولا ثقل وهذا ما يُسمَّى الاقتصاد في التأثير الحسي، وهذا إنما يعني امتلاكاً لخاصية اللغة والفكر والعاطفة في آن واحد، وهكذا دراسة الاقتصاد في البلاغة ينبغي ألا تكتفي بملاحظة التساوي الظاهري بين المعنى واللفظ المعبر عنه بل ينبغي الاتجاه إلى أغوار نفس المتلقي ورصد أثر التصوير والإيقاع الموسيقي فيها.
- أن أوّل أدوار الكناية النبوية في الاستنباط دخولها في أصل التكليف في حديث رفع القلم عن ثلاث .
- إن في الكناية النبوية ثروة من الاستنباط؛ لأنها من طبقتين لازم وملزوم، والاستنباط منها استخراج الملزوم ، ولكن لما كان اللازم والملزوم فيها مرادين فيمكن الاستفادة من اللازم أيضاً .
- يتجلى تأثير الكناية في اختلاف المستنبطين حين لا تتعين فيراها البعض كناية ، ولا يراها آخرون كذلك، وحين تتعين ولكن يختلف في توجيه لازمها وملزومها.

- تدخل الكناية وفق مصطلحها المستقر كحجة عقلية أو عقلية في كثير من مسائل الاعتقاد.

- إن خصوصية التعبير الكنائي وكونه من طبقتين معنى ملزوم ولازم محسوس يرشح الكناية لتكون من طبقتين أيضاً: فقه وأخلاق، فالطبقة الحسية تخضع لأحكام الفقه العملي، والطبقة المعنوية تخضع لأحكام الفقه الوجداني.

- بسبر الروايات ومقارنتها يمكن الوصول إلى ما يغلب على الظن أنه لفظ النبي صلى الله عليه وسلم لجعله موضوعاً للدراسة الأدبية، فهذا هو المنطلق لا قرارات مجمع القاهرة في شأن الاحتجاج بالحديث لكون بنودها شكلية لا تستوعب حيوية الحديث النبوي الشريف.

- للرواية بالمعنى أثر في الاستنباط الكنائي في حال حذف الكناية من بعض الروايات استغناءً بالسياق، أو حذف اللازم والتصريح بالملزوم، أو الإبقاء عليهما مع تغيير جزئي في لفظ اللازم.

- أكثر ما تضرر الرواية بالمعنى الصورة الفنية الدينية مع دخولها في باب واسع من الاستنباط الأخلاقي هو الحكمة في الوعظ والتلطف في الأمر والنهي بأحسن السبل المؤثرة.

- الاختراع في الكنايات النبوية كثير، وتعبر الكنايات النبوية المخترعة عن صور بيئية حاضرة في ذهن العربي لم يكن يستطيع التعبير عنها بالطريقة الملائمة وهذا يفسر التأثير القوي للكناية النبوية في نفوس المتلقين.

- ظهر من مقارنة الكناية النبوية المخترعة بما جاء عن بلغاء العرب وأكابر شعرائهم المتأثرين بها أنهم قصروا عنها حين راموا حكاية المعنى، فإذا اقتبس منها الأديب الأريب كانت كلمة النبي صلى الله عليه وسلم كالعروس من حولها وصيفاتها، ومن عجب أن كنايات الحديث وأمثاله لا تُبتذل بالإيداع والاقتباس من أهل الادب بل تزداد توقداً كلما نفخوا فيها، وتظهر فضيلتها حيث حلت من كلامهم.

التوصيات

- إن باب الكشف عن الاختراع في الحديث النبوي مفتوح لا يشاء أحد أن يقع على جديد منه إلا وجد ، فأقترح أن يتتدب لموضوع الاختراع النبوي قومٌ ممن طلبوا الحديث والأدب أو يستعين هؤلاء هؤلاء فيحصل من اجتماعهم جلاء البيان النبوي وحضوره في أساليب العرب.

- وأوصي بدراسة مدى اطلاع الوزير ابن الأثير على كتب الشيخ عبد القاهر الجرجاني ومدى تأثيره بها، وأهمية ذلك بخصوص الكناية أن ابن الأثير أعاد المسيرة إلى خطوطها السابقة لعبد القاهر ولم يُفد من التقدم الذي حققه خلافاً للسكاكي وهذا سبب إرباكاً في مسيرة الكناية بعد.

- وأوصي بتتبع أصول المعاني التي استخلصها ابن فارس في جميع مقاييسه بملاحظة الإيقاع والتحليل الصوتي فيها، فإنه رحمه الله اجتهد في ردّ المعاني المتعددة إلى أصول واحدة فأصاب من مظاهر الإعجاز ما جعله يعتقد بتوقيف اللغة العربية، من دون أن ينبّه للإيقاع الموسيقي فيها، فهلاً وُضعت هذه اللبنة.

- وأخيراً فلعل هذا البناء الكنائي المتضمن للتأصيل والتطبيق بما فيهما من دراسة لعلاقات الكناية النبوية وأغراضها وصورتها الفنية وتأثيرها في الاستنباط ، لعل هذا جميعه يصلح أن يكون نواة لمشروعٍ بلاغي فقهيّ في الحديث النبوي الشريف يسري على المجاز وسائر أنواع البلاغة، وأنا أوصي بذلك، وأسأل الله عز وجل أن يجعلني من السائرين في الركب على الدرب، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولعلمائنا ولمن له حق علينا وللمؤمنين والمؤمنات أجمعين.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير،
وصلّى الله على سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين.

9/ ذو الحجة/ 1431هـ

الفهارس العلمية

1- فهرس الآيات الكريمة

2- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

3- فهرس الكنايات النبوية

4- فهرس الأعلام

5- فهرس المصطلحات

6- فهرس التحقيقات

7- فهرس الأشعار

8- فهرس الأمثال

9- فهرس المصادر والمراجع

10- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآية	السورة: رقم الآية	الصحيحة
(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ)	{البقرة: 59}	456
(قَالُوا اذْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوُثُهَا تَسُرُّ النَّاسَ)	{البقرة: 69}	202
(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)	{البقرة: 223}	69، 11
(فَأَثَرُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)	{البقرة: 223}	53، 17
(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةٍ	{البقرة: 235}	30
(النِّسَاءِ)		
(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)	{آل عمران: 55}	408
(		
(وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ)	{آل عمران: 77}	31
(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)	{آل عمران: 106}	183
(وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ)	{النساء: 21}	55
(أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ)	{النساء: 23}	443
(أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ)	{النساء: 43}	17
(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ)	{النساء: 43}	43، 11
	{المائدة: 6}	
(وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)	{النساء: 63}	2
(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ)	{النساء: 83}	396
(لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)		

128	{ النساء: 128 }	(وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ)
411	{ النساء : 159 }	(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ)
436	{ المائدة: 38 }	(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا)
55، 14، 73	{ المائدة: 75 }	(كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ)
415	{ الأنعام: 102 }	(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)
40	{ الأعراف: 149 }	(وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ)
146	{ الأعراف: 156 }	(وَرَحِمَتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)
17	{ الأعراف: 189 }	(فَلَمَّا تَعَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً)
447	{ التوبة: 29 }	(حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)
55	{ هود: 44 }	(وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)
52	{ هود: 44 }	(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي)
48، 44	{ الرعد: 17 }	(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِعًا)
44	{ إبراهيم: 46 }	(وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)
129	{ الحجر: 80-83 }	(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ وَاتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُمْصِحِينَ)
183	{ النحل: 58 }	(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)
106	{ النحل: 112 }	(فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)
224، 59	{ الكهف: 42 }	(فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا)
82	{ مريم: 4 }	(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)

87	{ طه:78 }	(فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)
209	{ طه:102 }	(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا)
294	{ الحج:18 }	(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)
89	{ النور:35 }	(يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ)
224	{ الفرقان : 27 }	(وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)
2	{ القصص:34 }	(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا)
90	{ الأحزاب:10 }	(وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)
47	{ الأحزاب:27 }	(وَأَوْزَتْكُمْ أَرْضُهُمْ وِدْيَارُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطُوهَا)
452	{ الأحزاب:59 }	(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)
292، 273	{ يس:69 }	(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)
79	{ الصافات:48 }	(قَاصِرَاتِ الطُّرْفِ)
57	{ الصافات:49 }	(كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ)
415	{ الصافات:96 }	(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)
279	{ ص:36 }	(فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجَاءً حَيْثُ أَصَابَ)
17	{ فصلت:21 }	(وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا)

41	{ الشورى: 11 }	(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)
59	{ الزخرف: 18 }	(أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْخَلْقَةِ)
90	{ الدخان: 29 }	(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)
189	{ الأحقاف: 24 }	(فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ)
47	{ الحجرات: 12 }	(أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً)
303	{ الحجرات: 13 }	(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)
31	{ القمر: 13 }	(وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ)
209	{ الرحمن: 15 }	(وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ)
23	{ الرحمن: 56 }	(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)
186	{ الرحمن: 64 }	(مُدْهَمَّتَانِ)
245	{ الواقعة: 30 }	(وَظِلٍّ مَمْدُودٍ)
128	{ الحشر: 9 }	(وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)
	{ التغابن: 16 }	
116	{ القيامة: 33 }	(ثُمَّ دَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى)
189	{ عبس: 40، 41 }	(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ)
240	{ عبس: 30 }	(وَحَدَائِقُ عُلبَاءٍ)
242	{ العاديات: 8 }	(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

فهرس الأحاديث الشريفة

طرف الحديث	الرواة	الصحيفة
اتَّقُوا اللَّعَّانِينَ...	رضي الله عنهم	
18	أبو هريرة	18
اتقوا الملاعن الثلاثة ...	معاذ بن جبل	18
احْمُوا ظُهُورَنَا فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلْ فَلَا تَنْصُرُونَا...	ابن عباس	391
أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ ...	أبو سعيد الخدري	136
إذا جلس بين شعبها الأربع ...	أبو هريرة	74
إذا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ...	صهيب الرومي	182
إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ	أبو هريرة	211
مَلَكَانِ...		
إذا مشيت أمتي المطيطاء وخدمتهم ...	خولة بنت قيس	373، 112
إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ...	أبو هريرة	347
أَسْرَعُكُمْ لِحَاقًا بِي...	عائشة	124
اشْتَكَيْتَ النَّارَ إِلَى رَبِّهَا ...	أبو هريرة	363
اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ...	عوف بن مالك	206
أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ ...	ابن مسعود	123
أَلَا تَرْضَى أَنْ الْمُؤَذِّنِ أَطْوَلَ النَّاسِ أَعْنَاقًا ...	بلال بن رباح	118
أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه ...	فاطمة بنت قيس	55
أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَخْشُرُ النَّاسَ ...	أنس بن مالك	231
أَمُرُّكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَأُكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ ...	أبو سعيد الخدري	358
إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّيُوفِ....	أبو موسى الأشعري	219
إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ خُلُوهَا فَاتَّقُوهَا...	أبو سعيد الخدري	451
إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَكُونُ حَتَّى تَكُونَ عَشْرُ آيَاتٍ...	حذيفة بن أسيد	232
إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَّبِعُ مَا فِيهَا ...	أبو هريرة	375، 475

- 474، 345 أنس بن مالك إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتِيهِ ...
- 412 أبو هريرة إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ ...
- 109 أبو هريرة إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى مَنْ يَجُرُّ إِزَارَهُ ...
- 238 عبد الله بن عمرو إِنَّ اللَّهَ يُغِضُّ الْبَلِيعَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ ...
- 188 عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى مَخِيلَةَ
- 423 جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم واكل مجذوماً..
- 94 أبو هريرة إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةٍ ...
- 390 البراء بن عازب إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا...
- 236 أبو هريرة أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ ...
- 436 ابن عمر أن رسول الله قطع في مَجْرٍ...
- 245 أبو هريرة إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً...
- 158 أبو هريرة إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شَرَّةً وَلِكُلِّ شَرَّةٍ فِتْرَةٌ ...
- 141 أبو موسى الأشعري إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَهْدَى...
- 130 أبو سعيد الخدري إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا ..
- 181 مطرف بن الشخير أن نبي الله صلى الله عليه و سلم ائْتَرَزَ بِبُرْدَةٍ...
- (مرسل)
- 172 عبد الرحمن بن عوف أنا الرحمن، خلقتُ الرحمَ ...
- 239 المسور بن مخرمة إِنَّا لَمْ نَحْيِ لِقَتَالَ أَحَدٍ...
- ومروان بن الحكم
- 199 أم حرام بنت ملحان أناسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ يَرْكَبُونَ...
- 254 معاذ بن جبل إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ...
- 117 أبو موسى الأشعري أَهْلَكْتُمْ - أَوْ قَطَعْتُمْ - ظَهَرَ الرَّجُلِ
- 438 عقبة بن عامر الجهني إِيَّاكُمْ وَالْدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ ...
- 128 عبد الله بن عمرو إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ، فَإِنَّمَا هَلَكَ...

79، 70	أبو هريرة	أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمٍ...
352		
380	عائشة	أَيَّنَ الْمُحْتَرَقُ آتِنَا...
217	عبد الله بن أبي أوفى	أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ...
354	أبو هريرة	بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقْرَةً...
286، 109	ابن عمر	بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخِيَلَاءِ
299	أبو هريرة	بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ...
111	أبو هريرة	بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ
387	جابر بن عبد الله	تَبْكِينَ أَوْ لَا تَبْكِينَ مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ...
66	أبو هريرة	تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ...
251	المقداد بن الأسود	تُدْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ...
164	أبو هريرة	تُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنْبَيْ...
	وحذيفة بن اليمان	
187	عقبة بن عامر	تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ قَبْلَ السَّاعَةِ سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ...
141	أبو هريرة	تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ...
162،	ابن عباس وأبي حية	ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ...
256، 285	الأنصاري	
322	عبد الله بن مسعود	الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ...
184	أبو موسى الأشعري	حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ...
311	أبو هريرة	الْحِكْمَةُ ضَالَةٌ الْمُؤْمِنِ...
46	عائشة	خَذِي فُرْصَةً مِنْ مَسْكٍ فَتَطَهَّرِي بِهَا...
383	عائشة	خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَهْلِينَ
169،	أبو هريرة	خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَلَمَّا فَرَعَ مِنْهُ قَامَتْ الرَّحِمُ...
463		
281، 121	ابن عباس	خِيَارُكُمْ أَلَيْنُكُمْ مَنَاكِبَ فِي الصَّلَاةِ...

175	عائشة وأبو هريرة	الرحم شُجنة من الرحمن...
	وعبد الله بن عمرو	
174	عائشة	الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ...
401	عائشة	رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ...
70	أنس بن مالك	رُؤَيْدُكَ يَا أَنْجَشَةُ سَوَّكَ...
248	أبو هريرة	سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى...
166	أبو هريرة	سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ...
400	عائشة	السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ...
153	أبو جابر الصديقي	سيكون من بعدي خلفاء، ومن بعد الخلفاء...
196	أبو سعيد الخدري	صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة العصر بنهارٍ ثم قام خطيباً...
421	أبو هريرة	فر من المجذوم كما تفرُّ من الأسد...
184	سمرة بن جندب	فسما بصري صُعْدًا فإذا قصر...
386	أبو موسى الأشعري	فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ...
134	ابن عمر	فقال أحدهم: اللهم إني كان لي أبوان...
197	حذيفة بن اليمان	قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً ما ترك شيئاً...
117	نفيع بن الحارث	قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ
400	عائشة	قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين...
338	سعد بن أبي وقاص	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني...
448	أبو سعيد الخدري	كَانَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَصِيرَةً...
452	أبو موسى الأشعري	كلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ...
359	بريدة الأسلمي	كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ الْأَشْرِيَةِ فِي ظُرُوفِ الْأَدَمِ
244	أبو سعيد الخدري	كيف أنعم وصاحب الصور...
148	ابن عمر	كَيْفَ بِكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ حَيِّرٍ...

307	أم سلمة	لا، إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ...
157	جابر	لا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ...
444	أبو هريرة	لا تَبْدَوْا الْيَهُودَ...
129	عبد الله بن عمر	لا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُعَذِّبِينَ ...
436	عائشة	لا تُقَطِّعُ الْيَدُ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ ...
399	جابر بن سليم	لا تَقُلْ عَلَيْكَ السَّلَامُ؛ فَإِنَّ ...
287، 215	أبو هريرة	لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ ...
235	عبد الله بن عمرو (بحكم المرفوع)	لا تقوم الساعة حتى تدافع نساء بني عامر على ذي الخلصة.....
234، 154	أبو هريرة	لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس..
287، 152	أبو هريرة	لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَانَ ...
238	سعد بن أبي وقاص	لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بالسنتهم
452	أبو هريرة	لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ...
126	أسماء بنت أبي بكر	لا تُوكِي فِيوَكِي ...
224، 198	حبة وسواء ابني خالد الخزاعي	لا تَيْتَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزَّزَتْ رُؤُوسُكُمْ...
417،	أبو هريرة	لا عَدَوَى وَلَا طَيْرَةَ وَلَا هَامَةً...
418	وجابر بن عبد الله	
443	ابن عباس	لا يَخْلُونَ رَجُلٌ بامرأةٍ ...
288	أبو الدرداء	لا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِياً صَالِحاً مَا لَمْ يُصِْبْ دَمًا..
286، 225	أبو هريرة	لا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ ...
229	سلمان الفارسي	لا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ ...
418	أبو هريرة	لا يُورِدُ مُرَضٌّ عَلَى مُصِحٍّ ...
431	أبو هريرة	لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقَطَّعُ يَدُهُ...

282، 145	أبو هريرة	لَقَدْ حَجَرْتَ وَاسِعاً
288	ابن عمر	لَنْ يَزَالَ المرءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِْبْ دَمًا
324	عائشة	اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ..
48	أنس بن مالك	لو أن ثوبك هذا كان في تنُّور ...
280، 149	أبو عامر أو أبو مالك الأشعري	لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَّ
287، 118	معاوية بن أبي سفيان	المؤدِّثون أطولُ الناسِ أعناقاً ...
199، 190	أبو ذر وعمر بن العاص وأبو الدرداء	مَا أَظَلَّتِ الحُضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتِ العَبْرَاءُ...
333	عائشة	مَا أَظُنُّ فُلَانًا وَفُلَانًا يَعْرِفَانِ مِنْ دِينِنَا...
342	أنس بن مالك	مَا مِنْ النَّاسِ مِنْ مُسْلِمٍ يُتَوَقَّى لَهُ ثَلَاثٌ ...
249	أبو هريرة	مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ...
419	أبو هريرة	من بسط رداءه ثم ضمَّه إليه ...
434	جابر بن عبد الله	مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ كَمَفْحَصٍ قِطَاعٍ...
8	أبي بن كعب	من تعزَّى بعزاء الجاهلية فأعضَّوه ...
65	أبو هريرة	من حملَ علينا السِّلَاحَ...
282، 137	أبو هريرة	مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ...
228	ابن عباس	مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ ..
253	أبو هريرة	مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَجَمَهُ اللَّهُ...
	وعبد الله بن عمرو	
341	أبو موسى الأشعري	مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ ...
389	البراء بن عازب	مَنْ صَلَّى صَلَاتِنَا وَنَسَكَ نُسُكَنَا ...
334	سهل بن سعد	مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ ...
459	أبو هريرة	مَنْ يَقُمُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا
383	أبو هريرة	نِسَاءُ قُرَيْشٍ خَيْرٌ نِسَاءِ رَكْبِنَ الْإِبِلِ

144	العباس	هذا حين حمي الوطيس
156	ابن عباس	واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت ...
409	أبو هريرة	والذي نفسى بيده ليوشكنّ أن ينزل ...
186	النواس بن سمعان	يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله ...
155	أبو هريرة	يا أبا هريرة جفّ القلم بما أنت لاقٍ ...
241	أبو هريرة	يتركون المدينة على خير ما كانت ...
231	أبو هريرة	يخشى الناس على ثلاث طرائق ...
204، 186	أبو سعيد الخدري	يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ...
189	أبو هريرة	يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ...
251	ابن عمر	يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب ...

فهرس الكنايات النبوية الشريفة

الكناية النبوية	المكنى عنه	الصحيفة
أبعد ما بين المشرق والمغرب	طول المسافة	475، 377
اتقوا الملاعن الثلاثة	الحدث	18
أخذ بعنان فرسه	الجاهزية والاهتمام	141، 263
أدخلت على قوم من ليس منهم	الزنى	352، 79، 77
إذا مشت أمتي المظيطاء	الكبر	373، 116، 112
أسمع صريف الأقلام	القرب والعلو	257، 285، 256
أشير إليه بالأصابع	الشهرة	158
أطولُ الناس أعناقاً	الشرف والاعتزاز	287، 118
أطولكنّ يداً	كثرة الخير والصدقة	124
أكل بعضي بعضاً	شدة الجوع	363
إلا أن تكونوا باكين	التأثر والاعتبار	129
أجمله الله بلجام من نار	الإذلال الشديد	254
ألم تبيض وجوهنا	التشريف	183، 296، 182
أَلَيْنُكُمْ مَنَاقِبُ	التواضع واللفظ	281، 121
امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا	الشبع	298، 136، 269
أين المحترق	مرتكب الذنب	382
بحبيتيه	العينان	474، 345
البحر الأخضر	البحر الكبير	200
بنو الأصفر	موصوف: الروم	297، 207، 206
تبكين أو لا تبكين	صفة: المرض	
	التسوية وانعدام قيمة الأمر	471، 388

472، 393	الهزيمة والقتل	تخطفنا الطير
235	التعبد له والازدحام عليه	تضطرب أليات نساء دوس على
		ذي الخلصة
111	الكبر	تعجبه نفسه
207، 148، 206،	النفي والجلاء البعيد	تعدو بك قلوبك ليلة بعد ليلة
299		
169، 263، 422، 464	الاستجارة	تعلقت (أو أخذت) بحقو الرحمن
245	الجاهزية القصوى	التقم القرن وحنى الجبهة
	والتوجه التام	
198	رقة البشرة أو العري	تلده أمه أحمر
240	الموت	تنفرد سالفتي
74	كناية عن غياب	ثم جهدها
	الحشفة في الفرج.	
155، 157، 337، 416	انبرام القضاء	جفّ القلم بما أنت لاقٍ
219	الاشتباك مع العدو	الجنة تحت ظلال السيوف
322	الموت	الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من
		شراك نعله
359، 480	غاية السكر وغياب العقل	حتى إن أحدكم ليضرب ابن عمه
		بالسيف
167، 265، 166	المبالغة في الإخفاء	حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه
282، 145	رحمة الله	حجّرت واسعاً
250	طي الصحف وانقضاء	حضرت الملائكة
	الكتابة وفوات فضيلة	
	التبكير	
296، 196	الغضب	حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه

الحمو الموت	الطلاق أو الفتنة أو الزنى	442، 438
خدمتهم فارس والروم	الغلبة والاستخدام	373، 112
خرّا على وجوههما	الموت	241
رُفع القلم عن ثلاث	كناية عن عدم التكليف	403، 401
رُفعت الأقلام وجفت الصُّحف	إبرام القضاء	337، 306، 156
ركبن الإبل	نساء العرب	384
سحابةٌ سوداءُ	كثافة مادتها	188
شأتك شاة لحم	عدم قبولها أضحية	389
صفراء ملتوية	الضعف	204، 297، 186
ظلتان سوداوان	كثافة المادة (من الخير)	297، 186
على وجه آزر قَترة وغبرة	الذل والعذاب	296، 189
عليك السلام (الابتداء بها)	موت المسلم عليه	401
فإذا قصر مثل الرّبابة البيضاء	الارتفاع	297، 184
فاضت عيناه	الشعور المتعاضم بالحب	248
	أو الخشية	
فاضطروه إلى أضيّقه	عدم رفعه وتعظيمه	445
فبادر الطرف نباته	السرعة الفائقة	236
الفرج يصدق ذلك	فعل الزنى	413
فلا كسرى بعده، فلا قيصر بعده	ذهاب الدولتين	347
في كل كبد رطبة أجر	الحياة	300
فيقع في حفرة من النار	قتل أخيه	286، 263، 225
قد اسودّوا	الاحتراق	186
قطعتم ظهر الرجل - قطعت عنق	المبالغة من المادح	117
صاحبك	والشعور المتعاضم بالفخر	
	عند الممدوح	

466, 383	الحيض	كُتِبَ عَلَيْكَ مَا كُتِبَ عَلَيْهِنَّ
300	العطش	كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى
306, 269, 126	الشح	لَا تُؤْكِي ، لَا تَوْعِي ، لَا تَحْصِي
130	التحجر والبلادة	لَا يَجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ
470, 305, 55	كثرة الضرب	لَا يَضَعُ الْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ
231	التبكير إلى الجمعة	لَا يَفْرُقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ
67	فطنة المؤمن	لَا يَلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جَحْرٍ وَاحِدٍ
		مرتين .
342	البلوغ	لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ
141, 142, 270	الإعراض	لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا
298		
467, 452	مبلغ تبرجها أو حصول قصدها في التستر أو سقوط حرمتها	لَمْ يَعْرِفُوهَا
256	سرعة قبول دعوة المظلوم	لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ
199, 190	موصوفان: الأرض والسماء	مَا أَظْلَتِ الْخُضْرَاءُ وَمَا أَقْلَتِ الْغُبْرَاءُ
333	النفاق	مَا أَظُنُّ ... يَعْرِفَانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا
334	موصوفان : الفم والفرج	مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ
473 , 339	صفة: الملاعبة	مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ
	موصوف: الشيء القليل	
297, 225, 198	الحياة	مَا تَهَزَّزَتْ رُؤُوسُكُمْ
288	القتل	مَا لَمْ يَصَبْ دَمًا

263	علو المنزل والخطر	معلقة بالعرش
297، 214، 211	شدة الهول المجتمعة من الظلمة و البرودة	ملكان أسودان أزرقان
138، 263، 137	الجاهزية	ممسك عنان فرسه
282، 299		
65	نية القتال	من حمل علينا السلاح
341	موصوفان: الفجر والعصر	من صلى البردين
228	المعصية للسلطان	من فارق الجماعة شبراً
132	التواضع	الموطؤون أكنافا
232	شدة النار واستطارتها طولاً وعرضاً	نارٌ تحشُر الناس (أو ترحل الناس)
287، 215	عظم النار	نار تضيء أعناق الإبل ببصرى
239	التكُّلف والتفاصح	يتخلل بلسانه
269، 135	شدة الجوع	يتضاعون عند رجلي
286، 109	الكبر	يجر إزاره
188	فجأة الساعة في غفلة من الناس	يحلب ناقته فما يشربه
431	سرقة النصاب فيما بعد	يسرق البيضة فتقطع يده
431	سرقة النصاب فيما بعد	يسرق الحبل فتقطع يده
287، 153	القهر	يسوق الناس بعصاه
245	عِظَم الشجرة	يسير الراكب في ظلها مئة سنة
409	إبطال الملل إلا الإسلام	يضع الجزية
299، 149، 280	الإذلال والخط من المكانة	يضع العلم

251	الخجل والخوف	يغيب أحدهم في رشحه
409	إبطال النصرانية	يقتل الخنزير
409	إبطال النصرانية	يكسر الصليب
188	فجأة الساعة في غفلة من الناس	يمدّر حوضه فما يسقي فيه
188	فجأة الساعة في غفلة من الناس	ينشُران الثوبَ فما يطويانه
355	الفتنة العارمة	يوم السبع

فهرس الأعلام

العلم	الصحيفة
إبراهيم بن الفضل المخزومي	311
إبراهيم بن المهاجر البجلي	46
إبراهيم بن متمم بن نويرة	194
إبراهيم بن يزيد الخوزي	71
إبراهيم بن يزيد النخعي	402-401
إبراهيم دملخي	221-208-201-181-185
إبراهيم عليه السلام	189
إبراهيم فتحي	371
إبراهيم مصطفى	272-97-94
ابن أبي الحديد: عبد الحميد بن هبة الله	120
ابن أبي أوفى: عبد الله الخزاعي	218-219
ابن أبي حاتم: عبد الرحمن الرازي	445-377-238-213-212-114-71
ابن أبي حجلة: أحمد بن يحيى	195
ابن أبي داود السجستاني: أبو بكر عبد الله	118
ابن أبي ذئب: محمد بن عبد الرحمن	230-229
ابن أبي عتيق: عبد الله بن محمد	461
ابن أبي عمر العدني: محمد بن يحيى	175
ابن الأثير: ضياء الدين نصر الله بن محمد	43-45-47-48-49-50-51-52-53-54
	372-370-221-144-67
ابن الأثير: عز الدين علي بن محمد	324
ابن الأثير: مجد الدين المبارك بن محمد	63-111-128-138-147-152-189-206-209
	439-421-393-392-240-235
ابن الأعرابي: محمد بن زياد	440-439-355-144-143
ابن الأنباري: أبو بكر محمد بن القاسم	89-116-366
ابن الحاجب: عثمان بن عمر	102
ابن الحشرج: عبد الله الجعدي	27-36
ابن الرومي: علي بن العباس	177
ابن الزبير: عبد الله	65
ابن السراج: أبو بكر محمد بن السري	388

230	ابن السكن : سعيد بن عثمان
457-421-420 -72 -71	ابن الصلاح: عثمان الشهرزوري
471	ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله
115 -70 -18	ابن القطان: علي بن محمد
234	ابن الكلبي: هشام بن محمد
475-464-378-239	ابن المبارك: عبد الله
250	ابن المسيب: سعيد
368-367	ابن المعتز: عبد الله بن المعتز
405 -404	ابن النجار الحنبلي: محمد بن أحمد
474- 377-376-375-345	ابن الهاد: يزيد بن عبد الله
322-226-150 -146	ابن بطلال: علي بن خلف
411	ابن بطة العكبري: عبيد الله بن محمد
309	ابن بطوطة: محمد بن عبد الله
430 -174	ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم
229 -213	ابن جريج: عبد الملك بن عبد العزيز
458 -279 -84	ابن جني : أبو الفتح عثمان
-119-116-114-114-113-112 -72 -71 -70	ابن حبان: أبو حاتم محمد البستي
-244-238-213-198-192-190-171-128-121	
-433 -432 -402-401-378-376-253-250	
.434	
418	ابن حبيب: عبد الملك الإلبيري
-111-110-94 -74 -71 -70 -65 -52 -46 -18	ابن حجر : العسقلاني أحمد بن علي
-137-126-125-124-122-117-115-114-112	
-158-157-155-154-153-152-150-146-142	
-191-190-184-181-175-171-170-167-162	
-226-225-219-213-201-200-200-198-192	
-244-242-241-240-238-233-232-229-228	
-308-301-289-288-257-255-251-250-248	
-348-346-345-344-343-341-340-333-322	
-378-377-376-375-367-364-356-355-349	
-409 -400-391-390-389-387-382-381	
-425 -421 -420 -417 -414 -413 -411 -410	

434 - 435 - 438 - 439 - 441 - 444 - 445 - 446	ابن حزم: علي بن أحمد
449 - 451 - 460 - 465 - 466.	ابن خراش: عبد الرحمن بن يوسف
150-235-423-426-436	ابن خزيمة: محمد بن إسحاق
171	ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد
229-381-434-452	ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد
303	ابن دريد: محمد بن الحسن
103-362	ابن دقيق العيد: محمد بن علي
172	ابن رجب الحنبلي: عبد الرحمن بن أحمد
65-157	
146-157-159-212-230-291-391-420-445-449	
174-456	
359-389-446-447	ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد
11-19-87-143-209	ابن رشيقي: الحسن القيرواني
238	ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع
3-23-50-52	ابن سنان الخفاجي: عبد الله بن محمد
161-164-351	ابن سيده: علي بن إسماعيل
460-461	ابن سيرين: محمد
5-100-102-133	ابن سينا: الحسين بن عبد الله
359-389-401-437-446-447	ابن عابدين: محمد أمين
63-121-121-122-156-206-207-212-228	ابن عباس: عبد الله
337-358-391-392-402-412-422-437-441	
443-	
465-472-473	
131-132-191-324-363-415-432-448-451	ابن عبد البر: أبو عمر يوسف
334	
51-324	ابن عبد ربه: أحمد بن محمد
48-71-112-114-171-190-191-212-460	ابن عدي: عبد الله الجرجاني
460	
217-349-441	ابن عساكر: أحمد بن محمد
176-294-350	ابن عقيل: عبد الله بن عبد الرحمن
65-71-72-109-112-113-116-122-148	ابن عمر: عبد الله
242-250-252-288-423-436-437	

349	ابن عيينة: سفيان
-148-147-143-139-116-110-97 -93 -2	ابن فارس: أبو الحسين أحمد
-193-190-186-175-172-169-163-151-150	
-281-278-276-273-250-246-237-225-198	
439-396-392-365-356-336-330-308	
-308-246-219-205-195-194-161-116-90	ابن قتيبة الدينوري: عبد الله بن مسلم
.433 -432 -427 -425 -411 -324-320-315	
436-401-389-359	ابن قدامة المقدسي: عبد الله بن أحمد
447	ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر
471-462-374-348-256-217-202-192-47	ابن كثير: إسماعيل بن عمر
-117-109 -94 -74 -67 -65 -56 -46 -18	ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني
-189-184-182-163-145-138-136-126-118	
-250-245-232-229-218-206-200-198-191	
-363-358-342-339-311-307-255-252-251	
-401-400-384-381-377-376-375-369	
-466 -436 -434 -431 -423 -420 -419 -409	
.475 -473 -470	
459-457-350	ابن مالك: جمال الدين محمد بن عبد الله
-444-377-376-212-191-190-171-114-71	ابن معين: يحيى أبو زكريا
445	
408 -213	ابن منده: محمد بن إسحاق
-139-136-132-127-122-106-97-93-63	ابن منظور: محمد بن مكرم
-210-207-203-188-177-172-155-145-143	
-322-301-272-253-247-246-242-241-233	
-349-346-341-331	
441 -421 -417 -370-368-361-360-354	
30 -26	ابن هرمة: إبراهيم بن علي
350-349-295-176	ابن هشام: عبد الله بن يوسف
229	ابن وديعة: عبد الله بن وديعة الانصاري
85	ابن وهب : إسحاق بن إبراهيم الكاتب
386-385-376-186-155	ابن وهب: عبد الله بن وهب القرشي
	المصري
61 -38 -37	ابن يعقوب المالكي

185	أبو أحمد الجرجاني: محمد بن محمد
469 - 448 - 467	أبو أسامة: حماد بن أسامة
46	أبو الأحوص: سلام بن سليم
237	أبو البركات: بدر الدين الغزي محمد
471 - 470 - 305 - 56	أبو الجهم: عامر بن حذيفة
317	أبو الحسين البصري: محمد بن علي
438	أبو الخير: مرثد بن عبد الله
288 - 213 - 191	أبو الدرداء: عويمر بن زيد
391 - 386 - 212	أبو الزناد: عبد الله بن ذكوان
47	أبو السعود: محمد بن محمد العمادي
134	أبو العلاء المعري: أحمد بن عبد الله
367 - 205 - 88	أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين
355 - 341 - 202 - 187 - 175 - 160	أبو الفرج بن الجوزي: عبد الرحمن بن علي
343 - 193	أبو القاسم السعدي: علي بن جعفر
456 - 396	أبو المظفر السمعاني: منصور بن محمد
289 - 288	أبو النضر: هاشم بن القاسم الليثي
191	أبو اليقظان: عثمان بن عمير البجلي
444	أبو اليمان: الحكم بن نافع
238 - 212	أبو أيوب الأنصاري: خالد بن زيد
390 - 389	أبو بردة بن نيار: هانيء الأنصاري
155	أبو بكر الجوزقي: محمد بن عبد الله
464 - 170	أبو بكر الحنفي: عبد الكبير بن عبد المجيد
15	أبو بكر الشعراي (خادم المتنبي)
354 - 324 - 323 - 192	أبو بكر الصديق: عبد الله
143 - 174 - 175 - 213 - 368 - 369 - 422 - 433 -	أبو بكر بن أبي شيبة
448 - 434	
218	أبو بكر بن أبي موسى الأشعري
461 - 460 - 305 - 56	أبو بكر بن عبد الله بن أبي الجهم
449 - 458	أبو بكر محمد بن إسحاق الصاغانى
362	أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني
117	أبو بكر ثقيف بن الحارث

29 - 36 - 41 - 42 - 49 - 88 - 147 - 177 - 207 -	أبو تمام: حبيب بن أوس
328-394	
399	أبو تميمه الهجيمي: طريف بن مجالد
153	أبو جابر الصديقي
171	أبو جعفر الرازي: عيسى بن أبي عيسى
397	أبو جعفر النحاس: أحمد بن محمد
71-114-171-191-212-213-377-444	أبو حاتم الرازي: محمد بن إدريس
155	أبو حامد بن الشرقي: أحمد بن محمد
256	أبو حنيفة: النعمان بن ثابت
183-203-224-452-453-457.	أبو حيان: محمد بن يوسف
18-46-56-66-67-70-72-74-114-117-	أبو داود السجستاني: سليمان بن
126-128-130-145-148-149-172-175-200-	الأشعث
206-207-218-232-238-240-250-252-255-	
288-300-307-308-339-358-359-377-380-	
381-384-389-390-399-400-401-409-	
411-412-418-419-420-423-436-448-	
449-452-456-466-467-469-470-472-	
473.	
449-458	أبو داود الطيالسي: سليمان بن داود
165	أبو ذؤيب الهذلي: خويلد بن خالد
190-191-192-193-199-229-238-444	أبو ذر الغفاري: جندب بن جنادة
71	أبو زرعة الدمشقي: عبد الرحمن بن عمرو
71-114-191	أبو زرعة الرازي: عبيد الله بن عبد الكريم
170	أبو زيد المروزي: محمد بن أحمد
457.	أبو زيد: سعد بن أوس الأنصاري
	البصري
18	أبو سعيد الحميري
123-130-136-142-144-186-196-205-212-	أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك
244-358-448-449-451-465-467-468.	
229	أبو سعيد المقبري: كيسان
206-207	أبو سفيان بن حرب: صخر
56-146-145-155-305-368-418-419-	أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف
420-470.	

141-159-175-244-368-409-413-419	أبو صالح: ذكوان السمان
420-444-445	
402	أبو ظبيان: حصين بن جندب
149	أبو عامر - أو أبو مالك - الأشعري
195-234-324-355	أبو عبيد البكري: عبد الله بن عبد العزيز
184-186-309-366-418-425-439-440	أبو عبيد: القاسم بن سلام
443	
5-11-13-116-234-355-418	أبو عبيدة: معمر بن المثنى
279	أبو علي الفارسي: الحسن بن أحمد
161-195-241	أبو علي القالي: إسماعيل بن القاسم
253	أبو علي النيسابوري: الحسين بن علي
457	أبو عمرو بن العلاء: زيان
135	أبو عوانة: يعقوب بن إسحاق
15	أبو فراس الحمداني: الحارث بن سعيد
421	أبو قلابة: عبد الله بن زيد الجرمي
150	أبو مالك الأشعري: الحارث بن الحارث
143-144	أبو مسعود البصري: عقبة بن عمرو
198	أبو معاوية الضرير: محمد بن خازم
65-74-117-141-184-218-219-341-386	أبو موسى الأشعري: عبد الله بن قيس
452	
412	أبو موسى المديني: محمد بن أبي بكر
196-448-449-467-468-469	أبو نضرة: المنذر بن مالك
421	أبو نعيم الأصبهاني: أحمد بن عبد الله
49-143-144-394	أبو نواس: الحسن بن هانئ
65-66-67-70-72-109-111-119-123	أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر
137-141-141-145-152-155-156-159-164	
169-171-175-176-188-189-211-212-215	
225-229-230-231-232-234-236-241-242	
245-248-249-250-252-253-299-311-337	
347-354-363-368-375-378-381-382-385	
386-409-411-412-413-416-417-418	
419-420-421-431-444-447-452-459	
463	

24 - 13	أبو يعقوب الخزيمي: إسحاق بن حسان
174.	أبو يعلى الفراء الحنبلي: محمد بن الحسين
244-229	أبو يعلى الموصلي: أحمد بن علي
175	أبوقابوس مولى عبد الله بن عمرو
9 - 8	أبي بن كعب
417-302	الأبي: محمد بن خليفة
114	الآجري: أبو بكر محمد بن الحسين
61	أحمد الخوص
313	أحمد الشايب
114	أحمد بن الحسين بن عبد الصمد
-190-175-171-170-142-135-56 -48 -9	أحمد بن حنبل
-358-345-322-288-238-212-198-191-191	
-449 -445 -421 -419 -391-377-360-359	
474 -472 -464 -451	
114	أحمد بن محمد بن الأزهر السجستاني
409	أحمد بن محمد بن صدقة
324	أحمد بن يحيى البلاذري
112	أحمد بن يحيى بن خالد
221	أحمد زكي صفوت
314-310-211	أحمد شوقي
457	أحمد محمد شاكر
362	الأحنف بن قيس
308	الأخفش: سعيد بن مسعدة
312-311-102-8 -5	أرسطو
189	آزر (أبو إبراهيم عليه السلام)
348	الأزهري : خالد بن عبد الله المصري
177	الأزهري: محمد بن أحمد الهروي
56	أسامة بن زيد
331	أسامة بن منقذ
114	إسحاق بن راهويه
289-288	إسحاق بن سعيد بن عمرو الأموي
200	إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة

127 - 126	أسماء بنت أبي بكر
46	أسماء بنت شكل
134	إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة
464-186-169	إسماعيل بن أبي أويس
218	إسماعيل بن أبي خالد
420	إسماعيل بن جعفر
155-154-150	الإسماعيلي : أبو بكر
402 - 401 - 384	الأسود بن يزيد النخعي
386	أسيا (امرأة فرعون)
107-364-174-414-415.	الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل
155	أصبغ بن الفرغ
114	الأصبغ بن خالد القرقيساني
439 - 418 - 356-355-308-195-94 - 89 - 88	الأصمعي: عبد الملك بن قريب
386	الأعرج: عبد الرحمن بن هرمز
418	أعشى باهلة: عامر بن الحارث
203 - 195	الأعشى: ميمون بن قيس
366-210-193	الأعلم الشنتمري: يوسف بن سليمان
434 - 433 - 432 - 402-368-244-198-191.	الأعمش : سليمان بن مهران
311	أفلاطون
466 - 385-384	أفلح بن حميد النجاري
130	الأقرع بن حابس الحنظلي
116	الألباني : ناصر الدين
209 - 47	الآلوسي: أبو الفضل محمود
201 - 200 - 199	أم حرام بنت ملحان
45	أم زرع (في حديث عائشة)
307	أم سلمة : هند بنت أبي أمية
240	أم معبد الخزاعية
52	الآمدي : الحسن بن بشر
317-174-404 - 403	الآمدي: سيف الدين علي بن محمد
-315-216-215-209-208-86 - 57 - 50 - 19	امرؤ القيس الكندي
361	
17	أنجشة (حادي الإبل)

474-346-345-342-231-212-200-199-48.

أنس بن مالك

461-155

الأوزاعي: عبد الرحمن بن عمرو

266

أوغدن

417-415.

الباجوري: إبراهيم بن محمد

363

الباجي: أبو الوليد سليمان بن خلف

107.

الباقلاني: أبو بكر محمد بن الطيب

446-436-389.

البجيرمي: سليمان بن محمد

177-90-55-42-29-28

البحري: الوليد بن عبيد

-94-74-71-67-66-65-52-46-18-17

البخاري: محمد بن إسماعيل

-129-126-124-117-115-114-111-110-109

-149-148-146-145-142-141-136-135-130

-169-167-166-156-155-154-152-150

-189-188-186-185-184-175-174-170

-212-207-206-205-205-200-199-198-196

-230-229-228-225-219-218-215-213

-248-245-244-242-240-238-236-234-231

-322-307-300-288-256-255-253-251-249

-345-345-343-342-341-339-334-333-323

-378-377-375-368-363-358-354-347

-387-386-385-384-381

-412-411-409-402-401-391-390-389

-437-436-432-431-421-420-419-418

-465-464-463-462-459-444-443-438

475-474-473-472-471-466.

456-174-392.

بدر الدين بن جماعة: محمد بن إبراهيم

4

بدر الدين بن مالك: محمد ابن الناظم

473-472-392-390-389-213-212.

البراء بن عازب

359

بريدة الأسلمي رضي الله عنه

124-123-122-71.

البزار: أحمد بن عمرو

397.

البزدوي فخر الإسلام: علي بن محمد

203-195-194

بشار بن برد

149

بشر بن بكر البجلي التنيسي

238	بشر بن عاصم الثقفي
171	بشير بن يسار
138	بَعَجَة بن عبد الله الجهني
256	البعلي : ابن اللحام علي بن محمد
102	البغدادى : عبد القادر بن عمر
289	البغوي : أبو القاسم عبد الله بن محمد
411	البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود
452	البقاعي : إبراهيم بن عمر
376	بكر بن مضر
191	بلال بن أبي الدرداء
323-121-120-118	بلال بن أبي رباح
204	بهاء الدين العاملي: محمد بن حسين
446 - 443 - 423	البهوتي: منصور بن يونس
140 - 18	البوصيري: محمد بن سعيد
312	بوفون
364	البيضاوي: عبد الله بن عمر
-334-239-176-174-173-161-135-119-118	البيهقي: أحمد بن الحسين
416 - 415 - 414 - 174 - 347	
320	تأبط شرا: ثابت بن جابر
-114-113-112-94 -66 -65 -56 -52 -46 -18	الترمذي: محمد بن عيسى
-172-166-159-156-146-145-126-116-115	
-200-196-192-191-190-189-187-182-175	
-244-240-238-232-230-218-213-212-207	
-311-307-255-253-252-251-249-248-245	
-376-375-363-358-354-347-345-339-334	
-423 -409 -402-399-389-384-381-377	
-452 -449 -448 -444 -439 -438 -437 -436	
-469 -468 -467 -466 -465 -460 -456 -455	
475 - 474 - 473 - 470	
458 - 260	تشومسكي
213	تميم بن غيلان بن سلمة
193	التوربشتي: فضل الله
182	ثابت بن أسلم البناني

11-17-147	الثعالبي : عبد الملك بن محمد
192	ثعلب: أبو العباس أحمد بن يحيى
115	الثوري : سفيان بن سعيد
399	جابر بن سليم : أبو جري
157-212-431-386-418-419-423-434	جابر بن عبد الله
471.	
11-12-13-24-82-86-96-103-127-144-	الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر
195-203-224-300-435	
108	جبر ضومط
106-163	جبور عبد النور
47-79-106-212-364-396-414-415-428-	الجرجاني: علي بن محمد
429.	
244	جرير بن عبد الحميد الضبي
234	جرير بن عبد الله البجلي
85	جرير بن عطية الشاعر
433-434	جعفر بن محمد (الصادق)
121-122	جعفر بن يحيى بن ثوبان
205-351-441	الجمحي: محمد بن سلام
415	جهم بن صفوان
361	جهم بن قَثم
315	الجواليقي: موهوب بن أحمد
209-300	الجوهري: إسماعيل بن حماد
372	جويو
170-464-433	حاتم بن إسماعيل
360	الحارث العصري
418-419	الحارث بن أبي ذباب
96-144	حازم القرطاجني
374	حافظ إبراهيم
115	الحافظ المزني : يوسف بن عبد الرحمن
124-128-172-188-190-191-192-196-212-	الحاكم : محمد بن عبد الله
235-240-253-381-391-401-402-437-472.	
61	حامد عوني

224 - 198	حبة بن خالد
57 - 28	الحجاج بن يوسف
232	حذيفة بن أسيد
197 - 164	حذيفة بن اليمان
474 - 345	حرب بن ميمون الأنصاري: أبو الخطاب
251 - 161	الحري: إبراهيم بن إسحاق
386 - 376	حرملة بن يحيى
246 - 88	الحري: القاسم بن علي
388 - 86 - 28	حسان بن ثابت
412	الحسن بن حامد الحنبلي
436 - 402 - 364 - 8	الحسن بن يسار البصري
174.	حسين الجسر
113	الحسين بن محمد بن أبي المعشر السندي
113	الحسين بن محمد بن أبي معشر الحراني
59	الحصين بن الحمام المري
324	حكيم النهشلي
402 - 401	حماد بن أبي سليمان
200 - 182	حماد بن زيد
445 - 402 - 401 - 192 - 191 - 182 - 115	حماد بن سلمة
113	حمزة بن عبد المطلب
331 - 216 - 144 - 129 - 58 - 57 - 54	الحموي: ابن حجة
394	حميد بن ثور الشاعر
307	حميد بن نافع
411 - 371 - 368 - 257 - 228 - 127	الحميدي: محمد بن أبي نصر
371	حنا عبود
5	حنين بن إسحاق
376	حيوة بن شريح
130	خالد بن الوليد
464 - 170	خالد بن مخلد القطواني
13	خرم بن خليفة
294	الخضري: محمد الدمياطي
443	الخطاب: محمد بن محمد بن عبد الرحمن
- 351 - 349 - 341 - 308 - 288 - 253 - 181 - 102 - 63	الخطابي: حمد بن محمد

392-393-174-439.	
13-183-431	الخطيب البغدادي: أحمد بن علي
17-207-328	الخطيب التبريزي : محمد بن عبد الله
423	الخطيب الشربيني: محمد بن أحمد
3-4-33-36-37-38-39-42-58-60-61	الخطيب القزويني : محمد بن سعد الدين
65-66-67-76-78-79-125-163-167	
173-380-434	
320	خفاف بن ندبة
320	خلف الأحمر بن حيان
448-449-467-468-469.	خليد بن جعفر
201	خليفة بن خياط
171-300-355-272-342-360-439-457.	الخليل بن أحمد الفراهيدي
88	الخنساء: قماضر بن عمرو
112-113	خولة بنت قيس
273-274	د. ابتسام حمدان
262-263-264-265-266-273	د. إحسان عباس
4-34-82-84-86-87-88-90-143-173	د. أحمد مطلوب
370	
64-65-66-67-68-69-72-73-74-97	د. أحمد ياسوف
100-108-111-120-120-142-146	
176-180-181-185-214-224-244-271-279	
289-290-295-304-313-323-332-335-339	
372-377	
174	د. الشافعي
427	د. اللبدي
392	د. بديع السيد اللحام
98	د. بسام بركة
70	د. بشار عواد معروف
95	د. بشرى الصالح
95-100-101-102-103	د. جابر عصفور
102	د. حسن يوسف عمر
129	د. حسين مؤنس
68	د. رجاء عيد

98	د. زاميل يعقوب
321 -244	د. شكري عياد
134 -62	د. شكري فيصل
320-313-274 -32 -6	د. شوقي ضيف
260 -7	د. صلاح فضل
5	د. طه حسين
289	د. عباس عوض
4	د. عبد الحميد الهنداوي
94	د. عبد الرحمن بدوي
261-260-259 -68 -64 -7	د. عبد العزيز شرف
60	د. عبد العزيز عتيق
328	د. عبد الكريم بكار
283 -274	د. عبد الملك مرتاض
261-260 -259 -68 -64 -7	د. عبد المنعم خفاجي
312 -274 -100	د. عز الدين إسماعيل
197-120 -119	د. عز الدين السيد
260	د. علي عبد الواحد
274	د. علي يونس
324	د. عمر كحالة
132	د. غانم قدوري الحمد
8	د. فاخر عاقل
458	د. فاضل السامرائي
223	د. فاطمة محبوب
64 -62 -61 -60 -8 -3	د. فضل عباس
284	د. كريم الوائلي
6 -4	د. مازن المبارك
67	د. مجيد ناجي
196	د. محمد البدوي
304 -69	د. محمد الحسن أمين أحمد
295-98-97	د. محمد زغلول سلام
174	د. محمد سعيد رمضان البوطي
458	د. محمد ضاري حمادي
-314-312-311-262-261-259-103-69 -7	د. محمد عبد المطلب

328-321-315	
419	د. محمد عجاج الخطيب
7	د. محمد علي سلطاني
203	د. محمد قاسم
121	د. محمد مصطفى الأعظمي
290 -285 -277-133 -123 -116	د. محمد هشام البرهاني
273 -266	د. محمد يوسف نجم
49 -41	د. محيي الدين صبحي
392	د. مصطفى الخن
108	د. مصطفى ناصف
458-371-276-260-259-69 -7	د. ميشال زكريا
320	د. ناصر الدين الأسد
-267-266 -223-105-104-103 -95 -94 -93	د. نعيم اليافي
319-317-304-295 -284-275-269-268	
-445 -302 -279 -230-212-146-72 -71	د. نور الدين عتر
.461 -449	
5	د. هيثم غرة
331 -34 -31 -21	د. هيفاء عربية
400	د. يحيى الجبوري
207-185-181	د. أحمد عمر مختار
.444 -437 -229-218-150	الدارقطني: علي بن عمر
439-393-356-333	الداودي: أحمد بن سعيد
359	الدردير: أحمد بن محمد العدوي
423 -61 -38	الدسوقي: محمد بن عرفة
445-376-171	الدوري: عباس
277-276-260	دي سوسير
168	ديان ديكون
374	ديك الجن: عبد السلام الحمصي
456	الديلمي: شبرويه بن شهردار
-191-188-172-160-150-125-115-114	الذهبي: محمد بن أحمد
-253-240-238-235-234-217-201-198-192	
-449 -437 -174 -402-401-391-381-377	
.472	

417	ذو الإصبع العدواني: حرثان بن الحارث
63	ذو الرمة: غيلان
418	رؤبة بن العجاج
106	الرازي: محمد بن أبي بكر
-273- 364-317-294-247-202-183-128	الرازي: فخر الدين محمد بن عمر
291 -174 -428 -429 -453.	
161-160	الراعي النميري: عبيد بن حصين
343-240-202-183-171-110 -106	الراغب الأصبهاني: الحسين بن محمد
-315-312-311-283-279-275-271-222-108	الرافعي: مصطفى صادق
459 -374-371	
334	الربيع بن سليمان
460	رجاء بن حيوة
57	رشيد بن رميض العنبري
94	ركس نايت
155	الرمادي : أحمد بن منصور
351	رملة بنت أبي سفيان: أم حبيبة
262	رومان جاكبسون
379-284-266 -196	ريتشاردز
-272-237-236-209-203-202-160-158-106	الزبيدي: محمد مرتضى
367	
406-404	الزركشي: محمد بن بهادر
441-351-217-13	الزركلي: خير الدين
443	زكريا الأنصاري
-324-195-160-47 -34 -33 -32 -31 -30 -20	الزحشري: محمود بن عمر
382-366-364-362	
-409 -385-339 -333-234-155-155 -145	الزهري: ابن شهاب
418 -420 -473.	
331 -210	زهير بن أبي سلمى
174 -166	زهير بن حرب
41 -35 -28 -27	زياد بن الأعجم
48	زياد بن عبد الله النميري
130	زيد الخير الطائي
239-238-205-122	زيد بن أسلم

212	زيد بن ثابت
452	زيد بن خالد
364-343	زين الدين علي بن المنير
309 -307	زينب بنت أم سلمة
125-124	زينب بنت جحش
217	سالم بن أبي النضر
135	سالم بن عبد الله
312	سبترز
406-405-404 -144 -80 -40 -39 -38 -37	السبكي: بهاء الدين أحمد بن علي
405	السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن علي
402	السبكي: تقي الدين علي بن عبد الكافي
273 -266	ستانلي هايمن
187	السجزي: أبو الوقت عبد الأول بن عيسى
425 -424 -156-155-114-72	السخاوي: محمد بن عبد الرحمن
416-158	سُرَاقَة بن مالك بن جُعْشُم
456 -406 -404	السرخسي شمس الأئمة: محمد بن أحمد
61 -38 -37	السعد التفتازاني: مسعود بن عمر
473-339-338-238	سعد بن أبي وقاص
339	سعد بن خولة
324	سعد بن ناشب
311-230-229-212-71 -70	سعيد المقبري
409-386-368-349-145	سعيد بن المسيب
288	سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص
421 -419	سعيد بن ميناء
463 -169	سعيد بن يسار
238	سفيان بن عبد الرحمن بن عاصم الثقفي
238	سفيان بن عبد الله بن ربيعة الثقفي
471-387-175	سفيان بن عيينة
-52 -48 -42 -39 -38 -36 -35 -34 -33 -3	السكاكي: يوسف بن أبي بكر
-86 -83 -81 -80 -78 -76 -64 -57 -54 -53	

406 - 163	
198	سألام بن شرحبيل
422 - 229	سلمان الفارسي
182	سلمان بن المغيرة
65	سلمة بن الأكوع
381	سلمة بن صخر البياضي
444	السلمي : أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين
464-175-170-169	سليمان بن بلال
421	سليمان بن حيان
472 - 391	سليمان بن داود الهاشمي
86	سليمان بن عبد الملك
191-190	سماك بن الوليد الحنفي اليمامي
184	سمرة بن جندب
187	السمرقندي: نصر بن الحسن
361 - 114	السمعاني : عبد الكريم بن أبي بكر
420 - 419.	سنان بن أبي سنان الدؤلي
334	سهل بن سعد
445 - 444	سهيل بن أبي صالح
361 - 210	السهيلي: عبد الرحمن بن عبد الله
224 - 198	سواء بن خالد
124	سودة بنت زمعة
457-285-177-133	سيبويه: عمرو بن عثمان
314-279 - 271	سيد قطب
-167-163-144-138-113-88 -84 -74 -55	السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر
-174 -390-368-356-349-349-255-219	
421 - 435 - 458 - 459.	
406-404	الشاطبي: إبراهيم بن موسى
347-334-307-204-203	الشافعي: محمد بن إدريس
468 - 449.	شبابة بن سوار
30	شبيب بن البرصاء الشاعر
13	شريح القاضي بن الحارث
30	شريح بن الأحوص الشاعر

181-125-102-49	الشريف الرضي: محمد بن الحسين
432	الشريف المرتضي: علي بن الحسين
-469 -468 -467 -449 -448 -387-213-74	شعبة بن الحجاج
.471	
389	الشعي: عامر بن شراحيل
116 -70	شعيب الأرنؤوط
411-410 -253 -393 -149	شمس الحق العظيم آبادي
320 -41 -29 -28	الشنفرى: عمرو بن مالك الشاعر
191	شهر بن حوشب
426-404-402	الشوكاني: محمد بن علي
456 -256	الشيرازي: أبو إسحاق إبراهيم بن علي
15	الصاحب بن عباد
420 -229 -135	صالح بن كيسان
129	صالح عليه السلام
149	صدقة بن خالد
123	صدقة بن موسى
398	صديق حسن القنوجي
213	الصغاني: أبو الفضائل الحسن بن محمد
46	صفية بنت شيبه
364	صلاح الدين مقبول
431	الصنعاني: الأمير محمد بدر الدين
182 -182	صهيب الرومي
471	الضبي: المفضل
121	الضحاك بن مخلد
156	الضياء المقدسي: محمد بن عبد الواحد
458	طاهر الجزائري
-156-153-150-120-118-16-113-112-71-8	الطبراني: سليمان بن أحمد
409-198-188-171-161-156	
-224-209-202-202-190-171-114-73 -47	الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير
-408 -174 -397-294-273-247-242-233	
.452 -439 -422 -418 -411	
.425 -410 -403-193-48	الطحاوي: أبو جعفر أحمد بن محمد
366-362-193-89	طرفة بن العبد

18-131-157-192-193-226-322-435.	الطبي: الحسن بن محمد
46-74-124-125-174-175-176-212-323-	عائشة بنت أبي بكر
333-380-381-383-384-385-400-401-402-	
422-436-437-451-461-466-467.	
124-125	عائشة بنت طلحة
70	عادل مرشد
238	عاصم بن سفيان الثقفي
338-339-473	عامر بن سعد بن أبي وقاص
199-200	عبادة بن الصامت
27	العباس بن الأحنف
144-465	العباس بن عبد المطلب
349-350	عباس حسن
277-278-364	عبد الجبار الجرجاني
70	عبد الحق الإشبيلي
191	عبد الحميد بن بهرام
391-472	عبد الرحمن بن أبي الزناد
384	عبد الرحمن بن أبي بكر
182	عبد الرحمن بن أبي ليلى
409	عبد الرحمن بن آدم
212	عبد الرحمن بن إسحاق
114	عبد الرحمن بن إسماعيل بن علي الرقي
384	عبد الرحمن بن الأسود
156	عبد الرحمن بن الديع
384-385-466	عبد الرحمن بن القاسم بن محمد
188	عبد الرحمن بن حجيرة
56	عبد الرحمن بن عاصم
470	عبد الرحمن بن عاصم بن ثابت
172-213	عبد الرحمن بن عوف
449-468.	عبد الرحمن بن غزوان
149-191	عبد الرحمن بن غنم الأشعري
449-468.	عبد الرحمن بن محمد بن سلام
402	عبد الرحمن بن مهدي
149	عبد الرحمن بن يزيد

150-149	عبد الرحمن بن يزيد بن جابر
335 - 107	عبد الرحمن حسن حبنكة
451 - 437 - 421 - 234-230-229-132-122	عبد الرزاق الصنعاني
203 - 147	عبد السلام هارون
451	عبد الصمد بن عبد الوارث
376 - 375	عبد العزيز بن أبي حازم
213	عبد العزيز بن أبي رواد
444 - 420 - 376	عبد العزيز بن محمد الدراوردي
474 - 345	عبد العزيز بن مسلم
441	عبد الغافر الفارسي
409 - 71	عبد الفتاح أبو غدة
-33 -29 -28 -27 -26 -25 -21 -20 -11 -5	عبد القاهر الجرجاني
-73 -72 -61 -60 -59 -57 -54 -52 -48 -42	
-264-263-227-163-125-95 -80 -77 -76	
394-280-279-277-265	
217	عبد الله بن أبي أوفى
174	عبد الله بن أحمد
368	عبد الله بن إدريس
221	عبد الله بن الزبير
169	عبد الله بن المبارك
390	عبد الله بن جبير
171 - 112	عبد الله بن دينار
231 - 48	عبد الله بن سلام الصحابي
114	عبد الله بن سليمان
46	عبد الله بن سيف الدولة (في رثاه المتني)
199	عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري
135 - 129	عبد الله بن عمر
253-238-238-235-191 -175 -127	عبد الله بن عمرو بن العاص
387	عبد الله بن عمرو بن حرام
437 - 322 - 123	عبد الله بن مسعود
351	عبد الله بن همام السلولي
71- 70	عبد الله بن يونس

240-161-159	عبد الله سراج الدين
217 -194	عبد الملك بن مروان
223	عبد الهادي الغلابي
46 -22	عبد شمس بن عبد مناف
400	عبدة بن الطبيب
103	عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود
229 -135	عبيد الله بن عمر العمري
475-378	عبيد الله بن موهب التيمي
113	عبيد سنوطا
8	عتي بن ضمرة
244	عثمان بن أبي شيبة
52 -51	عثمان بن عفان
113	عثمان بن يحيى القرقساني
441 -156	العجلوني: إسماعيل بن محمد
190	العجلي: أحمد بن عبد الله
.446 -443	العدوي: علي بن أحمد
205	عدي بن زيد العبادي
187	العذري: أبو العباس ابن دلهات
392 -424 -425 -461 -466.	العراقي: زين الدين عبد الرحيم بن الحسين
333 -174	عروة بن الزبير
394-366-336-195	العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله
.415 -174 -364-107	العضد الإيجي: عبد الرحمن بن أحمد
253-121	عطاء بن أبي رباح
402	عطاء بن السائب
334	عطاء بن يسار
405	العطار: حسن بن محمد
244	عطية بن سعد العوفي
149	عطية بن قيس الكلبي
436	عفان بن مسلم الصفار
315	العقاد: عباس محمود
.438 -238-188 -187	عقبة بن عامر الجهني
441	عقيل بن علفة المري

378	العقيلي: محمد بن عمرو
164 - 84 - 40 - 15	العكبري: أبو البقاء عبد الله بن الحسين
190	عكرمة بن عمار العجلي
396.	علاء الدين البخاري: عبد العزيز بن أحمد
420	العلاء بن يعقوب بن عبد الرحمن
213	العلائي: أبو سعيد خليل بن كيكلي
130	علقمة بن غلثة العامري
229	علقمة بن قيس بن قرثع الضبي
370 - 53 - 52	العلوي: يحيى بن حمزة
310 - 59 - 58	علي الجارم
310	علي الجندي
-349 - 240 - 212 - 204 - 153 - 143 - 142 - 130	علي بن أبي طالب
437 - 434 - 433 - 402	
289 - 288	علي بن الجعد الجوهري
374	علي بن الجهم
444 - 391 - 288 - 171	علي بن المديني
196 - 192 - 191	علي بن زيد بن جدعان
420	علي بن مسهر
114	علي بن يعقوب الربيعي
122 - 121	عمارة بن ثوبان
253 - 48	عمارة بن زاذان البصري
230	عمارة بن عامر الأنصاري
210 - 46 - 22	عمر بن أبي ربيعة
-349 - 238 - 192 - 148 - 124 - 115 - 52 - 51	عمر بن الخطاب
354	
242	عمر بن شبة
132	عمر بن عبد العزيز
217	عمر بن عبيد الله التيمي
238	عمر بن علي المقدمي
125	عمرة بنت عبد الرحمن
449	عمرو الناقد: عمرو بن محمد بن بكير

175	عمرو بن دينار
238	عمرو بن شعيب
42	عمرو بن معد يكرب
186	عمرو بن يحيى بن عمارة
474-345	عمرو مولى المطلب
362-324	عنزة بن شداد العبسي
8	عوف بن أبي جميلة العبدي
206	عوف بن مالك الأشجعي
-187-185-157-150-136-132-127-117-18	عياض بن موسى اليحصبي القاضي
-302-301-257-255-251-246-242-240-228	
-438 -422 -421 -418 -410 -401-387-354	
-440 -442 -446 -450-460-471.	
118	عيسى بن طلحة التيمي
-412 -411 -410 -409 -408-332-153	عيسى عليه السلام
-385-382-377-368-246-236-230-189-142	العيني: بدر الدين محمود بن أحمد
471-393-389-388-386	
130	عُينة بن بدر الفزاري
429-256	الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد
400	فؤاد سركين
102	الفارابي: أبو نصر محمد بن محمد
471-387	فاطمة بنت عمرو بن حرام
470-305-56	فاطمة بنت قيس
116-5	الفراء: يحيى بن زياد
185	الفريري: محمد بن يوسف
313	فرويد
155	الغريابي: جعفر بن محمد
384	الفضل بن دكين
170	القابسي: أبو الحسن علي بن محمد
155	القاسم بن زكريا
437	القاسم بن عبد الرحمن
-466 -461 -460 -384	القاسم بن محمد بن أبي بكر
409	قتادة بن دعامة السدوسي
444-376	قتيبة بن سعيد

154 - 153	القحطاني (ورد في الحديث مما سيكون)
86 - 23 - 22	قدامة بن جعفر
404	القرافي: أحمد بن إدريس
204 - 209 - 219 - 301 - 302 - 399 - 400 - 417 -	القرطبي: أبو العباس أحمد بن عمر
419 - 434 - 439 - 442 - 446 - 450 .	
73 - 90 - 240 - 344 - 349 - 400	القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد
63	قريط بن أنيف العنبري
430	القزويني: سراج الدين عمر بن علي
159	القّعقاع بن حكيم
420	القعنبي: عبد الله بن مسلمة
182	القلقشندي: أحمد بن علي
429	القنوجي: صديق بن حسن
172	القونوي: قاسم بن عبد الله
12	قيس بن خارجة بن سنان
51	قيس بن سعد بن عبادة
400 - 362	قيس بن عاصم المنقري
423	الكاساني: أبو بكر بن مسعود
106	كامل المهندس
174 - 200 - 230 - 375 - 174	الكرماني: محمد بن يوسف
174	الكرمي: مرعي بن يوسف
457	الكسائي: علي بن حمزة
135 - 153 - 343 - 408	الكشميري: محمد أنور شاه
409	الكشميهني: محمد بن مكّي
241	كعب بن زهير
188	كعب بن علقمة
351 - 226	الكفوي: أبو البقاء أيوب بن موسى
288	الكلاباذي: أبو نصر أحمد بن محمد
98	كلورد برنارد
129 - 216 - 217 - 234 - 355 - 361	كمال هاشم حمود
133 - 285	كمال محمد بشر
94 - 100	الكندي: يعقوب بن إسحاق
310	لاسل أبر كرمي
315	لانسون

415	ليبيد بن ربيعة
489-454-453-333-345-200 -199	اللقاني: إبراهيم بن إبراهيم
56	الليث بن سعد
115 - 114 - 113	ليلي الأخيلىة
115	مؤمّل بن إسماعيل
312	مؤمّل بن سعيد
440-418-417	ماثيو أرنولد
85	المازري: محمد بن علي
-359-339-323-308-307-300-200-186-148	مالك بن أسماء
.463 -462 -456 -450 -445 -443 -418 -391	مالك بن أنس
49	مالك بن طوق التغلبي
190 -191	مالك بن مرثد الزماني
434 -359	الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد
168	مايك فانس
.447 -410 -187 -66	المباركفوري: محمد عبد الرحيم
234-221-90 -23 -15 -14 -11	المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد
-164-140 -84 -83 -58 -49 -46 -40 -15	المتني: احمد بن الحسين
397-336	
90	المتوكل العباسي: جعفر بن المعتصم
349-163	متولي الشعراوي
247-233-186	مجاهد بن جبر
106	مجدي وهبة
434 -433	محمد (الباقر) بن علي بن الحسين
174	محمد أبو زهرة
183	محمد الطاهر بن عاشور
376 -375	محمد بن إبراهيم بن عيسى بن طلحة
	التميمي
155	محمد بن إسحاق بن التتوخي
.476 -475 -445 -377-376-212-148	محمد بن إسحاق بن يسار
117	محمد بن الصبّاح
166	محمد بن المثني
471 -387	محمد بن المنكدر

42	محمد بن الهيثم بن شبابة
213-9	محمد بن جعفر: غندر
109	محمد بن زياد
188	محمد بن عبد الله مولى المغيرة بن شعبة
445- 230 -229-159	محمد بن عجلان
114	محمد بن علي بن مهدى
29	محمد بن علي بن موسى بن طلحة
	القمي
420-146 -145	محمد بن عمرو بن علقمة الليثي
70	محمد بن كعب القرظي
88	محمد بن نصر الطوسي
155	محمد بن يحيى الذهلي
200	محمد بن يحيى بن حبان
150	محمد بن يزيد بن عبد الصمد
70	محمد عوامة
285 -133	محمود السعمران
468 -449	محمود بن غيلان
278 -277	محمود شاكر
191	مرثد بن عبد الله الزماني
94	مرجريت نايت
320	المرزوقي: أحمد بن محمد
443	المرغيناني: علي بن أبي بكر
240	مروان بن الحكم
82	مروان بن محمد
386 -385 -332 -163	مريم بنت عمران
217	المستعصم بالله: عبد الله بن منصور
42	المستعين بالله: أحمد بن محمد بن المعتصم
448 -449 -451 -467 -468 -469.	المستمر بن الريان
175-166	مسدد بن مسرهد
124	مسروق بن الأجدع
449 -469.	مسلم بن إبراهيم
17 -18 -46 -52 -56 -65 -66 -67 -74 -94	مسلم بن الحجاج
109-111-117-118-124-125-126-128-129	

-164-158-152-146-144-142-138-136-130
 -184-182-175-174-170-169-167-166
 -205-205-200-197-196-189-188-187-186
 -225-219-219-218-215-213-209-207-206
 -249-248-245-244-242-234-232-231-228
 -341-339-307-300-256-255-253-252-251
 -377-376-375-368-363-359-358-354-347
 -391-389-387-386-385-384-381-380-378
 -418 -413 -412 -411 -409 -402-401-400
 -444 -443 -438 -437 -436 -431 -420 -419
 -465 -463 -462 -461 -459 -449 -448 -447
 .475 -473 -471 -470 -469 -468 -467 -466

240	المسور بن مخزومة
59 -58	مصطفى أمين
96	مصطفى ناصف
217	مصعب بن الزبير
221	مصعب بن عمير
181	مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّحِير
254 -18	معاذ بن جبل
349-201 -118	معاوية بن أبي سفيان
174-464-463-175-170-169 -176	معاوية بن أبي مزرد
351	معاوية بن يزيد
42	المعتز بالله : محمد بن المتوكل بن المعتصم
421-234	معمر بن راشد
414	معمر بن عباد السلمي
456	معن بن عيسى القزاز
188	المغيرة بن شعبة
171	مغيرة بن مقسم
213	المفضل بن تميم غيلان
423	المفضل بن فضالة البصري
423	المفضل بن فضالة بن عبيد المصري
251 -252	المقداد بن الأسود
155	مكي بن عبدان

120 -	159-151-148-135-131-126-122	ملا علي القاري
	174-176-197-213-237-245-253-342-345	
	410-353-345	
	8-97-99-119-122-123-159-172-175-197	المنذري: عبد الرؤوف
	198-204-232-238-239-249-253-257-310	
	323-335-336-342-345-346-352-360-370	
	374-386-403-429-435-441	
	72-113-116-188	المنذري: عبد العظيم
	46	منصور بن صفية بنت شيبه
	153	المهدي (في الحديث مما سيكون)
	154	المهلب بن أحمد بن أبي صفرة
	114	موسى بن جمهور البغدادي
	150	موسى بن سهل الجوني
	112	موسى بن عبيدة الرّكّدي
	98	مي شيوخاني
	9-49-143-158-161-195-324-435	الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد
	328	ميشال ريفاتير
	14	النابعة الجعدي
	62-134-394	النابعة الذبياني
	343-364	ناصر الدين بن المنير
	238	نافع بن عمر الجمحي
	135-148	نافع مولى ابن عمر
	46-56-65-70-72-74-109-114-124	النسائي: أحمد بن شعيب
	126-130-136-145-155-156-166-171-181	
	191-200-212-229-231-248-249-255-307	
	339-342-358-359-377-378-384-387-389	
	390-399-400-401-402-431-436-444	
	448-449-452-465-466-467-470-471	
	473	
	44-45	نصر بن سيار
	86	نصيب بن رباح الشاعر
	345-474	النضر بن أنس
	119	النضر بن شُميل

190	النضر بن محمد بن موسى اليمامي
239 - 153	نعيم بن حماد
367	النمر بن تولب
186	النواس بن سمعان
46 - 22	نوفل بن عبد مناف
-155-142-136-131-129-124-119-117-56	النووي : يحيى بن شرف
-226-217-209-206-206-204-182-164-161	
-356-340-339-334-301-273-257-251-242	
-412 -411 -402-401-387-386-363-359	
-436 -433 -424 -423 -422 -419 -418 -413	
.471 -460 -457 -456 -450 -446 -440 -439	
374-367-324-144-123	النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
177 -46 -22	هاشم بن عبد مناف
171	هاشم بن مرثد
207	هرقل (ملك الروم في حديث أبي سفيان)
74	هشام الدستوائي
449	هشام بن عروة
150-149	هشام بن عمار
474 -345	هلال بن أبي هلال: أبو الظلال
161	هند بن أبي هالة
351	هند بنت عتبة
349	الهندي: علي بن حسام
-188 -161-153-124-122-118-113-112-71	الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر
360-239-191	
97	هيغل
364	واصل بن عطاء
174	وكيع بن الجراح
202	وهب بن منبه
355-324-217 -201	ياقوت الحموي
190	يحيى بن أبي كثير
433 -432	يحيى بن أكثم القاضي

444	يحيى بن بكير
256	يحيى بن خالد البرمكي
349 - 200 - 199 - 113 - 112	يحيى بن سعيد الأنصاري
212 - 166 - 9	يحيى بن سعيد القطان
475 - 378	يحيى بن عبيد الله بن موهب التيمي
186	يحيى بن عمارة
448	يزيد بن أبي حبيب
28	يزيد بن الحكم الشاعر
28	يزيد بن المهلب
377 - 71 - 70	يزيد بن الهاد
82	يزيد بن الوليد
174	يزيد بن رومان
441	يزيد بن عبد الملك
351	يزيد بن معاوية
448 - 449 - 468 - 469.	يزيد بن هارون
419 - 420.	يعقوب بن عبد الرحمن
233	يعقوب عليه السلام
213	يعلى بن عطاء
233	يوسف عليه السلام
418	يونس بن عبيد الجرمي
423	يونس بن محمد المؤدب
420 - 385 - 155	يونس بن يزيد الأيلي

فهرس المصطلحات

في البلاغة والأدب والعقيدة والأصول

موضع تفسيره

المصطلح

259

الإبداع

83	الإبهام
87	الاتساع
84	الأحاجي
143	الاختراع
22	الإرداف
84	الاستخدام
81	الاستعارة
173	الاستعارة التخيلية
81	الاستعارة المكنية
396	الاستنباط
260 - 7	الأسلوبية
86	الإشارة
398	الاعتقادات
84	الأغاليط
89	الإغراق
89	الإفراط
370	الاقتصاد
84	الألغاز
317	الانفعال
86	الإيماء
82	الإيهام
3	البلاغة
23	التبعية
106	التجسيم (في الأدب)

260، 259	التحليل الأسلوبي
82	التخييل
88	التدريج
163	التشخيص
50	التعريض
104	التكوين الشعائري للفن
85	التلميح
82	التمثيل
88	التنكيت
331	التهذيب
82	التوجيه
82	التورية
97	الجمال
415	الجهمية
225، 224	الحركة الإشارية وغير الإشارية
232	الحركة الاهتزازية
238	الحركة البطيئة الثقيلة
252	الحركة الدائرية
236	الحركة الرشيقة
241	الحركة الضعيفة
239	الحركة العنيفة
248	الحركة المتنامية
229	الحركة المركبة
228.	الحركة المفردة
245	الحركة الممتدة

244	الحركة المنقطعة
99	الخيال
256	دليل الخطاب
86	الرمز
312	الرومانسية
317	الشعور
317	الصدق الفني
319.	الصدق الواقعي
93	الصورة
104	الصورة البارزة
104	الصورة الغارقة
98	الصورة الفنية
317	العاطفة
421، 426 .	العدوى في اللغة والطب
4	علم البديع
4	علم البيان
4	علم المعاني
398	العمليات
260	العنصر الجمالي
260	العنصر اللغوي
260	العنصر النفعي
85	العنوان
89	الغلو
2	الفصاحة
97	الفن

414، 222	القدرية
311	الكلاسيكية
321	الكلمات المفتاح
223	الكنايات الحركية
180	الكنايات اللونية
223	الكنايات المتحركة
180	الكنايات الملونة
81 - 33	الكناية
85	اللحن
79	اللزوم
86	لطافة المعنى
89	المبالغة
82	المجاز المركب
102	المحاكاة في الفن
380	المشاكلة
414	المعمرية
84	المعمى
264	معنى المعنى
383	الموازاة الفنية
259	الموقف التاريخي
259	نظرية الاتصال
398	الوجدانيات

فهرس التحقيقات

- التحقيق
- 4 - الدفاع عن التقسيم والتحديد الذي نظمه السكاكي للبلاغة ثم زاد عليه بدر الدين ابن مالك فصار ثلاثياً.
- 6 - أهمية علم البلاغة في تحسين البلاغة وتمكينها من الإفادة من الأسلوبية الحديثة من دون ذوبان الشخصية العربية.
- 9 - شيوع أسلوب الكناية في المجتمع العربي قديماً والإشارة إليها في الحديث الشريف (فأعضوه بمن أبيه ولا تكنوا)، وبيان وجه اختيار هذه المسبة والصلة بين الهن وبين العصبية.
- 11 وما بعدها - دراسة التطور التاريخي لمفهوم الكناية حتى استقرار المصطلح.
- 15 - الذب عن المتنبي في البيت الشهير الذي صار مثلاً للكناية الشنيعة، بأن الرواية فيه على غير ما اشتهر.
- 20 - بيان أن الكناية ظلت تستعمل بالمعنى اللغوي حتى ابن رشيق ولم يوضع لها حد وإن نُوعت بحسب الغايات منها وبدأ النقد بشكله البسيط ونُوه بأصالة الكناية عند العرب.
- 21 - الرد على من زعم أن عبد القاهر الجرجاني أدخل الكناية في المجاز ، وتحقيق أنه فصل بينهما وأنها قسيم للمجاز عنده لا قسم منه.
- 24 - نقد حكاية الشيخ عبد القاهر للإجماع بأن الكناية أبلغ من الإفصاح وأن المجاز أبدأ أبلغ من الحقيقة، وما أورده عليه من خلاف الجاحظ وأبي يعقوب الخريجي وأدلة أخرى، ولكل مقام مقال.
- 20 وما بعدها - بيان أن عبد القاهر أول من عرف الكناية تعريفاً علمياً بحسب الماهية لا الغاية، وأول من حقق بلاغة الكناية، وأول من قسمها وفق محددات ذاتية ومهد لتنويعها .
- 31 - تحقيق تحول الكناية إلى مجاز عند كثرة الاستعمال وأنها قضية مهمة في التفريق بينهما، والاستدلال بكلام للزمخشري فسر البعض على غير وجهه.
- 32، 33 - استقراء مذهب الزمخشري في كتابه الفائق في غريب الحديث واستنتاج أنه يجري على المعنى اللغوي للكناية في مواضع وعلى المعنى الاصطلاحي القائم على الإرداف في مواضع أخرى وأنه إذا جرى على الاصطلاح بين وجه الإرداف وإذا جرى على اللغة اقتضبها اقتضاباً.
- 33 وما - بيان عمل السكاكي في الكناية أنه استبدل بالإرداف مصطلح اللزوم، وفرق بشكل

دقيق بين الكناية والمجاز ، ونوع الكناية تنوعاً منبثقاً عن تقسيم الكناية. بعدها.

34 - التنبيه إلى خطأ وقع في كتاب الدكتور أحمد مطلوب " معجم البلاغة العربية وتطورها" في نقله لتعريف السكاكي حين قال : " بما يلزمه " بدلاً من " ما هو ملزومه " فعكس التعريف وأصبحت الكناية بناء عليه انتقالاً من ملزوم مصرح به إلى لازم مسكوت عنه وهذا خلاف تعريف السكاكي ومذهبه، وإنما كان التنبيه ضرورة نظراً لجلالة هذا المرجع واستغناء المتأدبين به عن الأصول، ولأن هذه النقطة بالذات هي الفاصل بين المجاز والكناية.

34 - انتقاد البعض للسكاكي وتنظيره الفلسفي للكناية مع إقرارهم بأن له الفضل في تحديد المصطلح البلاغي للكناية على صورته الأخيرة، والجواب عنه بأن التنظير الفلسفي هو الذي أدى إلى التحديد فما ينبغي أن تُمدح النتيجة وتُذم الوسيلة.

35 - بيان أن السكاكي فرق بين الكناية والمجاز بأمرين: أن الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة خلافاً للمجاز الذي ينافيها، وأن الكناية انتقال من لازم مصرح به إلى ملزوم مسكوت عنه بعكس المجاز، وهذا مشهور من أمر السكاكي وإنما أنه إليه توطئة لما بعده.

37، 79 - الإشكال الذي وقع في الجمع بين قول القزويني في تعريف الكناية : "إرادة لازم المعنى مع جواز إرادة معناه" وقوله في التفريق بينها وبين المجاز : "إرادة المعنى الحقيقي" من دون لفظ الجواز. وبيان أن هذا الإشكال أوقع الشراح في حيرة وسبب إرباكاً في مسيرة الكناية بعدد، ومن هذه الثغرة بدأ الانحراف عن خط السكاكي.

38 - الإيراد على قول السعد التفتازاني : "إن الكناية كثيراً ما تخلو عن إرادة المعنى الحقيقي للقطع بصحة قولنا فلان طويل النجاد ولا نجاد" بأن صحة قولنا ذلك شيء وأن نسميه كناية شيء آخر ، والحق أنه ليس كناية إن لم يكن هناك نجاد بل هو مجاز مركب (مثل) كان في أصله كناية ، ومع كثرة الاستعمال تحول إلى مثل كما سبق عند الزمخشري.

38 - بيان التغيير الذي أحدثه القزويني في تعريف السكاكي للكناية ، وقوله : " لفظ أريد به لازم معناه" وتبريره لذلك بأن اللازم ما لم يكن ملزوماً يمتنع أن يُنتقل منه إلى الملزوم فيكون الانتقال حينئذ من الملزوم إلى اللازم ، وردّ البهاء السبكي عليه وتصويبه لما قال السكاكي.

44 - تحقيق أن الكناية عند ضياء الدين بن الأثير هي نوع من المجاز عدمت فيه القرينة، وليس كناية على الاصطلاح.

51 - تحقيق أن ابن الأثير وقع فيما انتقده على غيره من الخلط بين التعريض والكناية وأنه

- عدّ قولهم : " أشكو إليك قلة الفأر " تعريضاً والصحيح أنه كناية .
- 52 - الإشارة إلى التشابه الحرفي بين كلام لعبد القاهر في تفاضل التراكيب وكلام لضياء الدين بن الأثير تميل النفس إلى أنه أخذه من عبد القاهر رغم تجاهله له في المثل السائر .
- 53 - بيان أن الكناية عند عبد القاهر والسكاكي نوع جلاء وأنها عند ابن الأثير والعلوي خفاء مغرق وغموض .
- 56 - ترجيح أن يكون المراد من حديث ((لا يضع العصا عن عاتقه)) أنه كثير الضرب بناءً على الروايات الأخرى ولا سيما رواية حفيد أبي الجهم .
- 57 - تحقيق أن الحموي صاحب الخزانة خرج بتمثيله للكناية عن التعريف الذي اعتمده من قول عبد القاهر والسكاكي، ومثل للكناية باستعارات ومجازات .
- 58-75 - تحقيق أن المؤلفات الحديثة المشهورة وقعت فيما وقع به الحموي من الخروج عن تعريف السكاكي الذي اعتمدته للكناية إلى أمثلة هي استعارات .
- 59 - بيان ما فعله مؤلفا البلاغة الواضحة في حديثهم عن فائدة الكناية حين اقتبسوا من عبد القاهر قوله: " تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها " فزاد في آخرها: " في صور كثيرة " وذلك ليدخلا الأمثلة التي هي مجازات .
- 60 - تحقيق أن الدكتور فضل عباس في كتابه " البلاغة فنونها وأفنانها " نسب إلى عبد القاهر اختياراً في تعريف الكناية لم يختره ، وهذا الاختيار في حقيقته هو المعنى الأول للكناية قبل أن يطورها عبد القاهر ، وتجاهل الدكتور فضل قضية الإرداف الذي أقام عليها عبد القاهر تعريفه للكناية ، وزاد الدكتور فضل في تعريف القزويني جملة لم يقلها وهي اشتراط القرينة التي لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي .
- 65 - تحقيق أن حمل السلاح مراداً قطعاً في حديث ((من حمل علينا السلاح فليس منا)) وأنه كناية عن القتال أو نية القتال ، وليس المراد نية القتال بغير حمل سلاح كما وجهه الدكتور أحمد ياسوف .
- 66 - تحقيق أن الدكتور أحمد ياسوف مثل للكناية بما هو استعارة محالفاً الذي اعتمده في تعريفها، وكذلك تأكيده أن الكناية يمكن أن تكون استعارة يخالف ذلك التعريف .
- 67 - استشعار أن السبب في محاولة المتأخرين توسيع مفهوم الكناية ليشمل المجاز هو رغبتهم في أن يتسع لبحوث ابن الأثير فيها، دون أن يلتفتوا لما في ذلك من خطر التراجع عن جهود عبد القاهر والسكاكي التي تم بها استقرار المصطلح .
- 69 - تحقيق أن الكناية موجودة في النقد الأجنبي في مرحلة متقدمة من نظرية الاتصال استقلاً، وليس بثوب الاستعارة .

- 70 - النظر في قول الدكتور أحمد ياسوف : " إن الكناية ضرب من الغموض الفني " وتحقيق أنها جلاء وليس غموضاً وبيان أن كلام الشيخ عبد القاهر الذي استدل به الدكتور جاء في معرض المثل لا الكناية.
- 70 - تخريج حديث ((إنما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم)) وتحقيق قبوله وأنه دائر بين الصحة والحسن .
- 70، 71 - تحقيق الحالة الفريدة التي مرت في تقريب التهذيب في ترجمة عبد الله بن يونس أنه "مجهول الحال مقبول" ، واعتراض مؤلفي تحرير تقريب التهذيب الدكتور بشار عواد والشيخ شعيب الأرناؤوط عليه بأن هذه العبارة لا معنى لها، والجواب بأن لها معنى يتجه إلى قبول الراوي مع كونه مستوراً.
- 73 - بيان أن مزية الكناية هي في الإيجاز المعنوي والتصوير الفني وليس في الغموض.
- 73 - بيان أن قوله تعالى في عيسى وأمه: (كانا يأكلان الطعام) هو كناية عن البشرية التي تستلزم ذلك ، وليس عن الحدث.
- 75 - بيان أن الكناية في حديث ((إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها)) هي في قوله (جهدها) وليس في الشعب الأربع فإنها استعارة.
- 77- 80 - نقد التعريفات الثلاثة للكناية، وتحقيق أن تعريف عبد القاهر مانع ليس بجامع، وأن تعريف القزويني غير جامع ولا مانع ، وأن الجامع المانع إنما هو تعريف السكاكي.
- 78، 79 - تحقيق أن تعريف القزويني غير مانع لأنه لم يمنع صور المجاز من التسلل إلى الكناية ، وغير جامع لأنه عكس بين اللازم والملزوم فخرجت صور هي من الكنايات المحضة.
- 79 - تحقيق أن المراد باللزوم في الكناية هو الاقتضاء الخارجي وليس الذهني ، وأن هذا مما يردُّ على تعريف القزويني لها.
- 80 وما بعدها - تحرير صلة الكناية بما يمكن أن يلتبس بها من الأنواع البلاغية كالاستعارة والتمثيل والتورية والإيهام والاستخدام والأحاجي واللحن ولطافة المعنى والاتساع والتنديج والتنكيث والمبالغة والغلو ونحو ذلك.
- 88 - وجهة نظري في مثال التنكيث المشهور يذكرني طلوع الشمس صخراً .. واقترحي مثلاً آخر .
- 90 - بيان أنه لا غلو في قوله تعالى : وبلغت القلوب الحناجر ، وأنه كناية عن شدة الخوف على تقدير حذف مضاف هو خفقان القلوب.
- 93، 94 - بيان دلالات الصورة في اللغة والفلسفة والنفس والرمز والبلاغة ، والإشارة إلى تأثير 94، 95 معنى الميل الذي هو أقيس معاني الصورة لغةً في تقلب دلالاتها.

- 98 - بيان أن وصف الصورة بالفنية يتفق مع الأصل اللغوي للفن، فباعتبار أنه النوع تكون الصورة الفنية نوعاً من التصوير قائماً على التقديم الحسي للمعنى، وباعتبار أنه التعنية والاطراد الشديد تكون الصورة الفنية مؤشراً على الانطلاق في شتى الوسائل والاتجاهات العلمية والدوقية التي تفيد في إغناء الصورة.
- 100 - بيان معنى الخيال والتوهم وأثهما في الفلسفة خزانة المحسوسات خلافاً لما هو شائع في أذهان الناس من اقترانهما بالباطل.
- 100 - بيان عمل الحس المشترك والمصورة (الخيال) - وهما من القوى الذهنية - في التقاط صور المحسوسات واسترجاعها ، وأن هذا الاسترجاع لا بد من أن ينحرف عن صورة المحسوس الواقعية .
- 101 - بيان مشكلات الخيال التي تنشأ من قصور الحاسة وشوئها مما يعرض الحس للزلل والشطط ، وبيان مشكلاته التي تنشأ عن انتقائية عمل الخيال مما يسبب تفاوتاً في الإبداع والتلقي وتسليطاً لبعض الصور على ذهن المبدع، وبيان أن النبي صلى الله عليه وسلم براء من جميع هذه المشكلات لصدوره عن الوحي، وتوجُّه الأطروحة لإثبات ذلك عملياً.
- 102، 103 - بيان وظيفة الصورة وأنها تزيينية في الفلسفة القديمة تقوم على محاكاة الواقع بأحسن منه أو بأشدّ قبحاً ، وتأثيرية في الفلسفة الإسلامية تجعل أكبر ههما المتلقي مع تحقيق ضرورة المبدع الوجدانية ، وتراوحها في الفلسفة الحديثة بين التأثير على المتلقي وتحقيق ضرورة المبدع.
- 103 - خلاصة التجربة التي اقترحها الدكتور نعيم اليافي لبيان وظيفة الصورة وبيان أنها غير ممكنة في الكناية لأن الكناية تعبير بالصورة ولأن التلاحم بين الصورة والفكرة لا يبلغ حد التماهي في أيٍّ من الأنواع البلاغية قدر ما يبلغ في الكناية.
- 105 - تحقيق أن الدرس التقليدي للكناية المتجلي في عمل السكاكي وتنويعه لها يندرج اليوم فيما يسمى المنهج الرمزي فلا وجه لانتقاده فيما صنع بل له الفضل والأسبقية .
- 105 - بيان أن منهجي المتبع في درس الصورة الفنية الكنائية هو المنهج النفسي لأنه الأقدر على استيعاب أنواعها باعتبارها تصويراً حسيّاً ، ولأن الدرس وفق هذا المنهج يتسم بالجدّة ويتجاوز التقليد.
- 106 - تحقيق أن التجسيم الأدبي بمعناه الاصطلاحي الحديث كان موجوداً عند علماء البلاغة العربية واستعمله الراغب الأصفهاني والظنُّ بأنه لم ينتشر خشية الالتباس بالتجسيم العقدي.
- 108 - بيان فاعلية التجسيم وقيامها على التقديم الحسي للمعنى مما يلائم الفطرة التي تأنس

بالحسوس ويحافظ على المغايرة بالتحويل من المعنى إلى الحسوس وتلك قيمة جمالية لا تفقد روحها ولو تكررت.

- 110 - بيان الصورة الفنية في جر الإزار كبراً من حيث التجسيم، وتلُصُّ السرِّ في استعمال الجر دون السحب مع كون الجر لما ثقل والسحب لما خفّ، ثم ملاءمة الإيقاع لهذه الكناية وجرائها.
- 112 - بيان أن مما يزيد من ثقل الكبر ويعيق من حركة المتكبر توجه نظره إلى نفسه (إلى الداخل) مما يتعارض مع حركته في الخارج وهذا جوهر الكناية في (تعجبه نفسه).
- 112، 113، - تخريج حديث إذا مشت أمتي المطيطاء وبيان درجة إسناده أنه من الصحيح لغيره بتضافر أسانيده الحسان.
- 114 - التحقيق في أمر عثمان بن يحيى القرقساني وأنه مستور روى عنه جماعة منهم أئمة ثقات ولم يأت بمنكر وأن حديثه لا ينزل عن مرتبة الحسن.
- 115 - التحقيق في أمر مؤمل بن إسماعيل العدوي وأن حديثه لا ينزل عن مرتبة الحسن واستبعاد أن يكون الإمام البخاري قال فيه منكر الحديث .
- 116 - بيان الصورة في (إذا مشت أمتي المطيطاء) والحركة الصاعدة المنقطعة والإيقاع الملائم لمعنى التكبر في شدة الطاء واستعلائها والمد الأخير .
- 118 - بيان الصورة في قطعتم ظهر الرجل وأنها كناية عن التمطط إلى الغاية والشعور المتعاضم بالفخر الناجمين عن المبالغة في المديح ، حتى يكاد الظهر ينقطع.
- 120 - الكناية في (أطول الناس أعناقاً) عن الفخر والكرامة ، ونفي الدكتور عز الدين السيد أن يراد به طول العنق الخَلقي لأنه غير جميل، وجواب الدكتور أحمد ياسوف بأنه جميل وقد قيل بعيدة مهوى القرط، وجواب ابن أبي الحديد قديماً أن ذلك من أجل ألا يلجموا بالعرق ، ووجهة نظري أن المراد طولُ العنق خِلقةً مع وجود قدر مناسب من غِلْظ العنق فهذه صفة غُلب الرجال الممدوحين، ثم بيان مجانسة الجزاء للعمل في هذه الكناية ، ثم ملاءمة الإيقاع في أعناقاً للمعنى بتصوير ثلاث ألفات قائمة والمد وتنوين النصب آخره .
- 122 - التحقيق في صحة حديث (خياركم أليَنكم مناكب) لغيره بتضافر أسانيده الحسان.
- 122 - قبول حديث عمارة بن ثوبان على قاعدة قبول المستور إذا كان أهل القرون الأولى.
- 123 - الكناية في (أليَنكم مناكب) عن التواضع ، وبيان الصورة الفنية فيها من حيث التجسيم وملاءمة الإيقاع في أليَنكم لمعنى اللين .
- 124 - تجسيم التواضع في الكناية بالموطنين أكتافاً عنه ، وبيان أن الحديث ضعيف ولا سيما موضع الشاهد منه ، واعتذاري لإيراده خلافاً لشرط الرسالة بأن مرادي استقصاء

تجسيم التواضع والإشارة إلى ندرته في الكنايات الشريفة صحيحة أم غير صحيحة خلافاً للكبر، وتفسير ذلك بأن الكبر شعور ثقيل يجذب بثقله إلى التجسيم أما التواضع فينأى بحقيقته عنه.

- 125 - تجسيم السماحة في حديث (أسرعن لحاقاً بي أطولكن يداً) والكناية به عن الصدقة وكثرة الخير ، وبيان أن ذكر علماء البلاغة له في المجاز إنما يعنون به اليد وحدها أنها مجاز عن النعمة التي تكون بها، أما الكناية فهي في طول اليد جميعاً فلا تعارض مع الذي قالوا.
- 126 - الإشارة إلى أن القول بطول اليد كناية عن السماحة أليق من قول بعض العلماء بأنه كناية عن قصر الطمع، والمؤدى واحد ولكن التعبير بالسماحة يشرح النفس ويمنح شعوراً بالامتداد المناسب لطول اليد بخلاف التعبير بقصر الطمع .
- 126 - الإشارة إلى أنه لا إشكال في فهم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم الظاهر من طول اليد، فهكذا طبيعة النساء.
- 128 - بيان في أن حديث (لا توكي فيوكى عليك) كناية عن الشح لا عن البخل، وإنكاراً ضمنى على من جعله كناية عن البخل؛ لأنه لم يحصل من السيدة أسماء منع حق حتى يقال بخلت، ثم جلاء الفرق بين الشح والبخل والاستناد إلى القرآن والحديث بذلك.
- 129 - تجسيم التأثير والاعتبار في الكناية : (إلا أن تكونوا باكين) .
- 133 - الكناية بلا يجاوز القرآن حناجرهم عن التحجر والبلادة ، وبيان أن فهم هذه الكناية قائم على كلمة الحناجر وأن ابن عبد البر رحمه الله حين جعلها من التشبيه بأكل الطعام الذي لم يجاوز حنجرته لم يلاحظ أن الحنجرة للصوت وليست للطعام ، ثم بيان عمل الحنجرة وأنها أهم أعضاء النطق لاحتوائها على الوترين الصوتيين والمزمار كما أثبت العلم، فحديث الحناجر من الإعجاز النبوي وجلاء ذلك في المقارنة مع بيتين للناطقة وأبي العلاء يذكران الحناجر في سياق الطعام، أما النبي صلى الله عليه وسلم فلا يذكرها إلا مع القراءة فله السبق في نسبة الأصوات إلى الحنجرة.
- 135 - الكناية بـ (يتضاعفون عند رجلي) عن الجوع في حديث الغار ، وبيان الصورة الفنية والتجسيم الصوتي والبصري فيها .
- 135 - رأي العلامة الكشميري في أن منع الرجل اللبن عن أولاده مع ضغائهم حتى استيقظ أبواه ظلماً للصغار، وأن الرجل تكلف ما لم يطلب منه وأنه جاهل معذور. والجواب عنه باستحضار صورة الرجل الذي بقي على رجاء استيقاظ أبويه في كل لحظة فبقي على منع أولاده حتى مرّ الوقت في تجربة عصبية من التردد وضغاء الولد من حوله. واستحضار هذه الصورة يستند إلى عبارة في الحديث نفسه .

- 137 - تجسيم الكناية بامتداد الخاصرتين للشبع في حديث آكلة الخضر (امتدت خاصرتها) ، وما توحى به الصورة من النعمة والفراة، وملاءمة المدود في (خاصرتها) لمعنى امتداد الخاصرتين .
- 137 - بيان ما قيل في معنى آكلة الخضر، ووجهة نظري بأنها إشارة للاقتصار على طيب الدنيا وجديدها، وعدم الادخار والاستكثار.
- 138، 139 - التجسيم في الكناية بممسك عنان فرسه عن التأهب والجاهزية ، وأنها صورة حسية بصرية نحتية في الظاهر لكنها جياشة الأعماق ، ولقطة قريبة مركزة لفارس واحد بين إخوانه يراد منها استشفاف أعماق هذا الفارس ، وأن الفرق بين الماضي والمضاربة في أفعاله سمع وطار ويتغي هو الفرق بين العمل الحادث والنية المستمرة . ثم تلّس السر في التعبير بالعنان دون الزمام واللجام والخطام مع اشتراكهم جميعاً في معنى الحبس ما يوحى به العنان من خفة الحركة ومرونتها نظراً لانفتاح الشفتين آخره عند النون خلافاً للميم آخره ، ثم التنويه بأن الفارس في هذا الحديث (من خير معاش الناس لهم..) يمثل أشرف الأمنين ، يليه الراعي المؤمن الذي يمثل الأمن الغذائي.
- 140 - المقارنة بين (ممسك بعنان فرسه) وبين ما حاوله الشعراء كالممتني والبوصيري في تصوير الفارس مع فرسه وظهور فضيلة البلاغة في الكناية النبوية وقصورهم عنها حين خرجوا إلى جعل الفارس وفرسه شيئاً واحداً فعبروا عن التمكن دون الخفة والظاهر دون المشاعر والجماعة دون الفرد.
- 141 - الموازنة بين حديثي (ممسك بعنان فرسه) و (آخذ بعنان فرسه) وبيان أنهما كنايةتان عن شيء واحد هو الجاهزية لكنهما في تصوير الحال مختلفان ، فالأول يعبر عن ظهور شأن الفارس والثاني عن إغفاله من قبل الناس المهتمين بالدرهم والدينار ومع ذلك فهو (آخذ) بشأنه غير ملتفت لاستخفافهم.
- 143 - تجسيم الإعراض في حديث الغيث في قوله (من لم يرفع بذلك رأساً)، وتحقيق أنها كناية عن مطلق الإعراض لا عن التكبر كما ذكر بعض الشراح ، واستدلالي لما اخترته بجملة من كلام العرب .
- 144 - تحقيق أن هذه الكناية (لم يرفع بذلك رأساً) من الاختراع الذي تداوله الأدباء بعد النبي صلى الله عليه وسلم .

- 146 - بيان أن المحفوظ في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد هو : (لقد حجرت واسعاً)، أما (احتظرت) فهي رواية خالف فيها محمد بن عمرو بن علقمة الثقات عن أبي سلمة ، ومحمد بن عمرو صدوق له أوهام أكثرها في روايته عن أبي سلمة. ثم التعقُّب على بعض الأفاضل حين اعتمد الروائتين معاً في دراسته الأدبية فاستشعر القسوة من التحجير والإيحاء بالحيوانية من الاحتظار بأنَّ الأعراب لا يُؤبنون بهبوط حيواني وإن وُسِّموا بقسوة، وأن الصحيح في الإسناد والمعنى حجرت.
- 147 - بيان أن واسعاً في (حجرت واسعاً) كناية عن موصوف هو رحمة الله ، وأن إيقاعها يلائم المعنى من حيث الواو والمد والسين الرخية والعين والتنوين في مقابلة الجيم الشديدة المشددة في حجرت.
- 148 - تحقيق أن (حجرت واسعاً) من الاختراع ، وبيان اقتباس ابن فارس لها ومحاولته لاحتدائها في تراكيب انقطعت دون سماء هذه الكناية النبوية.
- 149 - جلاء الصورة الفنية في حديث إجلاء اليهود وابن أبي الحقيق (تعدو بك قلوبك ليلة بعد ليلة) كناية عن الطرد والنفي البعيد وفقدان الزمام، وكيف ظهرت اللوحة بخلفية من الوهن والضعف وظهرت القوة نقشاً بارزاً متمثلاً في ناقة قوية قلوب تعدو بالرجل.
- 150 - تخريج حديث المعازف المعلق عند البخاري وبيان صحته بمجيئه موصولاً من طرق عديدة منها ما هو صحيح فضلاً عن كون البخاري علقه بصيغة الجزم.
- 151 - استشعار مبلغ ثراء القوم في (يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم-الفقير- الحاجة) وأنهم مخدومون لا يباشرون عملهم إنما لهم التوجيه والثمرة، وأن حذف حرف العطف بين يروح ويأتيهم يوحي بسرعة قدوم الفقير عليهم متحيناً الفرصة .
- 152 - بيان الصورة الفنية في الكناية (ويضع العلم) التي جسّمت الإذلال والزوال ، وسر التعبير بالعلم دون الجبل أن العلم رمز للعزة، والملاءمة بين معنى الوضع وإيقاع لفظه حيث يهبط اللسان من استعلاء الضاد إلى العين المستفلة.
- 153 - التحقيق أن السوق بالعصا في حديث القحطاني إن أريد به المجاز فهو استعارة وإن أريد به الحقيقة فهو كناية عن القهر والغلبة . ثم بيان اختلاف الشراح في القحطاني بين مادح وذام وأن الحديث مجرداً لا يدلُّ لأي منهما غير أنه يشير إلى انحطاط من يسوقهم القحطاني واستحقاقهم العصا بذلك.

- 154 - حلُّ الإشكال في إيراد البخاري لحديث القحطاني في باب (تغير الزمان حتى تعبد الأوثان)، حيث لم ير له الإسماعيلي وجهاً وردّ المهلب بأن طاعة القحطاني وليس من قريش هو من تغير الزمان. ووجهة نظري أن ثمة مناسبة قوية بينهما بملاحظة الحديث الآخر في الباب حديث اضطراب أليات نساء دوس على ذي الخلصة ، وذلك أن دوساً من قحطان وأنها تسفُّ في الدين والأخلاق حتى يتغلب القحطاني على تلك الناحية ويسوق أهلها بالعصا إلى خير أو شر.
- 155، 156 - تحقيق صحة حديث (يا أبا هريرة جف القلم بما أنت لاق) الذي رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم ووصله جماعة ، وصرّح الإمام النسائي بصحته ، وتحقيق إيراد العجلوني له في كشف الخفاء بعد حديث ابن عباس (جف القلم بما هو كائن) ووسمه له بالحسن قاصداً حديث ابن عباس لا حديث أبي هريرة.
- 158 - الاختراع في جف القلم كنايةً عن الفراغ من القضاء وتمكن هذه الكناية في الثقافة الإسلامية، وضرب المثل لهذا التمكن بسؤال سراقه بن مالك رضي الله عنه.
- 159 - تحقيق صحة حديث أبي هريرة (إن لكل شيء شرة) الذي لم يرو إلا من طريق محمد بن عجلان الذي يقال إن أحاديث أبي هريرة اختلطت عليه، وبيان أن الذي اختلط عليه هو حديث أبي هريرة من طريق سعيد المقبري فحسب.
- 160، 161 - تحقيق أن الكناية في (إذا أشير إليه بالأصابع) هي عن الشهرة ، وأنها من الاختراع، وأن قول لبید (من يبسط الله عليه إصبعاً) هو بمعنى الأثر الحسن كما ذكر المتقدمون من علماء البلاغة ، وليس بمعنى الشهرة والإشارة بالأصابع كما ذكر من بعدهم، ولذلك لا يُعكّر على الاختراع في الكناية النبوية.
- 164 - تحقيق أن التشخيص بمعناه الاصطلاحي كان موجوداً في كلام الشراح وعلماء البلاغة العرب، وإن استعمل بمعان أخرى أيضاً.
- 165 - تحقيق أن التشخيص لا يشكل ظاهرة في الكناية النبوية وأنه لا ينفك عن استعارة.
- 165 - بيان أن الاستعارة بالكناية ليست في مجال الأطروحة لأنها لا تشكل كناية مستقلة.
- 166 - بيان أن الغالب في تشخيص المعاني في الحديث الشريف أن تكون شخوصاً حقيقية غيبية، وأما تشخيص الجمادات فلتصعيد روح الألفة بينها وبين الناس لكنه قائم على أصل التشبيه.
- 167 - تحقيق أن عبارة (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) كناية عن المبالغة في إخفاء الصدقة وأنها تتألف من مجموع استعارتين مكنتين في كلّ منهما تشخيص.

- 168 - التفكير خارج الصندوق في كناية (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) ، ذلك بأن فيها توصيفاً لقوي الخير والشر حيث الأولى إيجابية فاعلة والثانية سلبية منفعة، وأعجب ما في التشخيص فيها أنه لا يتم إلا بتجريد مقابل في المرء ذي اليمين والشمال حيث صار الترصّد والنفقة من يديه وليساً منه، والفائدة الكبيرة في هذا التجريد منحُهُ فرصة التفكير والتأمل خارج الصندوق، ومن ثم إدراكه المتكامل للموقف.
- 169 - فضل (تنفق) على تعطي وتبذل ونحوها في الكناية (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)، بأن لها أصليين أحدهما الانقطاع والآخر الخفاء ، وكلا الأصلين يدعم الصورة .
- 171 - تخريج حديث خلق الله الخلق فلما فرغ قامت الرحم .. ، وبيان أن (أخذت بحقو الرحمن) زيادة صحيحة مقبولة ، وأن من لم يروها ربما تحرّج منها للإشكال العقدي .
- 172 - التحقيق في اختلاف العلماء في رحم المرأة ورحم القرابة أيهما الأصل في الآخر، وبيان أن حديث (أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي) يدل على أن رحم القرابة هي الأصل ثم استعير لرحم المرأة.
- 173 - تحقيق أن (أخذت بحقو الرحمن) كناية عن الاستجارة فيها تشخيص المجرد مع احتمال كون الرحم شخصاً حقيقياً .
- 176 - تحقيق أن التعليق في حديث عائشة (معلقة بالعرش) غير التعلق في حديث أبي هريرة (تعلقت بحقو الرحمن) خلافاً لما جرى عليه بعض الأفاضل ، فحديث أبي هريرة حال قلق الرحم وخوفها وطلبها الأمان ، وحديث عائشة حال اطمئنان الرحم واعتزازها بعد منحها الأمان.
- 177، 178 - تحقيق أن الكناية (أخذت بحقو الرحمن) من الاختراع الذي تداوله الأدباء بعدد، مع قصورهم عنها .
- 180 - الكشف عن نظرية لونية في مضممار الكنايات في الحديث الشريف مفادها أن اللون إذا صُرح به في الكناية كان هو هي، وإذا أُحسَّ بالتوقع أي بذكر أشياء يُعهَدُ لوُحَا كان له أثرٌ ما في تنشيطها وتوسيع آفاقها .
- 180 بيان أن ما يُعاب على استخدام اللون في النقد الأدبي من الوقوع في الربطية لا سبيل له على الكناية لأنها ناشئة عن ملزومات بحسب تعريفها.
- 181، 182 - تحرير النظرة العربية إلى اللون الأبيض وبيان أنه مع الأسود لا يدلان بالضرورة على ثنائية الخير والشر بل على مطلق التمايز، والاستشهاد بوصف للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتفضيلهم المداد الأسود على الصحيفة البيضاء.
- 183 - تخريج حديث إذا دخل أهل الجنة الجنة الذي رفعه حماد بن سلمة ووقفه غيره ،

وترجيح الرفع بأنه زيادة ثقة مقبولة.

- 183 - تحقيق أن تبيض الوجوه الحاصل للمؤمنين في الجنة كما جاء في القرآن والحديث
بياض حقيقي ناجم عن أحوال التشريف والسرور فهو كناية عنهما، وليس مجازاً كما قال
الراغب .
- 185 - تحقيق أن البياض في حديث (فإذا قصر مثل الرابية البيضاء) كناية عن الارتفاع
فضلاً عن الجمال في اللون ، لأن البياض في السحابة يلزم عن خفة مادتها وارتفاعها في
السماء.
- 187، 186 - تحقيق أن السواد في الكنايات قد ينشأ عن أصلٍ ناريٍّ، أو عن كثافة المادة وكلاهما
موجود في الحديث
- 187 - تحقيق أن (ظلتان سوداوان) في حديث البقرة وآل عمران كناية عن كثافة المادة
وعظم الحمولة وأن لهل فائدة في الإظلال والغيث.
- 188 - تحقيق أن السواد في السحابة السوداء التي تطلع قبل الساعة كناية عن كثافة المادة
التي فيها. وأن المفاجأة في الحديث قامت على عنصرين أحدهما انشغال الناس والثاني
ضرب توقعهم لما فيها من الخير.
- 189 - بيان أن أوحش الألوان اجتماع السواد مع الغبرة كالذي على وجوه الكافرين في
الآية، وعلى وجه آزر في الحديث ، وأنها كناية عما لقي من الإذلال والعناء.
- 191، 190 - تخريج حديث ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء.. وبيان أنه صحيح لغيره بتضافر
أسانيد الحسن .
- 190 - التحقيق في رواية عكرمة بن عمار العجلي البصري وترجيح قبولها في غير يحيى بن
أبي كثير بشرط أن يكون الراوي عنه ثقة، كما هو الحال في روايته لحديث أبي ذر ما
أظلت الخضراء.
- 190 - التحقيق في رواية شهر بن حوشب وأنها لا بأس بها إذا كان الراوي عنه عبد
الحميد بن بَهرام كما هو الحال في روايته حديث أبي الدرداء في صدق أبي ذر.
- 192 - التحقيق في رواية علي بن زيد بن جدعان ، وأن حديثه في غير ما أنكر عليه لا ينزل
عن الحسن وإن كان الأئمة تكلموا فيه.
- 193، 192 - بيان أن الغبراء والخضراء في حديث صدق أبي ذر كناية عن موصوفين هما الأرض
والسماء ، والإفادة من الكناية بهما إرادة العموم ، لا التخصيص بحالة نحو ما ذكر ثعلب.
- 193 - مناسبة التعبير بالغبراء لحال أبي ذر المشهورة بالزهد وقام هذه الحال بالصدق.
- 194، 193 - مناقشة اعتراض ابن حبان وقوله في حديث أبي ذر إنه تخصيص بحالة وأن ظاهر

الحديث غير مراد محتجاً بأن النبي صلى الله عليه وسلم أصدق قطعاً ، والجواب عنه بأن الشهادة بأفضلية أبي ذر في الصدق إنما جاءت من النبي صلى الله عليه وسلم وهذا يقتضي بديهته أنه أصدق من أبي ذر، وإلا لم تقبل الشهادة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم خارج المقارنة أصلاً.

أما من سواه كأبي بكر رضي الله عنه وغيره فالمختار المعروف أن نفي الأفضلية على أبي ذر لا يعني نفي المساواة له في الصدق .

194، 195 - تحرير نظرة العرب إلى اللون الأحمر ، وتحقيق الخلاف في مثل (الحسن أحمر) هل يراد به أن سبيل الحسن شديد والمشاق كبيرة أو المراد أن الجمال في الحمرة ، وترجيح الثاني.

196 - بيان أن اللون الأحمر من أكثر الألوان حملاً للمعاني كالشهوات والانفعالات والثورة والقتل، يرشحه لذلك فيزيأؤه التي تعطيه امتداداً وحركة خارج حدوده باتجاه العين.

196، 197 - تخريج حديث (إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم) في الخطبة الطويلة ، وترجيح قبول هذا السياق الذي زاده علي بن زيد بن جدعان ، وبيان أن حمرة العين كناية عن الغضب لأنها تلزم عنه.

- تخريج حديث (لا تياساً من الرزق ..) وتصريح البخاري في تاريخه بالسماع بين الأعمش وسلام بن شرحبيل.

199، 201 - بيان أن اللون الأخضر هو من أطيب الألوان ، وأن البحر والسماء كان يعبر عنهما باللون الأخضر

203 - تحقيق أن الخضرة في الأحياء دليل على قوة المادة وشبابها، وأن الأصفر دليل على انكسارها وبدء انحسارها حتى ترجع إلى بياض أو سواد على خلاف ما بدأت به إلا أن يكون الأصل في لونها الصفرة كالليمون والعرار، أو كانت الصفرة انعكاساً لأمر خارجي كأشعة الشمس والضوء .

وأما في الأشياء من ملبس وأثاث وصبغ ونحوه مما ليس بحَيٍّ فالصفرة زينة .

202 - تحقيق أن المراد بالبقرة الصفراء في القرآن الصفرة المعروفة وليس السواد كما قاله البعض؛ لأن العرب لا تقول عن الأسود فاقع بل حالك .

203 - تحقيق أن اللون الفاقع سارٌّ، ولا يكون فاقعاً إلا إذا كانت الصفرة مادة لونه، أما صفرة المرض فلا تكون فاقعة.

203 - تحقيق معنى قول الشاعر (وصفراء العشية كالعرارة) أن المراد انعكاس صفرة الأصيل عليها وهذا مستحسن.

- 205 - تحقيق مهم في معنى صفراء ملتوية في الحديث وأنه كناية عن الضعف ، وليس عن سرعة النمو ولا عن الحسن، ومنافشة شرح القرطبي لرواية (ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر، وما يكون إلى الظل فهو أبيض) ، وبيان أنه ينبغي تنزيل الحديث على سنن النمو في النبات وأن البياض أول المنازل ثم الصفرة ثم الكمال في الخضرة.
- 207 - بيان أن في (بني الأصفر) في حديث الهدنة كنايةً عن موصوف هو الروم وعن صفة هي المرض والتغير .
- 207 - بيان غلبة اللون الأصفر على اللوحة في حديث (اعدد ستاً بين يدي الساعة) وملاءمته للمعنى .
- 209، 210 - تحرير نظرة العرب إلى اللون الأزرق وأنهم كانوا ينفرون منه لارتباطه بالروم والجن والموت، وهذا غير الأزرق الذي في السماء والبحر فالعرب تسميه أخضر .
- 212، 213 - تخريج حديث الملكين الأسودين الأزرقين منكر ونكير ، وأن مداره على عبد الرحمن بن إسحاق الذي لم يقبله أهل المدينة، والذي ضَعِف حديثه عن أبي الزناد ، وبيان أن أهل المدينة لم يحمده لأجل قوله بالقدر لا طعنًا في حفظه ، وأن حديثه هنا ليس عن أبي الزناد، والراجح تحسين حديث عبد الرحمن بن إسحاق هذا ، ويشهد له حديث موقوف عن أبي الدرداء له حكم المرفوع، ورجاله ثقات وفيه تميم بن غيلان وهو إما أن يكون صحابياً أو مستوراً تقادم العهد به فيقبل حديثه ، وبالجملية يصح الحديث لغيره.
- 214 - تحقيق أن (أسودان أزرقان) في حديث منكر ونكير كناية عن الظلمة والبرودة ، ثم بيان الصورة الفنية في الحديث، وما يوحي به اجتماع الاسمين منكر ونكير واجتماع لونيتهما، ثم إحياء الزرقة بالجثة برائحة الموت العتيق، وأثر البرودة في الزيادة من شدة السؤال والامتحان .
- 215، 216 - الكناية بإضاءة أعناق الإبل ببصرى عن عظم النار التي تخرج في الحجاز، وتحقيق الدقة العلمية التي تحمل بها الحديث مقارنة ببيت امرئ القيس الذي عدّ من باب الإغراق، والاستعانة بعلم الجغرافيا في هذا التحقيق.
- 218، 219 - تحقيق أن المكاتبه ربما كان لها فضل على السماع كما في مكاتبه عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه للأمير عمر بن عبيد الله التيمي بحديث الجنة تحت ظلال السيوف، حيث تمّ السياق خلافاً لرواية أخرى عنه سماعاً، وخلافاً لرواية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حال الالتحام بالعدو حين اجتزأ من الحديث جملةً واحدة : (واعلموا أن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف)، ثم تقوية احتمال أن تكون كلمة أبواب مدرجة لخلو حديث ابن

أبي أوفى منها وهو أرجح.

- 221 - بيان أن الجنة تحت ظلال السيوف كناية عن الالتحام مع العدو وتشابك السيوف حتى يكون لها ظل، ثم الإفاضة في شرح الصورة الفنية لهذه الجملة من الحديث بأنها تشكل ذروة التصعيد المعنوي في الخطاب، وتحتوي لونين بالتوقع هما الأخضر والأبيض، وعلى ملمسين الحار والبارد، وما فيها من اقتصاد في التأثير على الحس النفسي للمتلقي يقوم على التدرج وإظهار المكروه بثوب محبب.
- 222 - تحقيق أن هذه الكناية (الجنة تحت ظلال السيوف) من الاختراع الذي تسابق إليه البلغاء من كل عصر ، مع انقطاعهم عنه ، واختيار ثلاثة منهم يمثلون الأول والأوسط والآخر، هم عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وضياء الدين بن الأثير ومصطفى صادق الرافعي.
- 223 - بيان السبب في عدولي عن اصطلاح الدكتور نعيم اليافي في الصورة الحركية والمتحركة أنها في الأولى حركة في الخيال وفي الثانية حركة في الخارج، بأنه لو عكس لما كان بعيداً، والمتوجّه أن نعتبر الحركية ما كانت الحركة فيها هي الصورة فتنسب إليها، والمتحركة ما كانت الحركة فيها عنصراً نشطاً وليس هو كل الصورة .
- 224 بيان أهمية الحركة الإشارية، وأن أول دلالة وأعم دلالة لحركة الجسد هي الحياة ، ومن ثم كانت الحركة كناية عنها كما في الحديث (ما تهزرت رؤوسكما) .
- 225 بيان المناسبة بين (ما تهزرت رؤوسكما) وسبب ورود الحديث، بأن ابني خالد كانا في علاج ذلك الشيء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث تهزّز الرؤوس في غمرة العمل .
- وبيان مناسبة هذه الكناية لدوام الرزق بأن الرأس آخرُ الجسم سكوناً ومن فمه تخرج الروح بعد انسلاها من سائر الجسد والأطراف ، والرزق كائنٌ ما دام هذا الرأس يهتز وتُخفّق فيه الروح، وأن الحديث أوعب حياة المرء من ولادته أحمر لا قشر له إلى موته حين يسكن رأسه.

- 226 - الكناية (فيقع في حفرة من النار) عن قتل أخيه، وفضل لا يشير على لا يشر في حديث (لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح) بأن استعمال الفاء الفصيحة والذي يوحى بحجم الخطر وبعدها الهاوية يناسبه مبالغة في النهي أول الأمر لهذا جاء النهي على هيئة الخبر ولفظه ، وأن إيقاع لا يشير الممدودة يلائم مقام التأني والتحلم المطلوب أول الحديث، وأنه عند المخالفة تسارع الإيقاع وقلت المدود.
- 226 - تحقيق أن في حديث (لا يشير أحدكم...) اقتصاداً في التأثير على الحس النفسي للمتلقى من جانبين: الحذف الذي يُجَنَّب فيه ما لا يُرغب، والتدرج في سرعة الإيقاع.
- 227 - بيان نظر عبد القاهر في تفضيل الحركة المركبة على المفردة بأن الأخيرة تحتاج إلى شكل أو لون، ومعارضتها بما في الكنايات النبوية من حركات مفردة ومركبة واهتزازية، لكل منها شأنها في ذاتها وشأنها في سياقها.
- 229 - بيان الحركة في الكناية (من فارق الجماعة شبراً) أنها حركة مفردة (أي في اتجاه واحد) وحيدة، صغيرة في حجمها، قصيرة في مسافتها، تناسب ضالة هذا المنفرد إذا قيس بعظمة الجماعة ، فهي أبلغ من المركبة في هذا الموضع .
- 231 - بيان أن الكناية (لا يفرق بين اثنين) حركة مركبة في اتجاهين متعاكسين في وقت واحد، وشكل هذه الحركة بغض النظر عن المعنى يوحى بالنفرة والوحشة إذا كانت داخلية بين المتحرِّكين ، فإذا تمت بسبب خارج عنهما كما في الحديث أوحى بالتكُّلف والخشونة.
- 232 - بيان أن في الكناية (نار تحشر الناس) حركة مركبة من حركتين دائبتين في اتجاه واحد تطلب إحداها الأخرى، وهي كناية عن شدة هذه النار واستطارتها طولاً وعرضاً ، وفي صورتها هول ناجم من تشخيص النار وإسباغ الإرادة عليها.
- 233 - التحقيق في البعير الذي يحمل العشرة وإمكان تسمية المركب الآلي بغيراً حقيقة لا مجازاً بالنظر إلى البعير في اللغة أنه كل ما يحمل وإن اشتهر إطلاقه على الجمل.
- 234 - إثارة التساؤل حول تجاهل معمر وعبد الرزاق لأمر ذي الخصلة وهو في طريقهما إلى

مكة، والجواب المظنون أن التحقق من أمره تعدّر لكونه بيتاً سُكِن ، أو أنهم تجنبوه لئلا ينبعث بزيارة مشاهير الناس ورؤوسهم.

235 - الجمع بين اضطراب أليات نساء دوس على ذي الخلصة في حديث أبي هريرة وتدافع نساء بني عامر عليه في حديث عبد الله بن عمرو، بأن بني عامر يشاركون دوساً في تلك المنطقة ، و بيان وجه ذكر النساء دون الرجال في هذا الحديث بأنهن أسرع إلى هذا النوع من الفتن، والرجال تبع أو ذاهب أمرهم.

235 - بيان الصورة الفنية في اضطراب أليات النساء على الصنم وأنها لقطة قريبة مركزة قد يراد بها الاستخفاف والتصغير لشأنهن فلسن غير ألياتٍ تضطرب، وأنّ أكثر سعي النساء إلى السحرة والكهنة والأوثان إنما هو في هذا السبيل الوضع .

237 - فضيلة الفعل بادر على الفعل سبق في حديث (فبادر الطرف نباته) إذ يمثّل الحركة الكاملة في سرعتها والكاملة في حسننها، لأن في بدر أصلان هما السرعة والكمال . ثم بيان ما في جو الحديث من الظرف والركة وأن (دونك يا ابن آدم لا يشبعك إلا التراب) تخرج هنا على معنى توبيخ الملاحظة والتجيب لا التوبيخ المعهود ، والاستناد في ذلك إلى استرسال الأعرابي ومداخلته اللطيفة.

238 - تحسين الترمذي لحديث (إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْبَلِيعَ مِنْ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَحَلَّلُ بِلسانِهِ) مع غرابته، وتخريج المناوي لتحسين الترمذي على أنه من أجل عمر بن علي المقدمي الثقة المدلس ، والجواب عنه بأنه صرح بالتحديث في هذا الحديث، ووجهة نظري أن تحسين الترمذي كان من أجل عاصم بن سفيان الثقفي الصدوق الذي عليه مدار الإسناد، وبيان أن للحديث شواهد قد تميل به إلى الصحة.

239 - بيان وجه الكناية في (يتخلل بلسانه) عن التكلف والتفاصح إذ لا يكون التخلل إلا عن حالة ذاهبة في النفس مذهب اللسان بين الأسنان وقعر الفم من التقعر والثقل.

240، 241 - التحقيق في الكناية (تنفرد سالفتي) أنها عن القطع بالسيف وبيان عنف هذه الحركة وما يستلزمه ذلك من تخيل سالفة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه أغلب العنق كما يوصف

بذلك الأسود وسادة الرجال.

242،243 - ترجيح عود الضمير في (يجدائها وحشاً) إلى الغنم لا إلى المدينة ، وأن هذا التوحش في الغنم إما على معنى النفرة أو على معنى الشراسة مما يؤدي إلى حركتهما طلباً أو هرباً ، حتى إذا وصلا ثنية الوداع ورأيا المدينة خلاء قفراً خراً على وجوههما في حركة ضعيفة متهالكة هي آخر أمر البشرية.

وأربط التوحش هنا بقضية البعران وترجيح كونها آلية بأنه لا يسهل تذليل الدواب في النار الحاشرة والمظاهر الكونية العجيبة.

ثم بيان تأثير كلمات الحديث في الصورة الفنية (ينعقان الوداع وحشاً) وخاصة كلمة ينعقان التي هي عند الناس ألصق بغراب البين. ثم أثر الإبقاء على الراعين قليلاً بعد الناس في تمثل حجم الكارثة .

244 - تخريج حديث (كيف أنعمُ وصاحبُ الصُّورِ قد التَّمَّ القَرْنَ)، وبيان إخراج أبي يعلى وابن حبان له برجال ثقات هم رجال الشيخين من طريق أبي صالح ذكوان السمان عن أبي سعيد، ورواية الترمذي له من طريق عطية العوفي وقوله فيه حسن وأنه روي من غير وجه عن عطية ، فلم يشر الترمذي إلى رواية أبي صالح وهي أقوى ، فيترجح أن يكون الحديث صحيحاً .

ثم بيان الصورة الفنية للكناية في الحديث وتحقيق أن الحركة المنقطعة في التقام القرن تقرب الصورة من النحت ظاهراً ولكنها تسبب توتراً باطنياً .

247 - تحقيق معنى الظل في (شجرة يسير الراكب في ظلها) وتأويل بعض العلماء للظل من جهة أن الجنة لا شمس ولا حر بها أصلاً ، وبيان أن الظل يقال أيضاً على ما يستر مطلقاً ولو لم يكن حر وشمس، ودور هذه الكلمة (الظل) في الاقتصاد من التأثير على حس المتلقي وتحويل مسير مئة سنة إلى معنى النزهة بهذه الكلمة .

248 - تحقيق أن (فاضت عيناه) كناية عن الشعور بحركة متنامية في امتلاء العين بالدمع تعكس شعوراً متنامياً في القلب.

249 - تحقيق أن (ذكر الله خالياً) في حديث السبعة تحتل معنيين: خالياً عن الناس وخالياً بالله ، والثاني يرشح لجزاء من جنس العمل .

250 - الصورة في (إذا خرج الإمام حضرت الملائكة) وبيان أن هؤلاء هم ملائكة البُكور يكتبون الناس على قدر منازلهم في الحضور، في هيئة راقية تمثل النظام وتطلب الكمال في تصعيد الزمن والحدث : الزمن يتقارب والقربان يتضاءل ، وأن حضورهم كناية عن طي الصحف وانقضاء الكتابة وفوات فضيلة التبكير، وهذا الحضور يتم من باب المسجد إلى مواضع استماعهم في حركة أفقية تشبه حركة الناس ، فكأنهم بعضُ جماعة المسلمين أُسند إليها عمل الرقابة مع حرصها على الذكر. وبيان مجيء الفعل حضرت بالماضي وكنايةً عن محذوف هو طي الصحف إيحاءً بالسرعة وحثاً على الاستعجال وإضراباً عن المتخلفين الجفاة الكسالى .

252 - تحقيق أن (يغيب أحدهم في رشحه) يبدأ بصورة جماعية وينتهي بلقطة قريبة مركزة على فرد واحد، ولم يبيّن سبب العرق لكنه ذكر القيام لرب العالمين، فالعامل في العرق معنوي وحالة نفسية داخلية من خجل أو خوف يناسبه التمثيل بواحد وتمت الكناية في حركة شاقولية متنامية حيث لا يُراد صرف الفكر في الحديث الأول إلى امتداد العرق أفقياً بل المراد ارتفاعه حتى يبلغ أنصاف أذنيه ، أما حديث (تدنو الشمس من رؤوس الخلائق) فالعامل في العرق حسي خارجي مناسب تصوير الجماعة .

253 - تخريج حديث (من سئل عن علم فكتمه) وبيان صحة الحديث وأن تحسين الترمذي له إنما هو من طريق عمارة بن زاذان ، وقد رواه الحاكم وغيره من طرق صحيحة .

253، 254 - تخريج كثير من العلماء لحديث (ألجمه الله بلجام من نار) على التمثيل والتشبيه ، ووجهة نظري أنه على الحقيقة وأن النار يبلغ من كثافتها أن يصنع منها لُجْم ويلف لجام النار على كاتم العلم في حركة دائرية ترسخ معنى الحبس والانغلاق، وحينها تتوجه الكناية بهذا عن حيوانية الكاتم أو عن غاية الإذلال له بتخريجه مخرج الحيوان.

256 - وجهة نظري في تصويب حمل (ليس بينها وبين الله حجاب) على الحقيقة لا على الاستعارة لأن حملها على الحقيقة لا يتضمن إثبات حجاب لله ولا نفي الحجاب عنه ، أما حملها على الاستعارة فيتضمن القول بأن الحجاب استعارة فيكون ذلك مدخلاً إلى المشكلة العقدية المعروفة .

ثم بيان فائدة تخصيص دعوة المظلوم بنفي الحجاب أنه لتعظيم قدرها وتخريج أمرها، ولا مفهوم له.

- 257 - بيان أن سماعه صلى الله عليه وسلم صريف الأقلام لا يستلزم اطلاعه على جري المقادير كما ذكر بعض العلماء ، ولكن يدلُّ على قرب وعلوِّ يلزم منهما سماع الصريف فيكون كناية عنهما، والحركة المرافقة لها نشطة جداً ودائمة لا تفترُّ والعمل جماعي. ومن وجه آخر تُعدُّ هذه الكناية من الصور السمعية التي تمخَّضت للسمع .
- 263 - بيان أن في الكناية مستويين مستوى المعنى ومستوى معنى المعنى، فالمعنى هو السطح من الكناية على أنه ميدان علم المعاني، ومستوى المعنى من الكناية النبوية مفعم بهذا الصنف من البلاغة، وهذا يعني أن الانشغال بمضمون الكناية لم يحل دون تطعيم السطح بالبلاغة.
- 264، 265 - بيان سبق الشيخ عبد القاهر إلى نظرية معنى المعنى للناقدَيْن ريتشاردز وأوغدن بقرونٍ، وأن معنى المعنى هو المضمون من الكناية .
- 264 - التوفيق بين قولين متعارضين في الظاهر للشيخ عبد القاهر في مسألة وضوح الدلالة وغموضها وبيان أن التعارض بالنسبة إلى المجاز، أما الكناية فخارج التعارض.
- 266 - التنبيه إلى أن العربية ذات أسس ووظائف تتجاوز التواصل الأفقي في الجيل الواحد إلى تواصل تصاعديٍّ عبر الاجيال لذا ينبغي ألا يُسمَح بتعدي الحدود .
- 267 - الرد على تهمة الاثنينية في التركيب الكنائي بأن الكناية مركب واحد وأن معنى المعنى في عمق المعنى وليس في جواره وأنه ليس شيء مثل الكناية في التلاحم بين الصورة والفكرة .
- 267 - حكاية انتقاد البيان التقليدي بأنه يقوم على مبدأ المشابهة وليست المغايرة بأقل شأناً منه في الجمالية ، والرد بأنه لا يمكن الحديث في الكناية عن مشابهة ولا مغايرة لأنها مركب متوحد .
- 267، 268 - حكاية انتقاد البناء المنطقي للتركيب البيانية لأن الصورة تنشأ من العاطفة لا من المنطق والمنطق سبيل الذهن العلمي الذي يرى الأشياء من الخارج ، أما الذهن الشعري فيراها من الداخل، والجواب بأن الكناية مركَّب واحد دال على معنى ومعنى آخر في عمقه فالعلاقة فيها أصلاً داخلية ولا يمكن رؤيتها إلا من الداخل، ومن ثم فلن تكون إلا عن انفعالٍ وانبثاقٍ روحي ، وفي الفطرة السليمة الكاملة لا يكون الانفعال إلا منطقياً ولا المنطق إلا انفعالاً بوجه من الوجوه.
- 268 - حكاية انتقاد التراكيب البيانية التقليدية بالجمود وهذا ينشأ من قضية المشابهة ، والرد

بأن مشكلة المشابهة تم نفيها عن الكناية فكذلك الجمود.

267، 269 - تحصيل أن الكناية تعبير صوريّ إيحائيّ آنيّ غير جاهرٍ ولا مُعَدِّ مُسَبِّقاً، وليس له إلا مظهرٌ واحد وتركيبٌ واحد هو الصورة فلا مشكلة في التشابه ولا المغايرة . ولا ثنائية في الرؤية ولا جمود فيها ؛ لأنها متجددة بتجدد اللوازم ولأنها تعبير بالصورة الحسية من الواقع المعاش.

والتذكير بالعديد من الكنايات النبوية وملاحظة التصوير في جميعها مما ينفي التهم عنها.

269 - الكنايات القديمة لا تموت ولكنها تتحوّل بكثرة الاستعمال أمثالاً ومجازات.

273 - بيان المراد بالإيقاع وأنه ليس الذي يتصل بالعروض ويُنفى عن النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو إيقاع آخر يسمى حديثاً بالإيقاع الداخلي وهذا من صفة اللغة العربية نفسها وليس متكلفاً.

273 - بيان أن الشعر لا يصلح لرسول الله لمعنيين الميزان المناسب للإيقاع الذي هو ضرب من الملاهي، وتبعية المعنى للوزن .

274 - الفوضى في النثر غير حتمية بل وغير مقبولة، وإنما تباين من تباين من فصحاء العرب واختلفت مراتبهم بانتظام نثرهم في إيقاع تسيغه الآذان وتحنُّ له الأسماع، فهذا وجه من التباين والآخر البيان والثالث التصوير.

276 - إثبات الإيقاع في اللغة العربية وأنه من طبيعتها فهذا يعني أنه موجود في الحديث وكناياته ضرورةً وموجود في أعلى مراتبه؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب.

276، 277 - تحقيق أن مبدأ دي سوسير في جزافية العلامة اللغوية ونظام العلاقة اللغوية يعارض كون الإيقاع من طبيعة اللغة ، وأن هذا المبدأ ينطبق على اللغة الإنكليزية ولا ينطبق على اللغة العربية ، وما استدل به من انفصام العلاقة الصوتية بين كلمة الشجرة ومعناها في الإنكليزية لا يصح تطبيقه على الشجرة ومعناها في العربية ، وتفصيل في إيقاع الشجرة يثبت ما قلته.

- بيان أن مبدأ دي سوسير في الجزافية مسبوق بنظرية عبد القاهر في النظم، وتحقيق أنه 278،
ينبغي أن ينظر إلى نظرية النظم من خلال الموقف التاريخي وأنها كانت رداً متحمساً مبالغاً 280،281
فيه على القاضي عبد الجبار المعتزلي، وما ذكره من أنه لا علاقة بين معنى ضرب وإيقاعها
لا يستقيم، ثم بيان الإيقاع في ضرب وريض وملاءمة كل منهما لمعناه. ثم الاستزادة من
أمثلة مفردات الكنايات النبوية التي تثبت هذا مثل تنفق وألين ويضع .
- تحقيق ملاءمة إيقاع الكناية النبوية للفكرة العامة توافقاً كممسك بعنان فرسه 282، 283
للجاهزية حيث العنان يشي بخفة الحركة ومرونتها زيادةً على دلالتة في الحبس والتمكن،
أو تعكاساً كملاءمة واسعاً للرحمة ومعاكستها لإيقاع حجرت .
- تحقيق علة التناسب بين الإيقاع والفكرة أن مصدر الإيقاع انفعال النفس 283
- ملاحظة أن الإيقاع في الكناية النبوية دليل سام على البلاغة، لأن الكناية قفزة 284
نوعية إلى الدليل والوائب يتخفف عادةً ويجعل همّة الوثبة، لكنّ الإيقاع في الكناية النبوية
منسجم مع المعنى متصل بسائر إيقاع النص الكليّ الفاضل عن الكناية مما يدلُّ على
توحد الكناية مع النص وعلى غاية التمكن والامتلاك منه صلى الله عليه وسلم لخاصية
اللغة.
- التمثيل لكل عنصر من عناصر الإيقاع (صفات الحروف والحركات والسكنات والمدود 285- 288
والرسم) بكناية نبوية يبرز هذا العنصر فيها.
- تخريج حديث لن يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً وبيان أنه لا 288
اختلاف في موضع الكناية وسبب اختياري لرواية الإمام أحمد (المرء) على رواية الإمام 289،
البخاري (المؤمن). 290، 291
- و ملاحظة الأثر النفسي للكناية بكلمة الدم وأنها تحدث ما لا تحدثه كلمة القتل. 292، 293
ثم تطبيق وافٍ لعناصر الإيقاع الأربعة على الحديث ورصد تأثيرها النفسي على المتلقي.
- تحقيق البلاغة في استعمال (مَن) في قوله تعالى : (ولله يسجد من في السموات ومن 294
في الأرض) بأنه تشخيص وتنزيل لغير العقلاء منازل العقلاء،
وفي عود الضمير المفرد على الجمع في قوله تعالى (وكثير حق عليه العذاب) بإنها إشارة
إلى ضالة هذا الكثير من الناس بالنسبة إلى عدد الساجدين في الكون.

- 296 - تحقيق وظيفة الطبيعة في الكناية أنها تتجلى في التفسير والتأثير، فالتفسير يتبين به أثر
- 298 الطبيعة في صنع الكناية ولأنها إرداف ولزوم فهي لا تخرج عن كونها حركةً طبيعية (والبيئة طبيعية مصنوعة) ، ويتجلى هذا الأثر واضحاً في الكنايات اللونية والحركية فاللون مظهرٌ للطبيعة، والحركة مظهرٌ للحياة، إنهما يعكسان التفاعلات الداخلية في الأجسام وعنهما ينجمان.
- والتأثير يتعلق بالناحية الجمالية، والكناية بحديثها تعبير جمالي فيه مغايرة حتمية للتعبير السطحي ، ويأتي المنظر الطبيعي فيضيف إلى هذا المقدار من الحسّ مقداراً آخر يأتي من الملازمة بين الإنسان والطبيعة ووقع مشاهداتها في نفسه.
- 298 - الكناية الطبيعية (حتى إذا امتدت خاصرتها) في حديث آكلة الخضر ، وأثرها في نفس المتلقي، وأنها ترشّح لتفهمه المثل المضروب بها .
- 299 - تنوع المشاهد الطبيعية في الكناية النبوية من مشاهد ثابتة: (ممسك عنان فرسه)، وتمثيلية : (تعدو بك قلوصلك ليلة بعد ليلة)، ورمزية (ويضع العلم).
- 301-302 - التمثيل بحديث زاهر بالطبيعة والحياة والحركة، محتوم بالكناية ، حديث الرجل الذي سقى الكلب، وكناية (في كل كبد رطبة أجر)، وتحليل للصورة الفنية لهذا الحديث بما فيه من مشاهد طبيعية وبيئية وأفعال خارجية وداخلية .
- وملاحظة أن في سؤال الصحابة المتعجب (إن لنا في البهائم لأجراً؟) إشعاراً بالقطعية التي كانت بين العرب والطبيعة الحيوانية.
- 303 - بيان أن الإنسان مخلوق من اجتماع، ثم هو لا يزال في اجتماع يجعل الله سبحانه وتعالى، وهذا معنى قولهم: (مدني بالطبع)، ومن ثم كانت البيئة (العلاقات والمصنوعات) من الطبيعة ، وكان الأدب انعكاساً لها.
- 304 -ملاحظة أنّ الحديث النبوي الشريف معانٍ مُنزلة من وراء البيئة والطبيعة، ووحى من خالقهما، لكن ضرورة أنه متجهٌ لهداية الناس إلى النظام الأمثل للعلاقات تحتم أن تكون هذه المعاني بألفاظهم ورسومهم .
- 304، 305، خصوصية العلاقة بين الكناية والبيئة المنبثقة عن مبدأ اللزوم ، وملاحظة أن اللزوم
- 306 الطبيعي أقوى من اللزوم البيئي، وغالباً ما تتحوّل الكنايات البيئية العرفية إلى أمثال فتسري

في الزمن بثوب المثل لا بثوب الكناية نحو كثير الرماد، وكثيراً ما تخرج على الاتساع نحو لا يضع العصا عن عاتقه، وذلك لاختلاف البيئات عبر المكان والزمان. وملاحظة أن اللزوم العرفي هو السر في استدامة الكناية البيئية وليس العنصر البيئي المصنوع.

- ضرب المثل لاستمرارية الكناية البيئية النبوية بأخص الكنايات البيئية وهي الكنايات التاريخية التي تصوّر بيئةً جاهليةً دارسة (ترمي بالبعرة على رأس الحول) كناية عن الذل الذي تعيش فيه. فهذه الكناية على خصوصيتها البيئية المحضة وعلى أنها تصويرٌ لما عَقِيَ عليه الزمن ونَقَضَهُ الإسلام فإن تأثيرها وفاعليّتها سيبقيان أبداً الدهر ما بقي في القوم أزواجٌ وعددٌ واستتقالٌ وتبرُّمٌ.

- بيان ما للمبدع من شأنٍ وافر في علم البلاغة والنقد الأدبي عند العرب من جهتين: 310 أثر المشافهة في نشر الأدب وميل العرب للسماع، واهتمام المتلقي العربي بالصدق الواقعي للأدب.

- بيان المذهب في شأن المبدع حيث يمنحه الرومانسيون أهمية تفوق الواقع، والعكس 311، 312 عند الكلاسيكيين، أما الأسلوبية المعاصرة فتسكت عنه وتركز على العمل الأدبي، ووجهة 313، نظري أن نستكشف المبدع من خلال نصه لا من حيثية خارجيه فنكشف عن الصدق 314 الفني للمبدع ونتأثر بشعوره من خلال نظرية الفحص الباطني التي شرع بها العقاد.

- بيان طريقة الكشف عن الصدق الفني للمبدع بمتابعة التصوير في أدبه، وتطبيق 314، 315 مارسه سيد قطب على قطعةٍ من شعر أحمد شوقي أثبت فيه زيف شعوره في هذه القطعة بالذات، وآخر مارسه على بيتٍ لامرئ القيس .

- استثناء كتب كأدب الكاتب ونحوه من قضية المبدع لأنها تعليمية تثقيفية وليست 315 أدباً بالمعنى المقصود، كما أشار إلى ذلك الرافي.

- تحليل قضية الصدق الفني في الأدب وفي الحديث الشريف ، وبيان أن للصدق الفني 316، 317 في الحديث النبوي الشريف دوراً كبيراً في التأثير على المتلقي ، وصدق إحساس النبي صلة الله عليه وسلّم أحقُّ أن يسري إلى قلوب المتلقين للحديث.

- تحقيق أدلة الصدق الفني في الكناية النبوية، وهي: 1- الكناية ذاتها باعتبارها صورة 319 انحرافية لا تتم بغير طاقة إضافية من الإحساس هي ما يُسمّى الانفعال أو الصدق الفني. 2- الكناية باعتبارها صورة فنية لأن الصورة الفنية مصدرها الانفعال. 3- الإيقاع في الكناية النبوية لأن مصدره الانفعال أيضاً. 4- الصدق الواقعي في الكناية النبوية.

- 320 - بيان أن الصدق الواقعي يعتبر في الأدب دافعاً يؤدي إلى الصدق الفني وتأثر الأديب بما يقول ودافعاً لتأثر المتلقي بما يسمع، وتحقيق أنه في الكناية مظهر ودليل على الصدق الفني لأنها انتقال من الصفة إلى الدليل وهذا يعني البعد الطبيعي عن الإغراق .
- 320 ، 321 - بيان أن المعوّل عليه في تمييز الروايات في الحديث الشريف هو الدراسة المنهجية الدقيقة للمتن والإسناد، وبعد ذلك يمكن الاستئناس في تمييز الروايات بالنقد الداخلي للصورة والإيقاع اللذين هما مظهرها الصدق الفني، كما فعلت في اصطفاء رواية (حجرت واسعاً) على (احتظرت) بالسند أولاً ثم استأنست لذلك بالصدق الفني ومظهره التصوير والإيقاع.
- 321 ، 322 - تحقيق دلالة الكناية على الانشغال الفكري للمبدع بأنها قفزٌ من الملزوم إلى اللازم ما كان له أن يتمّ لولا تمكُّن عميق للفكرة في النفس، والتمثيل لذلك بالكناية النبوية: (الجنة ، 323، أقرب لأحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك) كناية عن الموت كما كانت العرب تقول: 324، (الموت أدنى لأحدكم من شراك نعله) لكن النبي صلى الله عليه وسلم تجاوز قضية الموت 325 بالكناية عنها بما وراءها مما هو أهم منها ، لانشغاله صلى الله عليه وسلم بالحساب والجزاء.
- 328 - بيان الوضع الصحيح لقانون مراعاة الحال في البلاغة ، ذلك أنه يخشى من أن يمثل هذا القانون قوةً ضاغطة عكسية يمارسها المتلقي على المرسل فينشأ نفاقٌ خفيٌّ يتطور مع الزمن إلى قناعة، والحالة الصحية أن تكون مراعاة الحال غلافاً للمضمون المراد توصيله لا أن تصبح هي المضمون.
- 330 - تحقيق الصلة بين الكناية والتهذيب وأنها توثقت بعد استقرار المصطلح لأنها أصبحت تقوم على مبدأ تغطية الملزوم باللازم، ولست الملزوم أغراض منها التهذيب.
- 332 بيان إصرار المعاصرين على الطابع التهذيبي للكناية بالنظر إلى (رفقاً بالقوارير) و(كانا يأكلان الطعام)، والجواب عن ذلك بأنهما ليسا بكنائتين ، وأن الكناية لا تخلص للتهذيب بل لها أغراض معه.
- 333 - تحقيق أن (ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً) كناية عن النفاق ، وبها نقع على ضرب من الرُقْيِ والتهذيب القولي والفطنة والسياسة .
- 336 - بيان أن الكناية بما بين لحييه وما بين رجليه عن الفم والفرج لم تخلُص للتهذيب، وثمة فوائد أخرى تتجلى في البينية: (ما بين.. وما بين..) فكأن فيهما تقييداً وحبساً وإضعافاً لهذين العضوين، وتذكيراً بالقدرة عليهما، وتحذيراً من خطرهما الكامن.

- 337 - بيان أن التهذيب الجنسي في الكنايات ليس في قضية ستر لفظٍ صريحٍ يدل على عضو جنسي فهذا سهلٌ قد يرد في مواضعه اللائقة ولا عيب فيه، إنما القضية في التصوير الجنسي الذي هو مناطُ الإثارة، فهذا الذي يتجنبه الحديث.
- 338 - استكشاف الأغراض الترغيبية التي تؤدّيها الكناية لتعضّد بها الجزاء المرتّب على العمل ، فيكون في الكناية ترغيب ذاتي في طبقة المعنى أو معنى المعنى، ويمكن أن تحمل الكناية ترويحاً أو تحبيباً أو تسليّةً أو تعظيماً أو تبشيراً.
- 339، 340 - تحقيق الكناية في (اللّقة تجعلها في في امرأتك) عن صفة هي الملاعبة وموصوف هو الشيء القليل، وأنها جاءت هكذا في أكمل الروايات وأحسنها وأصحها، والتعجب من تلاحم الكنايتين المعيّرتين عن الأصرة الزوجية، وأن الترغيب في ثواب النفقة على الأهل استعان بالكناية المصوّرة لحظ النفس والمرّوحة عنها بتذكّر الملاعبة والمعاشرة.
- 341، 342 - بيان أن البردين في (من صلى البردين دخل الجنة) كناية عن موصوفين هما صلاة الفجر وصلاة العصر، وأن (من) للشرط وليست موصولة، وأن الكناية للتحبيب بهما في سياق الترغيب .
- 343، 344 - بيان أن (لم يبلغوا الحنث) كناية عن البلوغ ، وتلمس الحكمة في هذه الكناية وأنه لم يصرح بالبلوغ لأن المقصود تسليّة الوالد بأن ولده لم يبلغ الحنث، أي لم يذنب، فهو على طهره ونقائه ومن ثمّ كان في رحمة الله وجنته تمهيداً للبشارة بأن الوالد مغفورٌ له بموت هؤلاء.
- 345، 346 - بيان أن الحبّيتين في حديث (إذا ابتليت عبدي بحبيتيه ..) كناية عن العينين، وأن هذا أقصَح ألفاظ الحديث ودونه كرميتي عبدي وبصر عبدي اللذان هما رواية بالمعنى. وأن المراد منها التعظيم بالوصف وتكثيف المعنى والشحنّ العاطفي وتشتمل على تصوير في قوامه التشخيص ، وأنها تعزية حسنة.
- 351 - الكناية والتبشير في قوله (فلا كسرى بعده...ولا قيصر بعده) عن ذهاب دولة الفرس ودولة الروم، وغنى هذه الكناية بالبلاغة في طبقة المعنى (لا النافية للجنس واسمها وخبرها) وبيان أن كسرى وقيصر في منزلة بين التعريف والتذكير هي التي سوّغت دخول لا النافية للجنس عليهما، بل إن كونهما من أعلام الجنس الدالة على فردٍ فيه غير معيّن يجعلهما أليقّ الأسماء بلا النافية للجنس وأولى بها من النكرات المطلقة.
- 352 - استكشاف الأغراض الترهيبية للكناية النبوية ، وأنها يمكن أن تحمل تهيباً ذاتياً (تخويفاً أو ترويحاً أو وعيداً أو تقبيحاً) يتأيد به معنى النهي الذي يطلبه الحديث كلّ.
- 352، 353 - بيان أن (أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم) كناية عن الزنى وأن هذا

الترهيب جاء على مستويين : ترتيب الجزاء بحرمانها من الجنة، والترهيب بالقبح الذاتي لدخول من ليس من القوم فيهم بما يتصوره المرء في ذلك من أهوال.

356، 357 - بيان الأقوال في معنى (فمن لها يوم السبع) ، وترجيح أنها كناية عن الفتنة العارمة التي يردفها أن تخلو الأيام للسباع ، وملاءمة الإيقاع في السبع لمعنى الروح الذي تحدثه الكناية. و تلُمَّسُ للعلاقة بين قصة البقرة وقصة الذئب، بأن التعسف والظلم في استعمال الكون المسخر هو المؤدي إلى الفتنة التي تجعل من السبع وارثاً، وأن الغاية من الكناية في هذا الحديث الترهيب من الظلم والتعسف المؤديين إلى الفتنة، بطريقة الإنذار والوعيد بالفتنة وذهاب المال حتى تسَلُو عنه القلوب ولا تتعلَّق به وتصرفَ همَّتها إلى تجنُّب الفتن والأسباب الموصلة إليها.

358 - بيان أن (حتى إن أحدكم ليضرب ابن عمه بالسيف) في حديث وفد عبد القيس كناية عن غلبة السكر حتى يذهب العقل، وملاحظة خلو حديث ابن عباس من هذه الجملة ووجودها في حديث أبي سعيد الخدري وكلاهما صحيح، ووجودها في حديث العصريين في المسند ، وما سيأتي في المبحث الأخير من الفصل السادس تعليل ذلك بأن ابن عباس اهتم بالفقه من الحديث دون تفاصيل الخبر ، وأنه لم يشهد الواقعة بل رويت له .

361، 362 - تحقيق الترهيب الذي وقع في هذه الكناية (ضرب ابن العم بالسيف) بأنه قام على التقبيح الذي لا تملك العرب إخراجه مخرج حسن كما فعلت حين جعلت الخمر باعثة على الكرم والشجاعة.

356، 357 - بيان أن قول النار (أكل بعضي بعضاً) كناية عن خلاء جوفها وشدة جوعها إذ يردف خلَوَ النار مما تأكله أن تأكل بعضها، وتجمع أنواعاً من الفنون التصويرية البصرية والسمعية واللمسية والتشخيص والتجسيم والإيقاع التصويري واللون والحركة ، وتحقيق أنها من الاختراع الذي تقاصر عنه الأدباء، كالنمر بن تولب وابن المعتز .

376 - بيان أن الضدية في معنى الأَبْض في بيت النمر بن تولب (أشكو العروق الآبضات أبضا) أعطت البيت وظيفة التوتر، وأن هذه هيئة الهَرَم لا تطمئن عروقه ، ولا تزال بين شدِّ وتخلية وسكون وحركة ، وأكثر أوجاعه من هذا التوتر والاضطراب الحاصل في الدم ، ومع كلمة الجون في بيت امرئ القيس التي رشحت لانعدام التمييز عند الشارب بدا لي أن للأضداد وظائف ومنازل في الاستعمال لا تصلح في كل حين لكن هذا يحتاج إلى بحث.

386 - محاولة لفهم جديد لمعنى النَّفْسَيْن في (نفس في الصيف ونفس في الشتاء) من خلال

الصورة الفنية للحديث بأحدهما الشهيقي والزفيري.

370 - استكشاف الأغراض الفنية للكناية النبوية كالاقتصاد، والتأكيد، والمشكلة، والموازاة، والتخصيص، والمواساة، والتهوين .

371 - الاعتراض على الناقد حنا عبود في طرحه للاقتصاد الأدبي بمعنى لا ينطلق من أرضيته في البلاغة.

372، 371 - بيان أن الرفاعي عمّق مفهوم الاقتصاد في البلاغة وأعطاه بعداً نفسياً ، وأنه النهج الأمثل لدراسة الاقتصاد ، وأن الاقتصاد في التأثير على الحس النفسي للمتلقى سمة القرآن والحديث.

373- 378 - تحقيق أن الكناية لخصوصيتها في الانتقال اللزومي مظنة اقتصاد لغوي يتعلق بالإيجاز، وهي من وجه آخر مظنة إسراف على الحس النفسي للمتلقى لأجل الانتقال الذي فيها، وأن الكناية النبوية تخلصت من هذه الإشكالية بتوظيف السياق للتدرج إليها كالجنة تحت ظلال السيوف، أو بالكناية ذاتها كيسيّر الراكب في ظلها، وأبعد ما بين المشرق والمغرب ، حيث تم بيان الاقتصاد في جميع هذه الأمثلة.

381، 382 - بيان أن (أين المحترق) كناية عن مرتكب الذنب أريد منها المشكلة لحال الرجل ومقاله ومراعاة المستوى الفني في الخطاب.

383- 385 - بيان أن في قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة (كُتِبَ عليك ما كتب عليهن) الذي هو كناية عن الحيض باسم الموصول وصلته موازاة فنية لقول عائشة رضي الله عنها (لا أصلي) كناية عن الحيض، وقد ذكر بعض العلماء بلاغة عائشة في قولها (لا أصلي) ولم يذكروا بلاغة (كتب عليك ما كتب عليهن) وفيها فضلاً عن الكناية مواساة لعائشة بعموم البلوى بهذا في بنات جنسها.

384 - بيان أن هذه الكناية (كتب عليك ما كتب عليهن) جاءت في رواية أفلح بن حميد أما الروايات عن عبد الرحمن بن القاسم فقد صرح فيها بالحيض ودرات على مسألة الحكم الفقهي المتعلّق بالحائض فيحتمل أن عبد الرحمن سمّى الأشياء بأسمائها، والمظنون مما خُبر من أمر النساء وما طُبِعَ عليه من الحياء قديماً وحديثاً أنهن يَكْنِيْن عن الحيض عندما يُخْبِرْنَ أزواجهن به، وكذلك الرجال لا يَجِبُهْنَ زوجاهن بالسؤال عنه بلفظه، والمخرجان صحيحان، لكن عبد الرحمن يعتني بالفقه.

386 - بيان أن (ركبن الإبل) كناية عن نساء العرب، يراد منها التخصيص بالعريّيات، والاحتراز عن غيرهن ممن عُلمت فضيلتهن كمریم وآسيا.

387، 388 - بيان أن التخيير في (تبكين أو لا تبكين) في حديث بكاء عمّة جابر كناية عن

- التسوية، والتسوية هنا كناية عن انعدام قيمة الأمر، والمقصود منه تهوين المصاب ، وبيان أن هذا الأسلوب الكنائي جار عند العرب والاستشهاد له ببيت حسان.
- 390 - بيان أن (شاتك شاة لحم) كناية عن عدم قبولها أضحية ، لكنه تلطف بالرد بأن منفعتها لم تبطل بالكلية وأن أصل المنفعة وهو اللحم باقي وإنما فسد وصف الأضحية، فهي كناية يراد بها المواساة.
- 392 - بيان أن (تخطفنا الطير) في حديث البراء في شأن الرماة كناية عن القتل، وتحقيق أن رواية ابن عباس (إن رأيتمونا نقتل) رواية بالمعنى ، فهي دون الأولى في صحة السند، والأولى راجحة أيضاً بأن البراء شهد المعركة وابن عباس رويت له.
- 391 - تحقيق أمر عبد الرحمن بن أبي الزناد في حديث ابن عباس في غزوة أحد، بأن الراوي عنه وإن كان بغدادياً إلا أنه الثقة الجليل سليمان بن داود فلا ضير، وبأن روايته فيه عن أبيه ، وتكلم بها الإمام مالك، لكن الإمام الذهبي أقر الحاكم على تصحيح حديثه في مواضع كثيرة هذا أحدها.
- 293، 294 - ترجيح تفسير ابن الأثير لتخطفنا الطير على تفسير الخطابي لها، والكناية على الأول تتنزل، وأن هذه صورة بيئية راسخة تداولها الشعراء.
- 396، 397 - بيان أن لفظ الاستنباط يحتمل أن يكون حقيقة في كل استخراج ومنه استخراج المعاني واستخراج الماء، ويحتمل أن يكون حقيقة في استخراج الماء وحده، فيكون استنباط المعاني استعارة على التشبيه باستنباط الماء.
- 398، 399 - بيان اعتبار النبي صلى الله عليه وسلم للاستنباط الكنائي في حديث (لا تقل عليك السلام فإنها تحية الموتى) وأن في هذا الاعتبار قدوة وسابقة يُتخذى بها ، وإن لم تكن في الأصل شرطاً له؛ إذ الكناية من كلام العرب ولا يحصل بها انتفاع ما لم تكن محل استنباط.
- 400 - بيان ما قيل في الجمع بين حديث ابن جري (لا تقل عليك السلام فإنها تحية الميت)، وبين تسليم النبي على أهل القبور بالسلام عليكم واختيار أنها عادة الشعراء وليس هي اللفظ المشروع .
- 402 - تخريج حديث رفع القلم وبيان صحته بتعدد الطرق، وتلقي الأمة له بالقبول.
- 403 - تحقيق دخول الكناية في أصل التكليف بقوله رفع القلم عن ثلاث، ثم بيان معنى العبارة وسر التعبير بالرفع بأنه يفيد الخط تخفيفاً أو يلزم غيرهم مما يوجب الحذر.
- 405 - بيان مذاهب الأصوليين في الكناية أنها أربعة 1- حقيقة إن استعمل اللفظ

406 فيما وضع له أولاً وأريد الملزوم بانتقال الذهن إليه ومجاز إذا أريد الملزوم ولم يلاحظ حقيقة اللازم أبداً، كالتعبير عن الكرم بكثرة الرماذ دون ملاحظة لكثرة الرماذ (وهي المثل كما حققت) 2- حقيقة مطلقاً ، 3- مجاز مطلقاً، 4- قسم ثالث سوى الحقيقة والمجاز، وهو المعروف الذي اقتصر عليه المحققون من أن الكناية حقيقة غير صريحة.

وبيان أنه حصل عند الأصوليين ما يشبه تطور الكناية عند البيانين من استقرار وخروج.

407 - تحقيق أن في الكناية ثروة من الاستنباط؛ لأنها من طبقتين كما تقرّر لازم وملزوم (المعنى ومعنى المعنى) والاستنباط منها استخراج الملزوم (معنى المعنى)، ولكن لما كان اللازم والملزوم فيها مرادين فيمكن الاستفادة من اللازم أيضاً خلافاً للمجاز الذي يحوي لازماً وملزوماً فإذا طُلب فيه الملزوم أُعْرض عن اللازم.

ويتجلى تأثير الكناية حين لا تتعين فيراها البعض كناية ، ولا يراها آخرون كذلك، وحين تتعين ولكن يختلف في توجيه لازمها وملزومها.

411 - بيان الأقوال في معنى وضع الجزية وترجيح أنه كناية عن لزوم الإسلام ورفض غيره.

411 - بيان ما حلّ به مشكل الحديث في وضع عيسى عليه السلام الجزية التي هي حكم شرعي بأن المبين للنسخ هو النبي صلى الله عليه وسلم.

412 - بيان أن تصديق الفرّج في حديث (والفرّج يصدق ذلك أو يكذبه) يعني وقوع الحكم وفق ما تشتهي النفس وأن هذا الوقوع كناية عن الزنا، فنسبة التصديق والتكذيب إلى الفرّج على سبيل الاستعارة لا يغيّر من حقيقة الكناية شيئاً.

وقد ينسب إيقاع الحكم إلى الفرّج حقيقة وهو الأصل إذا أمكن، فيغدو

- الفرج موقعاً أو مانعاً للزنا، ويكون فيه دليلٌ على أن العبد لا يخلقُ فعلَ نفسه.
- تحقيق أثر الكناية في مسألة خلق الأفعال بكونها حجةً نقليةً لمذهب أهل 415 السنة كالكناية (جفّ القلق بما أنت لاقٍ) عن إبرام القضاء، ودليلاً للحجة 416 العقلية في أن الفعل الاختياري قد يتخلف عن القصد وتلك الكناية (الفرج يصدق ذلك أو يكذّبه).
- تخريج حديث لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ولا صفر وفر من المجذوم فرارك 417 من الأسد ، وشرح غريبه، وبيان كونه أصلاً في قضية الأسباب والمسببات، 427 ومنزلة الكناية من هذا الحديث، حيث يحتمل أن تكون (فر من المجذوم فرارك من الأسد) و (لا يورد ممرض على مصح) كنايتين عن وجود العدوى ، وعليه يتعارضان مع حديث لا عدوى.
- ثم بيان طرق العلماء في دفع التعارض بين الجانبين ، وأن المسألة برمتها أصبحت المثال المشهور لنوع مختلف الحديث في المصطلح، وأن منهم من ذهب إلى الكناية عن وجود العدوى في الجذام والجرب فيتخصص بهما نفي العدوى، ومنهم من نفى حقيقة الأمر في فر من المجذوم وتأوله على تأكيد نفي العدوى وإنما تأوله لئلا يكون كناية فيعارض آخر الحديث أوله، ومنهم من ذهب إلى أن فر من المجذوم ونظيره أمرٌ لسدّ الذريعة لا لوجود العدوى وعليه فلا كناية وهو مذهب الجماهير. وبذلك يتبين أثر الكناية في الاستنباط في هذه القضية.
- بيان ما قيل في وجه تحديث أبي هريرة رضي الله عنها بلا يورد وسكوته عن 419 لا عدوى وهل هو نسيان، وهل لنسيان الراوي تأثير في صحة حديثه، وكيف يتفق مع حديث بسط الرداء وقبضه.
- تحقيق أن خصوصية التعبير الكنائي وكونه من طبقتين معنى ملزوم ولازم 428 محسوس يرشّح الكناية لتكون من طبقتين أيضاً: فقه وأخلاق ، فالطبقة الحسية 431 تخضع لأحكام الفقه العملي، والطبقة المعنوية تخضع لأحكام الفقه الوجداني، لكن ينصرفُ النظرُ إلى الفقه أو الخلق بحسب الأظهر منهما في السياق.
- تحقيق أثر الكناية في الاستنباط حين لا تتعين والتمثيل له في جانب الفقه 431

443 بحديث يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده، وبيان الاختلاف فيه على عشرة أقوال وأن أقربها إلى أساليب العرب أن يكون المراد بالبيضة والحبل ما هو معهود وأن سرقتهما ستؤدي إلى سرقة ما هو أكبر منهما مما يبلغ النصاب فيقطع ، فالقطع كناية عن حدوث سرقة النصاب فيما بعد، وأن في القول بالكناية حجة للجماهير لاشتراط النصاب وإلا نقل بها تكن حجة لأهل الظاهر في عدم اشتراطه.

وفي جانب الأخلاق بحديث (الحمو الموت) والاختلاف فيها على خمسة أقوال أولها أن الموت كناية عن الفتنة أو الطلاق أو الزنى ، فالكناية على القول بها تؤثر هنا خلقياً بالحضّ على الغيرة والحدّ من الاختلاط الذي يشيع بين الأحماء والكنائن محارم وغير محارم، وفقهياً باستنباط كراهة الخلوة للأحماء المحارم في بعض الأحوال وتحريمها لغير المحارم.

441 - تحقيق أن خبر (نعم الصهر القبر) لا أصل له وأن من قال بنحوه في الإسلام قاله تعزياً بفقد البنات لا على مذهب الجاهلية.

444 - تحقيق أثر الكناية في الاستنباط حين تتعين ثم يختلف في توجيهها، والتمثيل له من جانب الفقه بحديث (فاضطروه إلى أضيقه) فمن رأى أن معنى اللازم 534 عدم التنحي لهم كان كناية عن ملزوم هو عدم الإكرام، وعليه أكثر الشراح ، ومن رأى أن معناه المبالغة في جبههم والتضييق عليهم حتى يلتصقوا بحرف الطريق كان كناية عن إذلالهم ووضع عصا الصغار عليهم.

ومن جانب الأخلاق بحديث المرأة من بني إسرائيل التي حشت خاتمها مسكاً واتخذت رجلين من خشب ومرت بين المرأتين فلم يعرفوها، وأن بعض الشراح رأوا في (لم يعرفوها) كناية عن التستر ، وعليه فلا بأس بما فعلت إن كان قصدها التستر، وسياق الحديث لا يدل له بل قصدها الفتنة و(لم يعرفوها) كناية عن المبالغة في التجمل أو سقوط حرمتها.

445 - التحقيق في أمر سهيل بن أبي صالح وبيان صحة روايته.

455 - بيان أن الصورة الفنية الدينية تدخل في باب واسع من الاستنباط

الأخلاقي هو الحكمة في الوعظ والتلطّف في الأمر والنهي بأحسن السبل المؤثّرة

- 457 - التحقيق في مسألة الاحتجاج بالحديث الشريف للنحو والدراسات اللغوية،
وأن المتقدمين لم يصرحوا برفضهم له، فيحتمل أنهم لم يستشهدوا بالحديث لأنه
458 يحتاج إلى صناعة في الجرح والتعديل ولم يكونوا من أهلها، إنما غلب عليهم
استقراء اللغة من البوادي كما في نظرية النموذج الحديثة.
- 460 - بيان قرارات مجمع اللغة في القاهرة في مسألة الاحتجاج بالحديث الشريف
وأنها توفيقية شكلية لا تقوم لواقع علم الحديث وحيويّة مادته، ونقدُ بعض بنود
القرار ومنها البند الذي يجيز الاستشهاد بحديث يرويه من لا يروي بالمعنى
كالقاسم بن محمد وأن هذا البند ليس بشيء لأن المعنى ربما يكون قد دخل
الحديث قبل وصوله إلى القاسم.
- 462 - بيان أن رواية الصحابة وعرب التابعين بالمعنى لا تضر في الاحتجاج
لنحو لأنهم في زمن الاحتجاج، والشأن في غيرهم أيسر وأكثر ضبطاً لما أكبوا
على سماع الحديث وروايته فدارت الأسانيد على الأئمة الذين يُجمع حديثهم،
وهي أكثر الحديث، فيُعلم اللفظ الأصح بمقارنة الروايات.
- 463 - تحقيق أسباب حذف الكناية من بعض الروايات بأنها : 1- استغناء
469 الراوي عنها في السياق ظناً منه أنها لا تؤثر بالمعنى كما حذف بعضهم أخذ
الرحم بحق الرحمن من الحديث . 2- الميل إلى الفقه على حساب التصوير كما
حذفت قصة السيف من حديث وفد عبد القيس الذي يرويه ابن عباس وكما
حذفت (كتب عليك ما كتب عليهن) من حديث عبد الرحمن بن القاسم في
حج عائشة وثبتت في رواية غيره . 3- تقطيع الحديث بحسب الحاجة مما يؤدي
إلى حذف فيه كما حذفت (لم يعرفوها) من بعض روايات حديث المرأة من بني
إسرائيل، لاهتمام الرواة بقضية المسك .
- وبيان أن جميع هذه الكنايات كان لها شأن في التصوير والاستنباط .
- 469 - تحقيق أثر الرواية بالمعنى في حذف لازم الكناية والتصريح بملزومها، إذ

473 يفهم الراوي من اللازم الذي سمعه ملزوماً فيدعُ اللازم ويتعلَّق بالملزوم فيذكره، فتعطل الكناية، ويذهب وجه التصوير الفني، وربما فوت ذلك فرصة استنباط من اللازم ، وفي هذه الحال يفوت ما في اللازم من فوائد وما في أسلوب الكناية كذلك، نحو رواية حفيد أبي الجهم لحديث (لا يضع العصا عن عاتقه) بضراب للنساء. وكذا (تبكين أو لا تبكين) التي رواها بعضهم بقوله (لا تبكي) ، و(تخطفنا الطير) في حديث البراء ، وهي في حديث ابن عباس (إن رأيتُمونا نقتل).

- تحقيق أثر الرواية بالمعنى في تغيير شيء ضمن الكناية مع بقاء لازمها 473- وملزومها، وفي هذه الحال تخسر الصورة الفنية بعض عناصرها المتعلقة بفصاحة النبي صلى الله عليه وسلم مع بقاء جوهر الكناية ، نحو (حتى ما تجعل في في امرأتك) حين رواها بعضهم: (ترفعها إلى في امرأتك) ففوت الجناس الذي يلائم تجانس المشاعر بين الزوجين، ونحو (حبيبتيه) في حديث إذا ابتليت عبدي، فقد رواها بعضهم فقال: (كريمتي عبدي) وهما دون الحبيبتين من جهة التشخيص وتعظيم المصاب لتعظيم الجزاء، ونحو (أبعد ما بين المشرق والمغرب) في حديث الهوي في النار ، رواه بعضهم فقال: (سبعين خريفاً) وبعضهم : (أبعاد ما بين السماء والأرض) فلم يتغير جوهر الكناية ولكن تغيرت الصورة ، وفي جميع هذه الأمثلة كانت البلاغة رفيقة الصحة والرواية باللفظ.

فهرس الأشعار

من الأبيات والأراجيز والنظم العلمي

الشعر	الصحيفة
حسان بن ثابت رضي الله عنه:	388
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء	
ابن الرومي:	178
ظلمت حاجتي فلاذت بحقوي لك فأسلمتها بكفّ القضاء	
جرير:	85
أنا البازي المدلّ على نمر أتحت من السماء لها انصبابا	
البحثري :	55
فأوجزته أخرى فأحللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحق	
المتنبي :	83
ويعنّيك عما ينسب الناس أنّه إليك تناهى المكرمات وتُنسب	
وما طربي لما رأيتك بدعةً لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب	
نصيب :	86
وعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق	
ابن الرومي:	178
وهم لا تذون مني بحقوي لك وشيطانهم ذلول ركوب	
الشافعي :	203
إذا اصفر لون المرء وابيض شعره تنعّص من أيامه مُستطابها	
أحمد شوقي:	211
تروح المنايا الزرق فيه وتغتدي وما هي إلا الموج يأتي ويذهب	
يزيد بن الحكم:	28
أصبح في قيدك السماحة والمجد وفضل الصلاح والحسب	
المتنبي:	58

- وفي النفس حاجاتٌ وفيك فطانةٌ سكوتي بيانٌ عندها وخطاب
أبو تمام: 207
- أبقت بني الأصفر المِراضَ كاسمهم صُفّرَ الوجوه وجلّت أوجه
العرب
- امرؤ القيس: 315
- كأنّ عيونَ الوحش حول خبائنا وأرخلنا الجزعُ الذي لم يُثَقِّبِ
النابعة الذبياني: 394
- إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائب
المتنبّي: 15،
- إنيّ على شغفي بما في حُمُرِها لأعفُ عمّا في سراويلاتها 50
- الشنفرى: 28
- لقد أعجبني لا سَفُوطاً قناعُها إذا مشت ولا بذاتٍ تلُفّت
بيتٌ بمنجاةٍ من اللوم يبتُها إذا ما بيوتٌ بالملامة حُلّت
عمرو بن معديكرب رضي الله عنه: 42
- فلو أنّ قومي أنطقني رماحهم نطقْتُ ولكنّ الرماحَ أجرتِ
المتنبّي: 140
- فكأنما تُنجتُ قياماً تحتهم وكأنما وُلدوا على صَهواتها
- المتنبّي: 336
- إنيّ على شغفي بما في حُمُرِها لأعفُ عمّا في سراويلاتها
- زياد الأعجم: 27،
- إنّ السماحةَ والمروءةَ والندى في قَبّةٍ ضُرِبَتْ على ابن الحشرِج 35، 28
- البحترى: 29
- ظللنا نعوذُ الجودَ من وعكك الذي وجدتَ وقلنا اعتلّ عضوٌ من المجد
- أبو تمام: 36، 29
- أبينَ فما يزرَنَ سوى كريمٍ وحسبكُ أن يزرَنَ أبا سعيدٍ

- أبو تمام :
 40 فإن أنا لم يحمذك عني صاغراً عدوك فاعلم أنني غير حامد
 أبو تمام :
 41 وغيري يأكل المعروف سُخْتاً وتشحّب عنده بيض الأيدي
 62 النابغة:
 يُخَطِّطن بالعيدان في كلّ منزلٍ ويخبّان رُمانَ التُّديّ النواهدِ
 193 طرفة:
 رأيت بني غبراء لا يُنكروني ولا أهلُ ذِيّك الطّراف الممدّدِ
 328 أبو تمام:
 جذبتُ نَداه غدوة السبت جذبةً فخرّ صريعاً بين أيدي القصائدِ
 39 حماسي:
 أبّت الروادفُ والتدّيُّ لقمصِها مسّ البطون وأن تمسّ ظهوراً
 203 الأعشى:
 بيضاء ضحوها وصف راء العشية كالعراة
 361 امرؤ القيس :
 ونشرب حتى نحسب الخيل حولنا نِقاداً وحتى نحسب الجون أشقرا
 374 ديك الجن:
 مشعشة من كفّ ظبي كأنما تناولها من خده فأدارها
 30 شريح بن الأحوص:
 رفعتُ له ناري فلما اهتدى بها زجرتُ كلابي أن يهرّ عقورها
 59 الحصين بن الحمام المري:
 فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدّما
 88 أبو تمام :
 تردّي ثياب الموت حُمراً فما دجى لها الليل إلا وهي من سندسٍ حُضُرُ
 90 البحتري:

- لو أن مشتاقاً تكلف غير ما في وسعه لسعى إليك المنبر
134 أبو العلاء المعري:
- طعام غنيّ الإنس والفاقد الغنى سواء ، إذا ما غيبتهُ الحناجرُ
194 بشار بن برد:
- وخذي ملابس زينة ومصبغات فهي أفخر
فإذا ظهرت تقنعي بالخمّر إن الحسن أحمر
205 عدي بن زيد العبادي:
- وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم لم يبقَ منهم مذکور
418 أعشى باهلة:
- لا يغمزُ الساق من أين ولا وصبٍ ولا يعضُّ على شرسوفه الصفرُ
424 العراقي:
- والمتنُّ إن نافاه متنٌ آخرُ وأمكن الجمع ، فلا تناقضُ
كمتن "لا يؤرِدُ" مع "لا عدوى" فالنفي للطبع و"فِرَّ" عدوا
أو لا ، فإن نسخَ بدا فاعمل به أولاً ، فرجّح واعملن بالأشبه
86 امرئ القيس :
- وخليل قد أفارقهُ ثم لا أبكي على أثره
49 أبو نواس:
- لا أذودُ الطيرَ عن شجرٍ قد بلوتُ المرّ من ثمره
89 طرفة بن العبد:
- أسدٌ غيلٍ فإذا ما شربوا وهبوا كلَّ أمونٍ وطمرُ
134 النابغة الذبياني:
- من الواردات الماء بالقاع تستقي بأذناها قبل استقاء الحناجر
177 بعضهم:
- سماعُ الله والعلماء أتّي أعودُ بحقّ خالك يا ابنَ عمرو
240 كعب بن زهير رضي الله عنه:

دَرَبُوا كَمَا دَرَبْتُ بَبْطَنَ خَفِيَّةٍ غَلَبُ الرِّقَابِ مِنَ الْأَسْوَدِ ضَوَارِي

394 أبو نواس :

تَتَأَيَّ الطَّيْرُ عُذْوَتَهُ ثِقَةً بِالشَّبْعِ مِنْ جَزَرِهِ

362 طرفة:

أَسْدُ غِيلٍ فَإِذَا مَا شَرَبُوا وَهَبُوا كُلَّ أَمُونٍ وَطَمَرٍ

160 الراعي النميري:

ضعيفُ العصا بادي العُروق تَرى له عليها إذا ما أمَحَلْ الناسُ إصْبَعَا

88 الخنساء رضي الله عنها:

يَذْكُرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ

143 أبو نواس :

إِنْ أَنْتَ لَمْ تَرْفَعْ بِهِ رَأْسًا - هُدَيْتَ - فَنَصَفَ رَأْسَ

حافظ إبراهيم: 374

خمرة قليل إنهم عصروها من خدود الملاح في يوم عرس

314 أحمد شوقي:

قف بتلك القصور في اليمِّ غرقى مُمسِكاً بعضها من الذُّعر بعضا

كعدارى أخفين في الماء بضاً ساجحات به وأبدین بضاً

النَّمْرُ بْنُ تَوَلَّبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: 367

أصبحتُ لا يَحْمِلُ بعضي بعضاً أشكو العروقَ الآبضاتِ أبْضاً

366 طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنائيك بعض الشر أهون من بعض

27 العباس بن الأحنف:

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكِبَ عَيْنَايَ الدَّمُوعَ لِتَجْمُدَا

160 لبید بن ربیعہ رضی اللہ عنہ :

من ييسط الله عليه إصبعاً بالخير والشر بأيّ أولعا

يَمْلَأُ لَهُ مِنْهُ ذُنُوبًا مُتَرَعًا

عشيّة مالي حيلة غير أنني بلقَطِ الحصى والخطّ في الأرض مُولَع
أخطُ وأمحو الخطّ ثم أعيدُه بكفّي ، والغربانُ في الدارِ وَقَّعُ

63

لبيد بن ربيعة رضي الله عنه:

لعمرك ما تدري الطَّوارقُ بالحصي ولا زاجراتُ الطير ما الله صانعُ

165

أبو ذؤيب الهذلي رضي الله عنه:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كلّ تيممة لا تنفعُ

394

حميد بن ثور رضي الله عنه:

إذا ما غدا يوماً رأيت غمامةً من الطير ينظرُن الذي هو صانعُ

42

البحثري:

شجّو حُسّاده وغيظُ عِداه أن يرى مُبصّرٌ ويسمعَ واعِي

415

اللقاني:

وعندنا للعبد كسبٌ كلّفا به ولكن لا يؤثر، اعرفا

211

أحمد شوقي:

أما الوليُّ فقد سقاك بسنّه ما ليس يسقيك العدوُّ الأزرقُ

178

ابن الرومي:

أعوذ بحقوقك العزيزين أن أرى مُقرّاً بضيمٍ يترك الوجهَ حالكا

28

حسان بن ثابت رضي الله عنه:

بنی المجدُ بيتاً فاستقرّت عمادُه علينا فأعيا الناسَ أن يتحوّلا

178

ابن الرومي:

أنا بالله عائدٌ وبحقويك وآلاءك كَفّك المسؤولةُ

39

المتنبي:

تشتكي ما اشتكيتُ من ألم الشوق إليها والشوقُ حيث النحولُ

177

أبو تمام:

- ولاذت بحقوقه الخلافة والتقت على خدرها أرماعه ومناصله
 320 تأبط شرا أو الشنفري أو خفاف بن ندبة :
 إن بالشعب الذي دون سلعٍ لقتيلاً دمه ما يُطلُّ
 324 بلال رضي الله عنه أو غيره:
 ألا ليت شعري هل أبيتَ ليلةً بوادٍ وحولي إذخِرَ وجليلُ
 وهل أَرَدَن يوماً مياةً مَجَنَّةٍ وهل يَدُون لي شامةً وطَفِيلُ
 367 ابن المعتز:
 اصبرْ على كيد الحسودِ فإنَّ صبرك قاتله
 فالتَّارُ تأكلُ بعضَها إنَّ لم تجدْ ما تأكله
 397 المتنبي:
 لولا المشقة ساد النَّاس كلُّهم الجود يُفقرُ والإقدام قتالُ
 57، 19 امرئ القيس:
 وبيضة خدرٍ لا يُرامُ خباؤها تمتعت من لهوٍ بها غيرَ مُعجل
 26 ابن هرمة :
 لا أمتعُ العودَ بالفِصال ولا أبتاعُ إلا قريّة الأجل
 28 البحري:
 أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحوّل
 29 حماسي:
 وما يكُ في من عيبٍ فإني جبانُ الكلب مهزولُ الفصيل
 46 المتنبي :
 أَلستَ من القوم الذين رماحهم نداهم ومن قتلاهم مُهَجَّةُ البُخلِ
 49 الشريف الرضي :
 إلا يكن نصلاً فغمدُ نُصول غالته أحداث الزمان بغول
 50 امرئ القيس :
 فصرنا إلى الحسنى ورقّ كلامها ورُضتْ فذلّت صعبةً أي إذلال

- 86 حسان بن ثابت رضي الله عنه :
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر بن ماوية الكريم المفضل
87 بعضهم:
- 88 عقلتُ لها من زوجها عددَ الحصى مع الصبح أو مع جُنحِ كلِّ أصيل
143 إنشاد ابن الأعرابي:
ولا قائلٍ عَوَّاءٍ تُؤْذِي جليسه ولا رافعٍ رأساً بعَوَّاءٍ قائلٍ
164 المتنبي :
وما الموتُ إلا سارقٌ دقَّ شخصه يصُولُ بلا كفٍّ ويسعى بلا رجلٍ
177 بعضهم:
- وعذتُم بأحقاء الزنادق بعدما عركتُكم عَرَكَ الرّحى بثفالها
177 البحري :
لاذت بحقويه الخلافة ؛ إنها قسَمٌ لأفضل هاشمٍ فالأفضل
209 امرء القيس :
أيقتلني والمشرقيُّ مضاجعي ومسنونة زُرْقُ كَأنيابِ أغوال
215 امرؤ القيس :
تنوَّرتُها من أذرِعاتٍ وأهلها يثربَ أدنى دارِها نظرٌ عالٍ
323 أبو بكر رضي الله عنه أو حكيم النهشلي أو غيرها:
كلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ في أهله والموتُ أدنى من شِراكِ نعلِه
394 أبو تمام:
وقد ظلَّلت عِقبانُ أعلامه ضُحىً بعِقبان طيرٍ في الدِّماءِ نواهِلٍ
أقامت مع الرّاياتِ حتّى كأَّها من الجيشِ إلّا أنَّها لم تُقاتلِ
415 اللقاني:
فخالقٌ لعبده وما عَمِلَ موفقٌ لمن أراد أن يصل
56 ليلي الأخيلية :
ومُحَرَّقٌ عنه القميصُ تخالُه وسطَ البيوت من الحياءِ سَقيما

- عبدۃ بن الطیب:
 400 عَلَیْكَ سَلَامُ اللّٰهِ قَیْسَ بْنَ عَاصِمٍ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ یَتَرَحَّمَا
 22، عمر بن أبی ربیعۃ:
 46 بَعِیدَةُ مَهْوٰی الْقِرطِ إِمَّا لِنَوْفِلٍ أَبُوهَا ، وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمُ
 44 نَصْر بن سَیَّار:
 أَرَى خِلَالَ الرَّمَادِ وَمِیْضَ جَمْرِ یُوشِكُ أَنْ یَكُونَ لَهُ ضِرَامٌ
 فَإِنَّ النَّارَ بِالزَّئِنْدِیْنِ تُورَى وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلَهَا كَلَامٌ
 49 أَبُو تَمَامٍ :
 مَالِی رَأِیْتُ تَرَابُكُمُ یَیْسَ الثَّرَى مَالِی أَرَى أَطْوَادَكُمُ تَتَهَدَّمُ
 101 بَعْضُهُمْ:
 عَلَیْكَ بِأَوْسَاطِ الْأُمُورِ فَإِنَّمَا طَرِيقٌ إِلَى نَحْجِ الصَّوَابِ قَوِیْمٌ
 وَلَا تَكُ فِیْهَا مَفْرِطًا أَوْ مَفْرِطًا كَلَّا طَرِیقٌ قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِیْمٌ
 102 الْخَطَّابِی:
 وَلَا تَغْلُ فِی شَیْءٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقْتَصِدْ كَلَّا طَرِیقٌ قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِیْمٌ
 14 النَّابِغَةُ الْجَعْدِی رَضِیَ اللّٰهُ عَنْهُ:
 أَكُنِّی بَغِیْرَ اسْمِهَا وَقَدْ عَلِمَ اللّٰهُ خَفِیَّاتِ كُلِّ مُكْتَتَمٍ
 140 الْبُوصَیْرِی:
 كَأَنَّهُمْ فِی ظَهْرِ الْخِیْلِ نَبْتُ رُبًّا مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْحُزْمِ
 210 زَهِیر بن أبی سَلَمَى:
 فَلَمَّا وَرَدَ الْمَاءَ زُرْقًا جَمَامُهُ وَضَعْنَ عِصِیَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخِیْمِ
 362 عَنْتَرَةً:
 وَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّی مُسْتَهْلِكٌ مَالِی، وَعَرْضِی وَافَرٌ لَمْ یَكَلِّمْ
 57 الْحَجَّاجَ :
 لَسْتُ بِرَاعِیِ إِبْلِ وَلَا غَنَمٍ وَلَا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهْرِ وَصَمٍ
 63 قَرِیْطُ بن أَنِیفِ الْعَنْبَرِی:

- لا يسألونَ أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
مالك بن أسماء : 85
- منطق صائب وتلحن أحياناً وخير الحديث ما كان لحناً
حماسي (بعض بني قيس بن ثعلبة) : 87
- بيضٌ مفارقنا تغلي مراجلنا نأسو بأموالنا آثار أيدينا
عبد الله بن همام السلولي : 351
- إذا ما مات كسرى قام كسرى نَعُدُّ ثلاثةً متواترينا
ولو جاؤوا برملةٍ أو بهندٍ لباعنا أميرةً مؤمنينا !
- عمر بن أبي ربيعة القرشي : 210
- سحرتني الزرقاء من مارونٍ إنما السِّحْرُ عند زرق العيونِ
ذو الأصبع العدواني : 417
- يا عمرو إلا تدعُ شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقولَ الهامةُ :
استقوني

فهرس الأمثال

المثل	الصحيفة
من يطلُّ هنُّ أبيه ينتطِقُ به	9
لبس له جلد النمر	49
قلب له ظهر المجن	49
لا بد للمصدور من أن ينقُث	103
رفع به رأساً	143
كيف تَوَقَّيكَ وقد جفَّ القلم	158
جفَّ القلمُ فلا تتعنَّ	158
الحسن أحمر	194
كلَّ إناء يرشَّخُ بما فيه	197
أدنى من الشَّسع	324
أدنى من شرك النعل	324
أحلم من الأحنف	362
بعضُ الشرِّ أهونُ من بعض	366

المصادر والمراجع

- الإبانة عن أصول الديانة ، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (- 324هـ)، ت:د. فوقية حسين محمود، دار الأنصار، القاهرة، ط1: 1397هـ.
- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، أبو عبدالله عبيدالله بن محمد بن بطّة العكبري الحنبلي (- 378هـ)، ت: د. عثمان عبدالله آدم الأثيوبي، دار الراية ، الرياض، ط2: 1418هـ.
- أبجد العلوم ، صديق بن حسن القنوجي، ت: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط: 1978م.
- إبراز الحِكم من حديث رفع القلم، تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (-756هـ) ، ت: كيلاي محمد خليفة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1: 1412هـ، 1992م.
- إبطال التأويلات لأخبار الصفات، القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء (-458هـ)، ت : محمد الحمود ، دار إيلاف، الكويت .
- ابن جني النحوي، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، ط1: 1426هـ، 2006م.
- أبو هريرة راوية الإسلام، د. محمد عجاج الخطيب، مطبعة التقدم، القاهرة، ط3: 1402هـ، 1982م.
- الإتيقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي (- 911هـ) ، ت: شعيب الأرناؤوط، مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1: 1429هـ، 2008م.
- إحصاء العلوم ، أبو نصر الفارابي ، ت: عثمان أمين، دار الفكر العربي، القاهرة، 1949م.
- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المالكي (- 543هـ)، اعتنى به محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1404هـ.
- أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (751هـ) ، ت : د . صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 : 1381هـ ، 1961م .
- الإحكام في أصول الأحكام، علي بن محمد الأمدي أبو الحسن، ت: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط1: 1404هـ .
- إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة ، بيروت.
- أدب الكاتب، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي المروزي الدينوري، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية ، مصر، ط4: 1963م.
- أدب المفتي والمستفتي، عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشهرزوي أبو عمرو، ت: د. موفق عبد الله عبد القادر، عالم الكتب ، بيروت، ط1: 1407هـ.
- الأدب وفنونه، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: 1978م.
- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (- 1250هـ)، ت: محمد سعيد البدري، دار الفكر، بيروت، ط: 1412هـ، 1992م.
- أساس البلاغة ، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (-538هـ)، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1419هـ، 1998م.

- أساس التقديس ، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازي (- 606هـ) ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1: 1415هـ، 1995م.
- أسباب حدوث الحروف، أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا (- 428هـ) ، ولاديمير أخوليداني، قسناربا، تفليس، 1966م.
- الاستذكار، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، تحقيق : سالم محمد عطا ، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ، 1421 - 2000.
- أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، اعتنى به الشيخ محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1409هـ، 1988م.
- الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، د. ابتسام أحمد حمدان، دار القلم العربي، حلب، ط1: 1418هـ، 1997م.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، د. مجيد عبد المجيد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1: 1984م.
- الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط6: 1966م.
- الأسلوبية والبيان العربي ، د. محمد عبد المنعم خفاجي، د. محمد فرهود، د. عبد العزيز شرف، الدار المصرية اللبنانية، ط1: 1412هـ، 1992م.
- الأسماء والصفات ، البيهقي أحمد بن الحسين أبو بكر (- 458 هـ) ، ت : عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادى ، جدة، ط1.
- الاشتقاق ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (- 321هـ)، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ط3.
- الإصابة في تمييز الصحابة، الحافظ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (- 852هـ) ، ت : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط1: 1412هـ .
- الأصمعيات لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (216هـ) ، ت : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط2 ، دار المعارف ، مصر .
- الأضنام، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، ت: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط3: 1995م.
- الأصوات (القسم الثاني من علم اللغة العام) ، كمال محمد بشر، دار المعارف، مصر، ط2: 1971م.
- أصول الجرح والتعديل، د. نور الدين عتر، دار الفرور، 1420هـ، 2000م.
- الأصول الخمسة المنسوب إلى القاضي عبد الجبار بن أحمد الأسد آبادي (-415هـ) ، ت: د. فيصل بدير عون، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ط1: 1998م.
- أصول السرخسي ، أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (- 490هـ) ، ت: أبو الوفاء الأفعاني، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط1: 1414هـ، 1993م.
- الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، ت: د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط3: 1988م.
- الأطلس الإسلامي الجغرافي الجديد ، إعداد المهندس كمال حمود ، دار القلم العربي ، حلب .

- أطلس تاريخ الإسلام، د. حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1: 1407هـ، 1987م.
- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ، أحمد بن الحسين البيهقي، ت: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة ، بيروت، ط1: 1401هـ.
- إعجاز القرآن ، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلائي(-403هـ) ، ت: أحمد صقر، دار المعارف ، القاهرة.
- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط5: 1980م .
- إعلام الأنعام شرح بلوغ المرام ، أ.د. نور الدين عتر ، دار الفرفور ودار اليمامة ، دمشق، ط7.
- أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، حمد بن سليمان الخطابي(-388هـ) ت : د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة .
- الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين (-356هـ) ، ت : سمير جابر، دار الفكر ، بيروت، الطبعة الثانية.
- الأفعال، أبو القاسم علي بن جعفر السعدي، عالم الكتب ، بيروت، ط1: 1983م.
- أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات، مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي المقدسي (-1033هـ)، ت : شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ،بيروت، ط1: 1406هـ 1985م.
- إكمال إكمال المعلم لأبي عبد الله محمد بن خليفة الأبي (827هـ) ، مكتبة طبرية ، الرياض .
- إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (544هـ) ، ت : د . يحيى إسماعيل، دار الوفاء ، مصر، ط1 : 1419هـ ، 1998م.
- الإلزامات والتتبع ، أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (306-385هـ) ، ت: مقبل بن هادي الوادعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2: 1405هـ، 1985م.
- الألسنية، د. ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت، ط2: 1986م.
- ألفية الحافظ العراقي (التبصرة والتذكرة) ، اعتنى به قاسم النوري، دار الفجر، دمشق، ط1: 1425هـ، 2005م.
- الألوان نظرياً وعملياً ، إبراهيم دملخي ، منشورات جامعة دمشق ، 1420هـ، 1999م.
- أمالي السيد المرتضى في التفسير والحديث والأدب، أبو القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين المرتضى (-436هـ) ، اعتنى به محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة، مصر، ط1: 1325هـ، 1907م.
- الأمالي في لغة العرب،أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (-356هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، 1398هـ 1978م.
- الأمدي وآراؤه الكلامية ، د حسن الشافعي ، دار السلام، القاهرة، ط1: 1998م، 1418هـ.
- الأنساب ، عبد الكريم بن محمد التميمي السمعاني (662هـ) ، تعليق: عبد الله البارودي، دار الجنان، بيروت، ط1: 1408هـ ، 1988م.
- أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء ، قاسم بن عبد الله بن أمير علي القونوي (-978هـ)، ت: د. أحمد بن عبد الرزاق الكبيسي ، دار الوفاء، جدة، ط1: 1406هـ.

- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، جمال الدين بن يوسف الأنصاري المصري المعروف بابن هشام الأنصاري، دار الجيل ، بيروت، ط5: 1979م.
- إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل ، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة(-733هـ)، ت : وهي سليمان غاوجي الألباني، دار السلام، ط1: 1990م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني جلال الدين محمد بن سعد الدين بن عمر ، ت: بهيج الغزوي، دار إحياء العلوم ، بيروت، ط4: 1419هـ، 1998م.
- الإيضاح في علوم الحديث والاصطلاح، د. مصطفى الخن، د. بديع السيد اللحام، دار الكلم الطيب، بيروت، ط6: 1427هـ، 2007م.
- الإيمان، محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، ت: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط2: 1406هـ.
- الباعث الخفي شرح اختصار علوم الحديث ، الحافظ ابن كثير (-774هـ) ، تأليف أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين محمد بن بشار بن عبد الله الزركشي (-794هـ)، ت: محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1421هـ ، 2000م.
- البخلاء ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: أحمد العوامري، علي الجارم، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط: 1422 هـ ، 2001 م
- بدائع الصنائع لعلاء الدين الكاساني لعلاء الدين الكاساني (587هـ) ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط2 : 1982م
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الاندلسي (الشهير بابن رشد الحفيد) (-595هـ) ، اعتنى به خالد العطار ، دار الفكر، بيروت، إعادة طبع: 1415هـ-1995م.
- البداية والنهاية ، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف ، بيروت.
- البديع في نقد الشعر ، أسامة بن منقذ(-544هـ) ، ت: د. أحمد بدوي و د. حامد عبد المجيد ، مطبعة البلاي الحلبي ، القاهرة ، 1380هـ، 1960م.
- البرصان والعرجان والعميان والحولان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1: 1410هـ، 1990م.
- البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، ت: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي ، مطبعة العاني، بغداد ، 1387هـ، 1967م.
- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، عبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم ، دمشق، الدار الشامية ، بيروت، ط1: 1416هـ، 1996م.
- البلاغة العربية بين التقليد والتجديد ، د. محمد عبد المنعم خفاجي، ود. عبد العزيز شرف، دار الجيل بيروت، ط1: 1412هـ، 1992م.

- البلاغة الواضحة ، علي الجارم ومصطفى أمين ، اعتنى به فضل الحميدان، مكتبة العلم الحديث، ط1: 1426هـ، 2005م.
- البلاغة تطور وتاريخ ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة التاسعة.
- البلاغة عند المعتزلة ، محمد هيثم غرة ، أطروحة دكتوراة ، قسم اللغة العربية من كلية الآداب ، جامعة دمشق، 1413هـ، 1993م.
- البلاغة فنونها وأفنانها ، علم البيان والبديع ، د. فضل عباس ، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ط1: 1407هـ، 1987م.
- البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني ، د. فضل عباس . دار الفرقان للنشر والتوزيع ، إربد ، ط4: 1417هـ، 1997م.
- البلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب، لبنان ناشرون، بيروت، المصرية العالمية، القاهرة ط1: 1994م.
- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (-255هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- بين الفلسفة والنقد، شكري محمد عياد، منشورات أصدقاء الكتاب، القاهرة، ط: 1990م.
- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (-1205هـ) ، دار الهداية .
- تاريخ ابن معين برواية الدوري ، يحيى بن معين أبو زكريا(-233هـ) ، ت: د. أحمد محمد نور سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، 1399هـ - 1979م.
- تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي (-1356هـ) ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2: 1394هـ، 1974م.
- تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر.
- تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين، نقله إلى العربية د . محمود فهمي حجازي ، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط: 1403هـ ، 1983م .
- التاريخ الكبير، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (256هـ)، ت: السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت.
- تاريخ المدينة، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (-262هـ) ، ت: فهيم شلتوت، دار الفكر، قم، إيران، ط: 1410هـ.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط4: 1404هـ - 1983م.
- تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تاريخ خليفة بن خياط الليثي العصفري ، ت: د. أكرم ضياء العمري، دار القلم ، مؤسسة الرسالة - دمشق ، بيروت، ط2: 1397م.
- تاريخ مدينة دمشق ،الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (571هـ) ، ت : علي شيري ، دار الفكر ، بيروت ، 1419 هـ ، 1998م.

- تأويل مختلف الحديث ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوري (-276هـ)، تحقيق : محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت ، 1393هـ، 1972م.
- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ت: أحمد صقر، القاهرة، مطبعة الباي الحلبي، 1373هـ، 1954م.
- التبصير في معالم الدين ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (- 310 هـ) ، ت: علي الشبل ، دار العاصمة، الرياض ، ط1.
- تحرير تقرير التهذيب ، د . بشار عواد معروف والشيخ شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، 1417هـ، 1997م.
- التحرير والتنوير ، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس، ط: 1997 م.
- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري (- 1353هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (849 ، 911هـ) ت: د. أحمد عمر هاشم، دار الكتاب العربي، بيروت، 1419هـ، 1999م.
- الترغيب والترهيب ، الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (_ 656هـ)، بتعليق الشيخ الألباني وعناية مشهور سليمان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط1: 1324هـ.
- الترغيب والترهيب ، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد، ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1: 1417هـ.
- الترغيب والترهيب، الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (_ 656هـ) اعتنى به أبو صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية، عمان).
- التصريح بما تواتر في نزول المسيح ، محمد أنور شاه الكشميري(-1352هـ) ، ت: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب .
- تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، د. نعيم اليافي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- التعاريف (التوقيف على مهمات التعاريف) ، محمد عبد الرؤوف المناوي (- 1031هـ) ، ت : د. محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر - بيروت ، دمشق ، الطبعة الأولى ، 1410.
- التعريفات ، علي بن محمد بن علي الجرجاني(-816هـ) ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1405.
- التعلم ونظرياته ، د. فاخر عاقل ، دار العلم للملايين، ط4: 1977م.
- تغليق التعليق على صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني(- 852هـ) ، ت: سعيد عبد الرحمن موسى القرقي، المكتب الإسلامي، دار عمار (بيروت- عمان) ط1: 1405هـ.
- تفسير ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (-774هـ) ، ت: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2: 1420هـ - 1999 م
- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) ، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- تفسير البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، ت: عادل عبد الموجود ، وعلي محمد عوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1: 1422 هـ - 2001 م.
- تفسير البغوي (معالم التنزيل) ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (- 516 هـ)، ت: محمد النمر و عثمان ضميرية وسليمان الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4: 1417 هـ ، 1997 م.
- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ، أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي الشافعي (- 685هـ) ، دار الفكر، بيروت.
- تفسير الجلالين ، الجلال المحلي محمد بن أحمد (-864هـ)، الجلال السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ) دار ابن كثير، دمشق، ط12، 1426هـ، 2005م.
- تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) ، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي (- 606هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1421هـ، 2000 م.
- تفسير الشيخ متولي الشعراوي (خواطري في تفسير القرآن الكريم) ، مؤسسة أخبار اليوم.
- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (-310هـ) ، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1: 1420 هـ - 2000 م.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : 671 هـ) ، ت: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، ط: 1423هـ، 2003م.
- التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، ط4.
- تفسير غريب الموطأ لابن حبيب عبد الملك السلمي الأندلسي (238هـ) ، ت : د . عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، مكتبة العبيكان ، ط1 ، 1421هـ ، 2001م.
- تفسير غريب ما في الصحيحين ، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد بن يصل الأزدي الحميدي، ت: د. زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، مكتبة السنة، القاهرة، ط1: 1415 هـ، 1995م.
- تفسير مجاهد بن جبر المكي القرشي المخزومي (104هـ) ، ت: عبد الرحمن الطاهر السورقي، دار المنشورات العلمية، بيروت، 1396هـ.
- التفكير من خارج الصندوق ، مايك فانس و ديان ديكون، ترجمة ونشر مكتبة جرير، السعودية، ط: 2002م.
- تقريب التهذيب، الحافظ ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (-852هـ) ، ت : الشيخ محمد عوامة . طباعة دار الرشيد ، حلب ط1: 1406هـ ، 1986م¹.
- تقريب التهذيب، الحافظ ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (-852هـ) ت: عادل مرشد . مؤسسة الرسالة ، بيروت.
- التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، ت: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر ، بيروت، ط1: 1389هـ - 1970م.

¹ - هي المعتمدة ، ولجأت إلى طبعة الرسالة للمقارنة والتوثق في موضع نهبت فيه إليها.

- تلخيص الخبر في أحاديث الرافعي الكبير، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، ت: عبد الله هاشم المدني، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، 1384هـ، 1964م.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي (-463هـ)، ت: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387هـ.
- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، عبد الرحمن بن أبي بكر أبو الفضل السيوطي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط: 1389 - 1969.
- تهذيب الآثار (الجزء المفقود)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (-310هـ)، تحقيق علي رضا، دار المأمون للتراث.
- تهذيب الآثار لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (310هـ). ت: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. القاهرة.
- تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر شهاب الدين العسقلاني (773-852هـ)، عناية: إبراهيم الزبيق و عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1: 1421هـ، 2001م.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ أبو الحجاج يوسف بن الزكي المزني، ت: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1: 1400هـ، 1980م.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى (-370هـ)، ت: د. عبد الله درويش، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- توجيه النظر إلى أصول الأثر، طاهر الجزائري الدمشقي، ت: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط1: 1416هـ، 1995م.
- التوشيح على صحيح البخاري، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (-911هـ)، ت: رضوان رضوان، مكتبة الرشد، الرياض، ط1: 1419هـ، 1998م.
- توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، محمد بن إسماعيل الأمير الحسني الصنعاني، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة السلفية، المدينة المنورة.
- التيسير بشرح الجامع الصغير، الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي (-1031هـ)، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط3: 1408هـ - 1988م.
- الثقات، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، ت: شرف الدين أحمد، دار الفكر، ط1: 1395هـ، 1975م.
- ثلاث قضايا حول موسيقى القرآن، د. نعيم اليافي، مجلة التراث العربي، ع17، تشرين الأول، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1984م.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (-606هـ)، ت: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، دمشق، الطبعة الأولى.
- جامع التحصيل في أحكام المراسيل، أبو سعيد بن خليل بن كيكليدي العلائي، ت: حمدي عبد المجيد، عالم الكتب، بيروت، ط2: 1407هـ، 1986م.

- جامع العلوم والحكم ، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (795 -) ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1408هـ.
- الجامع للإمام معمر بن راشد (151هـ) ، ت : حبيب الرحمن الأعظمي ، توزيع المكتب الإسلامي ، ط2 : 1403هـ ، 1983م (ملحق بالمصنف لعبد الرزاق).
- الجرح والتعديل ، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي (327هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ، 1271هـ ، 1952م.
- جُمَل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (279هـ) ، ت: د. سهيل زكار، د. رياض زركلي، دار الفكر ، بيروت، إعادة طبع عن الأولى : 1417هـ، 1996م.
- جمهرة الأمثال ، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (-395هـ) ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم و عبد المجيد قطامش، دار الفكر، الطبعة الثانية ، 1988م.
- جمهرة أنساب العرب ، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (-456هـ) ، ت: عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط: 1382هـ.
- جمهرة خطب العرب ، أحمد زكي صفوت ، المكتبة العلمية، بيروت.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي (- 1362هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط12.
- جوهر التوحيد ، الشيخ إبراهيم اللقاني (1014هـ) ومعه شرح الجوهر للشيخ إبراهيم الباجوري (1276هـ)، ت: عبد السلام شنار ، دار البيروتي ، دمشق ، ط1: 1423هـ، 2002م.
- حاشية ابن عابدين (رد المختار على الدر المختار) ، محمد أمين الشهير بابن عابدين، ومعه تكملة رد المختار لنجل المؤلف محمد علاء الدين، ت: عادل عبد الموجود، علي معوض ، دار عالم الكتب، الرياض، ط: 1423 هـ، 2003م.
- حاشية البجيرمي على الخطيب (تحفة الحبيب على شرح الخطيب المعروف بالإقناع) ، سليمان البجيرمي، دار الفكر، ط: 1401هـ، 1981م.
- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل، محمد الدمياطي الشافعي الخضري (1287هـ)، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ط: 1359هـ، 1940م.
- حاشية الدسوقي ، محمد عرفة الدسوقي ، ت : محمد عlish ، دار الفكر ، بيروت .
- حاشية الدسوقي على شرح السعد (مطبوع مع عروس الأفراح) مطبعة السعادة، مصر 1937م.
- حاشية العدوي في الفقه المالكي لعلي الصعيدي العلوي المالكي ، ت : يوسف محمد البقاعي ، دار الفكر، بيروت، ط: 1412هـ.
- حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع لابن السبكي، الشيخ حسن العطار، المكتبة التجارية الكبرى، مصر. (وبهامشه تقارير عبد الرحمن الشربيني ثم تقارير محمد علي المالكي).
- الحاوي الكبير ، أبو الحسن الماوردي، دار الفكر ، بيروت.
- الحجاج النحوية حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، ط1: 1424هـ، 2004م.

- الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى، ت: د. مازن المبارك، دار الفكر المعاصر ، بيروت، ط1: 1411هـ.
- الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، د. عز الدين علي السيد، دار إقرأ، بيروت، ط2: 1406هـ، 1986م.
- الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية د. محمد ضاري حمادي ، بغداد اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، ط1: 1402هـ، 1982م.
- الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية ، الشيخ حسين الجسر ، ت: رضوان رضوان ، المكتبة التجارية، مصر، 1351هـ، 1932م.
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (-255هـ) ، ت: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1416هـ ، 1996م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب ، تقي الدين ابن حجة الحموي أبو بكر علي بن عبد الله (-837هـ) ، ت : عصام شعيثو، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى ، 1987.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (-1093هـ) ت: محمد نبيل طريفي و أميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط: 1998م.
- الخصائص الكبرى، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1405هـ ، 1985م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ت: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت .
- الدر المنثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر ، بيروت ، ط: 1993م.
- درء تعارض العقل والنقل، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (-728هـ) ، ت: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية ، الرياض، ط: 1391هـ.
- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، د. غانم قدوري الحمد ، دار عمار، عمان، ط2: 1428هـ، 2007م.
- دراسات فنية في القرآن الكريم، أ.د. أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، ط1: 1427هـ، 2006م.
- دراسات في علم اللغة ، د. فاطمة محبوب ، دار النهضة العربية، القاهرة، ط: 1976م.
- دراسات في علم النفس الأدبي ، د. حامد عبد القادر ، المطبعة النموذجية، القاهرة، ط1 : 1949م.
- درة الغواص في أوهام الخواص، القاسم بن علي الحريري (-516هـ)، ت: عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط: 1418هـ، 1998م.
- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني (-474هـ) ، اعتنى به الشيخ محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1: 1409هـ، 1988م.
- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني (-474هـ)، ت: محمود محمد شاكر ، مطبعة الخانجي ، القاهرة ، 1375هـ¹.

¹ - رجعت إليها مرة واحدة إلى مقدمة الأستاذ محمد شاكر، وصرحت بذلك في موضعه.

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (-458هـ)، ت: د. عبد المعطي قلّعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، دار الريان، القاهرة، ط1: 1408هـ، 1988م.
- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (- 911 هـ) ، ت: أبو اسحاق الحويني، دار ابن عفان، الخبر(السعودية)، ط1: 1416 هـ، 1996 م .
- ديوان إبراهيم بن هرمة ، ت: محمد جبار المعويد ، مطبعة الآداب، النجف، 1389هـ، 1969م.
- ديوان ابن الرومي أبي الحسن علي بن العباس بن جريح (- 284هـ) ، ت: د. حسين نصّار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط2: 1993م.
- ديوان ابن المعتز أبي العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل (- 296هـ) ، شرح مجيد طراد ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1: 1415هـ، 1995م.
- ديوان أبي الطيب المتنبي (-354هـ) بشرح أبي البقاء العكبري (التبيان في شرح الديوان) ، اعتنى به : مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ الشلبي، دار المعرفة، بيروت .
- ديوان أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ت: راجي الأسمر، دار صادر، بيروت، ط1: 1997م.
- ديوان أبي تمام ، شرح د. محيي الدين صبحي ، دار صادر، بيروت ، ط1: 1997م.¹
- ديوان أبي تمام حبيب بن أوس الطائي (-231هـ) بشرح الخطيب التبريزي، ت: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر ، ط3.
- ديوان أبي ذؤيب الهذلي ، اعتنى به سوهام المصري ، المكتب الإسلامي، دمشق ، بيروت، ط1: 1419هـ، 1998م.
- ديوان أبي نواس ، شرحه إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1: 1983م.
- ديوان أحمد شوقي (الشوقيات)، اعتنى به د. يوسف البقاعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 1427هـ، 2006م.
- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، اعتنى به د. محمد أحمد قاسم، المكتب الإسلامي ، بيروت، ط1: 1415هـ، 1994م.
- ديوان الإمام الشافعي، اعتنى به يوسف علي بديوي، دار الفجر، دمشق، ط1: 1421هـ، 2000م.
- ديوان البحتري ، ت: حسن الصيرفي، دار المعارف، مصر، ط3.
- ديوان البوصيري شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد (- 696هـ) ، ت: محمد سيد كيلاي، مطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده ، مصر، ط1: 1374هـ، 1955م.
- ديوان الحماسة ، اختيار أبي تمام، شرح العلامة التبريزي، دار القلم، بيروت.
- ديوان الخنساء، دار التراث العربي، بيروت، 1388هـ، 1968.
- ديوان الراعي النميري (-90هـ) وأخباره ، بعناية ناصر الحاني وعز الدين التنوخي ، المجمع العلمي العربي، دمشق، 1383هـ، 1964م.

¹ - هو الذي اعتمدته إلا في موضعين رجعت بهما إلى الديوان بشرح الخطيب التبريزي وكنت أصح بذلك.

- ديوان الشريف الرضي، ت: د. محمود حلاوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1: 1419هـ، 1999م.
- ديوان الشنفرى، إعداد طلال حرب، دار صادر، بيروت، ط1: 1996م.
- ديوان الصبابة، ابن أبي حجلة أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني (-776هـ)، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية 1987 م.
- ديوان العباس بن الأحنف، ت: عائكة الخزرجي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1.
- ديوان النابغة الذبياني، صنعة ابن السكيت يعقوب بن إسحاق (-244هـ) ت: د. شكري فيصل، دار الفكر.
- ديوان النابغة الذبياني، مطبعة الهلال، مصر، 1911م.¹
- ديوان النمر بن توبل العُكلي، ت: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1: 2000م.
- ديوان امرئ القيس، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر.
- ديوان بشار بن برد، اعتنى به محمد الطاهر بن عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1367هـ، 1957م.
- ديوان جرير، ت: د. نعمان طه، دار المعارف، مصر.
- ديوان حافظ إبراهيم، اعتنى به أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2: 1987.
- ديوان حسان بن ثابت، ت: د. وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ط: 1974م.
- ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعة الأستاذ عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1371هـ، 1951م.
- ديوان ديك الجن عبد السلام الحمصي، ت: د. أحمد مطلوب، عبد الله الجبوري، دار الثقافة، بيروت.
- ديوان ذي الرمة غيلان بن عقبة العدوي (-117هـ)، شرح أحمد بن حاتم الباهلي ورواية ثعلب، ت: د. عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط2: 1402هـ، 1982م.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلام الشنتمري، ت: د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3: 1400هـ، 1980م.
- ديوان زياد الأعجم، ت: د. يوسف بكار، وزارة الثقافة، دمشق، 1983م.
- ديوان طرفة بن العبد بشرح الأعلام الشنتمري (-476هـ)، ت: درية الخطيب و لطفي الصقّال، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1395هـ، 1975م.
- ديوان عمر بن أبي ربيعة، اعتنى به قدرى مايو، عالم الكتب، بيروت، ط1: 1417هـ، 1997م.
- ديوان عمرو بن معديكرب الزبيدي، جمع مطاع الطرايشي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ط2: 1405هـ، 1985م.
- ديوان عنتره، ت: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، دمشق.

¹ - الطبعة التي اعتمدها هي الأولى طبعة الدكتور شكري فيصل ورجعت إلى الثانية في موضع لأنني لم أعتز على البيت فيه.

- ديوان كعب بن زهير ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1369هـ، 1950م.
- ديوان ليبيد بن ربيعة العامري (-41هـ) ، ت: د. إحسان عباس ، وزارة الإرشاد والإنشاء ، الكويت، 1962م.
- ديوان ليلى الأخيلية ، ت: خليل العطية وجليل العطية، دار الجمهورية، بغداد ، ط2: 1397هـ، 1977م.
- ذكر أسماء من تكلم فيه وهو ثقة ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (748هـ) ت : محمد شكور المياديني ، دار المنار ، الزرقاء، ط1: 1406هـ، 1986م.
- رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، المطبعة الأزهرية، مصر ، ط1: 1346هـ، 1928م.
- رسائل الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (-255هـ) ، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1: 1399هـ، 1979م.
- رسائل الكندي الفلسفية ، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي ، ت: محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة حسان، القاهرة، ط2.
- الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، محمد عبد الحي اللكنوي الهندي (-1304هـ) ، بتعليقات الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة السادسة (دار البشائر، بيروت) 1421هـ، 2000م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، محمود الألوسي أبو الفضل، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، الإمام المحدث عبد الرحمن السهيلي (581هـ) ، ت: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الإسلامية، مصر، ط1: 1387هـ، 1967م.
- روضة الطالبين وعمدة المفتين ، الإمام محي الدين النووي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط2: 1405هـ.
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان البستي أبو حاتم، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط: 1397هـ- 1977م.
- زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي(-597هـ)، المكتب الإسلامي ، بيروت، ط3: 1404هـ.
- الزاهر في معاني كلمات الناس ، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (-328هـ) ، ت : د . حاتم الضامن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 : 1412هـ ، 1992م .
- الزهد ، عبد الله بن المبارك المرزوي ، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- الزهرة، أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني، ت: د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، ط2: 1406هـ، 1985م.
- سؤالات أبي عبيد الآجري لأبي داود السجستاني، ت: محمد علي قاسم العمري، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط1: 1399هـ ، 1979م.

- السبع المعلقات (مقاربة سيميائية/ أنثروبولوجية)، د. عبد الملك مرتاض، اتحاد الكتاب العرب، ط: 1989م.
- سر الفصاحة ، ابن سنان محمد بن عبد الله الخفاجي الحلبي (- 466هـ) دارالكتب العلمية ، بيروت، ط1: 1402هـ، 1982م.
- السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي ، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر دمشق ط1: 1408هـ 1998م.
- السنة ، عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني ، د. محمد سعيد سالم القحطاني، دار ابن القيم ، الدمام، ط1: 1406هـ.
- سنن ابن ماجه ، محمد بن يزيد أبي عبد الله القزويني (- 275هـ) ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر، بيروت .
- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (- 275هـ)، ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر، بيروت .
- سنن البيهقي الكبرى ، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، ت: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ، ط: 1414 هـ، 1994م.
- سنن الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (- 279هـ) ، ت : أحمد شاكر ، دار إحياء التراث ، بيروت .
- سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي ، ت: عبد الله هاشم بماني المدني ، دار المعرفة ، بيروت، 1386 هـ - 1966م.
- سنن النسائي (المجتبى) الإمام النسائي أحمد بن شعيب (- 303هـ) ، ت : الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات ، حلب، ط2 : 1406 هـ ، 1986م .
- سنن النسائي الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، ت: د. عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1: 1411هـ، 1991م.
- سير أعلام النبلاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (- 748 هـ) ، ت: شعيب الارنؤوط ، وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة 1413 هـ، 1993 م.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، عبد الله بن عقيل العقيلي المصري (- 769هـ) ، وعليه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل ، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- شرح أدب الكاتب، أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي، تقديم مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- شرح الأربعين النووية ، تقي الدين محمد بن علي، المشهور بابن دقيق العيد (- 702هـ) بعناية الشيخ عبد العزيز السيروان ، دار الرائد العربي ، بيروت ط: 1404هـ، 1984م.
- شرح التصريح على التوضيح، الشيخ خالد بن عبد الله الأزهرى، وبهامشه حاشية العليمي، دار الفكر.
- شرح الرضي على الكافية ، رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي المتوفى سنة 688 هـ، صححه وعلق عليه يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس، بنغازي ، ط1: 1398 هـ - 1978 م.

- شرح الزرقاني على موطأ مالك ، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني (1122هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 : 1411هـ.
- شرح السعد التفتازاني على تلخيص المفتاح (مطبوع مع عروس الأفراح) مطبعة السعادة، مصر 1937م.
- شرح السيوطي لسنن النسائي، عبدالرحمن بن أبي بكر أبو الفضل السيوطي، ت: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب، ط2: 1406هـ - 1986م.
- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي (- 743هـ) ت: د. عبد الحميد هندواي، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، ط1: 1417هـ، 1997م.
- الشرح الكبير ، أبو البركات سيدي أحمد الدردير، إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه) .
- الشرح الكبير ، أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي (- 682هـ) ، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.
- شرح الكوكب المنير، تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحي المعروف بابن النجار (- 972هـ)، ت: د. محمد الزحيلي و نزيه حماد، مكتبة العبيكان، ط2: 1418هـ ، 1997 م.
- شرح سنن ابن ماجه، السيوطي ، الكنكوهي ، فخر الحسن الدهلوي ، قديمي كتب خاتنة ، كراتشي.
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام، ت: عبدالغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع ، دمشق، ط1: 1984م.
- شرح صحيح البخاري ، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، اعتنى به ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض.
- شرح صحيح مسلم (المنهاج)، الإمام محي الدين يحيى بن شرف النووي (- 676هـ) ، دار إحياء التراث، بيروت ، ط2 : 1392هـ .
- شرح علل الترمذي ، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (736 - 795هـ) ، ت: د. نور الدين عتر، دار الملاح، دمشق، ط1: 1398هـ، 1978م.
- شرح مشكل أبيات المتنبي ، ابن سيده، ت: مصطفى السقا وحامد عبد المجيد. الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1976م.
- شرح مشكل الآثار ، أبو جعفر الطحاوي، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1: 1408هـ ، 1987م.
- شرح معاني الآثار، أبو جعفر الطحاوي أحمد بن محمد الحنفي (321هـ) ، ت: محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1: 1399هـ.
- شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين (- 656هـ)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي.
- شعب الإيمان ، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولى ، 1410هـ.

- الشعر الجاهلي ظواهره وقضاياها الفنية، د. كريم الوائلي، دار العالمية، القاهرة.
- شعر النابغة الجعدي، ت: عبد العزيز رباح، المكتب الإسلامي، دمشق، ط1: 1384هـ، 1964م.
- شعر عبدة بن الطبيب، د. يحيى الجبوري، دار التربية، بغداد، ط1: 1391هـ، 1971م.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ت: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة.
- الشعراء وإنشاد الشعر، علي الجندي، دار المعارف، القاهرة، ط: 1969م.
- الشفاء (الفن السادس من كتاب الطبيعيات علم النفس)، الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1: 1988م.
- شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، ابن مالك جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي النحوي (-672هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار العروبة، القاهرة.
- الصحاحي في فقه اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، المكتبة السلفية، القاهرة، ط: 1328هـ، 1910م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي القلقشندي، ت: د. يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ط1: 1987م.
- الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري (في حدود 400هـ)، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1990م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (354هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1414هـ، 1993م.
- صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، ت: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: 1390هـ - 1970م.
- صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (256هـ). دار السلام / الرياض، ودار الفحاء / دمشق. ط2. 1419هـ، 1999م (وفق ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي).
- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (261هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار عالم الكتب، الرياض، ط1: 1417هـ، 1996م.
- الصورة الأدبية، د. مصطفى ناصف، دار مصر، القاهرة، ط1: 1958.
- الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، د. بشرى موسى الصالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط1: 1994م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب د. جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3: 1992م.
- الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، د. أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، ط2: 1427هـ، 2006م.
- الضعفاء الكبير، أبو جعفر محمد بن عمر بن موسى العقيلي، ت: عبد المعطي أمين قلنجي، دار المكتبة العلمية، بيروت، ط1: 1404هـ، 1984م.
- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1: 1968م.

- طبقات المدلسين ، للحافظ أحمد بن علي بن حجر (586هـ) ، ت : عاصم بن عبد الله القريوتي ، مكتبة المنار، عمان ، ط1 : 1403 هـ ، 1983م.
- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، ت: محمود محمد شاكر، دار المدني ، جدة.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (-749هـ) ، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ط1: 1332هـ، 1914م.
- العرف الشذي شرح سنن الترمذي، محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري، ت: محمود أحمد شاكر، مؤسسة ضحى للنشر والتوزيع، ط1.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي أحمد بن علي(-772هـ) (مع شروح التلخيص) مطبعة السعادة، مصر 1937م.
- العقد الفريد ، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (-328هـ) ، ت: د. مفيد قميحة و د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1404هـ، 1983م.
- العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم، الشيخ محمد أبو زهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة
- العلل الصغير، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي ، ت أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
- علم الأسلوب والنظرية البنائية ، د. صلاح فضل ، دار الكتاب المصري، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط1: 1428هـ، 2007م.
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، د. محمود السعران، دار المعارف، مصر، 1962م.
- علم اللغة، الدكتور علي عبد الواحد وافي ، دار تحضة مصر، القاهرة ، ط9.
- علم تجويد القرآن ، د. محمد هشام البرهاني ، مكتبة الأوزاعي، دمشق ، ط9: 1423هـ، 2002م.
- علم الحديث والدراسات الأدبية، د. نور الدين عتر ، ط1: جامعة حلب، 1986م.
- العلو للعلي الغفار ، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (-748هـ) ، ت : أبو محمد أشرف ابن عبدالمقصود ، مكتبة أضواء السلف ،الرياض، الطبعة الأولى ، 1995م.
- علوم الحديث ، ابن الصلاح أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري (-643هـ) ، ت: د. نور الدين عتر، دار الفكر ، سوريا ، 1406هـ، 1986م.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، البدر العيني محمود بن أحمد(-855هـ) ، اعتنى به عبد الله محمود عمر ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1421هـ، 2001م
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الحسن بن رشيق القيرواني، أبو علي(-463هـ) ، ت: محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت ، ط5: 1401هـ، 1981م.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية ، 1415.
- العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي (-170هـ) ، ت: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي ، مكتبة الهلال، بيروت.

- غريب الحديث ، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي (-285هـ) ، ت : د. سليمان العايد، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط1 : 1405هـ .
- غريب الحديث ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي (- 597 هـ)، تحقيق : د.عبدالمعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1985م.
- غريب الحديث ، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي(-224هـ) ، ت: د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي ، بيروت، الطبعة الأولى ، 1396هـ.
- غريب الحديث ، حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان، ت: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط: 1402هـ.
- غريب الحديث، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (-276هـ)، ت : د . عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، 1397 هـ .
- الفائق في غريب الحديث، جار الله محمود بن عمر الرّمحشري (-538هـ) ، ت: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة ، لبنان ، الطبعة الثانية.
- فتح الباري ، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (-852هـ) ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت ، 1379 هـ .
- فتح المغيـث شرح ألفية الحديث ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (- 902هـ) ، اعتنى به صلاح عويضة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1412هـ، 2001م.
- الفتق، أبو عبد الله نعيم بن حماد المروزي (- 229 هـ)، ت: د.سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1414 هـ، 1993 م.
- الفردوس بمأثور الخطاب، أبو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي الهمداني (509هـ) ، ت : السعيد ابن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 : 1406هـ ، 1986م.
- الفروق، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي(-684هـ)، ت: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1418هـ ، 1998م.
- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، أبو عبيد البكري ، ت: د.إحسان عباس و د.عبدالمجيد عابدين، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط3: 1983م.
- فصول في التفكير الموضوعي ، أ.د عبد الكريم بكار ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية، بيروت، ط4: 1426هـ، 2005م.
- فصول في علم الاقتصاد الادبي ، حنا عبود ، اتحاد الكتاب العرب 1997 .
- الفصول، عباس محمود العقاد، مطبعة السعادة، مصر، ط: 1922م.
- فقه اللغة وسر العربية ، أبو منصور الثعالبي(-430هـ)، ت: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار الفكر، بيروت.
- فكرة الجمال، هيغل (- 1831) ، تر: جورج طرايشي، دار الطليعة، بيروت، ط3: 1988م.
- فلسفة البلاغة ، جبر ضومط، المطبعة العثمانية، لبنان، 1898م.
- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د. رجاء عيد ، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.

- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط9: 1976م.
- في البلاغة العربية ، علم البيان ، د. عبد العزيز عتيق ، بيروت، 1400هـ، 1985م.
- فيض الباري شرح صحيح البخاري ، الشيخ محمد أنور الكشميري ، ثم الديوبندي ، المتوفى سنة 1352هـ، دار الضياء للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى .
- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، عبد الرؤوف المناوي(-1031هـ) ، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ط1 ، 1356هـ.
- في ظلال الحديث النبوي، د. نور الدين عتر، الطبعة الثالثة، دمشق، 1432هـ 2011م.
- القاموس الطبي العربي ، د . عبد العزيز اللبدي ، دار البشير ، عمان ، ط1 ، 1425هـ ، 2005 م .
- قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ، د. زامل يعقوب، د. بسام بركة، مي شيخاني، دار العلم للملايين ، بيروت، ط1: 1987م.
- قصة البلاغة ، أحمد الخوص، المطبعة العلمية ، دمشق ط1: 1413هـ، 1992م.
- قطر الندى وبل الصدى، جمال الدين عبد الله بن يوسف الأنصاري ابن هشام ، بشرح الشيخ محيي الدين عبد الحميد، وتحقيق عبد الجليل العطا، دار الفجر، دمشق، ط3: 1422هـ، 2001م.
- قواطع الأدلة في الأصول، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (-489هـ)، ت: محمد حسن اسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1418هـ، 1999م.
- قواعد الشعر ، أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (-291هـ) ، ت: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2: 1995م.
- قواعد النقد الأدبي، لاسل أبر كرمي، ترجمة محمد عوض محمد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط3: 1954م.
- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، الذهبي ، ت: محمد عوامة وأحمد الخطيب، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علوم القرآن ، جدة، ط1: 1413هـ - 1992م.
- الكامل في التاريخ ، ابن الأثير عز الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري (-630هـ) ت: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1407هـ، 1987م.
- الكامل في اللغة و الأدب ، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (-285هـ)، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة 1417 هـ ، 1997 م.
- الكامل في ضعفاء الرجال ، عبد الله بن عدي الجرجاني (-365هـ) ، ت : يحيى مختار غزاوي ، دار الفكر ، بيروت ، ط3 ، 1409هـ ، 1988م .
- كبرى اليقينيات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق طبعة مصورة عن الثامنة : 1417هـ 1997 م .
- الكتاب ، أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه (-180هـ) ت: عبد السلام هارون ، الخانجي، القاهرة، ط3: 1408هـ ، 1988م.
- كتاب الصناعتين ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري(-395هـ) ، ت: علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ، 1419هـ، 1998م.

- كشف القناع عن متن الإقناع للبهوتي منصور بن يونس بن إدريس ، ت : هلال مصيلحي مصطفى هلال ، دار الفكر ، بيروت ، ط1 : 1402هـ
- الكشف عن حقائق التنزيل ، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (-538 هـ)، ت : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
- كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي ، تأليف : عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري (-730هـ) ، ت: عبد الله محمود عمر، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط: 1418هـ/1997م
- كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري (المتوفى : 730هـ)، ت: عبد الله محمود عمر، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1: 1418هـ، 1997م.
- كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني (-1162هـ)، ت: أحمد القلاش ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط4: 1405هـ.
- الكشكول ، بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، ت: محمد عبد الكريم النمري ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1418هـ -1998م.
- الكفاية في علم الرواية، أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر الخطيب البغدادي، ت: أبو عبد الله السورقي و إبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة.
- الكليات ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (1094هـ) ، ت: د.عدنان درويش ، محمد المصري، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط2: 1419هـ ، 1998م.
- الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي ، د. محمد الحسن أمين أحمد ، دار المكتبة الفيصلية، بيروت، ط1: 1985م.
- الكناية في البلاغة العربية بين النظرية والتطبيق ، هيفاء عربية ، رسالة ماجستير مخطوطة نوقشت في قسم اللغة العربية من كلية الآداب ، جامعة حلب ، 1991م.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري (-975هـ)، ت: بكري حياني - صفوة السقا. , مؤسسة الرسالة, الطبعة الخامسة، 1401هـ/1981م.
- الكواكب الدراري بشرح صحيح البخاري، محمد بن يوسف بن علي الكرمانى (-775هـ)، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ط2: 1401هـ، 1981م .
- لزوم ما لا يلزم ، أبو العلاء المعري ، الطبعة الهندية.
- لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (-711هـ)، دار صادر ، بيروت ، ط1
- لسان الميزان ، ابن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط3: 1406هـ ، 1986م.
- لغة الجسد الإيماءات والحركات ، آلان بيز، ترجمة: عبد الهادي غلاييني، دار الإيمان، دمشق، بيروت، ط1: 1413هـ، 1993م.
- اللغة والإبداع، د. شكري محمد عياد، القاهرة، أنترناشينال برس، ط1: 1988م.
- اللغة واللون، الدكتور أحمد عمر مختار ،عالم الكتب، القاهرة، ط2: 1997.

- اللمع في أصول الفقه، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1: 1405هـ ، 1985م.
- مبادئ النقد الأدبي ، أيفور ريتشاردز، ترجمة د. محمد مصطفى بدوي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1: 1963م.
- مبادئ النقد الأدبي، أيفور أمسترونج ريتشاردز، ترجمة: د. محمد مصطفى بدوي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1963م.
- المتواري على تراجم البخاري ، ناصر الدين أحمد بن المنير (-683هـ) ، ت: صلاح الدين مقبول أحمد ، مكتبة المعلا ، الكويت، ط1: 1407هـ، 1987م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي (-637هـ) ، ت : محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت: 1420هـ، 1995م.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى ، ت: د. محمد فؤاد سزكين، الخانجي، القاهرة، 1374هـ، 1954م.
- المجازات النبوية ، الشريف الرضي ، مطبعة الآداب ،بغداد، 1916.
- مجالس ثعلب، أبو العباس يحيى بن أحمد ثعلب (-291هـ) ، ت: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ، النشرة الثانية.
- المجروحون، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، ت: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي ، حلب.
- مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني (518هـ) ، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (-807هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1988.
- مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً ، مجلة المجمع اللغوي، القاهرة.
- المجموع المغيـث في غريب القرآن والحديث، الحافظ أبو موسى محمد بن عمر الأصبهاني المدني (-581هـ)، ت : عبد الكريم العزباوي ، مركز إحياء التراث الإسلامي في جامعة أم القرى، مكة ، ط1 : 1408هـ 1988م
- المجموع شرح المذهب، محيي الدين بن شرف النووي (-676 هـ) ، ت : محمود مطرحي ، دار الفكر، بيروت، ط1 : 1417هـ .
- المجموع في المحيط بالتكليف، عبد الجبار بن أحمد المعتزلي (415هـ) جمع الحسن بن أحمد بن متوبة البُحراني (469هـ)، عني به الأب جين يوسف هوبن ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني، مكتبة الحياة، بيروت.
- المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، ت: طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض، ط1: 1400هـ.

- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى (- 458هـ)، ت: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط : 2000م.
- المحلى، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى : 456هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شمائله وخصاله الحميدة، الشيخ عبد الله سراج الدين، دار الفلاح، حلب، ط7: 1410هـ، 1990م.
- مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ت: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت، ط: 1415هـ ، 1995م.
- مختصر شعب الإيمان للبيهقي، اختصار القزويني ، ت: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ، دار ابن كثير، دمشق، ط4: 1431هـ، 2010م.
- المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ابن اللحام أبو الحسن علي بن محمد بن علي البعلبي (- 803هـ) ، ت: د. محمد مظهر بقا ، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة.
- المخصص ، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده (- 458هـ) ، ت: خليل جفال، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط1 : 1417هـ، 1996م.
- المدخل إلى علم الجمال، هيغل (- 1831) ، تر: جورج طرايشي، دار الطليعة، بيروت، ط3: 1988م.
- المدخل إلى علم النفس الحديث ، ركس نايت، مارجريت نايت، تعريب : د. عبد العلي الجسماني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ط2: 1993م.
- المدخل إلى علم نفس النمو ، د. عباس محمود عوض، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1999م.
- مدخل جديد إلى الفلسفة ، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1: 1975.
- المراح في المزاج، أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد الغزي (- 984هـ)، ت: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم ، بيروت ، ط1: 1418هـ - 1977م.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، الشيخ ملا علي بن سلطان القاري الحنفي (1014هـ) ، بعناية: صدقي العطار، دار الفكر ، بيروت، ط1: 1412هـ، 1992م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1: 1998م.
- مسائل فلسفة الفن المعاصرة، جان ماري جويو، ترجمة سامي الدروبي، دار اليقظة العربية، دمشق، ط2: 1965م.
- المستدرك على الصحيحين ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري (- 405هـ) ، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1411هـ - 1990م.
- المستصفى في علم الأصول، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، ت: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1: 1413هـ.

- المستقصى في أمثال العرب ، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (-538 هـ)، دارالكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ، 1987م.
- مسند أبي عوانة، الإمام أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني(-316هـ) ، ت: أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة ، بيروت، ط: 1419هـ .
- مسند أبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، ت: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث ، دمشق، ط: 1404 هـ - 1984م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل (-241هـ)، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1991م.
- مسند الإمام محمد بن إدريس الشافعي (204هـ) ، ت: د. رفعت فوزي عبد المطلب، دار البشائر الإسلامية ، بيروت، ط: 1426هـ، 2005م.
- مسند البزار ، الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو البزار (292هـ) ، ت: د. محفوظ الرحمن زين الله ، عادل سعد مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، الطبعة الأولى.
- مسند علي بن الجعد الجوهري البغدادي (-207هـ) ، ت: عامر حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، ط: 1410هـ، 1990م.
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي(-544هـ) ، المكتبة العتيقة ، تونس، دار التراث، القاهرة .
- مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، ت: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ، بيروت، ط: 3: 1405 هـ - 1985م.
- مصادر الشعر الجاهلي، ناصر الدين الأسد، دار المعارف، مصر، ط: 7: 1988م.
- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكنايني البوصيري (840هـ)، ت : د. عوض الشهري، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط: 1425 هـ ، 2004م.
- المصباح في المعاني والبيان والبديع. بدر الدين محمد بن محمد بن مالك (الشهير بابن النازم) (-686هـ) ت: د. حسني يوسف، مكتبة الآداب، القاهرة ، ط: 1409 هـ، 1989م.
- مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي ، بيروت، ط: 2: 1403هـ.
- المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد ، الرياض، الطبعة الأولى ، 1409
- مع البلاغة العربية في تاريخها ، د. محمد علي سلطاني ، دار المأمون للتراث ، دمشق 1979م.
- معاني القرآن الكريم، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، ت: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة، ط: 1408 هـ، 1988م.
- المعتمد في أصول الفقه، محمد بن علي بن الطيب البصري أبو الحسين، ت: خليل الميس، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط: 1403هـ.
- المعجم الأدبي ، جبور عبد النور ، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 1: 1979.

- المعجم الأوسط ، الحافظ الطبراني سليمان بن أحمد (- 360هـ)، ت : طارق محمد وعبد المحسن الحسيني ، دار الحرمين ، القاهرة ، 1415هـ .
- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، دار الفكر، بيروت.
- المعجم الكبير ، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني(-360هـ)، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل، حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط2: 1404هـ ، 1983م.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث، بيروت .
- معجم المصطلحات الأدبية ، إبراهيم فتحي ، المؤسسة العربية للناشرين المتحددين ، طبع التعااضدية ، صفاقس، تونس ط1: 1986.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب ، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط: 2007م.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس ، مكتبة لبنان ، بيروت، 1997م.
- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الطبعة الأولى التي أخرجها إبراهيم مصطفى وآخرون، نشر دار الدعوة، اسطنبول.
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ، ت: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ط3: 1403هـ.
- المعلم بفوائد مسلم لأبي عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري (536هـ) ، ت : محمد الشاذلي النيفر ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1407هـ ، 1987م.
- المغامرة النقدية، د. نعيم اليافي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1: 1992م.
- المغني ، ابن قدامة المقدسي عبد الله بن أحمد (620هـ) ، دار الفكر ، بيروت، ط1 : 1405هـ.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، جمال الدين عبد الله بن يوسف المعروف بابن هشام الأنصاري (761هـ) ، ت : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني ، القاهرة .
- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج ، شمس الدين محمد بن الخطيب الشربيني ، إشراف : صدقي محمد جميل العطار ، دار الفكر ، بيروت ، ط1 : 1419هـ ، 1998م .
- المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني المعتزلي (-415هـ)، نشر وزارة الثقافة والإرشاد، مصر.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي (-626هـ) ، ت: د. عبد الحميد الهنداوي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط: 1420هـ، 2000م.
- المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمد الأصبهاني (-502هـ) ، ت: محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت.
- المفضليات للمفضل الضبي ، ت : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط3 ، دار المعارف ، مصر .
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، الإمام الحافظ أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (-656هـ) ، ت : محي الدين مستو ، وآخرون ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت . دار الكلم الطيب، دمشق ، بيروت ، ط1 : 1417هـ ، 1996م .

- المقاصد الحسنة ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (- 902هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت.
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (- 324هـ) ، تصحيح: هلموت ريتز ، جمعية المستشرقين الألمانية . ط3 1400هـ ، 1980 م .
- مقامات الحريري ، القاسم بن علي بن محمد الحريري البصري ، مطبعة المعارف ، بيروت ، 1873م.
- مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (395هـ) ، ت : عبد السلام هارون ، اتحاد الكتاب العرب ، 1423هـ - 2002م.
- مقدمة ابن خلدون ، ت: عبد السلام شدادي ، بيت الفنون والعلوم والآداب ، الدار البيضاء ، ط1: 2005م.
- مقدمة لدراسة الصورة الفنية د. نعيم اليافي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1982م.
- المنتقى شرح الموطأ ، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (- 474هـ) ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1331هـ.
- المنثور في القواعد ، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (- 794هـ) ، ت: د. تيسير فائق محمود ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ، ط2: 1405هـ.
- المنفردات والوحدان ، مسلم بن الحجاج بن مسلم أبو الحسين النيسابوري ، ت: د. عبد الغفار سليمان البنداري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1: 1408هـ ، 1988م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، أبو الحسن حازم القرطاجني ، ت: محمد حبيب الحوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط3: 1986م.
- المنهاج الواضح للبلاغة ، حامد عوني ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة .
- المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي ، محمد بن إبراهيم بن جماعة ، ت: د. محيي الدين عبد الرحمن رمضان ، دار الفكر ، دمشق ، ط2: 1406هـ.
- موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ، نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (- 807هـ) ، ت: محمد عبد الرزاق حمزة ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي (- 370هـ) ، ت: أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر .
- الموافقات ، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (- 790هـ) ، ت: مشهور بن حسن آل سلمان ، دار ابن عفان ، ط1: 1417هـ ، 1997م.
- الواقف ، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي (- 756هـ) ، ت: د عبد الرحمن عميرة ، دار الجليل ، بيروت ، ط1: 1997م.
- مواهب الجليل في شرح مختصر سيدي خليل لمحمد بن عبد الرحمن المغربي (954هـ) ، دار الفكر ، بيروت ، ط2 : 1398هـ.
- مواهب الفتاح ، ابن يعقوب المالكي (مطبوع مع عروس الأفراح) مطبعة السعادة ، مصر 1937م.

- الموجز في تاريخ البلاغة ، الدكتور مازن المبارك ، دار الفكر ، دمشق، الإعادة السادسة للطبع 1427هـ، 2006م.
- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط: 1416هـ، 1996م.
- الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت (الجزء الأول ، دار السلاسل، الكويت ط2).
- موسيقى الشعر العربي، دراسة فنية وعروضية، د. حسني عبد الجليل يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط: 1989م.
- الموطأ ، للإمام مالك بن أنس الأصبحي (179هـ) ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث ، مصر .
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (- 748 هـ)، ت: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت .
- النحو الوافي، الأستاذ عباس حسن (-1978م) ، دار المعارف، مصر، ط: 1974م.
- نظرات وآراء في العربية وعلومها : أ. د مازن المبارك ، دار البشائر ، دمشق ، ط1: 1428هـ، 2007م.
- نظرة جديدة في موسيقى الشعر العربي، د. علي يونس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 1993م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ت: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط: 1415هـ، 1995م.
- نظم المتنائر في الحديث المتواتر ، الشيخ أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتاني ، دار الكتب السلفية، مصر، ط: 2.
- النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار العربية، بيروت، ط4: 1966م.
- النقد الأدبي الحديث ، أصوله واتجاهاته ورواده د. محمد زغلول سلام ، المعارف، الاسكندرية .
- النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ستانلي هايمن، ترجمة : إحسان عباس و د. محمد يوسف نجم ، دار الثقافة ، بيروت، ط1: 1958 م.
- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر، ت: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1963م.
- نقد النثر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر ، ت: د. طه حسين، وعبد الحميد العبادي ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ، 1941م.¹
- نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (-733هـ) ، ت : مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى 1424 هـ - 2004 م .
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (-606هـ) ، ت: محمود الطناحي و طاهر الزاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

¹ - ظهر فيما بعد أن نقد النثر هو كتاب البرهان في وجوه البيان لابن وهب بتحقيق الدكتور حفني شرف ثم الدكتور أحمد مطلوب.

- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، إدارة الطباعة المنيرية، مصر .
- الهداية شرح البداية للمرغيناني علي بن أبي بكر بن عبد الجليل (593هـ) ، المكتبة الإسلامية ، بيروت.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (911هـ) ، ت: د.عبد الحميد هندراوي، المكتبة التوفيقية، مصر.
- وحي القلم ، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، إحسان عباس، دار صادر ، بيروت .
- يتيمة الدهر ، أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري (- 429هـ) ، مطبعة الصاوي، مصر ، ط1: 1353هـ، 1934م.

فهرس الموضوعات

الإهداء

شكر وتقدير

المقدمة

أ

1	الفصل الأول تأصيل الكناية في علم البلاغة
2	المبحث الأول: التعريف بعلم البلاغة وموقع الكناية من هذا العلم
2	المطلب الأول : تعريف علم البلاغة
4	المطلب الثاني : أقسام علم البلاغة
6	المطلب الثالث : وظيفة علم البلاغة
8	المطلب الرابع : موقع الكناية من علم البلاغة
11	المبحث الثاني: تطور مفهوم الكناية عند البلاغيين واستقرار المصطلح
11	المطلب الأول : مرحلة التعبير عن الشيء بغير لفظه
11	أولاً - أبو عبيدة معمر بن المثنى
12	ثانياً - الجاحظ
13	ثالثاً - المبرد

14	رابعاً - العسكري
16	خامساً - الثعالبي
18	سادساً - ابن رَشِيق
19	مميزات المرحلة الأولى
20	المطلب الثاني : مرحلة الإرداف والتتبع
20	أولاً - الشيخ عبد القاهر الجرجاني
20	أ- تعريف الكناية تعريفاً علمياً اصطلاحياً ، وفصلها عن المجاز
23	ب- تحقيق بلاغة الكناية وفلسفتها
26	ج - تقسيم الكناية وفق محددات ذاتية
30	ثانياً - الزمخشري
30	أ- الفصل بين الكناية والتعريض
31	ب- إضافة قسم ثالث للكناية
33	المطلب الثالث : مرحلة الزوم
33	أولاً - السكاكي
33	أ- تعريف الكناية عند السكاكي
34	ب- الفرق بين الكناية وبين المجاز عند السكاكي
35	ج - أقسام الكناية وأنواعها عند السكاكي
36	ثانياً - القزويني
36	أ- تعريف الكناية عند القزويني والفرق بينها وبين المجاز
38	ب- أقسام الكناية عند القزويني
43	<u>المبحث الثالث: طرائق خارج المفهوم المستقر للكناية</u>
43	المطلب الأول : الخروج على المستوى النظري
43	- ابن الأثير ضياء الدين
44	أ- الكناية من المجاز عند ابن الأثير
45	ب - إعادة تقسيم ابن الأثير للكناية

50	ج- الفصل بين الكناية والتعريض عند ابن الأثير
52	- العلوي
53	أ- تعريف العلوي للكناية
53	ب- تقسيم العلوي للكناية
54	المطلب الثاني: الخروج على المستوى العملي
54	- الحموي
57	- الدراسات الحديثة
76	<u>المبحث الرابع: تعريف الكناية</u>
76	المطلب الأول : التعريف المختار للكناية
77	نقد تعريف الشيخ عبد القاهر
77	نقد تعريف السكاكي
78	نقد تعريف القزويني
80	اختيار تعريف السكاكي
81	المطلب الثاني : علاقة الكناية بسائر الأنواع البلاغية
81	الصنف الأول : ضرب منفصل عن الكناية وأهمه المجاز اللغوي والتورية
81	أولاً- علاقة الكناية بالمجاز اللغوي
82	ثانياً- علاقة الكناية بالتورية وما وراءها
85	الصنف الثاني : ضرب يصدق في بعض صوره على الكناية وهو أعم منها
86	الصنف الثالث : ضرب بينه وبين الكناية عموم وخصوص نسبي
92	الفصل الثاني: الصورة الفنية للكناية النبوية
93	<u>المبحث الأول: مفهوم الصورة الفنية</u>
93	المطلب الأول: تعريف الصورة الفنية
93	أ- الصورة
97	ب- الفن

97	- تعريف الصورة الفنية
99	المطلب الثاني : علاقة الخيال بالصورة الفنية
102	المطلب الثالث: وظيفة الصورة
102	أولاً - في الفلسفة القديمة
102	ثانياً - عند الفلاسفة المسلمين
103	ثالثاً- في الفلسفة الجديدة
104	المطلب الرابع: منهج دراسة الصورة الفنية للكناية
104	1- المنهج الرمزي
105	2- المنهج النفسي
105	- اختيار المنهج النفسي
106	<u>المبحث الثاني: التجسيم في الكنايات النبوية</u>
106	المطلب الأول : تعريف التجسيم وفاعليته
106	أولاً- تعريف التجسيم
108	ثانياً- فاعلية التجسيم
109	المطلب الثاني: نماذج من التجسيم الكنائي في الحديث النبوي
109	أولاً - تجسيم المشاعر النفسية
109	- الكبر والتواضع
124	- تجسيم السماحة والحرص
129	- تجسيم التأثر والتحجر
134	- تجسيم الجوع والشبع
137	- تجسيم الاهتمام والإعراض
145	ثانياً - تجسيم الأفكار العامة
145	- تجسيم الرحمة الإلهية
148	- تجسيم ذهاب المكانة والأمر
152	- تجسيم القهر والغلبة

155	- تجسيم القضاء
158	- تجسيم الشهرة
163	<u>المبحث الثالث: التشخيص في الكنايات النبوية</u>
163	المطلب الأول : تعريفه التشخيص وأقسامه
163	أولاً- تعريف التشخيص
164	ثانياً- أقسام التشخيص
165	المطلب الثاني : منزلة التشخيص من الكنايات النبوية
166	أولاً- تشخيص الجماد
169	ثانياً- تشخيص المجرد
179	الفصل الثالث: اللون والحركة في الكناية النبوية
180	<u>المبحث الأول : اللون في الكناية النبوية</u>
181	المطلب الأول : الكنايات اللونية
181	1- اللون الأبيض
185	2- اللون الأسود
194	3- اللون الاحمر
198	4 - اللون الأخضر
201	5- اللون الأصفر
208	6- اللون الأزرق
215	المطلب الثاني: الكنايات الملوّنة
223	<u>المبحث الثاني : الحركة في الكناية النبوية</u>
223	المطلب الأول : الكنايات الحركية
223	أ- أنواع الكنايات الحركية من حيث ارتباطها بالجسم
223	1- إشارية (لغة الجسد)
225	2- غير إشارية
227	ب- أنواع الكنايات الحركية من حيث العدد
228	1- مفردة

229	2- مركبة
233	3- اهتزازية
235	ج- أنواع الكنايات الحركية من حيث السرعة
236	1- رشيقّة سريعة
238	2- بطيئة ثقيلة
239	هـ- أنواع الكنايات الحركية من حيث القوة
239	1- عنيفة
241	2- ضعيفة
244	و- أنواع الكنايات الحركية من حيث الاستمرار والتعاضد
244	1- منقطعة
245	2- ممتدة
248	3- متنامية
249	ز- أنواع الكنايات الحركية من حيث الشكل الهندسي
249	1- أفقية
251	2- شاقولية
252	3- دائرية
254	المطلب الثاني : الكنايات المتحركة
254	حركة تحس بالتوقع
256	حركة يصّرّح بها
258	الفصل الرابع : علاقات الكناية النبوية
259	<u>تمهيد في العلاقات ومناهج دراستها</u>
260	أ- المنهج الوصفي
261	ب- المنهج التفسيري
262	<u>المبحث الأول: علاقة الكناية النبوية بالتركيب اللغوي</u>
263	المطلب الأول : علاقة الكناية بالمعنى
264	المطلب الثاني : علاقة الكناية بمعنى المعنى
266	المطلب الثالث: مشكلات التركيب في البلاغة التقليدية ودفعها عن الكناية
266	الأولى - مشكلة الرؤية الثنائية

267	الثانية - مشكلة المشابهة
268	الثالثة - مشكلة البناء المنطقي
269	الرابعة- مشكلة الجمود
271	<u>المبحث الثاني: علاقة الكناية النبوية بالإيقاع</u>
272	المطلب الأول: تعريف الإيقاع
275	المطلب الثاني: إثبات الإيقاع في اللغة العربية
282	المطلب الثالث: ملائمة إيقاع الكناية النبوية للفكرة العامة
282	- الملائمة في الموافقة
282	- الملائمة في المعاكسة
283	- علة التناسب بين الإيقاع والفكرة
285	المطلب الرابع: عناصر الإيقاع في الكناية النبوية
285	1- صفات الحروف
285	2- الحركات والسكنات
286	3- المدود
287	4- الرسم
288	- مثال يطبق عليه جميع عناصر الإيقاع
294	<u>المبحث الثالث : علاقة الكناية النبوية بالطبيعة</u>
294	المطلب الأول: نظرة القرآن والحديث والأدب إلى الطبيعة
296	المطلب الثاني : وظيفة الطبيعة في الكناية
296	أولاً - التفسير
298	ثانياً- التأثير
299	المطلب الثالث: تنوع المشاهد الطبيعية في الكناية
299	المشاهد الثابتة
299	المشاهد التمثيلية
299	المشاهد الرمزية
299	- مثال زاهر بالطبيعة من الكنايات النبوية

303	<u>المبحث الرابع: علاقة الكناية النبوية بالبيئة</u>
301	المطلب الأول: علاقة الأدب بالبيئة
302	المطلب الثاني: الخصوصية البيئية في الكناية
306	المطلب الثالث: فاعليّة الكناية البيئية النبوية واستمرارها
310	<u>المبحث الخامس: علاقة الكناية النبوية بالمبدع</u>
310	المطلب الأول: المبدع في النقد الأدبي
310	أ- المبدع في البلاغة والنقد الأدبي عند العرب
311	ب - المبدع في النقد الأدبي الحديث
314	ج- وجهة نظري في قضية المبدع
316	المطلب الثاني: الصديق الفني للمبدع في الكناية النبوية
318	- أدلة الصديق الفني في الكناية النبوية
320	- الاستئناس بالصديق الفني لتمييز الروايات
321	المطلب الثالث: دلالة الكناية النبوية على الانشغال الفكري للمبدع
326	<u>الفصل الخامس: أغراض الكناية النبوية</u>
327	<u>تمهيد في أغراض الصورة</u>
330	<u>المبحث الأول: الأغراض التهذيبيّة للكناية النبوية</u>
333	المطلب الأول: التهذيب الاجتماعي في الكناية النبوية
334	المطلب الثاني : التهذيب الجنسي في الكناية النبوية
338	<u>المبحث الثاني : الأغراض الترغيبية للكناية النبوية</u>
338	المطلب الأول: الترويح بحظ النفس
341	المطلب الثاني : التحبيب
342	المطلب الثالث: التسلية
345	المطلب الرابع : تعظيم المصاب لتعظيم الجزاء
347	المطلب الخامس : التبشير .

352	<u>المبحث الثالث : الأغراض الترهيبية للكناية النبوية</u>
352	المطلب الأول: التخويف بإظهار نتيجة الفعل المرهَّب منه
353	المطلب الثاني: الوعيد
357	المطلب الثالث : التقبيح
363	المطلب الرابع : الترويع
370	<u>المبحث الرابع: الأغراض الفنية للكناية النبوية</u>
370	المطلب الأول: الاقتصاد.
380	المطلب الثاني : المشاكلة
383	المطلب الثالث: الموازنة الفنية
385	المطلب الرابع: التخصيص والاحتراز
386	المطلب الخامس : التهوين
389	المطلب السادس : المواساة
390	المطلب السابع : التأكيد
395	<u>الفصل السادس: أثر الكناية النبوية في الاستنباط</u>
396	<u>المبحث الأول: تأصيل الاستنباط الكنائي</u>
396	المطلب الأول: تعريف الاستنباط
398	المطلب الثاني: أنواع الاستنباط من النصوص
389	المطلب الثالث: اعتبار النبي صلى الله عليه وسلم للاستنباط الكنائي
401	المطلب الرابع : تأثير الاستنباط الكنائي في أصل التكليف
404	المطلب الخامس: طرق التأثير الكنائي في الاستنباط
408	<u>المبحث الثاني: أثر الكناية النبوية في الاستنباط العقدي</u>
408	المطلب الأول: الكناية ونزول عيسى عليه السلام
412	المطلب الثاني: الكناية وخلق أفعال العباد
417	المطلب الثالث: الكناية وقانون الأسباب والمسببات

428	المبحث الثالث: أثر الكناية النبوية في الاستنباط الفقهي والأخلاقي
428	المطلب التمهيدي: تعريف الفقه والأخلاق والصلة بينهما
431	المطلب الأول: أثر الكناية في الاستنباط حين لا تتعين
431	- المثال الأول (يسرق البيضة فتقطع يده)
438	- المثال الثاني (الحمو الموت)
439	المطلب الثاني: أثر الكناية في الاستنباط حين تتعين ثم يختلف توجيهها
439	- المثال الأول (فاضطروءه إلى أضيّقه)
443	- المثال الثاني (فلم يعرفوها)
455	المبحث الرابع: أثر الرواية بالمعنى في الاستنباط الكنائي
455	المطلب الأول: الرواية بالمعنى والاحتجاج بالحديث في اللغة
455	أ- حكم رواية الحديث بالمعنى
457	ب- الاحتجاج بالحديث في اللغة
463	المطلب الثاني: نماذج من تحيّر اللفظ وتأثيره في الاستنباط
463	الصنف الأول- أن تُحذف الكناية جرّاء اختصار الحديث
469	الصنف الثاني - أن يُصرّح بالملزوم، ويُضرب على اللازم
473	الصنف الثالث- أن يُستبدل شيءٌ ضمن الكناية مع بقاء اللازم والملزوم
477	الخاتمة
482	الفهارس العلمية
483	1- فهرس الآيات الكريمة
487	2- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
494	3- فهرس الكنايات النبوية
500	4- فهرس الأعلام
531	5- فهرس المصطلحات
536	6- فهرس التحقيقات
570	7- فهرس الأشعار

580	8- فهرس الأمثال
581	9- فهرس المصادر والمراجع
607	10- فهرس الموضوعات

تمت بحمد الله